@ketab_n
Follow Me
11.9.2015

تيسا كورْبَر

ملكة القوافل

آداب

رواية

ترجمة
الدكتور غازي شريف وبشّار لؤلؤة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

EAST WEST PUBLISHING
شرق غرب للنشر

تيسا كورْبَر

ملكة القوافل

رواية

ترجمة

الدكتور غازي شريف وبشّار لؤلؤة

تحرير

أحمد بزّون

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

EAST WEST PUBLISHING
شرق غرب للنشر

Twitter: @ketab_n

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:

Die Karawanenkönigin
Tessa Korber

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها من الناشر:

Copyright © Pendo Verlag AG Zürich 1998
All rights reserved
Arabic Copyright © East West - Diwan Al-Masar 2009

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى، 2009م

ISBN: 978-9948-15-210-1

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع الحقوق محفوظة للناشر

International Media City
East West - Diwan Al Masar
Publishing House
Building No. 02,
Second Floor,
Open Office No. 63
Dubai - United Arab Emirates

مؤسسة شرق غرب ـ ديوان المسار للنشر
مدينة الإعلام العالمية ـ البناية رقم 2
الطابق الثاني ـ مكتب رقم 63
دولة الإمارات العربية المتحدة ـ دبي

التوزيع في العالم العربي:
مكتبة ديوان
شارع الحمرا الرئيسي
بناية رسامني ـ ط 5
لبنان ـ بيروت
eastwest@diwanalmasar.com
www.diwanalmasar.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت: نيل وفرات.كوم:
www.neelwafurat.com

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ومؤسسة شرق غرب ـ ديوان المسار للنشر غير مسؤولتين عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء المؤسستين.

Twitter: @ketab_n

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكرُ العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلى العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً

Twitter: @ketab_n

العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

Twitter: @ketab_n

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموّه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

Twitter: @ketab_n

المدخل

هـا أنـتَ ذا، يـا صديقي. مـا كان يريـد زوجي بدايـةً أن يفصـح لي عن مكانك، فهو فعلاً لا يؤمن إلا بضعف النساء؛ وهو لا يعرفني حق المعرفة.

لكـن هذا المكان يروق لي. ما أعمق السـكينة بين السـرو، يخمد ورقُه الشوكيّ وقعَ الخطى، وما أروع دفء الشمس، تنثال أشعّتها على الحجر. لقد قطفتُ لك باقةً من أعشـاب الربيع، يفوح أريجها في هذه السـاعة من النهار، ومع ذلك، هو أخفّ حدّةً ممّا كان في حديقتنا السرّية على ضفّة النهر...

ها قد مرّ ما يزيد على اثني عشـر ربيعاً، منذ أن كنّا نندسّ معاً في حدائق النخيل، ناحية خلوتنا للسباحة. ما زلتُ، تصوّرْ، لا أتقن السباحة البتة. كدتُ أغرق يوم فراري عبر الفرات، لولا أن جندياً روميّاً انتشـلني ممسكاً بشعري. ولمّا جاء يومنا هذا، فإن عليّ أن أكون ممتنّةً له.

لو كنـتَ تراني، يا صديقي. لقد غدوت سـيدة روميّة حتى الذروة، بدءاً من تسـريحة شعري وانتهاءً بصندلي المضفور بالذهب. يوم التقينا أول مرة، مشـينا حفاةً، هـل تذكر؟ يا لَـلاّت، إلهتنـا العظيمة، كم تسـارعت الأحداث منذئـذ! مـع أني ما زلت أجهل ما حصل لك في حكايتنـا – ويبدو لي أني لن أقف على ذلك يوماً.

ها قد تقصّيتُ أثر ابنتك. لا تقلق عليها، فهي بخير بحسـب الأنباء. وما دمت وجدتك الآن، تستطيع أن تعتمد عليّ.

أكاد لا أصدّق أنّ رفيق طفولتي الصغير غدا أباً. أنت الذي ظللت عندي طفـلاً وحسـب، ولم يخطر في بالـي يوماً أنّ ذلك قد يزعجـك. أتذْكُر كيف كنت يومئذ تركض دوماً وتتبعني، يوم كنا نهيم على وجهينا في المدينة؟ لَكَمْ

Twitter: @ketab_n

مـرّت سـنون لـم تخطر فيها تلك الأيام في بـال! آه، يا (أودو)، أنّى كان لي أن أدرك أنـك سـتموت من أجلي في يـوم من الأيام؟ كانت تلـك ألعاب أطفال وحسب-

حتى بلغنا حينها سوق الخيل ذاك، في تدمر...

Twitter: @ketab_n

1

المدينة

نزهة سرّية

توقّف العجوز برهةً عن سرد حكايته حتى يتيقّنَ من انتباه مشاهديه. جلس من دون حراك على مِطْرفه المنسوج من شعر الماعز، وانتظر حتى غطّى الصمت سوق تدمر بثقله الذي يشبه ثقل القطرة وهي تجهد للخلاص من حافة الكوب. ثم استأنف أغنيته الشجية:

«... وافترشت زينب ذراعَيّ خِلِّها. رفعت عينيها السوداوين نحوه، وتوسّلت إليه بصوت فضي: دعنا نهرب، يا حبيبي، دعنا ننطلق على الفرس صوب الصحراء، كي لا يجدنا الملك الشرير...».

أصغت الفتاة ذات الشعر المجدول بالأشرطة الملوّنة مأخوذةً، فلا ريب من أنّ قصّة زينب كانت حكايتها المفضلة. لكنها ما لبثت أن وجدت نفسها تُنَحّى جانباً، ومعها صندوق الفستق الذي اتخذت منه مقعداً لها، وقد انزرع أمامها درعان لساقيّ ضابط روميّ فحجبا رؤيتها.

«هيه، يا هذا، يا آكل التمر، لماذا لا تتكلم اللاتينية كي يفهمك الإنسان المتحضر؟»، سخر من الراوي بصوت جهوريّ، ولعلع ضَحِكُ زميل للضابط، فعلت همهمةُ الجمهور تبرّماً، لكن من دون أن يقف أحد بوجه الروميين.

«يجلس القرفصاء هنا على فضلات الجِمال المتراكمة، حتى أنّ المرء

Twitter: @ketab_n

لا يرى الأرض، الأرض الروميّة، هذا ما يودّ الجميع تناسيه هنا...»، وضحك الروميّان ضحكةً صفراء.

انسحبت زنوبيا من مكانها المفضل وهي تستشيط غضباً. لم تكن الوحيدة في تدمر التي سئمت تماماً مظاهر فوقيّة جند الروم المرابطين فيها. آكل التمر، أف! بصقت نواة تمرة صوب بطة ساق الضابط واختفت بين الجموع قبل أن يلتفت. لكن إلى أين الآن؟

في خضمّ الناس الذين ملأوا الشوارع قاصدين مبتغاهم، بدت هي الوحيدة من دون وجهة. هل تمضي إلى دكاكين التجار وصبّاغي الأقمشة؟ لا، لم يكن هناك أي جديد اليوم. لكن نظرة مسترَقة نحو داخل مكتب (كلَيمَنس) لتجارة الحرير أظهرت لها أن صديقها (أودو) ليس هناك. تملّك زنوبيا الخوف من أنها جازفت عبثاً في الإقدام على هذه النزهة السرّية.

أزفت الظهيرة، وبلغ القيظ أوجه بين أروقة المرمر الضخمة. أخذت أطراف الأحجار الزاهية تومض، وصارت زرقة السماء المعدنية تسطع في الصحراء. امتزجت روائح السوق وروث الماشية والبخور والعرق والفواكه المختمرة بزنخ الذبائح وعطر الأعشاب امتزاجاً مدوّخاً، من شأنه أن يجعل المرء، في قيظ هذه المدينة، يستسلم للنوم في الساعات التالية. لكن أصداء أزقة السوق ظلت ترنّ في أذنيّ زنوبيا.

ما لبثت الجموع أن اهتاجت فجأة. علت صيحات الإنذار، وشرد قطيع ماعز مفزوع على مقربة منها، حتى أن رائحته غمرتها. عندها رأت فرساناً يسوقون الناس أمامهم في الأزقة. لمع الغبار الذي أثارته حوافر الخيول تحت أشعة الشمس. تراكض الجميع صارخين في اتجاهين، فيما اندفعت زنوبيا بين الأجسام المتقهقرة، وتمكّنت من اقتناص نظرة إلى كتفين عريضتين وعباءة من جلد النمر. صدر عن جواد فحل زَبَدٌ يرغي في كل اتجاه، ولمعت خوذة ذهبية مسرعة، ثم ما لبث أن لفّ المكانَ صدى وقع الحوافر. هو ذا الأمير، همس أحدهم، أمير تدمر الذي عاد من الجبهة لأن زوجته تعاني آلام المخاض. صدرت هتافات ابتهاجٍ متفرّقة. وقفت زنوبيا برهةً مستغرقة في أفكارها.

Twitter: @ketab_n

التقطت حفنة من العنب من فوق عربة متداعية وهي تندفع صوبها، وصَرَّتها في شالها ثم هربت صوب الظل الأزرق لعمود منقوش وفّر حيّزاً من البرودة والهدوء وسط السوق. أسندت ظهرها وراحت تراقب، بعينين نصف مغمضتين، موكبَ التجّار والمشترين واللصوص والمتنزّهين الذين عادوا إلى حراكهم وكأن شيئاً لم يكن.

ثم التفتت إلى ما سرقته، وفرشت حبات العنب في حضنها، وأخذت تمسحها حتى صارت تلمع كلها كالزجاج. وضعت الحبة الأولى في فمها، ثقبت القشرة على مهلٍ، وقبل أن تمضغها سالت العصارة الحلوة في فمها.

ذكّرها هذا الفارس بفارس آخر كانت قد رأته قبل عام في سوق الخيول والجِمال الكبير، الذي تقيمه عشائر الجبال، لاجتذاب تجّار القوافل. رمت حبة عنب على الرصيف المرمري، فتدحرجت حتى غابت عن بصرها. أما هي، فراحت تستعيد في مخيّلتها كلمات الحكواتي، وتستغرق في حكاية الأميرة زينب وأميرها الشجاع.

تمثّلتْ في مخيّلتها صورة وجه يافع شرس. آه، هذا وجهٌ ذهبيّ داكن لنجل ملك، ذي فم قاسٍ وعينين متوحشتين، كانت قد رأته في سوق العام المنصرم، يوم سيقت القطعان خارج البوابة في زوبعة من الغبار والضجيج. كان يضحك ويبرق بالسوط، يغيب تارة ويظهر تارة أخرى، وسط أجسام الخيول التي كانت تضرب الأرض بحوافرها. راحت تركض وراءه، بمحاذاة القطيع وضجيجه، وظلت ترنو إليه ما استطاعت. ثم كان أن امتصّت المدينة كل هذه الحيوية وابتلعتها.

لم يجب عن تساؤلها أحدٌ، إذ لم يعرفه أحد من تجّار السوق. لا بد أنه ينتسب إلى قبائل الجبال. مَن هو؟ ما اسمه؟ حين كانت تتقلّب في الفراش ليلاً تخيّلت لنفسها جواباً. ومنذئذ لا أحد ينتظر سوق الخيل السنوي بنفاد صبرٍ أشدّ من زنوبيا، إبنة النبيل زنوبيوس، آمر حرس مدينة تدمر.

ظلّت تمضغ وهي مستغرقة. هزّت رأسها ذا الشعر الميدوزي، بما تبقّى من الضفائر التي كانت تصرّ مربّيتها أن تجدلها لها كل صباح، بعكس التقليد الروميّ المتّبع في المدينة، لتميز فتيات الأشراف غير المتزوجات.

Twitter: @ketab_n

رغـم ذلك كانت في أحلامها أميرةً تُلبِس سـيد أحلامها- بلا تردّدٍ- زيَّ أميرٍ بدوي: عقالاً مذهّباً وعباءةً من جلد النمر.

«دعنا ننطلق على الخيل، يا حبيبي»، أنشدت بخشوع، وتدحرجت حبة عنـب أخـرى صوب الحبّات التي سـبقتها، تبعتها بعينيها عبر شـقوق المرمر الفاتح اللون وتصدّعاته، حتى بلغت العمود المقابل وانزلقت عنه...

بـدا والدها واقفـاً هناك. أرجعتهـا الصدمة إلى الوقـت الحاضر. كانت أصابعها دبقة وسـترتها متّسـخَة؛ عليهـا ألاّ تكون هنا، ولو علـم بما تفكر فيه لعاقبها. ضمّت ركبتيها إلى صدرها وهي ترتجف. كان قد عرف عن تطوافها مرة. وتذكّرت زنوبيا، أيّما تذكّر! كيف أشاح بوجهه، وهو يعدّد لها خطاياها، كي يضربها شـقيقها على ظهرها بالخيزرانة عشـر مرات عن كل خطيئة. فهي لم تنسَ كم كان يستمتع بذلك.

«لكنـه يجهل ما أفعل الآن». نظـرت زنوبيا بعناد متزايد إلى تمثال أبيها، الـذي كان ينظر ببرود، صارماً ومـن دون حراك، تماماً كحاله عندما كان يأمر بمعاقبتها كي يكّرس سلطته عليها.

«وهـو لا يراني»، أضافت منزعجة بصوت مسـموع، ورمت بشـدّة حبة عنب أخرى صوب الحبّات.

«حيّتك الإلهة، يا زنوبيا. لماذا تفعلين هذا؟»، نظر (أودو) بأسف وحَيْرة إلى الفاكهة.

(أودو)! آه، مرحى! قامت وهي تتنفّس الصعداء.

كان هـذان الطفلان مختلفَين أيّما اختلاف. فقد كان (أودو) من الرقيق، ويصغرها بعامين، وقد تمّ بيعه كسـلعة مؤخراً، بعد أن اسـترقّه بضع عشرات مـن الغوطييـن مـن حوض الدانـوب. وقف يومهـا على منصة سـوق الرقيق وقـد بلغ منـه الهزال والإرهاق. كان غلاماً صغيراً أشـعثَ بأمسّ الحاجة إلى الاغتسال، وقد برز لوحا كتفيه كطرفي الجندب.

ولكـن، بينمـا كان يمضغ الخبـز الذي أعطاه إيّاه أحدهـم، ظهرت على محيّـاه مـن جديد علامـات الفضول تجـاه محيطـه الغريب. وبينمـا ابتدأت المزايدة عليه في صفوف الحضور اجتذب نظرَه مشهدُ جَمَلٍ مرّ بالقرب منه،

Twitter: @ketab_n

ولم يكن قد رأى جَمَلاً من قبل. راق للآلهة ألاّ تسلبه طريقته الرقيقة الجريئة في التعامل مع كل الناس والأشياء. ويوم رأى زنوبيا تتمشى في أزقّة سوق الذهب كانت سترتها الثمينة مربوطة حول خصرها، وكان رأسها الصغير مرفوعاً بإباء وشمم. وبدت له كأنها ملكة الأرانب ذاتها، وهي في قصص بلاده الصيّادة المستوحدة التي كانت تظهر تارة للبطل الشجاع وتارة لِمَن سيطويه الموت. فما كان منه إلاّ أن جرى نحوها وتبسّم لها بملء فيه.

لم تكن زنوبيا قد رأت زُرقة في عينيّ أحد كتلك التي تألّقت في عينيّ هذا الغلام. كانتا زرقاوين كسماء الظهيرة حين تنعكس في ينبوع (يَفتا)، كما كانتا تضيئان بإعجاب صافٍ صريح. ومنذ تلك اللحظة صار (أودو) تابعاً مخلصاً لها في تطوافها.

«دعنا نذهب إلى المعبد».

«لكن لِمَ...؟».

«هذا المكان مملٌّ، تُرى هل تعرف مكاناً أفضل منه؟». هكذا وضعت النزر اليسير المتبقي من العنب في يديّ (أودو) وانطلقت راكضة. وبما أنهما كانا بالطول نفسه، فقد أخذا يلعبان لعبة السمك، وهي عملية تحتاج إلى مهارة، حيث تتطلّب أن يشقّا طريقهما في زحمة الجموع بإيقاع منتظم ومن دون تعثّر.

هكذا تركا قوس النصر الثلاثي إلى يسارهما، مروراً بالثكنة الروميّة وحمّام المدينة، واجتازا حيّ صبّاغي الأقمشة، حيث كانت تتماسّ فوق رأسيهما أطوال الأقمشة بفعل الريح. أبطأت زنوبيا وقع خطاهما. نظرت إلى أعلى نحو القماش الذي بدا وكأنه ينساب مع الريح. كان ثمة نيل وزعفران في أحواض الصبغ ذلك اليوم. أخذت، على حين غرّة، تدور في دوامة رويداً رويداً، ناسيةً نفسها، وقد تملّكها الفرح.

«(أودو)، آه يا (أودو)، ما أجمل ذلك، أنظر، ما أجمل ذلك. أريد أن أحلّق عالياً، أريد أن أسبح في الهواء، أريد قوس قزح من حرير لي وحدي كل يوم». ظلت تدور في دوامة من دون أن تنظر إليه. أمّا (أودو) فكان له رأي مغاير. كان سيده، (كلَيمَنس)، ذلك التاجر المسيحيّ من أحد الأقاليم

Twitter: @ketab_n

الإيطاليـة، يوفّـر له تدريبـاً يخوّله أن يكون مسـاعداً في تجـارة الحرير، التي استقطبت هذا التاجر أصلاً في مدينة القوافل هذه. كانت تدمر على الحدود الشـرقية للدولة، حيث كان السـوريون والإغريق واليهـود والعرب والفُرْسُ يتبادلون سلعهم بسلام. لذا كان يعدّ نفسه مختصّاً.

«لقد كاد الحرير ينفد لدى سـيدي (كليمَنْـس)، إذ أغلق الفُرْس الطريق شرقاً في وجه القوافل بسبب الحرب مع الروم. هل تَمَسّنا الحرب نحن أيضاً يا زنوبيا؟ ألا تدمر جزءًا من أرض الروم؟».

«نقاتل؟ من أجل الروم؟».لم تسمع زنوبيا يوماً كلاماً أكثر إثارة للسخرية مـن هذا. تداعـت إلى ذهنها صـورة الضابط الروميّ الذي أهـان الحكواتي. نقاتل من أجل ذلك الجِلْف؟ لا بدّ لها أن تضحك.

«كفى. لا تعود تدمر لأحد! واللاّت تحميها، إلهة الحرب عند شـعوب الصحـراء. متّع ناظريك بهذا البحـر». وأخذت ترقص تحت الأعلام الزرقاء فوقهما، التي كانت تتناقض بحدة مع ألوان الحي الباهتة المغبرّة.

«تدمر هي الأجمل، هي ملكة طرق القوافل، وأنا ملكة تدمر».

* * *

كان أكبر ملاعبها حَرَم (بَعْل)، الذي يقع في أقصى الجنوب الشرقيّ من المدينة. إذ ينحسـر هنا ضجيج الشـوارع، وتعمّ خشخشة النخيل وتموّجات الرمـال الناعمـة، التـي تحرّكها الرياح صوب سياج الكتـان المضفور حول الحدائـق. وكالعادة دخلاه باعتـلاء العتبات ذات الطابـع الإغريقيّ، وصولاً إلـى الباحة الشاسـعة المسيّجة التي كان بياضهـا يلمع أمامهما تحت أشـعة الشمس. كان المعبد مكعّب الشكل، مشيّداً وسط الباحة، ومحاطاً بالأعمدة. ومـا فتئ يجتذبهـا بزخارفه الباذخة علـى هيئة أزهارٍ ملوّنة وبـأوراق التيجان البرونزيـة، كمـا بألوانـه المختلفة واتّسـاعه الهائل المليء بالمتاهات، هذا، إلـى جانب كونه محرّماً. توقـف الاثنان عند المدخل فجأةً، إذ تبدّى لهما في البعـد، بين صفـوف الأعمدة، بعض رجـال المجلس الكهنوتـي الذين كانوا يتجوّلـون عابرين قطّاعـات الضياء والظلال في المبنى، وهم منغمسـون في

Twitter: @ketab_n

حديث عميق لم تتناهَ منه أية كلمة إلى سَمْعَي الطفلين.

أشارت زنوبيا إلى (أودو) أن ينسلّ إلى جانبها عند طرف المذبح، الذي وفّر لهما وسط الباحة شيئاً من الحماية، وراحا يراقبان مجموعة الكهنة من فوق المذبح. ساد صمت مطبق لم يتخلّله إلاّ أزيز ذباب الرِمَم الملوّن وصوت سحج الرمل تحت خطواتهما.

«حين ينعطفون سنركض قاطعين الباحة. وسأعطيك إشارة».

«حسناً»، قال (أودو) مومئاً، ولم تكن هذه اللعبة قد تملّكته مثلما تملّكت زنوبيا. «انظري، ثمة مسكوكات على الأرض». بهذا التقط بضعةً من مسكوكات الطين المفخور، التي كانت العملة المتُداولة في المدينة، يُدفع منها مقابل حضور طقوس ولائم الأضاحي في المعبد، وأخذ يقلّبها بين أصابعه. «هذه من فئة الغزال، ولديّ منها. هل أنتِ في حاجة إليها؟».

«دعني أرَها. لا، فهي ليست من الجَمال في شيء. انتظر حتى يحين وقت السوق السنوي، عندئذ سيتمّ سكّ قطع جديدة». فخطر في بال (أودو) سؤال:

«أصحيح أنكِ ستشتركين هذا العام في القدّاس الكبير على حافة الينبوع، جنباً إلى جنب مع الكاهن؟». هزّت زنوبيا كتفيها وحسب، إذ لم يكن هذا الموضوع يهمّها كثيراً.

«ها قد ذهبوا. انتبه: الآن!».

جمع الاثنان سترتيهما استجابة لهذا الأمر، وانطلقا عبر الباحة عديمة الظلال حتى بلغا المدخل الكبير. ثم زحزح (أودو) بأصابعه حجراً من البوابة كان يلمع في الشمس، ودخلا ظلمة المعبد النتنة، حيث لا صوت إلاّ صوت لُهاثهما. سقط شيء من الضوء من خلال بضعة نوافذ ضيّقة في أعلى المبنى بمحاذاة السقف. تراقص الغبار بصمت في قطّاعات الضوء المتوازية. بدا الهواء عتيقاً عتق الجدران ذاتها، ولم يوفّر لهما أيّ إنعاش مطلقاً.

كان الطفلان يعرفان وجهتهما تمام المعرفة. ثمة درج لولبيّ في المزار الجنوبيّ تغطيه تماماً ستارة جلدية متيبّسة قديمة، هذا الدرج يفضي إلى مخبئهما المفضّل، وهو مخزن شبه منسي في الطابق الثاني، الذي يفضي

Twitter: @ketab_n

بدوره إلى سطح المعبد. صعدا إلى غرفتهما بعد أن أزاحا جانباً يداً بيد جلد الجَمَل، محاذرين النظر صوب تماثيل ثالوث الآلهة في أضرحتها الخشبية. وكان في غرفتهما الكثير من الصناديق والسجاجيد والمخدّات الجلدية والجرار الفخارية والسلال القديمة للتحميل، وأمتعة أخرى كثيرة، تكفي لبناء عشٍّ من دون إزعاج من أحد. إلا أن ثمة أصواتاً غير معتادة هذا اليوم. إذ تناهت إليهما خشخشة وتأوّهات من الغرفة، ما جعلهما يختبئان خائفَين وراء إحدى العربات المتروكة. ومرّت برهة وجيزة قبل أن تتجرّأ زنوبيا وتختلس النظر من بين ستائرها المغلقة.

تمدّد رجل على سرير مغبرّ في الزاوية إلى اليسار من الشباك، الذي بدا وكأنه يجتزئ قطعةً شبه بيضاء من السماء وصورةً مصغّرةً عن روضة نخيل في البعد اللامتناهي. كان الرجل عارياً وأملسَ تماماً، على نحوٍ أعجب زنوبيا وأثار فيها الرغبة في لَمْسه. وكان ثمة شيء تحته يكاد يلقيه أرضاً كلما حاول أن يتحرّك فيحجم عن ذلك. لم تتمكن أن تدرك ماهيّة ذلك الشيء، لكن حين تدلّت ساق ناصعة البياض، لا تعود له، من منصب السرير الخشبيّ، استحوذ على أحشائها شعور لا قرار له ولم تعرف له سبباً. كان منظر الساق وهي ترتفع وتلتفّ حول ظهر الرجل، وكأنها تفعل ذلك من دون إيعازٍ من أحد، ساحراً وغريباً في آن. لمعت بشرة إبطيه وباطن ذراعيه الناصع البياض من ظلمة الزاوية، بينما ظلت حدود عَجُزه ترتفع وتنخفض أمام الشباك. نظرت زنوبيا إلى تكوّر مفصل وركه القوي، حيث تبتدئ ساقاه. كان يمكن للمرء أن يُلبس كفّاً مقعّرة على ذلك التكوّر. كان الهواء في الغرفة فاتراً تشوبه رائحة عابقة. ثمة صوت يبدو كأنه مرتبط بما يحدث، يشبه أنين طفل مكمّم، بيْد أنها كانت تعرف أن الأمر لم يكن كذلك البتة. جمّدها وقْع الحركة والتأوّه، كما هزهزها إيقاع تنفّس الغرفة ذاتها، لكن لم يكن بإمكانها أن تشيح بوجهها، ولو أن الرقصة هذه لم تكن موجّهةً إليها. ظهر بعد فترة فيض من الشَعر، ظنّته زنوبيا شراريب غطاء السرير المعتم، وبانت من خلاله امرأة. جلس الرجل وارتدى شملة الكهنة، فتبيّن أنه عمّها (نيزا) الذي ما لبث أن نقد الإمرأة بضعة مسكوكات، وتركا الغرفة متعانقَين. فخفّضت زنوبيا

Twitter: @ketab_n

رأسها أكثر، وحبست أنفاسها، لكن من دون داعٍ، إذ لم يرها أحد منهما.

أحسّت زنوبيا بحرارة غامرة، وبدت على خدّيها حمرة الحياء، وهفا قلبها. لم يكن لأحد أن يرغمها على الاعتراف بأن صورة مغايرة تماماً حلّت محل صورة عمّها، وذلك من دون تفسير معقول، ولم تكن تلك سوى صورة الشاب الذي رأته في سوق الخيل. فحاولت أن تتغلّب على هذا السحر.

«(أودو)، يبدو لي...». كانت لا تزال تهمس من جراء تهيّجها، وما كان لرفيقها أن يسمعها في الحالتين، إذ كان قد تكوّر بجانبها في عشٍّ من أغطية قديمة، وكان بفعل المشهد المبهم قد أخذته سنة من النوم.

لا يدرك إلاّ النزر اليسير، أطرقت تفكّر وهي تحدّق بمرارة في ذلك الوجه الطفولي الشاحب المتعرّق إلى جانبها، الذي أخذ يحمرّ من النوم. لم تغفر له زنوبيا أنه ما زال في الحادية عشرة من عمره. قفزت واقفة وركضت نحو الشباك. راحت تتلمّس الحائط الأملس، دون أن يمنح ذلك أصابعَها عديمة الصبر أدنى متعة، إذ كانت فرِحةً لأنها وحيدة، لكن أفكارها كانت، في الوقت ذاته، تقلقها. ليس في الأفق إلاّ المعاد المكرور الكئيب. وقف تحتها في الظل الأول للمعبد بضعة رجال. كانوا يرتدون زي الكهنة ذا الشملة الزرقاء والقبّعة الصلبة العالية المسطّحة القمّة. تُرى هل يتواجد (نيزا) بينهم من جديد؟ أخذت تقهقه ضاحكةً حين خطر لها أنهم سيرفعون شملاتهم كي يفحص كل منهم عَجُزَ الآخر. نزلت عن العتبة كي تلتقط بضعة مسكوكات مفخورة من عند (أودو)، وجعلت أولاها تسقط نحو الجماعة من دون تفكير، لكنها تفتّتت على حائط المعبد دون أن يلاحظ ذلك أحد. أمّا الثانية فقد أثارت غباراً أحمر حين ارتطمت بالأرض. احتّت زنوبيا بهياج انبعث من الباحة للمرة الأولى. ضحكت بملء فيها، وزعقت كأنها جُنّت، وراحت ترمي المسكوكة تلو الأخرى، حتى سقطت الأخيرة على لباد إحدى القبّعات.

تطلّع الجميع إلى السماء الصافية التي خلت من الطيور تماماً. جلست زنوبيا القرفصاء تحت عتبة النافذة وقد أيقظها الهلع، وهي تنظر في وجه (أودو) المتخدّر. آه يا لَلآلهة، حقاً على كل منّا الآن أن يعود إلى داره.

Twitter: @ketab_n

فَرِّقْ تَسُدْ

أشـرقت الشـمس بسـرعة على تدمر. تكاد المدينة لا تعرف التدرّج في حلـول الضـوء، ولا عَكَـسَ مرمرها ضـوءًا بنفسـجياً إلّا في ما نـدر، ولبرهةٍ وجيزةٍ وحسب، بينما ظلّ ضوء الصباح الأصفر ماثلاً بين أعمدتها. وسرعان ما تتلاشى ألوان الصباح الخافتة تحت الشمس التي توقد النار في السماء.

تنبسـط المدينـة المسـتوحدة الرائعـة بيـن حدائقهـا وأكـواخ الطيـن المرصوصـة العائـدة للفلاحين، وبيـن بضع روابٍ من لون التـراب، تكاد لا تُـرى إلـى جانب ألوان تدمر الباهتـة، والمضيئة أحياناً، وإلـى جانب الأروقة والمعابـد وصـروح المواكب التي تطغى على كل شـيء. كانـت معالم قصر حاكـم المدينـة (أودَيناتَـوس)، الـذي تـم الشـروع ببنائـه مؤخراً، قـد بانت، وإن كان لا يـزال عبـارةً عن موقع بناء بلون الثلج، بسـبب الرخـام الإغريقيّ المستعمل فيه، وكأنه وسمٌ على سفح الحجر الأساس للمدينة.

تتلاشـى أكواخهـا الطينية المتطرّفة في السـهوب، حيث تقذف صحراء الشرق أولى الكثبان الرملية. ويمتدّ وادي الفرات بمدنه من العصور القديمة بعيـداً إلـى مـا وراء الرمال، كمـا تمتدّ في المسـافة ذاتها إلـى الغرب أراضي سـاحل البحر المتوسط الغنية بالفواكه. في تلك الأراضي تمتد مزارع القمح والزيتون ودوالي العنب، كما تتناوب مشـاتل أشجار المشمش مع فيض من صفوف أشـجار اللوز. لكن هذا كلّه يتلاشـى مع البعد، بما فيه غابات الأرز، قبل أن تتراءى في الأفق سلسلة الروابي التي تحمي تدمر في الشمال الغربيّ، كمـا توفر لها هذه السلسـة مـوردي المـاء ودواب النقل، شـرايين الحياة في محطة القوافل هذه.

استـغنت الطبقـة العليـا الروميّـة، التـي كانت منخرطـة فـي إدارة إقليم

Twitter: @ketab_n

سوريا، عن بناء قصورها في هذه الأرض المقفرة. إذ لم تكن تثق بهذه المدينة المستقلّة إلاّ قليلاً، حيث ظلّت تتوارث حكمَها سلالاتٌ من أبناء البلد، همّشت دور الروم فيها.

في جانب من ضواحي المدينة كانت تقيم قبائل الجبال، بينما تنتصب في الجانب الآخر خيام شَعر الإبل السوداء العائدة للبدو، بينهما امتدّت(پالميرا)- أو تدمر قديماً- مثل زهرة من الزهرات التي تنبثق في الصحراء بفعل الغيث، وتتفتّح مزهوّة ثم لا تلبث أن تذبل. بَيْد أنّ غناها لم يكن ناجماً عن تنوّع المناخ، بل عن ندرة الطرق الموثوقة، التي تمرّ عبرها بضائع الترف من شمال آسيا والصين والهند والجزيرة العربية حتى شواطئ البحر المتوسط، التي تشكّل سوق دولة الروم. تقاطعت بعض هذه الطرق عند واحة تدمر، لكنها لم تكن سوى ممرّات غير واضحة المعالم، لا يرى المرء فيها ما يمكن أن يفضي إلى أراضٍ لم يطأها روميّ أوعربيّ أو أي من أشهر مرشدي القوافل التدمريين، بل ربما حتى الإسكندر المقدونيّ. كانت تلك البلدان البعيدة، حيث الأساطير الغريبة، موطناً للبشر الذين تسرّبوا في الصحاري والجبال، بينما كانت الأيدي تتلقّف بضائعهم العجيبة. فثمة الحرير والبهارات والفواكه المجففة والمجوهرات والفرو والفضة والمرجان والزيوت وحتى الرقيق، كلها كانت تتدفّق على المدينة، التي أخذت تبيع وتشتري، وتستقطع الضرائب، وتصنّع وتتحايل حتى اغتنت.

كانت تدمر تزوّد تجّار القوافل بالماء بأسعار مناسبة، فقد كان ماؤها غايةً في العذوبة- أوَلم تكن هذه الفرصة الأخيرة للتزوّد بالماء قبل دمشق؟- كما كانت تؤجّرهم جِمالها ومرشديها وتضمن لهم مُهادنة جيرانها من البدو، الذين لم يعيروا متطلّبات التجارة اهتماماً يُذكر- للأسف- ذلك أنهم كانوا غير متحضّرين. وما كان بوسع حرس الحدود القلائل من الروم، الذين انتشروا كيفما اتفق على طول التخوم الشرقية، أن يراقبوا كل ما يجري، الآن بخاصة، لا سيّما وأن الفُرْس بدولتهم الكبرى، في تعمّدهم الأذى الذي لعنته الآلهة، كانوا يثيرون الاضطراب في المنطقة، ، يا لَلإله (بَعْل)، على هذا الأساس يهدّدون بإغلاق الطرق في وجه التجار ويعبثون بقوانين السوق

Twitter: @ketab_n

المقدّسة! ولصالح مَنْ؟ لا لصالح تدمر بالتأكيد، التي بات عصب الحياة فيها معرّضاً للقطع في الحرب الدائمة بين الروم والفُرْس.

* * *

«يلتهمون التمر وحسب، يلعبون ألعاباً ويحتالون، ويقطعون الرقاب، رعاة الماشية أولئك ذوو الرائحة الكريهة، حتى شيوخ الطبقة الحاكمة، أولئك بالذات، كلهم أوغاد. أودّ أن أُريهم معنى الشرف لدى الجندي الروميّ، ناهيك عن معنى المسؤولية، فهي ما هم بأمسّ الحاجة إليه، قطّاع الطرق أولئك، الذين ينافقون إذا ما فتحوا أفواههم، نكّاحو الماعز أولئك!».

لم يُصِبْ (دَسيمَوس بومْبَونيوس بالْبُس) راحةً كبيرةً، كما هو واضح، بعد أن صبّ جامَ غضبه على الحكواتي ذلك الصباح. فقد توطّد لديه رأيه هذا الذي يقاسمه إياه كل مواطن روميّ عاقل في هذه البقعة النائية المحاذية لحدود الحضارة الروميّة. وكان يجهر بهذا الرأي باستمرار وبحماسة، تماماً مثلما يفعل اليوم وهو يمشي جيئة وذهاباً في قصر زعيمه الأنيق. ولم تكن هذه الحماسة لتؤثّر البتة في الرقيق الذين وقفوا على جوانب البهو، يرفّهون عن الرجلين بمراوح كبيرة.

راح مضيفه يراقبه بصمت. كان (كُوينتُسْ أيلِيُسْ دَوميتيانُسْ) أرفع مندوبي روما منزلةً في المدينة، ولم يعجبه تصرّف هذا الجندي المتعجرف. فراح يتأمل الحوريّات الراقصات المشكّلات من موزاييك أرض بهوه وهي تنسحق، الواحدة تلو الأخرى، تحت وقْع خطى الضابط الثقيلة، الذي لم يلقِ لهذه المذبحة الصامتة بالاً. ثم وقف الضابط وكأن جزمته تثقب سرّة الإلهة (ڤينوس) تحته، التي ظلّت تبتسم غير مبالية، ممّا زاد من توتّر أعصاب (دَوميتيانُسْ) أكثر ممّا كانت عليه الحال حين ابتدأت هذه الزيارة الخرقاء. وأخذ يجول ببصره صوب المنظر المفرح من خلال النافذة المشرفة على الفنار. كان ثمة رقيق آخرون منشغلين في تقليم شجيرات الخبازى.

«يبدو لي، يا (بالْبُس)، أن أمراً ما يغضبكم».

«يغضبني؟ لقد أصبت، يا (كُوينتُسْ أيلِيُسْ دَوميتيانُسْ)، بل إن هذا أقلّ

Twitter: @ketab_n

ما يمكن أن يُقال».

ابتسم المندوب بشراسة الآن، لكنه استوعب تماماً عدم تذوّق محدّثه لشيء سوى المبالغة. «وفي كل الأحوال تعنّفون (ڤينوس) بأشدّ مما عُرِفَ عن تعنيف زوجها لها، حين ضبطها وهي تخونه».

«ماذا، آه، أجل، حقاً». لم يُبْدِ (بالْبُس) انزعاجه سوى لفترة وجيزة. «والخيانة موضوعنا فعلاً، فقد أصابتني خيانة روما في الصميم، صدّقوني».

أسند (دَوميتيانُسْ) ظهره في مقعده وهو يتأمّل الصفاقة، إذ يرى في مُحْدَث النعمة هذا جوهر روما. «هلاّ أخبرتموني أين كنتم بعد طول غياب؟»، سأله أخيراً وقد اهتاج بعض الشيء. «ما زلتم حلقة الوصل الوحيدة لديّ بجيش تدمر».

«كنت أراقب هؤلاء العرب عن كثب، هؤلاء الأوباش».

«العرب الأوباش؟»، رفع (دَوميتيانُسْ) حاجبيه. «تذكّروا أن بعضهم، من مثل (هَيليوقابال)، وصل إلى سدّة القياصرة». لم يدرك (بالْبُس) المفارقة الكامنة في هذه الكلمات بتاتاً.

«لحسن الحظ ولّى عصر الانحطاط ذاك إلى غير رجعة»، أجاب باقتضاب.

«هذا صحيح تماماً. هل ترغبون في شيء من الخمر؟». بالتأكيد، أطرق (دَوميتيانُسْ) وأخذ يفكر، ومنذ ذلك الوقت صار على المرء أن يتحمّل جنداً مصابين بجنون العظمة يتمّ تتويجهم قياصرة. لا يكاد يرفعهم جندهم على دروعهم مهلّلين حتى يتوجّهوا إلى روما، حيث لا يعمّر معظمهم طويلاً. كان القيصر الحالي، (ڤاليَريان)، قد بايعه جنده في (رَيتِين)، أينما كان ذلك الإقليم، ولم يكن قد أقام في العاصمة سوى أشهر معدودة. في كل الأحوال ليس القيصر جرمانياً، وإن انتشرت عنه شائعات مغرضة هذا مفادها. أمّا أنت، يا صديقي، فلم تَلِدْك امرأة روميّة بالتأكيد.

أخذ (دَوميتيانُسْ) يتأمّل الضابط الممتلئ الجسم ذا الوجه المسفوع بالشمس، الذي كان يحدّق متجهّماً من فوق كوب الخمر. ولم يكن ذهن (بالْبُس) أقلَّ تجهّماً من سحنته، فقد أغضبه تصرّف (دَوميتيانُسْ). وقال

Twitter: @ketab_n

لنفسه مَنْ يدري ماذا يتوهّم هذا المندوب ذو الكلام المعسول لمجرّد كونه من الطبقة العليا؟!

«لقد كنت عند حرس الحدود بسبب إنذارٍ من صديقكم، (أودَيناتَوس)، الذي يسمّي نفسه الآن أمير المدينة بلا ريب. ولذا سيبقى مُحْدَث النعمة عربياً، ولن يسمو على البدو».

عقد (دَوميتيانُسْ) حاجبيه. «ينظّم هذا البدوي ويقود أقوى أفواج الاحتياط المتحالفة مع الروم، وهم سلاح الفرسان. وبحسب معلوماتي فإن جدّه من قبله كان قد مُنح لقب شيخ من الطبقة الحاكمة الروميّة. فضلاً عن ذلك كله، لقد مرّ زمن لم يَرَ فيه (أودَيناتَوس) الفاضل باطن خيمة».

لم يصدّق (بالْبُس) هذا الكلام. وإذا ثبتت صحته، فتلك طامّة كبرى، فهو يدرك بفضل خبرته إلامَ يؤدي غرور أبناء البلد.

«في أي حال، أرسلني ذلك الفتى إلى هناك وبالطبع لم أجد شيئاً: فلا غزوَ فارسيّاً ولا تحركات أفواج ولا شيء مطلقاً. ليس ثمة سوى حشد من الجند المرتزقة، ملؤهم القمل، كانوا منذ زمن قد أقدموا على مقايضة تجهيزاتهم ببضعة ماعز نحيل، وقد حصروا التكلم بلغتهم الأم في ألعاب النرد. يسكنون في أكواخ الطين بجوار حُصونهم ولا يقدر أي خنزير أن يقول مَنْ منهم تفوح رائحته الكريهة أشدّ من الآخرين: هم، أم ماعزهم، أم نساؤهم». تجرّع (بالْبُس) جرعة كبيرة من الخمر. «يصيح أطفالهم بأنهم قادرون على دحر جيش الفُرْس. هذه حال حرس حدودنا الشرقية. وأنا أجثم هنا وليس عندي سوى بضعة نشّابين و(أودَيناتَوس) هذا أينما ولّيت وجهي، الذي يُقال إنه يقهر الفُرْس. يا لَلخرافة! يُقال إن لديه أفواجاً، لكنني لم أرَ لها أثراً. لا يعلم أحد ما يخطط هذا الشخص، يا (دَوميتيانُسْ)؛ تدمر في حاجة إلى جيش يحميها».

لم يبدُ جلياً على وجه المندوب موقفه من هذا التنبيه.

«صديقي العزيز»، ابتدأ يجيب ببطء، «لا شكّ في أن قذارة حرس الحدود ومعنويّاتهم هي في الحالة المتدنية التي تصفون. أشاطركم الرأي في أنهم غير قادرين على الذود عن الحدود، لكن، هل يتوجّب عليهم ذلك؟ لقد

Twitter: @ketab_n

ولّـى العصر الذي كانت فيه روما تحمي نفسـها ضـد أعدائها بإقامة الجدران ونطاقـات الجنود، إذ أصبحت حدودها أطول، ودولتها أعظم من أن تسـمح بذلك، وهذه حالها منذ زمن بعيد. لكن لدى تدمر سـلاح الفُرسـان المتميّز، بغضّ النظر عن كونه قد تأسّـس من دون مسـاعدةٍ منكم، وهو الفوج الوحيد الذي يمكنه أن يقاوم (شـابور)، ملك الفُرْس. أضف إلى ذلك أنه فوج يسدّد ضرائبه ويعلن ولاءه رسـمياً للإمبراطـور (ڤـالَيريان). علينا ألاّ نطالبهم بأكثر من ذلك الآن، إذ ليس بوسعنا أن نرغمهم على تقديم المزيد».

«أف، لقـد دام حالنـا على هذا السـوء زمناً ليس باليسـير. ها هو ذا نجل القيصر يدافع عن الحدود في الغرب والشمال ضد البرابرة...».

«... وهو منهمك في ذلك بما فيه الكفاية. لقد خسـرنا بلاد الغال، هذه الهزيمة وعواقبها تشغله بحدّ ذاتها، وهناك الغوطيّون الذين يحشدون قواتهم بمحاذاة الدانوب كذلك».

«لقد حرّر (ڤـالَيريان) أنطاكية»، أردف (بالْـبُس) مناقضاً إياه.

«وذلك للمرة الثانية على التوالي».

«وهو يقف الآن على أبواب حرّان».

أطـرق (دَوميتيانُـسْ) يفكـر: تدفّق الغوطيّـون كالطوفـان عابرين جبال طـوروس مـن جهـة، بينما اندفـع الفُـرْس عابرين الفـرات من جهـة أخرى، وفاضـت بوابـة أوروبّا الحصينة قبل أشـهر معدودات بأنهار مـن الدم. وكان العالـم، كمـا كان يعرفه، قد تهـاوى، وما كان أمامه ومَنْ معه في تدمر سـوى البقاء في هذه الصحراء ومراقبة ما يدور حولهم- حتى هذه اللحظة.

«مزيداً من النبيذ، أيها الضابط؟».

«تدمـر نقطـة حـدودٍ روميّـة هامـة»، أردف (بالْـبُـس) مـن جديـد، «ولذا...».

«... ولذا علينا ألاّ نقدم على أي إجراء من شأنه أن يثير الانطباع لدى أيٍّ كان أن مصالح روما لا تلتقي مع مصالح أمير تدمر».

«ماذا لو كان هذا الأمير قد توصّل إلى هذا الاستنتاج وانتهى؟ هل خطر لكم ذلك في بال، أيها المندوب؟ تُرى لماذا أرسلني ذلك الفتى إلى الصحراء،

Twitter: @ketab_n

أخذتُ أتساءل وأنا أتململ هناك؟ وصرت أراقب ما يجري حولي».

تلمّس (دَوميتيانُسْ) حدود منحوتةٍ كان قد أخذها بيده كي يخفي اهتمامه المتزايد بالحدث، ثم وضعها على المنضدة من جديد.

«وماذا رأيتم، أيها الضابط؟».

«رأيت نجل زنوبيوس، آمر حرس المدينة، وهو ينطلق على فَرَسه شرقاً في الصحراء نحو الفرات، وكأن شيئاً لم يكن».

«وهل رأيتموه رؤية العين؟».

«إني أعرف فَرَسه».

«رأيتم إذاً فَرَساً تعرفونها وهي تعدو في الصحراء؛ بوسعي أن أتصوّر أن أمراً كهذا من شأنه أن يغضبكم».

«لقد اقتفيت أثر الفارس، ويا لجهنم، لقد رأيت وجهته بأم عينيّ، إذ ما لبث أن بلغ ثلة من الفُرْس، ولم يؤذه هؤلاء البتة. لقد باعنا عربكم النزهاء للملك (شابور)»، قال (بالْبُس) ذلك شامتاً.

أجل، غالب الظن، قال (دَوميتيانُسْ) لنفسه. يا لهذا الحدث المثير للاهتمام!

لقد أراحه هذا النبأ أكثر مما صدمه، وأخذ بدوره يمشي جيئة وذهاباً وقد تنازعته الأفكار. تُرى كم من الوقت مرّ على اتصال بعضهم بالبعض الآخر؟ يرغب أهل تدمر في سلام مع الفُرْس على وجه السرعة من أجل تجارتهم، وهذا واضح. ومن المنطق توسيط (گاش)، نجل الآمر، في هذه المهمة. لماذا لم تخطر في باله هذه الفكرة؟ لقد كان زنوبيوس نسيباً لبني مُطَبَّل، أهم قبيلة في المنطقة. ومعظم المجنَّدين في جيش تدمر ينتمون إلى هذه القبيلة، ومعظم مرشدي القوافل كذلك. ولم يكن (أودَيناتَوس) ليسرّ بولائه إلى الجانب الآخر من دون أخذ موافقة القبيلة...

أصدر ضيفه شخرةً حادةً قطعت عليه صفو تأملاته. ووقف هذا الضيف منتصباً أمام مقعد (دَوميتيانُسْ) الخالي، وقد بانت عليه علامات الابتهاج بعد أن أصاب هدفه المنشود في الصميم.

«يا صديقي المحترم (بالْبُس)، أنتم فعلاً محقّون، لكنكم تقفون مجدّداً

Twitter: @ketab_n

علـى بطن الإلهة (ڤـينوس)». وضع (دَوميتيانُسْ) ذراعه على كتفيّ الضابط. «أرى أن علينـا أن نعـدّ لهـذا الشـاب (گـاش) كمينـاً حين ينطلق فـي المرة المقبلة، وأن، إيه، نقتله، وذلك برمحٍ فارسـيٍّ، هو السـلاح الأمثل. مزيداً من النبيذ؟».

جلـس (بالْـبُـس) وقد فغر فـاه متعجّباً، لكنه أخذ ينصـت. وبعد نصف ساعة وكؤوس عدة أخرى كان قد اقتنع.

«علينـا أن نوقف الخيانة، هذا صحيح تماماً. ليس ثمة أحد جديراً بالثقة غيري بالطبع. سأُري إبن الكلاب العربيّ ذلك».

«ولكـن اعملـوا وحدكـم وبتكتّـم. فـي اللحظـة التـي تكتشـفون فيهـا وقـت انطلاقه لزيارة (شـاهبور) انصبـوا كمينكم خارج الحدود، ولا تنسـوا الحربة».

«سأغرزها في عمقه».

«هدفنـا وقف المفاوضات أولاً، أمّا ما يأتي بعد ذلك فأنا كفيل به». قال لنفسـه إنه سـيتخلّص أولاً وقبل كل شـيء من هذا القاتل الفاضح، فهو يبالغ في الشرب ويثرثر كذلك. تاه في أفكاره وهو ينظر في وجه الضابط المحتقن من الشراب، قبل أن يصبّ له مجدّداً. «إني مدينٌ لكم، أيها الضابط».

تكلّـف الضابـط الابتسـام. لقـد انطلت علـى الرجـل الحيلة فـي نهاية المطـاف. «مـا وثقتُ يوماً بالفتـى (أودَيناتَوس) هذا، فهـو غاية في الطموح. هل رأيتم بنايته الجديدة؟ ستغدو قصراً. ما وثقتُ به يوماً».

«حقّـاً يبـدو أن لـدى صديقنـا خططاً طَموحـة. هل خطر فـي بالكم كم يمكن أن تزداد قوّة تدمر لو هي تحالفت مع قبائل الجبال على نحو أمتن؟».

«هيه؟ إن نكّاحي الماعز القذرين أولئك ليسوا سوى أوباش».

هزّ (دَوميتيانُسْ) رأسه عن غير اقتناع.

«لقـد أمعنت التفكير في ذلـك، وبخاصة حينما ذكرتـم زنوبيوس، فهو حلقة الوصل بالقبائل. أليسـت عنده ابنة كذلك؟ اسـمها زنوبيا، إن أسعفتني الذاكرة. اسـمعوا، يا (بالْـبُس)، إن مصاهرة عائلة هذه الفتاة، مثلاً، من شأنها أن تجعل من (أودَيناتَوس) سـيداً على جمـع غفير من البدو المقاتلين. يا لها

Twitter: @ketab_n

من إمكانات إذا عرف كيف يستفيد منها قائدٌ طَموح! يمكن لتدمر أن تتجاوز دورها كمركز غنيّ للتجارة، فتصبح كياناً مستقلاً في الشرق».

«أبناء البلد هؤلاء لا يجيدون مهنة الحرب»، عَبَس الضابط.

«هذه ليست سوى أفكار، حتى هذه اللحظة، ولكن فيها ما يُقلِق. كلما أطلت التفكير في هذا الأمر رأيت أن (أودَيناتَوس) ليس مغفّلاً... حين تحين الساعة، سيكون من مصلحتنا أن نمسك بشيء يمنع هذا الارتباط. فَرِّقْ تَسُدْ، يا أيها الفاضل».

«إيه...».

«أقصد بكلامي هذا، أيها الضابط، أن أسألكم: هل تعرفون أحداً بوسعه أن يستعلم بعض الشيء عن هذه العائلة؟ كيما يعرف المرء مع أي صنف من الناس يتعامل وحسب. ربما يكشف المرء أثناء التحرّي عن مانعٍ ما لهذا الزواج».

«آه، تقصدون... قاه، قاه، قاه، أظنّني أعرف أحداً».

«هلاّ أخذتموني إليه؟».

* * *

كان المساء قد أزف بالسرعة نفسها التي أزف بها الصباح. أسدلت السماء ستارها بزُرقته الداكنة التي تشبه زُرقة الزجاج المصريّ. حتى البيوت التي هي على شكل مكعّبات بيضاء، بجوانبها الخارجية عديمة النوافذ، ازرورقت في الشفق. وصار القيظ المتناقص ذا تأثيرٍ يكاد يكون مريحاً. وبينما سلّم (دَوميتيانُسْ) نفسه لهواء المساء العليل، وإلى جانبه مرافقه، أخذت المدينة من حولهما تنشط من جديد.

وبان إلى الجهة اليمنى منهما، من خلال أعمدة الرواق الكبير، موقع المنزل العائد لـ(أودَيناتَوس)، وكان بعض العمّال منهمكين في تشييد بوابته المعمّدة. لقد كان (بالْبُس) محقّاً، فكل المعالم تشير إلى إنه سيكون قصراً فارهاً، وأخذ (دَوميتيانُسْ) يتساءل ماذا سيكلّف كلُّ هذا روما.

«كان يمكن للمرء أن يبني حامية عسكرية هناك»، قال (بالْبُس)،

Twitter: @ketab_n

وهـو يومئ بذقنه إلى الموقع، «فمن هنا يهيمـن المرء على المنطقة المحيطة برمّتها». ولم يناقضه المندوب.

كان الباعـة يتسـارعون مـن كل حـدب وصوب، كـي يروّجـوا لعصائر الحمضيـات وألبـان الماعز الرائبة. كانـوا يتراكضـون مُحدَودبين تحت ثقل الحاويـات المعدنيـة المتأرجحـة، التـي كانوا يصبّـون منها مشـروباتهم في كـؤوس صغيـرة. وأومـأ (دَوميتيانُـسْ) إلـى أحدهم، وبـدأ الاثنان يشـربان وقوفاً، وإلى جوارهما نساء سوريّات أنيقات عدة، وقفن داخل دائرة رقيقهنّ تحميهـنّ من تدفّق جموع المتنزهين في المسـاء. وأخذن يشـكّلن مجموعة بـارزة وسـط الدوّامـة هـذه، ويتضاحكن بصـوت خافـت، بينما يعلـو رنين أساورهنّ الذهبية.

اندفعـت على مقربـة منهنّ جماعة مختلفة تمامـاً، كانوا ممّن نزحوا من الجبهـة. وكان هـؤلاء قـد بدأوا يَصلون على نحوِ شـبه يومي، إمّا مشـياً على الأقـدام، أو بعربات تجرّهـا الدواب. كانوا جماعات صغيـرة يعلوها الغبار، يعرضون ممتلكاتهـم الخاصة في أكوام جُمعت على عجل على عربات تثير فضول المارّة. منهم مَنْ لا يحملون سوى أطفالهم أو والديهم على ظهورهم. كانـت وجوه المـارّة مكفهرّة، إذ كانت آثار هذا السـفر المضني قد بيّنت لهم كـم كانت مدينتهم قريبة مـن الجبهة وجيوش الأعداء. لقـد كان جيش تدمر مسـيطراً علـى ضفة الفـرات الغربية فـي يوم من الأيـام، لكنه دُحِـر عن تلك الحصون منذ زمن ليس باليسير. وصار لا يقف حائلاً بين تدمر وسلامها من جهة والفُرْس من جهة أخرى سوى البادية الشرقية.

أمـا آخـر جماعـة مـن القادمين اليـوم فكانت من أهـل البلـد العائدين، يُعرفون من سراويلهم الطويلة المنتفخة عند كواحلهم، يزيّنها تطريز في شكل أزهـار على حافة جهتهـا الأمامية. وكان طول عباءاتهم لا يتعدّى ركبهم، كي يمتطوا جِمالهم براحة أكبر، في كل عباءة فتحتان للذراعين وفتحة مسـتديرة للرقبة، كلها مطرّزة كذلك. وكانت أزياؤهـم مخيّطة من أقمشة القطن الناعمة النسيج، يدغدغها نسيم المساء العليل. كان العائدون يتمايلون على جِمالهم، التي تحملهم وسـط الجموع، وأقدامهـم مسـتندة على لِجام جِمالهم، وكانوا

Twitter: @ketab_n

يسـوقونها بحماسـة، وهم يصيحون «هتهتهت»، تجاه مدخـل خان القوافل، يطاردهم حشد من الأطفال المرحّبين بهم في هرج ومرج صاخبَين.

أدرك الروميّان أن مرشـد القافلة الملتحي الذي ترجّل للتوّ ليس سـوى (نيـزا). وكان (نيـزا) عضواً في مجلس الشـيوخ، وفي مجلـس الأمناء الذي يضـمّ أغنى عشـرة رجال من أبنـاء المدينة، والذي يضمـن تعويض أي عجز فـي خزينة المدينـة، وهو ما لم يحصـل البتة، إلاّ أن حصـار الفُرْس قد جعل هـذا الاحتمـال وارداً. حيّا (نيـزا) الرجلين من دون أن يرفـع الكلفة، وتبادل أطـراف الحديث مع (دَوميتيانُـسْ). في هذه الأثناء كان جَمَـل (نيزا)، بعينيه الواسعتين ورموشه الطويلة، يلوّح برأسه فوقهم كالمكّوك، ثم بدأ يحاول أن يمضغ شرابة الحرير الحمراء التي كانت تزيّن لِجامه.

«إن (نيـزا) عمّ العفريت (گـاش) وشـقيقته زنوبيا»، قـال (دَوميتيانُسْ) لمرافقـه (بالْـبُـس) فيما بعد. «وقد انتهزتُ الفرصـة لتهنئته بخطوبة ابنة أخيه لأمير المدينة. تخيّلوا: لم يفاجئه النبأ مطلقاً».

صفّر (بالْـبُس) مستحسِناً.

«حدسـكم غايـة في الدقـة، أيها المنـدوب. إيه، والآن اسـمحوا لي أن أقـدّم لكم صديقي، الذي يجلس عادة في الحانة هناك. إنه الرجل المناسـب للمهمّة، أؤكد لكم ذلك».

«قوموا بذلـك عنّي، أيها الصديق الفاضل. تفضّلـوا وادفعوا له من هذه الجعبة ووضّحوا له ما يلزم. عليه أن يراقب الصغيرة من دون أن يلفت الانتباه إليه، وأن يأتيكم بالأنباء يومياً. ثم عليكم أن تبلّغوني بما يحدث».

«أولاً بأوّل وبأمانة. سترَون».

«هـذا مـا أرجـوه. أمّـا أنـا فسـأطلب مـن زوجتـي أن توجّه دعـوة إلى زوجـة (زنوبيـوس) لزيارتنا. قـد تأتينا عن ذلـك الطريق أنباء أخـرى». أخذ (دَوميتيانُسْ) يمسـح بحاشية سـترته. «لقد بصق عليّ ذلك البعير بالفعل قبل قليل». وهزّ (بالْـبُس) كتفيه، إذ لم يكن ذلك مستغرَباً عنده.

* * *

Twitter: @ketab_n

أما وقد انشغل (بالْبُس) بمن حضر، فقد قرّر (دَوميتيانُسْ) أن يترك واجباته جانباً لما تبقّى من ذلك اليوم، وتوجّه نحو ضواحي المدينة، حيث اتّخذ لنفسه منذ أشهر خليلة عربية كانت فنونها الرقيقة من الامتيازات القليلة غير المتوقّعة أثناء إقامته في الشرق. وبعد يوم مليء بالتعامل مع ذلك الشعب الصعب المراس، كان لين عريكتها وحده هو ما يشفي غليله. كان يسمّيها هنديّته البرونزيّة، وكان قد اشترى لها خارج المدينة بيتاً قروياً له حديقة وطرازه روميّ فخم وقد وقف الآن أمام بوّابته.

أخذ (دَوميتيانُسْ) ينظر بانفعال ملؤه الرضا إلى الموزاييك الروميّ الأصيل على البوّابة، وفيه تظهر حروف الكلمتين: «إحذر الكلب»، وهي ختم مُلكيّته، وكانت خليلته قد جعلت أحدهم يثبّت هذه اللوحة على البّوابة. ثم تنشّق النسيم العابق بأريج البراعم الذي انتشر من فوق الجدار. كان هذا يوماً مشهوداً! لكنه تغلّب على تحدّياته. قال لنفسه، ثم دخل بشوق وفرح غامرَين.

Twitter: @ketab_n

أحلام

كانت (يوليا أورَليا زنوبيا) نائمة في فراشها المحشوّ بجزّة الغنم، من دون أن يساورها القلق. هي ابنة (يوليوس أورَليانُس زنوبيوس)، آمر شرطة المدينة، وشقيقة الشريف (كلاودِيُس أورَليانُس سَبتيمُس گاش) والمنتصر (غايُس أورَليانُس سَبتيمُس مالِكو)، وابنة (زِيمه) من بني مطَبَّل. لم يهمّ زنوبيا أن عائلتها إحدى أوسع العائلات نفوذاً في تدمر، رغم بداهة هذه الحقيقة. وإن كانت لأبيها خطط طَموحة، فقد كانت طموحاتها تتجاوز خططه بشوط كبير. كانت تتمنى لو أنها الملكة العظيمة العاشقة كليوبترا، التي قضى جميع عاشقيها من حبّهم لها. أخذت ملكة الشرق تتمطّى في فراش طفولتها الضيّق الذي يكاد يغدو أقصر مما تحتاج إليه: فإذا ما مطّت أصابع قدميها ولامست حافة اللوحة الخشبيّة، تكاد قمة رأسها تلامس رؤوس الحيوانات المنحوتة في عمود السرير. وكانت تتطلع قُدُماً إلى اليوم الذي ستعلن فيه لوالدتها أنه بات من الضرورة بمكان توفير فراش عريض يناسب البالغين، وذلك على نحو فوريّ.

لكن (زِيمه) لم تكن موجودة في تلك اللحظة، فقد ذهب الجميع لزيارة سيدة روميّة، بينما هي تتململ سأماً في فراشها. وليس بإمكان (أودو) أن يلتقيها إلا بعد ساعة من الآن. كانت قد أحضرت صندوق حُليّ والدتها كي تسلّي نفسها بها، إذ كانت لكل قطعة فيه قصة. أخذت تتمعّن في عقد من طاق كسرى، الذي كان رائجاً في ذلك الوقت، وفي الجوهرة التي كانت قد أثارت الإعجاب وهي تزيّن بشرة النساء المنعّمة بالمساحيق، الروميّات منهنّ والسّوريّات، سواء في أنطاكية أو الإسكندرية. وبحسب شائعات موثوق بها كان جنود القيصر المجنون (كركلاّ) هم الذين حفروا القبور الملكية في

Twitter: @ketab_n

منطقة أربيل قبل ثلاثين عاماً. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الناس يعتادون استعمال نسخٍ من الحليّ الأصلية، ذلك أن ارتداء حليّ الأموات مجلبة للشؤم، كما كان يعتقد الجميع.

ثم أمسكت بسوارٍ كانت الأم قد جلبته معها عند زواجها في البادية، ترافقها في حينها وصيفتان، معهما ثلاثة أحمال ثقيلة على الجِمال هي مهر بني مُطَبّل. كما أحضرت جدة والدة (زِيمه) في تلك المناسبة حرامين وخمس جرار، وسَرْجاً ولِجاماً، وقُعْدَين، وماعزاً، وربما خيمة أيضاً.

أدارت زنوبيا مفصل يدها برقّة، فأخذ السّوار يتألّق بعض الشيء في ضوء الغرفة الشاحب، وأخذت أشكالُ شخوصٍ منعكسةٌ منها تتراقص يداً بِيَدٍ على ذراعها. وبدت هذه الأشكال قديمة ومنتفخة، إذ كانت قد صاغتها من الفضة الخام أيادٍ غير ماهرة في زمن تليد قد انقضى؛ أمّا الأقوال التي كانت تُتَمْتَمُ أثناء الصياغة فقد ضاعت إلى الأبد.

«(عطاي)؟».

رفعت مربّيتها رأسها رغماً عنها، إذ كانت مستلقية على كومة من الأقمشة الداكنة في زاوية من الغرفة، فقد بدا صوت الطفلة الثاقب مُلِحّاً.

«(عطاي)، اسردي لي قصة الرجال».

«أي رجال؟» كانت المربّية تكافئ نفسها للتوّ بقيلولة، بعد أن كانت قد أجهدت نفسها في العناية بالطفلة، فكان أن اقترفت الخطيئة الكبرى عندما أجابتها بسؤال، وهي لمّا تَصْحُ تماماً.

«عن أي رجال تتكلّمين؟»، كررّت سؤالها مشوّشةً.

وبدلاً من أن تجيب، رفعت زنوبيا مفصل يدها وجعلت الحُليّ تصلصل.

«لم يكن هؤلاء رجالاً. الرجال الصغار في الحليّ جاؤوا من قديم الزمان، وليس لهم جنس بعدْ. هؤلاء هم الناس قبل أن ينقسموا نصفَين اثنين، لذا يمسك كلٌّ منهم بِيَد الآخر: لا يريد أيٌّ منهم أن يتميّز عن الآخر أو أن ينفصل عنه».

لكن زنوبيا لم تكن مهتمّة بالمغزى العميق للأسطورة، فقد كانت تحبّ

Twitter: @ketab_n

هذا السّوار لأنه كان يعود لجدّتها ولوالدة جدّتها، وكانت قصته من قصتهما، وهـذا ما أرادت أن يُعاد سـرده عليها الآن. فقد كانت هـذه لعبة قديمة تلعبها الاثنتـان، وكانت زنوبيا هي المنتصرة عـادةً، كما هي حالها هذا اليوم. والآن وقد صحت (عطاي) تماماً، فقد صارت مستعدةً، ولو مُجبرةً، أن تملأ الوقت بسرد قصة مَهر (زِيمه) القديمة المعادة المكرورة.

«في يوم من الأيام، حين لم يكن قانون القبائل قد تمّ تدوينه بعدْ، وكانت أرضنـا خاليةً من الغزاة الأجانب، كان (عَمبَكرا) يجول وحيداً في الصحراء. حيـن بلغ ينبوعاً وجـد حيواناً غريباً للغاية: كانت أقدامه كصحون من الجلد، وأنفـه كالقرع الطويل، يعلو منه شـخير لا ينقطع، وعلى ظهره حَدَبَة ضخمة. فاصطـاده وروّضه وركب عليه لمسـافات طويلة مـن دون أيّ ماء، ومع ذلك لم يبدُ على البعير - كما أسماه - أي إعياء. وفي المدينة باعه لتاجر ثري كدابّة نقلٍ مقابل سـوارٍ ثمين من الفضة، التي كانت يومئذ أغلى المعادن المعروفة ثمناً».

«لكن البعير كان قد تعلّق بسيّده».

«هكـذا كان، فقـد قطّع قيـوده وانطلق يبحـث عن سـيّده الأصليّ حتى وجـده، ولـم يفترقا منذ تلك اللحظة حتى المـوت. وهكذا ظلّت هذه القصة إرثاً لتلك القبائل حتى يومنا هذا».

«وهكذا صار (عَمبَكرا) أباً لبني مطَبّل»، أكملت زنوبيا القصة راضية.

وبـدا أن هذه المحبة الأسـطورية بين البعير المروَّض الأول وسـيّده قد توارثتها الأجيال التالية على نحو عجيب. فسـرعان ما كانت هذه الحيوانات النبيلـة تفـرّ بعد بيعها من المشـترين الجدد، كي تلتحق بالعشـيرة التي كانت قد اعتادت العيش في رعايتها. فلم يكن بوسـع المشـترين إلاّ أن ينهالوا على أولئك البدو بالشـتائم، متّهمين إياهم بالاحتيال والبراعة في تدريب الجِمال على الفرار. ولكن أنّى لتلك المدن أن تعرف شيئاً عن الإخلاص المطلق؟

«وسرعان ما صار بنو مطَبّل قبيلة ذات شأن»، أومأت (عطاي).

«وكانت قطعانها بديعة، وخناجرها حادة، كما عُرف سارقو الماشية فيها بالمهارة. ولم يهزمهم حشـد بني طعماي الحسّـاد قطّ، ولا مكر بني حَسَـش

Twitter: @ketab_n

الأشرار، ولا كرّ بني عَنوبات المتوحشين. لم يغلبهم يوماً أحدٌ. حتى...».

«حتى تلك الليلة التي سطع فيها القمر على الأرض أيّما سطوع، فأومضت كالفضة كثبانها الرملية». وكانت (عطاي) قد أطبقت جفنيها، وقد أخذت تهزّ بجذعها إلى الأمام والخلف على ساقيها المتصالبتين.

«كانت الصحراء بيضاء والسماء سوداء بلون الفحم. وكان الشقيقان (زَبِيدة) و(زَبدَس) يقودان عائلتهما وهما يتبعان نجم الزُّهَرَة الذي يدلّهم إلى الطريق الصواب، كما كانا يفعلان عادة». فبرز لهما فجأةً شابان وسيمان للغاية على جَمَلَين أبيضَين كانا يلمعان كاللآلئ. وطالبهما (زَبِيدة) بالجَمَلَين جزيةً للمرور، كما جرت العادة. فما كان من الشابين إلاّ أن ضحكا مسرورَين وقالا:

«إذا أردتما منّا جزيةً فعليكما أن تأخذاها منّا عنوةً، ونحن على استعداد لقتالكما حتى يظهر لنا جميعاً، مَن منّا المَدين بالجزية للآخَر». وكان محيّا زنوبيا يتوهّج كأن نار الحرب قد سفعته.

«هكذا اشتبكوا في قتال دامَ ما يقرب عشر ساعات، لكن الشقيقَين لم يستطيعا أن يَمَسّا ثنيةً في عباءتي الشابَّين، فانطرحا أرضاً أمامهما وأخذا يسترحمانهما: أيها السيّدان الجبّاران، مهما تكن هُويّتكما، يضع بنو مطَبَّل مصيرهم بين أياديكما إلى الأبد، فمَن ينعم بحمايتكما لن يكون يوماً في خوف من شيء. لكن حين قاما لم يجدا أمامهما سوى إكليل فضيّ وفي وسطه نجمة، حينها عرفا أنهما قاتلا نجم الزُّهَرَة الذي برز لهما على صورة شقيقين على حدود الفجر والشفق، يمهّد أحدهما للصباح والآخر للمساء. ومنذئذ يحمي الإلهان (أرزو) و(أزيزو) جميع قوافلنا، ويمنحانها القوّة».

لقد أفادت هذه القوة الهائلة بني مطَبّل كثيراً، ووفّرت لهم ازدهاراً مرموقاً. ولا فرق ما إذا كان ثراؤهم هذا نتيجة حماية هذين الإلهين أو لأنهم كانوا أمهر قطّاع الطرق، فقد كانت الموارد من بيع «جزية المرور»، في الأسواق على حافة البادية السورية، كافيةً لتجهيز قافلة بأكملها وبكافة احتياجاتها.

وكان يمكن للذين اغتنوا على هذا النحو أن يضاعفوا أرباحهم على نحو

Twitter: @ketab_n

أسرع، إذا أسّسوا مراكز شحن خاصة بهم. وأخذ أصغر أبناء العائلة، الذين كانت تُسند إليهم هذه المهمة عادة، يرحّبون بهذا التغيير نحو الاستقرار، الذي لم يسبق له مثيل من قبل، إذ كانت الواحات العديدة الهادئة قد تحوّلت على مرّ الزمن إلى مراكز تجارية هامة؛ ثم نشأ عنها على مرّ القرون مدنٌ، وتحوّل المسالمون المنبوذون إلى أرباب عوائلَ محترمين. وبالطبع لم يسكن معظم أعضاء القبيلة، ولزمن طويل، في الأقفاص الحجرية كما كان يفعل أهل المدن، بل أقاموا في خيامهم التقليدية المصنوعة من شعر الإبل داخل سور المدينة. لكن الممتلكات التي تراكمت داخل تلك الخيام تعدّت ما بوسع العدد المعتاد من جِمالهم أن تحمل، وجعلت هجرتهم مستحيلة.

لم تكن تدمر استثناءً لهذه القاعدة. وفي سنة ميمونة للغاية حدث أن استحوذ الشاب (تايموعماد) من بني مطَبّل، رغم جَمَله الأعرج، على بيته الخاص في المدينة.

كادت (عطاي) تستسلم للنوم من جديد بتأثير الإيقاع الهادئ لحكايتها، لكن زنوبيا حالت دون ذلك، لرغبتها في الاسترسال بسرد بقية القصة.

«كان (تايموعماد) شاباً رشيقاً قوياً، وهو ابن (عُلَيّ)، وكان والد هذا الأخير، (كُحَيلَون)، قد قام بالسرقة الأسطورية لثلاثين جَمَلٍ في آن». وكما تقتضي شروط اللعبة، واصلت (عطاي) سرد تاريخ بني مطَبّل المجيد على مسمع الفتاة.

رحل في أحد الأصياف (تايموعماد)، وفي قافلته أقعِدة جِمال جدّه، قاصداً المدينة كي يبيعها نيابةً عن عائلته. وكما هي العادة، ساقها إلى السوق وعرضها هناك للبيع. وحين حلّ المساء كان قد باعها كلها ما عدا جَمَلاً واحداً كان قد دخلت في خُفِّه شوكة أثناء الرحلة. وكان يهمّ بالعودة إلى خان القوافل حين اعترضتْ طريقَه فتاةٌ على عجلة من أمرها وقالت له: أريد أن أشتري جَمَلك، إذا كان بوسعه العدو بالسرعة الكافية. لكن (تايموعماد) أجابها: أنتِ محظوظة، فأنا لست محتالاً وسأساعدكِ. أين والدكِ؟ بدأت الفتاة تبكي ثم روت له وهي تنشج أن أباها - لا ريب - قد أرسل مَن يبحث عنها، لأنه ينوي أن يزوّجها بتاجر غني ومقتدر من المدينة في صباح اليوم

Twitter: @ketab_n

التالـي. لكـن هـذا التاجر كان مسـنّاً وبديناً إلى الحـد الذي يجعلهـا تفضّل الهرب إلى الصحراء من أن تقترن به.

«فتمعّـن فيهـا (تايموعمـاد) وأعجبتـه، فقال لهـا: لن أرفض لـكِ طلباً للمسـاعدة. عليـكِ أن تعرفـي: إننـي ابن بنـي مطَبّـل، وأريد أن أحـرّركِ من أبيـكِ، إذا رغبتِ في ذلك. فابتسـمت وعيناها تدمعان، وتزوجا فوراً بالسـرّ. واستشـاط والدهـا غضباً لأيـام ثلاثـة بلياليها، حتى أنـه كان سـيقطع رأس (تايموعمـاد)، وأعضاءً أخرى بـلا ريب، لولا أنهما فرّا إلـى الصحراء. لكن لأنـه كان يحـب طفلتـه أولاً وقبل أي شـيء، وقد أخذ يـدرك مدى إخلاص بعضهمـا لبعض، أهـدى ابنته العروس خاتماً ذهبياً مضفـوراً، ثم منحهما بيتاً صغيراً في المدينة».

* * *

غاصت زنوبيا في فراشها وقد اكتظّ ذهنها بالصور، وعلّقت على طرف إبهامهـا الخاتم الواسـع المضفور من خيوط الذهـب الغليظة. لقد كان هناك مغزًى لقصة (تايمَوعَماد)، إذ إن ذاك البيت الصغير في المدينة لا يزال شاهداً علـى صحتهـا حتى هذا اليـوم. كان البيت ذا طراز قديم مكعب الشـكل، وذا طابـق واحد لونه ورديّ شـاحب، وكان ذووها يقومـون بتأجيره. هكذا وجد العاشـقان فيـه مـأوًى لهما آنئذ، بعد أن كان البدويّ الشـاب قـد تحرّش بإبنة التاجر الثري، في مسـاء يوم السـوق، منافياً بذلك كل الأعراف الحميدة، ثم أغواها في زاوية هادئة من منطقة المعبد القريبة فحملت منه- هذا ما أشاعه، فـي الأقـل، الوالـد المقهور الذي لـم يثنِه عن التبـرّؤ من ابنته مـن حيث هي سـوى أمرين: التبصّر في مـا لا مفرّ منه والتطلّع إلى علاقـات تجارية متميزة مع قبيلة الصحاري الجبارة.

منذئـذ صـار أهـل القبائل يصاهـرون أهـل المدينة من وقـت إلى آخر. وحينمـا وقـع نظـر (زنوبيوس)، آمـر حرس المدينـة، على وجـه (زيمه) في أحد أسـواق الخيل، لم يكن محيّاها اليانع، وسـط ملامح أشـقائها الخشـنة، هـو وحـده ما جذبـه إليها، بـل جذبه كذلـك قوامهـا الـذي ازدان بفيضٍ من

Twitter: @ketab_n

المجوهرات الفضية التي لم يكن قد رأى قط أكثر منها في آنٍ معاً، ولا ظنّ يوماً أن بإمكان أي شخصٍ على هذه الدرجة من الحُسْن أن يستطيع حملها.

* * *

ترامى إلى سمع زنوبيا نفَسُ (عطاي) المنتظم. فقد استغرقت العجوز في النوم، ولا ضير في ذلك الآن، فقد أزف موعدها مع (أودُو)، بينما كانت أشعة الشمس تسقط مائلةً من خلال النافذة، وكان يلفّ البيت صمت مطبق، فانزلقت زنوبيا بحذر من فراشها وانسلّت نحو الباب.

ثم مشت بهدوء في الممرات الباردة شبه المظلمة، واجتازت الباحة الداخلية التي كانت تغطيها مظلات ملونة لا تقوى على درء قيظ الشمس. وكان الينبوع في ظل الباحة ينساب ملولاً. وأخيراً بلغت مباني الطبخ التي كانت متراصّة بجوار حديقة صغيرة ذبلت فيها الأعشاب، بمحاذاة الجدار الخارجي الطويل الذي يفصل المبنى عن شارع فرعي ضيّق. وكان هناك أيضاً باب يستعمله الخدم لمغادرة الدار لغرض التسوّق وما إلى ذلك. ولم يكن عملياً أن يظل هذا الباب موصداً، فقد كان يُستعمل باستمرار، كما كان ثمة دوماً مَن يتواجد في المطبخ والحديقة وبإمكانه أن يراقبها، ما عدا وقت الظهيرة، حين يخلد الجميع إلى النوم، حتى العبد الذي تكوّر تحت برنصه عند عريشة الحبق الزاحف، فسمعت زنوبيا شخيره.

أمّا ما لم تسمعه فكانت الخطى خلفها على الأرض المتربة، فكان أن صُعقت حين أُلقيت يدٌ على كتفها.

«ماذا تفعلين هنا؟».

«(گاش)!».

«كنت تنوين الاختفاء من جديد، هه؟ ألم تكفِك ضربات الأيام الماضية؟». أمسك بها بشدة من ذراعيها، فعضّت زنوبيا على شفتها؛ فهي لم تنسَ يوماً كيف كان (گاش) يكيل لها الضربات بينما كان والدها يقف جانباً وهو يصف بكل برود كيف يجب أن يكون سلوك البنت الصحيح، فكانت هذه الذكرى تثير غضبها.

Twitter: @ketab_n

«إذا أفشيتَ لأبي أنني كنت خارج المنزل، فسأخبره أنك تسرق الغسيل من غرفة ياسمين كي...». لكنها لم تكمل جملتها، إذ أدار رأسها بصفعة لاذعة.

«لكنك تفعل ذلك حقاً!»، قالت وهي تلهث، وحدجت شقيقها بنظرة ملؤها الكراهية. رفع (گاش) يده مرة أخرى لكنه عاد فأنزلها.

«يا لكِ من وسخة». وراح يتبختر وسط الأعشاب مبتعداً. أخذت زنوبيا نفَساً عميقاً وألقت نظرة حول الحديقة. كان العبد لا يزال نائماً، والشمس تسطع في سكينة. هذا نصرٌ! لقد كان النصر حليفها للتوّ. ثم رفعت مزلاج الباب وهي لا تزال ترتعد من المواجهة المثيرة، وانسلّت إلى الشارع في ابتهاج.

Twitter: @ketab_n

(بالْـبُس) ينشط

كان (بالْـبُـس) يندفـع منزعجاً وسـط هرج المدينة ومرجهـا وهو يتزوّد استعداداً لمهمته المرتقبة. فمن دون الأيام كلها كانت تدمر حينذاك تستعد لسوق الخيل، وكان الجميع يتسابق على المسكوكات المفخورة لدفع أجور دخـول المعابد، وذلـك لحضور مذابح الأضاحي حيـث لا يجوز لأية عائلة أن تتغيـب عنهـا. وكان الباعة يتخاطفـون المارة من كل جانـب، وويل لرب البيت الذي يفشل في هذا السباق! فقد كانت محالّ المأكولات هي الأخرى محاصـرة، وكانت عائلات كثيرة تعدّ العدّة لاستقبال أقربائها من القبائل في العيد، وذلك بتكديس المؤن، كأنَّ المجاعة على الأبواب. لذا لاقى (بالْـبُس) صعوبة في شراء النزر اليسير من الخبز والتمر واللحم المجفف بسعر معقول. ولم يكن بإمكانه أن يساوم طويلاً، إذ كان جاسوسه ينتظره عصراً وفي جعبته أنباء طيبة بحسـب قوله، ويبدو أنه قد اكتشـف شـيئاً ما يمكّنهما من استغلال زنوبيا، الأمر الذي جعله يغذّ السير بين الجموع الهائجة.

لربما كان عليه فعلاً أن ينطلق على جواده صوب قلعة الحدود الشمالية كـي يتـزوّد بما يحتـاج إليه. ولا ضيـر من حصانٍ ثـانٍ من هنـاك إن وُجد، إذ لم يبقَ أي حصان مناسـب فـي المدينة، فقد أمـر (أودَيناتَوس) بمصادرة كل الخيول القادرة على حمل إنسـان لسـلاح خيّالته، فلا عجـب أن الجميع قد جُنّ جنونه بسبب سوق الدوابّ هذا. كان يمكنه أن يقتني جملاً، لكن ركوبه يتطلـب مؤخرة أصلـب من تلك التي لمحارب روميّ. لِـمَ لا يلقي نظرة عند القلعة الشمالية وعندئذ سوف...

«هيـه، انتبـه أين تخطـو يا غـلام!»، كان (بالْـبُـس) قد تعثّـر بصبيٍّ يافع حدجه الآن بنظرة شـزرة، ولامسـه فخذٌ من دون أن يشـعر به. علت في وجه

Twitter: @ketab_n

المحارب حمرة الغضب. يا له من راعي غنم قذر، قال في نفسه. لم يكن الصبيّ ضعيف البنية، لكن لا بدّ من قشط الأوساخ عن بدنه... ينبغي غسل هؤلاء الصبيان بالصابون جذرياً، من الرأس حتى القدمين وما بينهما، حتى ينعجنوا بين أصابع المرء. لا ضير من صيد هذه السمكة، لا سيما أن وقته يتّسع لذلك في تلك اللحظة وحسْب. راح (بالْبُس) يحدّق إلى وجه الغلام المبتسم أمامه، وقد تكلّف بفتح شفتيه المبللتين بعض الشيء، وانتابت المحارب بضعة أفكار مثيرة، فدفع بإبهامه داخل فم الصبيّ ومرّره على طول حدود قواطعه المدببة، وعلى لثته وشفته السفلى، ثم استمر بإبهامه المبلل باللعاب نزولاً إلى الحنك ثم الرقبة، التي أخذ يدغدغ جلدها الناعم. ولعبت يده الأخرى بقطعة نقد على نحو واضح للعيان.

«تعال بعد دقيقتين إلى داخل الحمامات واغتسل، ثم اسأل عني. والآن اذهب من هنا». فكشّر الصبيّ وانطلق، وانتظر حتى انعطف عند إحدى الزوايا قبل أن يبصق.

* * *

لقد كانت الحمامات التدمرية مؤسسة عامرة تتناسب وغنى المدينة، لكن حتى جالية موسرة كهذه لا تقوى على هدر الماء في هذه المنطقة الملاصقة للصحراء، لذا كانت تفرض أجراً على الزبائن. وعلّق (بالْبُس) كعادته وهو يتحدث مع مدير الحمامات، أن محله أغلى من حمامات (كركلاّ) في روما، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن أجابه بابتسامة، فقد كان (بالْبُس) زبوناً دائماً.

«خذ، يا (أنيُس)، تلقّف». حتى رمية الإكرامية للصبيّ الذي يحرس أغراضه في غرفة تغيير الملابس كان لها تاريخ. وحيث أنه لم يأتِ بلوازمه الشخصية هذه المرة، فقد اضطر أن يستعير مقابل أجرٍ إضافي شيئاً من الزيت وليفة وطاسة للماء، كما ابتاع من عجوز يعتاش من هذه التجارة صابونةً، هي مزيج من الدهن ورماد الفحم، رأى (بالْبُس) في رداءتها سبباً للشكوى لدى مجلس الشيوخ. بيْد أن العجوز انسلّ من دون انفعال، مبتعداً عن منتقده، وقد حوّل بصره إلى قدميّ هرقل آخر، وهو جالس على كرسيّه الواطئة،

Twitter: @ketab_n

وبدا مثيراً للشفقة مقارنةً بالعضلات المرمرية المفتولة بالقرب منه، ما جعل (بالْبُس) يهزّ رأسه وهو يضع قدميه في قبقاب جاهز ويتوجه إلى قاعة الحمّام الدافئ. وقرأ على موزاييك البلاط الأرضي المزخرف بصور الدلافين عبارة «نِعمَ الحمّام».

كان الوقت أول الظهيرة، بدا له أنه أول الزبائن، راق ذلك له، فاستلقى في الحوض وجعل أحد العبيد يفرك ظهره بالصابون وهو مستمتع بذلك. سيفتقد هذه المتعة، هذا الترف البسيط، أثناء مطاردة (گاش) في الأيام المقبلة، لكن تلك هي حياة الجنود. أخذ يصفّر أغاني النادلات، وأطلق شتيمة حين أخرج قدمه العارية من الحوض، ووضعها خطأً على البلاط الساخن، ثم انتزع منشفته ودفع بشدة باب حمّام البخار.

يبدو أنه لم يكن وحده رغم كل شيء، فقد ابتدأ يميّز في البخار شكل إنسان ما، وذلك على أعلى عتبة للجلوس. تُرى هل بادره جاسوسه بقصد مفاجأته قبل الموعد؟ عبس (بالْبُس) وتوجه بتؤدة نحو الرجل، لكنه ما لبث أن انتصب بقامته حين خفّ البخار.

«تحية لكم، أيها المحارب»، قيل له، فتمالك (بالْبُس) نفسه على عجل.

«تحية لكم كذلك، يا (سَبتيمُس گاش). هذه ساعة مبكرة للاستحمام».

رفع (گاش) رأسه بعض الشيء وملّس شعره المطرّى بالزيت البرّاق كي ينظر في عيني محدّثه، ثم نكّس رأسه من جديد، وقوّس أعلى جسده إلى الأمام، ووضع كوعيه على ركبتيه.

«يعجبني الهدوء في مثل هذا الوقت». وكان صوته الأجوف يصدر من أعماقه.

«الحق يقال إن هذا المكان وديع وهادئ للغاية». وانزلق (بالْبُس) وجلس على إحدى العتبات بدوره، ثم عمّ الصمت. كانت بعض القطرات تتساقط من السقف من وقت إلى آخر. وعلت من الغرفة المجاورة مشادة شرسة بين عبدين، عاد مدير الحمّام وكبح جماحها، كما يبدو. وطئ (بالْبُس) بإصبع قدمه بركة ماء صغيرة، وطقطق البناء، ثم جاء عبدٌ بخطًى

Twitter: @ketab_n

ذات صدى كي يسكب الماء من جديد، وحين أدار الهواء بمساعدة منشفة مبرومة، وجّه الرجلان جسديهما صوب موجة السخونة الناتجة. وأخيراً توقف التلويح بالمنشفة، وعلا صليل السطل المعدني للعبد حين حمله كي يذهب به من جديد، وتلاشت طقطقة قبقابه في البخار، وحين اختفت تماماً سُمع أنين (گاش).

«هم لا يسكبون الماء الساخن كما يجب هنا، أليس كذلك؟»، علّق (بالْبُس) بعجرفة، فتطلّع (گاش) مرة أخرى عند سماع هذا التبجح.

«هذا ما يريحني». ثم صمتا من جديد. وعلى موزاييك الحائط فوق الباب كانت صورتا (أسكليپيوس) و(هيكيا) يحدّق أحدهما إلى الآخر بتركيز شديد. وراحت سيول من الرطوبة والعرق تسيح من جسم الرجلين إلى أسفل، فمسح (بالْبُس) العرق اللزج بعيداً عن عينيه، واختلس نظرة إلى جاره من بين أصابعه، ولاحظ عضلاته المفتولة تحت طبقة الجلد الدّهنية البراقة. هذه عضلات مفتولة، قال في نفسه، وليست من دهون متجمعة، وبقية الأطراف ليست بسيئة هي الأخرى. لكن من المعروف أن العظماء ليسوا قادرين على التضحية حين يجدّ الجدّ. سأقتلك في القريب العاجل، أيها الغلام. كادت تلك الفكرة تبدو مستحسنةً في نظر (بالْبُس). يا ليته يقوى على سخونة أشدّ من هذه. ثم أخذ يراقب ضحيته المسكينة من دون مواربة، إلى أن عدّل (گاش) موقع منشفته، وعادت طقطقة قبقاب مدير الحمّام من جديد، فقد أزف وقت السكبة الثانية. تُرى كم سيحتمل هذا الغلام الحرارة هنا؟

«هل ترغبون، أيها العزيز (گاش)، في منازلتي بالمصارعة في ملعب الرياضة بغرض التمرين؟». كاد (بالْبُس) يقف وهو يلقي السؤال.

«لا شكراً، فمن عادتي أن أبقى لثلاث سكبات».

«أنتم على صواب، أيها العزيز (گاش)، إذ ينبغي على المرء أن يدع السخونة تؤتي أكلها». وارتمى (بالْبُس)، وقد ثقل نفَسُه، على عتبته من جديد. ثلاث سكبات في هذا الحرّ الخانق! لا بد أن يشهد هذا الأمر بأم

Twitter: @ketab_n

عينيه. «وفي كل الأحوال إن (گنيُس) ليس موجوداً اليوم»، أردف يقول، «فهو مدرب مَمتاز».

هزّ (گاش) كتفيه وقال: «ذلك المدرب لا يعرف الكثير».

«هو ليس رديئاً بالنسبة إلى سوريٍّ، فهو دؤوب على ملاعبة السيف بما يكفي أن يجعل منه مدرباً جيداً على المبارزة».

«ربما بالنسبة إلى محارب روميّ».

صمت (بالْبُس) وأنّ من الإهانة. يا للَّعنة، فالحرّ أشدّ مما يسمح بأن يتشاجر المرء، وسيكتشف هذا الغلام مع مَن تورّط. هذا ما أقسم عليه في سرّه في تلك اللحظة، وسينظر في وجهه قبل أن يطفئ جذوة الحياة فيه. ولكن إلى أين اختفى ملوّح المناشف اللعين؟

* * *

حين تعثر (بالْبُس) تاركاً حمام البخار أخيراً، كان الدُوار قد أخذ منه مأخذاً، ما جعله يتجاهل الصبي الذي غمزه في حوض الحمام. فقسماً بإله الحرب، لقد كان يشعر بتوعك. بإمكانه أن يتسلى لاحقاً، بعد أن يتخلص من (گاش) هذا، وسيتخلص منه، وقسماً بالشرف، فقد ضحك هذا الغلام من (بالْبُس) للمرة الأخيرة. كان عليه أن ينطلق، فقد زاد فضوله أكثر مما سبق عمّا كان قد اكتشفه وكيله عن عائلة (زنوبيوس).

* * *

كان الوقت قد تأخر كثيراً عن الموعد، وزنوبيا ما زالت تنتظر أمام خان القوافل وتتعرق، وأصابع قدميها تشق الرمال الساخنة. تُرى أين اختفى (أودُو)؟ وأزاحت قماش ثوبها عن جلدها حيث كان ملتصقاً به ويحدّ من حركتها. كان السكون شاملاً، والهواء كالقشطة على الحليب الساخن. رفعت زنوبيا أكمامها إلى الأعلى. كانت ذراعاها تعجبانها، بنحفهما وسمارهما وصغر عضلاتهما التي برزت معالمها تحت جلدها. ورفعت ذراعها اليسرى كي تتشمّم إبطها وتتنشّق رائحته وهي تمرر أنفها عليه. كانت رائحتها طيبة في نظرها، تماماً كالفواكه؛ رقيقة وقوية في آن معاً، واستشعرت نبضها كذلك. وحرّكت نسمة خفيفة شعرها على صدغيها. تُرى هل ستظل

Twitter: @ketab_n

هذه النسائم ترفرف عليها كما تفعل الآن على التماثيل العجيبة الجمال في المقبرة، إذا ما بقيت هنا لمدة كافية؟

لم تلاحظ أن عيون رجلين كانت مصوبةً نحوها، وقد كمّم أحدهما بكفّه فم (أودُو) الذي كان يتلوّى، والتفت مختالاً إلى الضابط الروميّ بجواره:

«ماذا قلت لك، يا (بالْـبُس)؟ ابنة آمر حرس المدينة بشحمها ولحمها، وهي تتسكع هنا في الشارع مع راعي غنم من الرقيق. أراهن بذكورتي أن أباها يجهل ما تفعل. أمّا هذا»، ورجّ (أودُو) الذي استبدّ به الذعر، «فهو من جنس المسيحيين اللعين، ولا بد أنه ذو قيمة أعلى لدى المندوب».

فزمجر (بالْـبُس) قائلاً:

«لقد كان غباءً منك، يا (كْرِسبُس)، أن تحتجزه، فهذا إنذار لها».

«ثم ماذا؟ يكفي أنها موجودة هنا. بوسعنا أن نشهد على ذلك، كما سيفعل هذا العبد بعد بضعة صفعات».

«صه، ها هي تغادر، انتظر لحظة».

وتمركز خلف زنوبيا بعد أن اجتاز الساحة بخطوتين واسعتين، وبدا أن زنوبيا قد توقفت عن الانتظار، فأمسكها من كتفيها وجرّها نحو مدخل البيت المجاور.

«يا لها من صدفة، فأنا في حاجة إليكِ، يا فتاة، تعالَيْ معي».

أبصرت زنوبيا من خلال ارتباكها للوهلة الأولى الوجه المحمرّ لضابط روميّ وقد اقترب من وجهها أكثر مما يجب، وكشف فكّه السفليّ الضخم عن أسنانه وهو يبتسم، وكان قد أكل ثوماً. لم يخطر ببالها اسمه، لكنها كانت قد رأته مراراً من دون ريب، فقد كان ذا شأن على نحو ما، هذا ما كانت تدركه، ولم يعجبها أنه كان يقف على هذه المسافة القريبة، بل أخافها ذلك منه.

«أطلقوا سراحي على الفور، فأنا ابنة (زنوبيوس)». لكنها قالت ذلك بتعجل، مما قلّل من وقارها.

«وهذا بالضبط ما أقوله. هل ترغبين في شيء من التين؟». قدّم لها الفاكهة على كفّه المفتوح، لكنها لم تستجب، بل أخذت تترقب متوترةً ما

Twitter: @ketab_n

يريـده منها، وتحاول إخفـاء قلقهـا. وكان (بالْـبُس) يحدّق إلـى الطفلة التي كانـت تخترقـه بنظراتها بإباء وشـمم، ثم أغلـق قبضته على التيـن. يا لها من طفلة وقحة عنيدة، قال في نفسـه، لا تسـتجيب للأسلوب الليِّن في التعامل، رغـم أنه لم يكـن ليتوقع ذلك منها في كل الأحوال، فقد أراحه حقيقةً أنه غير مضطر للعب دور العمّ الكريم.

«يبدو أنكِ كنت تتسكّعين، أليس كذلك؟ وكنت تنجزين مشاريعَ خارج المنزل، صحيح؟ لكن والدتك لن يعجبها ذلك، ولا والدك في غالب الظن، أم أننـي علـى غير حق؟»، واصطنع القلق وهو يهزّ رأسـه، وأرضاه أنها رمقته بنظرة عجلى ملؤها الهلع بعد ملاحظته الأولى.

«لا، لـن يعجبه البتة أن يسـتعيد ابنته الوحيدة علـى يد ضابط روميٍّ وأن يسـمع كيـف أنها كانت تتجول في المدينة وحدهـا، أليس كذلك؟ لن يعجبه ذلـك مطلقاً. وأراهن أن في وسـع والـدكِ أن يكون مغتاظـاً للغاية». صارت زنوبيـا تتلوى بفعل قبضته، لكنه أمسـك بها بشـدة من أعلـى ذراعيها ورجّها بقوة، ونجح في مقصده، فقد اعتصرت بطنها حين أخذت تكذب:

«إنني خارجة بصحبة مربّيتي».

«لكن أين هي مربّيتك هذه؟».

«لقد تهنا عن بعضنا في خضمّ الجموع هنا أمامنا».

«لا بـأس إذن. أما وقد تهتما عن بعضكما، فعلينا أن نرجعك إلى دارك، كي لا تضلّي الطريق. وسـيفرح والداك حينما أعيدك إليهما سـالمة معافاة».

هذا ما كانت تشكّ فيه زنوبيا، وذلك عن تجربة. أخذت تنكفئ على نفسها من الهلع وهي تتخيل كيف سيسـلمها والدهـا إلى رجل ليجلدها، وذلك بحركة من يده ومن دون أن ينظر إليها، بينما تشـيح والدتها بوجهها في صمت. ولن يكون بوسـع (أودُو) أن يراها مستقبلاً. أخذت تغصّ بالبكاء وسخنت عيناها وهـي تقاوم إطلاق العنان لدموعها. فمـا كان من (بالْـبُس) إلا أن أفصح عن بيت القصيد وهو راضٍ:

«قاه قاه قاه، لا بأس. بوسـعي أن أساعدك إذا ما ساعدتِني، أتسمعينني؟ شـقيقك اسـمه (گـاش)، وهو جنـدي». فأومأت زنوبيـا بالإيجاب من دون

Twitter: @ketab_n

تفكير؛ فقد أسكرها الخوف إلى الحد الذي جعلها لا تكاد تسمع فيه ما يقوله لها (بالْـبُس).

«انتبهي، أيتها البنت، فأنتِ ذكية وعاقلة. شقيقك يرحل عن المدينة راكباً حصانه بين الفينة والأخرى، صحيح؟ بوسعكِ تأكيد ذلك فأنا على علم به، أتريَن؟». صمتت؛ يبدو أن هذه المتوحشة قد فقدت القدرة على الكلام حقاً.

«متى رحل آخر مرة؟»، حاول من جديد.

«قبل أربعة أيام»، جاءه الجواب المتلكئ. ها قد نجحت العملية.

«ومتى سيرحل من جديد؟». تكوّن لدى زنوبيا شعور اليقين أن عليها ألّا تفصح عن ذلك، لكن التفكير في ما سيؤول إليه المطاف بأن هي رفضت الإجابة أسلمها لليأس. كان جسدها ينتفض من الخوف. أدركت وملؤها الهلع أن بولها قد أخذ يسيح على ساقيها. وقد حطم مقاومتَها الضعيفة أصلاً قلقُها أنها لن تقوى على ضبط مثانتها، وكذلك الإذلالُ الشديد بسبب تلوّث جسدها أمام الملأ. كان عليه أن يذهب وألاّ يراها وهي على هذه الحال. عليه أن ينصرف، أن ينصرف، أن ينصرف.

فكان أن أفلتت من قبضتيه وهي شبه غاضبة والتفّت حول الحائط خلفها وألصقت ركبتيها ببعضهما ورفضت أن تنظر في وجهه وهي تزفر كلماتها: «لقد حزم أمتعته وينوي أن يعود في يوم السباق». ألا ليته ينصرف أخيراً.

«أي سباق؟ آه، سوق الخيل خلال اسبوعين. كان قد غاب اسبوعين في المرة السابقة كذلك. هل يعني ذلك أنه سيرحل صباح الغد؟ هل هذا هو المغزى؟ نعم، لا بد أن الأمر كذلك؛ سيرحل صباح الغد!». أومأت زنوبيا بالإيجاب، ثم أحسّت بالانفراج، إذ كان قد انطلق مبتعداً.

فانتظرت حتى لم تعد تسمع خطاه ثم أراحت نفسها وهي تنشج حيث كانت تجلس القرفصاء. آه، يا لَلاّت، كم هي تعيسة! أجهشت في البكاء المرة بعد الأخرى، ثم ركضت وهي تشعر بالخزي، وابتعدت بسرعة فائقة، حتى لم يعد بمقدور أحد أن يرى ملابسها المقرفة المبللة ولا وجهها الباكي، ولم يكن يهمها إلاّ أن تهرب من مشهد خيانتها.

Twitter: @ketab_n

ساعة (أودُو)

أخـذ (أودُو) يتابـع زنوبيا البائسـة بعينيه وهي تهرب، لكنـه لم يقوَ على الإفلات من قبضة حارسه، الذي كان يرمق (بالْـبُس) العائد متشكّكاً.

«أمّا ما فعلتَه للتوّ فلم ينذرها بأي خطر عليها، أليس كذلك؟ إسـمع، لو أبطل هذا الأمر مكافأتي...».

«آه، اسـكت يا هـذا»، قـال (بالْـبُس) مقاطعـاً إيـاه، «كان يتوجب عليّ أن أسـتخلص منهـا شـيئاً، وكل شـيء على أحسـن ما يـرام الآن. خـذ...».

وأخـذ يخـطّ بسـرعة بضعـة سـطور علـى قطعـة رَقٍّ مسـتعملة، ثـم طواهـا وقدّمها لـ (كْرِسبُس).

«أوصل هذه إلى المندوب وستحصل على مكافأتك».

«وما هي هذه؟»، سأله (كْرِسبُس).

«فحواها أن ابنة مدير الشـرطة الصغيرة تتجوّل في السـر مع عشـيق لها ينتمي إلى طائفة المسيحيين الخطرة».

أشرق وجه (كْرِسبُس) بالرضا وهو يفلت (أودُو) كي يتناول الوثيقة.

«هيـه، انتظـر، يا صعلوك الشـوارع اللعيـن، إجمد في مكانـك!». لكن (أودُو) كان قد انتهز الفرصة وهرب، فأخذ (بالْـبُس) يتوعده بقبضته.

«إذا رأيتك مرة أخرى سأقضي عليك».

«من الأفضل أن نقوم بذلك فوراً».

«ماذا تقول؟ ليس في وسـع ذلك العبد أن يقدم أو يؤخر. ثمة مهمة أهم عليّ أن أنجزها، أمّا أنت فاذهب لتسليم الرسالة، وسأراك لاحقاً».

* * *

Twitter: @ketab_n

كان (أودُو) قـد اقتفـى أثـر الرجـل المدعـو (كْرِسـبُس) لفتـرة ليسـت بالقصيـرة. وكان يعـي التهديـد الذي بلغ مسـمعه، لكـن الرسـالة التي تقول إنـه يلتقي وزنوبيا كانت خطـرة للغاية. وكان يدرك مـدى خوف صديقته من أن ينكشـف أمرهـا بشـأن نزهاتهـا، فحتى هـو كان يتملكه الخوف مـن أبيها الكئيـب، لكنـه لم يُـرِد أن يكون جباناً، بـل كان يريد أن يكون عونـاً لها، ولو أنـه كان يجهـل حتى تلك اللحظة كيف سيتسـنى له ذلك. لـذا ظل يقتفي أثر الرسـالة في شوارع المدينة ودروبها، وكان ذلك مثل لعبة السمك مع زنوبيا، إذ يشـقّ المـرء طريقه من دون صوت بين الجمـوع. وبعد قليل دخل الرجل، أمامه، حانة، ورآه (أودُو) من خلال النافذة وهو يحدّث رومياً حسن الملبس ويسلّمه المخطوطة. لا بد أن هذا هو المندوب الذي سبق الحديث عنه، وفي كل الأحوال فقد تناول الرسـالة وقرأها ثم ابتسـم، ثم ناول (كْرِسـبُس) صُرّةً وغادر المكان. وانطلق (أودُو) يتابعه.

وبعـد نصف سـاعة وقف الاثنان أمام قصر الأميـر (أودَيناتَوس). وكان الوقت عصراً، لكن السـماء المشـعّة بالضوء كانت قـد جعلت الهواء ينصهر ويتسرّب متوهجاً في كل زاوية من المدينة، فيسفع الظلال، ويغرق الشوارع، ويغمر جسد (أودُو) النحيل المُثار.

كان المنـدوب ينظـر بتمهّـل إلـى واجهـة البوابـة، التـي كانـت لا تزال مختبئـة خلـف سِـقالة البناء، لكنـه رأى رغم ذلـك ومن دون جهـد كيف أن رواق أعمدتهـا المرمـري سـينتصب مختالاً وسـط المدينة، وبرهانـاً جديداً علـى قوة تدمـر. وصار إفريزهـا الورقي المتـرف يفيض ببيـاض ناصع على مدخـل البوابـة، ما اسـتوجب صبـغ البوابة. ولـم يكن هناك مـن حراك حين دخل وتبعه (أودُو).

انبسـطت قطعـة الأرض كلهـا أمامه كأنها يبـاب. وتبيّن أن ظهـر البوابة يفتقر إلى التلبيس المرمري، فبان للعيان هيكل البناء بتفاصيله، ثم شقّ طريقه بيـن محاجر التماثيـل على أكوام من الغبار السـاخن التي كانت هي الأخرى فارغة. فرأى (دَومِتِيانُس) في ذلك بشير خير، إذ لم تكتمل خطط الأمير بعد، وبعون كبير الآلهة (جُوبِيتَر) سيتسـنى له وللضابط (بالْـبُس) أن يعطلها أكثر،

Twitter: @ketab_n

وسيمتّع ناظريه بتماثيل القياصرة الروم في هذه المحاجر. وطغى وقع خطى صندله على وقع الخطى الخفيفة خلفه.

وانفتحت على حين غرة إلى اليسـار من المندوب باحة أخرى، فدخلها وتبعـه العبـد الصغير خلسـةً. كانـت الباحة ممتلئة بأشـجار اللـوز وأحراش الياسـمين والخبّـازى، وجميعهـا بطول قامة الإنسـان، ويمنـح كل منها فيئه للآخر، وتكثر تحتها أزهار الظهيرة البرّاقة وقد انفتحت أكمامها.

طلـب (دَومتِيانُـس) أن يقابـل الأمير حيـن بلغ الباب فتـمّ إدخاله. تردد (أودُو) لوهلـة. وأطلق طاووس صيحة ونشـر ذيله قبل أن يختفي على عجل بيـن الأحـراش. وكان ثمـة خرير ينبعث من فـم تمثال برونزي لسـمكة فوق حـوض مـاء نُحـت جوفها على شـاكلة مسـرح مـدرّج، وقد زيّنـت كل عتبة بقطعـة برونز وتم ترقيمها، ووقف (أودُو) وقد خلبت لُبّه سـاعة مائية. فكلما اكتملت سـاعة وانغمرت عتبة، ارتفعت هناك زنبقة ماء مصنوعة من وريقات الصـدف، واتجهت عائمةً صوب أخواتهـا اللواتي كنّ يدُرن حول الحوض، فأخذ (أودُو) يعدّهن، وكنّ عشراً. وتذبذبت على العتبة الحادية عشرة حاوية مـاء متلألئة تكاد تنفجر في أية لحظة، ولـم يقـوَ (أودُو) على مقاومة الإغراء، فاقتلعها بسبّابته وولج البناية المجهولة وهو يتبع وقع خطى الرجال أمامه في سلسـلة لا نهاية لها من الغرف، ومن أمام جموع غفيرة من الخدم والحشـم، مـن دون أن يوقفـه أحد، فقد ظن الجميـع، كما يبدو، أنه تابـع للزائر. وحين انعطفـت المجموعـة إلـى قاعة اسـتقبال أسـعفه حضـور الذهن أن يمسـك بمروحة ريش مسندة ويتخذ له موقعاً بجوار الباب.

لم يبخل رئيس التشـريفات على (دَومتِيانُـس) بأيٍّ من مظاهر الضيافة، فأمـر أولاً، رغـم اعتراضاتـه، أن يُجلـب له مغطـسٌ للقدمين، لكنـه لم يجُد عليه بمقابلة الأمير، فقد قال إن سـيده خارج القصر، على حد تعبيره، فتبسّـم (دَومتِيانُـس) منزعجـاً. ها هـو ذا، الدبلوماسـي العظيم، يجلـس وقدماه في حوض، بينما يكذب عليه هذا الوقح كذباً سـافراً. ويبدو أن (أودَيناتَوس) قد ضمـن قيـام تحالفه مع الفُـرس وأن مفاوضاته مع روما لـم تعد من الضرورة في شـيء. لكن (دَومتِيانُس) كان أعلم بحقيقة الأمور، فسـرعان ما سيتمّ قتل

Twitter: @ketab_n

ممثله وسيضطر إلى التصاهر مع (زنوبيوس)، أهم حلفائه الذي سينقلب غاضباً مَخزيّاً.

«إذا كان الأمر كذلك أحضروا لي لوازم الكتابة، فعليّ أن أوصل لسيدكم رسالة هامة». فأمر المسؤول بذلك، وحين جهز كل شيء استأذنه بالانصراف وقدم له تمنياته.

حرّر (دَومِتِيانُس) كتاباً مرفقاً برسالة (بالْبُس)، ثم تخلص من ماء الاغتسال وتوجه صوب إحدى النوافذ. وكان أمامه السهل الغربي بأبراج قبوره، وخلفه الجبال يلفها ضباب رقيق، فأخذ يتخيل أنه يستشعر نسيم قممها البارد. وكانت ثمة نقطة سوداء تدور بهدوء فوق الوادي، أتُراها نسر أم صقر. كاد (أودُو) يتلمس المنضدة حيث الرسالة حين التفت (دَومِتِيانُس) لينصرف.

وكان أن اصطدم رأس رجل دخل للتوّ بالدرع الواقي لصدر المندوب وقد تعثّر بردائه الفضفاض، وصوته يعلو باللعنات. تراجع (أودُو) إلى الحائط من دون أن يلاحظ ذلك أحد وحبس أنفاسه. وكان الزائر الأخير آمر المدينة، (زنوبيوس). وقد دخل يتبعه بفارق خطوة (فُوَرودَس)، نائب الأمير ومستشاره المقرّب. فوقف آمر الشرطة المربوع القامة بين الرجلين اللذين جدد كل منهما نفوره من الآخر بالتحديق في عينيه، وطالبهما بضبط النفس. ولم يعر أحد منهم اهتماماً للعبد الصغير عند الحائط. وبعد لأيٍ تعقّل (دَومِتِيانُس) وتراجع خطوةً إلى الوراء.

«آه، هل أردتم أن تقابلوا الأمير، أيها السادة النبلاء؟ لكنه ليس موجوداً». وكان صوته الخشن يتناسب ووجهه الداكن، ولحيته السوداء، وأنفه شبه الإغريقي الذي كان قد انكسر عدة مرات، كما يتناسب وذراعيه المتصالبتين، اللتين ألمحتا أنه لن يقول المزيد، إذ إنهما لم تعتادا الكذب.

ولم يكثر هذا الرجل من الكلام البتة، كما لم يختلط بالناس، فقد كان غريباً عن تدمر، وينحدر من بلاد پارث، وكان الأمير قد التقاه في إحدى غزواته، فكلّفه بتأسيس سلاح الفرسان، وكان يروق له أن يقضي أوقاته في حظائر الخيل. كان (دَومِتِيانُس) على علم بالنكات التي كانت تُروى في

Twitter: @ketab_n

المدينة عن ولعه بالخيل، لكنه لم يرد أن يكررها على مسمع منه.

فانحنى المندوب أمام (زنوبيوس) قائلاً: «هذا ما سبق أن قيل لي كذلك، ويبدو أننا نحن الإثنين قد قطعنا هذا الطريق من دون جدوى. هلاّ سمحتم لي؟». لكنه لم يقوَ إلاّ أن يضيف:

«أطيب تمنياتي للآنسة ابنتكم، فقد سمعت أنها حسناء حقاً». وبهذه الكلمات غادرهم.

انتظر (فُورودَس) حتى انغلق الباب وراء (دَومِتِيانُس) فأومأ لزنوبيوس أن يتفضل، ثم دخل التدمريان غرفة الأمير الخاصة من دون تأخير.

حين عاد رئيس التشريفات وجد الغرفة خالية، وثمة مروحة من الريش تستند إلى الحائط، أمّا الرسالة فلم يبقَ لها من أثر.

* * *

حين سلك زنوبيوس طريق العودة كانت ابتسامة المندوب العميقة المعاني لا تزال تؤرقه. وساد الصمت في أروقة القصر، ولم ينمّ أي صوت عن صفوف النوافذ المغلقة، فأنعش وجهه عند حوض نافورة، ورأى انعكاس وجهه يرتجف في الماء. وكانت بضعة زنابق ماء تطفو بصمت على هذا الانعكاس، فدفعها بإصبعه: ليست هذه سوى ألعاب للنساء، فهي ستعجب زنوبيا. زنوبيا! ابنته حسناء بلا ريب! لكن، بحق الشيطان، أنّى للرومي أن يعرف ذلك؟

استدار فجأة واتجه صوب المخرج، وجد مِحفّته المغطاة متروكة في الشمس الساطعة، فنادى الحمّالين بغضب وظل يكيل لهم اللعنات حتى من خلال ستائر عربته المغلقة، حيث كان الهواء داخلها خانقاً على نحو لا يصدّق. ووجد على الوسادة منديلاً، فأخذ يمسح به وجهه ممتنّاً، وعرف من رائحته أنه يعود لابنته. ولا شكّ في ذلك، فها هي قطعة القماش الثمينة ذات التطريز الذهبي التي كان قد أهداها لها مؤخراً. ابنته تترك الأشياء ملقاة هنا وهناك ما لم يتنبه المرء إليها دوماً، فهذا التهور من طبيعة النساء، بل وحتى من طبيعتها. وراح ينشّف جبينه المتعرق بالمنديل من جديد، لكن رائحة

Twitter: @ketab_n

قطعة الحرير صارت فجأة كريهة، فأزاح الستائر جانباً كي يتنشّق شيئاً من الهواء. لمح مجموعة من الأطفال يتضاحكون من كلبين يتجامعان، وبدا له للوهلة الأولى أن أحد الأطفال يشبه زنوبيا، لكن نظرة ثانية طمأنته. لا، هذه ليست هي، إذ كان قد جعل أحدهم يؤدّبها بالجَلْد كي تتوب عن المغامرات إلى الأبد. أمّا الآن فقد صارت فتاةً هادئة، وهو على يقين من ذلك، وتنتظرها زيجة برّاقة، بل ارتباط سيجلب لهم جميعاً امتيازات جمّة. وهنا اتخذ قراراً.

«هيه، هاه، يا جاموساً ذا جلدٍ غليظ، هيه! إلى السوق! خذني إلى متجر (كلاوكوس)»، أمر مرافقه. لا ينبغي لأيٍّ كان أن يتفوّه بتعليقات مهينة حول ابنته، بل على المرء أن يحافظ جيداً على جوهرة بهذه الدرجة من النفاسة.

كان متجر (كلاوكوس) العنوان الأول في تدمر لاقتناء العبيد الذين يفوق طولهم متراً وثمانين سنتيمتراً وتكون أطراف أجسادهم متناسبة، وهم لمن يفضّل الجودة، إذ كان المتجر يحوي المتميّز والنادر، وموقعه قريب من خان القوافل.

«إنني في حاجة إلى حارس شخصي من نوع ما»، حاول (زنوبيوس) أن يوضح له بعد أن اتخذ مقعداً في إحدى غرف المبيعات وقُدِّم له كوب من الشاي.

«آه، نعم، فهمت. هل سيستخدم داخل حدود المدينة أم سيرافقكم أيضاً مع الحرس؟».

«لا، لا. شكراً». تناول (زنوبيوس) كوب الشاي الفضي الذي قدمه له (كلاوكوس) شخصياً، وامتلأ أنفه بأريج الزنجبيل. فانتظر حتى نصب العبد المنضدة الخشبية أمامه ووضع فوقها الحليب والعسل. كانت غرف (كلاوكوس) متميزة، وجميعها لها أناقة غير صارخة. وكان لون هذه الغرفة سماوياً فاتحاً، وكانت تخلو من أية صور تحوّل الانتباه فيما عدا طواويس امتدت في زوايا السقف الأربع، وبدت كأنها ترنو إلى وسط الغرفة حيث انتصبت مصابيح ثقيلة على مخالب طيور من البرونز كي تضيء منصة العرض الأسطوانية التي وُضعت هناك بأناقة بالغة.

«لا أحتاج إليه لنفسي»، أردف (زنوبيوس) قائلاً بعد أن صارا وحدهما.

Twitter: @ketab_n

تحوّل بصره إلى رسم الريش على طول موزاييك الأرض. «بل أبحث عن حارس شخصي لنسائي». لم يرفع (كلاوكوس) حاجبيه، ورغم ذلك أضاف ضيفه بسرعة:

«لقد غدت الشوارع خطرة منذ أن اقتربت الحرب منا. ومع قدوم اللاجئين ازداد تسكّع الرعاع. ينبغي أن يرافقهن شخص يكون مجرّد مظهره كافياً للحيلولة دون اقتراب الشحاذين والمتجاسرين. يجب أن يكون طويلاً و...». وأخذ (زنوبيوس) يوضح بوساطة خديه المنفوخين وقبضتيه المكوّرتين وكتفيه المرفوعتين وعينيه الغائرتين عمّا يتصوّره.

«فهمتُ». صفّق (كلاوكوس) وهمس بتعليماته في أذن مساعده. «إذن يجب أن يكون حازماً، ومستعداً للقتال، ومثيراً للخوف، أليس كذلك؟». وجّه كلامه هذا إلى (زنوبيوس) مرة ثانية، وكأنه يتأكد أنه فهمه، فأومأ هذا الأخير بالإيجاب وهو يرتشف الشاي. اقتيد المرشح الأول وأخذت المنصة تدور بهدوء.

«هذا العبد ينحدر من (كالِدَونيا)، ولا أدري كيف عبر الحدود، وفي كل الأحوال كان ذات مرة على سفينة ضخمة ذات مجاذيف، لكن الندوب في جسده قد التأمت تماماً من دون نقصان. وجده وكلائي في جزيرة (رَودَوس) حيث كان مالكه آنئذ يسخّره للمبارزة في الأسواق، ويبدو أنه ترك انطباعاً مثيراً لدى الزائرين».

«قد يكون هذا الانطباع أشدّ من اللازم». كان (زنوبيوس) يحدّق من دون رحمة إلى رجل عديم الرقبة، بشرته شديدة الاحمرار، وبدا صغير الحجم لأن ساقيه القصيرتين وعضلاته المفتولة وردفيه العريضين جميعاً جعلت عرضه كمثل طوله. لقد كان جسده كالقبضة الخشنة المكوّرة، وكان وجهه، بقدر ما كان بادياً منه من خلال لحيته، يتكوّن من عضلات المضغ. انتشرت على ظهره كتل من الشعر الأحمر يكاد يمكن ضفرها، كما كانت حال شعره ولحيته.

«لا، بالتأكيد لا. لا ينبغي أن يرتعدوا خوفاً منه، إذ لا بأس أن يكون مظهره متمدّناً بعض الشيء. كما ينبغي أن يتكلم لغة معروفة، أو أن يفهمها

Twitter: @ketab_n

في الأقل، كي يسند إليه المرء بعض المهمات البسيطة، مثل التسوّق».

«فهمتُ». كان (كلاوكوس) قد أعطى تعليماته، وظهر فوراً رجل جديد. وسرعان ما رنّت «لا» ثانية من (زنوبيوس)، فأومأ (كلاوكوس) للنوبيّ بالمغادرة، ففعل ذلك بخفة الهرّ الوحشي الصامتة، ولم يتسنَّ للضوء أن يلمع على جسده البديع الجمال لأكثر من لحظة. وأسند (زنوبيوس) و(كلاوكوس) ظهريهما إلى الوراء وتجاذبا أطراف الحديث حول الجو وقضما حبات الفستق حتى شعر تاجر الرقيق أن التوتر الذي سبّبته كثرة الخيارات التي قدمها لزبونه قد خفّ.

«أمّا هذا القادم الآن»، قال أخيراً، «فقد سبق أن كان حارساً شخصياً لقاضٍ روميّ. آه، ها هو الآن. انظروا إلى هذين الكتفين! هذا غوطي قوي ومجرَّب في القتال وذكي للغاية، إذ إنه يجيد اللاتينية، كما يبدو من ملفه، وهو يفهم شيئاً من الآرامية. وقد كان القاضي وعائلته راضين عنه تماماً».

«لِمَ هو هنا إذن؟»، قال (زنوبيوس) من دون أن يحوّل نظره عن القامة المنتصبة على المنصة.

«كان قد ردّ مهاجمين عدة- فلنَقُلْ - أثناء قيامه بواجبه، ممن لم ينتهوا نهاية طيبة. حين كسر رقبة قاطع طريق من (كالابْريا)، لم يزعج ذلك أحداً. لكن الرجل الذي أرسله إلى المقبرة أخيراً كان مبارزاً شهيراً لم يعتش من الاغتيال، كما يبدو، إلا فيما ندر، كما كان محبوباً لدى نسوة الروم، وفهمكم كفاية. فارتأى سيده أن من المنصوح أن يبيعه إلى أحد ما في إحدى الولايات النائية».

اقترب (زنوبيوس) من الغوطي البالغ الشقرة، الطويل الشعر، الذي كان يقف أمامه بكل هدوء. «لِمَ قتلتَ المبارز، يا غلام؟».

«كان قد أهان شرف سيدي». أبدى آمر الشرطة، من دون أدنى حركة، مدى استحسانه لهذا الجواب، وأدار المنصة بدعسة من قدمه. وحين أخذ ينظر في وجه الغوطي، أوقفها فجأة كذلك. كانت عيناه بزرقة ينبوع (يَفتا)، حين تنعكس فيه زُرقة السماء، ولم يقوَ (زنوبيوس) على استقراء أي شيء فيهما.

Twitter: @ketab_n

«ماذا تريدون مقابل القاتل إذن؟»، قال عرَضاً متطلعاً إلى (كلاوكوس)، الذي عاجله بابتسامة.

«سيكون شبه مُهدى، يا آمر المدينة النبيل، شبه مُهدى». تبعت ذلك مفاوضات عسيرة حتى رضي (زنوبيوس).

«حسناً، سآخذه».

«ممتاز»، أجاب (كلاوكوس) بصوت يدلّ على فرك الأيدي فرحاً.

«هذا خيار متميز. هل تأخذونه معكم أم تودّون أن نوصله إليكم؟».

Twitter: @ketab_n

مسيحيّون في ما بينهم

كان (كلَيمَنس)، تاجر الحرير، يجلس في مكتبه ويرتّب وصولاته، حين أوقفه نداء زوجته العالي.

«يا (كلَيمَنس)، يا (كلَيمَنس)!».

«ما الأمر، يا غنمتي؟». وأضاف ورقة أخرى إلى الكومة الموسومة «ديون»، تحت الجمل البرونزي الذي كان بمثابة ثقّالة على مكتبه.

«يا (كلَيمَنس)، احزر مَن جاءنا؟».

«لا بد أنكِ ستفصحين لي عن ذلك، يا غنمتي». وحين رفع عينيه، كان الضيف غير المتوقع قد وقف أمامه.

«إنه (تَوماس)، من أنطاكية».

كانت (يوليا) في غاية الحماسة، فها هنا لاجئ حقيقي في بيتها، هذا المسكين. حاولت أن تومئ لزوجها أن يتحمس بدوره، من دون أن يلاحظ الضيف ذلك، إذ كان زوجها، كما تعلم هي، يرى في ابن عمها شخصاً متعصّباً مزعجاً. بَيْد أن (كلَيمَنس) رحّب بالضيف بحرارة، على العكس من مخاوف زوجته. وراحت خطى صندلها، التي بدت حثيثة بقصد القيام بمشروع ما، تُسمع على الدرج.

«يا (أودُو)، أين اختفى ذلك الغلام من جديد! يا (أودُو)، أغلق المتجر واذهب لإحضار خبزٍ طازجٍ، إذ لدينا ضيوف، أتسمعني؟». وتلاشى صوتها في اتجاه المطبخ.

في هذه الأثناء صبّ (كلَيمَنس) الماء المعطّر على يديّ (تَوماس) بنفسه، وبينما كانت قطرات الماء تتساقط في الإناء النحاسي أخذ يفكر في ما يمكن أن يكون في جعبة ابن عم (يوليا) من أنباء.

Twitter: @ketab_n

كان (كلَيمَنس) قد سمع باضطهاد (ڤالَيريان) للمسيحيين في أنطاكية، لكنه طمأن نفسه أن القيصر المفتقر دوماً إلى الأموال لم يضع نصب عينيه سوى ثروات أمراء الكنائس الأغنياء. أمّا (كلَيمَنس) فكان يثمّن العلاقات المنتظمة التي تسم حياته، ولم تعجبه البتة أنباء السوء، لذا لم يرَ بأساً في أن يكون التحشيد الفارسي قد حجب عنه أنباء أنطاكية برمتها.

«تفضل، يا (تَوماس)، وقل لي؛ كيف هي أحوالك؟».

«كيف ستكون أحوالي، يا (كلَيمَنس)، حين يعدّني أبناء بلادي عدواً لهم، والمطران رهن الاعتقال، والناس قد صودرت أموالهم، وكل مسيحي صالح مهدّد بالإعدام إذا قبض عليه في تجمع تحت شارة الصليب؟».

تبلّع (كلَيمَنس) ريقه، لكن زوجته التي دخلت تحمل الصحون المتلقلقة وفّرت عليه الإجابة.

جرت مراسم العشاء في شبه صمت مطبق، وراح المضيفان يحدّقان بعقدة ذنب متنامية كيف كان (تَوماس) يأتي على ما في صحنه إلى آخر ما فيه، ويمسح بكمّيه فمه المغطى بالدهن، ويمدّ يده بغلظ الإبهام إلى التمر ذي الحبة الكبيرة، الذي قدمته له (يوليا) من قبيل الحلوى، وهو لم يكمل مضغ بقية طعامه بعد.

«دعوني أقدم دعاء الليل تعبيراً عن شكري لكم». فشبك مضيفاه أياديهما ببعض وهما يتبسمان وطأطآ رأسيهما.

«يا ربّ، قال النبي: لأعاقبنّ أولئك الذين أحبهم، ولأجلدنّهم. فكفّروا عن ذنوبكم من دون انقطاع و...».

«يا ابن العم، أنا...»، ربّت (كلَيمَنس) على كتفه يخفف عنه، «... أقصد أننا جميعاً... هذا البيت بيتك بالطبع... و...»، أومأت (يوليا) إليه متحمسة.

«أشكر لك تفهّمك، يا ابن العم، لكنني سأكمل رحلتي غداً، إلى الإسكندرية».

«إلى الإسكندرية؟ حسناً، ولكن...».

«ثمة رجل هناك قد تعرّف على الإشارات، ويقوم بجمع طالبي الشهادة حوله. وتماماً كما هو مدوّن في سفر الرؤيا: لن يبقى القيصر قائماً ولا دولته.

Twitter: @ketab_n

العاهرة الكبرى بابل تترنح وستُسقِط معها جبروتها. وقد جرّت أنطاكية معها في سقوطها، فوقعت على الارض وهي تنزف دماً من جروح عديدة. وتَفَكَّرْ؛ لقد كُتب أن التجار في الدنيا سيبكون ويتعذبون، إذ لن يشتري بضاعتهم أحد بعد ذلك كله».

«لكن الأمر على العكس من ذلك»، احمرّ وجه (كلَيمَنس) غضباً. «سواء أكنتُ تاجراً أم لم أكن، فأنا مسيحي صالح مثلك تماماً». وتجاهل التمر الذي دفعته إليه (يوليا) وهي تبتسم بنشاط بالغ، وأردف يقول:

«وما معنى عبارة «العاهرة بابل» هنا؟ هل هو واضح لديك أنك لولا هذه لما وصلت إلى هنا؟ مَن يعبّد الدروب؟ ومَن يؤمّن البحار؟ ومَن يعدّ مجدداً لتخليص أنطاكية من الفرس، كي لا نضطر جميعنا أن نصلّي لزرادشت؟ أين الدافع للموت في ذلك كله؟».

«إنك تتكلم متهكّماً مثل ذلك الموظف من (بيثينيا)، الذي طالب مثتين من إخواننا بتقديم القرابين الوثنية، وحين أبَوا إلاّ أن يستشهدوا، ضحك منهم وقال ليس لأولئك الذين يرومون الموت سوى جروف الجبال وحبال المشانق».

حدّق (كليمَنس) و(يوليا) بعضهما إلى البعض الآخر، إذ كانا قد أُجبرا على الخيار ذات مرة، فإمّا أن يقدما الأضاحي لملكة السماء (جونو) أو أن يهلكا ثمناً لعقيدتهما. وكان القيصر في ذلك الوقت قد أمر جميع المواطنين أن يقيموا الطقوس، إذ كان يرى في اضمحلال الفضائل الرومية الأصيلة سبباً للاضطرابات الدائمة في الدولة. ولم يرَ (كليمَنس) في ذلك الرأي أي خلل، بل كان يجد أن بعضاً من هذه الفضائل، من دون غيرها، قد أخذت مكاناً لها في دينه: التقوى والاعتدال والإخلاص والمسؤولية. وكان الحل رشوة زهيدة للكاهن، ووجد هو و(يوليا) عزاءً في أن الخمسين ديناراً الموسومة بصورة القيصر هذه إنما هي ما أعطاه ربّهم لقيصر ذات مرة. لم يكن ثمة بديل من روما، ولن يدع (تَوماس) بالذات يقنعه بعكس ذلك. أخذ نفساً عميقاً لكن (يوليا) سبقته مسترضيةً:

«كان ذلك الموظف من (بيثينيا) قد سمع ولا ريب بأنه لن يُفرح

Twitter: @ketab_n

المسيحيَّ شيءٌ أكثر من تضحيته بحياته من أجل دينه، لذا لم يرد أن يمنّ عليهم بهذا النصر. أولئك هم الروم».

كاد (كلَيمَنس) يغصّ بتمرة متأثراً بسيمائها البريئة، فأخذ يسعل ويومئ بيده الحرة معتذراً. لكن (يوليا) ربّتت على ظهره من دون إحساس كبير بالذنب، ثم انسحبت مودّعة ضيفها. وهبّ على (كلَيمَنس) تيار هواء بارد من الباب ذكّره بإرهاقه بعد هذا اليوم الطويل، ذلك الإرهاق الذي تزول معه الرغبة في الجدال.

«ما حال قرينتك؟»، انتهز الفراغ الحاصل. «يبدو أنها لم تودّ أن تتحمل مشقة السفر. لو جاءت لسعدنا بالترحيب بها».

«(كلَيليا) بقيت كي لا تتوقف عن التكفيرات التي أوصى بها القسّ. ولم تكن أهلاً للاستشهاد».

كان (كلَيمَنس) قد رأى (كلَيليا) مرة واحدة وحسب، كانت ذات شخصية هادئة وشعر فاتح للغاية، وكانت قد خطت خارج المطبخ كي تتمتم ببضع كلمات تحيةً للمسافرين.

«وماذا فعلتْ؟ هل أطلقت لعنةً ما حين فار الحليب وانسكب؟»، حاول أن ينكّت نكتة سخيفة، لكنه ما لبث أن ندم عليها ندماً كاد يصفع وجهه بسببه.

«لقد جلبت انتباه بضعة جنود فُرسٍ حين تابعت من نافذتها تولّجهم إلى المدينة، فاقتحم هؤلاء الرجال البيت واغتصبوها، كما عانت بضع جارات لها المصير نفسه». واستعجل كي يقطع الطريق على تعليق مترقب من (كلَيمَنس).

«لكن، وبعون الإله، سيتم الصفح عنهن كلهن قريباً. ويخطر في بالي الآن أنني لا أعرف أين رتّبت لي (يوليا) بلطفها المعهود منامتي، وأرجو أن تكون قد أمرت عبداً ما بذلك، فلا يصحّ لنا أن نوقظها».

* * *

بعد قليل، وبتنهّد ملؤه الرضا، ارتمى (كلَيمَنس) على السرير بجانب

Twitter: @ketab_n

(يوليـا)، التـي تململت في نومهـا. كان لا بد لقرينة ضيفـه أن تخطر في باله، فوضع ذراعه على جسد زوجته برقّة. وقال في نفسه أنه سيحميها دوماً.

«(كلَيمَنس)، هل غادر؟».

«خِلتك نائمةً. اخلدي للنوم، يا (يوليا)».

«لا، لا، فأنـا يقظـة للغايـة. وأنـت تعرف أننـي لا أقوى علـى النوم من دونك». تنهّد (كلَيمَنس).

«عمّ تكلمتما إذن كل هذا الوقت؟»، كانت (يوليا) قد شـرعت بإشـعال قنديل الزيت من جديد، الذي كان على شـكل شـعلة يحملها صبي ريّان عارٍ تماماً، الأمر الذي طالما أثار حفيظة (كلَيمَنس).

«كما خلقه ربّه»، ما فتئت (يوليا) تقول، مدافعةً عن لعبتها المفضلة، «لا بد أن ملائكة السماء على شاكلته». لـم يفكر النحات الإغريقي البتة في سعاة الإلـه الأطهار حين اجترح هذه المؤخرة، قال (كلَيمَنس) في نفسـه متجهماً. حاولت (يوليا) جاهدةً أن تشعل الفتيل.

«ما أنباء (كلَيليا) إذن؟».

«لِمَ تسـألينني عنها؟»، أحس (كلَيمَنس) أنـه صار في حيص بيص. هل في مقدورها أن تقرأ الأفكار؟

«لقد تجادلنا حول، آه، مسـائل كنسـية وحول كلام القديس يوحنّا؛ أنتِ تعرفين المقطع الذي يتنبأ فيه أن...».

«آه، يـا لك من مسـكين. لكني سـمعتك تسـأله عنها وأنا أتـرك الغرفة، أليس كذلك؟ ألم يجبك بشيء؟».

لم يخطر في بال (كلَيمَنس) أية فكرة، فأخذ نفساً عميقاً:

«نعـم، سـألته فقال لـي إنهـا تقيـم التكفيـرات لأن جنوداً مـن الفرس، آه، جلبـوا لهـا العـار». هذه هـي الأنبـاء، وعليها أن تجـد طريقتهـا الخاصة في التعامل معها.

«جنود عدة في آن معاً؟».

«ماذا تقولين؟ يا إلهي، لم يعطني كل التفاصيل الدقيقة بالطبع». ورسـم شارة الصليب: «ربّي، سامحني، فقد تلفظت باسمك في لحظة غضب. لكن

Twitter: @ketab_n

بوسع هذه المرأة أن... ألا يخطر لكِ في بال أي شيء آخر في هذا الصدد؟»، أخذ يؤنب قرينته. «(تَوماس) قانط و...».

«لا بـد أن (كلَيليـا) أشـد منه قنوطـاً، تلك المسـكينة». انقلبـت (يوليا) علـى ظهرهـا وهي تفكـر، وحدّقت إلـى يديها التي كانت تمسّـد بهـا الغطاء على جسدها.

«تُرى ما حالها؟ هل هي في صحة وعافية؟ أرجو ألاّ تكون حبلى؟».

«لم أسأل عن ذلك».

«طبعاً»، قالت له متهكمةً، إذ لم تكن قد سامحته على تأنيبه لها بعد.

«كيـف للمـرء أن يتقصى أمـراً كهذا؟»، أخـذ يدافع عن نفسـه. «إنه أمر مريع للرجل، ولا أدري ما أنا فاعل إذا كنتُ - إذا كنتِ...».

«ليـس بمقـدوري أن أحمـل، فـي الأقـل، بعـد أن حصـل عنـدي ذلك الإجهاض».

«(يوليـا)!»، طفح الكيل عند (كلَيمَنس). «ألا تخجلين من التكلم عن تلك المحنة بهذا الاستخفاف؟». كان (كلَيمَنس) قد احمرّ من الغضب، بينما أخذت (يوليا) تضحك من زوجها الحساس للغاية.

«لا تُعَـدُّ تلـك محنـةً لأناس من سـنّنا»، قالـت معزّية وهي تمسّـد خده السـاخن. «لـذا لا داعـي أن تمتنع عنـي»، وجعلتْ يدها تجـول تحت غطاء السرير، «ولا أن تضطر لاستعمال أمعاء الغنم».

«(يوليـا)، أرجـوك! (يوليـا)! أبعـدي إصبعك عـن هنـاك». إلامَ وصل هذا الحديث!

«ولِـمَ لا؟ هذه حقوقي الزوجية، فكل هـذا ملكي»، تودّدت له في أذنه، واسترخى هو بعد أن قاوم الإغراء لفترة.

«(يوليا)»، قرقر في أذنها أخيراً وضمّها إليه أكثر.

«وسنرسـل غـداً أحدهم إلـى أنطاكية كي يسـأل عنها، إذ لا بـد أنها في حاجة إلى المال».

«ماذا تقولين؟»، استشاط (كلَيمَنس) غضباً من جديد.

«لربما ينبغي علينا أن نستقدمها إلينا، تلك المسكينة الوحيدة».

Twitter: @ketab_n

«لا، يـا (يوليـا). بدايـةً تفعليـن كل هـذا والآن تريديـن أن تتحدثـي عن (كلَيليا)».

«على أحدنا أن يعتني بها». وحضنته أكثر وهي تتضاحك.

«ليـس مـن الإنصاف أن تتملّقي لـي على هذا النحو». أخـذ (كلَيمَنس) يتشكّى.

«أنـت تعلم»، وقبّلته، «أننـي لا أقوى»، ثم قبّلته مـرة ثانية، «أن أقاومك مطلقاً».

«تقصدين طبيعتي الكريمة»، مطّ (كلَيمَنس) شفتيه استياءً.

«بل أنت بشحمك ولحمك. أطفئ النور».

Twitter: @ketab_n

خطط لزنوبيا

نجحت زنوبيا بعد التصادم مع (بالْـبُس) في أن تعود إلى منزلها وتدخل غرفتهـا مـن دون أن يلاحظ ذلـك أحد، حيث اغتسـلت وأخفت ثوبها تحت فراشـها، ولا بـد أن يبقى هناك حتى تسـنح الفرصة لدفنـه أو حرقه. وارتمت أخيـراً علـى فراشـها وغرقـت فـي البـكاء، ثـم وجدتها (عطـاي) هنـاك، إذ استدرجتها زفرات البكاء الغاضبة، فأسندت رأس الفتاة إلى حضنها ومسّدت جسدها المتشنج.

«لا بأس عليكِ، يا صغيرتي، لا بأس عليك». ما كان أمام (عطاي) سوى التخمين حول ما قد حصل منذ أن أخلدت إلى النوم.

«أأغضبـكِ (گـاش) من جديد، يا حبيبتي الصغيرة؟». لكن زنوبيا هزت رأسها بشدة وحسب.

«هل إن الأمر على هذه الدرجة من السـوء؟ إذن تعالَيْ لأروي لكِ قصة قيصـر وكليوبتـرا؛ فأنتِ تحبينهـا، أليس كذلـك؟ إذن: أراد القيصـر الروميّ أن يغـزو بلادهـا لكنه وقع تحت سـحر فتنتها وظرافتهـا، وحصل ذلك حين رآها أول مرة، فنسـي كل جيوشـه ولـم يعد يبغي سوى أن يخلد إلى النوم عند قدميها». تنشّقت زنوبيا بصوت عالٍ.

«ألا تريديـن أن تعرفـي ما أهداهـا؟». وكانت هذه طقـوس لعبة قديمة، تملـي أن يتمّ سـرد القصة بصيغة السـؤال والجـواب. وكان من عـادة زنوبيا أن تقـوم بدورهـا بحماسـة وإصـرار، لكنها تبلّعـت وأنّـت الآن وهي تخفي وجههـا في حضـن مربيتها. لكن، وبعـد صمت وهدهدة طويليـن، جاء الردّ بصوتها المختنق:

«وماذا أهداها؟».

Twitter: @ketab_n

«عربـة نصرٍ يجرّهـا مئتا عبدٍ نوبـيٍّ، وقد رُصّعت عـدة لجامهم بالزمرّد النقي». تنفست (عطاي) الصعداء وهي موقنة أن الأزمة قد مرّت.

«ألم، ألم يحذّره مجلس الشيوخ؟»، مسحت زنوبيا آخر دموعها.

«بلـى، حذّره ألاّ يقع تحت إغـراء العاهرة المصريـة، وأن يتذكّر منصبه ومهمته».

«وبِمَ أجاب قيصر؟».

«يا إلهي، كم تصبّب عرقي. ظننت أنني لن أفلت حيةً من هناك».

لـم تكـن تلـك كلمات قيصـر التـي سـجلها التاريـخ بتاتاً، بـل كلمات ياسـمين، زوجة (زنوبيـوس) الثانية، التي طغى صوتها علـى أصوات جميع العائدات إلى المنزل معها.

لا بـدّ أن الزيارة لـدى عقيلة المندوب قد انتهت، وعلا صوت الضحك وانصفاق الأبواب، وألقت أشـعة شـمس المغيب المغبرّة حجاباً على الغرفة وعلى قامة (زِيمَه) التي دخلتها.

«ماما!».

اعتصر جسـد زنوبيا بالحنين الذي كان يراودها دوماً حين ترى والدتها الجميلـة هاتيـن العينيـن المسـتديرتين، واللمعـان الهـادئ فـي وجههـا بين انعكاسات أقراط أذنيها البرّاقة، وسواد شعرها الداكن.

تنشّـقت زنوبيـا بعمق كي لا يفوتها شـيء من العطر الـذي ما فتئ يرافق (زِيمَـه) أينما ذهبت، إذ كان خلاصةً حضّرتها لها (أُومَه) المصرية بوحي من برج طالعها، وهي خليط من خشـب الصندل، والحبق المتسـلّق، والكزبرة، ورحيـق الورد. وتغلـب هذا الخليط، وهـو أريج طفولتها، علـى بقايا رائحة الثـوم التـي ظلـت آثارها فـي أنفها. فقفـزت وركضت صوب أمهـا وتعلّقت بها من رقبتها.

انحنـت (زِيمَـه) صـوب ابنتهـا. «لقد غـدوتِ ثقيلة الـوزن، يـا مُهرتي الصغيرة».

«بل هي مُهرة كثيرة العظام»، قاطعتها (عطاي) معترضةً.

«لقد أرسـلتْ لكِ معنا قرينة المندوب كعكات معسّـلة ومشمشـاً، كما

Twitter: @ketab_n

أبـدت اهتمامـاً شـديداً بكِ. أتريديـن أن تأتي كـي تأخذيهـا الآن؟». أومأت زنوبيـا بالإيجاب من دون أن تترك أمها للحظة، فأخذت (زِيمَه) تجرّها، بدل أن تمشي هي، إلى حيث الأخريات في حجرة النساء.

لقـد كانـت هـذه الحجرة أهـدأ مكان فـي المنـزل كلـه، لا يفصلها عن الباحة الداخلية سـوى شـبك خشـبي وسـتائر برسـم الزهور، لكنها في تلك اللحظـة كانت تضجّ بثرثـرة الحريم والمربيات وضحكاتهـن، وهن يتحلّقن في جلسـة غير مريحة على الأرض. ثم بدأن يأكلن الحلوى ويطعمن بناتهن منها، ويمسّـدن قمم رؤوسـهن، ويمسـحن أفواههن، ويدغدغنهن، أو يعدن ضفر شـعورهن. وكانت ياسـمين قد ثبّتت لتوّها سـكك السـتائر التي كانت قد أُسـدلت حجباً لقيظ النهار، وقد أخذت تصطفق الآن مع نسـائم المسـاء. واسـتلقت النسـاء، وهن يتنفّسـن الصعداء، على الوسـائد حين صار النسيم العليـل يصلهـن، ممتزجـاً بعطـر التـراب المنعـش. فأخـذت الثريـا تتمايل بفعل النسـيم مصلصلةً وهي تنثر رقعات سـحرية من الضـوء على اللوحات المرسـومة على الجـدران، وقد بدت فيها طيور السـنونو وهـي تتطاير حول سلال الفواكه، كما كانت الألوان فيها تتلامع تحت أشعة الشمس المتلاشية. وكانـت الثريـا موضع فخـر (زِيمَه)، فقد كانـت هدية زوجها من مـزاد أُعلن للتخلص من ممتلكات تاجر زجاج أصله من (أفسوس) كان قد أفلس. وكان زوجها قد اقتنى لنفسه بنت التاجر الصغرى، ياسمين، بسعر زهيد، وهي التي أمسكت بزمام المبادرة الآن.

* * *

«لا، فقد كانت ثيابها في نظري لا تمتّ إلى الأناقة بشيء، كما أن اللون البنّي هو اللون المفضّل عند الفلاحين»، قالت ذلك في الحال.

«أنـتِ لا تفهمين شـيئاً من الأناقة الرفيعة»، قاطعتها (زِيمَه) وهي تسـند قمة رأس زنوبيا إلى حضنها، ثم تابعت تقول:

«لقد سبّب لنا لسانك ما يكفي من المتاعب هذا اليوم، يا ياسمين».

لـم ترفع ياسـمين عينيها، بل مسـحت بشـدة بقعـاً في ثـوب ابنتها حتى

Twitter: @ketab_n

صارت الصغيرة تنتحب من المعاملة الخشنة. فدافعت (أويات) عن الامرأة المهانة في هذه الأثناء.

«وأنّى لها أن تعرف أن زوجة المندوب الثانية بكماء؟».

«بكماء؟»، تساءلت (عطاي) متعجبةً.

لا، ما كان بوسع ياسمين أن تعرف ذلك فعلاً، بل لم يكن معلوماً لديها أن تعدد الزوجات غير معمول به لدى الروم. لقد كان سنّ مضيفتها المتقدّم كفيلاً بأن يجعلها تفترض أن الامرأتين الشابتين اللتين وقفتا على خدمتهن تتقاسمان الواجبات الزوجية مع زوجة المندوب. فلم ترَ ضيراً في أن تسأل الفتاة التي بان أنها حبلى إذا ما كان ذلك طفلها الأول.

لم تكن الجارية معتادة حديثاً من هذا النوع الحميم، لذا لم تنبس ببنت شفة، بل أخذت تحدّق إلى سيدتها التي لم تكن أقل حيرةً منها، حتى أومأت إلى هذه الأخيرة بالانصراف من الحجرة. أمّا (زِيمَه) فقد افترضت، تلطّفاً منها، أن الزوجة الثانية بكماء، وتمنّت أن تنجب لسيدها المندوب رغم ذلك ولداً صحيح الجسم، لكن ذلك لم يخفف من التوتر الحاصل كثيراً.

لحسن الحظ نجحت (أويات) أخيراً في تجاوز الصمت المحرج الذي تلا هذه الزلّة، وذلك بتغيير دفة الحديث وذكر الأمراض النسائية التي تتزامن عادةً وموسم السوق وتتسبّب في إفراز مؤلم وحكّة. اجتذبت تلك الملاحظة انتباه ياسمين الثاقب، التي كان من رأيها دوماً أن مغاطس حليب الإبل كفيلة بمعالجة الأذى. فاستعادت قرينة المندوب لونها وشكرتها على تلك النصيحة.

«ألم تلاحظي»، أردفت (زِيمَه)، حين بلغن تلك اللحظة في استرجاعهن للزيارة، «أن لديها ولا ريب مرضاً نسائياً ما؟ فقد صارت المسكينة متحجرةً من شدة القلق، ولم يعد بمقدور أحد منّا أن ينظر في عينيها. إني لأجزم أن رحمها قد جفّ، وأنتِ لا يخطر لكِ في بال إلاّ أن تفتحي هذه المواضيع».

«لكنني لم أكن إلاّ...»، واندرج دفاع ياسمين عن نفسها في معرض التكهنات، فتساءلت إن كانت الروميّة تسمح بإدخال العضو الذكري في فرجها أم لا. علاوة على ذلك، كانت (عطاي) قد جلبت الصينية الفضية

Twitter: @ketab_n

للتوّ وعليها أواني الشـاي، فوضعتها على قاعدة من خشـب الأرز في وسـط الحجـرة، وأخـذت تخدّر وريقات الشـاي وتبهّـر كل كوب إمّـا بالقرنفل أو القرفة أو النعناع الطازج، حسب الذوق.

«أتعرفن كيف دخل زوجها في ختام الزيارة؟»، قالت ياسمين وهي تزفر فجأة. فتخلّت حتى (زِيمَه) عن شيء من وقارها وانفجرت بقولها:

«في اللحظة التي رفعت فيها (أويات) ثوبها...».

«... كـي أريهـا كيـف يكـون اقتلاع الشـعر بوسـاطة الشـمع»، فهقهت (أويات) وهي تكمل الكلام: «وحين غطيت به ساقيّ من جديد، تشقّق حزام الثوب». عند ذاك لم تقوَ أيٌّ من النسـوة على أن تمسـك عن الضحك، حتى زنوبيا أخذت تتكركر رغم محنتها.

«وهل رأى الكثير؟».

«ما أكثر ما لدى (أويات) للفرجة!»، مازحت (زِيمَه) ضرّتها التي كانت تميل إلى البدانة وتفتخر ببشرتها الناصعة البياض.

«طـاق»، لهثت (أويات) قائلةً، «صدر عن الحزام صوت يشـبه «طاق». وكان قطعة ثمينة للغاية لسوء الحظ: ولم يتركنا المندوب».

«ماذا تقولين؟».

«ظلّ بينكنّ؟».

«نعم، جالسـنا وأخذ يتبسّم للواحدة منّا بعد الأخرى. آه، لم أعد أعرف ما أقول».

«هـل كان ملحاحاً؟»، تسـاءلت (عطاي) مسـتهجنةً. «لو عرف سـيدي بذلك الآن!».

احمرّت وجنتا (زِيمَه) حين تذكرت كيف كان يكيل لها المديح لإعجابه بأقراط أذنيها.

«لا، أرى أنـه ليس ضرورياً أن يعرف شـيئاً من هـذا، فقد كان المندوب مؤدبـاً للغاية. وكان يستفسـر بالتفصيل عـن ابنتنا زنوبيـا، ويهنئنا بلطف بالغ على خطوبتها المجزية». وأخذت في هذه الأثناء تمسّد وجنتي صغيرتها.

«هل تثبّتت هذه الخطوبة إذن؟»، قالت (عطاي) التي كانت تتأرجح بين

Twitter: @ketab_n

الفرح لمرعيّتها والحزن على فقدانها الذي بات على الأبواب.

«لقد فاجأني النبأ أنا أيضاً، لكن المندوب كان قد سمع به من (نَيزا). لربما كان الرجال قد اتخذوا القرار، لكننا لا نعرف عنه شيئاً بعد».

خطوبة؟ خطوبتها هي؟ انصدمت زنوبيا وهي تصغي إلى العبارات الأخيرة. ما معنى هذا؟ عدّلت جلستها ودفعت عنها ملاطفات أمها ومربيتها، وفتحت فاها كي تسألهن عمّا يتكلمن، حين توقفت الثرثرة فجأة.

* * *

وقف سيد المنزل في إطار الباب، وتحت إبطه طرد مغلف بألياف الشجر الملونة. وفي ظل المدخل ظهر (گـاش) وراءه، وقد وقف على مسافة تدل على الاحترام، لكنه ظل يعلو عليه بقامته الفارهة. وكان لظهوره أثر الصاعقة في نفس زنوبيا، إذ استرجعت على الفور مشاهد ذلك العصر. تُرى هل كان قد استشعر خيانتها له؟ وهل جاء الاثنان كي يأخذوها من هناك؟ تناست كل المسائل الأخرى.

كانت الفرصة قد فاتت للانسلال من الغرفة من دون أن يلاحظ ذلك أحد، فانزوت في أحد الأركان المنجّدة التي كانت تستعمل مقاعد للجلوس عند تواجد عدد كبير من الضيوف. وحيث أن أباها كان لا يكاد يلاحظها في حياته اليومية، فقد أخذت ترجو ألاّ يلاحظها الآن أيضاً. ضمّت ركبتيها بقوة إلى صدرها بذراعيها، والتصقت من دون حراك بالوسائد التي أخذ تطريزها اللؤلؤي يخدش وجنتيها.

تبدّدت أمام عينيها السّكينة التي تمتّعت بها في الساعة الأخيرة.

ما فتئ ظهور أبيها يُحدث التأثير المعتاد: فكل النساء اللواتي كن يتمطّين مسترخيات على الوسائد للتوّ وللحظة تحوّلن تحت بصره إلى صورة لطيفة، يكون هدف ما فيها من انحناءات للرؤوس وإيعازات للأيدي إثارة إعجابه وحسب. فبإشارة من (زِيمَه) جمّعت (عطاي) الأطفال الصغار الذين عجّ بهم بلاط الحجرة من دون أن يحسّ بذلك أحد. وأحنت (أويات) عنقها الأبيض كي ترفع بيديها ضفيرتيّ شعرها الأسود الفاحم وتثبّتهما بالدبابيس من

Twitter: @ketab_n

جديد، واختلست نظرة إلى ياسمين التي اعتادت أن تتخلّص، ما استطاعت، من ملابسها الخارجية بمجرد دخولها المنزل، ما جعلها تسارع إلى تناول شال كتفيها المجعّد. رغم ذلك تمكّن (گاش) أن يمتّع ناظريه من فوق رأس أبيه بمرأى بشرتها الحريرية البرّاقة، التي تقوّست بنعومة من رقبتها حتى بداية ظلال التقوّس عند فتحة صدرها. كركرة (أويات) المخنوقة وحدها هي التي نبّهت (زنوبيوس) إلى نظرة نجله المسترقة، فالتفت إليه وبتقطيب من حاجبيه ألمح له أن وجوده لم يكن ضرورياً في تلك اللحظة.

تنفست زنوبيا الصعداء حين توارى (گاش) عن الأنظار، فقد كانت لا تقوى على أن تلتقي عيناها عينيه هذا اليوم أكثر من أي يوم مضى. وبدا أن هذا الخطر قد زال ولو إلى حين.

وتحلّق الباقون حول المائدة المنخفضة، وهم يجلسون على مقاعد الاستراحة لاحتساء النبيذ الذي كانت (زِيمَه) قد طلبته ترحيباً بسيد الدار. كما أمرت الخدم بجلب أطباق الفاكهة الطازجة. وأخذ (زنوبيوس) يتناول الطعام مستمتعاً، بينما ظلت يسراه تمسّد الطرد من دون أن يجرؤ أحد بعد التساؤل عمّا يحتويه.

«لقد كان لي حديث مثير للاهتمام مع الأمير»، أعلن (زنوبيوس) بظُرف على غير عادته، وكان ينقّل عينيه باحثاً بين أفراد بيته المجتمعين. فحاولت زنوبيا جاهدةً أن تجعل من جسدها كرةً أصغر من ذي قبل. ومدّ يده المعتادة إعطاء الأوامر ونادى:

«أنتِ هناك! يا ابنتي الكبرى!». لم يتحرك لها ساكن. «هل خفّ سمعكِ؟ أنتِ المقصودة! تعالَيْ إلى هنا».

ها قد وقعت الواقعة. صعدت وخزة ساخنة من بطنها إلى حنجرتها وخنقتها عند عنقها وكأنها يد حقيقية. كان بوسع المرء أن ينهزم أمام نظرات تمثال الأب على القاعدة الحجرية عند رواق الأعمدة ذاك، أمّا هذا الأب فهو حقيقي، وها هي تغامر بالظهور في مجال رؤيته. لا بد أنه يعرف كل شيء: نزهتها السريّة الأخيرة مع (أودُو)- ولا ريب أنها ستكون آخر نزهاتها- ومواجهتها مع المدعو (بالْبُس)- كل شيء. سمعتْ صوت أمها - الذي بدا

Twitter: @ketab_n

ثقيلاً- عندما طلبت منها أن تأتي، وأحسّت بساقيها تحملانها على الطريق إلى مائدة الطعام. فقد بلغ منها الخوف مبلغاً لم تعد تقوى معه أن تنظر إلى الرجل وعلى وجهها أي تعبير، إذ كانت تتوقع منه أن ينهال عليها فوراً بالضرب المبرّح من دون أدنى ريب. تمعّنتْ في كل طوية من ردائه الذي بلغ بطة رجله، وفي كل يباس في قدميه العريضتين المكتظتين بالمقرّنات، اللتين كانتا منتعلتين، كما تمعّنت في الطوق الجلدي الملطّخ بالزيت حول جبينه، المرصّع بأحجار الجَمَشْت ، وذلك للمرة الأولى من هذا القرب وبهذا الهدوء منذ زمن بعيد.

امتدت يده إليها، من دون أن يحوّل نظره عنها، وأمسك بها من حنكها. وأدار وجهها صوب الضوء، ثم قبض على كتفيها وأدارها عدة مرات في هذا الاتجاه وذاك. وبدا كأنه يبغي أن يجد شيئاً في مظهرها يفصح عنها. تُرى هل أن خيانتها بادية للعيان؟

«لقد كبرتْ على نحو لا بأس به. وتكاد تكون امرأة. إليكِ هذا الطرد. هيّا خذيه، فهو لكِ! هيّا، افتحيه».

ففتحت زنوبيا بتردد غلاف خوص النخل، وكانت تخشى أن يكون فخّاً. وتبدّى لها بين يديها شيء طريٌّ باهت اللون. وحين رفعته من أحد الأطراف، علت من (أويات) وياسمين صيحات الاستحسان. ووضعت (زيمَه) يدها أمام فيها، كما كانت تفعل دوماً حين تتفاجأ بشيء ما. ثم التفتت إلى زوجها وابتسمت له ابتسامة لعوب وهي تهدده بسبّابتها بخُبث:

«تذهبون للتسوّق بكل بساطة من دوني! وماذا نفعل إن لم يكن على قياسها؟».

«بل سيكون على قياسها»، كشّر (زنوبيوس) الذي أخذ يستمتع بالمفاجأة الحاصلة. «لقد قلت للمسيحي إنه لأميرة صغيرة ستكبر قريباً- فأقسم لي أنه سيكون مناسباً لحجمها».

كانت زنوبيا تمسك ثوباً بيديها. قماشه وردي شاحب، رخو ناعم الملمس للغاية، وقد خيطت حاشية فتحة الصدر وطرف الثوب بشريط مذهّب، كما زُيّن كتفه الوحيد بمشبك ذهبي، وكان هو بدوره - كما هي

Twitter: @ketab_n

الحال في الحزام المتّسق معه - قد رُصّع بأحجار كريمة من الجَمَشْت والمَرْو الوردي. باختصار: كان ذلك الثوب من قبيل الأحلام، في الأقل لأولئك الذين تعجبهم هذه الأشياء.

نزولاً عند إلحاح (زِيمَه) الشديد، وضعت زنوبيا الثوب على بدنها، وحدّقت إلى وجه أبيها المكشّر عن رضا وهي حائرة في هذا الانعطاف غير المرتقب للأحداث. ثم حدّقت إلى وجه أمها المبتسم حبّاً، وفي النساء الباقيات اللواتي كن يومئن برؤوسهن مستحسناتٍ، وكانت أسارير الجميع تشعّ فرحاً لها، وكأنهنّ يحتفلن بحدث طال انتظاره. لم تستوعب زنوبيا من الأمر شيئاً.

«حسناً، ولكن، لماذا، أعني، شكراً جزيلاً، كيف... كيف حقّ لي كل هذا؟».

سارعت (زيمَه) إلى وضع إصبعها على شفتي زوجها وهي تبتسم.

«إني لأدرك ما تريدون قوله، يا سيدي. دعوني أحبّب الأمر إليها أولاً، وسترَون كيف أنها ستكون أهلاً لبشارتكم».

لم تسمح (زيمَه) لأحد أن يثنيها عن مرافقة ابنتها بنفسها كي تقيس الثوب. أخذ (زنوبيوس) يراقبهما وهما تنصرفان من الحجرة. لم تكن بجمال أمها، قال في نفسه، بل هي تشبه المهرة، ما يجعل هذا العمل شاقاً على الزوج. لكن النتيجة كانت حسنة رغم ذلك. ثم ضحك لبرهة: يا للنساء! لقد راق لزنوبيوس هذا اليوم، وكان راضياً عن نفسه تماماً.

أمّا زنوبيا فقد عصفت بها مشاعر شتّى في هذه الأثناء. فقد ألبستها أمها الفرِحة شيئاً له حفيف، لكنه لم يعطها الانطباع أنها ترتدي شيئاً بتاتاً، وإن ظلّت (زيمَه) تؤكد لها مطَمْئِنةً أن كل شيء على ما يرام، وأن على الكتف الواحدة أن تبقى مكشوفة، فذلك طراز العصر.

ثم خطرت في بال (زيمَه) فكرة جديدة، وبدا كأنها قد اكتشفت اهتماماً غير مسبوق في ابنتها، فقامت بترتيب سلسلة متنوّعة من الأصباغ أمامها.

كانت زنوبيا قد راقبت أمها مراراً وهي تدع جاريتها الإغريقية تحمّر

Twitter: @ketab_n

وجنتيها بالمغرة أولاً، ثم تخطّ شرطتي جفنيها بمسحوق اللازَوَرْد الفيروزي، وأخيراً تحدّ طرفي عينيها بالفحم النباتي الناعم. وكانت أكوام المساحيق الملوّنة في الطاسات تتحوّل إلى لعبة ساحرة من الظلال المتلألئة على محيّا (زيمَه)، وتحيل أمّاً ودودةً، مدوّرة الوجنتين إلى امرأة جميلة غريبة المظهر. وهذا بالضبط ما بدا أنه دافع أمها إلى الانخراط في العمل عليها الآن.

وهكذا أخذت أمها- بتركيز شديد - توزّع بضع نُقط حمراء هنا، وبضعة خطوط تظلّل الأجفان هناك، ما أدّى إلى إبراز عظمتي وجنتيها العاليتين، وأضفى شيئاً من القتامة على عينيها الواسعتين، اللتين لا يكاد يتّسع لهما وجهها الطفولي الجاد النحيل. أدارت زنوبيا رأسها بحذر، كأن أية حركة يمكن أن تخرّب عمل أمها، ونظرت في وجه أمها التي ابتسمت لها مهلّلةً. كان قلبها ينبض بشدة، وأخذت تتفحّص- وهي تحبس أنفاسها- صورتها المنعكسة في المرآة الفضية التي وجّهتها لها أمها بيديها. لكن ابتسامتها تحجّرت على وجهها، إذ حدّقت إليها عينان ضخمتان في محجرين قاتمين، تحتهما شفتان شديدتا الاحمرار على شكل بيضوي باهت يكاد يقسم نصف وجهها الأسفل قسمين. لقد كان منظراً فاحشاً. خطت (زيمَه) خطوة إلى الوراء كي تنظر زنوبيا إلى هندامها العام. أمّا الثوب فقد كان أطول ممّا يجب؛ والحزام البديع، الذي كان قد شُدّ في أضيق ثقب، فقد تعلّق رخواً حول وركها، بينما تكوّم طرف الثوب منتفخاً عند قدميها. وبرز كتفها الأيسر عارياً نحيلاً من خلال الشريط الخاص به، كأنها مُهرة قد ولدت قبل أن يحين وقتها. فتبلّعت ريقها قبل أن تجرؤ مواجهة الوجوه المترقّبة في الغرفة المجاورة.

لكن أحداً لم يبدِ أنه لاحظ شيئاً ما على غير ما يرام. قطع (زنوبيوس) ثرثرة الفرح لدى النساء التي انطلقت حال دخول ابنته بحركة من يده، ثم أومأ برأسه معترفاً:

«يجب علينا أن نقصّره عند الأسفل». وأشار بإصبعه إلى طرف الثوب الطويل للغاية. «لكنكِ أصبحتِ امرأة من دون أدنى ريب، لذا سنعاملكِ

Twitter: @ketab_n

بوصفكِ امرأة، امرأة أصابت شرفاً عظيماً». ثم توقّف عن الكلام متلذذاً لبرهة أطول بسلطته على الملأ. وكانت كل نساء بيته ينظرن إلى الفتاة مترقّبات مبتسمات.

«يا (يوليا سَبتيميا زنوبيا)، استمعي إليّ. ستُمنحين للزواج من (سَبتيمُس أودَيناتَوس) في عيد ميلادك الخامس عشر، وستصبحين أنتِ، يا ابنتي، أميرة مدينة تدمر».

«وهل ستكون الزوجة الأولى؟»، اعترضته (زيمَه) قائلةً.

«لا»، قال لها ورفع يده كي يقطع عليها اعتراضها المتعجّل: «لكن قرينته الحالية لم تلد له إلى الآن طفلاً حياً، كما تعلمين. لذا ستترقّى سريعاً». طأطأت (زيمَه) رأسها على عجل، فقد كانت راضية.

جلست زنوبيا كأن خدراً ما قد ألـمَّ بها. أميرة مدينة تدمر! أغلقت عينيها وراحت تستغرق في حلمها المفضل. ارتفع بصرها إلى ما فوق المجموعة المتحلّقة عند قدميها- وهي تريح يديها على رأسَيٍّ الأسدين المنحوتَين في مُتّكأيٍّ الذراعين- وشخص بصرها عالياً من دون أن يقوى على المساس به أحد، لكن وجوه الآخرين أخذت تتابعه. اندفع وجه (أويات) القمري المبتسم الودود إلى جانب سحنة (عطاي) المحبّة وإشراقة محيّا أمها الفخور. وتزاحم الجميع حولها أقرب فأقرب مومئين عن طيب قلب. فتطلّعت مستنجدةً بالرجل الجالس على العرش إلى جوارها، إلى قيصرها، إلى أميرها، لكن الرأس الذي التفت إليها كان رأس أبيها، فانتفضت واقفةً.

«ما قولك في ذلك، يا ابنتي؟».

ما قولي؟ بحثت زنوبيا في أفكارها المرتاعة. ماذا تقول؟ لا تعرف، لا تعرف فعلاً ما هي قائلة.

Twitter: @ketab_n

(بالْـبُس) ينطلق على حصانه

كانت الرحلة إلى برج الحصن الشـمالي طويلة ومملّة، إذ انبسطت إلى يمين (بالْـبُس) ويساره صحراء الحصى الرمادية من دون تموّجات في اللون حتى الأفق. ولـم تنبت أية جذور في التربة سـوى نباتات يسيرة نحيلة في ظل بعض الصخور الأكبر حجماً. وكان قد خلّف وراءه منذ ساعات روابي تدمر النائية وحقولها الجافة الأخيرة وحتى براري أعشـابها. فأخذ يجرجر سـاقيه حرصاً على حصانه وما ينتظر هذا الأخير من مشـقّة، ثم انزوى تحت ما يشبه الخيمة المكوّنة من معطفه وعصاه، وأسند ظهره إلى صخرة. واستلقى هناك وأخذ يعدّ، كان يعدّ دوماً إلى الخمسمئة، قبل أن يجيز لنفسه أن يتجرّع جرعة مـاء من قربـة مصنوعة من جلد الماعـز، وكان هذا شـغله الوحيد إلى جانب رمي الحصى: إذ كان يرميها صوب السـحليّات الرمادية، وصوب عود جاف شـوكي كان ينمو بالقرب منه، ويرمي ثم يرمي. وكان حين يأخذ منه الغضب مأخذه، يرمي الحصى صوب الشمس.

لم يتقدّم إلاّ ببطء شديد. وحين تلاشى الطريق من كثرة الحصى، ترجّل عـن حصانـه كي يقـوده، أو يجعله يجد طريقه بنفسـه ولجامه معلّـق به. كان (بالْـبُـس) يعـرف الطريق ومواقع الماء فيه، وكان كلّما زاد سـطوع الشـمس واشتد عطشه، كان كذلك يشتدّ خوفه من أن تفوته الينابيع المنقِذة هذه المرة، حتى يكتشف العلامات المطَمئِنة من جديد، ويرفع حصانه رأسه وهو يصهل صهيلاً عالياً يعلن من خلاله أنه تشمّم جوّاً طيّباً.

ذات مرة، وهو يقترب من بركة ماء، طار سرب من الطيور إلى أعلى وقد علا صراخه، وصعد إلى السماء بقوة وتوعّد، كأن يداً غاضبة قد قذفته. فراح يضحـك ضحكة خرقـاء وهو مرتاع ومرتـاح في آن معاً، بينما حلّق السـرب

Twitter: @ketab_n

أعلى فأعلى وقد علا طنينه.

لم يجرؤ أي وحش أن يظهر أمام سهامه، وبقيت المصايد التي نصبها في ساعات الراحة فارغة. لم يعكّر عليه صفوه سوى الفئران التي كانت تهاجم أمتعته أمام عينيه حالما يتوقّف للراحة عند المغيب، لكنه أفلح أخيراً في أن يسحق اثنين منها بوساطة لوح حجري كبير، ويشويهما على سيخين، بنار أشعلها في أغصان جمعها من مسافة قريبة من موقده. أنارت النار الجثتين بعض الشيء، في سماء الليل التي ازداد تسارع ظلمتها. وبدا أن الفئران قد استوعبت الإشارة وبدأت تتجنّب الاقتراب منه. تفضّلْ، قال في نفسه راضياً، هذا بالضبط ما فعلناه مع الغوطيين في حوض الدانوب يومذاك، إذ فهموا الإشارة هم أيضاً حين رأوا رؤوس رفاقهم على سياج الحصن.

«سألْتَهِمُ أفئدتكم»، صرخ في الظلمة، ثم ضحك واستلقى على ظهره من جديد.

وأخيراً سيكون غداً بصحبة جماعة تثير فيه البهجة، إذ كان العريف مرقس، آمر الحصن، قد زامله في الحامية ذاتها في حوض الدانوب. لقد كانت له رائحة كريهة وقد تجذّر فيه القمل، قسماً بإله الخمر (باخوس)، لكنه كان نديماً له في الأقل، كما كان يعرف الأغاني المناسبة.

«فلا تنتظر، يا هذا الجندي، حتى تهلك من العشق. أشهرْ سيفك، هاجمْ خصمك، واطعنه في أحشائه، أمّا نساؤه، فجلّسهنّ على رمحك، إي، رمحك، فجلّسهنّ على رمحك». تُرى ما كلمات الفقرة الثانية من الأغنية؟ «غوطيّة قوية كهذه، تملأ ساعات الفراغ. بلاد مثلجة، فروج ساخنة، إي، تلك هي المتعة، المتعة». أخذ يزمجر، «إي، متعة كانت تلك، متعة مميتة. وسأنال منك، يا (گاش)، وستكون متعة غاية في الروعة أن أدق رأسك».

أطلق صرصور سقسقة في مكان ما. امتطى صهوة حصانه في الصباح من دون أن يتناول فطوره، وذوت جثتان مصلوبتان خلفه في الشمس البازغة.

* * *

«(بالْبُس)، يا دُبّاً عجوزاً، يسعدني أن أراك. لك عندي نبيذ التمر،

Twitter: @ketab_n

ينتظـرك أنـت ولا أحـد غيرك، قاه، قـاه، قاه». لـم يخب ظـن (بالْـبُس)، فقد رحّـب مرقس برفيقـه القديم في الجبهة بالحرارة التي كان يتوقعها منه. وكان مرقس قد فقد كل أسـنانه على مرّ هذه السـنين، لكـن رائحة العرق والحقارة ذاتهـا ما فتئـت تفوح منه. تفقّـد (بالْـبُـس) الحصن المتداعـي. لا بد لضالته (گـاش) أن يتزوّد بالماء من هنا. وسينصب له كميناً غداً في غابة النخيل إلى الشـمال من هنا بمسـافة قريبة وسـيترقّبه فيه. حتى يحين ذلك الوقت لا ضير في شيء من خمرة مرقس.

«أتعرف أن الشبّان هنا؟»- ابتدأ العريف يقول وقد استرخى بعد الكأس الثامنـة وألقى سـيفه جانبـاً- «جميعهم تقريباً مـن منطقتنا، وكانـوا قد وقفوا عنـد نقطة ما من جبهـة الدانوب. مزيداً من الخمـر؟ وجميعهم يعبدون إلهنا (مِتراس)، فماذا تقول؟».

«شبّان صالحـون»، تمتم (بالْـبُس) الذي كان قد أفرط كثيراً في شـرب الخمر، ثم توقّف فاتحاً فاه، فانتهز مرقس الفرصة للاسترسال بقصته.

«مقام عبادتنـا متواضع للغاية، ولا يجوز أن تقارنه بالمعبد الفخم الذي ابتناه أميرك (أودَيناتَوس) لنشّابيه في درعا».

«ليس ذاك أميري البتة، ذلك الخائن؛ سأُريه».

«لا بأس. في أيّ حال، سيتمّ قبول عضو جديد إلى الطائفة هذا المساء. هـاه، قـد يروق لـك أن ترأس طقوس الجلسـة، فأنت من صنف الأسـود من الرتبة الثالثة، هاه؟ سيكون ذلك شرفاً لنا، هاه؟».

«صحيـح وخطـأ، خلاص وجهنّـم، لقـد أُنقذنا»، علّـق (بالْـبُـس)، ثم تجشّأ، ما عدّه مرقس إجابة بالإيجاب.

* * *

كان المدخـل إلـى المعبـد المحفـور يقـع فـي خنـدق القلعـة، وكان القيـظ شـديداً فـي الردهـة بعـد أن هبطـت المجموعة كلهـا العتبات السـبع خلف المدخل.

«كان شـاقاً علينـا أن نحفر بهذا العمق، صدّقني. لقـد حفرنا لثلاثة أيام،

Twitter: @ketab_n

لمجرد الوصول إلى ههنا، لكن التربة ظلت تنزلق حولنا». مسح العريف وجهه المتعرق متفاخراً. «لكننا أفلحنا في جعلها عتبات سبعاً كما هو منصوص عليه». وتطلّع الجميع إلى (بالْبُس) الذي تمتم بكلمات الإطراء.

«هنا الردهة وفيها الموقد وكل ما يحتاج إليه المرء. وهذا (پوبْليوس)»، قال مربّتاً على ظهر عجوز هزيل، «طبّاخنا في وجبة طقوس العبادة».

«وهو يملّحها مثل عذراء مُغرمة»، علا من الخلف صوت أحدهم.

«وما أدراه كيف تكون العذراء؟»، أجابه آخر.

«أنت بالتأكيد لا تدري، فأنت تميل إلى مَن هنّ في السبعين من عمرهنّ، أي من عمر فراشك!».

«يا شباب، يا شباب»، هدّأ مرقس المزاح المنتشر، ثم التفت إلى (بالْبُس) قائلاً:

«شباب فاسق، هاه؟ أي نعم. هم متهيّجون بسبب الطقوس هذا المساء. اسمعوني، يا شباب: سيقوم الضابط بدور كبير الكهنة هذا المساء».

تساقط نزر يسير من الرمل من السقف وألقى بغباره على الرجال المتعرّقين الذين أخذوا يحدّقون إلى (بالْبُس) في شيء من الظلمة.

«أمّا الآن فادخل إلى حلقة العبادة»، أردف مرقس متكارماً، «انصرفوا، يا شباب، فهذا لا يخصّكم». ثم أردف بوقار: «سيتحدث الخبراء الآن في الطقوس وأسرارها».

وحين صارا وحدهما، أرشد مرقس (بالْبُس)- الذي كان يترنّح بصمت- إلى تمثالَين، وقد حمل أحدهما شعلة إلى الأعلى وحمل الآخر شعلة إلى الأسفل، إذ كان (كاوْتَس) و(كاوتَوپاتَس)، حارسي قدس الأقداس.

«لقد صنعناهما بأيدينا من الطين وتركناهما يجفّان في الشمس، ويبدوان أصليّين بعد التلوين». نظر (بالْبُس) في عيني (كاوْتَس) الملوّنتين- من دون أي كلام- وكان الصنم يحدّق إليه من خلال بؤبؤين ضخمين.

«سيقومان بالطقوس هذا المساء»، غمغم قائلاً، وقد اشتدّ فيه الدُوار.

* * *

Twitter: @ketab_n

كانت الشعلتان تضيئان الليل بنور أحمر دافئ داخل كهف العبادة في القلعة، ما جعل الرسوم الفجّة تتراقص على الجدران، كما كانت فراشات ليلية ضخمة ترفرف حول المصباحين الحجريين عند المدخل الذي أخذ يلج منه الشخص بعد الآخر منحنياً ويتجه إلى مكانه. وكان الهواء رطباً من شدة الاهتياج. وكانت طائفة (مِتراس) قد تجمعت على مقاعدها، والتفتت الرؤوس نحو العتبات بترقّب، ووقف سبعة رجال يرتدون أقنعة الغربان على أهبة الاستعداد تحت العتبات السبع.

«ها هم يأتون!»، تناقل أعضاء المجموعة هذه الكلمات متمتمين، وتنامت إليهم خشخشة الرمال تحت وقع الخطى، وصلصل صنج حين اقتيد الشاب الشاحب ولمّا تعتد خطاه المكان بعد، واطلق صرخةً حين تبدّى له النور للمرة الأولى بعد أن كان قد حُجب عنه لساعات خلت، ثم أمسك بمفاصل يديه وقدميه عدة رجال من دون صعوبة تذكر، ورموه بعيداً إلى جوف الكهف، حيث تلقّاه الرجال السبعة المقنّعون على أذرعهم وأوقفوه على قدميه وطأطأوا رؤوسهم.

«(مِتراس)، يا (مِتراس)». كانت أصوات الطائفة غامضة، وعلا من بينهم صوت العضو الجديد بوضوح، وإن كان مرتجفاً:

«(مِتراس) بركتي».

«تقدّم، تقدّم»، شجّعت الطائفة العضو الجديد.

«تقدّم»، صرخوا بصوت أعلى فأعلى. وعلت صيحات تأليه (مِتراس)، ثم وضع أحدهم سيفاً في يد العضو الجديد، وساقوه بضجيج يصمّ الآذان حتى أقدام ثلاثة رجال كانوا يقفون عراة، إلا من خوذاتهم التي كانت تحجب وجوههم بالقضبان المشبّكة، وقد تلامعت بشراتهم المشحمة في ضوء المصباحين. فخفتت آخر الصيحات وساد صمت يشوبه التوتر.

ثم رفع أحد الرجال الثلاثة بيديه إكليلاً، وتقدّم الآخران وصالبا سيفيهما بقعقعة. فعلا التهليل وعادت الطبول الخشبية تُدقّ، ولكن على وتيرة أسرع هذه المرة. وراح العضو الجديد يُقذف صوب هذا الجندي وذاك، من دون أن يعرف ما سيكون من أمره. فأخذ ينهال عليهم بسيفه وقد تملّكه الهلع،

Twitter: @ketab_n

لكن الجنود كانوا يردّون كل ضرباته بسهولة. كانت أسنانهم تلمع من خلال قضبان الخوذات المشبكة حين كانوا يتضاحكون وهم يتلاقفون فريستهم.

«افتكوا به، هذه الرنجة*». «هاه، أرِنا ما عندك، يا صبي». «فلقة الإست».

كانت اللكزات المصوّبة من الجمهور تُفقد الشاب توازنه، ما سبّب هرجاً عارماً كل مرة. وكان مرقس يشرب نخب المحاربين صارخاً. تركت بعض الوخزات واللكزات الطفيفة آثاراً دامية في بشرة الشاب الخائف، الذي راح يلوح بسيفه في هذا الاتجاه وذاك من دون هدف معيّن. وكانت الطقوس قد بلغت ذروتها.

في اللحظة التالية أصاب الشاب أحد خصومه بمقبض سيفه تحت حنكه، ما جعل هذا الأخير يهوي ساقطاً بين مقعدين، فأسقط جاره سيفه ووسّع له طريقاً إلى الإكليل، فما كان من العضو الجديد إلاّ أن انتزعه لاهثاً.

«(مِتراس) إكليلي!»، نادى الشاب وسط تصفيق الجمهور. «(مِتراس) إكليلي!».

وكانت تلك هي الإشارة المنتظرة، إذ تلقّفه الذين كانوا يعذّبونه للتو بأذرع مفتوحة كي يحيطوه بحلقة من الأجساد وهم يربّتون على كتفه ويصفعونه بتحبّب ويكادون يخنقونه. ثم حملوه وقبّلوه وساقوه إلى مكانه في الطائفة. وأخذ يشاركهم نداءاتهم وهو جالس بينهم: «تباركتَ، يا أيها الإله»، وهنا ظهر (بالْبُس) وعلى جبينه النجمة السباعية، فرفع غطاء المحراب وكشف لهم عن صورة (مِتراس). وفي أثناء ذلك شعر بشيء يشبه الدُوار يصعد من أحشائه ويهاجمه كالأمواج الساخنة. لا بد أن هذا الشعور يعود إلى التواجد الصوفيّ. وكانت حدود الأجساد أمامه تتماوج في ما يشبه الظلمة في الكهف. ولم يعد (بالْبُس) يرى سوى العيون اللامعة التي كانت مسلّطة عليه. وكان لهاث الرجال من حوله يكاد يرفع صدره هو. كانت أذناه تطنّان، وسمع نفسه يقول:

«لقد رأيته، وجه الإله الحيّ و... والنظام، نظامه. ذلك النظام البادي

---

* الرنجة: سمكة صغيرة

Twitter: @ketab_n

فـي الأرقـام. الكواكب والعناصـر منظّمة كلهـا على الإطـلاق، نعم، ونحن مشـمولون بالنظام، بالنظـام، نعم. لقد رأيتـه، أنا... ونحن لنـا البركة. الخير والشـر». واعتصـر بطنـه، فأغلـق عينيـه، ولـم يعـد يسـمع شـيئاً مـن حوله.

أجـال مرقـس بصـره فـي الحلقـة مرتجيـاً التصفيـق، لكـن (بالْـبُـس) دار علـى عقبيـه، فقد شـعر بالغثيان الشـديد، يا للآلهـة، لقد كان نبيـذ التمر ذاك الطامة الكبرى.

لحسـن الحـظ دخل الخـدم وأخـذوا يوزّعـون أرغفة الخبـز والخمرة السـورية الحمـراء اللـون. فرفـع الجميـع كؤوس الشـراب صـوب الصورة فـوق المحـراب، وأخـذت الاحتفـالات مجراها. ومـا لبث أن بلـغ غناؤهم عنان السماء.

* * *

حين دخل (كلاودِيُس أورَليانُس سَبتيمُس گـاش) باحة الحصن ممتطياً فرسـه بعد عدة ساعات، كانت السماء لا تزال تمتد زرقاء قاتمة ولكن شفافة فوق الصحراء، ما يبشـر بانبلاج النهار من دون أن يفصح عن ألوانه. وكانت النخيل لا تزال تصدر حفيفها على سطوح الحصن وعصافير الليل تتطاير.

كان حصانـا النقـل- اللـذان ربطهمـا إلـى شـجيرة بيـن الأشـجار أمام الحصـن- يصهـلان متذمّرَيـن، لكنهما سـرعان ما هـدآ من روعهمـا وأخذ يتشمّم كل منهما الآخر، ثم راحا ينتّفان أوراق الأدغال القرنية.

قـاد (گـاش) فرسـه- من دون أن يعترضه أحد- إلـى باحة البئر التي لم يُسمع فيها شيء سوى وقع حوافر فرسه الناعمة.

«هيـه، يا صديقي الطيّـب. هيه، يا حارس، ثمة مسـافر من تدمر يرتجي شيئاً من الماء. مرحباً، يا صديقي الطيّب، هيه، يا جندي».

لكن أحداً لم يظهر اسـتجابةً لندائه، ولـم تتوهّج أية شـعلة في أي مكان، ولـم تُسـمع خُطى أحدٍ سـوى خُطاه وهو يترجّل. وفي نور الهلال الذي يكاد يغيـب وجد دلو الماء، فربطه بسـكة الحبل، وأنزله في البئر حتى سـمع تناثر القطرات على سطح الماء ثم صوت القرقرة وهو يمتلئ.

Twitter: @ketab_n

وبينما راحت فرسه تشرب وهي تلهث، وجد (گـاش) متّسعاً من الوقت للتأمـل في الصمت الـذي كان يلفّه، فقد أحاطت بالباحة فجوات الشـبابيك السـوداء، وكانت السـتائر الجلدية تصطفق فيها بفعل رياح الليل. وعلا ثغاء ماعـز وهي تحلم في مكان ما. وحين خطا (گــاش) متردداً في ظلال الباحة كي يتفقّدها، سـرت قشـعريرة في جسـده حين دعس على يـد أحدهم، لكن الرجل تقلّب متذمّراً صوب قدميه من دون أن يستيقظ، مستدعياً بذلك تشمّم فرس (گـاش). وعلا إلى أنف (گـاش) زفير تشوبه رائحة النبيذ. وخفّف من مخاوف (گـاش) شيئاً فشيئاً شخير مجموعة من النائمين المسالمين.

وأخذ يتبسّم مرتاحاً، فقد تهيأت له هذه الصدفة حيث لا يراه أحد البتة، فمـن المستحسـن أن يتجنّب الشـهود ويضطـر لتقديم الأعذار التـي كان قد لفّقها لتفسير وجوده هنا.

كانـت فـرس (گــاش) قد اكتفـت من المـاء وأخذت تضـرب الأرض بحوافرهـا وهي تصهل، فحـاول أن يهدّئها بينما كان ينزل الدلو بيده الأخرى كـي يملأ القرب المصنوعة من جلد الماعـز التي كان ينوي حملها معه. كان الطريـق الوحيد المتجه شـمالاً إلى الفرات، ويتوافر فيه مصـدر للماء يعتمد عليه، يمرّ من هذا الحصن، لكنه في الوقت ذاته كان المصدر الوحيد لمسافة بعيدة، وكان ينبغي عليه أن يحمل حاجته وحاجة خيله، حيث لن يتوافر الماء للجميع حتى وصوله إلى مجرى النهر عند (نيكَفَوريون).

تململ أحد النائمين فجأةً- من دون أن يكون بادياً للعيان- وهو يئن، ما جعله يُسرع ولم يكن قد بقي عليه سوى أن يملأ دلواً واحداً وحسب. وببضع حركات سـريعة ربّط الحبال، وحَزَم مخزونه من الماء، وامتطى فرسـه واثباً، ثم تنصّت إلى ما حوله مرة أخرى. وتنامت إلى سـمعه من الجهة ذاتها رقرقةٌ تدل على أن ذلك الشـخص عينه كان يتبوّل، ورنّ شـيء ما، ثم عمّ السـكون من جديد. ودنا (گـاش) من المخرج بحذر شـديد، وكان نجم القطب أمامه قد شحب لونه في السماء البنفسجية.

* * *

Twitter: @ketab_n

«مرقس، بحقِ كل آلهة الجحيم، أفِقْ. مرقس، اللعنة، يا سكران عفناً، يا ابن البغل الذي لا أُمّ له». رجّ (بالْـبُس) صديقه من دون جدوى.

«علـى، على ساقيك، يا عريف»، تأوّه مرة ثانيـة، لكنه انهار على ركبتيه حيـن حاول هـو ذاته أن ينتصب واقفاً. فضغط علـى عينيه بقبضتيه في بؤس. وبـدا كأن الديـدان قد شـرعت تلتهم رأسـه، بل دماغه- قسـماً بإلـه الحرب (مارس)- وتبّاً للضجيج الذي كانت تثيره.

«مرقس، ها قد وصل، علينا أن نسـتيقظ. اللعنة، ألم تسمع الحصان؟». لقـد كان ذلـك الحصـان قد جرى أثنـاء حلمه، ثـم تحوّل إلى صـداع هائج، واسـتقر أخيـراً مجسّـماً فـي ضـوء القمر. انتصـب حصـان (گـاش) واقفاً بينه وبين البئر.

راح (بالْـبُس) يحبو علـى أربعته- لا عن حذر بل عن ضرورة- صوب عمود كي يرتكز عليه وهو يجرّ جسـده إلى أعلى. وأغلق عينيه بإحكام حتى تلاشى من أمامهما وميض أخضر ثم فتحهما من جديد. لكن الحصان الذي كان يتململ أمامـه وهو يلوّح بذيله كان مـن دون أدنى ريب فرس (گـاش). والرجـل الـذي امتطاهـا للتو كان (گـاش). يـا لَلآلهة جميعاً، هـا قد وصل ابن العاهرة إلى هنا.

أدرك ببطء، على الرغم من تشوّشـه، أن الأوان قد فات لنصب الكمين، إذ هربت ضالته للتو من أمامه.

وراح يسـتعيد هزيمتـه في الحمام العام، وقهقهـة (گـاش) الهازئة حين أخـذ يترنّح وهـو يغادر الحمام متأوّهـاً، فكان أن دفعه الحنـق على كل ذلك أن ينتصـب واقفـاً. وبعد محـاولات عديدة أفلـح في أن يجرجـر رجليه إلى الحظيرة، حيث أفرغ كل ما في جوفه قبل أن يلجم حصانه على نحو محموم. بوسـعه أن يدركه في الظلمـة، نعم، ولا داعي للمندوب أن يطّلع على شـيء مـن الأمر. وكان يعلو في رأسـه صراخ مـدوٍّ. اهدأ، حثّ نفسـه، حافظ على هدوئك، يا غلام. كان يشعر بحرارةٍ شديدة، فقد كان بأمسّ الحاجة إلى الماء قبـل أن ينطلق على حصانه، حيث تملّكه الخُمار الحارق وقاده إلى البئر. ثم امتطى حصانه وراح يطارد فريسته.

Twitter: @ketab_n

ومـن دون أن يطيل التفكيـر في الأمر ألهب حصانه المتعـرق زَبَداً نحو الشـمال، وحين تبدّت أمامه القافلة الصغيرة في بياض الصبح، انطلق صوبها كالسهم وقد أعماه سخطه، وطفح غيظه.

«خائـن»، زعـق زعيقـاً مُجَلجِـلاً وهو يعـدو بالسـرعة القصوى صوب (گـاش)، الذي صُعق وما لبث أن التفت من على صهوة فرسه. «خاااااائن! آآآخ». اصطـدم جسـدا الحصانيـن بعضهمـا بالبعض الآخر بهديـر مكتوم، وسـحب (بالْـبُس) العربيَّ معه وهو يسقط على الأرض، حيث تطاير الغبار، وأطبـق علـى عنقه بكلتـا يديه وحـاول أن يغرز وجهـه في الرمـال. وتصارع الرجلان وتقلّبا أحدهما فوق الآخر، ولم تُسـمع سـوى زمجرة أحدهما وقد ثارت ثائرته، وظلاّ يتلاكمان ويطبقان على بعضهما بأسنانهما وينشبان يديهما فـي بعضهما. وعلى حين غرة أفلح (بالْـبُس) في أن يحرر قبضته، فانهال بها ضرباً في وجه (گـاش)، وغصّ التدمري فبصق سـنّه في شلال أحمر ما لبث أن تكتّل مسـودّاً في الرمال، ثم اسـتدار مبتئساً تحت قبضة الضابط كي يكون بمأمـن مـن لكماته، فرفع ركبتيه عالياً لا إرادياً وأصاب أسـفل بطنه، ما جعل الضابـط يتقـوّس برهة مـن دون أن يرخي يده عن خصمـه، لكن اللحظة هذه كانت كافية كي تسمح له بمطِّ ذراعه جانباً.

أمسـك بحجر وضرب به عدوّه في جبينه، فانفجـر جلد (بالْـبُس) على الفور والتصقت بعينيه الدماء والرمال. وبصرخة مدوّية نشب أظافره في عنق خصمـه المقيت، لكن اللطمة الثانيـة أفقدته وعيه. فقلَبه (گـاش) على جنبه، وداس بقدمه كليته، ثم تركه حين لم ينمّ عن جسده أي حراك.

وبينمـا أخذت أولـى قوافل النمل تحتشـد على الدم الـذي نزف تحت أظافـر (بالْـبُس)، خطى (گـاش) نحـو حصان المغلوب وقـرر بعد تفحّص قصير أن يأخذه معه. فصفّر لفرسـه وانطلق على عجل من دون أن يعيد النظر في ما كان حوله، إذ كانت الشمس قد أخذت تطل على دَفْقٍ قرمزي غزير.

Twitter: @ketab_n

المهمّة الفارسيّة

مـا عاد (گـاش) يأخذ قسـطاً من الراحة في قيـظ الظهيرة، بل أخذ يبدل فرسـه بالحصـان، ويرتـدي معطفه الصوفي الأبيض الواسـع كغطـاء الخيمة على رأسـه، ويسلّم نفسه وشـنان إلى مسيرة الخيل المتأرجحة نحو الشمال، دوماً نحو الشـمال. وأمعن التفكير من دون جدوى في سـؤالين: أنّى للروميّ أن يعلم برحلته؟ وهل كان هدفها معلوماً لديه؟ وأخذ يرجّح أن فعلة الضابط تلك كانت أشبه بالثأر الشخصي منها بمحاولة الاغتيال. ثم كشّر، وبعد شيء من الوقت، خلّف وراءه هول الاصطدام بذلك العدو.

وبعـد يومين اضطـر إلى دفع مبلغ لا بأس به كي يغـري صاحب العبّارة فـي (نيكَفَوريون) بالسـماح لـه- بثيابه المغبـرّة المهلهلـة- أن يركب زورقه المتأرجـح لغـرض عبـور الفرات. انحنـى (گـاش) على طـرف الزورق كي يتفحّـص جروحه في انعـكاس الماء. في الأقل كان مكان السـنّ الذي اقتُلع من آخر الفك؛ وتلمّس بلسانه فوهة لا تزال تنبض بالألم. لو أنه كسر فيّ سنّاً أمامياً- قال (گـاش) في نفسه مغتاظاً- لأطلتُ في قتله، ثم بصق.

كان يتمنّـى لو كان بوسـعه أن يتوقف في المدينة لصيانة أسـلحته، لكنه كان قلقاً على الشحنة الثمينة التي كانت محمّلة على خيله، وكانت مخصصة لملـك الفُرس (شـاهـپور)، واسـتقر به الرأي أن في الأمـر مجازفة كبرى، إذ ليس من الحكمة تعريض هذه الكنوز لسلطة الأتاوة في هذه المدينة.

لـذا ظـل يعـدو- مـن دون أن يخـوض فـي التسـاؤلات- علـى الضفة الشـرقية لهـذا الفـرع من الفـرات المتجـه شـمالاً. وكان لديـه الآن ما يكفي ويزيد من الماء، وحتى الطعام عاد يعجبه، وراحت الخيل توسـع الخطى في الأرض الطينيـة الطرية وقـد امتلأت بالحيوية من جديـد على نحو ملحوظ.

Twitter: @ketab_n

وكان (گـاش) راضياً عن نفسـه، فأخذ يصفّر ويغنّي، بقدر ما سـمحت بذلك حنجرته الجريحة.

وظـل يغني طوال يومين حتى كاد يبلغ مقصده، ولـم يكن من الصعب أن يجد موقع إقامة (شـاهـپور)، كما كان يخشى، فقد أشارت إليه من مسافة بعيـدة غمامة داكنـة من الدخـان والرماد كانـت تحترق تحتها مدينـة حرّان. وجلبـت معها هذه الغمامة رائحةً كاوية، ولمسـةً أخرى تثيـر الغثيان، بيْد أنه لم يكن بوسعه أن يتبيّنها إلاّ بعد أن خلّف أدغال ضفة فرع النهر وراءه وخرج إلى سهل حرّان.

كانت أرض السـهل قد نبّشـتها حوافر خيول لا تحصى في هلع شـديد، وقد نتأت من الأرض قضبان السهام ورؤوس الحراب، وهي أنقاض الحرب التـي غطّت كل شـيء إلى الحـد الذي لم يعد معه بوسـع (گـاش) أن يتبيّن للوهلة الأولى أجساد البشر التي انتثرت بينها، إذ كانت هذه الأجساد بدورها قد تهشّـمت وتمزّقت وانسـحقت في الأرض مراراً. ولزمه بعض الوقت كي يدرك أن الجذع المنتصب أمامه، الذي راح غرابان ينقران فيه وينهشـان منه، ما كان سـوى ذراع إنسـان مبتور اليد، وقد التهم منها حيوان ما الشيء الكثير وتـرك مكان ذلك تجاويـف عديدة. وكان أحد الغرابين قـد نهش قطعة لحم جديـدة للتو، فطار بغنيمته على ارتفاع منخفض فوق سـاحة المعركة يلاحقه مثيلـه وهو يزعـق. وحيثما اندفعا طائرَين رفرفت أسـراب سـوداء وتطايرت وهي تعود إلى تناول وجبتها وتزعق احتجاجاً.

أمّا المأسـدة التي عسـكرت على مسافة أبعد بعض الشيء فلم تدع شيئاً ممـا يـدور حولها يزعجها، في ما عـدا تلك اللحظة التي كان فيها شـبل يجرّ خلفـه كتلـة من الأمعـاء، وقد تعثّر بعُقـدة أخذت تنحلّ بين طرفيـه الخلفيين وهو يجاهـد للخلاص منها، فرفع كبير الأُسـود خطمه من القفص الصدري المضرج بالدماء أمامه وأطلق زئيراً تحذيرياً، ثم ما لبث أن عاد وأنشـب فكّيه في وليمته متلذذاً.

كان زئير كبير الأسـود كفيلاً بأن يجعل فرائص (گـاش) ترتعد وتشـغله عن غثيانه. لقد كان ينبغي عليه أن يقطع السهل إلى المدينة، فراح يشقّ طريقه

Twitter: @ketab_n

علـى حافـة سـاحة الجِيَف كـي لا ترفضـه خيلـه المهتاجة. وأخـذت الخيل تسـتجيب للكزاته خطـوةً فخطوة وهي تصهل متذمرةً، وبدأت تشـقّ طريقها بين الأنقاض والأموات. وكانت أسـراب مـن الذباب المتعدد الألوان تحوم على قشـرة الجرح في عنقه، فراح يصفع عنقـه كأنه يبرهن لها بذلك أنه ليس جيفـةً من الجيف بعد. سـمح (گـاش) لبصره بدايـةً أن يجول، فرأى محاجر عيـون خالية، ووجوهاً متآكلـة، وأطرافاً ملتوية. لكن، وبعد أن أخذ يتبيّن زيّ حرس النبالة التدمري أكثر فأكثر بين الخرق المنتشرة هنا وهناك، عاد فخفض بصره وركّزه على عنق حصانه المتعرّق هلعاً، فراح يمسّده بنعومة بالغة، ولم يعـرف إن كان ذلك بقصد تهدئة حصانه أم تهدئته هو. وكاد يبلغ أرضاً فضاء حين اندفع ضبع تحت حوافر جواده في اللحظة الأخيرة، فارتفع جواده على سـاقيه ثم انزلق واستقرت ساقاه في القفص الصدري لمحارب روميّ ميّت. عندما سمع (گـاش) صوت تهشّم الأضلاع، تقيّأ على جزمته.

* * *

حيـن مرّ (گـاش) بالقـرب من رابية عديمة الأشـجار، خطر له أن ينتهز الفرصة لاستشـراف الأراضي التي تفصله عن حرّان. لربما أفلح في أن يرى موقع حاشية الملك العظيم وخيمته، وفي كل الأحوال ينبغي عليه ألاّ يقع في أيـدي الروم. وكان قد توقّـع أن تكون أفواج القيصـر (ڤـالَيريان) إلى الغرب بمسـافة شاسـعة بحسـب الأنباء الأخيرة. تُرى هـل تكون هذه هـي مواجهة الجيشـين الكبرى؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجـاب، فلمَن كانت الغلبة؟ حين قطـع الأمتار المتبقية من قمة الرابيـة، تبدّى له الجواب. «يا (بَعل) العظيم! يا لَـلاّت، لا، لا، لا تجعلـي مما أراه حقيقة واقعة». لكنه لم يقوَ على الإشـاحة بوجهـه، فقـد كان كل شـيء أمامه فـي الميدان يتحـرّك. ورأى تحته مباشـرةً فوجـاً من فرسـان الروم والتدمرييـن ينطلق صوب وحدة متقدمة من سـلاح نبّالـة الفُرس الخفيف. وتنامت إلى مسـمعه صيحتهـم المعهودة، ثم هبطت سـهام فوق سـهام وهـي تحـدث أزيزاً فـي كل الجبهـات، كالغيـوم المنذرة بالعاصفة. ورأى تقدّم المجموعتين بعضهما صوْب البعض الآخر، كما رأى

Twitter: @ketab_n

كيف تعثّرت الشخوص الصغيرة وتصادمت حتى تشكّلت منها عُقدة تشبه قلباً كبيراً يخفق.

كما رأى ما لم يكن بمقدور مواطنيه في الميدان أن يروه: فرسانَ الفُرس المدرّعين الذين كانوا مختبئين في تجويف في الأرض، والذين ما كان منهم إلاّ أن انطلقوا من خلال أجنحة سلاح النبّالة الخفيف- المشكّل من رفاقهم الذين انحرفوا جانباً- ثم صوّبوا رماحهم واقتحموا صفوف التدمريين المنهارة من هجمات خصومهم السابقين واجتاحوهم اجتياحا تاماً.

ثم بدأ يسقط المحارب تلو الآخر في مناوشات متفرّقة، حتى تبيّن النصر النهائي من عودة أمواج سلاح فرسان الفُرس الثقيل. وكان بعض النبّالة يعدون على مهل هنا وهناك كي يقضوا- بسهام إلى الأسفل- على مَن كان ملقًى على أرض الميدان وما زال ينمّ عنه حراك.

* * *

جلس (گاش) بسكون في مكانه بينما أخذت الريح تشدّ شعره. وعندما غادر، قصد طريقاً على شكل قوس في اتجاه الشرق نحو حرّان، حيث تراءى له معسكر خيام، لكنه لم يتقدّم كثيراً.

«ماذا لدينا هنا؟ ترحلون هكذا وحدكم، أيها الشيخ العزيز؟ وماذا لدينا هنا من أمتعة على مُهراتنا؟»، قفز رجل فجأة من بين الأدغال وأمسك بلجامه، وكوفئ بضحكات وفيرة من رفاقه الذين راحوا يجرجرون أمتعته بأيادٍ جشعة.

«أبعدوا أصابعكم القذرة، يا لصوص، فأنا سفير في طريقي إلى الملك العظيم».

حاول (گاش) أن يبتعد بخيول النقل بسرعة عن متناول العصابة، لكنهم قطعوا لجامه على الفور، وسحبه أحدهم عن صهوة حصانه من الوراء ووضع خنجراً على رقبته.

«اخرس، يا بدوي، فنحن نقضي الآن على صفوف من أمثالك أمامنا هناك».

Twitter: @ketab_n

«اطعنـه ولننتـهِ منه، يـا (عَتَباس)»، اقتـرح أحدهـم، وكان قـد فكّ أولى صرر الأمتعة.

«أنـا»، أخـذ (گـاش) ينهج بفعـل القبضة، «أنا سـفير تدمـر إلى الملك العظيـم، وأميـر لوائـه، (سْـپـاتَـس)، يتوقّـع وصولـي. أنـا...». قاطعتـه صرخة عندئذ:

«انظـروا إلى هذا، انظروا إلى هذا». كان الجندي وهو يفتش الأمتعة قد جن جنونه إذ وجد كنز مسكوكات لم تُصنع، كما هو بادٍ للعيان، من النحاس. «وكؤوس فضية ومجوهرات. هذا الغلام على حق، لا بدّ أنه ذو أهمية ما».

«إني أعرف (سْـپـاتَـس)، فقد حاربت تحت إمرته عند أنطاكية»، قاطعه ثانٍ. أخذ (گـاش) ينتصب واقفاً بحذر.

«اطعنوه». بدت له تلك الكلمة مثل ضربة السيف.

«هل جننت، يا (عَتَباس)؟ وماذا إذا تبيّن أنه سفير فعلاً؟».

«ومـا همّنا نحن؟»، قال آخر له لحية سـوداء وصدرية مدرعة. «لن نرى ما حيينا أموالاً بهذه الكثرة. (عَتَباس) على حق؛ اطعنوه».

«هذا أمر شائك بالنسبة إليّ».

«وإليّ أيضاً».

«إذا كان الآخـرون هنالـك يتوقّعونـه فعـلاً، فإن هذا كله يعـود للملك، لـذا لن أسـتولي على شـيء منه، فأنا لسـت مجنوناً. لن يقبـض عليّ أحدهم وفـي حوزتي شـيء مـن هـذا، لا... هيه، رويـداً، رويـداً!»، بهـذه الكلمات انقـضّ المتكلّـم علـى ذراع (عَتَبـاس)، الـذي كان يحـاول إنهـاء النقـاش بقطع رقبة (گـاش).

«فلنأخذه إلى (سْـپـاتَـس)، وإذا تبيّن أن لا علم له به، سنسـتولي نحن على الذهـب».

«يـا لكـم مـن مغفّلين»، زمجـر (عَتَباس) وقد اسـتدار في فكّي كمّاشـة رفاقـه، «بـل سيسـتولي هـو علـى الذهـب». لكـن احتجاجـه ذهـب أدراج الرياح، إذ جعلوا (گـاش) ينتصب واقفاً، ونفضوا الغبار عنه وأجلسـوه على صهوة حصانه.

Twitter: @ketab_n

«سأظل أراقبك، يا صديقي الصغير»، دمدم الجندي ذو اللحية السوداء. «إذا تبيّن أن لا علم له بك، كنت في عداد الأموات. انتبهوا إلى الخيل».

«يا حمقى»، زعق (عَتَباس) وهو يطاردهم، «يا حمقى!». لكنهم كانوا قد ولّوا الأدبار.

* * *

رغم أن مرافقيه كانوا مزعجين في تصرّفهم السابق، أصبح (گاش) شاكراً لوجودهم معه في الدقائق التالية؛ فكلما اقتربوا من المدينة ومن المعسكر الفارسي، ازداد تقاطر الناس عليهم من كل حدب وصوب. وراح (گاش) يبذل كل ما في وسعه للإمساك بزمام قافلته المذعورة وتهدئتها، بينما كان الناس من حوله يصرخون ويتراكضون ويترنّحون مصطدمين بقدميه ثم يبتعدون مسرعين. ثم تبيّن أن قافلته كانت تشقّ طريقها بين أفواج الفرسان العائدة من الميدان وأمواج اللاجئين- التي لا نهاية لها- من المدينة التي كانت لا تزال تحت الهجوم. وكان وابل من الرماد يهطل على حرّان طوال الوقت، ما سوّد السماء وأحرق الأعين وخنق الأنفاس. وهكذا ربطوا خرقاً على أنوفهم وأفواههم وحاولوا أن يتلمّسوا طريقهم. ظهرت شخوص مترنّحة من الفراغ الرمادي عند أقدامهم وقد التصقت أذرعهم المتشنّجة بأجسادهم، كما ظهرت خيول مذعورة العيون وجند من المشاة وهم يندبون وقد كشّروا عن أنيابهم وأسلحتهم تتذبذب في أياديهم، ثم ما لبث جميعهم أن تلاشوا في الضباب الكاوي. دفعتهم في اتجاهها لمسافة ما سلسلة من أسرى الحرب كانت قد سُبيت، لكنهم تمكّنوا أن يتركوها وشأنها ثم كادت موجة جديدة تسحبهم إلى داخل المدينة. كان النهّابون يتراكضون بين الأطلال، وبدا للعيان شخوص يحملون غنائم ويجهدون للخروج من بين أنقاض البيوت، كما حاول عدد منهم مدّ أياديهم القذرة إلى أمتعة (گاش) وهم ينطلقون بمحاذاة قافلته، لكنه ظل يطعن الأيادي الممتدة بخنجره حتى انزلقوا متلاشين في الضباب الدامي العارم من جديد.

لكن لم يكن بمقدور (گاش) أن يقاومهم وحده، إذ كان يقود حصانه

Twitter: @ketab_n

في جهد جنوني عكس سير الجموع، بينما كان حرّاسه قد تملّكتهم الشراهة وهم ينهالون بالضرب على كل مَن لم يفسح لهم الطريق، حتى بصقتهم الفوضى المتموجة من جديد.

* * *

«لا يبدو أن ثمة أحداً هنا»، قال (گاش) أخيراً حين بلغوا تخوم معسكر الخيام، ولمح مبتئساً أغطية الخيام المطرزة أمامه وهي تصطفق بفعل الريح.

«هذه خيمة الألوية»، أصرّ حارسه.

«يبدو أنهم منشغلون في أمر آخر».

«لربما من الأفضل أن نقتله رغم كل شيء، ما رأيكم؟»، حاول الجندي ذو اللحية السوداء إقناع رفاقه من جديد.

«ما يثير اهتمامي أكثر هو أن أعرف إذا ما كانت هذه حقيقية. يا رجل، يا ناس، انظروا إلى هذه»، تبادر إليهم صوت من زاوية أخرى، فاستجاب الجميع إلى طلب المتكلم.

«انظر إلى هذه هنا، هذه البدينة، فلديها ثديان، هذان الثديان، يشبهان... يشبهان... أعني... خذ عجزها وحسب».

«يا رجل».

«وتلك في آخر الصف التي ترتدي الأزرق، هل رأيتم شعرها؟ إنه أحمر كالنار. لا بد أنها ساخنة بين فخذيها».

«يبدو أنك تنوي أن تحرق أصابعك العشرة جميعها».

«هذا الرجل سيحرق شيئاً آخر بالمرة».

«ما أكثر اللحم الطري؛ بوسعك أن تلتهمه».

كانت حريم الملك العظيم قد وصلت للتو، وكان (گاش) قد سمع أن (شاهپور) يجعل نساءه ترحل معه في حاشيته كي يحتفل في الوقت الذي يتخلل انتصاراته. كانت الألثمة والأربطة تخفق من العربات بألوان بريئة في زهوها على الأرض الموحلة، وتلامعت من بينها أكتاف بيضاء كالياسمين،

Twitter: @ketab_n

فبدأ (گـاش) للحظة يحس بالرغبة الجنونية ذاتها التي أحس بها حراسه، أي أن يرتمـي في أحضان هـذا الترف وينغمس فيه. لكنه ما لبـث أن لمح مُرافق النساء، الذي بدا أنه ضابط رفيع المنصب، فخطرت في باله فكرة.

قاد فرسـه من دون أي إنذار، وقفز بها من فوق اللصوص المحيطين به، وضربهم بلجامه.

«قطّاع طرق، رعاع! أبعدوا أصابعكم الغادرة». تعثّر الذين وقعت عليهم الإهانـات وهم يتجهـون صوب الخيام التـي كانوا واقفيـن أمامها حتى تلك اللحظـة، بينمـا كان (گـاش) قـد تجاوزهم. ولم يـدرك اللصوص ما حصل لهم، وبينما استفاق اللص ذو اللحية السوداء وتلمّس مقبض سيفه، كان أفراد الحرس الفارسـي قد أشـهروا سـيوفهم وأحاطوا بهم وأخذوا يسـتجوبونهم حول مقصدهم.

واسـتعاد (گـاش) بسـرعة خيول النقل التي كانت قد ظلت داخل حلقة اللصـوص المريبة، وبلغته من داخل الحلقة إهانة وأصابته حجارة في جبينه، ما أسـال الدم على وجهه. حاول جاهـداً أن يوقف النزيف بوضع خرقة على الجـرح اضطر إلى اقتطاعهـا من طرف ثوبه. وحين أصبحـت رؤية (گـاش) واضحة من جديد، كان (شـپـاتَـس) قد ظهر أمامه وقدّم له منديلاً بابتسـامة يشوبها التهكّم. «يبدو أن تدمر في حاجة ماسة إلى حقن الدماء».

ظـل (گـاش) ينظّف وجهـه مـن دون أن يجيب، فانفجر (شـپـاتَـس) ضاحكاً.

«ستسـترجعون القدرة على الـكلام في حضرة الملـك العظيم، فكونوا مستعدّين».

فـي هـذه اللحظة اندفعـت ثلة من الفرسـان ووقفت علـى مقربة منهم، وكانت دروع خيلهم المشـبّكة السوداء تلامس الأرض وتصلصل من ثقلها. ورأى (گـاش) مجموعـة من الألوية ورجـلًا يرتدي مئزراً ويعلو رأسـه تاج زائف، ويبدو أن الملك كان يستخدمه عتبةً، فها هو يترجّل عن صهوة حصانه ويقـف علـى ظهر ذلك الرجل؛ ما من شـك في أن الذي ترجّـل للتو كان هو ملك الفُرس بعينه.

Twitter: @ketab_n

لقد عرفه (گاش) بفضل التاج المرصّع بالهلال المتمدد على جبينه، يعلوه قرص الشمس الذهبي الذي رُكّب عليه قرنا ثور. ويتدلّى شعره بخصلات متساوية الطول على كتفيه وعلى الألواح الذهبية الثقيلة حول عنقه، كما كانت لحيته الكثيرة الخصلات أيضاً قد عُقصت على شكل ضفيرة بمشبك مرصّع بالفيروز. كان يرتدي درعاً فضياً بمشابك ذهبية، كما رفرف تحته ثوبُه العريض ذو الثنايا العديدة عند الكتفين والخاصرة، وانتفخ بفعل رياح المساء. وكان معطفه الرسمي قرمزياً كأنه تشرّب دماء أعدائه القتلى، كما بدا الكِبَر على وجهه البارز من المعطف.

انشغل خادمان في إعادة تثبيت لحية ملكهم الكهنوتية التي كانت قد تقلقلت من موضعها أثناء عدوه على حصانه، بينما دنا (شپاتَس) من الملك باحترام فائق كي يعلن وصول (گاش)، فالتفت الملك إلى جهته.

«اركع»، علا في أذن (گاش) فحيح أحدهم مستهجناً، وكانت الضربة التي رافقت تلك الكلمة والمسددة إلى ضلوعه كفيلة بأن تجعله يطيع الأمر حالاً. ضغط أحدهم بمقبض سيفه على عنقه، ما أجبره على التزام وضع الركوع والانحناء، لكن، قبل أن تسنح له الفرصة للاحتجاج على هذه المعاملة، قدّمه أحدهم للملك وصار واجباً عليه أن يبلّغ رسالته إليه.

فابتدأ يخطب: «يا شمس الشرق، وسيد الميادين المجيد، وحاكم الأراضي إلى ما وراء النهرين التوأمين وما قبلهما، يا مَن لا حدود لسؤدده. يا مَن انتصر على روما الكبرى، ومَن داس أعداءه في التراب، يا مَن دمّر الممالك، والتهم المدن، يا مَن خطّت اسمَه النجوم. يا أيها الجبّار، يا مَن روّض الجياد...»، هنا اختصر (گاش) كلامه بعض الشيء، «... يا زعيم الدين الأوحد، لا شُلّت يمناكم، ولتكن ذرّيتكم كالنهر الأبدي كي تُحكِم على العرش باسمكم إلى أبد الآبدين». تنشّق (گاش) بعض الهواء: «ترسلني تدمر، وأميرها (أودَيناتَوس) يركع ههنا معي، كي نسبّح بحمدكم، فتفضّلوا بقبول هذه الرسالة من يديه بواسع رحمتكم، وهو الذي يؤكد لكم صداقته. إن الذي لم يقترف أي عمل ضد الفُرس، يعرض عليكم حلفاً من خلال خطابه الذي يبلّغكم به سفير لا وزن له».

Twitter: @ketab_n

وبهـذا رفع لفافة المخطوطة، وعليها ختـم (أودَيناتَوس)، وهو مطأطئ الـرأس، وأخذ يدعـو ألاّ ترتجف أصابعه. فرأى القدميـن بالصندل المرصّع بالجواهـر وهمـا تتقدمان نحوه، ثم أُخذت منـه المخطوطة. وما لبث أن علا صوت حاد، فقد مزّق الملك الخطاب إرباً إرباً حال تسـلّمه. وانتثرت المِزَق علـى الوحـل أمام (گـاش) كأنها قطع مـن الرماد الأبيض، تعبـث بها الريح وهي تتشرّب رطوبة الوحل شيئاً فشيئاً.

اسـتدار (شـاهـپور) بعيـداً عـن (گـاش) الراكـع أمامـه، وأخذ يخطب في ألويته:

«مَـن هـو ذا الذي يجـرؤ أن يكتب لسـيده رسـالة! لقد تبدّد اسـمه ولم تلتقطـه أذني. مـا أثر الدودة إذا ما تلـوّت تحت حوافر الثـور الملكي وإذا ما أزّت الذبابـة الزرقـاء فـي أذنه؟ أمّا إذا مـا أراد عقوبةً أخف علـى وقاحته مما يستحقّ، فليأتِ ويرتم أمامي مكبّلاً بالأغلال، وإلاّ تحكّمت فيه هو ومدينته، وما رحمت أحداً من قومه».

لـم يفهـم (گـاش) كلامـه علـى الفـور، فضحـك (شـاهـپور) حيـن رأى ذهوله.

«انظر، يا تدمري، إذا لـم يكن بوسعك أن تسمع، وبلّغ أميرك الجحروي بما تراه. لقد وضعتُ قدمي - أنا، (شـاهـپور) ابن (أردَشِـير)- في عنق روما، ينحني بقامته قيصرها ليكون ظهره عتبةً لقدميّ. أمّا أنتم فسأسحقكم سحقاً».

بهـذه الكلمات أومأ إلـى عبيده أن يحضـروا الرجل المكلّل بالغـار ويأمروه بالركوع على أربعته من جديد، فركع هذا الأخير وقد باعد بين ركبتيه وطأطأ رأسـه أمام (شـاهـپور)، الذي انتزع عن رأسـه إكليل الغار باستخفاف ورماه إلى أحد أفراد حاشـيته. أنّ الرجـل بصوت عال عندما وقف على ظهره ملك الفُرس كي يمتطي حصانه.

تُرى هل يكون هذا الرجل قيصر روما؟ هذا الرجل الذي أخذت خصيتاه الطاعنتان في السـن تتأرجحان تحت مئزره، والذي أخذت خاصرته ترتجف وهي تتلقى الأوسـاخ التي رفسها حصان (شاهـپور) الهائل وهو ينطلق، هل

Twitter: @ketab_n

يكون هو فعلاً قيصر روما؟ كان (شاهـپور) قد اختفى برفقة ضباطه.

«هل هذا...؟».

«الأمبراطـور (ڤـاليَريـان) بعينه، نعم». الرجل الذي أجاب عن تسـاؤل (گـاش) اللاإرادي كان هو بعينـه الذي تلقّف إكليل الغار قبل قليل، وقد بدا أنه منشـغل تماماً بإدارة الإكليل حول سـبابته. ولاحظ (گـاش) للتو شـعره القصيـر وثوبـه الطويـل. أتـراه رومياً؟ أيـن تعرّف (گـاش) إلى هـذا الوجه المنبسط المعتدّ بنفسه؟

«يبـدو أن النسـر الروميّ قد تهيأ للهبـوط»، أردف الرجل الغريب قائلاً، وكان الاثنان يراقبان كيف يتمّ اقتياد (ڤـالَيريان) بعيداً. فرمى الغريب الإكليل فـي الهواء عالياً، ثـم تلقّفه بيد واحـدة. «صدّقني، يا صديقـي، لن يقلع ذلك النسر طائراً بتلك السهولة بعد هذا اليوم».

«يبـدو أنكـم تعرفون ذلك علـى وجه الدقة»، صدّ (گـاش) نبرة المرح بفظاظة. هزّ محدّثه كتفيه:

«لقد رأيت الشيء الكثير، وأدرك ما عليّ أن أفعله كي تبقى سفينتي سائرةً مع التيار، وإذا كان أميرك حاذقاً، فسيدرك ذلك أيضاً. مَن يستعمل عقله، كما أفعل أنا، يا صديقي، سـيدرك أن روما تحتـرق، بل إنها تحترق بتوهّج حرارة أشـدّ ممّا كانـت عليه أيام (نيـرون)؛ فكل حدودها تحتـرق، وهي على حافة الانهيار. لا يهمّ أي شيء الآن سوى أن ننقّب عن الكنوز في الأنقاض».

«كـي يصبح المرء ممّن يمسـحون للفُرس لعابهـم مثلكم. ومَن أنتم في كل الأحوال؟».

«أنا؟»، ضحك محدّثه وتوّج رأسه بالإكليل بحركة منمّقة، «أنا إمبراطور روما. أنا القيصر (ماريادَس). وأنا في خدمتكم». بهذا انحنى بعمق ثم ما لبث أن انتصب بقامته وهو يضحك ويهزّ خصلات شـعره. (ماريادَس)! ابن نبلاء أنطاكية المخبول الذي سلّم مدينته إلى الفُرس!

«لست إلاّ قيصر الخونة»، فحّ (گـاش)، «بفضل رحمة (شاهـپور)».

«لكـنْ لـدى (شـاهـپور) فـي الأقـل تيجـان يوزعهـا، رغـم أن هـذا التـاج بالـذات ليـس ذا قيمـة تذكـر»، قال وقـد شـاب صوتَه الأسـى. «خذ،

Twitter: @ketab_n

تلقّف». وقذف الإكليل إلى (گاش). «لربما جلب لمدينتكم الصحراوية شيئاً من الحظ».

* * *

حين غادر (ماريادَس) راح (گاش) يفتّش عن أمتعته، فتبيّن له أن خيول النقل اختفت من دون أي أثر، ومعها الكنوز التي كانت تحملها، فقبض يديه وقذف رأسه إلى الوراء وشدّ على فكّيه كي لا يصرخ من الغيظ ومن آلام سنّه في سماء المساء التي استحالت خضراء وباردة فوق المدينة المحروقة. لكنه وجد فرسه في نهاية المطاف بعيدة عنه، وهي تنتّف بعض أوراق العشب، فغلبه رثاء الذات لبرهة.

«(نجمة)، يا نجمتي، تعالي إلى هنا». وراح يعانق رأس الفرس، التي أخذت تقضم الإكليل بفضول. «(نجمة)، ماذا ينبغي علينا أن نقول لسيدنا؟».

وماذا، تبادر إلى ذهنه السؤال للمرة الأولى؛ ماذا إذا تبيّن أن (بالْبُس) كان قاتلاً مدسوساً بعد كل ما حدث، وأن روما كانت قد عرفت بخيانة تدمر؛ إلى مَن تتوجّه المدينة عندئذ؟

Twitter: @ketab_n

خبرات جديدة

بـدا بيـت (زنوبيـوس)، آمر حرس تدمر، في سـكون شـامل والشـمس تسطع، فقد كان سيد الدار يقضي استراحة الظهيرة على رأس حراس مدينته، وكانـت (زيمـه) قد انسـحبت إلى غرفتهـا، و كانت (عطاي) قـد توارت عن الأنظار. حتى العبد الجديد المزعج الذي كان ينسّـل دوماً هنا وهناك كان قد اختفـى، ولا بد أن سـنة من النوم قد أخذته فـي زاوية ما من البيت. لقد كانت اللحظة مؤاتية للقيام بنزهة.

انسلّت زنوبيا مـن طريقها المعهود إلـى البوابة الخشـبية الصغيرة التي كان يستعملها الخدم بالقرب من المطبخ، لذا لم تكن موصدة. وحين رفعت المزلاج، سمعت صوتاً جعلها تجفل.

«(عطاي)، هذه أنتِ. ظننتُ، آه، ظننتُ أن أحدهم قد طرق الباب».

«هذا ما ظننته أنا أيضاً». ثم عمّ صمت يشوبه الإحراج، فقد كانت المربية قد فطنت للسبب الذي جعل سيدها يسخّر ذلك العبد ذا الكتفين العريضين. فهـو يراقب كل نسـاء الدار مـن دون أن يجلب الانتباه إلى نفسـه، وهو يرافق الزوجـات الثـلاث في كل جولة تسـوّق، لكنـه يحرس زنوبيـا أولاً وقبل كل شيء، رغم أنه لا يقوم بذلك على رؤوس الأشهاد، بيْد أن (عطاي) لاحظته. ألـم تراقب محبوبتها بنفسـها في كل لحظة؟ فقد تكـون الطامة الكبرى للفتاة إذا لـم تقلع عن نزهاتها، لكن لـم يبدُ عليها أنها تدرك ذلك. حبّذا لو تحدثت فـي الأمـر معها برويّة، لكـن زنوبيا كانت قـد انكفأت على نفسـها حتى أكثر من ذي قبل.

أمّا الآن فقد آن الأوان لاقتلاع المشكلة من جذورها.

«أتريدين أن تسدي لمربيتك العجوز معروفاً؟»، سألتها بلطف، فأومأت

Twitter: @ketab_n

زنوبيا بحذر.

«ثمـة صديقة عزيزة عليّ تنتظر مني رسـالةً»، أردفـت (عطاي) بدماثة، «هـلاّ أوصلتِهـا إليهـا؟»، أومـأت زنوبيا بحماسـة هـذه المـرة، بينما أخذت (عطاي) تخطّ بضعة سطور على لوح شمعي، ثم غلّفته بأناقة بورق النخيل.

«بهـذا تذهب مُهرتي إلى الحمام العام الآن. خذي وقتك وتفرّجي على كل شيء، لكن عودي قبل أن تغيب الشمس، اتفقنا؟».

كانت زنوبيا منتشية، فقد ترتّبت لها فترة العصر بحيث لن ينالها فيها أي إزعاج! وليس عليها إلاّ أن توصل الرسالة كي تتفرغ للبحث عن (أودُو)، فقد كان لديها الكثير ممّا كانت تريد إخباره به، من اصطدامها بالضابط (بالْـبُس) إلـى خطوبتهـا المرتقبـة و... لكن (عطـاي) أمسـكت بذراعهـا وقادتها إلى المدخل الأمامي حيث كانت جارية تنتظرهما هناك.

«مـن الأفضل أن ترافقك هي من أن يرافقـك الغوطيّ، يا طفلتي». بهذا أغلقت الباب خلف الفتاة المذهولة.

فـات الاثنتيـن أن (أودُو) كان يتخفّـى فـي المدخـل المقابـل، بـل كان يجلس هناك لسـاعات منذ أيام وهو يلعب بالبِلي*. كلما سـنحت له الفرصة بالانصراف خلسـةً مـن عمله، كان ينتظرهـا كي يقصّ عليهـا حكاية بطولته، وكان قـد حفـظ الحكايـة بـكل تفاصيلها، كمـا كان قـد أضفى عليهـا ألوانه الخاصـة بالطبع. أمّـا غنيمته، وهي الدليـل القاطع، أي رسـالة (دَوميتيانُس) التي استولى عليها من أجل زنوبيا وظل يحملها معه منذ ذلك الوقت، فكانت قد اتّسخت للغاية.

لكـن زنوبيا لم تعد تخـرج من البيت وحدها، ما حيّره، وكم بدت غريبة وهي تشـقّ طريقها ببطء وانتظام، بل بتكلّف، برفقة خادمتها، تماماً كما تفعل النسـاء اللواتـي يشـترين الحرير من سـيده (كْلَيمَنـسْ)، فـراح يراقبهما وهو يتوجّس خيفةً.

لو كان بوسـعه أن يعرف ما يجول في خاطر زنوبيا وهي تنعطف صوب رواق الأعمـدة، لكان في ذلك بعـض العزاء له. عندما غادرت زنوبيا منزلها،

* لعبة تقذف فيها كرات زجاجية صغيرة بالأصابع

Twitter: @ketab_n

كانـت مذهولـة وقد صدمتها صرامـة (عطاي) غير المعهـودة. أمّا هنا، حيث أصبحت في محيط شارع الأعمدة المألوف، الذي كانت تجوبه طوال أيامها التليـدة حـرةً طليقة، فقد أخذ السـخط يحتدم فـي داخلها، إذ تأكـد لديها أن (عطـاي) قد خذلتهـا. لقدتخلّت عنها الإنسـانة الوحيدة المؤتمنـة في بيتها، وانضمّـت إلى فئة المربّيات الأخريات اللواتي كنّ يلازمن المنزل، واللواتي يتجنبهن المرء ما استطاع لئلاّ يضطر إلى قضاء النهار بأكمله في باحة المنزل الداخلية في ثرثرة لا نهاية لها. سيكون محالاً عليها أن تغادر المنزل من دون أن يلاحـظ ذلك أحـد إلاّ بمعونة (عطاي)، وها هي الآن تمشـي إلى الحمام العـام برفقـة هـذا العَجُز البدين. وبدا لهـا أن نزهة كهذه ما عليهـا إلا أن تقنع بها من قبيل التسـلية في الأيام المقبلة. لكنها سـتعاقبها، وسـتكون طَيِّعة إلى الحـد الـذي سـتقتنع بـه (عطـاي) أن مرضاً مـا قد أصابهـا، ما سـيولّد لديها عقدة ذنب قاتلة.

وصلتـا الحمّـام العـام في صمـت تعكّـره هذه الأفـكار القاسـية. ألقى مخصيٌّ عجوز- لكنه أملس البشـرة ورديّها- نظرةً سـريعة على رسالة زنوبيا فـي مدخل البناية، ثم التمس منها بحركـة مؤدبة من يده أن تصبر قليلاً، وعاد العبـد الصغيـر الـذي همس في أذنـه بضع كلمات بعـد قليل بصحبـة النوبية الإسـطوانية الشكل التي كانت زنوبيا تعرفها من جلسات الظهيرة في منزلها، حيـث كانت تقرأ الطالـع في أكُفّ النسـاء المجتمعات. وتذكـرت زنوبيا أن اسمها (أُومَه).

نظـرت (أُومَـه) في اللوح الشـمعي ثم فـي الفتاة النحيلـة ذات الضفائر العديـدة البـارزة أمامها، بينما عاجلتها زنوبيا من جانبها بنظرة ملؤها الشـك. تملّـك زنوبيـا الشـعور بأنها لـم تكن قد مُحِّصـت إلى هذا الحد مـن قبل، ما خفض من قيمتها، ولـم ينل إعجابها مطلقاً. وصار من عادتها ألاّ تنظر إلى أية مرآة تواجهها منذ كارثة الثوب الذي أهداه إياها والدها، إذ إن شـكلها لم يعد يعجبها، ولم يعد يناسبها الجسد الذي أُقحمت فيه.

«كتبـت لـي مربيتك أنك لـم تزوري حمامنـا إلى الآن، وهـي تعتقد أنه سينال إعجابك».

Twitter: @ketab_n

لم تكن (أُومَه) امرأةً يعارضها المرء من دون أن يكون مضطراً إلى ذلك، لذا التفتت زنوبيا صوب مرافقتها، فما كان من هذه الأخيرة سوى أن أومأت إليها مشجّعةً. ومن دون أية كلمة أخرى أمسكت (أُومَه) بيدها وقادتها مثل طفلة صغيرة إلى قاعة تغيير الملابس، حيث ظهرت خادمتا الحمّام تتكركران استجابةً لضربها يداً بيد، فتركتها معهما. وقفت خجلى في مكانها وحاولت جاهدةً ألاّ تبدو كأنها تعير أهمية لشيء سوى السقف الذي راحت تحدِّق إليه، بينما أخذت الخادمتان تنزعان عنها ملابسها قطعةً قطعة. لكن عندما تغلغلت أصابع الفتاتين الرشيقة في ضفائرها المتشابكة، أخذت تحتج فوراً، فتغلبت الخادمتان على مقاومتها بالمداهنة المقرونة بالصرامة، حيث كانتا تعرفان واجباتهما جيداً.

في آخر المطاف وقفت زنوبيا عاريةً على البلاط الدافئ وقد تملّكها الحياء، وحول عنقها ربطة إغريقية ناعمة، إذ لا يجول في بيتها أحد عارياً سوى الأطفال الصغار للغاية، لذا شعرت بأنها معدومة المَنَعَة تجاه الفتاتين الفاتنتين في رداءيهما الأبيضين، لكن ذلك الشعور تلاشى بسرعة حالما دخلت القاعة المجاورة.

انبسطت أمامها قاعة ذات قبة مترفة. لم يكن حمام تدمر العام بناية لافتة للنظر، فقد كانت عديمة النوافذ، ولونها من لون الصلصال الأصفر، ولها سطح مقبّب، كما كانت غير مطلية كما هي الحال في العديد من بيوت المدينة. أمّا في الداخل فلم تكن من البساطة في شيء. علت قعقعة قباقيبهن على موزاييك فني متشابك مع الطرف السفلي للجدران، وهو يروي قصة عاشقين إغريقيين تجهلها زنوبيا، لكنها انشدهت بتوهّج الألوان وإشراقها. ثم أخذت تحس بهواء القاعة اللطيف يداعب بشرتها، وبدا لها أن كل شيء هناك إنما هو مكرّس لأن ينسى المرء ثقل الأعباء. لكن ما أثار دهشتها الكبرى النساء اللواتي استرخين في الأحواض الصغيرة والكبيرة، وكنّ جميعهن عاريات تماماً، لكن من دون اكتراث، كما لم يبالِ أحد بها هي الأخرى.

اقتربت متلكئةً من الماء النظيف ذي اللمعان الأخضر في الحوض الكبير، الذي لم يكن عميقاً لكنه يكفي لأن يغطس الإنسان فيه حتى حنكه.

Twitter: @ketab_n

وأخـذ دفق المـاء الناعم الدافئ يداعب بشـرتها ويدلّكها. وراحت تستشـعر متعة غير مسبوقة في أطرافها وهي شبه مستلقية على ظهرها. وعندما اقتربت إحـدى خادمـات الحمّـام مـن طرف الحـوض وأومـأت لها بالخـروج منه، تخلّت زنوبيا من دون رضا عن شـعورها الجذل بانعدام الجاذبية، ثم تدثّرت بمنشـفة رقيقة، وتمّ اقتيادها إلى غرفة صغيرة لم يكن فيها إلاّ رفّ عليه أواني الزيت والدهون، ودِكّةٍ طويلة منجّدة في الوسـط. بعد قليل سـحبت الستارةَ عند المدخل جانباً يدٌ زنجيةٌ بدينة ودخلت (أُومَه).

«يا ابنة (زنوبيوس)، جسدك برمّته يتوهّج». ومن دون أن تنتظر جواباً ما، مدّت يدها صوب المنشـفة، لكنها وجدت مقاومـة لم تتوقعها، فقد أحاطت زبونتها الصغيرة جسدها بذراعيها بإحكام.

«تُرى هل سـأدلّكِكِ أنتِ أم هذا القماش؟ أم تُراكِ تظنين أنني سـأحدّق إلى جسـدك؟ انظري!». ورفعت (أُومَه) رداءها الملون عالياً وهي تبتسم، ما جعل عيني زنوبيا تتوسّعان.

«أترَيـن؟ تمامـاً مثلما لديكِ من جسـد، ولكن بحجم أكبر ولربما أشـدّ سماراً. والآن؟».

ثـم فكّت غطاء زنوبيا بيديها القويتين، وأخذت تتفحّص الفتاة السـمراء بالدقـة نفسـها التـي تفحّصت بهـا أجيالاً من قبلهـا، فحتى (زِيمَـه) كانت قد أُرسلت إليها قبل زفافها، فأشرفت على استحمامها ومسحتها بالزيت وقامت بتوعيتها، تماماً كما ستفعل مع زنوبيا حين يحين الوقت لذلك. وكان واضحاً أن تلك اللحظة قد غدت قريبة لهذه الـمُهرة ذات العظام البارزة. فوجّهتها أن تستلقي على الدكة على بطنها وأن تسترخي.

استـهلّت (أُومَه) تدليك زنوبيا بتمسـيدات قوية علـى ظهرها الذي كان متصلّبـاً كاللوح بفعـل إرادتها العنيدة، لكنه عاد فاستـجاب لهـا ببطء، قطعةً قطعـة. وبدت يداها لزنوبيا كأنهما تعودان لشـخص آخر وهما تصبّان الزيت الدافـئ العطِر وتمسّـدانه، فراحتا تدلّلان كل عضلة وكل انحناءة لامسـتاها، حتى أخذ جلد زنوبيا يتنفس، وظهرها يلين. وتمدد لوحا كتفيها من تلقائهما،

Twitter: @ketab_n

فتنهّدت. ثم جالت اليدان إلى أسفل، من حنية الخصر الرقيقة حتى وركيها حيث مكثتا؛ إحداهما على الورك الأيمن والأخرى على الأيسر.

«عليكِ ألاّ ترتاعي، يا ابنة (زنوبيوس)، فأنا في طريقي إلى ساقيكِ وحسب».

أخذت (أُومَه) تتحسّس عضلات عديدة في صحة جيدة، وقد جعلتها كثرة الحركة مستقيمة قوية، كما وجدت بضعة تكوّرات مُرضِية وستكون محطّ إعجاب الرجال. وكانت ساقا زنوبيا مناسبتين للهرب، لا للإغراء. ورسم إبهاما (أُومَه) دوائر إلى الداخل ابتداءً بحَنيَتَي الخصر اللتين تكادان تكونان صبيانيتين، لكن شيئاً ما لم يستجب لإرخائها. رغم ذلك ظلت أصابع (أُومَه) تحفر في لحمها من دون أن تكون موضع ترحيب زنوبيا، حتى صرخت هذه الأخيرة، ثم باعدت بين فخذيها وهما يتشنجان وانقلبت على الدكّة وحدّقت إلى (أُومَه) وقد توسّعت عيناها، وامتزج في وجهها الحياء مع علامات التهيّج التي لم تقوَ على إخفائها. فابتسم الوجه الزنجي نحوها بلطف وعن معرفة.

«ها أنتِ ترَين كم من المتعة يوفّر لك جسدك، إذا ما سمحتِ له بذلك، فهو سكنكِ الذي تحملينه معك أينما حللتِ». وضحكت وهي تعاود تدليك كتفي زنوبيا.

«علينا نحن النساء أن نحبّ أجسادنا، إذ إن أبناءنا سينشأون منها، وحين تحملين، وقبل أن تَرَيْ ما في جوفك»، ومرّرت (أُومَه) يدها على بطن زنوبيا المسطّح، «ستقتلكِ الأوجاع».

«متى...».

«آه، يا طفلتي، لا بد أن يحصل الكثير حتى يحين ذلك الوقت، فعليك أن تصبحي أكثر تكوُّراً هنا مثلاً». ومرّرت يديها على التلّين التوأمين اللذين ما زالا مستدقّين للغاية.

«ما بكِ؟ هل يوجعك هذا؟ لا؟ هل تظنّين أنكِ مريضة إذا ما استجاب لكِ برعماكِ؟»، وابتسمت، فقد كشف لها تلوّن وجه الطفلة ما يكفي، وعاودت التواصل مع جسد الفتاة العنيد، وقد كانت (أُومَه) ساحرةً تُحَوِّلُ

Twitter: @ketab_n

كل ما تلمسه إلى جسد مسترخٍ ومتنبّه في آن. وجالت أصابعها إلى الأسفل شيئاً فشيئاً، وتبعت تكوّر البطن والتقت تحت السرّة في تمسيد رقيق توقّف برهة على أنوثتها قبل أن ينسحب. ظلت زنوبيا مستلقيةً، وكان جسدها يتذبذب بنعومة بفعل رائحة الزيوت المعطّرة التي امتزجت بشذا جسدها.

في هذه الأثناء كانت (أُومَه) قد غسلت يديها في حوض مرمري صغير، وكأنها تتخلّص على هذا النحو من آخر آثار اللمس الحميمي، ثم أمسكت بمنشفة الحمّام الكبيرة ودثّرت زنوبيا بها بحيوية فائقة، ووضعت يديها على كتفيها النحيلين.

«بوسعك أن تأتي دوماً، إذا ما رغبتِ. وأخبري والدتك بذلك، حسناً؟».

لكن عندما أومأت زنوبيا من دون أن تنبس ببنت شفة ومن دون أن تقوى على الابتسام، لطمت (أُومَه) فخذيها القويين وانفجرت قائلة:

«قسماً بالإلهة (عشتار) ومومساتها المئة والخمسين، هذه الطفلة تتصرف كالملكة ذاتها. ما بكِ؟ أأغضبتكِ... أم تُراكِ خائفة؟». جلست زنوبيا أمام المرأة الغامضة التي بدا أنها تعرف عنها الكثير، وأخيراً أومأت لها.

«أريد أن يبقى كل شيء كما هو. كل شيء من حولي يتغير؛ عليّ أن أتزوّج قريباً، ولن يجوز لي بعد ذلك أن أفعل أي شيء». وتبلّعت رثاءها لنفسها. «أنتِ قارئة طالع؛ هل يمكنكِ أن تساعديني؟».

لكن (أُومَه) كانت قد توجهت صوب إحدى الخزائن، ففتحتها وجلبت منها طاسة مفخورة رفعت غطاءها تحت أنف زنوبيا التي راحت تتنشّق عبير الأعشاب غير المألوفة فيها.

«ستأخذين معك كيساً من هذا الخليط للنقع».

«ومن بعد ذلك سيعود كل شيء إلى ما كان عليه؟».

ضحكت (أُومَه):

«لا، يا طفلتي، لن يعود أي شيء إلى سابق عهده لأيٍّ منّا، لكننا سنرى إذا ما كان ينبغي عليك فعلاً أن تخافي إلى هذا الحد ممّا هو آتٍ». ثم طحنت مقداراً من الأعشاب وملأت به كيساً من القماش. «اشربيه وهو ساخن

Twitter: @ketab_n

للغاية، ولكن وحدك، أسمعتِ؟ ثم اخلدي إلى فراشك».

«وبعد ذلك؟».

«وبعد ذلك ستستغرقين في النوم وتحلمين أحلاماً، فاحفظيها جيداً وتعالي إلى هنا مرة ثانية كي أقول لكِ ما رأيتِ». بهذه الكلمات رنّت (أُومَه) جرساً صغيراً قرب الباب، وما لبثت أن ظهرت جارية انحنت لزنوبيا وأومأت لها أن تتبعها، وحين التفتت زنوبيا بعد بضعة خطوات كي تودّع (أُومَه)، كانت الستارة قد أُسدِلَت.

* * *

قدح ضوء الظهيرة المتّقد في غرفة النوم، وتأرجحت الظلال على جدارها الخلفي على شكل تلال مرحة.

«آه، يا نمري الأشقر، يا شرس»، علا الأنين من بين المخدات بينما كان الرجل يرفع عَجُزه ذا الزغب الذهبي ويخفضه بإيقاع متسارع، واستدارت الإمرأة تحته وقد انتشت بفعل حركاته ونغمات لغته الغريبة التي كان يلهث بها في أذنها، ثم أنشبت أصابعها في شعره الشديد الشقرة المنسدل على كتفيه. وعندما علت في وجهه حمرة شبه شفافة، أخذت تقوّس فخذيها نحوه ثم تلقّفت دفعاته الأخيرة الحاسمة في حضنها المنفرج. وانهار فوقها بتأوّهٍ هائل مثلما تنهار شجرة بلوط جرمانية كانت قد اقتُلِعت من جذورها. وبعد قليل تمدّد الواحد منهما بجوار الآخر، وقد تملّكهما الإرهاق والاسترخاء في آن، وراحت تلوي شعر عانته الأشقر في خصلات.

«ممممهه»، تنهّدت ياسمين مرتاحةً، فقد كانت هي، زوجة آمر الحرس التدمري الثالثة التي استكشفت للتوّ أطرى مواضع حارسها، وبدا هذا الأخير منشغلاً في هذه اللحظة في الدفاع عن شرفه هو أكثر من شرف سيده، فقد ابتسم من دون ارتياح قبل أن يرفع يدها أخيراً عن فخذه. لكن ياسمين أمسكت بيده بنشاط مفعم بالحيوية ووضعتها على موضع في جسدها كانت الرغبة فيه لا تزال مشبوبة. فابتسم منزعجاً وقد تملّكه الإطراء في آن وأمسك بها من جديد، فباعدت فخذيها مشجعةً إياه واستدارت نحوه وهي تهدل.

Twitter: @ketab_n

«الرجال يُرهقون بعد كل هذا». ثم تكركرت. «أمّا أنا فليس بوسعي أن أبتدئ إلاّ الآن». ثم ضمّت عَجُزه مستمتعةً. «آه، رائحتك جميلة للغاية». كانت قد وصلت إلى عنقه، فوارت أنفها هناك. «بوسعي أن ألتهمكَ. آخ!».

جعلها صوت ما من خارج الغرفة تغطي جسدها بالملاءة حتى حنكها بحركة واحدة.

«ما ذلك؟ انصرف بسرعة!». لكن حارسها كان قد ترك الفراش، فلملمت على عجل ملابسها من الكومة على الأرض ورمت له معطفه وقبلةً على كفِّها وهو يثب من الغرفة حافي القدمين.

بعد قليل دخلت (عطاي)، ولاحظت الملاءات المجعّدة فوراً، فجعلت ياسمين إحدى شالاتها الملونة تسقط على الأرض من دون أية مبالاة تحت نظر (عطاي)، ثم خطت نحو النافذة.

«آه، هل تأخر الوقت إلى هذا الحد؟ لقد ازرورقت الظلال. لا بد أنني استغرقت في النوم».

تنشّقت (عطاي) الهواء وحسب.

«لا بد أن ثمة رائحة نوم كريهة للغاية في غرفتي»، قالت ياسمين معتذرةً.

«تماماً مثل الحظيرة»، كان جواب (عطاي) السريع الحاد.

حدجت ياسمين المربية بنظرة لبرهة، لكن بصرها راح يجول في الغرفة حتى استقر على صندل تحت طرف الفراش، وقبل أن تسنح لها الفرصة بإبعاد الدليل الفاضح خارج مرمى البصر، كانت (عطاي) قد انقضّت عليه.

«لا بد أنه يعود للسيد»، أردفت ياسمين. «فقد كان هنا البارحة، ولا بد أنه نسيه، ويبدو أنني أجعله يفكر في أشياء أخرى». عادت ياسمين إلى منضدة زينتها وركبتاها تصطكّان من الهلع، وكان وجهها الشاحب في المرآة يفضح أكاذيبها أكثر. ولم تجهد (عطاي) نفسها كي تشير إليها أن الصندل في يدها كان يمكن أن يتّسع لقدم سيد الدار الصغيرة مرتين بالتمام والكمال.

«(أويات) تبحث عن أصغر أطفالها؛ تُرى هل رأيته؟».

«لا، كما قلتُ، لقد كنتُ...».

Twitter: @ketab_n

«... نائمـةً، نعم. مـن الافضل أن آخذ الصندل هذا معي». وبهذا ربطت فردتي الصندل الواحد بالآخر، فكانا بطول ساعدها. «سأضعه بجانب صنادل السيد الأخرى، قبل أن يفتقده، فهو على وشك الوصول إلى الدار».

«حقاً؟ سيزورني قريباً إذن، لذا بوسعكِ أن تتركي الصندل هنا، وسأعطيه له». وانتزعته من يديها وتشبثت به على صدرها. «بوسعك أن تنصرفي الآن، فعليّ أن استعدّ لوصوله».

«نعم، لربما ينبغي عليكِ أن تغتسلي».

«ويحكِ!»، فحّت ياسمين وقد استشاطت غضباً، «انتبهي إلى ما تقولينه. هل تظنين أنني لا أدري أن محبوبتك الصغيرة تتسكّع في الشوارع كل يوم؟ أنتِ آخر مَن بوسعه أن يتكلم عن الآخرين بالسوء».

«رويدك، يا طفلتي، رويدك، فأنا لم أقل شيئاً البتة».

«أنا لستُ طفلتكِ».

«وهذا من حسـن حظي، وإلاّ اضطررت أن أشعر بالعار لكلتينا». وبهذا انصرفـت (عطاي) مـن الغرفة مرفوعة الرأس. وطـار الصندل خلفها صوب الباب المغلق وأحدث ضجيجاً مدوّياً.

«فليصبهـا الطاعـون فـي عنقها، خلاّطـة السـموم العجوز تلـك!»، ثم ارتمت ياسمين على فراشها وهي تجهش بالبكاء.

* * *

كان العاشـق الهـارب يقـف في هذه الأثناء وقد أسـند ظهـره إلى جدار الـدار وهو يتنفس بعمق كـي يهدّئ من روعه، وتأكد له بنظـرةٍ إلى اليمين ثم إلـى الشـمال أن ليس ثمـة أحد في الزقـاق الضيق يمكنه أن يـراه وهو يخطو خارجـاً مـن الباب الجانبي، ثم اسـتقر بصره على قدميه: لقـد كانتا عاريتين. تبـاً، الصندل! فأخذ يسـتمطر اللعنات على حظه العاثـر بملء فيه من دون أن يلاحـظ أن صبيـاً صغيـراً قد ظهر من أعماق ظـل بوابة الـدار المقابلة، وراح يقتـرب منـه وَجِلاً لكـن كالمفتون. ولـم يرفع رأسـه إلى أعلى حتـى خاطبه الصبي ذو الخصلات الشقراء، فرأى عينين لهما زُرقة مثل زُرقة عينيه تماماً.

Twitter: @ketab_n

كان قـد مـرّ زمن طويل منذ أن سـمع (أودُو) نغمات لغتـه الأم، وكانت ذكرياته عنها قد أخذت تضعف يوماً بعد يوم، لكن غموض النغمات المعهودة ظل يجتذبه من دون هوادة، فصاغ من ذاكرته الصدئة عبارات التحية.

«أأنت غوطي؟».

أشرقت أسارير (أودُو).

«نعم، من حوض الدانوب».

«يـا للصدف! شـيء جميل جداً». لم يكن الحـارس يوماً يولي الأطفال اهتماماً يُذكر، لا سيّما في مواقف كهذه.

«اسمي (أودُو)».

«وماذا تفعل هنا وحدك، عدا إخافة الناس؟».

«المعذرة».

«لا بأس، ولكن عليك أن تنصرف الآن، يا صبي».

«يبدو أنك قد أضعت حذاءك».

«يا لشطارتك! اذهب من هنا».

لكـن (أودُو) كان قد انسـلّ قبالة منزل زنوبيا، وظـل يترقّب لفترة طويلة جداً، ولم يعد بوسعه بعد ذلك أن يدع فرصة كهذه تفلت من بين يديه.

«أأنتَ من أفراد منزل زنوبيا؟».

«سيد هذه الدار لا يزال (يوليوس أورَليانُس زنوبيوس)».

«لكنك تعرفها، أليس كذلك؟ هل تراها أحياناً؟».

«وما شأنك في ذلك، يا غلام؟ قُل لي الصدق».

«الحـق أنـي...»، تبلّـع (أودُو) ريقه، لكنـه كان قد تجاسـر أكثر من أن يعود فيتوقف الآن، كما لم تخطر له في بال أية كذبة بيضاء.

«لقـد كنّـا نتنـزّه سـوية بيـن الفينـة والأخـرى، فـي المدينـة و... نحـن أصدقاء».

هـذا أمـر مثيـر للاهتمام، فللمـرة الأولى تبـدّت لهذا الغوطـي الفاضل صـورة غامضة عـن مغزى تكليفه بتعقّب تلك الطفلة الشـقية، فقد كانت إذن من المولعات بالتسكّع، ولكن لـم تسنح لها الفرصة لذلك في الفترة الأخيرة،

Twitter: @ketab_n

كما يبدو، ممّا طمأنه. لكن إذا ما حاولت يوماً أن تنسلّ منه خلسةً، فستكون تلك طامته الكبرى، لذا قرر أن يجلس.

«أنتَ (أودُو) إذن الذي تحكي عنه سيدتي الصغيرة صباح مساء. كان ينبغي عليّ أن أُدرك ذلك بالطبع. (أودُو). فهي تكثر الكلام عنك، لكنها لم تذكر أنك من أبناء بلدي، فيا للروعة! هيه، يا ابن بلدي، أنظر، هل بوسعك أن تفعل هذا أيضاً؟». وبهذا سحب سكينه من حزامه، وشمّر أحد كمّي سترته، وقلّص عضلة ذراعه، وجعل شفرة السكين- وقمّتها المدببة إلى أسفل- تهوي على عضلة ذراعه، فارتدت مثل الكرة، واتّسعت عينا (أودُو).

«ما رأيك؟ هل تريد أن تحاول بدورك؟»، أعطى (أودُو) السكين، فما كان منه إلاّ أن رفعها إلى أعلى ما استطاع، ثم جعلها تهوي على عضلة ذراع الغوطي.

«ها هي السكين ترتدّ إلى أعلى»، صرخ مفتوناً.

«بالطبع، فعضلاتي بصلابة الفولاذ. أرني عضلاتك، بسرعة، لا داعي للخجل الآن»، فشمّر (أودُو) أحد كمّيه عن ذراعه الصبيانية.

«والآن قلّص عضلتك، بشدة، ثم أشدّ، هذا حسنٌ. نعم، أرني ما عندك؛ ادفع ذراعي بعيداً عنك. آخ، آخ، آخ، ارحمني، يا أيها المحارب العظيم، ارحمني». وراح يدلّك مفصل يده وهو يتصنّع الألم، وأكدت له نظرة ألقاها على وجه (أودُو) المتورّد توهّجاً أنه قد كسب معجباً حقيقياً.

«لا بدّ أنك تفتقد صديقتك».

«إني أفتقدها للغاية، فالبارحة انتظرتها طوال فترة العصر في مخبئنا في المعبد لعلّها تأتي، لأن لديّ أمراً عاجلاً لا بدّ أن أخبرها به».

«لديكما مخبأ في أحد المعابد؟ لا أصدّق ما تقول»، قاطع سيل الكلمات الصادر عن الصبي.

«بل لدينا مخبأ في وسط معبد (بَعل)، وسُلّمنا السرّي خلف محراب الثالوث تماماً، لكن أحداً لا يعرف عنه شيئاً، وعليك أن تقسم لي أنك لن تفشي السر».

«لن أفشي السر».

Twitter: @ketab_n

«أقسمْ بذلك!».

«حسناً، أُقسم بذلك!».

«بالله العظيم وبكل الآلهة الأبدية، وإلاّ شلّ لساني».

«بكل الآلهة التي يمكن تخيّلها، وإلاّ شلّ لساني. أنتما تجثمان في المعبد إذن. لا بدّ أن ذلك مثير للضجر».

«حسناً، في الغالب نتجوّل في المدينة، وفي السوق وما إلى ذلك، فثمة أشياء تحدث فيه، غالب الأوقات في الأقل، أو نذهب إلى النهر».

«لصيد السمك، أليس كذلك؟ هيه، هل أراك أحدهم كيف يصنع المرء سنّارة ممتازة في أي وقت؟». فهزّ (أودُو) رأسه.

«لا، هل بمقدورك أن تفعل ذلك؟». وبدا متشوّقاً، فقد أخذ يشعر كأنه عاد إلى موطنه وبين أصدقائه الذين كانوا يروون حكاياتهم الرائعة في كوخ الغابة.

«لا نذهب إلى هناك لصيد السمك، بل كي نجلس ويحكي الواحد منا القصص للآخر. وليس بمقدور زنوبيا، بحسب علمي، أن تسبح جيداً».

«لا تسبح جيداً؟ تباً للنساء! فلنذهب نحن الاثنين إلى هناك يوماً ما. هل ثمة خلوة هناك أيضاً؟ وهل ثمة سمك؟». احمرّ وجه (أودُو) من الخجل لأنه لم يتستّر على صديقته، لكن الأمل بمرافقة هذا الرجل في نزهة لصيد السمك كان مغرياً للغاية.

«ثمة سمك بغزارة، والخلوة تحت الطاحونة. إذا ما مشيت من خلال بساتين الخضروات العائدة للتاجر (تايمَوعَماد) فلن تفوتك بالتأكيد. عليك أن تمشي بين أشجار الليمون وشجيرات الخبازى وحسب، ومن ثم بمحاذاة القناة». وتمعّن في الرجل الطويل وقد فَتَنته التوقّعات.

«لا بد أن نقوم بهذه النزهة معاً، أمّا الآن فعليّ أن أنصرف». وانتصب الغوطي ونفض ملابسه لإبعاد غبار الشارع الذي علق بها، ثم غمز (أودُو):

«دعنا لا نُخبر زنوبيا بشيء من هذا، وإلاّ غضبت، وفي كل الأحوال فقد سئمت النزهات من حيث هي. والآن انصرف، وسأُخبرها أنك كنت هنا».

«حسناً، ولكن...».

Twitter: @ketab_n

«إلـى اللقـاء قريباً، يا ابن بلـدي الصغير». بهذا تـرك الصبي المضطرب خلفـه معبـد (بَعل) والسـوق والنهـر. إذا ما أضـاع زنوبيا في يوم مـن الأيام، فسيعرف أين يلقاها.

ظل (أودُو) واقفاً أمام الباب، فقد اختفى صديقه الجديد بسـرعة فائقة، وهـو يـدرك كم ستشـتاط زنوبيا غضبـاً منه حيث أنه أفشـى سـرّهما.لم يكن بوسـعه أن يتخيـل كم سـتكون غاضبة منه. تُـرى هل حقاً لم تعـد ترغب في التسـكّع معه؟ وماذا إذا كان ذلك الرجل اللطيف يكذب؟ تساءل وهو يتوجّه إلى منزله وقد خارت عزيمته.

Twitter: @ketab_n

أبراج القبور

لم يكن لتدمر سـورٌ عالٍ، وكان ذلك أمراً شائكاً بالنسبة إلى حصن كان يُفتـرض فيـه أن يحمي الجبهـة الشـرقية لأمبراطورية في طـور الانهيار، من أعـداء يقتربون منها أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. لكن البيوت الغريبة الطراز التي كانـت تسـتقبل القادمين من الغرب لـم تكن في حاجة إلى سـور يحميها، إذ ليس بمقدور أحد أن يسلب سكان هذه البيوت أي شيء سوى الدعَوات التي تمتـم بها لهـم أبناؤهم قبل رحلتهـم الأخيرة، فقد كانت تدمر تشـتهر بمدينة الأضرحة الصامتة أمام بواباتها.

وكان كل برج شاهداً بدوره على عائلة بلغت بها سمعتها وثروتها الحد الـذي مكّنها من أن تبتني مسـكناً من هـذا النوع لأمواتها في السـهل المقابل للمدينة. وكانت الرياح تكوّم الرمال على عتبات الأبراج التي تعود لسلالات عفـا عنها الدهر، وقد اندثرت أسـماؤها وثرواتها وسـمعاتها، إذ لم يبق أحد ليدفـع لأحد الكهنة كي يزيح الرمال عن العتبـات في ورع أيام الأعياد، ليلج في داخل الأضرحة لإقامة طقوس القرابين فيها. وكانت للسـحالي الخضراء أوكار في شقوق الشواهد المتصدعة.

كانت مراسم الدفن بحسب التقاليد تنعقد في ساعة المساء، أي في تلك الفترة القصيرة التي تتحوّل فيها الشـمس من قرص متوهّج أبيض إلى نصف دائرة في الأفق مشوبة بالاحمرار. لا بد أن مواطناً مهماً قد فارق الحياة اليوم، حيث أن أول القافلة الغنية بالألوان -كانت تتكون من الكهنة وذوي الألقاب الرفيعـة وضيـوف الجنازة- كاد يصل بوابة المدينة عائداً من المراسـم، بينما آخـر القافلـة قد ابتدأ للتو يقفـل عائداً من بين أبراج الأضرحـة البعيدة. وظل نسـيم المسـاء يحمل نُتفاً من صلصلة الصنوج عبـر الحدائق، كما علا عويل

Twitter: @ketab_n

النادبات الأسود مرة تلوَ الأخرى، بينما كنّ يرقصن حول المتفجّعين.

لم يبق عند برج الضريح إلاّ ثلاثة رجال، وكان أحدهم أمير تدمر بذاته، وقد أسدل حجاباً على شيء من وجهه رمزاً لحزنه، إذ كان قد دفن للتو نجله الذي وُلِد ومات قبل ثلاثة عشر يوماً، أمّا والدته فقد كان من المتوقع أن تلحق بوليدها في غضون أيام وحسب. كان (أودَيناتَوس) لا يزال يحدّق إلى البقعة ذاتها التي لم تفارقها عيناه منذ زهاء الساعة: لوح مرمري عليه نحت بارز لرأس صبي وسيم، وقد أحاطت خصلات الشعر وجهه الأملس، وكان النحات قد صوّر الطفل الذي كاد يكون وريثاً لسلالة عريقة على الهيئة التي كان يحلم بها والده. وصار عمل النحات الفني ختماً للحفرة التي ووري فيها تابوت (سَبتِيمِيُس أولاي) الحجري الصغير في طقوس مهيبة.

لقد كان النحت البارز يحكي قصة آمال عديدة مُحبطة، إذ لم يعد الحظ يحالف أصحابها في أيٍّ من الأمور. وظلت الشائعات تنتشر في المدينة ومفادها أن المولود كان مسخاً فظيعاً مكسوّاً بالشعر وله رأس كرأس السحليّة، فما كان من الأب الغاضب المصدوم إلاّ أن خنقه بيديه. كما ظلت شائعات أخرى تنتشر وتحكي عن نُذُر شر، منها أن السماوات قد اكفهرّت وأن القيصر قد مات، ولا يدري أحد إلاّ السماء بأية طرق سريعة تنتشر مثل هذه الأنباء المشؤومة.

وقف (دَوميتيانُس) جانباً وهو يراقب صورة الحزن الأبوي الصامتة بفارغ الصبر، إذ كان يريد أن يتبادل مع الأمير بضع كلمات صريحة، بعيداً عن الشهود أو قيود الإلتزامات الدبلوماسية. لقد كانت الرسالة المنتظرة بقلق من روما منذ زمن بعيد قد وصلت قبل أيام، وهي استدعاءٌ للمندوب إلى العاصمة للإدلاء بتقريره. لم تشُب الرسالةَ نبرةُ تهديد، ورغم ذلك نصحه أصدقاء يهمّهم أمره ألاّ يغامر بحياته باستجابته لتلك الأوامر.

بدا شيء من الامتعاض على وجه (دَوميتيانُس). سيذهب إلى العاصمة بالطبع، لكنه كان قد استثمر ثروته بوساطة قريب لزوجته في بلاد الإسبان، ولربما سيكون بوسعه أن يقطف ثمار ذلك الادخار، إذا ما كانت الإلهة (جُونو) تنظر إليه بعين الرضى. ينبغي عليه، والحال هذه، أن يقدّم لقيصره

Twitter: @ketab_n

بضعة نجاحات في الأقل، مثل عودة تدمر إلى حضن الأمبراطورية. تُرى هل تسلّم الأمير رسالته؟ لقد كاد يشكّ في ذلك.

كان (دَوميتيانُس) يقف من دون أن يحسّ به أحد قرب الباب، حيث كانت نسمات الصحراء المغبرّة تحاول الولوج في داخل الضريح المثقل بأدخنة البخور. عندما رأى أن (أودَيناتَوس) قد التفت إلى آمر حرسه في الضباب الرمادي وأخذ يخاطبه بصوت خافت، بدأ يدخل برج الضريح المظلم ببطء وتؤدة، حيث كاد يختنق بفعل الدخان الثقيل المختلط ببخار الأدعية التي استمرت لساعات. أما وقد لاحظه الآخران، فقد حيّاهما بانحناءة قصيرة من رأسه.

«تحياتي لكم، يا أميري. هذا يوم كئيب لنا جميعاً».

لم يتحرك (أودَيناتَوس)، فانزعج (دَوميتيانُس). تُرى هل أخلّ أحد بأصول الأدب التدمري، أم هل قرر (أودَيناتَوس) أن يتخلّى رسمياً عن أي مظهر من مظاهر التواؤم مع دولة الروم؟ ثم سمع صوتاً جعله يحوّل بصره، فرأى رجلاً ثالثاً في البرج يترك الظلال ويطأ دائرة الضوء. (گاش)! لا يزال (گاش) على قيد الحياة. وراح يتخيل مصير (بالْبُس)، ما جعله يحس بالدوار، فتوقف عن خطابه لبرهة. بدا له أن كل شيء قد ضاع، وأن مصيراً غير حميد ينتظره في روما. فراح (دَوميتيانُس) يمسح عينيه وقد تملّكه الإرهاق.

ثم أردف يكمل خطابه الذي كان قد أعدّه خلال فترةٍ طويلة وقد فقد حيويته.

«دعوني أقدم لكم ثوراً حديث السن، رمزاً لحزني وقرباناً للآلهة الحاقدة، وليكن تشفّع روما عند الآلهة رحمةً لمستقبلكم». ثم تنهّد. إذا كان (گاش) قد أفلح في تنفيذ مهمته لدى الفُرس، كما هو بادٍ، فلن يرى (أودَيناتَوس) أية ضرورة لهذا التشفّع.

وبدل أن يتلقى (دَوميتيانُس) جواباً أحسّ بأحد يمسك ذراعه برقّة. لقد كانت هذه إشارة تعارف عليها الرجال في هذه البلاد، بل هي واسطة إقناع شرقية جداً ومؤثرة على الفور حتى في (دَوميتيانُس) نفسه، إذ على الرغم من

Twitter: @ketab_n

نفوره من إشارات بدائية من هذا النوع، فقد استجاب جسده قبل أن يستجيب ذهنه، فالتفت مطيعاً صوب الجهة التي أشار إليها (أودَيناتَوس).

كانا قد اقتربا الآن من الجدار الخلفي للبرج إلى الحد الذي مكّن (دَوميتيانُس) أن يميّز سطور الشواهد صعوداً حتى تلبيس السقف، وذلك رغم ضوء المشاعل الضعيف المتقطع. وكانت الصفوف تلو الصفوف من الوجوه المبتسمة أبدياً تنظر إليهما من بين الظلال المتراقصة. لا بدّ أن عدداً غفيراً من التوابيت الحجرية يختبئ خلف هذه الجدران، فهناك عشرة توابيت يوازي بعضها بعضاً، بينما يضمّ كل طابق من الطابقين ستة توابيت في الأقل، بعضها فوق بعض، كما احتجبت التوابيت العليا وراء شيء من سخام الأدخنة والظلمة. لكن جميع الرؤوس المنحوتة البارزة حملت ملامح الشباب، وإن هي شملت كذلك جميع رموز مناصب أولئك الأموات. ولم يبدُ على أيٍّ منهم أن سبب موته كان وهناً أو انهياراً، بل بدا عليهم جميعاً كبرياء بهيج يملأ الزائر بالتفاؤل حيال مصيره الشخصي.

«هذه عائلتي». تكلم الأمير أخيراً، وكان لصوته صدًى بين أدخنة البخور. «لقد توطنّا في تدمر منذ أقدم القدم. وقدنا بني مُطَبِّل من السهب الواسع إلى هنا حين رأينا أن هذا المكان صالح للعيش. ويُقال عندنا إننا نبعد المسافة نفسها عن جميع ما حولنا من البلدان».

لم يدرك (دَوميتيانُس) إلامَ يرمي (أودَيناتَوس) من وراء كلامه، فاقتصر ردّ فعله على إيماءة مؤدّبة. وأردف الأمير وهو يشير إلى التابوت الحجري الوحيد الذي كان يسدّ بعرضه الشاسع مشكاة الجدار الخلفي.

«هنا يرقد (سَبتيمِيُس أودَيناتَوس)، والد جدّي». ظهر في النحت البارز على الدِّكَّة رجلٌ مستلقٍ وهو يتناول الطعام في وليمة بصحبة عائلته. «لقد كان يخدم دولتكم منذ حكم السَّيفَرِيِّين». بدا ذلك كلاماً بديهياً للروميّ، فقد كانت روما وقياصرها في تلك الحقبة تعتمد اعتماداً كبيراً على الدعم العسكري من سوريا. وكان السَّيفَرِيّ الأخير، الشاب (سَبتيمِيُس الإسكندر)، يحكم بوساطة والدته وجدته- وكلاهما من طبقة النبلاء السورية- أكثر ممّا كان يحكم بوساطة الموظفين الروم. واعتزازاً بالمساندة السياسية الرومية

Twitter: @ketab_n

آنذاك، أضاف كل أسياد العوائل في تدمر لقب (سَبتيمِيُس) إلى اسمهم، بما فيهم (زنوبيوس) الحانق. لقد كانت تلك حقبة ذهبية، وما يؤسف له أنها تمتّ إلى الماضي الغابر.

«وهنا»، قال (أودَيناتَوس) وهو يرفع الشعلة إلى أعلى كي ينير وجه رجل ملتح، «يرقد والدي، (سَبتيمِيُس هايْرانَس) الذي كان عضواً في مجلس الشيوخ الرومي. ومنذ ذلك الوقت ظلت سلطة تدمر في أيدي سلالتنا من دون منازع، وكنّا نقف دوماً حلفاء للأمبراطورية».

«هذا ما فعلتموه حقاً». من دون ريب، وإلاّ لماذا وقفت روما مكتوفة الأيدي وقد سيطرت عشيرة واحدة على مقدّرات هذه المدينة؟ ولم يقوَ إلاّ أن يضيف إلى ذلك: «حتى اليوم».

«هذا مافعلناه، فقد خدمنا روما جميعنا، حتى في الأوقات الحالكة، بل ولم أتوانَ عن ذلك حتى عندما سقط أبي قتيلاً على يد قاتل روميٍّ». أخذ (دَوميتيانُس) يتصبّب عرقاً؛ إلامَ يرمي الأمير من وراء هذا الاستعراض؟

«من دون أيّ شكّ...»، ارتفع صوته قائلاً، لكن لم يبدُ على (أودَيناتَوس) أنه كان ينتظر منه أي جواب.

«يومها تصرّفت بوصفي حليفاً للشعب الرومي، فأنّى لي، يا صديقي، ألاّ أكون حليفه اليوم، والعدو يجابه كلينا مثل الغمامات السوداء في السماء؟».

«روما مدينة لكم إلى الأبد...».

«يا (دَوميتيانُس) النبيل»، قاطعه (أودَيناتَوس)، «أنتم لا تعرفون بعد، كم أصبتم في قولكم هذا». ناقضت حدّة نظرته الانفعال الشديد في صوته. «لقد تسلّمت عصر هذا اليوم نبأً من واجبي المؤلم أن أبلغكم إياه». لم يعد (دَوميتيانُس) يتصبّب عرقاً، بل انكمش جلد رقبته البارد.

«لقد قُهر الجيش والفرق المتحالفة معه، بل أُفني عن بكرة أبيه، وانتثرت أشلاؤه في جهات الدنيا الأربع». ثم رفع ذراعيه مسرحياً، ونفثت شعلته الدخان باضطراب. «أمّا القيصر»، وهنا أنزل الشعلة التي أصدرت أزيزاً، «القيصر، سيدنا جميعاً، فقد سقط أسيراً في يد العدو. (ڤاليَريان) أسير في يد (شاهبور). آه، يا صديقي، الأزمان أصعب بكثير ممّا ظننّا».

Twitter: @ketab_n

بإيمـاءة مـن يده أشـار على (گـاش) أن يتقـدّم ويقدّم للمنـدوب إكليل الغـار المهترئ بعض الشـيء. ونظرت عيناه الكبيرتـان الدامعتان إلى حد ما بقلق في وجه (دَوميتيانُس) المتحجر من الخوف.

لم يشـكّك المندوب فـي صحة النبأ، ويا له من مكان مناسـب، قال في نفسـه، لإبلاغـي به. فانتصـب بكامل قامته وبمـا تبقى له من الوقـار الذي لم يفارقه في كل الأحوال، وشدّ رداءه أكثر حول كتفيه.

«فهمـتُ». لكـن (أودَيناتَـوس) لامس ذراعـه تماماً كما فعـل من قبل، وابتسم.

«أيها الرجل الفاضل، لا أظن أنكم قد فهمتم ما كان سيحزّ في نفسي، أنا الذي أصابتني مصيبتان. لقد أردت أن أورث لنجلي دولة عامرة قوية مستقلة، تكـون حليفة للروم وجارة مسـالمة للفُرس، لكن ذلـك لن يحدث. علينا في أوقـات المحن ألاّ نولي لرغباتنا الشـخصية أية أهمية، بـل علينا أن ننظر إلى أمام وأن نواجه تفوّق العدو. لقد دفنت اليوم آمالي، أمّا غداً فسـتنهض آمالي مضاعَفَةً من جديد، وسنبقى في النهاية منتصرين بفضل عونكم. نجلي الأكبر يجمـع الجيش من جديد في هذه اللحظة عملاً بأوامري». علا صدى كلماته فـي الغرفـة المظلمـة، ثم سـاد الصمـت، وتبعه صـوت (دَوميتيانُـس) الذي تفاجأ به هو نفسه.

أخـذ يتعجّـب كيـف خطر في بالـه ذلك الجـواب، فراح يشـكر ويؤكد ويشـجع ويتعجّـب، إذ يبـدو أنه كان قـد عقد للتـو تحالفاً عسـكرياً مع تدمر لعلّه يحمي شرقي الدولة ورأسه هو. لم يكن ليظن أن هذين الشيئين في حيّز الممكن، لكنه واصل كلامه.

«... لـم نرتَـبْ مطلقـاً مـن قيمـة صداقتنـا الدائمـة، و حلـف كهـذا سـيعود بالفائـدة علـى كلينا، فـي المـدى البعيـد، وإن كان لا يـزال يواجهنا صراع شاق».

«لكن يا عزيزي المندوب»، عاونه (أودَيناتَوس) وهو يقول بمرح، «أنتم تعرفون، تماماً كما أعرف أنا، أن روما لا تكون في أوج قوتها إلاّ عندما تقاتل مثـل، فلنَقل، أنثى الدب التي يتكالـب عليها الأعداء من كل حدب وصوب.

Twitter: @ketab_n

أمّا بالنسبة إلى تدمر...».

«... فلن تضيع شجاعتها سدًى»، عاجله (دَوميتيانُس) قائلاً.

«نحن مهدَّدون ونقاتل لإنقاذ أرواحنا».

وانعقد الحلف بينهما بالمصافحة، ثم توجه الأمير إلى الباب وهو يضع ذراعه الأيمن برفق على كتفي المندوب، وهناك كان ينتظرهما (زنوبيوس) صامتاً ودرعه يتلامع في ضوء الشعلات الجديدة التي كان يحملها الخدم. توقفا برهة عند الباب ونظرا سوية صوب الغرب إلى الجبال التي ألهبت حدودها الشمس في غروبها، فوضع الأمير يسراه على كتفي (زنوبيوس) وقال:

«لا يدوم أي شيء إلى الأبد، يا أصدقائي، لا الضرورات التي تربطنا بالحظ العاثر، ولا جبروت أولئك الذين يُضمرون لنا شراً، لا سيّما أن للمرء رفاقاً، كل منهم ينتصر من خلال الآخر، أليس كذلك؟».

«أيها الأمير»، ابتدأ (دَوميتيانُس) مرة ثانية. «عليّ أن أرحل قريباً إلى روما لبعض الوقت. أما والحالة هذه، فسأعجّل استعداداتي للرحلة، كي أبشّر قيصرنا، قيصرنا الجديد»، وتنهد هنا بعض الشيء، «بعد النبأ الذي سيصدمه حين يصله قريباً ولا ريب- أقول إنني سأبشّره بأن تدمر تقف مخلصةً في صف روما».

«افعلوا ذلك، افعلوا ذلك، يا أيها المندوب الفاضل. علاوة على ذلك، سأعطيكم رسالة تأخذونها معكم لسيّدنا. نعم، سأكتب له رسالة أقول له فيها إنني أعبّئ الجيوش. قولوا له إنني أحشد له جيش فرسان في الشرق لن يقوى على مقاومته أحد، وسترَونه أنتم قريباً جداً».

«فلتسمح لي الآلهة أن أسمع عن مجدكم قريباً».

أخذ الأمير يد المندوب بين يديه وقد تأثر بكلامه.

«آه حقاً، الإكليل. هل تريدون أن توصلوا لابن الأمبراطور أثراً أخيراً من أبيه؟». شكره المندوب بنظرة مؤدبة إلى الإكليل المهترئ الذي قدّمه له (گاش) مرة ثانية.

Twitter: @ketab_n

«سيفوز لنفسه بإكليل جديد لم يطأه عار الهزيمة». بهذا وضع نجل آمر الحرس بقايا الإكليل تحت عباءته.

* * *

تملّكت المندوبَ في محفّته المغطاة بالقرب من بوابات المدينة موجةٌ من الفرح العارم، فما سقط في حضنه لم يكن في الحسبان مطلقاً. لماذا...؟

تنامى إلى سمع حاملي المحفّة صوت غريب من وراء الستائر المسدلة يشبه الضحكة المخنوقة، لكن، بما أنهم لم يسمعوا أي شيء آخر، أكملوا مسيرتهم.

أطلق المندوب ضحكة داخل محفّته. الخوف على جلده، بالطبع، هذا ما جعل الأمير يعمى عن أي شيء آخر. كان ينبغي عليه أن يلاحظ ذلك على الفور حين رأى مَن يقدّم له ذلك الإكليل المنبعج. لا بدّ أن (گاش) كان قد طُرد شرّ طردة! أما وقد وضع الأمبراطور الرومي في الأغلال وألحقه بحاشيته، فإنه سيمتنع عن التفاوض مع أيٍّ من الحكّام المحليين الصغار، أمّا نحن فليس بوسعنا أن نستغني عنهم، قال في نفسه بمرارة، بل نحن في أمسّ الحاجة إليهم. يبدو أن (شاهبور) يرى الوضع على أرض الواقع إذا ما كان يخطط لغزو خلال الأسابيع القليلة المقبلة، فالمقاومة في الشمال قد تلاشت تماماً. أمّا (أودَيناتَوس) فقد قرر أن يقف في صف الجهة التي تقدم له بارقة الأمل الأخير بالبقاء على قيد الحياة. يا له من غلام حاذق، قال المندوب في نفسه وهو يبتسم بمرارة. ورغم كل شيء، سيتلقّى منه قربان الشكر، بل سيصله أسمن ثور صغير السن يُمكن شراؤه من السوق.

Twitter: @ketab_n

ما يأتي به المستقبل

جلست زنوبيا على سريرها وراحت تتفحّص الكيس الغامض الذي أعطتها إياه (أُومَه). كان الكيس محشواً على نحوٍ مرصوص، وكان في وسعها أن تتلمّس بضعة حبوب صلبة بين الأعشاب المخشخشة، بينما كان كوز الماء الحار يدفئ فخذيها. وماذا إذا لم تحلم البتة الآن؟ وراحت تمرّر الكيس- وهي مستغرقة في أفكارها- على أنوف الظباء الأبنوسية التي طالما حرستها أثناء نومها، ثم مرّرت الكيس على قرونها المذهّبة وعلى آذانها المنتصبة.

ما لبثت أن خطرت في بالها فكرة أكثر فظاعة: ماذا إذا حلمت بسوق الخيل وبأميرها الذي ينتظرها هناك؟ لا بدّ أن والدها سينهال عليها بالضرب حتى الموت إذا ما عرف بذلك. وفي كل الأحوال، ما أحرج ذلك بالنسبة إلى خطيبة أمير من الأمراء. راحت ترى في مخيّلتها النساء الأخريات وقد قيل لهنّ أنها ترتمي في أحضان محارب بدوي كل ليلة، فاقشعرّ بدنها ممّا بدا أنها آلت إليه من فساد. يا لِلاّت، دعت على عجل، لا تدعيهم يرَوا كم أنا سيئة. دعيني أحلم بشيء آخر هذه الليلة، وأعدكِ بألاّ ألمس نفسي لليالٍ خمسٍ على التوالي، كما لن ألمس نفسي إلاّ فيما ندر من الآن فصاعداً، وفي القريب العاجل لن يحصل ذلك البتة حتى يحين موعد زواجي.

أخذت زنوبيا تحرّك بإصبعها السائل المستخلَص بالغلي في الكوز بين ركبتيها. تُرى بِمَ ستحلم هذه الليلة؟ ثم أخذت تنفخ على سطح السائل الأسود فأحست بألسنة بخاره المتصاعدة تلسع وجهها. تُرى هل سيتسنّى لي حقاً- تساءلت في نفسها- أن أرى ما في مستقبلي؟ واقشعرّ بدنها بعض الشيء، ثم تجرّعت أولى جرعات الحساء كأنها عقوبة استحقّتها.

Twitter: @ketab_n

لربما ينبغي عليها أن تحوك قصة عاطفية كي تهدّئ نفسها كما هي عادتها قبيل النوم. قد تهطل الأمطار، مثلاً، أثناء قيام سوق الخيل، وعلى حين غرّة تغرق الأرض في فيض من المياه الرمادية، ما أثار دوّاماتٍ من الغبار علق في أخفاف جَمَلها المتذمّر. كانت قد ضلّت طريقها ولم تعد تسمع صرخاتها جراء وقع المطر المنهمر على سعفات النخيل، فما كان من أميرها إلاّ أن ظهر أمامها فجأة، ووجهه وضّاح رغم قطرات المطر المتساقطة عليه، فأمسك بلجام بعيرها وقاده إلى مغارة قريبة، ثم أوقد ناراً وخلع كل ملابسه ما عدا حزامه. أمّا هي فقد جثمت وهي ترتعد عند طرف الوهج الذي كان يتراقص باحمرار على عضلاته عندما قال لها أن تتخلص من ملابسها المبللة، فأطاعت وهي ترتجف، بينما بدا لها أن عينيه كانتا تحترقان وهما تحدّقان إلى جلدها.

«هذه أيضاً»، أمَرها قائلاً، حين وقفت أمامه بملابسها الداخلية، فسقط ذلك الغطاء الرقيق الأخير بوساطة أصابعها المقاومة على الأرض، ووقفت أمامه وقد ضاعت كرامتها إلاّ ما كان يغطيه شعرها. عندما ألقى بغطاء حولها وهو يضحك بصوت خافت، أحست بذراعيه القويتين اللتين كانتا تمسكان بها من فوق الغطاء، ثم بأصابعه التي شقّت طريقها من عنقها إلى ما بين ثدييها الدافئين، فأفلتت من قبضته، ما جعله يضحك من جديد.

«عليكِ أن تستلقي إلى جواري الليلة، حيث علينا أن ندفّئ بعضنا بعضاً».

صرخت: «كلاّ، مطلقاً»، لكنه حضّر معسكره من دون أن يلقي بالاً لذلك، وجثمت طوال الليل وهي تحدّق من فوق الفحم المتوهج إلى جسد الرجل الوسيم وهو نائم. وحين بدا لها أنه لم يعد يراقبها، حبت إلى جواره وغطّت في نوم عميق. حين أفاقت في اليوم التالي وجدت نفسها بين ذراعيه، فغرقت في عينيه، وأخذت تقاومه من دون جدوى.

* * *

إلى أين شطّت بأفكارها! راحت ترتشف الشاي المرّ من جديد. لقد

Twitter: @ketab_n

أمسى بارداً للغاية، قالت في نفسها؛ آمل ألاّ يكون لذلك أثر غير مرغوب فيه. كان الثُفل قد ترسّب في قعر الكوز، فحركته بإصبعها، وهزّت الكوز عدة مرات بشكل دائري، ثم شربت آخر الجرعات المثقلة بدقيق الثُفل. أحست بشيء ما يجعل سطح بطنها يرتجف، ما كاد يُضحكها، لو لا أن عضلات وجهها كانت قد ارتخت.

«آه، ما أمضى تأثيره»، ظنّت أنها تسمع نفسها تقول، ثم غطّت في نوم عميق.

* * *

كانت تقف في مغارة مستديرة عالية السقف تمتلئ بالضياء الذي كان ينبعث من شمعدان بلّوري - كما لاحظت الآن - يجعل جميع النتوءات في صخور الجدران الفضية تبرز من مكانها من دون أية ظلال، وحتى رمال الأرض الناعمة الناصعة البياض كانت متألقة كأن ضوء النهار يسطع عليها، لكنها كانت باردة الملمس تحت قدميها، فعرفت أن الوقت ليل.

انبسط أمامها انعكاس ينبوع (يَفتا) الأزرق، فخطت صوبه ولم تستغرب أن تكون البُركة المألوفة لديها عميقةً لا يُسبر غورها، وكانت ظلال بنفسجية وفيروزية تتراقص في الزُرقة التي لا قرار لها. حين خطت قدمها في الماء رأت حبيبات الرمل المتلألئة التي كانت عالقة بها تتراقص وهي تغرق فيه أعمق فأعمق، كأنها بعوض فضي في ضوء المساء الخافت. تملّكتها الرغبة في أن تسبح للّحاق بحبيبات الرمل إذ كانت تتلألأ وتتداعب من دون توقف، فجعلت ملابسها تتساقط على الأرض، ولم تستشعر البرد حين انسلّت في الماء، فأخذت تغوص في دوائر بطيئة وهي تلحق باللألأة، ولم تصدر عن فمها فقاعات، ولم تكن في حاجة إلى التنفس، بينما كانت تتلوى كالأفعى في الماء الرقيق. لَمَع شيء ذهبي عند الجدار تحتها، وحين سبحت نحوه تبيّن لها أنه خاتم ذهبي. أرادت أن تأخذه، لكن سمكةً حملته على جبينها المتقرّن، ووقفت ساكنةً بين مِحراكات زعانفها المدببة. كانت السمكة رماديةً بلون الحجارة، ممعنةً في القدم، كما تلامعت أطراف حراشفها المتقرّنة

Twitter: @ketab_n

الفضيـة، لكن عينيها كانتا بنفسـجيتين يحيطهما إطاران بحُمرة النحاس، كما كانتا تحدّقان إليها.

ثم جلست بجوار الينبوع مرتديةً ملابسها وقد صار الخاتم في إصبعها، بينما تلاشت السمكة مثل ظل أسود عملاق في ظلمة أعماق البركة، حيث لا ينبعث منها أي ضوء. فمشـت ووصلت إلى جدار منحوت مخرّم كان يرتفع مـن الرمـال إلى السـقف الحجـري، لكنه كان يحتـوي على فتحـة في جهته اليمنـى، دخلـت منهـا فوجدت نفسـها تقف علـى أرض منبسـطة صحراوية شاسـعة. رفعـت إحـدى يديهـا لتصدّ بها وهـج الظهيـرة المبهر عـن عينيها، ووضعـت يدها الأخرى على فروة الأسـد الـذي كان بجانبها وكانت صفراء كالشـمس. حرّكت الريح لِبدة الأسد إلى الأمام، كما دفعت بثوبها، وأدركت أن الريح كانت تضحك، تضحك كما كان الأسـد بجوارها يرتعش من شـدة الضحك والشبق، مثلما كان دمها يجري في سيول تزأر بالحيوية، بينما راحت الزوابع الباردة تحت النور الساخن تبعث رعشتها في كل مكان من بدنها.

كان ثمـة العديـد من الناس يقفـون بعيداً عنها، لكن من دون أن ينبسـوا ببنت شـفة، كما كانـوا يتجنبونها إذ كانوا أعداءها. ثم تبعت صوت شـخصٍ ما أخذ يرتفع خلف كثبان الرمال، لكنها لم تسـتطع أن تفهم ما يقوله. وكلما انزلـق الرمـل من تحـت قدميها، أصبح ذهابهـا إلى هناك أكثـر أهمية. وبينما كانت تحاول جاهدةً أن ترتقي الكثبان، انحنت عليها امرأة عجوز، لكن امرأة أخـرى جرّتها من ملابسـها البيضـاء إلى الـوراء وقالت لهـا: «لا تنظري إلى هناك». وحين رفعت عينيها- وقد كادتا تغرورقان بالدموع- صوب العجوز، رأت أن لعينيها زُرقة تشبه زُرقة ينبوع (يَفتا).

(أودُو)، سـمعت نفسـها تصرخ. (أودُو). ثم أخذت تركض نزولاً على الكثبـان ونحـو الحديقة التي كانـت هناك، وكان ثمة شـخص يعمل هنا وهو ينحنـي علـى حـوض الأزهـار، وكان ذلـك الشـخص (أودُو)، لكنـه تحوّل وأصبـح هي بذاتهـا بينما كانت تقتـرب منه، لكن حين وصلـت إليه وجدت أنه رجل غريب.

* * *

Twitter: @ketab_n

«أكان يشبه أحداً تعرفينه؟».

«لا». هزّت زنوبيا رأسها بحزم. «لعله كان رجلاً من أهل المدينة إذن؟ هل كنتِ قد رأيتِ الأمير من قبل؟».

«لا، (أومَه). لماذا؟ لقد قلت لكِ إنه كان رجلاً غريباً تماماً، وكان نحيفاً، وشعره داكناً، وله وجه العالِم، وسالفاه فضّيين». لم يكن الأمير في مخيّلتها على هذه الهيئة بالتأكيد.

«ومَن هو (أودُو)؟»، فضّلت زنوبيا أن تستعيض عن إجابتها بأن تتفقّد الغرفة الصغيرة التي قادتها إليها (أُومَه)، حيث كانت رائحة الخشب والأعشاب تفوح من قطع الأثاث التي بدا أنها تخفي في أدراجها عناصر الوصفات والخلطات التي تشتهر بها (أُومَه)، وربما بضع أدوات سحرية كذلك. وبدت الأواني النحاسية المسخّنة واعدةً للغاية، وهي تومض في زوايا الغرفة المظلمة.

«هل ثمة أدراج خفيّة أيضاً؟». تجاهلت (أُومَه) نظرة البراءة التي رافقت هذا السؤال، بينما أخفضت زنوبيا عينيها.

هزّت مديرة الحمّام رأسها؛ يا لهذه الطفلة العنيدة التي تخفي الكثير، قالت في نفسها. بَيْد أن هذا لم يكن بأي حال من الأحوال الأمر الأشد إدهاشاً فيها، فيا لذلك الحلم الفريد من نوعه الذي حلمت به، والذي لم تستطع أن تفسّر نهايته، ولو أن ذلك المستقبل قد يكون بعيداً للغاية، ما جعله يبدو مثل الأُحجية.

«هل ستروين حلمي لوالديّ؟»، كانت زنوبيا قد أخذت تلفّ شراريب مخدتها الصوفية حول إصبعها من دون توقف.

«حلمكِ؟ بالتأكيد، يا طفلتي، حيث ينبغي أن يعرفا كل شيء عن قسمة ابنتهم، أما وقد نسجا لكِ كل هذه الخطط المهمة، فسيكونان في غاية الرضا عمّا سيسمعان».

«هل كان الحلم حسناً حقاً، (أُومَه)؟ هل فعلتُ كل شيء كما يجب؟».

«زنوبيا، لم يكن بوسعك أن تصيبي أو تخطئي، فقد أيقظت الأعشاب هذا الحلم فيكِ، حيث كان مختبئاً مثلما يختبئ البلّور النفيس في الصخور،

Twitter: @ketab_n

ولم يكن بوسعكِ أن تضيفي أي شيء إليه أو تحذفي أيّ شيء منه».

«لكن ما مغزاه؟».

مـرّرت (أُومَه) يدها على شـعر زنوبيا: «من الأفضـل ألاّ أفصح لكِ عن ذلـك، يا طفلتي. ألا تعرفين أُسـطورة الأميرة التـي أرادت أن تنظر في المرآة التي تكشف لها المستقبل؟».

«نعم»، قالت زنوبيا مسـتاءةً، «فهي تغطّ في نوم لا تصحو منه إلاّ حينما يقبّلها الأمير. يا لها من قصة ممعنة في القدم. فليقبّلني أميرٌ إذن».

«هـل أنتِ واثقة من أن ثمـة أميراً ينتظركِ؟ وهل ترغبين في أن تسـلّمي كل شـؤونك للآخرين على هذا النحو؟ لا، يا صغيرتي، فما تقوله الأُسطورة هو أن مَن يعرف المستقبل سيكون في غالب الأوقات غير قادر على التعامل معه، ولا تسـأليني لِمَ يكون ذلك. بيَدْ أن المرء قد يفوّت المسـتقبل على هذا النحو أيضاً، حيث أن المسـتقبل، أسهلاً كان أم صعباً، لا يُفرض إلاّ على مَن يتعامل معه، فلن يجد المرء مهرباً من المتاهة إلاّ إذا ظل يتقدّم».

«بيَـد أنه قـد يضلّ طريقه أيضـاً، أليس كذلك؟ فهل في وسـعي أن أغيّر مصيري كذلك؟».

«حتـى أخطاؤكِ هي جـزء من مصيركِ، ومصيرك مكتـوب في داخلك، وفـي يدك، وفـي أحلامك، كما أن مصيـرك يتغير بتغيرك، تمامـاً مثلما تحفر الحيـاة تجاعيدهـا فيـكِ. لكـن ذلـك ليـس إلاّ القشـرة، فوجوهنـا تتغضّـن بكثـرة، يـا طفلتـي، ومـا عليـكِ إلاّ أن تنظـري فـي وجهـي، لكـن الجوهـر لا يتغير إلاّ قليلاً».

«وماذا إذا أردتُ أنا ذلك؟ إذا ما أردتُ أن أتغير؟».

«قـد يحصـل ذلـك، يا طفلتـي، قـد يحصل، وسـتكبرين فـي أي حال، وستنضجين. وستتراكم لديك حلقات النمو مثلما تتراكم على ساق الشجرة، تماماً كما حصل معي». وبهذا ربّتت على تجاعيد الشـحم التي كانت تنتشـر على جسـدها وهي تضحك بهديرٍ مدوٍّ، فالتوت شفتا زنوبيا استنكاراً، حيث لـم يكن هذا في نظرها جواباً يُقال، فحين تخترق المتاهة سـيكون لها هي أن تختار أي الطرق تسلك.

Twitter: @ketab_n

«أريد على أية حال أن أكون يوماً ما ملكةً عظيمة».

انظـروا إلـى هـذه الأميـرة الوقحة، قالـت (أُومَـه) في نفسـها. ليس في مقدورهـا أن تنكـر أحلام زنوبيا علـى الإطلاق، لكنها لا تعلـم إلى أي مدى سيُصنع قدرها من أحلامها، حيث يدل كلٌ من الخاتم المقدّس والأسد على أنها ستصبح ذات شأن أكبر بكثير من زوجة أمير وحسب، بل لربما أكثر أهمية ممّا سيسـعد أباها. لقد أثار هذا الحلم أسـئلة أكثر من أن يكشـف النقاب عن إجابـات، ورغم ذلك بدا مغزاه واضحاً لا لَبْس فيه؛ إذ من المأثور أن سـمكة الينبوع المقدّس لم تظهر إلاّ للقلّة من الزعماء العظام في القِدَم كي تسـلّمهم الخاتم الملكي. وها هي قد رأت تلك السمكة؛ والأسد، ملك الغاب، يحني رأسه تحت يدها.

اتخـذت (أُومَـه) قراراً بالتحدث فـي الأمر مع (عطـاي) قبل أن تذهب إلـى والدة الطفلة، لئلاّ تتسـبّب هـذه الأخيرة بضغينة إذا كشـفت لغيرها عن أكثـر ممّـا يجـب. فلم تكـن (زِيمَه) لتكترث بأن تعلم أي شـيء سـوى ما إذا كان زواج ابنتهـا مجلبةً للرفاه والبنيـن، فأخذت تحدّق إلى زنوبيا التي كانت تجلس أمامها وقد بدا العناد على وجهها وقد اضطربت ضفائر شـعرها على رأسها وشابها التشعّث من جديد. لم تكن لها هيئة ملكة الشرق مطلقاً.

«حسـناً، حسناً، سـنرى. أُرفق تحياتي المخلصة إلى والدتك، وأنا على أهبة الاسـتعداد لزيارتها في أي وقت من الأوقـات. وأخبريها أن الحلم كان مجلبةً للرفاه، فأنت بلا ريب ستلدين بنينَ».

«هل يعود ذلك إلى الأسد أم إلى السمكة؟ فأنا لا أريد أن أحمل مطلقاً، وبخاصة بالبنين، فماذا أنا فاعلة بهم؟».

هنا فقدت (أُومَه) صبرها:

«ستقدّرين هذه الفضائل يوماً ما، ولا تظني أن في وسع إنسانةٍ أن تكون ملكـة عظيمة في يوم من الأيام من دون أن تلـد بنينَ كُثراً. والآن انصرفي من هنا وعودي غداً برفقة مربّيتك». صفّقت وأمرت الجارية التي دخلت أن تُعلم الغوطي أن زنوبيا قد جهزت.

راحت تغذّ الخطى ما استطاعت أمام العملاق الغوطي في طريق العودة

Twitter: @ketab_n

إلى المنزل؛ فليضطر أن يركض وراءها، قالت في نفسها. لكنه كان يلحق بها بخطواته الواسعة من دون عناء، وأخذت تحس بوجوده مثل عصًا تنعرها في ظهرها؛ فكانت هي التي أخذت تلهث في نهاية المطاف، ما أغضبها أكثر. نعم، ستصبح ملكةً عظيمة وتفعل ما تريد، فلا فائدة من البلوغ إلاّ هذه. أليس ذاك (أودُو) إلى الخلف؟

«(أودُو)؟»، ظلت واقفةً تنتظر، لكن وجهه لم يعد يطلّ من بين الجموع من جديد.

Twitter: @ketab_n

احتفال الآلهة والخيل

كانـت تماثيل رواق الأعمـدة الحجرية تتراقص في الخـارج متأرجحةً إلـى أعلى وأسـفل، وفي الداخـل ارتفع بطـن زنوبيا وانخفـض مغلوباً على أمره بفعل مسـيرة محفّتها المتمايلة، بينمـا تتابعت صفوف الأعمدة المرتجّة أمـام نافذتها. راحت تسـتمطر اللعنات علـى أبيها الذي أصـرّ على أن يكون الغوطـي- وهـو أطول من جميع مَـن حوله- أحد حاملي المحفّة، ما سـبّب لهـا حـال الانزعاج الشـديد هـذه. بينما أخـذت تحـاول أن تستنشـق الهواء بانتظـام، راحـت تفكـر بأجدادها الذين لـم يكونوا بلا ريب في حال أحسـن مـن حالهـا علـى إبلهم. لـم تتحـرك المحفّـة أكثر مـن سـنتمترات قليلة إلى أمـام، كمـا يبدو، هـذا إذا لم تتسـمّر فـي مكانها وسـط الجمـوع الغفيرة من النـاس التي كانت تندفع نحو بسـاتين النخيل الجنوبيـة. واحتاجت إلى زهاء السـاعة كي تقطع المسافة التي كانت تتسابق فيها مع (أودُو) في لعبة السمك وتقطعها في دقائق معدودات.

لقـد كان هـذا اليـوم أهم الأعيـاد التـي عرفتهـا المدينة: تقديـس ينبوع (يَفقـا) وعيـد (يارْهيبَول)، الذي كان يحرس الينبوع باسـم (گـاد)، إذ لولا الجـدول الضعيـف الأصفر الناشـئ عنه الذي لا ينضب، لما كان لمؤسسـي تدمر سبب يجعلهم يستوطنون هذه البقعة من الصحراء من دون غيرها. كان قـد مرّ زمن طويل منذ أن آمن التدمريّـون في أعماقهم بجميع عوائل آلهتهم، من فارسـية وآرامية وعربية، لكنهم لو توانَوا عن تقديس إلههم (گـاد)، لكان ذلك تجديفاً شنيعاً، إذ إن كلمة (گـاد) كانت تعني: اليُمن. فلولا الإله (گـاد) لخضع المرء مغلوباً على أمره لتأثير أرواح شريرة. لا ينطبق ذلك على البشر وحسـب، بل على كل شـيء حيّ، من أرض وحيوانات وأشجار وينابيع. لذا

Twitter: @ketab_n

علـى المرء أن يحتفل بالإلـه بتقديم القرابين في عيد خاص به مرةً كل سـنة، لئلاّ يخطر في باله يوماً ما أن يرحل عن مقامه إلى مقام أفضل.

كان الإلـه (گــاد يازْهيبَـول) إذن يحـرس ماء ينبـوع (يَفتـا)، وهو الإله الذهبي، سـيد الأشهر جميعاً، وشقيق إله القمر (آگـليبَول)، وكان يقف على خدمتـه دومـاً حارس خاص به يملك قوة وسـيط الوحي وقـوة عقد العهود، وكانـت تخضـع له من دون تمنّع جميع الفرق على جهتي جدار المدينة حين كانـت تتعاقـد على أمر من الأمور. وهنا، عند التقـاء الصحراء بالمدينة، أخذ الحضـر والبدو يتجمّعون هذه السـنة في شـهر آب كذلك كـي يقيموا الدليل علـى تقديسـهم لوليّهـم، تمامـاً كما فعـل ذلك أجدادهـم من قبلهـم منذ أن ابتدأ هذا التقليد.

لـم تكن زنوبيـا عادةً ممـن يفتنون بالطقـوس المرهقة، لكنّهـا بوصفها خطيبة الأمير، سـتكون هذه السـنة إحدى العذراوات اللواتي سـيقفن خلف الكاهـن، بينمـا يقيـم هذا الأخير شـعائر تقديـم القربـان. وكان قرطـا أذنيها الذهبيان الجديدان أثقل من أن يحتملهما رأسها.

لقـد كانت الطقوس هذه تمهيداً لشـهر كامل من الولائم والاحتفالات، فثمة ولائم القرابين المترفة لجميع الرعية، وألعاب الفرسان، والمسرحيات، ثم تبلغ الاحتفالات ذروتها في أحد أكبر أسواق الخيل في سوريا وأجودها. ويقود بدو الجبال قطعانهم من الروابي المثمرة إلى السهوب حيث سيمضون أشـهر الشـتاء المطيرة، لكنهم سـيتوقفون في تدمر أولاً كي يبيعـوا أكبر عدد ممكن من الخيول.

كانـت محفّة زنوبيا قد اجتازت للتو أسـوأ المواقـع الضيقة في الطريق، فكوفئـت بنسـيم الحدائق العـذب الذي راح يداعب سـتائر محفّتهـا العفنة، وكان النسـيم برائحة النخيل الأخضر، والمشـمش الأحمر، والتمر الذهبي، وبأريج الفواكه الناضجة.

كانـوا قـد وصلوا،فترجّلت زنوبيـا وهي تترنّح، وانبسـط الينبوع أمامها علـى نحـو أكثـر فخامـةً من عادتـه، فقـد رُفعت مـلاءات بيضاء على شـكل سُـرادق حول حوض الينبوع برمته، وكانت وظيفة هذا السُّرادق أن يوفر شيئاً

Twitter: @ketab_n

مـن الظل أثنـاء الطقوس. وكانت الأمكنة المرغوبة موضـع تنازع العديد من الحضـور، بينمـا أخذ باعة الفواكـه المحلاّة والمأكـولات الخفيفة يتجوّلون بين صفوفهم. حين خطت زنوبيا في السـاحة الرملية، كادت ألاّ ترى حوض الينبـوع المبلّط بالطابوق، ولـم يدلّها شـيء على طريقها سـوى أكاليل أوراق الكـروم، والأزهـار، وفواكه الحصاد الغزيرة. وكانـت الفتيات الأخريات قد تجمّعـن علـى المنصـة فوق العتبـات التي تؤدي إلـى حوض الينبـوع، وهنّ يرتديـن الأبيـض من قمة الرأس حتـى أخمص القدميـن، ويتضاحكن في ما بينهـنّ فـي فوضى عارمة، ما جعـل حارس الينبوع يكاد ييـأس من أن يفرض على الجماعة المنفعلة شيئاً من النظام.

«ما أشـبه هـذا العام بالعام المنصـرم»، قالت زنوبيا في نفسـها، التي لم تكـن قد تصادقت مع الكثيرات من بنـات طبقة المثتي مواطن العليا، «كأنهنّ حريم الملك العظيم في إجازة». كانت زنوبيا قد التقت بما لا يقلّ عن نصف عددهنّ صباح ذاك اليوم في الحمام العام، حيث وُضعت المسحات الأخيرة علـى الشـعر والبشـرة، إذ لـم يكن ثمـة أية مناسـبة تقترب بأهميتهـا من العيد السـنوي بوصفـه فرصةً لاجتذاب خاطـب زواج، ما جعـل وجنتيها تحمرّان خجلاً وغضباً في آن معاً.

أمـا وقد اكفهرّ وجهها من جديد، وهذا كثيراً ما كان يحصل، فقد لاقاها علـى المنصة نزرٌ يسـير من نظرات التحية الخجولـة، لذا حاولـت أن تتجاهل التهامـس خلفهـا واحتلـت مقعدها في الصـف الثاني خلف كاهـن القربان، وتعرفت إلى هذا الأخير حين استدار برهةً وابتسم في وجهها:

«العم (نَيزا)! لم يُعْلِمني أحدٌ أنك سترأس الطقوس... تهانينا!».

«يعـود ذلك بـلا ريب إليـك أنتِ، يا أميـرة، وأنـا أبادلـكِ التهاني، فقد أصبحتِ فعلاً امرأةً يافعةً ذات شأن».

كان من عادته أن يناديها بالأميرة، حيث كان يسـخر منها دوماً. وعوضاً عـن إجابـة ما، تلقّـى (نَيزا) ابتسـامة ازدراء، ما جعله يكشّـر أكثـر، وما جعل الإجابة شبه مستحيلة.

«لقـد حظيـتِ مـن دون اسـتحقاق بشـرف مناولتـي كأس (يازهيبَول)

Twitter: @ketab_n

الذهبي هذا اليوم، فما رأيكِ في ذلك؟».

أبقت زنوبيا وجهها جامداً بين جاراتها اللواتي تملكهنّ الحسد، وتسلّمت كأساً مشغولاً بعناية فائقة بحجم القبضة من ابنة (بَورُوك)، صائغ الذهب، التي خاب ظنها للغاية، وفوجئت زنوبيا بخفة وزن الكأس.

لاحظت زنوبيا أنها كانت قد وصلت في اللحظة المناسبة، فقد شَغَلَ للتو الأمير (أودَيناتَوس) ومستشاروه المنصة المقابلة، ولم تكن يوماً قد اقتربت منه، وحتى الآن لم ترَ إلاّ بنيته القوية يغطيها معطف صلب مطرز بالذهب، تعلوه فروة فهد وكذلك رأسه، وقد أنشب الفهد نابيه في جبين الأمير مثل خنجرَين. كانت أشعة الشمس تتكسّر متلألئة عند الخوذة وتعيد إلى مخيلة زنوبيا وجهاً مألوفاً لديها. فأغمضت عينيها ثم فتحتهما، إذ ظنّت لوهلةٍ وحسب أنها ترى أميرها الذي يزورها في أحلامها.

بدا أن الأمير يضحك من شيء ما إلى جانبها جهة حوض الينبوع، فراح الواحد بعد الآخر يلتفت إلى هناك كذلك، ثم رأت زنوبيا ما كان يضحكه: فقد انحشر حاملو محفّات الآلهة في معرض إيصالهم حمولاتهم المقدسة إلى طرف الينبوع، ولم يعد في وسعهم أن ينفصلوا بعضهم عن بعض وهم يتصارعون على الصف الأمامي من أماكن الجلوس. لقد كان يحقّ لصنم (آتارْگاتِس)، قديسة المدينة، أن يحظى بالأولوية بلا ريب، لكنه كان قد أُزيح جانباً. أما صنما التوأمين (أرزُو) و(أرزيزُو)- مرافقا القوافل الحربيان والحاميان في جميع أنواع الغارات- فقد ظلاّ يُدفعان نحو الحافة، وتأرجح تمثالا الحيوانين الخشبيين بحجمهما الطبيعي، اللذان كانا يركبان إلى هذه الجهة وتلك، لكن ما لبث أن هاجمهما في جناحهما الأيسر صنما (آگليبَول) و(يارْهيبَول)، ما قطّع أجزاءً منهما، وسبّب اصطدامهما بصنم (بعلْشامين). وراح بضعة فلاحين يحملون صنم سيد السماء والبرق والرعد، من دون أن يتنازلوا عن مقدار موطئ قدم لحاميهم.

لم يلاحظ أحد وسط المعمعة أن جمعاً من البدو قد اتخذ لنفسه موقعاً خلف محفّات الآلهة السورية الفخمة، وراح بدوره ينصب عن سابق إصرار صفاً من الأصنام، التي بدا بعضها مذهولاً، وبعضها الآخر قد كشّر عن أنيابه،

Twitter: @ketab_n

وجميعها من الطين المفخور من العالم المنسي خارج أسوار المدينة؛ بينما كانت أصنام أهل المدينة من المرمر الفاخر الذي لم تمسسه أية عاطفة. كان ثمة «شيخ القوم» المصبوغ بالألوان الزاهية، بثوبه الكهنوتي ذي اللون الفاقع، وهو «حارس الشعب الخيّر»، الإله (أبْگـال) من المنطقة الجبلية، كما كان روحا سائقي الإبل الطيّبين، (مَعَن) و(سعد)، فحتى هؤلاء الثلاثة قد جاؤوا هذا اليوم لتقديس إله الينبوع.

وبعد لأيٍ وقفت القواطر الثقيلة في ترتيبها الصحيح، وعلّق حمّالو المحفّات أزهار المعبد المباركة في أحزمتهم وساروا الهوينا مبتعدين، وأزفت اللحظة التي كان الجميع ينتظرها، ما سبّب ضجيج الجموع أن يتوقف من تلقاء ذاته.

وقفت الفتيات الرقيقات من أحسن العائلات في ثلاثة صفوف إلى اليمين والشمال من زنوبيا، وهنّ يرتدين الأبيض الناصع بلون الزنبق، وقد تملكّهنّ التوتر حد التصلّب. كان من شأن أية زلة لسان أو خطوة في غير مكانها أثناء الطقوس أن تحرم المدينة من رضا الإله (يارْهيبَول). واستدار (نَيزا) إليها مرة ثانية وغمزها مشجعاً، ثم رفع ذراعيه بوقار وأنزلهما ببطء وهو يرتّل ترانيم إله الشمس (يارْهيبَول)، ففتحت الفتاة الكبيرة ذات الضفيرة الذهبية إلى اليمين من زنوبيا الكأس التي كانت تحمله وسلّمته إلى (نَيزا)، الذي أدخل يديه فيه ونثر حفنةً من البخور الأخضر الرمادي في حوض الينبوع.

ثم وضعت أمامه ابنة (فُورَودَس) ذات الشعر الأحمر قارورةً من البِلَّور الصخري ففتح غطاءها الرقيق، ما أطلق عبيراً حاداً ولطيفاً في آن نحو زنوبيا. ثم صبّ (نَيزا) شيئاً من أغلى العطور السورية على البخور، وهو يدعو ألاّ يجفّ ينبوع الثراء. وكما في العام المنصرم، كانت ثمة نية لتقديم قربان من الذهب.

خطت زنوبيا خطوة إلى الأمام ورفعت كأسها إلى عمّها بعد أن أزالت غطاءها، تماماً كما رأت الأخريات يفعلن من قبلها، وبدأت تشعر بيديها المرتجفتين من جديد أن الكأس بخفّة الريشة. ثم سمعت عمّها يتمتم

Twitter: @ketab_n

عبارات الابتهال، لكنه ما لبث أن قطع ترنيمه. لم تكن في حاجة إلى النظر داخل العلبة الصغيرة، فقد كانت نظرة الصدمة في سحنته بليغةً للغاية.

راح يجسّ قعر الكأس بأصابعه غير مصدّق، لكنها كانت فارغة؛ ولاحظت زنوبيا كيف أن وقار عمّها بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً، كما أدركت أن عدم إكمال الطقوس لن يسبّب نهايةً لسيرته الكهنوتية وحسب، بل لحياته كذلك- وسيعني هذا التوقف كارثةً للمدينة برمّتها، كما ستنزل عليها لعنة العار، فخطر في بالها فجأة خاطر صدمها.

التفتت زنوبيا- وقد تملكها الشك من تلقاء ذاته- نحو ابنة صائغ الذهب التي سلّمتها الكأس أصلاً، فوجدت أن النظرة الخبيثة في وجهها واضحة لا تحتمل إساءة التفسير. أخذت الجموع تتململ بعض الشيء، وتنهدت الفتاة ذات الشعر الأحمر بجوارها، وضرب حارس الينبوع يداً بيد أمام وجهه، وبدا أن الجميع لا ينتظر إلاّ أن ينفجر (يارهيبَول) غاضباً لأن مسكوكاته الذهبية قد حُجبت عنه... الذهبية! تلمّست زنوبيا قرطي أذنيها الكبيرين. مَن قال أصلاً إن الذهب لا بد أن يكون على شكل مسكوكات؟ ثم حدجت منافِستها بنظرة المنتصر، إذ لن يتمكن منها أحد بهذه السهولة. ثم نزعت أحد قرطيها بعصبية وحاولت أن تقدمه إلى عمّها، لكن (نَيزا) كان يحدّق إلى الأرض وقد خارت عزيمته، فما كان منها إلاّ أن خطت بحزم إلى جواره عند حافة حوض الينبوع وهي ترفع قرطها بيدها كي يراه الجميع.

«آه، يا روح الينبوع الخيّر، يا (يارهيبَول)، ها نحن نقدم إليك ذهباً من كنوزنا، فأنت تكافئنا عليه أضعافاً مضاعفة. لا تنسَنا، فنحن لا ننساك مطلقاً».

وبهذا ألقت زنوبيا بالقرط بعيداً في الحوض، فغطس بعد خرخرة بسيطة.

تنفست الجموع الصعداء، إذ اكتملت شعائر القدّاس، وعاد (نَيزا) فتفوّه بآخر عبارات التبريك بصوت مرتفع متأرجح وقد استعاد رباطة جأشه، لكن ضجيج احتفال التدمريّين كان قد طغى على كلماته الأخيرة.

أدركت زنوبيا مَن كان المقصود بهذه الحفاوة، فقد كانت هي المقصودة ولا أحد غيرها! فأجالت بصرها بكل فخر نحو المقصورة قبالتها. لقد قامت بما يلزم تماماً كما فعلت كليوبترا، واستولت على السلطة تماماً كما تفعل

Twitter: @ketab_n

ملكةٌ حقيقية من واجبها أن تقرر في ازدهار شعبها أو انقراضه. بدا أن القامة المشرقة على الجهة المقابلة تومئ إليها بإعجاب، وبينما ظلت زنوبيا واقفةً على المنصة التي أخذت تفرغ من الناس، راحت تشعر كأنها تقف إلى جانب أميرها.

* * *

كان الأمير (أودَيناتَوس) قد وفى بوعده، وذلك إلى درجة لم يكن بوسع المندوب المذهول (دَوميتيانُس) أن يتصوّرها، إذ جنّد الشباب من محيط المدينة برمته من أجل القتال ضد (شاهبور). ولم تفلت أية خيمة ولا كوخ من قبضة مجنّديه الذين طوّعوا الصبية الصغار بالوعود والضربات، كما لم يفلت من قبضتهم أي حصان كان بوسع القبائل أن تبيعه في سوق الخيل هذه السنة، فقد كان (ڤورَودَس) يشرف على تأمين الخيول للجيش بنفسه. وكان سوطه يصطفق بالكثرة نفسها التي كانت تعلو فيها لعناته على مالكي الأفراس الضعيفة المغشوشة بالأصباغ، لكن لم يكن بوسعه أن يتخيّر كثيراً إذا ما أراد أن يرى جيشه على صهوات الجياد على وجه السرعة. أمّا ما لم يأخذه من الخيول فقد ظل ليشتريه أهل القوافل وهم يصرّون أسنانهم جراء الأسعار الباهظة، كما لم تسعفهم خطابات زعيمهم (نَيزا) في مجلس الشيوخ في هذا الشأن.

رأى أهل تدمر بأم أعينهم في عيد الينبوع (يَفقا) كيف استخلص (ڤورَودَس) الأجود ممّا كان متوافراً في المنطقة، إذ تراكض الناس بعد مباركة الينبوع مباشرةً إلى حافة ساحة التدريب الحديثة الإعداد كي يتفرجوا على أول مواكب وحدات الفرسان الجديدة. وكان من المخطّط أن يضفي هذا الموكب الأول بريقاً إضافياً على أهم عيد سنوي لديهم، إذ كان دليلاً على كبرياء التدمريّين وعلى قوتهم وهم يستعدون ليحلوا محلّ الروم.

قدّم (أودَيناتَوس) عند مذبح ساحة القتال جَدْياً أبيض لثالوث آلهة (بَعل)، وكان رأسه الميت المتوّج بإكليل الزهور يحدّق من بين نيران القرابين المتوهجة صوب نطاق السباق، حيث كان المجنَّدون الجدد

Twitter: @ketab_n

يستعرضون ما توصلوا إليه بالتهديد والوعيد والتدريب القاسي. كانت أسلحتهم تبرق ودروعهم تصلصل وهم يمتطون جيادهم، ووسط تهاليل الجموع انطلق جناحا الموكب وتسارعا نحو العدو ثم ما لبثا أن تراجعا إلى مواقعهما. علا التصفيق، وسحب بعض المحاربين الطائشين أسلحتهم وأقواسهم فوق رؤوسهم بينما كانوا ينطلقون في سرعة مسعورة على مقربة من المتفرجين. ثم انقسم فوج النبّالة فجأة إلى قسمين وانبثق فوج صفوة الجنود الذين كانت دروع جيادهم تصلصل لأن فرسانها كانوا يحثّونها على الجَرْي أسرع فأسرع. تنامى إلى سمع المتفرجين لُهاث الخيول، كما تطاير الزَّبَد في رقائق مضيئة من أعناقها الداكنة جراء التعرّق. ثم قذف الفرسان المدرّعون حرباتهم بكل قوتهم على خط هجوم العدو الوهمي، حيث ظلت تهتز منتصبةً في الأرض الرملية مثل غابة سوداء كثيفة، ثم تبع ذلك صمت صاعق بينما أخذ الغبار يهدأ ويفسح في المجال للسماء الصافية، وأخيراً اندلعت صرخات الابتهاج.

راح (ڤورَودَس) يبتسم بشراسة، فقد كان هذا يومه. فمنذ أن صوّر (گاش) تجاربه عند حرّان بين يديّ الأمير، بما فيها الهجوم الفارسي المدمر على الوحدة التدمرية، كان (ڤورَودَس) قد عقد العزم على اقتباس فن التنظيم الحربي الفارسي هذا، وها قد نجح في ذلك، ولن يقوى أحد على مقاومة فرسان تدمر، أمّا (شاهبور) فسيرتجف هلعاً، وستندهش روما، وسينعم أميره بالمجد. شخر (ڤورَودَس) راضياً وتناول أحد الأقداح المليئة بالنبيذ المخلوط الذي كان يقدمه الرقيق في المنبر الأميري. وكان المنبر هذا مدرجاً خشبياً يعلوه حرير أرجواني مطرز بمشاهد الصيد وكان يتراقص بخفة في الريح الساخنة، كما كانت شُرابات فضية ثقيلة تثبّت ذلك القماش المظلّل في مكانه وكان ثمة ثلة من الخدم ترفّه عن الأمير وحاشيته بمراوح من ريش الطواويس وتقدم لهم المرطبات.

كان الأمير مضطجعاً على أريكة طعام وقد ازدهى برداء پارثيٍّ من الحرير بلوني الزعفران والنيل البرّاقَين كان يتجمّع على جسده الضخم. أبدى الأمير رضاه بإيماءة عن النبيذ الأحمر السوري الذي قُدّم إليه كي

Twitter: @ketab_n

يحكم فيه، ثم فعلت الحماسة فعلها فيه فصار لون عنقه البدين ووجنتيه لا يقلّ توهجاً عن لون حرير خيمته الأرجواني.

«رائع، رائع للغاية»، هدر بصوته الرخيم وهو يمسح عرقه عن جبينه ويأخذ سُماناة أخرى من الوعاء الفضي، ثم ما لبث أن مزّق قفصها الصدري بقرقعة مدوية وألقى بالعظام خلفه.

«كان الاستعراض فخماً، يا (ڤورَودَس)، بل عظيماً»، صرخ في لوائه وهو يمضغ طعامه، ثم أشار برقّة بجناح مقليٍّ من السُّمَانى. «يا له من يوم، أليس كذلك؟». وقوقأت جارية ممتلئة الجسد حين صفعها على مؤخرتها.

* * *

كان الاستعراض قد انتهى، وعندما بدأ مَن تملّكهم الفضول بالعودة إلى المدينة وسط غمامة من الغبار لمح الأمير آمر حرسه بين الجموع.

«(ڤورَودَس)، يا صديقي، أليس ذلك النبيل (زنوبيوس) وعائلته؟ استقدمهم إلينا كيْما نتفضّل عليهم بالتحية. هل ذكرت لك أنني أفكر في الاقتران بابنته؟ يا لها من فتاة فائقة الجمال. لقد أنجحت طقوس التبريك، أليس كذلك؟». راح الأمير يمدّ يده كي يتناول سُماناة أخرى. «قد يجوز الاعتقاد أن لديها الموهبة اللازمة لتكون زوجة أمير. لقد أصبت بلا ريب في قراري من جديد، فهي خَيار طيّب لولا أنها نحيلة إلى حد بعيد، أليس كذلك؟». وجالت عيناه صوب الجارية مرة ثانية. «الممتلئات الجسم منهنّ يرُقن لي، لكنني أخشى أن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه». وبهذا ربّت على كتفي لواء جيشه خلسةً، وتمتم هذا الأخير ما يمكن تفسيره بالموافقة، ولم يتوقع منه الأمير أكثر من ذلك، إذ كان بوسع الأمير في يوم باهر النجاح كهذا أن يجري حديثاً مع نفسه من دون معونةٍ من أحد. وفي تلك اللحظة وصل (زنوبيوس) تتبعه عائلته الكبيرة العدد.

«آه، عزيزي (زنوبيوس). لقد ترك ذلك الاستعراض الذي قدّمه لنا (ڤورَودَس) انطباعاً عميقاً، أليس كذلك؟».

«لقد كان غامراً بروعته، يا أميري». انحنى (زنوبيوس) أمام سيده بعمق،

Twitter: @ketab_n

ثـم أمام لواء الجيش على نحو أقـل، كما فعل (گـاش) الذي كان يقف خلفه الشـيء ذاته، وكان يتحرّق لإيجـاد فرصة للإدلاء برأيه في حدث ذلك اليوم، لكن أباه سبقه في الحديث:

«لقد كان ذلك الاسـتعراض جديراً بعظمتكم، وواعداً للمسـتقبل». ثم ابتسما لبعضهما وقد بانت أسنانهما البرّاقة.

«وهـا هي المرأة الشـابة التـي تصرفت بحذق بالغ صبـاح اليوم». وعلا لهاثـه وهـو ينهض عـن أريكته كي ينحنـي فوق الفتـاة. «زنوبيـا الجميلة، إن البركة التي تسـم يوم السـوق هذا تعود إليكم وحدكـم». رفعت زنوبيا عينيها نحوه بعد أن كانتا مُخفضتين بحسب التقاليد.

تحجّرت ابتسـامة الانتصار التي كانت تتشكّل على وجهها أثناء توجيهه كلامه إليها، فقد تجاهلت حتى شخرة التذمر التي أطلقها (گـاش) تعبيراً عن حسـده وهو يقف إلى جوارها، إذ تدلّى فوقها الوجه الممتلئ المدمَّر لسـكّير يسيح من وجنتيه العرق مثل الدهن، وكادت نتانة الخمرة تُفقدها وعيها.

عينان جميلتان، قال الأمير في نفسه، وأسنان جيدة. لا يمكن قول الكثير عن الثديين، فهما مثل شوكتي الهليون اليانعتين، ولِمَ لا؟ لكن في داخلها نار مستعرة؛ يـا لها وهي تحدّق إليَّ بتقزز. سـتصبح امرأةً فاخـرة بعد عامين من الآن. ثم قال بصوت مسموع:

«هـذا هـو الصحيح، إذ لن يعتريكم الخجل أمام الرجل الذي سـيحظى وحـده بابتسـامتكم اللذيذة فـي القريب العاجـل، أليس كذلك؟». تسـمّرت زنوبيـا فـي مكانها وهـي تستشـعر عينيـه اللتين راحتـا تجولان في جسـدها بأكمله، ولـم تنحنِ بثني ركبتيها راغمةً إلاّ حين نغزتها (عطاي) في أضلاعها، ثم تلفّظت أخيراً واهنةً:

«سـيدي وأميـري». آه، يا لَلاّت، قالت في نفسـها، أيكون هذا الإنسـان عريسي؟ هذا البدين المفرط في اللهو والمُغرم بنفسه؟ لا يمكن أن يكون هذا الإنسـان هو العملاق ذاته ذا الخوذة الذهبية الـذي وقف قبالتي عند الينبوع! ليتـه يزيـل ثديي الخنزير في صدره من أمامي! وراحت تحدّق باشـمئزاز إلى الثديين المكتظين بالشـحم، اللذين كانا يتهدّلان تحت ردائه الحريري؛ أهذا

Twitter: @ketab_n

ما كان يخفيه تحت فروة الفهد إذن؟

«لا»، أعلن الأمير في هذه الأثناء، وقد تملّكه المزاج البهيج، «من المؤكد أنكم قد استحققتم نيتي الحسنة ومكافأة مني، فبماذا أنتم راغبون، يا أيتها الطفلة الفاتنة؟ تكلموا من دون حرج». وهنا مدّ ذراعيه كأنه يملك أن يهديها العالم بأسره.

«أريد حصاناً»، جاءه الجواب البارد على غير توقّع، فظلّت ذراعاه معلّقتين في الهواء:

«ماذا؟».

فكرّرت جوابها بنَزَق: «قلتُ إنني أريد حصاناً». سمعت زنوبيا أباها وهو يشفط الهواء بشدة، لكنها لم تكترث، إذ كان الغضب والعناد قد دفعاها إلى أن تصطنع أشدّ تعابير الغرور على وجهها.

«تريدون حصاناً!»، أخذ الأمير يضحك حتى صارت جميع ثنايا الشحوم في جسده ترتجّ. «فلينظر الجميع إلى هذه الطفلة الصغيرة. يا للعجب! أسمعت، يا (ڤورَودَس)؟ عروسي تريد حصاناً».

قال (ڤورَودَس) كأنه يبصق كلامه بصقاً: «لو ركبتْ حصاناً لتكسّرتْ جميع عظامها». دفعت زنوبيا حنكها إلى الأمام، وأمسك والدها بمعصم يدها وهو يهتاج غضباً، لكن ضحكة الأمير هدرت من جديد قبل أن يتمكّن من التفوّه بأيّ شيء.

«إن لواء جيشي المخلص على حق، فلنؤجل الحصان الآن حتى تتسلموني أنا، جواد المعارك المحنّك. وفي هذه الأثناء، إذا كنتم ترغبون بحيوان ما، فسأهديكم هُريرة فارسية، فماذا تقولون؟».

ساد الصمت لبرهة من الزمن، وازداد ضغط آمر الحرس على معصمها حتى اغرورقت عيناها بالدموع، فشكرت الأمير بإخلاص بالغ، وانحنى الجميع باحترام فائق وهم يودّعون الأمير الذي أقفل مغادراً.

قبل أن يتسنى لزنوبيا أن ترفع عينيها كان (گاش) قد صفعها بشراسة ذات اليمين وذات الشمال، ما جعل قرط أذنها المتبقي يحلّق في الهواء.

«تريدين حصاناً»، نهرها والدها وهو يدفع معصمها نحوها بعنف، ويأمر

Twitter: @ketab_n

ابنه بالتراجع لئلاّ يشهد أحد المارة ما يحصل، ثم راح يشقّ طريقه عائداً نحو المدينة على رأس عشيرته وهو يستشيط غيظاً. وأعادت (عطاي) قرط الأذن المهترئ لزنوبيا التي كانت تفرك معصمها المحمرّ من دون تفكير.

«بوسعنا إصلاحه، يا طفلتي»، واسَتها مربيتها وهي تُجلسها في محفّتها المنتظرة.

«آه، اتركيني!»، أمسكت زنوبيا القرط بيديها الاثنتين كي تحميه، كأنها تختبئ في أمان مجدها ذلك الصباح، فقد غدا تدارك أي شيء الآن مستحيلاً تماماً.

* * *

كانت حركة السوق في هذه الأثناء تصطخب في رواق الأعمدة، وأخذت روائح عديدة تتنافس للاستحواذ على انتباه المارة؛ فثمة رائحة رقائق اللوز بالعسل التدمرية الشهيرة التي لا يتمّ تحضيرها إلاّ في أيام العيد الاثني عشر من كل عام، ورائحة الكلى المشوية على الأسياخ، ورائحة البخور وبلَّورات العطور التي عُلّقت فوق بسطات باعة البهارات. كما كانت أكوام أنيقة من البهارات بجميع الألوان تنتظر الزبائن في أوعيتها، وتوهّجت أوعية زجاجية إسكندرانية ثمينة في الرواق المائل إلى الظلمة، وعلا أزيز أسراب من الذباب حول قطع اللحم البالغة الاحمرار عند بسطات القصّابين، الذين كانوا يقومون بمهامهم بحضور زبائنهم. كان أحدهم قد اشترى للتو دجاجة أخذت تزعق، ثم دُقّ عنقها ورُميت في برميل كي تفرغ من دمها، كما كانت مُعالِجةٌ بجوار ذلك قد شدّت حبالاً تدلّت منها تعاويذ وتمائم راح يخشخش بعضها ببعض.

وعلت فوق تلك الخشخشة صيحات الباعة الذين كانوا يعلنون عن أسعار بضاعتهم، منهم مَن يغرّد ومنهم مَن يطنّ، كأنهم ضرب من الطيور النادرة في خضمّ غناء التزاوج. كما كانت ثمة بسطة تحوي قضباناً من المرجان من الساحل العربي، وبينها مشابك للشعر وأساور مرصّعة بالعقيق اليماني والفيروز والعاج، ما جعل (زِيمَه) وياسمين و(أويات) يطلُلْن

Twitter: @ketab_n

برؤوسهن فوراً من بين ستائر محفّاتهن.

أمّا زنوبيا فلم تكترث لأي شيء من هذا، بل لم ترَ حتى (أودُو) وسيدته (يوليـا) اللذيـن لا يمكن أن يفوّتـا التجارة أيام العيد، لذا كانـت (يوليا) تقدّم مـن دون كللٍ أو مللٍ مجموعة من الأقمشـة ذات النمط الصارخ، مسـتهدفةً فـي ذلـك ذوق البدويات اللواتـي كنّ قد جئن إلى السـوق بصحبة أزواجهن وقطعان أزواجهن. كان الجمع المهتاج عند بسـطة (يوليا) يتّصف بالوجنات الشـديدة الاحمـرار والأقـراط الفضيـة المصلصلـة المعهـودة. كان (أودُو) منغمسـاً فـي انتـزاع أطوال الحرير مـن أيدي النسـاء المتناقشـات ولفّها متراً متـراً مـن جديـد قبل أن تغرق فـي كتل الأقمشـة المنفرطة، ولـم يكن ليلمح زنوبيـا التـي كانـت تتأرجح محمولـةً على مقربـة منه حتى لو جالـت بعينيها إلى الخارج ولوّحت له.

أمّـا زنوبيـا فكانـت قـد أسـندت ظهرها إلـى مقعدهـا فـي المحفّة وقد أغمضـت عينيها وراحت تحاول أن توقف رأسـها، الـذي انتابه الصداع، عن التفكير في ابتسـامة الأميـر الصفراء، لكن من دون جـدوى. ثم تنهدت، فقد كان ضجيـج الجموع فـوق طاقة احتمالها. علت من ماخور قريب موسـيقى رقـص صاخبـة ضجّ بها الشـارع، كما علا قـرع الطبول أمامهن فـي الطريق. وهـن لا يكـدن يتقدّمن فـي الازدحام العـارم. أطلّـت (عطاي) برأسـها كي تستوضح سـبب التعطّل، وتبيّن أنه كان اسـتعراضاً بهلوانياً مصرياً أمام معبد (راب آزِيـرَه)، حيـث كانت فتـاة قد قفزت للتـو من خلال حلقةٍ تسـتعر فيها النار، ثم عمّ التصفيق. وبينما كانت البهلوانة تجمع المسـكوكات النحاسـية وهي تتجنب الأيدي التي امتدت إليها كي تتحسّسها، كان ثمة ماجن معروف في المدينة بأكملها يساوم على سعرها بصوت عالٍ مع مدير الاستعراض.

أسـدلت (عطاي) السـتائر وهي تشـعر بالنقمة، لكن لم يبدُ أن زنوبيا قد أولت الأمر أية أهمية. هذه الطفلة تقلقها، إذ لم يكن عدم الاكتراث من عاداتها. خطر في بال (عطاي) كيف اسـتجابت زنوبيا قبل بضعة أسـابيع حين نطحها (گـاش) في رأسـها كي يوقفها عن ألعابها ويأمرها بجلب معطفه للسـفر، إذ فـرّت من الغرفـة وأغلقت الباب خلفهـا بقوة، وراح (گـاش) ينتظر عودتها

Twitter: @ketab_n

سـدّى. وحين لم تحضر إلى وجبة العشـاء، بحثت عنهـا (عطاي) ووجدتها في غرفتها أخيراً وقد بُحّ صوتها من شـدة الصراخ، بينما كانت المِبولة الليلية قـد رميت بعيداً على البلاط. أمّا الآن فقد كانت تجلس من دون أدنى مبالاة، وكان بصرهـا يجول صوب المربية كأنها شـيء جامد ليس لها أي اهتمام به، كمـا راحت تتأرجح فـي جميع الاتجاهـات بفعل حركة المحفّـة المحمولة كأنهـا هي نفسـها شـيء جامد يسـعد بالارتماء هنـا وهناك. لكـن زنوبيا كان يهمّها الكثير، فقد توحّد كتفاها المتهدّلان ورأسـها المتدلي في تهمة موجهة إلى العالم الذي كان يسبب لها كل هذا البؤس، لكن (عطاي) لم تُدرك شيئاً من ذلك، بل لم يدركه أحد!

«زنوبيا، انظري إلى البهلوان!».

«اتركيني وشـأني». أشـاحت زنوبيا بوجههـا جانباً، فقـد كانت تريد أن تكـون وحدهـا بصحبة الصـور التـي كانت تجول فـي خاطرها مـن دون أن يزعجهـا أحـد. تبـدّت لها صورة أبيهـا وهو يعـود إلى المنزل حامـلاً الثوب الوردي اللعين الذي كانت ترتديه الآن.

«هـذا الثوب مُعَدٌّ لأميرة»، قال في حينها، وراحت هي تحلم بكليوبترا! ثم تبدّت لها نظرة أمها الحانية في مرآة منضدة التجميل. تُرى هل كانت أمها تعلـم حينئـذ مَن يكـون (أودَيناتَـوس)؟ لا يمكن لأمها أن ترضـى بأن يبيعها أبوها لذلك الفاسق البدين العجوز. كانت نيّتهما أن يزوّجاها بأمير، بالتأكيد، لكنـه... لـم يكن الحاكم المتألـق في طقوس الينبوع، بل كان... ثم سـمعت همـس (أومَـه) مرة ثانيـة في أذنهـا: «سـتصبحين ملكةً حيـن تلديـن بنينَ»، وفكرت في الأمير (أودَيناتَوس) واقشعرّ بدنها.

نبّهتهـا ضحكة مشـرقة، ورأت أمها تترجّل من محفّتهـا مع الأخريات، كي تحدق عن كثب إلى رجل كان قد جعل ببغاوات زاهية الألوان تحطّ على كتفيه، كما كان ثمة قرد صغير مربوط بلجام يسـتجدي النقود من المتفرجين على نحو مضحك للغاية، فركعت (زِيمَه) كي تطعمه تينةً، فما كان منه إلاّ أن قفز فوراً على ذراعها، ما جعلها تمسّده وتتلفّت باحثةً عن زوجها.

أمي! كانت تتمنى أن تركض إليها وترتمي في حضنها، لكن أباها وصل

Twitter: @ketab_n

كي يساوم على سعر القرد، بينما كانت زوجته تنظر إليه نظرة امتنان مشرقة، فانسحبت زنوبيا إلى داخل محفّتها وقد تملّكتها الغيرة. يجب أن تتكلم مع أمها على انفراد، وحين تدرك أمها أنها لا تريد ذلك الرجل وأنها في غاية الابتئاس، لن تسمح للعرس أن يتمّ، وستذهب إلى أبيها نيابةً عنها، ولكن عليهما أن يتحدثا سوية أولاً. كان نفاد صبرها يطغى عليها كالحمّى، وتمزّق منديل في يديها قبل أن تستأنف المحفّات طريق العودة إلى المنزل.

Twitter: @ketab_n

الأمير الذهبي

بَيد أن صبر زنوبيا كان على المحكّ في تلك الأمسية، إذ كانت قد استثنيت من حضور وجبة العشاء المشتركة بناء على أوامر أبيها، فراحت تتمشى في غرفتها الصغيرة جيئةً وذهاباً، وتكبت في نفسها خطابات ملتهبة، بينما ظلت أصابعها تجري على الأشياء من حولها من دون أن تقوى على المكوث طويلاً على أي منها.

كان الغروب قد أزف حين نهضت (زِيمَه) وهي تتنهد منزعجةً في الغرفة المجاورة قبيل ذهابها إلى ابنتها- إذ لم تكن تتطلع قُدُماً إلى لقائها- فزحفت بتحبّب صوب قردها الصغير، لعبتها الجديدة، لتودّعه. لقد كانت (زِيمَه) ممّن يحتاجون إلى التناغم، وكان المشهد في الصباح قد أنهكها للغاية. لكن زوجها كان مستاءً إلى حد بعيد، ولم يعد بوسعها أن تترك الأمور على ما هي عليه من دون أن يتأثر مجرى أيامها الهادئ. لذا أودعت (القِبيادِس) الصغير، كما أسمت حيوانها المفضل، في رعاية (عطاي)، وتنهّدت مرة أخرى، وطرقت باب ابنتها الصعبة المراس، وهي مستاءة منها لأنها اضطرتها إلى هذا الحديث. فوجدت زنوبيا مستلقيةً تتفحّص مجوهراتها على الفراش المزيّن بالأسود. من حسن الحظ أن الطفلة لم تكن مبلّلة بالدموع، فقد كانت دوماً شديدة الانفعال، لذا قررت (زِيمَه)، وقد انشرح خاطرها، ألاّ توجه إليها أية انتقادات.

«أمي، يجب أن أتحدث معك في أمر عاجل». ابتسمت (زِيمَه) لابنتها الجميلة المرهقة.

«نعم، يا مُهرتي، من امرأة إلى أخرى، أليس كذلك؟».

«آه، يا أمي!» شهقت وهي ترتمي في حضن أمها. «إنه لأمر فظيع».

Twitter: @ketab_n

«مـا هو هذا الأمر الفظيع، يا حبيبتي الصغيرة؟»، تسـاءلت وهي تمسّـد شعرها المشعّث عن جبينها.

«وهـل ثمة أحد غيـر (أودَيناتَـوس)؟ أمي، لا أقوى على الـزواج منه».

أطلقت (زِيمَه) ضحكة عالية وهي تضمّها بذراعيها على نحو أشدّ.

«آه، يا زنوبيا، هكذا يرى المرء أنك لا تزالين فتاةً صغيرة غريرة. بالطبع أنتِ تقوين على الزواج منه، وعليكِ ألاّ تخافي، اتفقنا؟».

«لا، ليس في وسـعي أن أفعل ذلك، فأنا أقشـعرّ لمجرد النظر إليه، فهو عجوز ومقرف و...».

«لا يجـوز لـكِ أن تتكلمـي عنـه علـى هـذا النحـو، حبيبتـي»، قاطعتها (زِيمَه). «ليس الأمير وسيماً بالتأكيد، لكن الوسامة ليست كل شيء، وهو بلا أدنى ريب رجل عظيم ومهم». فأردفت زنوبيا غاضبةً:

«هـو ليـس كذلـك؛ طالمـا حلمـتُ برجـل عظيـم، يـا أمـي، ببطل من الأبطـال، وأدرك بالضبـط كيـف يكـون شـكله، إذ سـيكون نبيلاً وشـجاعاً، ولـن تفـوح منـه رائحـة الخمـرة، ولـن يكـون ماجنـاً ومتبجحـاً كمـا هـي الحال مع (أودَيناتَوس)».

نظرت (زِيمَه) إلى ابنتها ساخطةً.

«أنّى لكِ أن تقولي شـيئاً كهذا؟ هذا أميركِ. لا، لا»، وأوقفت هزة رأس ابنتها العنيفة، «ليس في وسـعك وأنتِ في هذا العمر أن تحكمي على شـيء كهـذا، صدقيني، فأنا أعرف ذلك. يحلم الصغار بأشـياء لن يبلغوها في نهاية المطاف. تعالي إلى هنا». ألقت زنوبيا رأسـها بتردد بين يدي أمها. «لا وجود للأبطـال إلاّ فـي الأسـاطير، أتعرفيـن ذلك؟». جلّسـت زنوبيا نفسـها فجأة، وسددت نظرة ثاقبة إلى وجه أمها الجميل:

«أرجـوكِ: أنـتِ لا تفهمينـي، يـا أمي. لن أسـتطيع أن أتحمّـل حتى أن يمسّـني. حتى شـكله يثير تقـزّزي، وصوتـه...»، ودفنت رأسـها في ملابس أمها مبتئسـةً، وكانت ملابس ناعمة وتفـوح منها رائحة لطيفة، كما هي حالها دوماً. لكن، لماذا لم تجد عندها في هذا اليوم أي سـلوان لها؟ ظلت (زِيمَه) تمسّد آلياً لزنوبيا الباكية.

Twitter: @ketab_n

«إني أدرك، يا صغيرتي، أنه لم يخطر في بالك أن تفكري... في الرجال حتى الآن، أليس كذلك؟».

«لا، يا أمي، الأمر ليس كذلك، أنا...».

«لقد مررت يومها بالشيء نفسه مع أبيكِ». أخفضت (زِيمَه) صوتها كأنها تتآمر معها. «كان يبدو لي دوماً منغلقاً على نفسه، وصارماً، ويكاد يجعل المرء يجفل منه». هي لا تفهمني البتة، قالت زنوبيا في نفسها، بل لن تفهمني أبداً.

«لكنني، للحق، لم أندم على زواجي منه مطلقاً»، أردفت (زِيمَه) تقول، ولمعت دمعة شجية في طرف عينها، فمسحتها ومسحت معها الذكريات السيئة المتصاعدة في نفسها واعتدلت في جلستها. «أمّا الأمير فهو رجل معطاء، وهذا أمر معروف». أشارت غمزتها إلى وفاق أنثوي. «وستستمتعين بوجودك معه. أمّا كونه لم يعد شاباً، فتلك ميزة حسنة في الرجال، وعليك أن تكوني ممتنة لذلك». كانت زنوبيا قد أخذت تسرح بنظرها في الفراغ من على ركبة أمها، ففسّرت هذه الأخيرة صمتها على أنه علامة جيدة وأعطت ابنتها تربيتة تشجيعية.

«سيعجب عنزتي الصغيرة أن تصبح أميرة. آه، ونحن نفتخر بكِ للغاية. والآن...»، انتصبت واقفةً. إنني أتعذب، قالت زنوبيا في نفسها وقد اضطرب ذهنها، أتعذب وهي لا ترى ذلك.

«... لقد قررنا، والدك وأنا، أن نوفّر لك فرصة ثانية لكسب ودّ الأمير غداً عند السباق، وسأرسل لك (عطاي) كي تزيّنك وتعدّك، إذ إن صغيرتي ستجعل القلوب تذوب غداً». لم تنبس زنوبيا ببنت شفة، وظلت متكوّرة على الفراش، وظهرها صوب الباب الذي خرجت منه (زِيمَه) وهي تتنفس الصعداء، بعد أن طبعت قبلة سريعة على وجنتها، كما ظلت مجوهراتها القديمة المبعثرة تتلألأ من دون أن تكترث لها في الظلمة المتزايدة من حولها.

* * *

لم تلقَ (عطاي) أية متعة في اليوم التالي في التعامل مع زنوبيا، التي

Twitter: @ketab_n

ظلّت تصرّ على تسريحة شعرها البدوية، كما أبدت تمرّدها في اختيارها لثوب تقليدي أخضر من الصوف الخفيف، لكنها لم ترضَ من الجواهر سوى ببضع أساور فضية.

لقد اشتهر عن الأمير إعجابه بكل ما هو رومي، ما جعلها تعقد العزم على عدم إشباع رغبته تلك، إذ ينبغي أن لا يجد فيها أية متعة مطلقاً.

«تبدين مثل أية فتاة بدوية»، تأففت (عطاي) متذمرةً، وإن كانت فخورة بالجمال المنعش لصغيرتها بينما كانت تضع اللمسات الأخيرة على الأشرطة الملونة في ضفائرها. «من الأفضل أن ننسلّ بك إلى محفّة ما قبل أن يراكِ والداكِ». كان ذلك مناسباً لزنوبيا، إذ إن سخط أبيها لن ينفجر في وجهها إلاّ في طريق العودة، فتبعت (عطاي) بكل تصميم، رغم خوفها، إلى الخارج حيث كان ينتظرهما الغوطي، الذي انضم إليهما من دون أدنى كلام.

أراح زنوبيا أن أحداً لم يلاحظ مغادرتهم، حيث كانت العائلة جميعها قد تحلّقت حول (گاش) الذي كان من بين مَن سيتسابقون ذلك اليوم. فراح يستمتع مزهوّاً بالإعجاب الفائق من النسوة، ويستمع إلى نصائح أبيه، بينما كان وقع حوافر فرسه (نجمة) المهتاجة يملأ باحة المنزل الأمامية بأصدائه، ثم ابتلع القافلةَ الصغيرة ضجيجُ يوم السوق الجديد.

دوّت من بوابة المدينة الشرقية صيحات التحفيز على المصارعة، وكانت جمهرة قد تجمعت هناك لمشاهدة المصارعين، الذين كانوا يتحدّون المتفرجين في منازلات ويتراهنون معهم. كان الكالِدوني الأحمر الشعر الذي رفض أن يسترقّه (زنوبيوس) ذات مرة، قد كسر للتو عظام راعي ماعز شاب متهوّر، كان قد ارتقى حلبة المصارعة قبل ثوان معدودات استجابةً لنداءات أصدقائه، فأمر (زنوبيوس) القافلة بالتوقف. قبض المصارع الرياضي على مُنازله بسرعة كادت تجعل (زنوبيوس) يشكّك في صواب قراره آنذاك، وبصوت يشبه إزالة العظام عند ذبح الماشية، كان ذلك المصارع قد مزّق أوتار عضلات الشاب، ما جعله كسيحاً في لحظات، وخوّل وكلاء الرهانات أن يجمعوا أرباحهم. بدا أنه لن يكون آخر مَن يسفّ التراب هنا في هذا اليوم.

Twitter: @ketab_n

كانت زنوبيا تراقب المشهد على نحو لا مبالٍ، بينما كانت (عطاي) قد تسمّرت فوراً وهي تنبهها إلى المصارع القوي.

«اجعليه يلوي عنق الأمير وسأكون راضية»، صدّتها قائلة. قبّلت (عطاي) تعويذتها ساخطةً:

«إلهتي العظمى، سامحيها. لا يجوز أبداً أن يخطر لك ذلك في بال، لا سيما وأن الحاكم شفوق تجاهك للغاية». أشاحت زنوبيا بوجهها جانباً من دون أية كلمة. كاد يتملّك (عطاي) ما يشبه الخوف حين راحت تحدّق إلى المظهر الجانبي لوجه زنوبيا الذي استدار لمراقبة المشاهد في الخارج من دون اهتمام؛ الخوف من توحش هذه الفتاة والخوف من أنه قد فاتها أمرٌ ما في معرض تنشئتها قد يكون مجلبةً للمخاطر على أهل البيت جميعاً.

هي مثل الآخرين، حكمت زنوبيا في نفسها على (عطاي)، وكتمت دموع الرثاء للذات عند إدراك هذه الخيانة الجديدة. لم يعد أحد من عائلتها قريباً منها. ربما ينبغي عليها أن تهرب بصحبة (أودُو). آه، ليست تلك إلاّ أحلام صبيانية ولّت وانتهت، صرخت في نفسها كيْما تتعقّل، إذ ينبغي عليها أن تفكر في خطة أفضل من تلك، وينبغي لأميرها البدوي أن يسارع إلى نجدتها، تماماً كما فعل (تايمَوعَماد) مع الفتاة الباكية في تلك الأسطورة. ستسكن مع القبائل بوصفها الأم الحاكمة المحترَمة، ما سيجعل حتى والدها يحسب لها حساباً. تُرى أيكون البيت الوردي مهر زواجها؟ لقد كانت تحلم أن تصبح يوماً ما الأم الحاكمة لسلالة من المقاتلين الأشداء، حيث تلاعب شعرها ريح السهوب...

انتُزعت من أحلام يقظتها على حين غرة. يا لَـلّات، أليس ذاك إلى الخلف فارسها؟ انحنت إلى الأمام منفعلةً. ها هو ذا يظهر أمامها في اللحظة المناسبة، كأنه يجسّد أمانيها. لقد عرفت وجهه الداكن وضحكته الحادة نفسها التي أسمعها للعالم وقتذاك، كما عرفت الأنف الدقيق والحاجبين اللذين يشبهان جناحين. آه، لقد كان بالوسامة نفسها التي كان عليها في ذاكرتها. كان حصانه المتبختر، الذي أمسك بلجامه، ينظر صوبه تارةً وينظر إلى ما حوله تارةً أخرى، ثم يقف بلا حراك وقد خضع لفطنة فارسه المرحة. امتطى

Twitter: @ketab_n

الفارس حصانه بقفزة واحدة، وقام بتقديم بعض الاستعراضات لرفاقه.

لقد كان من حسن حظ زنوبيا أن (عطاي) كانت قد ترجّلت من المحفّة، مثل الأخريات، كي تتفرج على المصارعات، لذا لم يلاحظ أحد الاحمرار الشديد في وجنتيها. كانت يداها ترتجفان وهي تفتح باب المحفّة. ها هو الفارس؛ إنه هنا. لقد ظل طوال سنة كاملة صورةً في أحلامها تسبب خفقاناً في قلبها، أمّا الآن فهو هنا، كأنه البدوي (تايمَوعَماد) المخصّص بها، وأميرها الذهبي. لا بد أن ظهوره علامةٌ ما، لذا شدّت شالها على عجل ولم يبطئ من حركتها أن رأسها اصطدم بإطار الباب وهي تترجّل.

كان ينبغي أولاً إشغال حارسها، ذلك الضبع الأشقر، فالتحقت بعائلتها التي كانت للتو تتفرج مندهشةً من انتصارات الكالِدوني المتلاحقة، وقالت في لحظة مناسبة:

«الشخص الوحيد القادر على دحره من دون ريب هو الغوطي، فقد اختار أبي أفضل مصارع على الإطلاق».

كانت لتَسعد في أية فرصة أخرى لمرأى الاهتمام الشديد الذي بدا فجأة على وجه أبيها، ما سبّب ظهور الغيرة فوراً على ملامح (گاش). أمّا اليوم فقد أخفضت عينيها بكل تهذيب وأتاحت لغيرها أن يأخذ زمام الحديث الذي بدأ يدور حول آفاق هذه المصارعة الدامية بين البربريَّين. كانت شالات مجموعة النسوة الصغيرة المتحمسة تتطاير مع النسائم المنعشة، وكانت (زِيمَه) تتشاجر مع (أويات) حول مقداري رهانيهما، وكانت ياسمين تحاول جاهدةً أن تخفي زهو المالك بعبده، لكن ثلاثتهن تطلعن إلى الغوطي بينما كان ينقاد إلى حَكَم الحلبة. اشتمّ وكلاء المراهنات غنيمة كبيرة، وتزاحم المشاهدون حول الحلبة، لذا لم تضطر زنوبيا أن تفعل شيئاً سوى أن تظل في مكانها حتى أصبحت منسيةً وحدها على هامش الحدث، ولم يرها أحد إلاّ (عطاي) وهي تغذّ السير صوب مجموعة من الصبية العرب.

انطلقت زنوبيا صوب هدفها من دون مواربة. كان الفارس يقف وسط رفاقه عند طرف ميدان سباق الخيل. لم يخطر في بالها ماذا ستقول له حين تقف قبالته، بل أنّى لها أن تفلح بالتحدث معه على انفراد. لكن حين اقتربت

Twitter: @ketab_n

منه وقد احمرّ وجهها من الانفعال وابتدأت تلهث من طول المسافة وقد تسمّرت عيناها على هدف توقها، تركه مرافقوه وهم يتكلّفون الابتسام ويربّتون على كتفيه على نحو مهين. نظر إليها مندهشاً من تلك الفتاة الغريبة عنه، وهي تتوجه إليه، وقد بدت أمارات الرغبة واضحةً عليها.

تُرى هل كان ينبغي عليه أن يعرفها؟ تأمّل فيها وقرر أنه لا بد أن يتعرف إليها في جميع الأحوال، فعاجلها بابتسامة، ما غمرها بالفرح، وراحت زنوبيا تتمسّك بهذه الابتسامة، وظلت على حالها هذه حتى حين تعثّرت وسقطت أرضاً على طولها. أخذت تحدّق إلى أميرها الأسطوري وهي منبطحة، حتى انتزعتها من لحظة السحر هذه صرخة (عطاي) الحادة.

كيف حصل كل هذا؟ نهضت وقد انتابها الجنون وزادها الحياء احمراراً في وجهها. يا لَلاّت، لا بد أنه يسخر منها، وينبغي عليها ألاّ تنظر صوبه. لا بد أنها بحمرة الشمندر، بل بحمرة الدم الذي ينبض في رأسها. آه، اللعنة مرةً، ومرتين، وثلاثاً.

«دعْكِ من ذلك، يا (عطاي)»، زجرت مربيتها التي كانت قد وصلت في هذه الأثناء وأخذت تنفض الغبار عن ملابسها بينما كانت تحدج الصبي الغريب بنظرات متشكّكة.

«تعالي معي الآن، فعائلتك ترغب في أن تكوني معهم في المقصورة عند بداية السباق». استرقت زنوبيا نظرة إلى أميرها. كان لا يزال واقفاً هناك، ولم يكن يسخر منها! ثم لاقت عيناها عيني (عطاي)، فأخفضت رأسها.

«لقد فاز والدك للتو بكيس من الدنانير»، قالت المربية وأومأت بحنكها إلى الغوطي الذي كان يمسح وجهه المتعرق بحفنة من التبن، بينما كان مُنازله الميت يُحمل إلى خارج الحلبة.

انسلّت زنوبيا بصحبة (عطاي) إلى مقعديهما عند المنصة الخشبية قرب الجزء الضيق من الميدان. لم يلاحظ ذلك أحد سوى (زِيمَه) التي رمقت ابنتها بنظرة تأنيب، لكنها أحجمت عن قول شيء بصوت مسموع، حين أدركت للمرة الأولى ما لبسته ابنتها من ثياب، وتحركت في مقعدها على نحو خفي كي تحجب الرؤية عن (أودَيناتَوس) الذي أومأ برأسه يحييها

Twitter: @ketab_n

من مكانه، فبادلته التحية بدورها.

كانت حمّى السباق قد فعلت فعلها بالآخرين في هذه الأثناء، تماماً كما هي الحال مع الجموع الذين تعالت صيحاتهم واشتدت تلويحاتهم على طول الميدان، ما جعل مجموعة الخيل والفرسان تهتاج عند أول المضمار. كانت الظهيرة قد أزفت، وكانت الشمس تُحكِم قبضتها المتوهجة على السهل الخالي من الأشجار أمام المدينة، لكن أحداً لم يكترث بشيء من هذا في تلك اللحظة.

جالت زنوبيا بعينيها على الثلة الضارية من الفرسان- الذين كانوا يمسكون بزمام خيلهم بصعوبة بالغة- من دون أن تجلب الانتباه إلى نفسها. كانت الخيل تخطو بعضها على حوافر بعض، وتتصارع على بضعة سنتمترات من الأرض، وقد كشفت عن أسنانها وصلّبت أعناقها. وكان الجميع ينتظر أن يُخفض (أودَيناتَوس) صولجانه الأبيض الذي كان قد رفعه عالياً فوق رأسه. كانت الجائزة قد حُددت بخمسمئة دينار من الذهب.

تعرفت زنوبيا أولاً على حصانه، فقد كان من الحجم الصغير، وكان شكله جميلاً على نحو غير عادي، وأذناه منتصبتين من شدة الاهتياج، وقد بدا يتطلع قدماً إلى السباق. كان الصبي الذي اعتلى ظهره منشغلاً في إبقاء الفرسان الذين كانوا يفوقونه طولاً ذات اليمين وذات الشمال على مبعدة منه. لم يكن فارسها الصبي الوحيد الذي كان يجرب حظه، حيث كان ثمة جنود من حرس الحدود كذلك. لم يكن أيٌّ منهم يؤمّل بفرصة الفوز كما هو شأن الفرسان المحنكين، ومن بينهم (گاش) الذي كان ينتظر من دون أن يجلب الانتباه إلى نفسه في مسرب المضمار الداخلي. ولكن حين أُخفض الصولجان رأت زنوبيا شقيقها ينطلق مندفعاً كما كانت تتوقّع، بينما تشابكت خلفه الحوافر والقبضات والأجساد المتساقطة، وأخذت تغلّفه غمامةٌ كبيرة من الغبار. كان مَن يفلح في البقاء على صهوة حصانه، ينجح في الجولة الأولى. جالت زنوبيا بعينيها وهي تبحث عن أميرها جاهدةً، لكنها لم ترَ إلاّ (گاش)، الذي كان للتو قد قطع الطريق على بدويٍّ متين البنية مستحوذاً بذلك على الريادة.

Twitter: @ketab_n

دوّى زمير الأبـواق معلنـاً انطـلاق الجولـة الثانيـة، وابتعـدت الطليعة عن المجموعة الوسـطى بشـوط بعيد، وكان أحد المتسـابقين قـد بدأ يزاحم (گـاش)، إذ راح حصـانٌ مغبرٌّ صغير يجـري في أعقاب حصانـه وقد تعلّق على عنقه صبيٌّ نحيف يافع، وحين تبيّنته زنوبيا راح قلبها يخفق بشـدة. انتهز الصبـي الانعطافة الداخليـة الأخيرة كي ينحشـر بموازاة (گـاش)، ثم راحا يتسابقان كتفاً بكتف ومن دون هوادة صوب خط الهدف. سمعت زنوبيا أمها وهـي تهلّـل على مقربة منها، فأخذت تقول في نفسـها، وهي تناشـد أميرها، إنه سـيفوز بلا ريب، وسيكون الأفضل قاطبةً وسيأخذني معه. ملأت وجهَها ابتسامةُ الانتصار، فألقت نظرة شامتة صوب والديها وقد بدت على وجهيهما حمرة القيظ والحماسـة. حين أدارت رأسها بفعل صيحة الجمهور، كان كل شـيء قـد انتهى: كان (گـاش) قد أزاح خصمه عـن صهوته بلكزةٍ من كوعه، وتقلّـب الصبـي، مـدركاً مصابه، إلى هامـش المضمار قبيل أن يهدر إسـفين المجموعة الوسطى لِصقَ جسده مجتازاً خط الهدف مثل الرعد.

لـم ينظر صوبـه أحد غير زنوبيـا، إذ كانت تدمر برمّتهـا تصفّق للمنتصر الـذي خـبّ بحصانـه وهو يلهـث ويلوّح صـوب مقصـورة الأمير. أمّـا أمير أحلامهـا هـي الذي كان طريـح الأرض فقد صفّر لحصانه كـي يدنو إليه، ثم قـاده عبر المضمـار، ومن أمام آخر ثلة مـن المتسـابقين المترنحين الذين لم يعيـروه أي اهتمام صوب سـقيفة مشـدودة، حيث كانت ثمـة براميل الخمرة والماء العذب المخصّصة بإنعاش المتسابقين.

نهضت عائلة زنوبيا وأخذت تشـقّ طريقها وسط الحضور المتحمسين صـوب مقصورة الأميـر. كانت زنوبيا تعلم أن مراسـم تكريـم المنتصر تكاد تبتـدئ، لذا صمّمت على انتهاز هذه الفرصة لتشـرد مـن دون علم أحد، كما لن تنتبه لغيابها حتى (زِيمَه) التي ستتطلّع إلى ابنها الوحيد وهو يتسلّم جائزته أمام الجميع، لذا تخلّفت عن الركب عمداً، وغاصت بين الحضور بلا أثر.

انطلقت زنوبيا من وراء الجانب الخلفي للمنصة وعرّجت، كأنها تمشي مصادفةً، صوب أمير أحلامها تحت السقيفة، حين صارت هذه الأخيرة على مقربة منها، كما لم تُبدِ ما يشير إلى أنها انتبهت إلى وجوده، إلاّ في آخر لحظة

Twitter: @ketab_n

ممكنة، ولم يفتها أنه كان يحكّ جرحاً في ساقه وهو ينزف بغزارة.

«هل حدث لك أمرٌ ما قبل قليل؟»، أفلت السؤال من شفتيها.

«هـل حـدث لي أنا أمرٌ ما؟ ها! ليس هذا بشـيء يذكـر، إذ ليس بمقدور أحـد أن يسـقط عن صهوة حصانـي فعلاً، فهو أمهر من ذلـك بكثير. أتريدين أن تتفحصيه؟». أخذت تحدّق بلهفة إلى حصانه الصغير القوي الأدهم الذي انتصبت أذناه حين سمع صوت فارسه.

«حصانـك جميل للغاية». راحت زنوبيا تحاول أن تحدّق بعيداً عنه كي لا يرى الحمرة التي انتشـرت في وجنتيها، فقـد كان قربه منها مثيراً إلى الحد الذي جعلها توقن أنه لا بدّ يشعر بالإثارة على النحو ذاته جرّاء قربها منه.

«لكنـه ليس من جمالكِ في شـيء». يـا لَلاّت! استنشـقت زنوبيا بعض الهواء، ولم تعد تعرف أين تُدير عينيها، فابتسم وخطا نحوها خطوةً.

تملّـك زنوبيـا الهلع، فقد أزف الوقت، وسـرعان ما سـتتنبّه عائلتها إلى غيابها، فألقت نظرة قلقة صوب المنصة خلفها، حيث أَعلن للتو زميرُ الأبواق انتهـاء مراسـم تكريـم المنتصر، مـا يعني أنـه لم يبـقَ أمامها سـوى لحظات معـدودة، فمـا كان منـه إلاّ أن أمسـك يدها وكـوّر قبضتها بإحكام، فشـعرت بضغط مسكوكة مفخورة في راحة يدها.

«أنلتقي هذا المساء؟».

أدركـت زنوبيا مذهولةً أن الوضع لا يتطلّب اسـتخدام فنون الإغراء، إذ لـم يبقَ عليها إلاّ أن تصف له الطريق إلى خلوتها السـرّية في حدائق النخيل، وحيـن أشـرفت على الانتهـاء من ذلـك على عجـلٍ، أنذرها الصبي بإشـارة صامتة، لكنّها واضحة، عن اقتراب مربيتها التي بدا عليها القلق.

افتـرق الاثنـان بعـد أن توصّلا إلى اتفاق لـم يتفوّها بـه، وكأن نظراتهما كانـت قـد التقـت مصادفـةً وحسـب. راحـت زنوبيـا تركّـز اهتمامهـا فجأة علـى بضـع قطط صغيـرة وهي تلهـو تحت طـرف خيمـةٍ كانت قـد انحلّت ووقعـت مـن مكانهـا، ولم ترفـع عينيها إلـى أن أخذت إحـدى القطط تنتّف طرف ثوب (عَطاي).

«هـا أنـتِ إذن»، قالت زنوبيا بلطفٍ، «تُرى هل تمّ تتويج شـقيقي الأكبر

Twitter: @ketab_n

بالإكليـل؟»، ثم هامت بجانب مربيتهـا القلقة عائدةً إلى مِحفَّتها، كما صمّت أذنيهـا بعنايـة فائقـة عمّا أخذ يبدر عـن والدتها من عتاب لا مفـرّ منه. راحت تفكّر في حكاية (تايمَوعَماد) ووسـاطة زواجه، وبتحرير ابنة التاجر الغضبى، وبقصـة الأميرة زينب وعشـيقها، وبقصة كليوبترا بين ذراعَي قيصر. ستُقدم هي على الهرب نحو مسـتقبل ملكيٍّ بصحبة أميرها، ولم يسـاورها أي شـك في ذلك. بسـطت يدها وهي تمشـي وراحـت تتأمّل المسـكوكة المفخورة؛ بانت على المسكوكة صورة اللاّت، الإلهة المحاربة.

* * *

أنهـت زنوبيا زينتهـا أخيراً اسـتعداداً لموعدهـا المرتقب، ولـم تبقَ أية أثواب، ولا أية مجوهرات، إلاّ وكانت يداها قد تلمّسـتها مراراً في السـاعات السـابقة. كانت قد قلّبـت كل محتويات أدراجها، ثـم أغلقتها على عجلة من أمرهـا، حيـن تناهت إلى سـمعها خطى أحدهـم في الممـر. كان لا بدّ لها أن تروق للصبي، فقد كان رائعاً للغاية، ما سيجعله ينقذها. أخذت تتصوّر نفسها وهي تسـكن معه بيـن القبائـل البدوية، وكيف سـتخطو دوماً أمـام خيمتهما المشتركة، كي ترحّب به حين يعود من إحدى غاراته مُثقلاً بالغنائم.

جلست قبالة المرآة وملّست ضفائرها بفرشاة شعرها حتى تشعّثت، كما حدّقت في هذه الأثناء إلى عينيها بجدٍّ. كانت تبدو بالمظهر نفسه الذي بدت عليه البارحة، قالت في نفسها، كما لم تكن ثمة علامة أو شائبة تدلّ على أنها أخـذت مؤخراً تفعل أشـياءَ لم تكن قد عدّتها يوماً فـي حيّز الممكن. أخذت نظرتهـا تخترق انعـكاس صورتها في المـرآة، وكأن رباطة الجأش التي بدت لها في صورتها كانت من قبيل الوعد بالمستقبل. نعم، في وسـعها أن تكون بهـذا المظهر. جعلت زنوبيـا عينيها تلمعان، كما أضافت خطَّيّ كحل بحيوية بالغة، ما جعل مظهرها أشدّ درامية، ثم أومأت لنفسها بحماسة ورضا.

دخلـت (عطاي) في تلك اللحظة، واسـتوعبت ما يجري بنظرة واحدة، فقـد لاحظـت علـى الفـور الملابـس علـى الأرض والفوضى علـى منضدة الزينـة، كما تنشّـقت على نحو لا ينبئ بخيـر آثار العطور المريبـة في الغرفة،

Twitter: @ketab_n

لكن سحنة الطفلة الهادئة جعلتها تكبح جماحها، إذ بدا أنّ عليها تناول الموضوع بعناية فائقة.

أخذت (عطاي) أولاً تكيل العتاب لزنوبيا لأنها حلّت الضفائر، التي ستضطر هي إلى إعادة ضفرها بكل جهد جهيد، بأصابعها التي عفا عليها الزمن وقد التهبت مفاصلها، لكن زنوبيا لوّحت لها بالرفض.

«فاعقدي شعري على الطراز الرومي إذن، (عطاي)، تماماً مثل شعر أمي حين تذهب إلى حفلات البلاط، إذ عليّ أن أعتاد ذلك في كل الأحوال، فزوجي الموعود، كما سمعتُ، مخبول بكل ما هو روميّ».

راحت تراقب العجوز من طرف عينها، لكن لم يبدُ البتّة على الأولى أنها لاحظت النبرة الحادة في كلامها، بل أخذت تمسّد شعرها بيدها المخشخشة وتتمتم «يا لكِ من طفلة عاقلة»، ثم ابتدأت تفرق شعرها في وسط رأسها، من جبينها حتى أول عمودها الفقري، تماماً مثلما تُحفر القناة في التربة السوداء. حدّقت زنوبيا إلى المرآة وقد برز جبينها بين إطارَي شعرها المتناظرين بتناسق لا يحتاج إلى تبرير. من الواضح أن أحداً هنا لن يندى له جبين من بيعها للأمير (أودَيناتَوس)، قالت في نفسها، والأمر كذلك حتى لدى (عطاي) التي طالما كانت تحميها. حسناً، إذن، سيرى الجميع ما سيجنون من ذلك.

أخذت تجرّب منظر قلادة فضية عليها، ثم أمرت (عطاي) أخيراً بتثبيتها في تسريحة شعرها، فراحت الكريات الفضية تتلألأ ببرودة على صدغيها، كأنها تذكير لا ينقطع بالتيقّظ.

«يا للروعة، يا قطتي الصغيرة!». حدّقت زنوبيا إلى المرآة الموجَّهة نحوها، فرأت امرأة جميلة حقاً بعينيها المظلّلتين بالكحل، ولم تجعِّد وجهها كما كانت عادتها.

«لكن لِمَ كل هذا التبرّج؟ هل تنوين القيام بشيء ما هذا اليوم؟». كانت زنوبيا قد اختارت لموعدها ثوباً من الحرير بلون البحر مطرّزاً بالنجوم، ما سينسجم مع الحدائق في الليل، كما سيحجب كتفيها اللتين طالما كانتا أنحف مما يجب. سيكون بمقدورها أن تمتطي حصانها إلى جانبه، بفضل الفتحتين الجانبيتين في الثوب.

Twitter: @ketab_n

«القيام بشيء ما؟»، تصاعد صوتها فجأة. «وبِمَ سأقوم؟ أردتُ أن أرى وحسب، كيف سيكون شكل أميرة المدينة الموعودة». كظمت الغصّة في حلقها. «لا ضير في أن أتبرّج محبةً بنفسي وحسب، ما دمتُ لا أروق لأحدٍ هنا والكل يضايقني بلا هوادة».

هذا الانفجار الذي ألفته (عطاي) لم يرحها، إذ ها هي الطفلة العزيزة النفس التي طالما عرفتها. ربما لا يزال ثمة أمل إذاً.

«لكن، يا قطتي الصغيرة، أنتِ تروقين لنا بالطبع، ووالدك فخور بك للغاية، ونحن جميعاً كذلك، فأنتِ أميرتي الصغيرة». ثم داعبت خدَّي الطفلة الجالسة قبالتها بإطراء، كما أخفضت رأسها برقة نحو حضنها، فلا بأس أن تشجّعها على البكاء كي تبوح لها بكل شيء. علاوة على ذلك، على زنوبيا أن تتعلم الخضوع لإرادة أبيها من الآن، فذلك لمصلحتها هي، قبل فوات الأوان. أخذت (عطاي) تتمتم لها جميع أسماء الدلع، وهي تكبت خوفها على محبوبتها، فترنّمت بفأرتي العسلية وبأميرتي وبغنمتي كذلك. لقد كانت هذه ترنيمة الأيام الخوالي التي تسبغ السلوان على كل شيء، وكانت (عطاي) تتمتم بها اليوم بورع الصلاة.

بيْد أن زنوبيا، وإن كانت قد سلّمت جسدها المتشنّج لهدهدة مربيتها، فقد أبقت عينيها جافتين ومفتوحتين على وسعهما. وحين ظنت (عطاي) أخيراً أن في وسعها أن تتجاسر وتفتح الموضوع الحيوي حول الشاب اليافع الغريب، ما كان من زنوبيا إلاّ أن كذبت عليها باختصار وحسم.

«آه، الصبي المغرور الذي رأيتِه بعد ظهر اليوم. يبدو أنه لم يقوَ على تحمّل سقوطه عن صهوة حصانه، فراح يتبجّح بقصص فروسيته المزعومة على كل من هبّ ودبّ. ما ذنبي أنه راح يخطب فيّ؟».

«مع ذلك، لا يجوز أن تتكلمي مع رجالٍ من خارج العائلة من دون أن تكوني بمرافقة أحد». لم يكن أمام (عطاي) إلاّ أن تعيد على مسمعها بضع نصائح تقليدية، وهي ما وعدت زنوبيا باتّباعها بكل انصياع، وذلك إلى حد راح يؤلم (عطاي)، فقد سكتتا عن كل ما يهمّهما. بعدئذ أشارت زنوبيا إلى (عطاي) بالانصراف، وذلك بإشارة خاصة بالبالغين، ثم

Twitter: @ketab_n

التفتت إلى مرآتها من جديد.

* * *

أخذت (عطاي) تبكي في طرفَي كمَّيها، فقدْ كان الذنب ذنبها تماماً كما هو ذنب الفتاة. لقد كانت (عطاي) تدرك أن الفتاة عنيدة أكثر مما يجب، وقد فوّتت على نفسها فرصة تلقينها الطاعة الضرورية للنساء كي يبقَين على قيد الحياة. لم تعد (عطاي) تفهم ما هي عليه، فإذا انكشف للجميع مدى خروج زنوبيا على الطاعة فستُرجم (عطاي) بالحجارة، ولربما كان في ذلك شيء من العدل. فقد كان من الواضح لها، وليس لزنوبيا، أن لحظة البلوغ هذه آتية لا رَيْب فيها، حين يولّي زمن الطفولة والاستحماء إلى غير رجعة، كما أدركت أن زنوبيا ستفشل في ذلك الامتحان العسير. أمّا الآن فقد بدأ عنادها يهددها هي وغيرها بالمكروه. لربما ما زال بالإمكان تفادي الأسوأ، فمسحت (عطاي) تجاعيد وجهها وهي تَشرُق أنفها، وتوجهت إلى غرفة ياسمين.

* * *

«ما معنى هذا الكلام؟ أتجرؤين على تهديدي؟»، صفقت ياسمين مرآتها على المنضدة وقد استشاطت غضباً وهي تنظر ساخطةً إلى زائرة الليل.

«أنا لا أهدّد أحداً»، قالت (عطاي) بهدوء مفتعل، «بل أقول إن من الأفضل أن يبقى الغوطي هذا المساء هنا في المنزل، وفي وسعك أن تتدبّري الأمر». «أنّى لي أن أفعل ذلك؟ هذا الطلب منافٍ للعقل. ثم لماذا أصلاً؟».

«أنتِ تعرفين تماماً كيف تفعلين ذلك، ولم يخفَ عني، يا ياسمين. فلنبقِ الأمور على ما هي عليه، اتفقنا؟». جالت عينا (عطاي) صوب غرف (زنوبيوس)، وأحسّت كأنها ممثلة فاشلة للغاية، لكن ياسمين زعقت فيها:

«انصرفي من هنا، أيتها الأفعى العجوز، خارجاً، خارجاً، خارجاً. انصرفي على الفور». دفعت ياسمين بهلعِ المربية المصعوقة صوب الباب، لكنها استعادت رباطة جأشها وهمست:

Twitter: @ketab_n

«لا بأس، سأكلّمه». ثم عاودت (عطاي) الوقوف في الظلمة.

أسندت (عطاي) ظهرها إلى الجدار وأخذت تميل برأسها إلى الأمام والخلف وهي تندب حظها بصمت. إلامَ سينتهي كل هذا؟ تُرى هل كان يُستحسن أن تطلب المفاتيح الخاصة بجناح النساء من (زِيمَه) كي تحبس الصغيرة فيه؟ لكن، ما تكتشفه (زِيمَه) سرعان ما يصل إلى مسمع (زنوبيوس) كذلك، ما جعلها تتصور رهبة عقابه المرير. لا، أن تراهن على خوف ياسمين من أن ينكشف أمرها أفضل بكثير من أن تثق بتكتّم (زِيمَه). بيْد أن الأمر ليس بالمستحسن في شيء، لا هذا ولا أي شيء آخر، فأجهشت بالبكاء من جديد.

* * *

حين غادرت زنوبيا المنزل بعد ذلك بساعات، بدا لها أن الليلة، بسكونها وصفائها، فألُ خيرٍ، فقد كان ضجيج يوم المهرجان، بعد منتصف الليل بزمن طويل، قد تلاشى، كما حلّ أريج الفواكه من الحدائق الآسنة محل روائح البهارات من السوق، وبدا للمرء أن خشخشة أشجار الليمون تصل إلى مسمعه رغم بعدها عنه. تنشّقت زنوبيا بعمقٍ قبل أن تغوص في ظل الزقاق الأزرق في طريقها إلى النهر. لمعت أسلاك ثوبها الفضية برهة في ضوء القمر، كما ظلت خطاها في التراب مسموعة، ثم اختفت.

لم تلحظ زنوبيا أن قامة (عطاي) المألوفة كانت قد غادرت البوابة بعدها بقليل كي تلحق بها على عجل، ثم تجفل في مكانها متصنّتةً قبل أن تواصل المطاردة. كما أنها لم تلحظ الشخص الثاني المتخفّي في الظلال، الذي توقف برهة أمام بوابة منزل أبيها قبل أن يطويه ظلام الأزقّة ما بين البيوت.

حتى (عطاي) لم تلحظ شيئاً من ذلك، فقد كانت جميع حواسها مركَّزةً نحو الأمام، وذلك على خطى زنوبيا التي حملت وقعها رياح الليل بعيداً حتى بدت كأنها قريبة منها، ولو أنها كانت تبتعد عنها بإصرارٍ موجع. علا نباح كلب ثم توقف، من دون أن يستجيب له أحد. تراكضت (عطاي) إلى الأمام ورأت الخيال النحيف وهو ينعطف، فركضت إلى ما قبيل زاوية الشارع، واختبأت في مدخل أحد البيوت، الذي تنامى من داخله ضجيج

Twitter: @ketab_n

مكتوم لموسيقى وضحكات بعض السكارى. أفزعها دغل خلفها.

لكن مطاردها كان قد لحق بها، إذ كادت (عطاي) ألاّ ترى كيف أمسك بها من ياقة ثوبها ورفعها بسهولة ثم قذفها صوب الجدار، فطقّ رأسها مثل جرّة الماء، فحشرجت وفارقت الحياة قبل أن تتكوّم عند أسفل الجدار.

علت ضحكة امرأة ثملة من خلال البوابة، بينما خطا الغوطي من فوق جثة (عطاي)، وراح يجول بعينيه باحثاً عن زنوبيا. أخذ يفكر في ما جعلها تخرج وحدها ليلاً، إذ لم تذكر ياسمين ذلك بتاتاً، حين همست في أذنه في الحديقة أن المربية تنوي إفشاء سرّهما.

لكن، ألم يتحدث ذلك العبد الساذج، يوم التقاه، عن نزهات سرية وخلوة عند النهر؟ كانت قد انعطفت صوب البساتين بالفعل، فابتسم. ماذا قال له ذلك الصبي؟ أن يتوجه على قدميه من تحت الطاحونة؟ إذن سيجدها بعد ذلك من دون صعوبة تُذكر، وسيكون سيده راضياً عنه غاية الرضا. ثم ألقى بجثة المربية الدافئة على كتفه، وغطى بقعة الدم الصغيرة المتبقية برفستين قويتين في التراب.

* * *

ظلت زنوبيا واقفةً وأرهفت السمع، لكن سقسقة الزيز بدت أشدّ من ذي قبل. كانت قد اضطرت إلى التوقف مراراً منذ أن انعطفت من الطريق الرملي إلى الحقول، فقد كانت تتلمّس دربها رغم سطوع ضوء القمر. كانت جميع الأدغال قد اتخذت أشكالاً مرعبة، كما كانت روائح العفن تفوح من التربة بين الفَينة والأخرى. كانت التربة طريةً تحت وقع خطاها، فلم تستطع أن تستشعر صلابة الأرض، وغاصت قدماها مراراً في التربة الرخوة، ما أثار اشمئزازها.

تُرى هل لامستها للتوّ ورقة أم فراشة ليل؟ مسحت ذراعها بسرعة، فراحت تشعر بالحكاك في جسدها كلّه، وكأن حشرات لا حصر لها قد راحت تدبّ فيها. لا يعلم أحد إلاّ الآلهة ماذا يصول ويجول هنا ليلاً، قالت في نفسها.

Twitter: @ketab_n

حين تعثرت في إحدى قنوات الري وتغلغل الطمى الدافئ في صندلها، انطلقت تعدو بتهوّر كالمهرة حتى توقفت عند ضفة النهر وهي تلهث، فأرهفت السمع. لا، لا تزال وحدها. كانت البرودة تتصاعد من النهر، ما جعل القشعريرة تدبّ في ظهرها، لكن لمعان الهواء المتسارع أمام عينيها جرّاء عدوها عاد فتبدّد وتعرّفت من جديد على أمواج عناقيد البراعم السوداء المعهودة أمامها. أخذت تمسّد القشعريرة في جلدها بتؤدة، لكنها سمعت طقطقةً في الأدغال خلفها على حين غرّة، فراحت تحدّق إليها من دون حراك، حتى أصابها الدوار من شدة التحديق إلى الظلمة، ولم تَرَه حتى صار واقفاً أمامها مباشرةً.

قالت، «مرحباً».

قال، «مرحباً»، ثم أضاف: «أينتابكِ الخوف؟».

هزّت رأسها بالنفي تلقائياً، فما كان منه إلاّ أن وضع ذراعه حولها من قبيل الحماية وجرّها نحوه. لقد كان ذلك لطيفاً، قالت في نفسها، ثم ضمّته إليها على نحو يكاد لا يلاحظ. لم تعد تعرف كيف توصّل إلى تقبيلها، لكن رأسها كان قد مال فجأةً حتى لامس كتفها وكان فمها مفتوحاً تحت شفتيه، وبدا لها كأنها كانت على هذا النحو طوال عمرها. ماجت الأرض بها، وبدا لها ذلك كأنه ابتهاج جسدها برمّته بما كان يدور مع الصبي، فما أهمية أن يتيبّس عنقها والحال كذلك؟ أبقت لسانها ملتصقاً بلسانه، وحين لم يكتفِ الصبي بتمرير أصابعه على ثوبها وأخذ يشدشد ياقتها بفارغ الصبر، دفعت كتفيها إلى الأمام قليلاً، ما سمح له أن ينفذ من تحت القماش، حيث أمسك بصدرها، فاقشعرّ بدنها وقبّلته بحرارة بالغة.

نبّهها تيار هواءٍ بارد حول ساقيها أنه كان قد شمّر ثوبها أثناء تمسيد فخذيها، ثم ألقى يده الساخنة على رِدفَيها وعصر كلاً منهما كأنه يتفحّصهما. وأخيراً حملها من أسفل مؤخرتها، بينما كان فمه ملتحماً بعنقها، فالتقطت أنفاسها من فوق كتفه ومسحت فمها المبلّل خلسةً. راحت أسراب من الفراشات تحلّق في جوفها، وحين أنزلها، اتكأت على جذع نخلة، فأسندت رأسها عليه ممتنّةً، ورفعت شفتيها نحوه، لكنه لم يعد يبحث عنهما، بل

Twitter: @ketab_n

كان منهمكاً برفع طرف ثوبها الأمامي. أخذ جذع النخلة الخشن يخدش عُصعُصها العاري، فدفعت جسدها صوب الشاب كي تفصل لحاء النخلة عن جلدها بشيء من قماش ثوبها، واستشعرت أثناء هذه الحركة خفقاناً حاداً على فخذه، فصفقت الفراشات أجنحتها في جوفها على نحو فوضوي غريب، فأسندت ظهرها وقد وهنت ساقاها. فارق أولاً ساقيها بعضهما عن بعض بركبته، ثم تلمّس مهبلها بيده، وأقحم إصبعه فيه بخشونة، كأنه يتفحّص طريقه، وتحوّلت الفراشات في جوفها إلى وطاويط انطلقت تحلّق عالياً وهي تزعق.

«أوّاه»، أنّت على نحو خفيض كي لا تغضبه بشكواها، بينما أخذت تحاول أن تدفع ساعده بعيداً عنها من دون أن تجلب انتباهه، بيْد أنه قبّلها مجدداً وهمس على عجلٍ قَسَم الغرام في أذنها، بينما كان يطلق قضيبه من مكانه ويدفعه بين فخذيها، حيث كان ساخن الملمس على جلدها، فأطبقت ساقيها عليه وقد تملّكها الهلع. علا أنينه، وتلمّست يده طريقها إلى مؤخرتها وباعد بين ردفيها، رغم أنها كانت قد أدارت جسدها بعيداً عنه، وأقحم قضيبه فيها، ثم حشرتها دفعةٌ من فخذه في جذع النخلة، ما جعل لحاءه المسنّن ينغرز في ظهرها.

«كلاّ، اتركني. هذا مؤلم. أوّاه، لا أرغب في شيء من هذا، توقّف على الفور». راحت تحاول أن تصدّه عنها بكلتي يديها، بكل ما أوتيت من قوة، فيما أخذ هلعها يتزايد. أخذ الهمس في أذنها يتحوّل إلى لهاث، كما تحوّل الضغط المزعج في مهبلها فجأة إلى وجع حاد ما لبث أن اشتدّت حدّته أكثر فأكثر بفعل دفعاته المتلاحقة، ثم ما لبثت أن شعرت أن رجّةً ما حرّرتها.

ترنّحت خلف النخلة، وتعثّرت، ثم سقطت، وأخذت تحدّق إلى المشهد أمامها- وهي تركع على أطرافها الأربعة- حتى أدركت أن الغوطي هو الذي انتزع الشاب عنها وأمسك به من عنقه، بينما قبض عليه رجلان آخران، ودار صراع عنيف راحت زنوبيا تتابعه بانشداه.

يا أللاّت، لا تجعلي (گاش) من بين الحاضرين -أخذت تدعو وقد غلبها الحياء على حين غرّة، فشدّت ثوبها كي يغطّي مؤخرتها- لقد كان

Twitter: @ketab_n

الخـوف من شـقيقها أول ما خطـر في بالها فـي تلك اللحظة. اقتـاد الغوطي الشـاب المنتفض- ممسـكاً إياه من شـعره وقد كمّموه كي يكتموا صراخه- إلـى حيـث كان ينتظره رجلان آخـران وهمـا يمتطيان صهوتـي حصانيهما، وذلك بسكون، ما جعل زنوبيا لا تلاحظهما حتى الآن.

حَبَت زنوبيا بين الأدغال إلى الأمام بعض الشيء، فقد كان شكل هذين الرجليـن مألوفاً لديها؛ فأمّا الرجل الذي كان جالسـاً في ضوء القمر من دون حراك- وقد رفع رأسـه كما لو أنه لم يكن له شـأن بما يجري من حوله سوى مراقبـة النجـوم التي كانت تدين لـه ببريقها الليلي- فقـد كان ذاك أباها. وأمّا الرجل الثاني الذي كان يكبح جماح فَرَسـه فقد كان (گـاش)، فكبتت زنوبيا صرخةً في أعماقها.

همـا لا يريانني، بـل ليـس فـي وسـعهما أن يريانـي، أعادت مـراراً في نفسـها وفرائصها ترتعد، لكن حين يجدانني سـيعاقبانني بـلا رَيب، فتملّكها الهلـع مجدّداً، ثـم راحت تزحف علـى بطنها إلى الوراء مبتعدةً شـيئاً فشـيئاً عـن النهـر وهـي تتخنّـق بعبراتهـا، حتى تـراءى لها أنهـا نأت بمـا يكفي كي تنتصب واقفة، ثم ألقت نظرة أخيرة إلى الوراء ورأت شـقيقها وقد لكز جنبي فرسـه بعقبيـه كيْما تعـدو، وتقافز خلفه جسـد كبير كأنه كيـس على الأرض، فانطلقت بسرعة فائقة.

لامس الغوطي كتف أبيها برقة وأومأ إلى ابنته الهاربة.

«دعها وشـأنها»، زمجر (زنوبيـوس) وهو ينتفض مـن غيظه المكظوم، «فإلى أين ستذهب؟ أحضرها لي لاحقاً، فلو خطوت قبالتها الآن لقتلتها».

* * *

كانت زنوبيا لا تزال تتخنّق بعبراتها حين أخذت تطرق بقوة بوابة مخزن (كلَيمَنْـسْ) للحريـر، إذ كانـت تعرف أن من عـادة (أودُو) أن ينصب فراشـه الليلـي خلـف رزم القمـاش المخزونة هنـاك. بيْد أن (أودُو) لـم يكن هو مَن فتح لها البوابة أخيراً، بل كان ذلك سـيده (كلَيمَنْسْ) الذي كان منهمكاً بجرد محتويـات مخزنه، فرفع مصبـاح الزيت بارتياب وهو يلقـي الضوء على فتاة

Twitter: @ketab_n

يافعة كانت مِزَق ثوبها تتدلّى عن جسدها، ودموعها تسيل فتغمر وجهها الملطّخ بالوحل والكحل. أمّا هي فقد ظلت واقفة في مكانها.

«زنوبيا»، صاح (أودُو) الذي نفذ من تحت ذراع (كلَيمَنْسْ) وأمسك بيديْ صديقته، لكنه عندما ظلّت متسمّرةً في مكانها، راح ينشج هو الآخر.

«ما بكِ، يا زنوبيا؟ أرجوكِ، تكلّمي. لم تبكي يوماً، فالبكاء ليس من عادتك».

«أتعرفها إذن؟» سأله (كلَيمَنْسْ) وقد أعاد اسمها إلى ذهنه ذكريات كئيبة، لكنه أراد أن يتيقّن من الأمر.

«نعم، هذه صديقتي زنوبيا، ابنة آمر المدينة، وعلينا أن نساعدها، إذ لا بد أن أباها قد أساء معاملتها مجدداً، لذا لا بد أن ندخلها البيت». تسارعت كلمات (أودُو) حتى كاد بعضها يندمج ببعض، وهو يجرّ زنوبيا نحو الباب في اتجاه (كلَيمَنْسْ)، فراح تاجر الحرير يراقبهما بحنوٍّ.

«لكن ذلك لا يجوز»، قال ذلك بهدوء وبداهة، ما أوقف زنوبيا عن البكاء، وأنزل عليها السكينة. لقد كان الرجل على حق، فقد كان الأمر غير مُباح فعلاً.

ابتدأت تسمع خطى الغوطي وهي تعلو خلفها، وأحسّت بيده على كتفها وهو يجرّها خارج دائرة الضوء الدافئة المحيطة بهذين الانسانين، وكان (أودُو) آخر شيء رأته، وهو يحشر وجهه المتحيّر في أعلى فخذ (كُلَيمَنْسْ) الذي راح ينظر إليها بعين العطف، فظل واقفاً في إطار الباب رافعاً مصباحه حتى غابت عن نظره.

* * *

رأيتكَ يومها، يا صديقي، للمرة الأخيرة أمام مخزن الحرير، وبدا لي كأنك تذرف كل دموع الطفولة التي لم أعد أقوى على ذرفها بنفسي. أمّا ما حصل بعد ذلك فلم يمتّ بصلةٍ لحياتي التي عرفتها حتى تلك اللحظة.

فقد أحضروني إلى كوخ في مكان ما من التلال إلى الشمال الغربي من تدمر، وحين نظرتُ خلفي كانت خطوط الفجر الفيروزية بادية للعيان

Twitter: @ketab_n

بيـن أبراج الأضرحة أمام المدينة. لـم يكن ذلك الكوخ الذي رموني فيه أكثر من كشـك: فقد غطت الأرضَ الرمال، وكان في وسـعي أن أتعرّف على آخر النجوم مـن خلال جدران الأماليد المجدولة كيفمـا اتفق. أدخل لي أحدهم شـيئاً من الخبز والمـاء وجرّةً للتغوّط، وتبيّن لي لاحقـاً أن تلك كانت مهمته اليومية، لكنني لم أرَ منه يوماً شيئاً سوى يديه القذرتين وظلّه من خلال جدار الأماليد.

ثـم ابتعـدت الخطى، وأمسـيت وحدي مـن جديد، وحدي فـي الليالي التي بدت على وتيرة واحدة وهي تعجّ بسقسـقة الزيز، وبخطوط الضوء التي مـا فتئت تحبـو على الأرض طـوال النهار، فظللـتُ أحدّق إليهـا، إذ إن هذه الخطوط كانت تحبو ببطء مفرط. كنت آكل وأشـرب كل ما كانوا يحضرونه لـي، كما رسـمت إحدى عشـرة خدشـة فـي الأرض، ورحت أمحـو واحدة منهـا كل صبـاح، فقد كنـت أدرك أن اعتقالـي لن يدوم أطول مـن ذلك؛ فإذا لـم يأتني الحيض حتى ذلـك الوقت، وأدوني، وفي هذا المـكان بالذات في غالب الظن، إذ في وسعهم أن يمرّروا على أميرٍ عروساً قد فضّت بكارتها، أمّا عروس حبلى، فذلك أمر آخر. لذا ظللتُ أنتظر، وأرقب الظلّ، وأعوّد نفسي على تحمّل الذباب على جلدي من دون أن أحرّك ساكناً.

فـي الصباح الذي وضعت فيـه مِزقةً من ثوبي مبقّعةً بالـدم على الجرّة، راح أحدهـم يحدّق إليّ من خلال الجدار المجدول، وبهذا رحلت عن ذلك المـكان، وأعادونـي إلـى داري بعد ثلاثة أيام، وأُشـيع عني فـي المدينة أنني كنت قد شفيت من داء خطير ألـمّ بي، فأرسل لي الأمير الهدايا.

هكـذا مـرّت ثلاث سـنوات، ولـم يبق أي شـيء على حالـه، يا صديقي العزيز، لا سيّما أنا نفسي.

Twitter: @ketab_n

2

الأمير

استراتيجية

رقدت تدمر تحت الشمس هادئة ومتوهّجة كما في الماضي. ولم تحرّك اية نسمة هواء بساتينها، ولا بعثت اية خطوة الحياة في الرواق، أما قصر (أوديناتوس) فشمخ عالياً مشعّاً أبيض كبريق أمواج المرمر على صخوره، لا يُسمع فيه سوى حديث النوافير في فناء داخلي، يمنح الغرف المحيطة شيئاً من البرودة، غير أن الرجال المجتمعين في الحجرة الصغيرة المجاورة لم ينصتوا.

... «ونصر تدمر رائع، أصدقائي النبلاء. لقد أعدنا إلى شرق الدولة وجهه. نظر (أوديناتوس) وهو يلقي هذه الكلمات بعمق في عيون قادته. نشر أصابع يده اليمنى بحركة سلطوية على خارطة تحت أنظارهم مشيراً إلى سوريا وكابادوكيَن، من دون أن يشير إلى نقطة محددة، إذ لم يكن هناك موقع آخر يمكن للجيوش الفارسية أن تصمد فيه أمام فرسانه، كان الاقليم بالكامل تحت سيطرته. فمنطقة مسيطر عليها بسعة تدمر لم يملكها أحد من قبل.

مرّر يده اليسرى تلقائياً على وجهه وهو يتكلم. حرارة شمس المعارك أحرقت بشرته بشدة وحوّلتها إلى سمراء، وتوهجت ندبة امتدت افقياً فوق خده، من عينه حتى زاوية الفم، حيث لم يستطع سيف (فورودس) حمايته في الوقت المناسب من ضربة الجنرال الفارسي. غير أنه انطلق ووجهه مخضب

Twitter: @ketab_n

بالدم إلى خصمه فألقاه أرضاً، وقطع رأسه ثم أمر أن يُحمل على حراب قواته التي طاردت الفرس في هذا اليوم البهيج، فهربوا زرافات ووحدانا. وللذكرى شق قائد المدينة خطاً هلالياً بطوله، وكان في غاية الرضا لهذا الانتصار، نظراته التقت نظرات قائد الجيش البارتي في ذكرى انتصار باسمة.

بدا (دوميتسيان)، في منظره الجانبي، وجلاً من المشهد، وهو يطرق رأسه محدقاً بالخارطة. هناك كانت (ليمس) القديمة، وهنا (كارهاي)، وفي مكان ما بينهما اختفى (بالبوس)، واختفت كل آماله. كان لـ(سنديكوس)- المستشار القانوني- الروماني دور غير مريح. إسمياً كان ما زال ممثلاً لرجال الحماية العليا، ولم تعد روما هي من تلتمس الحماية. وجه امير تدمر الممزق لم يعد الوجه القديم للأمبراطورية الشرقية، بل فوق ذلك صار مثيراً للفزع وجديداً وواثقاً من نفسه، ومن إبنه (حيران) الذي ما زال صبياً، ولم تظهر له لحية بعد، وقد اكتسب تحت قيادة (فورودس) أولى خبراته القتالية، فازداد حماسة، إلى جانب الهدوء الناتج عن رضا والده عليه، ولم يعرف حدوداً لمجد تدمر. ما زال (گاش) الكريه يقف أمامه، إلى جانب والده المكتئب، الآن هو بطل حرب وقريباً صهر الحاكم المستقل. لم يصبح الوضع تحت سيطرته حتى الآن، وما عليه إلا الانتظار.

قدّم الخدم نبيذاً خفيفاً وهدأت الجولة، بينما قدم (أوديناتوس) أثناء ذلك عرضاً لكل الانتصارت التدمرية، ليجعل خططه المقبلة أكثر تقبُّلاً. تحدث وشرب بشغف ولم يُلحظ عليه أي أثر توتر أثناء ما كان يراقب ضيوفه. ثمة خصم بولغ في حساب قوته كان قد ركع أمام أمير الولاية، وجيوش فرسان البدو كانت تسيطر على الشرق الروماني: إنه حقاً سبب يدعو إلى الارتياح. غير أنه بدا واضحاً أن (نيسا) نسيب زنوبيا، الذي شارك كممثل للتجار و(ديكابروتن) في الجولة، كان لديه تحفظ. لم يعرف أحد حتى الآن كيف سيكون رد فعل الفرس على هزيمتهم. وكان كبار التجار يخشون على قوافلهم، فلم تكن الحرب نافعة لتجارتهم. إلى جانب (ديكوس) كان (نيسا) الوحيد الذي لم يظهر في الزيّ العسكري، وقد أضفت عليه قامته الفارعة ورشاقته وهو يرفل في الجلباب التدمري أناقة كادت لا تخلو من تلميحات

Twitter: @ketab_n

وسط الهيبة العسكرية لمواطنيه. (دوميتسيان) كان ينظر باهتمام: هذا الرجل وحزبه قد يصبحان مهمَّين له إذا ما توسع نفوذ (أوديناتوس) أكثرمما يجب. وقد يهدد روما التي اهتمت به ورعته. ولم يخطر بباله أن (نيسا) بالذات سرعان ما سوف يشكل خطراً عليه. لذا كان سعيداً للغاية حين وجّه قائد القافلة الكلام إليه:

«(سنديكوس)، أثناء واحدة من رحلاتي التجارية والتي قادتني أيضاً إلى كارهاي، وجدت شيئاً أظنه يعود إليكم»، أشار للعبد موجهاً طرفه إلى قارورة النبيذ ليدير له المزيد منه، ونظر باهتمام إلى معجنات العسل الكيليكية في الطبق الفضي بينهما، مديراً وجهه ثانية إلى محدثه: «لذيذة هذه الكعكة، مدّ يدك. إنها بلا شك واحدة من أحسن اكتشافاتنا الجديدة لنوعيات فاخرة. فلقد بيعت (كيليكيَن) بسعر مقبول. وهي في المناسبة واحدة من ثمرات زياراتي».

أخفى (دوميتسيان) فضوله خلف ابتسامة رضا: «لكن بالتاكيد ليس هذا ما أردتم إخباري به؟».

«أنا في الحقيقة قصدت غير هذا، المعذرة. انظر يا (سنديكوس)، رحلاتي تمرّ دائماً بخيام البدو. أنا أستمتع بضيافتهم وبثقتهم، وهم يقدمون لي في الغالب أشياء (رسم بيده شكلاً بيضوياً فارغاً في الهواء) ثمينة إلى درجة لا يمكنك أن تقدر ثمنها في هذه البيئة البسيطة. الوقت جرف الكثير من خيام أطفال الصحراء. أتفهمون؟».

«أنا أفهم، أنا أفهم. لكنني أفتقد في كل حال حصاناً ثميناً جداً، ربما قد سمعتم بذلك. حصاناً أبيض رائعاً له غرة هنا. المفروض...».

«للأسف... لم يكن بأربع قوائم، ذلك الذي وجدته، ولم يعد هو الآن ذلك النموذج الرائع». مسح (نيسا) متأملاً على لحيته الأنيقة التي أطلقها ثانية بعدما حصل، مرة جديدة، على وظيفة كاهن عند الينبوع، وابتسم عندما تذكر اللحية الكثة كالغابة، وكان قد عرض عليه أقرباؤه افتداءها بشيء ما.

«الجندي الروماني اسمه (بالبوس)، وإن لم يكن في حالة مُرضية»، (دوميتسيان) أراق شيئاً من النبيذ على معطفه. «(بالبوس)! فشل أول الأمر

Twitter: @ketab_n

في تنفيذ ما عليه، وبعد ذلك تجاوزه بشكل معيب».

«كنت رأيته مرة معكم أمام القافلة الطويلة، فظننت أنكم قد تجدون فائدة ترتجى منه».

حاول (دوميتسيان) أن يتماسك. «هذا، هذا لطيف للغاية.

خسائركم... سوف تعوّض لكم بالطبع». طوى بردته وأخفى بقع النبيذ، وسأل من دون أن يرفع ناظريه: «ألا تعرفون ولو من طريق الصدفة كيف تم إيجاده؟». هزّ (نيسا) كتفيه أسفاً:

«هذا ما ستسألونه بأنفسكم، وسأبعث بطلبه في الأيام المقبلة». شُكر (دوميتسيان) الودي قوبل بهتافات حماسية، تبعها استعراض النصر على شابور من قبل (أوديناتوس).

وتابع: «قوة شابور الرئيسية هربت أمامنا في اتجاه الفرات. وبقيت مجاميعنا تراقب لعدة أيام آثارها، وكيف ولّى هذا الجيش الرئيسي القوي هارباً يسابق الغبار، متوجهاً نحو النهر. ترك الجرحى خلفه، وعربات الإمداد والتموين على جانبي الطريق. وقد حاول بكافة السبل الخلاص منّا لكنه لم يفلح، إذ صار تحت سيطرتنا». وضرب بقبضته بشدة، «فطوقناه وطاردناه إلى النهر. فرسانه غرقوا في الجرف الطينيّ، فأطلقنا عليهم ما في جعبتنا، كأننا نصطادُ بطاً. أما هو فهرب كما يهرب الضبع أمام الأسد مولولاً إلى أن سقط في الماء. كانت حالته مزرية، حتى أنه نسي أن يأخذ حريمه معه. لم نكن نفكر في اصطياده بل في سحبه من قارب كان يقوده. وكان بصحبته عدد من الخصيان حمر الوجوه داروا حول أنفسهم من الخوف».

قال (نيسا) ساخراً: «يبدو أن الفرس اعتادوا هذا، وقد قدم (داريوس) المعروف ذاته إلى الاسكندر الكبير في حينها». ابتسم (گاش) وضحك مع الآخرين ومن بينهم، على الأخص، ابن الامير الشاب، الذي ظهر عليه الغرور. كان هو الذي كوفئ بشكل غير اعتيادي لمشاركته الأولى في القتال. غير أن (گاش) لم ينسَ الأشرطة المرفرفة والبراقع، التي ظهرت آنئذٍ أمام (هاركاي) لبرهة بين الخيام، وقد استحوذت عليه الرغبة مرة أخرى. كان السفير إلى شابور. ولم يكن قد خسر منذ ذلك الوقت معركة، ولم يكن هو

Twitter: @ketab_n

ذلك الرجل بعد. ولم ينسَ كيف كان لحم الفرس يلمع آنئذٍ...

«يا (گاش) النبيل»! فجأة نظر إلى الأعلى حين خاطبه أميره، وباليد التي كان يمسك قدح النبيذ أشار إليه:

«أمارات الهم على وجوهكم تشرّفكم، إذ، في الحقيقة، بينما كنا هنا نسرف في الطعام والشراب لم يكن العدو قد هُزم بعد. انطاكية تقع على مقربة من هناك. وانتم يا (گاش) سوف تحررونها. وقد حسبتكم ترغبون في مقابلة المرتد (ماريانس) الحاكم هناك مرة أخرى. لاتزالون بالتأكيد تتذكرون. لقد التقيتم به عند شابور».

غمرت (گاش) موجات من الارتياح، شعر بها وهي تنبعث من أبيه الصامت. «سوف أملأ فم ذلك الخائن بأوراق الغار التي رماها إليّ ذات يوم».

أومأ إليه (أودیناتوس) برأسه مؤيداً وأضاف: «لا تزال لدينا مشكلة باقية بلا حل، سادتي القادة، اسمها (ماكريانوس)».

وسُمع صوت به بحّة يقول: «لم أدرِ لماذا يجب أن تكون هذه مشكلتنا». كانت هذه الكلمات هي الأولى التي نطق بها (زابداس) في هذه الجولة. حتى هذه اللحظة كان ذلك الجنرال العجوز، ذو الشخصية الجافة، جالساً هناك، بوجهه المثلّم، يتطلع من خلف أكتاف المجتمعين إلى نقطة ما في الحديقة. ثم نظر إلى وجه سيده العجوز ذي العينين المبلولتين الباهتتين بشكل لافت للأنظار.

حينها أسرع (دوميتسينان) بالقول: «أتريدون إيضاح ذلك أكثرلنا أيها الجنرال؟ ربما يمكن القول إن رغبة كل أتباع روما هي مطاردة الخونة باسم القيصر ومعاقبتهم». صدرت من (أديناتوس) إشارة تهدئة إلى (دوميتسيان) أن يرتاح على كرسيّه. غير أن العجوز لم يستجب للاستفزاز.

«انا محارب يا (سنديكوس) وأفكر كرجل حرب في أنه سواء عندي أن يعلن (ماكريانوس) نفسه قيصراً على شرقي روما أو لا. ولا يهمني أن يطلق على نفسه ابن الشمس. ما يهمني فقط هو أن يطرد الفرس من الشمال إلى الفرات. ولماذا نقف في طريقه؟ ولماذا نخلق عدواً ثانياً قبل أن تتم هزيمة

Twitter: @ketab_n

ذاك؟ فالمحارب لا يتعامل بغباء هكذا». وبحركة حماسية رفع كل الحجج المضادة إلى الطاولة.

«ماذا تقترحون إذا؟»، سأل (أوديناتوس) برقة وهدوء. العربي ذو اللحية الرمادية لم يفقد شيئاً من طموحه المتعاظم: «أيها السيد قد تعلمتم شيئاً مني، وهو كيف يتعامل المرء مع السيف. انا أطأطئ رأسي الأبيض أمام ذلك التلميذ الذي تفوق بجدارة على معلمه. لقد جعلتم هذا الكهل فخوراً بانتصاراتكم. ولهذا يتجرأ تذكيركم بالماضي القديم وينصحكم. دعوا (ماكريانوس) يقاتل من أجلنا تحت أي اسم يشاء».

«وماذا بعد ذلك؟»، قال (أوديناتوس) بلطف، وانتصبت قامة الزعيم النحيفة:

«والان، فهو ليس أول قيصر جنّب روما نزاعات على الحدود. سيرى المرء من الأقوى: هو أم الإبن (فاليريانس)؟ والأمر ليس لتدمر أن تقرره». هذا ما كان يخشاه (دوميتسيان). أمسك كأس النبيذ بتوتر، وبينما هو يشرب كان يتفحص سمات وجوه الآخرين. فقد كان يهمه قبل كل شيء معرفة ردة فعل الأمير.

ضغط (أوديناتوس) بقوة على كتف ولده ليردّه عن تسرعه، ويثنيه عن رغبته في الحديث، هذا ما كشفته أيضاً نظرة (گاش) المتحمسة، في أنهم قد يحسبون تدمر مؤهلة لتقرر وحدها الاستمرار في تحديد مصير روما. لم يلحظ إيماءة (نيسا) بالتأييد، فقد كان عارفاً أن التاجر يرحب بالحديث عن أي سلام. هذا شأن (نيسا) و(زابداس)، وتلك تدمر المعروفة. ابتسم بزهو:

«صديقي النبيل، كيف لي أن أنسى ذلك اليوم، حين أخذتني بيدك وسلمتني سيفاً خشبياً وعلمتني، أنا الذي كنت صبياً، أولى الضربات ضد الخصم. وحق اللات، كل مسكة فنية وكل بقعة زرقاء في هذه السنوات أنا مدين بها لكم». ابتسموا بأدب. «ولكن حتى تحذيراتكم المتكررة لا أزال أحتفظ بها في مسامعي، إذا حسبت نفسك منتصراً تأكد من حماية نفسك، والآن تريدون أنتم بالذات أن تنصحوني لأُسلم تحت شمس هذه المعارك حماية جناحي إلى خائن؟ فهو بالتاكيد ليس أكثرمن خائن، هذا (ماكريانوس)

Twitter: @ketab_n

، لص وكلب خائن لسيده. إنه ليس الرجل الذي يصلح لنا، (زابداس) لا يمكن أن يكون».

ترك كتفيّ الزعيم الذي استولى عليه القلق. تركهما، وكان قد أمسكهما وهو يقول تلك الكلمات، ثم توجه ثانية صوب حلقة المجتمعين:

«لم يكن القيصر (جالينوس) يستحق هذا منا. أنا الأمير، ووريث أسرة أبي، لا أستطيع أن ألطخ أميراً آخر بمثل هذا العار، أيها الأصدقاء».تبادل (نيسا) و(زنوبيوس) نظرات مفاجئة. وريث الأب؟

لقب أمير المدينة كان في الحقيقة منذ أجيال بيد الأدوناتيين، لكن لهذا السبب لم يكن للتوارث. الديكابروتيين وحاكم المدينة الذي ينتمون هم إليه كانوا هم الذين بتأييدهم ثبتوا أول الأمر كل حاكم جديد. هذا العرف مسحه (أوديناتوس) في هذه اللحظة بجملة واحدة. نبيل المدينة سوف لن يريحه هذا. أسرع (دوميتسيان) ليدلي برأيه قائلاً إن (جالينوس) يقدر هذه اللمسة الودية بتشريفه بلقب حاكم الشرق وقائد قوات الفرق في الشرق كافة، هنا ارتفع حاجبا (نيسا) عالياً.

لاحظ (أوديناتوس) ذلك وقال: «(زنوبيوس) ستكون في القريب أقرب أقربائي، قولوا لابنته غداً ستكون السيدة الأولى التي يجب أن تعتلي العرش إلى جانبي. أم أنكم تريدون أن ترون صهركم بلا تشريف». ابتسم (نيسا) برقة تحت شاربيه الكثيفين، حين رأى صهره متردداً حائراً للحظة، قبل أن ينحني بصمت بإيماءة أمام (أوديناتوس). تجنب (زابداس) العجوز نظرته النافذة. بالتأكيد كان يظن (نيسا) أن هذه السياسة ذات شأن، وليست لك أيها المحارب البسيط. ثم لاحظ نظرة أميره تستقر عنده، فارتشف بلا مبالاة جرعة أخرى من النبيذ. كان قد قرر أن هذه اللحظة ليست مناسبة للاعتراض، غير أن عليه أن يطالب بشيء، ومن أجل أن لا يثير شكوك (أوديناتوس) عليه أن يطالب بما قد يفرّح حاكم المدينة.

«بلاشك» قال بعدئذٍ، وتوجه بكلامه إلى (دوميتسيان): «سيتفهم قيصركم الكريم أن تدمر ستقبل خزينة الحرب الرومية، التي كانت آنئذٍ تحت إدارة (ماكريانوس) اللصوصية». تنفس (سنديكوس) الصعداء، إذا

Twitter: @ketab_n

كانت هذه مكافأة (نيسـا) على موافقته، فسيكون الأمر أكيداً. وسـيدعم هذا (بالبوس). ضرب (أوديناتوس) عمَّ زوجته المستقبلية بعنف على كتفيه:

«وأيـن سـتكون مرتاحـة أكثر مـن أن تكـون بيـن أيديكـم المعروفة، يا (نيسـا). والآن فالأمر واضح إذاً. سـأكون بنفسـي إلى جانب (زابداس) ضد (ماكريانوس). إنه ملقى في (هيميسـا) مكبـلاً بالقيود، حيث القوات الرومية موحـدة تحـت قيادتي. (گـاش) أنتم سـتجلبون رسـالة النصر مـن أنطاكية. لكن في البداية أيها الأصدقاء سيتم الزواج. غداً هو اليـــوم». وصفق بيديه. «النبيذ، قدموا النبيذ هنا عند (بل). وأين الراقصات؟».

خيم الصمت على الحضور، الكل شرب وغرق في التأملات. وسرعان ما اختلط مع خرير ماء النافورة عزف نايٍ صارخ.

Twitter: @ketab_n

عطر العريسين

«هل حصلت على الرمح؟». أسرعت (زيمه) إلى (گـاش) قلقةً والتقته عنـد البهو وهـو قادم، لكنه هزّ رأسـه بانزعـاج، وعقل قبـل أن توقف جواده ونـزل. «لا يمكـن الحصول فـي المدينة الملعونة على الرمـح الذي تريدينه. اتركـي هذا أخيراً يـا أمي». غير أن زيمـه رفعت يديها: «مـادام (أوديناتوس) هكـذا يهتم بالأعـراف الرومانيـة، إذاً يجب أن تسـير الأمور بشـكل صحيح وبحسب الأصول... ما لك يا جوادي الصغير؟».

دخلـت زنوبيـا القاعـة مسـرعة وهي تمسـك فستان العـرس الصوفي الأبيـض بيسـراها، وباليمنـى حزمـة من خيوط صـوف حمراء. «ألـم تجدوا الرمـح بعد؟» وعلى جبهتها لمعت قطرات عرق كأنها لؤلؤ وارتجف صوتها بريبـةٍ، لكنها حين تكلمت كانت مصرةً على أن تتماسـك ما اسـتطاعت. لقد عقـدت العزم، على عدم إضاعـة الصّميم الروحي الحامـي الذي كان يحيط بها في السنة الماضية قبل الحدث الكبير، ذلك الحدث الذي من أجله أبقاها الناس الذين كانوا يوماً من الأيام عائلتها على قيد الحياة.

وقالـت «أنتم أنفسـكم تعلمون أن في تدمر لم تحدث مبـاراة قتالية منذ شـهور طويلـة»، واصلـت، «أكثر مـن صـراع حيوانـات». «كلا، كلا، كلا»، قاطعتها زيمه فوراً، «يجب أن يكون ثمة رمح سبق أن قُتل به مقاتل. هذه هي متطلبـات الأعراف الرومانية، يا غاليتي»، أطلقت هـذه الكلمات على جناح السرعة، بحماسة لا تخلو من كبرياء تضيفها إلى معرفتها.

هنـا فقد (گـاش) صبره نهائيـاً ليقـول «إذا كان لا يمكن الحصول على هذا الرّرر...مح، يجب أن يُكتفى بسلاح آخر قاتل، وأخيراً فهي ليست سوى عروس من طبقة أدنى. هلمّوا إلى هنا».

Twitter: @ketab_n

مـع هذه الكلمات سـحب سـيفه. أسـرعت زنوبيـا إليه، ووقفـت أمامه مطرقة الرأس. وبشـيء من الرضا نظر (گـاش) إليها، إذ نادراً ما رآها من قبل منكسـرة مثـل هذه المرة. لكنـه تذكّر أن أيامها الصاخبة قـد ولت. ولا بد من القـول إنه هو من سـاهم في ذلك. ونظـر إليها مرة أخرى: لـم تأخذها رجفة لتكشـف عما أضمرت. فرفع سـلاحه ومرره على مفرق شـعرها -وكان هذا من التقاليد الرومانية القديمة.

لـو أن هذا النصل فصـل جمجمتها، لكانت زنوبيا أكثر سـعادة. وهكذا كان عليهـا أن تتحمل بعض التلميحات السـاخرة بحذر، منذ لامسـت ذؤابة السـيف البـاردة رقبتها مـن الخلف حتى مفـرق شـعرها. وعاهدها (گـاش) هامساً: التأجيل لا يعني الإلغاء. النظرة التي رمقها بها في عينيها، حين رفعت رأسها ثبتت عندها العهد. ثم هزت كتفيها وصـدّت عنه.

يـوم تمـوز الذي عـدّه القس المسـؤول عن (بـل)، بعد تجنـب الثمانية وثلاثيـن يوماً التي تجلب النحس بحسـب التقويم الرومانـي، هو يوم عرس مثالـي، يوم اختـرق بحرارتـه المتوهجة سـتائر البيت إلى الغـرف الداخلية. فـي الوقـت الـذي كانت (زيمـة) تضفر شـعر ابنتها، الـذي صار لـه أكثر من مفرق، بأشـرطة صوفية حمراء، لمعت قطرات العرقِ على بشرتها البرونزية. الجاريات جلسـنَ متعباتٍ في ضوء الغرفة الخافت، وما زلن منشـغلات إلى اللحظـة الأخيـرة بتطريز وتحضير جانـب من جهاز العروس، فسـاتينُ غالية الثمـن من حرير وقطـن مصري تميزهما رقـة بالغة، حتى أن الفسـتان يمكن أن يمـرَّر عبـر فتحـة خاتـم. جورجيت مثيـر، زرقـةٌ بريئـة وخضـرة مليـئة بالغـموض نشـرت ضـوءاً فـي كـومةٍ متعـددة الألوان علـى الأرض، لآلـيء حليبية اللون لمعـت، ورقائق ذهبية صغيرة منمقة، وأجراسٌ صغيرة من فضة صدحت بصوتٍ خافت، منطلقة من كمرٍ يحيط بفستان لونه برتقالي متوهـج، تعلـوه ورودٌ بألوان وردية، تزهو كأنها قطرات دم سـقطت في وعاء ماء. تقنية ألوان غامضة من الجنوب العربي خلف هذا التأثير النادر.

طافت النسـاء حـول كل هذه النفائـس بأقدامهن غير مكترثات بشـيء. جلسن متربعاتٍ على سيقانٍ، تحتهن وسائد، وبادرن بهدوء إلى عملهن وهنَّ

Twitter: @ketab_n

يتسـامرنَ. من دون أن يتوقف تهامسـهن وضحكاتهن ونكاتهن اللاذعة التي اعتدن عليها، وقد أطلقنها سـراً على العروس الشابةِ، فكانت كدعابة خففت وطأة الحر الذي خيم عليهن جميعاً.

كأنهـن علمـنَ أو تنبهـنَ لمـا شـغل بال زنوبيـا، فهذا مـا مرّ ببالهـا فعلاً وبحسـرة، وقد خطر لها أن هذا كله سـوف يختلفُ عمّا سيحدث يوم الفرح. هيّـأت أفكارهـا باسـتهانة مريرة، أيّ شـرفٍ هـذا لمن هَوَت وفقدت شـرفها مثلي، لتكون زوجة لأمير المدينة، أي احتفالٍ بهيّ لواحدةٍ تكادُ تكون ميتة.

«ألا يوجد مردقوش؟»، رنّ صوتٌ في أذنيها وقطع عليها حسرتها. «ماذا يعني هذا، فهو لا يزهرُ في تموز! كيف يمكننا أن نضفر لها، وحسب التقاليد، تاج العروس؟». (زيمة)هددت من احتمال عودة الشك إلى بعـثة أيوب هذه من جديد. مسـؤولية حماة المسـتقبل، أميرة رومانية تنوءُ بثقلها على كتفيها. خادمة المطبخ التي جلبت الخبر غير الطيب كان وجهها حائراً.

«عبثٌ»، سُـمِعَ صـوتٌ جديد هنا لكنـه مألوف. نظرت زنوبيـا متلهفة. (أومـة)، امرأة الحمام العجوز، دخلت مـن دون أن يلمحها أحد. بدت وهي ملفوفـةٌ كالعـادة فـي البلوزة القطنية نفسـها- بـلا أكمام-، بـدت لزنوبيا منذ زيارتها الأولى في الحمام، كأنها لم تتغير ولا حتى قليلاً.. كتلةٌ هائلة سـوداء تشـبه أمّنا الأرض ليلاً، ذلك الوجه المدوّر ما زال بلا تجاعيد. كانت واحدة مـن النـاس القلائل الذين مـا زال فيهم دفء وحبٌ يمكـن إيقاظهما. نظرتها وحدها زلزلت زنوبيا؛ فبلعت ريقها.

«لا أحـد يمكـن له أن يربط أعشـاب المطبخ الصغيرة في رأسـي، بحق الـلات»، واصلـت (أومـة) وعظــهـا، «إذا أرادت الروميـــات أن يصبحنَ مثاراً للسـخرية فليفعلنَ ذلـك». مع هذه الكلمات تناولـت حزاماً جلدياً من كيسـها وأحاطت بهِ رأس زنوبيا، وفي حاشـيةٍ فضيةٍ بسـيطة شدّت إلى وسط الجبهـة حجراً من صـوان نادرٍ، مصقول بتدوير، يتبـارى بتوهجه العَطِشِ مع شرر حزنٍ كامنٍ، ومع الغضب المحتجب في عيني زنوبيا السوداوين.

غيـر أن عينيّ زنوبيا الآن نظرتا بشـكرٍ إلى وجه النوبيـةِ- من بلاد النوبة -فابتسـمت (أومة)، وألقت بذراعيها السـوداوين القويتين على كتفي زنوبيا

Twitter: @ketab_n

اللتين ما زالتا ناعمتين نحيفتَين، كأنهما لطفلةٍ لا تزال صغيرة، نسمةٌ من عطر المسك لفّت زنوبيا، كأنها في وطنها، كادت تؤدي إلى اهتزاز جدار الحماية المتمثـل بضبط النفس. لـو كان لها أن تعود طفلة لتحملهـا هاتان الذراعان! ابتسمت (أومة). هذه هديتي إلى ملكة تدمر حين طوقتها زنوبيا أيضاً بذراعيها بحرارة. ضمت الفتاة إليها وهمسـت بصوتٍ خافت: «لا تدعِي أحداً يلاحظ ألمكِ، ياطفلتي»، ثم أردفت، «هناك الكثيرون قد يفرحون لذلك». ومسحت على ظهرِ زنوبيا، وهي تتذكر غارقة في تأملاتها، ظهر لم تحركه تنهيدة. «هذا هو الصحيح. إذا أردت أن تقدمي للعالم عرضاً مسـرحياً ففي أسـلوبٍ آخر. هل انتِ الآن أفضل؟»، اعتدلت زنوبيا، ونظرت إليها بعينين جافتين.

«ثم تذكري الحجر، أيتها الملكة الصغيرة؟ إنه يمنح النسـاء قوة خاصة. نحن نطلقُ عليه اسـم أغناب، وهو من أعماق الأرض. كان هنا قبل أن تظهر الآلهة على الارض».

بامتنان لمسـت زنوبيا الحجر الكريم، الذي ارتسـمَ في عينيها بسلوان، وأومأت إلى العجوز. البسمة الصامتة التي ودّعت بها (أومة) أخفاها الملفح البنّي الذي رمتهُ إليها أمّها.

«لقـد آن الأوان، يـا حصانـي الصغير، تقـدم الآن». أطرقـت قليلاً على حنكها، ثم تركت سـيدة البيت (أومة) في سبيلها. من خلال الباب المفتوح، تسـلل إلى الداخل ضوءٌ وهّاج، نهضت زنوبيا لتغادر بيت والديها ولا تدخله ثانيةً ما حَييت.

موكب العرس، الذي استقبل زنوبيا ورافقها إلى معبد (بل)، امتد بطول القافلة التي وصلت (أكَورا) في الغرب بالعتبة المقدسة شرق المدينة. حرس شـرف روماني أعطى بخطواته المصحوبة بصليل السيوف إشارة الانطلاق، إشـارةً دلّت علـى عظمة ارتباط البركة باهتمـام الأمبراطورية الكبير في يومنا هذا. ثمانية رجال من العائلة من ضمنهم أخوها، وكذلك العم (نيسا)، رفعوا بهتـافِ عالِ الهَودج محتفِلين، ولـم تكد زنوبيا تغادر فناء البيت حتى أحاطت بها جموع المحملقين.

بـدا الهودج من بعيـد كأنه زورق صغيـر مزوّق، يكاد ينكسـر، يتراقص

Twitter: @ketab_n

على أمواج الجموع الهائجة، التي كلها قلق وخوف على تلك الغالية الجالسة في الهودج. زهور وحلويات، وأباريق عطور صغيرة تطايرت، وكثير من الزينة تناثرت من كل حدب وصوب على الجموع. قطرات من عصائر الفواكه تساقطت كالمطر، صاحبتها هتافات: عطور وبركات، ومن أصابع سمراء جُلبت خصيصاً إلى هنا، لتسكب من طاسات صغيرة. زنوبيا أغلقت الستارة بسرعة وإحكام لتَأمن على نفسها مما قُذف في كل الجهات. وتخفف من الضوء المتوهج في وضح النهار كأنه نار ما انفكت تلامس البشرة. تكاد زنوبيا لا تتصور أن تكون جزءاً من حدث، ساق هذه الجموع كلها للخروج مشياً على الأقدام، تحت لهيب هذا الحر الخارق، وأن هذا الصخب والأزقة التي ملأتها الجموع الفرحة التي ألفتها مذ كانت طفلة، إنما هي كلها اليوم من أجلها وحدها. متأرجحة بين الخوف والفضول جلست في راحلتها وأنصتت إلى الضجيج وهتافات الفرح، عيناها كادتا تقفزان من محجريها، بينما كانت ترمق الستائر التي ترفرف مزوقة بالزينة والحرير المطرز، والتي ما انفكت تمنحها حرية النظر إلى الأمواج الهائلة في الخارج. أجواء ساحرة هذه، غير أنها حبلى بما قد لا يُحمد عُقباه، جرّاء حلم مزعج رافقها إلى المعبد.

في الفناء الخارجي لمعبد (بل) الكبير وضع حوض الأضحية، ملاصقاً لمعبد اتصلت به قاعة احتفالات مظللة، محاطة بصفين من الأعمدة، علت كل عمود منحوتات لأوراق الأكانتوس المذهبة. هناك كان في انتظارها العريس وسط جموع المحتفلين. رائحة الشواء غطت كافة أرجاء البهو الذي انسحب منه الكهنة بعد استكمال إجراءات الأضحية. على شيش كبير ثُبت ثورٌ زنته نصف طن، بعدما استُخرج منه الكبد ليجلب مستقبلاً سعيداً، كما استُخرجَ منه السمن ليقدّم قرباناً للآلهة. ويدوّر الثور ببطءٍ على الشيش. إلى جانب قاعة الاحتفال المحمولة على أعمدة منصوبة، خيمة بيضاء لاستقبال الضيوف الذين ليس لهم قرابة مباشرة مع العائلة. هؤلاء كلهم لا بد أن يكونوا شهوداً على توقيع عقد الزواج، وأن يشاركوا بعد ذلك مباشرة في الوليمة.

Twitter: @ketab_n

كان (فورودس) الذي استقبل هودج زنوبيا بقبضتين قويتين، رافقها إلى البهو، حيث زوجها المستقبلي. وبحسب الأعراف المتبعة وصلت العروس متأخرة، وكان عليها أن تشق طريقها عبر صفين من الضيوف الباسمي الوجوه، وهي تتقبل منهم تمنيات بالسعادة وعلب حلويات، ثم تساقط وابل من قطع حلوى لتجلب البركة بأشكال ذكر الرجل وفرج المرأة. يد (فورودس) على ذراعها لم تسمح بتأخير.

رائحة الطعام ورائحة العرق في القاعة السفلى كادت تقبض على أنفاسها، بينما كانت ماشية إلى جبل من لحم الثور اللامع، كأنه مطلي بسيل دهنه. على جانب من مقدمة القاعة بالضبط ارتفعت قامة هائلة: (أودیناتوس). لقد نسيت كم كان طوله، استدركت زنوبيا. كان يزهو بزي قائد حرب رومي في درجة قنصل أول، عابرِ كل الحدود ومسيطرٍ على كل المقاطعات شرقي روما. بإشارة رقيقة طلب منها أن تجلس إلى المائدة في جواره. درع الصدر المعدني المذهّب بمبالغة أحدث صليلاً بسيطاً عندما جلس. هنا ابتدأت الموسيقى. تحت إيقاع الموسيقى تم توقيع عقد الزواج الذي نظمت فقراته المفصلة، قبل كل شيء، مهر العروس، باحتفالية وختم، ثم سُلم إلى والد العروس. هكذا أمكن الشروع في الاحتفال.

اثنان من العبيد جلبوا على صحن مزيّن خصيتي الأضحية، مزينة بإصبع موز وإطارين من الإجاص، كان على زنوبيا وبين ضحكات الحضور أن تتذوقهما. سحب (أودیناتوس) خنجره واقتطع قطعة كبيرة من كتلة اللحم البيضاء، وحشرها في فمها وسط تشجيع الحضور. زنوبيا حاولت أن تمضغ من دون أن تلفت نظر الآخرين إليها قدر الإمكان. لم يدخل فمها من قبل مطلقاً شيء بهذه الصلابة والشدة، وبهذا الجفاف، وقد بدا أنه لا يمكن أن ينزلق إلى جوفها. لا بد من أن يكون هذا كله مجرد كابوس. الآن ابتدأ تصفيق إيقاعي حين قدم لها (أودیناتوس) الموز. كل الضيوف تدخلوا وارتفعت نداءات مصحوبة بتصفيق إيقاعي أيضاً، لم يتوقف إلا بعد ما التهمت زنوبيا الفاكهة التي حشرها زوجها في فمها ضاغطاً بين شفتيها، بينما هو نفسه عض على الإجاص. ترحيب وتهليل صاحب ساد الموائد و(أودیناتوس) غمز

Twitter: @ketab_n

إلى الجموع فرفعت كؤوسـها لتفرغها شـاربة نخب العروسين. رمت زنوبيا بنفسـها إلـى الأريكة متنفسـة الصعداء، فقـد أنجزت الآن الجانب الرسـمي مـن الاحتفـالات. تناولت كأسـاً مغرية، وشـربت لتطفئ عطشـها أول كأس نبيـذ في حياتها. كان النبيذ شـديداً ومرتفع الحرارة فـي وقت معاً، وقد تركته يمر بسـرعة من بلعومها إلى الأسـفل. بعدها توهّج عطر التوابل المضافة في سـقف حلقهـا، ثم أتبعته فجـأة بجرعة نبيـذ ثانية، وما هـي إلا لحظات حتى شـعرت بثقل في سـاقيها ثم فـي كل جسـمها. وبارتياح مدت جسـمها على الأريكـة الوثيرة الناعمة. أما رأسـها فقـد صار خفيفاً. دمـوع تلتها ضحكات غلبت عليها. ألوان مضيئة تسـللت إلى دماغها، ترافقت مع أنغام الموسـيقى الصاخبة. كل شـيء صار أكثر إضاءة، كأنها نازلة من السـماء. توجهت بنظرة أدق إلى العالم من حولها.

إلـى يميـن (أودينـاتـوس) لـم يجلـس، كمـا كان العـرف السـائد، ابنـه مـن الـزواج الأول، (حبرانـس). لأن اضطرابـات علـى الحدود عنـد (دورا أوروبـوس) «هكذا سـمّيت» تطلبت حضـوره. حتى السـاذجة (زيمة) صار ذلـك واضحاً لها. ولم تخـفِ عن ابنتها أن المولـود الأول كان قد بقي بعيداً بدافع الاحتجاج. كان يخشـى أكثر من اللازم ومن الأطفال الآخرين الزواج الجديـد هذا. (دورا أوروبوس) شـغلت بال زنوبيا، مـن يصدّق هذا، لكنه لو كان هنا ربما حصّلتُ سـماً بدلاً من العسـل في كأسـي. هـذه الفكرة جعلتها تطلق ضحكات سخيفة، ثم عادت تطلق زفيراً من الأعماق.

(فـورودس) و(نيسـا)، وجهـان علـى المائدة كانـت تعرفهمـا. الرجل العجـوز في الـزي التدمري هـو بالتأكيد (زابـداس)، زعيم الخيالة الشـهير، كان أخوهـا يعمـل تحـت إمرته. شـعره الفضي ووجهـه الذي تركـت الأيام أثرهـا فيـه لم يهمها كثيراً. كان يشـبه بذلك وبصرامة طباعه أباها. أشـار إليها بكأسـه محيياً، فرفعت هي تلقائياً كأسـها رادة التحية. ابتسـامة الشـكر كانت لا تزال مرتسـمة على وجههـا، حين اتجهت بنظرها إلـى (زابداس) ثانية. ما أثار دهشـتها أن وجه المحارب العجوز احمرّ وابتسـمَ، هو من ناحيته، ورفع الكأس بإشارة خجلة أيضاً، ليشرب نخبها.

Twitter: @ketab_n

شكرت فرحة بالإشارة نفسها أيضاً، خافضة رأسها تعبيراً عن تقدير له. شعور بالانتصار مفاجئ تسلل إليها، إلى جانب امتنان دافئ. كانت هي المرة الأولى، التي يلتفت فيها رجل بكامل وقار سنه ومنصبه إليها. بصرف النظر عن عمها (نيسا)، الذي رغم كبر منصبه، وكونه كاهناً في المعبد، عُرف عنه أنه كان ماجناً أحياناً. فهو قد لا يمثل مكانة جدية عندها، ربما لأنه تطلع إليها كفتاة لا أهمية لها، على عكس أبيها الذي كسب اهتماماً مهماً، أم لأن الامر كان متعلقاً بمشهد راقبته منذ فترة طويلة في هذا المعبد؟ بلا مقدمات صوبت نظرتها إلى الاتجاه الذي من المفترض أن تكون فيه غرفة البرج. والتي فاجأت فيها (نيسا) ذات مرة حين كان في عناق مع عاهر. مشهد استطاعت معرفة تفسيره اليوم لأول مرة. عرفت ماذا كانت تلك التي وقفت أمام عينيها ذات يوم حين كانت طفلة، بدت لها غامضة وغير مريحة. هنا اقتحمت ضحكات (أوديناتوس) المدوية وعيها. طردت تلك الصور بسرعة عن مخيلتها، بجرعة جديدة عادت إلى المائدة.

الظاهر أنها حركت الرغبة في رجل آخر. (دوميتسيان) راقبها بتأمل. الرجل وكيل نقابة رومي. كما عرفته، كان مستلقياً باسترخاء إلى جانب زوجته على أريكته، مداعباً عدداً من حبّات العنب أمسكها بيديه. كانت نظرته المستهينة غير مقبولة عندها على الإطلاق، وقد أيقظت فيها العناد القديم. فكان عليها وهي زوجة أمير المدينة أن تتقبل هذا. مدّت حنكها، فلاحظ كأنها، في داخلها، نفشت ريشها غضباً، ظهرت ابتسامة خفيفة على فمه، تدل على أنه يعرف شيئاً عنها قد يكون محرجاً لها. أشاحت بوجهها عنه، وعاودت الشرب مجدداً. ما الذي يريده هذا الرجل منها؟ لقد كان غير محبوب شأنه شأن الآخرين من مواطنيه، بسبب تظاهرهم بأنهم الأفضل. ربما كان (أوديناتوس) يفضّل مداهنتهم والاستماع إليهم، أما هي نفسها فكانت قد تعاملت معهم بشكل آخر، لو كان لديها أي نفوذ: أليست هي أميرة المدينة؟ شعرت بارتياح وقوة ما دامت دوامة النبيذ في رأسها، فرفعت هي الكأس بتحدٍ مشيرة الى (دوميتسيان) ليرفع كأسه أيضاً وشربت. بكل استهجان رفع كأسه في المقابل وارتشف من طرف الكأس بينما شربت جرعة كبيرة...

Twitter: @ketab_n

لماذا الآن فقط أصبحت فجأة تميل إلى النبيذ؟ وعندما سمعت بعدئذٍ كركرة أمها وهي تنظر إليها، تمنت فعلاً لو تنفجر عيناها بالدموع، ولأن الحفل أقيم بحسب الطقوس الرومية كان (زنوبيوس) مطالباً بأن يصطحب زوجته معه. فتجتمع (زيمة) و(أويات) إلى المائدة التي كان من الطبيعي أن يغادراها، لو كان حفلاً للقبائل، الذي اعتاد فيه النساء الجلوس إلى بعضهنّ وكذلك الرجال. هكذا تسامر وشرب كلا الجنسين بعضهم مع البعض الآخر، بعدما نزع الجميع بحيوية الخجل من الأجواء غير المألوفة عندهم. الاقتراب من الرجال الغرباء غير المعتاد، وكذلك النبيذ الذي كان نادراً ما يُحتسى في ما عدا ذلك، كان لهم فعلهما، خروجاً على الأصول المرعية. من دون أي اعتبار تغازلت النساء مع كل الجالسين إلى جوارهنّ على المائدة، وتضاحكنَ، وتبادلنَ النكات الخليعة، التي كانت مألوفة عند النساء في خدورهنَّ، ولم يلاحظنَ العواصف المنذرة بالاندلاع، التي هدّدهن بها حاجبا (زنوبيوس) المعقودان إلى بعضهما، عند عودتهن إلى البيت.

«لديكم إجاصة حلوة بين شفتيكم، (أودىناتوس)»! نادت (زيمة) على المائدة.

«عسى يكون حلواً ما سيتناول بين شفتيه هذه الليلة»، قالت (أويات) ضاحكة بكركرة، «ما لم يكن قد تخلى عنها وأبدلها بموزة رخوة في المقابل..».

«ما اعتراضك على موزة رخوة؟ ولأجل أن تشبع رغبتك يجب أن تكون جزرة صلبة». وهكذا دار الحديث. اصطبغ وجه زنوبيا حمرة تشبه غروب الشمس الذي ألهب السماء بهذه الأحداث الجامعة، من دون أن تمر نسمة هواء أرق مما حملته رياح الصحراء الملتهبة، التي مرت بين أعمدة القصر.

«تستمتعون جيداً، أليس كذلك»، أومأ (أودىناتوس) برأسه إليها.

«ما اسم هذه البدينة الجالسة إلى جوار (نيسا)؟».

أجابت زنوبيا بأدب واختصار: «إنها (أويات) الزوجة الثانية لأورليانوس سنوبيوس».

Twitter: @ketab_n

«زوجة ثانية، صحيح؟» أجاب (أوديناتوس) وأومأ إلى العبد مشيراً إليه، أن يضع أمامه طبقاً بلحم ثور.

«امرأة نادرة، ضخمة وممتلئة، هذا ما يعجبني، إذا ما اضطجع المرء عليها فسينزل كأنه على وسادة. هذا ما أقوله دائماً. مهلاً، مهلاً، ما الذي جرى، لا تهتمي. هذا ما سيحصل لكِ بعد. بعد الإبن الثالث تسير الأمور وحدها». ثم نهض معجباً بحرارة كلماته «أنا أشرب نخب ابني الثالث. لنشرب نخب الاوديناتيين».

«نخب الاوديناتيين» عاد الصوت في الجوقة. وأمواج الاحتفال ارتفعت عالياً. زنوبيا كانت سعيدة، إن لم يلحظها للمرة الثانية أحدٌ وهي منصرفة إلى كأس النبيذ. نظرات إعجاب الرجل المجهول، رجل ضخم في زي شعبي مصري، جلس إلى جوار أبيها، لم تنتبه له.

زوج آخر من الحكام حُمل إلى الداخل: نصب (بل) ونصب (أشتور) كانا يمثلان آلهة الحماية للمدينة، وجسّدا في الوقت نفسه أرواح المتزوجين، الذين عند الزواج يجب أن يُحترموا مثل ما يحترم العرسان أنفسهم. (بل) بدا كالعادة بكامل التجهيزات، إلى يمينه الصولجان وإلى يساره الكرة الأرضية كعلامة لنفوذه. كما كان يحمل إكليل النجوم المتجهة نهاياتها المدببة المميزة إلى الأسفل. وعلى معطفه الفضفاض طُرِّزت الكلمات: «بيلوز فورتونا ركتور»: (بل) سلطان قدرنا. وجه (أشتور) كان مغطى مثل وجه زنوبيا بملفح أحمر كالدم.

حبوب وجوز نُثرت أمام كليهما. كل واحد حاول ترطيبهما برشفات ماء، كرمز تقليدي للمطر على أرض خصبة. مجموعة من المندوبين التجار اندفعوا إلى الداخل، وبايعوا حسبما هو واجبهم العروسين الطيبين المملوءين حيوية. ووضعوا بكل تقدير الهدايا أمامهما، وقالوا كلمات الثناء والتقدير، وتمنّوا لهما الخير، وسحبوا آلاتهم بحماسة.

ارتفع صوتٌ: لنبدأ أغنية (آكي). لا أحد كان يعلم مصدر هذه الأغنية، هل الفرس أم السوريون أم الفينيقيون هم الذين أدخلوها إلى تدمر، لكن قصة (آكي) المحتال ومكره وقدرته على المساومة على عروس ترددت في

Twitter: @ketab_n

كل الأعراس. الشعب في القاعات والشوارع استمع إلى الطريقة المعروفة، وشارك في الغناء.

(آكي) أتى على جواد ليشتري امرأة.

كان اسمها زنوبيا، جميلة كالقمر، لكن أباها كان عجوزاً وماكراً. بفرح رددت الأصوات الكلمات المعروفة قديماً، وتواصل غناء الجوقة.

(آكي) دخل المدينة على جواد باحثاً عن الفتاة الأجمل.

لكنه وجد زنوبيا، لكن هل ما زالت عذراء؟

رغم أن زنوبيا تنبأت بما هو قادم، جلست كأنها مضروبة على رأسها. واستولى عليها الهلع، تناولت كأس النبيذ وهي ترتجف. تماسكي وحافظي على هدوئكِ، شجعت زنوبيا نفسها بهذه الكلمات. إنها مجرد أغنية. ومن ذا الذي يعلم ما جرى. أوه إنهم كثيرون جداً. أبوها سمع الأغنية وكتم ضحكة في داخله، لم تظهر على سيمائه. حين رفع (گاش) عينيه بازدراء إليها، وبلا تحفظ، أراد الانسجام في الترداد، ألقى يده فقط على ذراعه :إشارة عابرة. الشرايين التي انتفخت على جبهته، كشفت أن القوة المتجمعة لغضبه تكمن في هذه القبضة. أمّاه، أمّاه نادت زنوبيا في داخلها ملتمسة المساعدة. غير أن (زيمة) تجنبت النظرة اليائسة لابنتها، والتقطت في هذه الأثناء قطعة من الشواء الطري المغمس بالعسل. لكن زنوبيا بقيت على حالها، بينما تواصل ترداد الأغنية، التي تناولت مواضيع بسيطة ومهمة لفتت انتباه الجميع، إلا إمساكها للكيس الصغير حول رقبتها.

(أومة) أعطته إلى (زيمة)، مبادلة إياه بكثير من النقود، ومحتقرة بغضب المسببين للخجل. و(زيمة) طوّقت به عنق زنوبيا ودموعها تجري، هذا الشيء الصغير تتوقف عليه أمور، فيما لو كانت زنوبيا ستُعاد غداً بعارها الذي لا ينطفئ إلى بيت والديها، أو يبقى الجميع كما كانوا حتى الآن أقرباء محترمين لأمير المدينة. مصيرها كله معلق بخيط رفيع. هكذا لم تكن نشوة الاحتفال بالنسبة إلى زنوبيا سوى صخب مجانين أو ارتباك لا معنى له، كأنها في حلم. حين تلمست الكيس الصغير صارت أكثر هدوءاً، بل واعية لكل ما حولها تقريباً. بقي لديها على الأقل شيء ما يشغلها. هذا الكيس الصغير

Twitter: @ketab_n

كشف لها، مهدئاً إياها، أنها ليست أول عروس تكون عذريتها عبئاً عليها، يرافقها إلى ليلة العرس، لكن هل تتوقف الأمور هنا.

كان (أوديناتوس) تنبأ ما فكرت فيه، فأعطى المغنين إشارة لتوقيف الأغنية، وإن انضموا إلى الموكب المتجدد المتوجه إلى قصر أمير المدينة، القصر الكبير المليء بالأسرار. ارتفعت الموسيقى في سماء الليل، وخشخشت الحليّ، وتردد رنين أصوات مازحة بين ممرات الأعمدة.

رجل صغير غامق البشرة من حملة المشاعل تقدم الموكب راقصاً، وشاب بعينين ضاحكتين دار حول نفسه راقصاً فرحاً مطلقاً شرارات سقطت كالمطر على جمهور المتفرجين، الذين أطلقوا صرخات فزع مازحة، وضيقوا الطوق عليه من جديد. على عتبة القصر حُمل المشعل الذي كان المفروض أن تُشعل به نار الموقد ونار الحياة في الوطن الجديد، ثم يُرمى بين الجموع، ومن يتلقفه له أن ينتظر حياة سعيدة، هكذا قيل. أما العروس الشابة، التي ألقت بزوجها، الذي خمد، تحت سرير الزوجية، فقد تنبأت له موتاً قريباً. بوابات القصر انفتحت، ومشت زنوبيا خلالها، ثم رجعت ثانية إلى المدينة المضاءة. هناك بقي كل شيء عرفته حتى الآن مألوفاً ومأموناً كما كان، لكنه بقي خلفها. لذا شعرت بأنها وحيدة.

(أوديناتوس) أعطى حامل المشعل إشارة، وهو يدور فرحاً، ليستعد للرمي. شكل المشعل قوساً متوهجاً في سماء الليل، ماراً فوق الأذرع الممدودة، مختفياً تحت هتاف متعدد الأصوات: «أوه» من الخيبة في واحدة من شبابيك القصر التي انفتحت إلى الفناء الداخلي.

ضحكة (أوديناتوس) غطت على صوت الخيبة الصادرة من الجموع.

«يبدو أن الآلهة غبطتني لوحدي بسعادة كل نار الموقد اليوم»، ثم ذهب إلى هودج زنوبيا وناولها يده ليساعدها في النزول. «مرحباً في بيتي، زنوبيا، ابنة يوليوس اورليانوس (زنوبيوس). من اليوم هو بيتك أيضاً». أجابته زنوبيا بالصيغة التقليدية نفسها، بمعنى: حيث تكونين كايوس أريد أيضاً أن أكون كايا. تقدّما إلى الداخل وانغلقت البوابة خلفهما.

يداً بيد دخلا الرواق حيث الإلهان (بل) و(أشتور) كانا منتصبين. هناك

Twitter: @ketab_n

قدما بصمت وبجد مجدداً قرباناً أمامهما لتنشيط القوة الجنسية، ثم استُقبلت زنوبيا من قبل عدد من الخادمات، اصطحبنها إلى جناح المرأة. «الآن كفى، جيد إلى هذا الحد. رجاءً انصرفوا الآن». زنوبيا كانت وبعد دقائق في نهاية صبرها. الخادمات ضحكنَ وكركرنَ وأحطنَ سيدتهن الجديدة طائرات فرحاً، وبذلنَ جهداً في المجاملات والمديح للفت نظرها إليهنَّ. محاولاتهن لإقناعها بخلع ملابسها رفضتها زنوبيا بسرعة. كان الخطر أكبر من أن يُحتمل، في أن ترى إحداهنَّ الكيس الصغير وتعرف الغرض منه. بعد توسلاتهن الأخيرة، حلَّ هدوءٌ. تأملت وجوه الفتيات لكنها لم تقرأ في وجوههنَّ سوى الخوف أو الوقاحة أو الرغبة في إرضائها. لم تلمح اية سمة توقظ ثقتها بهنَّ. (أوديناتوس) كان قد أمر بشرائهنَّ قبل بضعة أيام من سوق العبيد، من أجل ما اعتبره ضرورة لامرأة. لم تكن هناك ضرورة لحوار جاد، فليس من بين الفتيات الجديدات واحدة تكلمت الآرامية أو الإغريقية. كانت زنوبيا ذكية بما يكفي لإدراك الهدف من وراء هذا. لم يكن مسموحاً لها أن تؤسس نفوذاً في البيت الخاص بها، حتى وإن كان هذا النفوذ ضعيفاً. لهذا السبب قررت مرغمة وبقلب كليم رفض أي اتصال بهنّ لتكسب منهنَّ رفيقة. لقد تنهدت بحسرة، كم كان أسهل، لو كان لها رفيقة لتواجه ما سوف يأتي. لكن لا فائدة؛ الخادمات المهمومات لوّحنَ بالخروج، وتطلعن حولها بسرعة، أما هي فلا تعرف متى سيزورها (أوديناتوس). إلى الحائط الخلفي اكتشفت منضدة للزينة، طاولة زينة رائعة من خشب الأرز المذهب، ربما تثير إعجابها في الحالات الطبيعية. جلست أمامها محاولة فتح كيسها الصغير بأصابع مرتجفة. تلك كانت كما وعدتها (أومة) قارورة زيت صغيرة، شريطاً من البردي، مقلاة صغيرة، مسحوقاً، وجلدة رقيقة مزينة- مثانة سمك. ابقي هادئة، حذرت نفسها، وهي تحاول تذكّر التعليمات، لم تملك سوى هذه المحاولة. هل هناك خطوات في الخارج في الممر؟ لقد عبرت. خفق قلبها بسرعة شديدة حين صبّت الزيت من القارورة في المقلاة الصغيرة وفيها المسحوق... كيف يُخلط؟ كانت أصابعها أكبر من اللازم، كل شيء مهدد أن يتسرّب إلى الخارج. والآن اصطبغت يداها بالأحمر، اللعنة. لا يُسمح لها

Twitter: @ketab_n

أن تدع بقعاً فاضحة على فستانها. بسرعة مسحت الأصابع بوسادة ملونة، وسحبت بحذر قطعة من القماش على رأسها، فسقط مشبك شعر بصوت خافت إلى الأرض. كان هذا هو الحل؛ رفعت المشبك بسرعة وخلطت به الخلطة بعناية. تمتمت بدعاء شكر ألا يتحول الخليط الآن إلى كتلة.

«الآن ورق البردي» تمتمت مع نفسها، من هذا سيتكون قمع، نعم، ثم ادفعيه في مثانة السمك، هكذا. ثم توسلت إلى اللات لمساندتها، وبدأت بحذر تسكب المحتوى في مثانة السمك. وبالتدريج امتلأت الجلدة الشفافة بالسائل الكثيف ذي اللون الأحمر القاتم. شُدِّها بشعرة، هذه مسألة بسيطة، لكن وضعها في مكان ما هو الأصعب. فكما هو مقيد ومحسوب له، ينفتح الجلد الرقيق الحساس مع أبسط ضغط. زنوبيا فهمت بسرعة أن عليها أن تذهب إلى الفراش وتضطجع وأن لا تتحرك قدر الإمكان بعد الآن. سواء كانت مرتاحة أو متضايقة، فهي مكرهة على استقبال (أوديناتوس) بوجه يدعوه إليها. فالأفضل لعذريتها أو المنقذ لها كان شراؤه ممكناً بالنقود، لكنها، في الوقت نفسه، بقيت يائسة بلا مساعدة. مرة أخرى. كان يمكن لزنوبيا أن تبكي لو أن البكاء ينفع.

خطوات (أوديناتوس) في الممر كانت معروفة لا لبس فيها، وزنوبيا سحبت تلقائياً الغطاء الفضي ذا الحياكة الملونة إلى حد حنكها حين دخل.

«أواه» وبحسرة ثقيلة جلس (أوديناتوس) على حافة الفراش، انخفض الفراش من تحته، وتمسكت زنوبيا بالغطاء بقوة من جانبها لئلا تتدحرج، محاولة بيأس إبعاد أي تلامس بين الاثنين لأطول فترة ممكنة. بحركات وئيدة بدأ ينزع ملابسه. بدا لزنوبيا أكثر سكراً مما كان قبل ذلك مع الموكب: الظاهر أنه أكمل الاحتفال في مكان آخر. ربما لن يلاحظ وجودها مطلقاً.. ربما، لكنها، مثلما كانت عند أبيها، اندفعت بدون حركة إلى الزاوية...

«زوجتي الحبيبة، ألستِ بالذات، ما...»، تمتم (أوديناتوس) بكلام غامض وبلسان ثقيل. الفزع جعل زنوبيا تتجمد. «بدلاً من أن تساعد زوجها الحبيب في نزع حذائه بعد يوم متعب، تضطجع بكل بساطة». واصل كلامه بثرثرة مخمور. «ما هذا لا تحملقي فيَّ بعينين واسعتين كأنك غزال فزع،

Twitter: @ketab_n

تعالي ودعينا نستمتع قليلاً». بهذه الكلمات انحنى نحوها ليقبلها. زنوبيا حاولت بقرف إبعاد الوزن الثقيل لجذعه عنها، وصدّت عن الوجه الذي تصبب عرقاً، والفم الرطب المفتوح الذي يرسل أنفاسه إلى وجهها، فتفوح منها رائحة النبيذ. لم تجرؤ على الصراخ بصوتٍ عالٍ، بل أطلقت أصواتاً غير واضحة، أصواتاً بدت كأنما لتثيره فقط.

«تريدين أن تدافعي عن نفسكِ، أليس كذلك، حسناً أيتها الشرسة الصغيرة. أنا رجل رياضي، أحب أن تكون الغنيمة من صيد جيد». أثناء ذلك أمسك يدها التي تصلبت لتصد صدره، دفعها على رأسها وأمسكها من مفاصل يديها بقوة ضاغطاً إياها إلى الفراش. رقبتها ونهداها كانت نهباً لشفتيه النهمتين المتعطشتين للمص، وقد تركتا في كل مكان آثاراً حمراء. زنوبيا شعرت بأسنانه على حلمة ثديها، التي تصلبت رغم قرفها.

«مه، أيتها العاهرة الحلوة الصغيرة، مكتنزة اللحم كالحيّات الحلوة». تمتم (أودیناتوس) بهذه الكلمات وهو غارق في لحمها. «هذا يعجبكِ، صحيح؟». وحين فتحت فمها معترضة دفع بلسانه عميقاً إلى الداخل: سال اللعاب من زاويتي فمها؛ حاولت بلا جدوى أن تصرخ وتحرر يديها.أمتأخرة لاحظت ركبتيه زاحفة بين ركبتيها وقد فصل ركبتيها من دون مقاومة عن بعضهما إلى الخارج. ساقاه الشعراوان احتكتا بساقيها البضتين الناعمتين من الداخل، فراحت تتحرق، واستطاعت أن تشعر بقضيبه الحاد وهو يندس فيها، ويندفع بعنف شاقاً طريقه عبر غشاء غاية في الرقة، وهي تتلوى تحته راجية الخلاص منه.

«ابقي ساكنة، اللعنة مرة أخرى»! قال هذه الكلمات (أودیناتوس) مندهشاً، وممسكاً بقبضة قوية يديها من المفصلين، وبالأخرى أمسك قضيبه ليدخله فيها. إلا أن زنوبيا حررت واحدة من يديها، وتفحصت طوق جبهتها وهدية (أومة) التي أضاعتها أثناء الصراع، وضربته بالحجر المنحوت بكل قوة على وجهه. ترك الحجر الكبير خدشاً أحمر محرقاً في أعلى خده، ملاصقاً لندبة الحرب. ثم ضربها بقبضته على وجهها بشدة، وركز ثانية لإدخاله. ضربته القوية جعلت أعضاءها ترتخي نتيجة إغماءة كانت بمثابة

Twitter: @ketab_n

رحمة لها، لكنها لم تلبث أن اختفت.

تحرق لا يحتمل بين ساقيها أعادها ثانية إلى وعيها. صرخت عندما تغلغلت موجات الألم مع كل دفعة من (أوديناتوس) دخلت فرجها. لم تعلم كم لبث فوقها، لكن في كل مرة يدخلها بعنف تشعر كأنه يصطدم بجرس يصرخ «ألـ اااام». دوي ضعيف مظلم سرى في كل أعضائها ودفع حرارة الحمى إلى البشرة فسبب لها غثياناً. حاولت بيأس التخلص منه، حين حاولت ضغط حوضها في الفراش.

«كأنها ثعبان» تمتم (أوديناتوس) مع نفسه، وتركها وانتصب على ركبتيه، وأدارها إلى الخلف، ورفع مؤخرتها نحوه. ضربات كعبيها لم تصل إليه، عندما خوزقها على قضيبه المتلهف. يداه الكبيرتان سيطرتا على أردافها من دون أن تستطيع التخلص منه، يائسة صارت تُرمى إلى الأمام وإلى الخلف بحسب دفعات الإدخال التي ازدادت قوة، وأرفقت بحركات رهز عنيفة أدخل معها قضيبه عميقاً، أما هي فقد أنبتت أسنانها وأظافرها في الملاءة محاولة حماية رأسها من أن يصطدم، أثناء حركة الرهز الإيقاعية، بجدار السرير الجانبي، وتوسلت إلى اللات بصمت. أمّاه ساعديني أن لا أتقيأ ليمر هذا بسلام، أواه، أواه، الألم شديد.

بدفعة قوية أخيرة سقط (أوديناتوس) منهاراً وهو يصرخ فوقها. رعشة مفاجئة مقرفة في داخلها أعقبها سيل جارف حارق. ترك نفسه فوقها بصمت، وتركها تتخبط تحته وهي تلتقط أنفاسها بجهد لتتحرر وتتخلص من ثقل جسمه. شخيره ونخيره ينبئان بأن النوم قد غشاه. هوت زنوبيا هلعة من الفراش بساقين مرتجفتين إلى الحائط، نضح الدم من بين ردفيها على طول فخذيها بحرارة. وهكذا بدا التأثير الطيب للكيس الصغير. وبنحيب هستيري أمسكت زنوبيا الملاءة ومسحت ما أمكن مسحه. رمت قطعة القماش الملطخة على زوجها الذي كان غارقاً بنومه ولم يشعر بشيء. جلست لوهلة هنا ثم تدحرجت خائفة مترددة إلى زاوية في السرير أبعد ما تكون عن (أوديناتوس) وسحبت الغطاء كله لتغطي جسمها، وبكت وحدها بلا تردد، في ظلام القصر النائم لأول مرة منذ ثلاث سنوات.

Twitter: @ketab_n

زيارة إلى أميرة

عندما استيقظت زنوبيا في اليوم التالي كانت الشمس عالية في السماء. شريط من ضياء تسلل من خلال الشباك، وأدخل الدفء إلى فخذيها، وكشف بقعة من المنيّ الناشف تضيء بلمعان فضي. لاحظت في الحال أن (أوديناتوس) انصرف بينما كانت تعدل من جلستها وهي تئنّ. وقد أخذ معه على ما يبدو الملاءة الملطخة بالدم هدية استذكار، ولربما أراد تقديمها إلى مجلس المدينة، أو أخذها معه إلى الحمام ليتفاخر بها. كانت تفكر هكذا بمرارة. ليكن، ليعمل ما يشاء، حتى لو علقها بيرقاً على بوابة المدينة: لقد بذلت جهداً كافياً من أجل ذلك.

مرتاحة لأن أحداً لم يرها في الحال التي هي عليه الآن. حاولت أن تنهض بأعضاء أضناها الألم. منحنية وصلت إلى الكومودينو المصرية، التي قدمت لها بالأمس خدمات. جرة معدنية كان فيها مــاءٌ وضعتها يد هناك بعناية، شربت بجرعات عميقة، قبل أن تستخدم الباقي لغسيل أساسي، ثم تريح جسمها بعض الشيء بهدوء.

بعد ذلك تفحصت وجهها في المرآة البرونزية التي أمسكت بقرون هلالية الشكل الآلهة (هاتور)، والتي كانت قد تركت على منضدة الزينة التي أصابها (أوديناتوس) مساء أمس بقبضته، وقد انتشرت على ردفيها، جراء ذلك، بقعٌ واسعة مائلة إلى السواد سرعان ما اكتسبت ألواناً خاصة تميل إلى الأزرق والأخضر. عينها اليسرى كانت متورمة، خلفية عينيها البيضاء اختلطت باللون الأحمر.

«ايكو كايا»، قالت بينما كانت تتأمل نفسها. كانت تلك إذاً ذاتها الجديدة كزوجة. بغضب مفاجئ خطفت الملاءة الملطخة بالدم، وسحبتها إلى

Twitter: @ketab_n

الشباك ورمتها إلى الخارج. أصوات الدهشة ارتفعت من الفناء الداخلي. تجاهلتها ونظرت إلى نفسها لاهثة، واكتشفت لباساً داخلياً لا بد أنه كان لـ(أودِيناتوس)، ملافحها الحمراء على الأرض، وسادة منسية. قذفت بكل هذا بقوس عالٍ. الخادمات في الأسفل مشين حائرات متوترات. زنوبيا مدت جسمها إلى الخارج بعنف. عشرة من الوجوه الفضولية المضطربة انشدّت نحوها كأنها مربوطة بخيط.

«أنتِ هنا» نادت وأشارت بلا تحديد إلى واحدة من الخادمات. «نبيذ، نبيذ. إليّ بنبيذ، جرة ممتلئة». وتجددت المشاورات المحمومة في الأسفل، ولم يمضِ وقت طويل حتى تكشّف لها، بعد طرق خجول، أن أمرها الأول نُفِّذ.

«ضعيها في الخارج»! نادت من خلف الباب المغلق. صوت صرير سُمع، ثم خطوات مسرعة ابتعدت. والآن خطرت في بال زنوبيا قناعة مرّة، حين أنصتت إلى الهدوء الذي عاد ثانية، أن لا نفع من أن يكون المرء أمير مدينة تدمر. أيٌّ من رغباتي أمر مهم، نوعية النبيذ؟ تذوقت من الوعاء الذي جُلب من الداخل، هو كذلك من أجود الأنواع. ثم تساءلت أليس هذا يوم فرح؟

انتقلت بهدوء إلى الشباك الثاني للغرفة، فصُدمت بالجناح الذي نُقشت عليه نقوش ضخمة، كان يُستفاد منه للحماية من الشمس. في ضوء النهار الساطع امتدت أمامها السهول الشمالية الغربية، وبعيداً عند تلك الأبخرة، يتوقع المرء أن تكون أولى مرتفعات السلسلة الجبلية التي تلجأ إليها الطيور الكبيرة، التي كانت تدور في الريح بصمت وتصل قريباً من صخرة القصر. تنبسط تحت المرتفعات، إلى ما لا نهاية، صحراء من الحصى تميل مرة إلى الاحمرار وأخرى إلى اللون الرمادي، لا تمر بها نسمة من حياة، في هذا الوقت من اليوم الذي يقترب من الظهيرة. على مقربة منها، ارتفع، عبر الحدود الخضراء لبساتين تدمر، بياض مرمري مضيء، إنها أبراج قبور تدمر. الأكبر والأروع بينها، ترقد فيها زوجتا (أودِيناتوس) الأوليان وأول أطفاله.

* * *

Twitter: @ketab_n

(فيرموس)، العبد السابق، (فيرموس)، القرصان السابق، (فيرموس)، المخادع السابق، تمطى بزهو على مضجع التدليك داخل حجرته المرمرية. عبدة أرمنية أبعدت عنه، بزيت الورد وبتدليك فني، أثر الخمرة من مساء أمس. التأثير الروحي انسحب بعطره إلى بشرته. كانت الفتاة عاكفة على أفكار (فيرموس) بينما كان هو مستمتعاً بحركات أصابعها الماهرة، كانت واحدة من ممتلكاته الثمينة المحببة، التي كان يجلبها سنوياً من آسيا مع قافلته. كانت تحمل له خزائن لا يُستهان بها: الحرير والتوابل والمرجان والشاي والفضة... كل ما أمكن أن تقدمه البلاد العربية وآسيا من بضائع ثمينة كانت تملأ مخازنه الاسكندرانية. منذ فترة طويلة لم يكن ثمة ما هو غير معروف لديه من الأشياء الجميلة المحيطة به: القاعات المرمرية المفتوح بعضها على بعض، أثاث الخشب المعطر المذهب، والعبيد المميزين.

بشرته المدبوغة جرّاء عمله في السفن الحربية ذات المجاذيف في عرض البحر سابقاً، وبفعل الأسواط التي ألهبتها، تعودت منذ زمن طويل على أرق أنواع المفارش. هيئته الضحمة لم يعد فيها أثر لذلك اللص الهزيل، الأهزل بقليل من حماره، أي صاحب معدة جائعة، وحفنة أفكار شق بها طريقه بين المدن التي أحرقتها الشمس في آسيا الصغرى. بعض هذه الأفكار كان ناجحاً، والبعض الآخر اقل نجاحاً، غير أن (فيرموس) كان قد فهم كيف يعمل لئلا تنقلب الخسارة عليه.

هكذا صار (فيرموس) رجلاً صلباً لم يعقه طريق حجري: باع في شوارع أنطاكية مسحوقاً من مومياء التماسيح يقوّي الطاقة الجنسية، تاجر بالملح غير المتوفر في مدينة الرُها، اشتغل في بيت الدعارة الصغير في بيترا، وبدأ أول تجارة بالحرير في الأمبراطورية... إلى أن وصل أخيراً إلى الإسكندرية! عمل في سرقة القبور، الدعارة وتجارة الخمور. الظاهر أن كل شيء كان مسموحاً به هنا. المدينة العالمية ذات الاتصال بشعوب العالم، المُحبّة للحياة والبهرجة، هذا ما لاحظه من أول مرة. كانت هي الوطن الصحيح له. هنا أمكن أن تتحقق كل احلامه الجريئة. قرر (فيرموس) وحصل على ما أراد.

Twitter: @ketab_n

(فيرموس) الثري الآن، (فيرموس) رجل العالم، (فيرموس) القوة الحقيقية خلف الواجهة المعقدة للسياسة المصرية. هكذا كان يُنظر إليه كضيف محبوب في حفلات أعراس حكام الشرق الأدنى، بطموح فوق الإقليمي، كما كان (أوديناتوس). روما، تدمر، أمبراطوريات! وآلات شطرنج لرجل مثل (فيرموس)، أقام اتصالاته الدقيقة بكل مكان من أجل إقامة أمبراطورية خاصة به مختلفة تماماً عن غيرها، غير مرئية، في ترف لا حدود له، محيط به. بسبب اللاعوائق استطاع تحقيق رغباته بخطط خيالية، صمم رؤاه برغبة في العمل ومتعة طفولية تقريباً، لكن لا أحد من القريبين منه كان يجهل فظاظته ومهارته التي اعتاد بها أن يحول ما كان قد خطط له إلى حقيقة. من تعرف إليه لا بد من أن ينصحه ألا يخلط خفة دمه بالحماقة، أو حب الشرب بالبلاهة، أو التباهي بالعظمة بخسران الواقعية. إحساسه بالوقت الصحيح لأي اتفاق يجعله دقيقاً في تنفيذه بلا رحمة. لهذا كان أسلوبه المعروف أن يكون على ضوء، فيمسك فريسته بيد واثقة. أصدقاؤه كثر لا حصر لهم، ليس ثمة من استطاع أن يتحرر من جاذبيته، فاستسلم لرغباته من دون اكتراث بأحد. تعلقه الشديد بالحياة البربرية كحديث نعمة، كان يظهر في طاقته المتفجرة وبساطته التي لا تقاوم، فقد كان يجذب إليه كل من يراه كما يجذب الضوء العث.

احتفال الأمسية السابقة كان كذلك ملائماً لذوق (فيرموس)، صاخباً وضخماً، وإن كان فقيراً نسبياً، إذا قورن بولائمه في بيته في الإسكندرية. غير أن المطبخ كان غنياً والجاريات تم اختيارهن بذوق، وجيران أهل القبيلة كانوا مرتاحين إلى (فيرموس).

كان في البداية يميل إلى محاربي الصحراء الشامخين، الذين كانوا في عنفوان احتفالهم قد انطلقوا بالرقص، ورددوا أغانيهم القديمة مثل الشباب. «أوه، ايتها الفتاة، انتبهي رجاءً»! بقعة حمراء على ركبته ذكّرته الآن بحسرة بالغة أيضاً بمحاولات (زنوبيوس) حين أراد منه، وهو في قمة سكره، أن يعلمه رقصة السيف لبني ماتابول. المحارب القديم صار فعلاً يتقافز أثناء الرقص مثل الشباب. وانتزع من (فيرموس)، في أي حال، بعض الاعتراف

Twitter: @ketab_n

به. الوجود المزدوج لقبيلته كحماة القوافل ولصوصها، في شخصية موحدة، ترسخ عميقاً في عقل (فيرموس): ففي الاقتصاد الكبير لم يكن الأمر مختلفاً. وليسخّر الرومان مفاهيمهم الحقوقية المملة ما استطاعوا.

حتـى تزويـج ابنته كان حركة شـطرنجية ذكية، أي صعود لهذه السـلالة البدويـة! و(أودينـاتـوس) كان كذلـك راضيـاً مرضيـاً. الآن لديـه الكثيـر من الخيول والجنود من أجل معارفه المحببين عنده باسم روما.

ربتـة خفيفـة نبـهّتـه ليستلقي على بطنـه، تأوه لكـن بارتياح استجاب للطلـب. والآن كان الجميـع مرتاحين، ما أجمل هـذا! كان راضياً إلى درجة أن لا أحد أعار اقتراحاته اهتماماً كبيراً. احتكار الحرير الذي أدى إلى ارتفاع الأسـعار في روما؟ كلا شـكراً. (أودیناتوس) تعلّق بكل اهتمام خلف ضرع الذئاب الرومانيين حتى تزداد رغبته في مثل هذه الخطط التي يمكن أن توهم الآمر (سـنديكوس) الرومي. القبائل من ناحيتها يمكن أن تتبع (أودیناتوس) لبعض الوقت، مادام النصر مرافقاً له. أصوات عدم الرضى في الشوارع التي اعتمـد عليهـا (فيرموس) كانـت بيد الفرس بدايـة بلا قيادة. بـدأ (فيرموس) يفكـر فـي الأمـر، وبـدا كما لـو أنه هـو الوحيـد غيـر المرتـاح، إذا ما صرف المرء النظر عن العروس.

كانـت جالسـة مهمومة متوتـرة إلى جانـب زوجها المعـروف بصخبه، مـا يعنـي أن مـا أوحى لهـا به (فيرمـوس) بصمت، لـم يكن يـدل على نقص فـي الحنكة. لإشـباع رغبات امـرأة، لم يكـن (أودينـاتـوس) بالتأكيد الرجل الصحيح، لم يشك (فيرموس) في هذا لحظة. يكفي المسكينة أن تعرف هذا فـي وقـت مبكر. ولو كانت ذكيـة لكان خيراً لها أن تجد لهـا حبيباً في الوقت المناسـب، ربمـا كان عليـه أن يهيئ لها واحداً كهدية عـرس؟ لا ضرر في أن يكون لها على الأقل صديق سـريّ في القصر. (فيرموس) نشـر هذه الأفكار في القصر وشمّها وتحسسها بشكل واسع.

بعـد كل ما تحدثه عنها أخوهـا الأحمق في الليلة السـابقة، وكان غارقاً في سـكره، كانت زنوبيا هذه واثقة من نفسـها مسـتقلة ومتفتحة الذهن. هذا على الأقل ما استنتجه (فيرموس) من القصص التي تحدث بها (گـاش) عن

Twitter: @ketab_n

صباها. حمداً لـ(بـَل)، أنه لم يعد يتذكر اليوم شيئاً، وإلا حصلت مصائب مـع الأب المتصلب. مفاهيـم الشـرف الضيقة كانت للأسـف هـي الجانب المتشدد لسكان الصحراء هؤلاء، في ما عدا ذلك هم أناس طيبون.

يقـال إنهـا كانـت واحـدة مـن الهاربـات اللائـي انطلقـنَ فـي شـوارع المدينـة بمحـض إرادتهـنَّ، ما ادّى إلى اسـتنتاج مـا. هل كانت رومانسـية؟ حاجباهـا الكثيفـان والنظرة الغامضـة الممتلئة توهجاً أوحت بمـا يؤيّد هذا، بعـد كل مـا عرف عنها. (فيرموس) كان يقدر النسـاء الرومنسـيات، فقد كان لهنَّ ما يبرّر سلوكهنَّ.

«أيمكن الحصول هنا على مشمشـة، يا حلوتـي؟» لم تمر أكثرمن بضع دقائق على سـماع هذه الرغبة حتى استطاع (فيرموس) أن يعض على واحدة من الفواكه الطازجة الرائعة.

«هْـم، مدهش. ماذا ترين؟» متوجهاً وهو في مزاج رائق إلى الماسـيرة- المدلِّكـة. «إلـى أن يحيـن موعـد الحـوار مـع الديكابروتيين، لا يـزال هناك وقـت، ومعبـد (بــَل) أعرفه مـن قبل. ربما علـيّ من أجل التغييـر أن أذهب لزيـارة الأميـرة. ألدينـا هديـة ملائمـة؟». اختفـت الجاريـة بهـدوء لتبلـغ سكرتيره برغبة سيدها.

(فيرمـوس) تناول مشمشـة أخرى. علـى المرء أحياناً وبكل بسـاطة أن يجـرب حجماً غير معروف. لقد حقق أعلى أرباحه في الأغلب هناك، حيث الآخـرون لم يكونوا قد عرفوا أي أثر للتجـارة. الأميرة الصغيرة وعدت، في أي حال، بحفلة ممتعة بعد الظهر.

وجدها وهي برفقة خادماتها في مخادعهنَّ غاية في الإثارة.

وقبـل أن يُفتـح لـه الباب تناهت إلى سـمعه أنغـام أغنية نطقـت بالورع والاحترام ولم تخلُ من أخطاء. وبنظرة أدرك الموقف، فأرسـل إلى الخادمة التي جلبته إلى هذا المكان، بإشـارة واحدة إلى الخارج. هديته التي لا شـك فـي أن لا أحـد قـد اهتم بهـا ألقاها علـى الفـراش المجرد مـن كل الأغطية، وقصـد الذهاب ليرى هيئـة زنوبيا، التي أدارت له ظهرها. لـم يستخسـر حتى نظـرة واحدة إلى الأثاث الفاخر. المرمر الـوردي في المقدمة، ذهبٌ وأزهار

Twitter: @ketab_n

وردية صغيرة للزينة، ومشاهد الرعاة العطرة على الجدران. الأرائك المزينة بالخشب المنقوش المرصع بالعاج والأحجار الكريمة النادرة- لا شيء في هذا المكان، بكل سحره، راق لمزاجه.

الفتاة، هكذا أطلق تلقائياً على تلك الهيئة الرقيقة المقابلة له، توقفت الآن عن الغناء، وابتدأت تشتم بصمتٍ، بلا انقطاع. أميرة تدمر كانت، بلا مجاملة، ثملة. كان يمكن أن يمر هذا، لكن ما أثار الخوف أنها بسيقانها المترنحة كانت تجلس على حافة شباك ارتفع عن الأرض أربعين متراً.

«منظر جميل» قال وهو يتسلق إلى جوارها، ولم تكن، نظراً إلى ضيق المكان، مغامرة بسيطة. نظرت زنوبيا إليه من تحت جفون ثقُلت، وفكرت بجهد، في ما لو كانت تعرف الرجل. ثم تذكرت ثانية: لقد كان في الملابس المصرية، وكان بالأمس قد جلس في وليمة العرس قريباً منها. تأملت بفضول الرجل البدين بزينة وافرة، الذي بدا رغم طوله المتوسط ذا طلعة بهية. شعره بنّيّ كستنائي كثيف التجعيد، بشرته المائلة أصلاً إلى الشحوب اسمرت من حرارة الشمس. وجدت وجهه مقبولاً، شفتيه ممتلئتين مثيرتين وعينيه راغبتين يتطاير منهما شرر الشهوة. لو كانت صاحية بعض الشيء لما فاتتها سمات الصلابة والحسابات الساكنة حول عينيه.

تأملها (فيرموس) كذلك بلا وجل، مثلما تأملته هي. بلا كلام تجاوز المهانة في وجهها.

«أترون برج الضريح هنا في الجانب الآخر؟» سألته بلسان ثقيل، «والسقف المزين بغطاء فضي؟ هذا عائد لي». كأنها أرادت التأكيد، فتناولت جرعة جديدة. «والآن» أجاب (فيرموس)، «أيعني هذا أنكم تريدون أولاً أن تنزلوا إلى هنا برغبتكم؟ في هذا الخصوص ربما عليّ أن أنصحكم بإلحاح: لا تنسوا أن برج الضريح هذا ما زال عائداً إلى زوجكم. الجدران تنتظره».
أنزلت زنوبيا الجرة من فمها فاتحة عينيها بدهشة.

«إذا كان ذلك يفزعكَ»، ضحك (فيرموس) بصوت خافت. «إذاً عليكم فعلاً أن تقفزوا». مرت فترة من دون أن ينبس أحد منهما ببنت شفة، عدا أنه أخذ النبيذ من يدها بلطف، وذاق جرعة كبيرة ثم سكبه في البالوعة.

Twitter: @ketab_n

عندما فرغت الجرّة، تركها (فيرموس) تسقط، وتطلع إليها وهي تتحطم. نظر إليها ليسليها.

«حين كنت أصغر»، بدأت زنوبيا فجأة، «كان هناك صبي مسيحي أراد إنقاذي على حصانه الصغير. كان عمره بالتأكيد إحدى عشرة سنة؛ لكنه الآن لا شك بلغ أربع عشرة سنة واستطاع...».

«... لا يستطيع أن يؤدي شيئاً لكم»، أجابها (فيرموس) مقاطعاً. لم يكن يتوقعها بهذه السخافة.

«نعم صحيح»، أومأت زنوبيا برأسها متذكرة، مواصلة النظر إلى وجهه المستدير ورأسه ذي الشعر الأجعد الكثيف: «سوف لن تأخذوني معكم، صحيح؟». نظر إليها (فيرموس) بلا كلام. وبدأ يخمن أنه هنا أضاع وقته. وواصلت الكلام:

«بالطبع لا، وما الذي قد ينوبني من ذلك أيضاً. أن أستجير من الرمضاء بالنار. التجربتان الأوليان كانتا كافيتين لي تماماً، وأية أخطاء!».

«خطآن؟» رفع (فيرموس) حاجبيه مندهشاً. زنوبيا ترددت، ربما ارتكبت خطأ ثقيلاً ولعب ضباب النبيذ في رأسها، غير أن الكحول منحتها في الوقت نفسه شجاعة، ما معنى هذا، هزت كتفيها فجأة، فقد كان واضحاً لها منذ البداية، أو؟

«إذا كان هذا ينفعكم»، أجابت، «إذاً الأفضل لكم فعلاً أن تنصرفوا» نظر إليها بإعجاب. كلا، زيارته لم تكن غلطة. لقد أصابت الصغيرة فرصة. (فيرموس)، قدم نفسه: «تاجر من الإسكندرية، وليس بلا أهمية، إذا سُمح لي أن أقول هذا».

أجابت زنوبيا جادة: «أميرة تدمر، وتماماً بلا أهمية». وحاولت الإيحاء بانحناءة بسيطة، ففقدت توازنها وتمسكت بإطار الشباك. كان كل شيء يدور في رأسها.

«حتى الآن»، قال (فيرموس)، «ربما كان الأولى بنا أن نأمر بشيء من الطعام، حتى تستعيدوا وعيكم، فقد آن الأوان أن نتحدث بجدية».

ثم عرّفها بأسرار حياة البلاط.

Twitter: @ketab_n

«الإدارة الاقتصادية»، شرح لها، «هي الأساس، إلى الآن جسدكم هو رأس مالكم، استفيدوا منه، كوني حاملاً».

«لكنني لا أستطيع تحمل الأمير»، اعترضت زنوبيا بانفعال.

«لهذا السبب بالذات»، واصل (فيرموس) حديثه بتذمر، «سوف لن يمكنكم التخلص منه أبداً قبل أن تكونوا أنجبتم له ولداً. إذاً؟». أيدته زنوبيا، «هذا الرجل يقول الحق». «ولكن..».

«نعم أنا أعلم»، قاطعها (فيرموس) ومسح بإصبعه بلطف على خدها الذي بدا عليه الانفعال أيضاً، صدت عنه بامتعاض، لكن متأثرة بكلامه. وانطلقت منه ثانية ضحكة غبطة خافتة.

«اقتصاد، قلت أنا، فقط الآن في الأيام المهمة يلزم أن ينام عندكم. وللأيام الأخرى. رتبوا له...».

«أخرى حمراء الشعر مكتنزة اللحم»! أكملت زنوبيا قارئة أفكاره.

«تأثرها الطفولي بالتطلعات الجديدة أعجبه كثيراً.

«ممتاز»، قال مادحاً، «أنتم تتعلمون بسرعة، لا بد أن تحصلوا على معلم، معلم بمعنى الكلمة». معلم! كلما أطال التأمل في الفكرة التي قالها الآن، ازداد قناعة بها. الضوء الذي لمع في عينيها، أكد له أنه قد أوحى لها بالفكرة الصحيحة.

«أوه، نعم»، نادت زنوبيا، لقد كنت دائماً أفضل من أخي، عندما كنّا لا نزال نتلقى سوية دروساً في البيت، لكن بعدئذٍ لم يعد يُسمح لي أن أشارك في الدروس، عندها بدأت الأشياء المثيرة مثل علم الفلك والاستراتيجية..». وسرحت غارقة في الأوهام.

«أيتها الأميرة»، أفصح (فيرموس) فرحاً، «أنا أتعهد أن أهيئ لكم معلماً، كلمة شرف منّي. الأفضل، الذي يمكن أن يحصل المرء عليه مقابل نقود. أصلي»، وأشار إلى الفراش حيث العلبة اليتيمة ملقاة، «كنت أريد أن أقدم لكم قلادة بخمسة صفوف من اللؤلؤ كهدية، لكن يبدو أني سأصطحبها معي ثانية». ضربته مازحة وكادت تفقد التوازن أيضاً، فاضطر (فيرموس) أن يسحبها بقوة إلى الوراء، لتبقى على حافة الشباك. باندهاش نظر كلاهما إلى

Twitter: @ketab_n

الأسفل وانفجرا ضحكاً.

«ربما» قال (فيرموس) «إنه الوقت المناسب لكلينا أن نتفاهم بعد الطعام بالتأكيد. ماذا تقولون؟».

«معذرة، أنا مضيفة مهملة». واحمر وجه زنوبيا. وتسلقت بسرعة إلى الغرفة، فتحت الباب وأعطت الخادمات في الخارج، اللائي كنَّ يسترقن السمع، تعليماتها المفصلة. سرعان ما أتت قافلة الصواني، عليها ما لذّ وطاب: لحم مقلي مغمس بالعسل، تينٌ بالفلفل، خضروات مخللة، بيض في صلصة الخردل، فواكه طازجة، جبن ماعز وفطيرة باللحم المفروم منقوعة بشراب محلّى بالورد واللوز والجوز. أمرت أن يوضع كل هذا على عدد من المناضد عند الشباك، وعادت ثانية إلى مكانها السابق، إلى جوار الاسكندراني. استمتعا بالطعام بشكل عجيب.

ولفترة تأملا وهما يمضغان الطعام كيف غطى اللون الأزرق السماء الصافية مساءً.

«كلا، بجد»، تناول (فيرموس) الموضوع أثناء أكل الحلويات ثانية، «المعلم، فكرة رائعة. السؤال هو فقط كيف يمكن أن نجعل الأمر مقبولاً لزوجكِ».

«أوه، هذه ليست مشكلة. سوف أضبطه مع ذات الشعر الأحمر في الفراش وأشتكي بعدئذٍ أنه هجرني». نظر (فيرموس) إليها شزراً معترفاً بفطنتها، هزت زنوبيا كتفيها. «هكذا كانت تعمل أمي دائماً عندما كانت تريد من ابي فستاناً جديداً، كانت في البداية تتمنع عنه، حتى يذهب إلى واحدة من نسائه الأخريات. ثم تتشكى من أنه أهملها. وكانت ناجحة في ذلك جداً. هذا ما لمسته حين كنت طفلة صغيرة».

«أيتها الأميرة، أنتم تتمتعون بالصفات الطيبة، فأنتم تفاجئونني على الدوام. منكم ستكون الحاكمة الأولى لكل الشرق». رفع لها كأسيه الفارغتين، نخب علم الفلك والاستراتيجيا»!

«نخب الإغريق والفلسفة وقانون الضريبة الرومي»، أكملت زنوبيا نخب الشرب ورفعت الكأس أمامه. «أوه، نحن في حاجة إلى نبيذ، إلى

Twitter: @ketab_n

هنـا، أنتِ في الخارج، إلينـا بالنبيذ»، مع الكلمات الأخيـرة اصطدمت الفتاة التي جلبت النبيذ أخيراً بالباب. كانت جميلة وبدينة وممتلئة الأعضاء. ولون شـعرها برونزي. بخجل وضعت جرة النبيذ وانسـلّت، بعد دخولها انطلقت ضحـكات جريئـة. زنوبيا و(فيرمـوس) كانا في حاجة إلى نظـرة واحدة فقط ليتأكـد لهمـا أن أحدهمـا عندما نظر إلـى الجارية فكّر في ما فكـر الآخر. أما الجارية فصار مستقبلها يبشر بأنها ستكون عشيقة الأمير.

زنوبيـا تعهـدت بمواصلـة الأمـر، وبـأن تكتب هـذا وذاك عنـه، وتعهد (فيرمـوس) لهـا أن يرسـل لهـا المعلـم المطلـوب، لمجـرد حصولهـا على الموافقـة بذلك. حيّيا نجمة المسـاء بالغناء سـوية، وعندما ذهب (فيرموس) كان في أي حال مسروراً بل وسعيداً، إذ مثل هذا لم يحصل في العادة إلا بعد عقد صفقات تجارية.

Twitter: @ketab_n

كليليا

مثقل بالهموم جلس تاجر الحرير (كليمنس) إلى طاولة الكتابة. الرفض الـذي استلمه مـن (نيسـا) كان غامضـاً. التجارة مـع بلاد فارس بـدأت بعد الحـروب، في البداية كانت خجلة ثم نشـطت تدريجـاً، وكانت لا تزال هناك قوافل كثيرة في الطريق. لمَ لم يسـتطع أن يحصـل الديكابروتي على جِمال كان قـد طلبهـا؟ أعاد قـراءة الكتاب مرة أخـرى، فقد كان مؤدبـاً في اللهجة، ورغم ذلك كان ثمة ما جعل (كليمنس) يشعر بالخوف.

في الطابق الأسفل من الدكان استطاع أن يسمع صوت زوجته، تحدثت بلباقـة مع عميلة ونصحتها فـي اختيار الألوان. كان (كليمنـس) دائماً فخوراً بقابليتهـا للتجارة. (يوليا) عرفت كيف تمرر قماشـاً على كتف زبونة مترددة، عرفـت متى تتكلم لتقنع، ومتى تصمـت. لديها حدس لم يخدعها، إذا كانت واحـدة مـن عميلاتها قـد قررت في داخلها رفض أو قبول سـلعة بشـكل ما، جعلت تعليقاتها ملائمة دائماً لرغبات المشـتري السرية. صراحتها في نقدها مثل تشـجيعها، كانت دائماً في اللحظة المناسـبة، وكانت بين سـيدات تدمر تعد ناصحة مخلصة ومطلوبة لا تُبارى.

غيـر أن تلك النسـاء بـدت لـه الآن أقل إقبالاً مـن ذي قبـل. والحديث المألوف الصادر عن الدكان لم يعد يتناهى إلى سـمعه كثيراً كما في السـابق. (يوليا) أصبحت بشكل عام أكثر هدوءاً وانشغلت بنفسها في الفترة الأخيرة. فهل لاحظت هي أيضاً التغيرات الهادئة؟

خيم الهدوء في الأسـفل ثانية. (كليمنس) سـمع وقع صندلها الخشبي. دفـع همومـه جانبـاً والتفت باسـماً إلى البـاب. غيـر أن (يوليا) لـم ترد على ابتسامته وهي داخلة.

Twitter: @ketab_n

«أهناك شيء حبيبتي؟»، أراد أن يعرف.

«لقد كان (باولوس)، المجهِّز، الذي طلبت منه قبل بضعة أسابيع أن يأتي ليبحث عن كليليا، إذا جاء عن طريق أنطاكية . وقد عاد». بدا على (يوليا) الشرود.

«ثم ماذا»؟ واستند إلى الوراء بحذر.

«لم تعد هنا».

«ماذا يعني هذا، لم تعد هنا؟»، رفع كلتا يديه معتذراً عن اللهجة الهجومية غير المقصودة، «هناك تجري الأمور بعد الحصار والتحرر من الفرس مرة نزولاً وأخرى صعوداً. هو لم يعثر عليها بالتأكيد». حاول (كليمنس) أن يخفف من نبرة صوته. «(باولوس) ليس صبياً عندنا، أنا لا أفهم لماذا أنت دائماً وفي كل مرة بهذ....». قاطعته (يوليا) بانزعاج:

«كان لطيفاً جداً. ولم تعد هنا: لم تعد هنا. حتى قبل المعارك، كان (باولوس) كلف عدداً من جاراتها القديمات». جلست (يوليا). بدا أن المسألة قد أثقلت عليها. «يقولون إن كليليا قد أجهضت بعد زيارتك العام الماضي. وإن البلدية ربما اتهمتها... الظروف كانت نادرة وغريبة في أي حال. يقولون، أنت عارفٌ. ربما كانت عملية إجهاض. هذا ما كان يُحكى». بحزن فركت أحد أردافها. «لا بد أن كليليا تعيش منعزلة تماماً، طيلة الوقت. وقبل سنة اختفت فجأة». نظر (كليمنس) إلى هموم زوجته بتعاطف كبير. إلى أن بدأت النظرة المتوسلة، التي أرسلتها إليه تحرك فيه بذرة من اتهام.

«أنتِ لا تتوقعين ربما بالتأكيد أن... من المستحيل عليّ أن أترك المتجر ثانية. ليس حيث أن..». قاطعته (يوليا): «لكن يمكننا أن نرسل (أودو). أصبح بمرور الوقت بالغاً بما يكفي. إنه صبي جيد، رجاءً (كليمنس)»!

«مستحيل»، (كليمنس)كان مصراً هذه المرة أن يفرض هيمنته. «لا أستطيع التخلي عنه. إنسي هذه الفكرة (يوليا)».

في الأسبوع اللاحق رفع (أودو) نظره إلى سياج مدينة أنطاكية عالياً، بعد عدة حصارات من قبل الفرس والروم والفرس ثانية وأخيراً الحصار التدمري تحت قيادة (گاش)، لم يبقَ منها الكثير. ارتفعت الخرائب المسننة المسخمة

Twitter: @ketab_n

بالدخـان المرتفـع أمامه فـوق رأس الخائن (ماريانس)، ذلـك الرومي الذي مـن أجل ملك الفـرس لعب لفترة قصيرة دور حاكـم المدينة. غربان رفرفت فوق الجمجمة المسـخّمة بسواد يلفّها وإكليل الغار الممزق، الجمجمة التي جرها (گـاش) قبل سـنوات بابتسـامة مهينة، بعدما أحبطت خطته حين ظهر بـلا جدوى أمام (شـابور)، وكذلك بلا جـدوى كان (ماريانس) قد ركع أمام قاهره، الذي توجّه إليه ساخراً وقطع رأسه بيده.

تحـت عينيـه الميتتين جـرت حياة المدينـة أنهار خجل قبـل أن تصحو ثانيـة. (أودو) أيضـاً مرّ من هنا بعد أن فتش جنـود الحرس التدمريون صرته، من دون أن يرفع رأسه بنظرة ثانية. التجوال بين التلال سبب له إرهاقاً شديداً. التنظيفـات والطرق وحركة البنـاء في كل مكان، وبيـن الخرائب عاد العمال لينصبوا كمرات السـقوف، وصْف (كليمنـس) للطريق يبين أنها بلا فائدة في هـذه الفوضى، إذ من الحيّ الذي كان فيه البيت البسـيط للإسـكافي (توما)، لم يبقَ سـوى أسـس جدران متفحمـة، بينها وجدت الجـرذان مأوى لها. في وضح النهار نبشـت الأقفاص والزبالة، حتى كلاب الشوارع الهزيلة ابتعدت عنهـا. (أودو) لمـح مجموعـة أطفـال كاد يهلكهـم الجوع، يرتدون أسـمالاً ممزقة، مشـوا بيـن الغرف الداخليـة المتهاوية، بحثوا عن صيـد بين الكلاب والجرذان. كانت الشوارع مغلقة بكسر الطاباق المتبقية وأخشاب سكن بينها مـن لا مـأوى لهم، تحت سـقوف نصبوها. عـدد قليل مـن المواقد توهجت فيهـا النيران بطول الطريق المتعثر، وعنـد الذين اقتفى (أودو) أثرهم. غير أن ناسـاً قليلين اسـتقروا في ما تبقى لهم من ملك، هزوا رؤوسـهم جزعاً، إذا ما سأل (أودو) عن كليليا، الأبواب التي بقيت سالمة صُفقت بغضب في وجهه لمجـرد سـماعهم وقع اسـمها. عبدة شـابة هزيلـة، أذهلتها عينـاه الزرقاوان الباسمتان وقطعة الشحم التي كانت ضمن زاد السفر، همست له أخيراً وهي خائفة بعنوان، قبل أن تعود بجرة ماء إلى واجهات الخرائب الصامتة.

هنـا وقف أمام البيت الأصفر، الذي ذكرته له كمكان إقامة كليليا، قرب قاعدة الجنود. كان عليه أن يطيل سحب الجرس المخشخش، قبل أن يسمع في الداخل خطوات. سـيدة عجوز فتحت الباب وأطلقت سـحابة من روائح

Twitter: @ketab_n

نبيذ حامض قديم وعرق نتن.

«ما هذا يا حلو، مبكراً في النهار بعض الشيء هُمْمْمْ؟ لم تأتنا قبل ذلك. في هذا الوقت (باولا) تحت التصرف أو (هيلينا)، وإن شئت انتظر». نكشت في أسنانها السوداء منزعجة، وهي تتطلع إليه، فتلعثم (أودو).

«(كليليا)؟ كلا، ليس لدينا (كليليا). لدينا... »، واصلت العجوز.

«حسناً، (تيسبه)، إنه لي»، صدر صوت نعسان من حجرة مظلمة خلفها. «تعال معي»، ومن خلف الأكتاف أضافت: «يسمونني هنا (كريسايس)». مشى (أودو) ماراً بـ(تيسبه) المتثائبة التي نفثت من جوفها رائحة ثوم قوية وبختهم من الخلف. غير أن الرائحة في داخل البيت كانت أشد وطأة. بقي (أودو) واقفاً ليتنفس هواءً نقياً. كانت المرة الأولى التي يدخل فيها بيت دعارة. الشباب الآخرون من عمره كانوا إذا جرى الحديث عن ذلك، أو مرت واحدة من النساء بخلخالها، رأيتهم يتهامسون، لكنهم لم يجرؤوا الدخول مطلقاً إلى مثل هذه البيوت. نظر حوله. خلف الباب مباشرة، لاح له نصبٌ قائم كتمثال روح البيت فرح شاهرٍ له ذَكَرَهُ الخارق بحجمه. في المقابل انتصبت صورة (ليدا) ذات النَهدين الكبيرين، وكيف اغتُصبت من قبل ذكر البجع، وفي لوحات أخرى من قبل حية، ما جعلت (أودو) يحمر خجلاً. ومما استطاع أن يميزه نقوش ملأت القاعة وزينتها، غير أنه عندما أطرق رأسه إلى الأسفل من الخجل، رأى على الأرض بين الأثاث المتناثر هنا وهناك أزواجاً متعانقين وفي سبات عميق.

أسرع (أودو) فوراً إلى دليلته، إلى فتاة نحيفة انتقلت بقفزة قوية إلى السلم. تطلع إليها بفضول متيقظ. يحتمل أن يكون شعرها المشع الأشقر الذهبي هو الذي أعطاها الاسم الفني (كريسايس). تمايلت بشعر منكوش الخصلِ ربما على مشبك بلون اللؤلؤ الرمادي الهادئ، أو كانت في حاجة إلى مشبك. وكانت بملابس داخلية فقط عندما وقفا في غرفتها، حجرة ضيقة بمضجع خشبي وحوضٍ للغسل، رأى كذلك وجهها مخيفاً شاحباً بعينين مائلتين وأنف أفطس كأنف القطة الصغيرة. لكنها قطة فقدت كل خفتها. غير أنه لم يستطع أن يرد عينه عنها. لها نهدان حمراوان منتصبان كأنهما وردتان

Twitter: @ketab_n

جوريتـان فـي صدر فتاة شـابة، لاحظ هـذا مثلما لاحظ خصـراً رقيقاً تماوج بأوصاف كاملة على ردفين ناصحين غاية في النضوج والكمال. (أودو) كان فـي حاجة إلى وقت ليتذكر أنها ابنة عم سـيده، التي بسـرعة وبلا رغبة بدأت تبتعد عنه. بلع ريقه.

«(تومـاس) فـي حال جيـدة»، أخيراً انطلقـت منه هـذه الكلمات فجأة. وبفزع سحبت ملبسها الداخلي ثانية، أخذته وحملقت فيه.

«إنه في الإسكندرية...»، واصل (أودو) مرتبكاً.

«نعـم، ليعرض نفسـه للموت»، قالـت بتأوه، «من أنت؟ لماذا أرسـلك أنت؟ دُر حول نفسك». الارتجاف في صوتها كشف كذب سلوكها الخشن. (أودو) بلّغ رسـالته، أثناء ما كانت ترتدي ملابسـها. أقرباؤها في تدمر، شرح لها، يعرضون عليها بيتاً. نظرت بتأمل حول نفسـها، وسـحبت ملاءة الفراش القذرة إلى الكومودو. سُـمع مقبض باب الغرفة المجاورة يتحرك، ثم صوت صرير لحركة حذاء جلدي منتظمة على الخشب.

«الوقـت متأخر بالتأكيد لتكـون ابنة عم (كليمنس) المحبوبة، إذا ما نزل المرء، هنا أولاً»، لاحظ بمرارة كيف فاضت عيون (كليليا) بالدموع.

«أرجـوك، لا، أخ ..»، لمـس (أودو) بـلا خبرة كتفيهـا الدافئتين وجفل سـاحباً يديه ثانيـة. «أنا أقصد»، ابتـدأ بحذر، «لا داعي أن يعـرف (كليمنس) شـيئاً مـن هذا، أليس كذلـك؟»، رفعت (كليليا) نظرها إليـه، بدت الآن كأنها قطة صغيرة،خرجت لتوها من الماء. كان بوده لو عانقها.

«أنتَ تكذب من أجلي؟».

نظر (أودو) إليها بعينين طفوليتين زرقاوين: «نعم بالتأكيد... ألا تريدين الابتعاد من هنا؟».

«وإذا كنـت أريـد الابتعاد من هنـا؟»، فتحت (كليليـا) عينيها اللامعتين الغارقتيـن بالدمـوع. «تطلـع حولـك فـي هـذا الاصطبـل و..»، ثم أشـارت باستسـلام إلى الجدار الملطخ، وخلفه بالذات ارتفع صوت تحول بالتدريج إلى صراخ روتيني منتظم أوحى ببلوغ قمة الشـهوة الجنسية. «ليس ثمة شيء أحـب علـيّ من هـذا»، أضافـت، ومسـحت بملاءة الفـراش خديهـا. «لكن

Twitter: @ketab_n

(تيسبه) تريد بدل خلو».

«لديّ مالٌ كثير، سيكفي». مرّر (أودو) يديه في هذه الأثناء تحت ردفيها ومسد عليهما بعينيه فقط. «أيتها السيدة، أتأتين معي إلى تدمر، رجاءً؟».

«رجاءً؟»، بابتسامة أنزلته ومسحت على خده. «منذ فترة طويلة لم يقل لي أحدٌ رجاءً. الآن إذا كنت جاداً. ماذا أسميك، رفيق سفري؟».

«(أودو)».

رددت اسمه كثيراً، مع نجوم ليل سفرة عودتها. وفي كل مرة مدت يدها لتتماوج على خصره تضعف ركبتاه. كان ضحيتها، أما هي فاستمتعت بهيمنتها بعد فترة طويلة من الخضوع والمعاناة، وعلّمته كيف يداعبُ كل عضو فيها. قادت يديهِ، بعد ما ركبت عليه، وعيناه عبرتا بها إلى السماء. من جهته تمنى لو لم يصلا أبداً.

حين دخلا بوابة تدمر راكبين، تمسكت (كليليا) بيده.

«(أودو) أنا خائفة من (كليمنس) و(يوليا). سيلاحظان ما حصل. إذا كانت سيدتك هكذا كما وصفتها فستلاحظ ذلك علينا».

ضغط (أودو) على أصابعها وتحدث إليها مهدئاً، لكن شجاعته انخفضت، حين انعطفا إلى الأزقة التي ألفها. كل شيء بسيط، حاول أن يهدئ نفسه. سأحدثهم كيف وجدتها في الحي التعيس، وكيف بحثت عنها. ماذا حصل؟ كل الأشياء بمجملها تافهة مقارنة بما سبق في الماضي. عندما تسلل إلى زنوبيا في القصر، ليسرق الرسالة. حينها لم يكن سوى طفل. بإصرار سحب (كليليا) خلفه إلى المتجر. غير أن (كليمنس) حين رفع ناظريه من الحساب، وحين جاءت (كليليا) بخطوات حازمة إلى خلف طاولة المحل، انخفضت شجاعة (أودو)، فتركا يديهما على عجل، لكن هذا لم يكن بسرعة عيني (يوليا).

«هذه ابنة عمكم (كليليا)»، ارتبك ثم قال: «كان بيتها قد احترق. لقد وجدتها عند عائلة صديقة. عند ... عند ...».

«قفزت (كليليا) وقالت خجلة «... عند خباز ...».

«... قصاب» نطق (أودو) في اللحظة نفسها. حنت (يوليا) رأسها ببطء،

Twitter: @ketab_n

ثـم طلبـت من زوجهـا أن يأتي معها لمحادثـة قصيرة في الخلف. واسـتطاع (أودو) من دون جهد منع (كليليا) من الهروب من المحل.

«هي تعرف كل شـيء. ألم ترَ ذلك؟ أنا لا أبقى هنا، حتى دقيقة واحدة. دعنـي أذهـب رجاءً». تحـدث إليها بهمس وإقنـاع، وهزَّ مفاصـل يديها، بلا جـدوى، فيداهـا قاومته وصـارت أمام صدره، ثم أمسـكت فانيلتـه وانكبت باكية على كتفه. أحس بها وهي تبكي بعبرات وشـهقات، وأصابعها متمسكة بالكيس الجلدي، الذي حمله تحت الرداء حول رقبته.

الكيس الصغير! الرسالة! جاءته الفكرة المنقذة. بدهشة جالت (كليليا) العنيـدة نظرهـا على نصـف المدينة، وهـي نازلة عند قصر تدمـر. ركض بين القاعـات والمداخـل حتـى لـم يبـقَ لديهـا وقـتٌ لترمي نظـرة علـى الروعة الغريبـة المحيطة بهـا. «(أودو) ماذا يعنـي هذا، هذا لا ينفع مطلقـاً». غير أنه لـم يكترث لهـا وأمر الحـرس بلهجـة حازمة، والـذي وقف تحـت تصرفه، أمرهم أن يبلغوا زنوبيا.

«قولـوا لها، (أودو) في انتظارها، هي تعرفني». ذهب الرجل هازاً كتفه، وهازلاً.

«(أودو)، قُـل لي، ماذا يعني هذا. ماذا نفعل هنا؟ أنت بالتأكيد لا تعرف الأميرة».

«بلـى، بلى، نحن نعـرف بعضنا مذ كنّا أطفالاً. حتـى أني كنت صديقها المفضـل، لفتـرة من الزمـن على الأقـل». (كليليا) لم تتوقف عن هز رأسـها غير مصدقة. «كلا حبيبتي، اسـتمعي إلـيّ، صحيح كل ما أقول، وإن كنت قد خنتها مؤخراً. ولكن». أخرج بسرعة ظرف رسالة قديمة متسخة، أخرجه من الكيـس الصغير الموضوع حول رقبته، ودسّـه في يدهـا. «أعطها هذا وقولي لها، الرسـالة كانت لـ(أودیناتوس). لقـد فتحتها في اليوم الذي لم أحضر فيه موعدنا. هل حفظتِ هذا؟».

«نعم بالتأكيد، لكن لماذا لا تقول هذا لها بنفسكَ؟». تردد (أودو) بعض الشيء، وبشوق مسح بيده الشمع المحكوك، وكان الظرف بيد (كليليا). تذكر ثانيـة ذلـك اليوم الذي كان قد سـرقه فيه من القصر. هل حصـل هذا في هذه

Twitter: @ketab_n

الغرفة؟ أكان مستنداً إلى ذلك الحائط للتمويه بينما كان يحرك مروحة ريش؟ لم يستطع أبداً أن يحدث زنوبيا عن بطولته، غير أن الرسالة كانت عنده على الدوام منذ ذلك اليوم. ربما على أمل أنها إذا ما قرأتها، لربما تعفو عنه، إنه لم يخفها في تلك الليلة، عندما طرقت باب مخزن (كليمنس) للحرير. وجهها الباكي مَثُلَ أمامه. لم يرَ زنوبيا من قبل تبكي.

«لا أستطيع، قولي لها، لم أستطع مساعدتها»، وبعصبية نظر حوله. فالصخب الذي سُمع في الغرفة المجاورة جعله يهرب كأنه حيوان مسعور. (كليليا) استدارت، هي الأخرى، مذعورة إلى أحد مصراعي الباب. السيدة التي دخلت كانت جميلة، تذكرت أغنية سالومون: أنتِ جميلة يا صديقتي. عيناكِ مثل عينيّ الحمام، وشعركِ قطيع ماعز نازلٌ من جبال كيلياد، شفتاكِ بلون حبلٍ قرمزي، ونهداكِ كأنهما توأمان ولدا حديثاً لغزالة رعت بين الزنابق. حملقت مسحورة في الأميرة.

«(أودو)؟»، بدا كأن زنوبيا ذُكرت أيضاً: تنفست بسرعة للحظة، بدت كأنها طفلة مصدومة لمجرد أنها رأت المرأة الشابة المنهكة أمامها، التي بخجل تلت كلماتها المحفوظة، إضافة إلى ذلك ناولتها الرسالة. غير أنها كانت أيضاً ملكة من رأسها إلى أخمص قدميها حين تناولت الرسالة. تضمنت الرسالة، أن زنوبيا، بنت (زنوبيوس)، لها علاقة بعبد مسيحي، موقعة باسم (بالبوس)، مختومة بخاتم (سنديكوس) الرومي. مزقتها في الحال إلى قطعٍ. صرخت (كليليا): «لقد تعلّق كثيراً بهذه الرسالة».

«الرسالة خطرة. لماذا أعطاكِ إياها؟». شجاعة (كليليا) انخفضت، لا بد أن (أودو) قد توهم. قالت هامسة:

«كان يريد بها أن يتوسل إليكِ من أجلي». الهدوء جعلها تنظر إليها. تأملتها زنوبيا من دون غضب.

«لا بد أنكِ أعجبتِه. لقد أعجبتُه أنا أيضا مرة، أتعلمين؟». مرة أخرى بدت كأنها طفلة متروكة. وكان على (كليليا) أن تتحفظ لئلا تلامس الوجه الجميل.

«والآن تعالي لتحكي لي كيف يبدو هو الآن؟» بعد مرور بضع ساعات

Twitter: @ketab_n

تعـرّف الإثنان بعضهما إلى بعض بشـكل أفضل نسـبياً. زنوبيـا تمطّت هادئة على الكرسـي، وأنصتت إلى قصة الدعارة من (كليليا) التي ما زالت مبهورة وهي تنظر إليها.

«مرسـومة فعلاً؟» سـألت وهي تضحك. «كان هذا جديداً عليّ رغم أنه هنـا ليس بيت دعـارة رديء. كثير مـن العاهرات العائـدات لزوجي يتجولنَ هنـا»، وبإشـارة واضحة إلى نفسـها. «وأنا أيضـاً يُدفع لي لهـذا الغرض مبلغٌ ليس قليلاً، لأني أمنحه إخصابي لإنجاب الأطفال».

ضحكت بمرارة. فهزت (كليليا) رأسها:

«كلا، كلا، العاهرات لا يمنحنَ الإنجاب، هنَّ يحتطنَ».

«هـذا مـا حصل لنا»، أوضحـت زنوبيا ورفعت الـكأس لا لأحد معين، «وهل ... مع (أودو) كذلك، حقيقةً ... صحيح؟» وأومأت برأسها مؤيدة.

«وكيـف كان؟»، كان علـى كليهمـا أن يكركرا لجرأتهمـا، وترامتا قليلاً ببعض المعجنات.

«كان قوياً»، هنا افتعلت (كليليا) وقفة شغف، وكادتا تنفجران ضحكاً.

«لا أسـتطيع تصـور هـذا تمامـاً. لا أزال لا أعرف كيف كنـا نجلس في مخبئنـا عنـد النهـر، ويـروي واحدنا للآخـر القصـص. ذات مرة أمسـك بي فعنّفته لهذا السـبب. بكى، وكان عليّ مواسـاته. أمسـكت بذراعـه وواعدته في بيت، على شـجرة وعلى حصان قزم». هزت زنوبيا كتفيها لتخفي تأثرها، وأدارت الشـاي في كأس (كليليا). «في موعدنا الآخـر كنا نريد الذهاب إلى هنـاك أيضاً. أتذكـر بالضبط كيف كنت في حرارة الظهيـرة أنتظره أمام تجمع القوافل. قضيت الوقت في شـم بشـرتي، إذ تكتسـب في الشمس دائماً عطراً خاصاً، هنا، أتعرفين هذا أيضاً؟».

«نعم كنت كطفلة أقوم بهذا أيضاً». (كليليا) شمّت نقطة في مفصل ذراع زنوبيا عرضتها هذه إليها. «نعم هذا عطر الشمس»، ثم مررت أنفها برقة على طـول عضـد ذراعها البرونـزي، ولعقت هناك بشـرتها. أدارت زنوبيا رأسـها بخفة، غير أنها لم تحفل بذلك.

زنوبيا عملت مثلما عملت صديقتها، وتطلعت إلى بشرتها الذهبية متأملة

Twitter: @ketab_n

برغبة، وقد ظهرت عليها قشعريرة طاولت أعلى ظهرها. تحت الفستان رأت حلمتي نهدي (كليليا) وهما متقلصتان نحو الداخل، سحبت القماش جانباً واستلمتهما بحذر بين شفتيها. حين تنهدت (كليليا) عضت عليهما قليلاً.

«أعتقد أني اردتُ دائماً أن أكتشف مذاق هذا». هنا طوقتها (كليليا) بساقيها وقبلتها بحرارة. نظرتا محرجتين كل إلى وجه الأخرى وقد شعّا حرارة.

«ربما، ربما علينا أن نطفيء النور»، نظرت زنوبيا جانباً، غير أن صوتها ارتجف لشدة شبقها. (كليليا) قبلتها مجدداً وأطفأت القناديل.

Twitter: @ketab_n

موت (سنديكوس)

تصفح (كليمنس) بتفاؤل أقل كدساً من الحسابات غير المدفوعة. الأمل في التسديد ضعيف بالكثيرين منهم. تنهد عميقاً. طقطقة قبقاب (يوليا) كانت تُسمع من السلالم. خطواتها كانت أبطأ وأثقل مما كانت عليه قبل أيام، ثم تنهد ثانية. لكن ربما كان هذا بسبب نعاسه الذي كان يغالبه كل مرة حين يفكر في المستقبل. تلقائياً كان ينقل الجمل البرونزي الصغير بين يديه، الذي كان يستخدمه كتثقيلة على الرسائل. لقد ترك كتابة الرسائل في هذه الأثناء. اختفى الزبائن ولم تعد لديه طلبات حجوزات أخرى، والمدينون الذين كانوا بحسب تقديره مضمونين في علاقاتهم المتنفذة في السوق، هؤلاء أيضاً لم يجيبوا بكل بساطة على إشعاراته. حتى زوجته التي، في ما عدا ذلك، كانت موفقة مع زبائنها، عادت بخفي حُنين من جولتها بين عميلاتها في المدينة. (يوليا) لم تشأ أن تتحدث عن تلك المفاوضات. لم تشتكِ له العجرفة والقباحة التي صادفتهما، لكنه سمعها تبكي مساءً وهي نائمة. للمرة الأولى، وعندما تلطخ جدار المحل بالشعارات، ما عاد يعرف زوجته ثانية. جاءته راكضة إلى المكتب بهستيرية، وعاجزة عن عمل أي شيء بنفسها، وقد تولى هو بشخصه مراقبة (فاوستا) و(أودو) حين أزالا التلطيخ في هذه الأثناء، أغلقت (يوليا) عليها غرفة النوم ولم تغادرها طوال اليوم. لا بد أنها تذكرت المطاردة السابقة في إيطاليا، هذا ما فكر فيه ثم منع نفسه من التفكير فيه ثانية.

حين رآها تدور في البيت فزعة تألم (كليمنس) لذلك: شدّ كتفيه إلى أعلى كأنه عبد بيتٍ توقع عقوبة الضرب، شعرٌ مهمل واقف، لم يعد ملوناً. نظر بفزع هادئ إلى خصل شعرها الرمادية غير المصففة، وسرعان

Twitter: @ketab_n

مـا خجل كذلك، وبقي رغم ذلك غير مرتاح. لم يسـتطع أن يفسـر انهيارها، لا بتضـاؤل البضاعـة في المخازن، ولا بفـراغ المحل، وإنما في كبر السـن، الذي ظهر عليها فجأة.

«هـل هنـاك شـيء يـا حملـي الوديـع؟»، خاطبهـا بحب حيـن ظهرت في الباب.

«أنـا قلقـة ثانيـة على (كليليـا) هذا اليـوم. هـل كان صحيحاً أن ندعها تذهب هكذا؟»، نظرت إليه بتوسـل وأمسـكت يده التـي امتدت إليها. أحس (كليمنس)بعصبيتهـا من ارتجاف أصابعها في يده، قبل أن تتوتر وتحرر يدها أثناء مواصلتها الكلام.

«كان علينـا أن نصطحبها معنا حين نذهب»، وتطلعت ثانية إلى زوجها، كأنها في انتظار أمر ما. وعندما صمت، ألحّت بصوت مرتفع «لنذهب بعيداً من هنا (كليمنس)، لنبتعد من هنا، أجل؟».

أشاح (كليمنس) بوجهه جانباً، وسارت الأمور على هذه الحال لأسابيع. منذ ظهرت الشـعارات المعادية للروم على جـدران البيوت، بدأت تلحّ عليه ليبيـع، مـا زال هنا أحـدٌ يمكن أن يدفـع المبلغ. في داخلـه كان يعطيها الحق أحياناً، غير أنه لم يكن ليصدق أنهم هنا، وأنهم سوف يُطردون بالذات لأنهم روم. كان هـذا غيـر معقول، وكان رافضاً الاسـتجابة إلى ما هـو غير معقول. وقعـت نظرته على كـدس الأوراق أمامه مـع ملحقاتها، فتنهد للمـرة الثالثة. برقـة لمس يد زوجته وهدأها، ثم دعاها إلى أن تذهب ثانية إلى غرفتها. يكاد لا يتـرك وقتـاً للتفكير بـ(كليليا). فقـد كانت في القصر، كمـا أخبره (أودو)، ماذا تعمل هناك.

أصـوات مـن المحل، تحـت، قاطعته، لم يعد يسـمع منذ عـدة أيام أي صـوت مـن الدكان الـذي كان يجلس فيه (أودو) وهو يقـرأ بصمت، أثناء ما كانت أشـعة الشـمس القليلة تسـقط إلى الداخل وتجول على الأرض وتثير الغبار المتراقص. بحذر أرجع (كليمنس) البعير إلى مكانه وأنصتَ. لا شك، كان هنـاك زبائن. وبعد فتـرة ظن أنه تعرف على صـوت أحدهم. تردد، لكنه تناول لوحة شمع، مسجل عليها ديون على سيدة سورية، ونزل إلى تحت.

Twitter: @ketab_n

(أودو)، الـذي كان يراجـع قائمـة جرد، لـم يكن متفاجئـاً بحضور كلا الرجلين. رغم السـنوات المنصرمة، بدا كأنه كان بالأمس يتبعهم في شـوارع المدينـة. وتلقائيـاً لعلمه بالدَّين الذي عليه، وشـعوره بالذنب اكتسـى وجهه باللـون الأحمر. أذناه توهجتـا تحت أنظارهما. غير أنه ما كان عليه أن يحمل همّاً: (دوميتسيان)، المستشار القانوني في تدمر، ومرافقه، يعرفان مَن الشاب الهـاديء الذي أمامهم، ذلك العبد المحتال الذي عرفوه في ما مضى. كذلك (بالبوس). حتى (بالبوس)، الذي اسـتوقفه مرة واسـتنطقه، نظر إليه ضعيفاً، يلـوك اللبـان، وحملـق بعدئذٍ فـي المعروضـات، بينمـا راقبه (أودو) شـزراً مندهشـاً وقرفاً في الوقت نفسـه، عندما صاح في وجهه (بالبوس) فجأة. «ألا تسمع أيها الوغد».

«عفواً».

«قال (سنديكوس)،المستشـار القانوني، شـيئاً آخر. هل ضرط أحدهم فـي أذنيك، أيها الصبـي؟». أبهته (بالبوس)، حتى رائحـة الثوم تبينها (أودو) من زفيره، فكان هو نفسه، وبركبتين مرتجفتين، مثلما كان سابقاً، مرّ بالرفوف ليبحث عن كبب حرير أخضر.

«هكـذا يفترض أن يتعامل المـرء مع الأفراح، كان يقولها السـيد دائماً، بقبضـة حديدية، ويجدر بمن يسـمّه الأميـر أن يجرب أيضاً مـرة مع زوجته. تتدخل في السياسة، هل سمع أحد مثل هذا من قبل؟».

«(بالبوس)، لقد شرحت لك مئة مرة أني سأحلها بطريقتي الخاصة».

(سـنديكوس) كان مُسـتفزاً للغاية كما بدا، غير أنه ما عاد يقابل الضابط بالسخرية اللاذعة نفسها كما في السابق.

كان مشتتاً في اعتراضه على رفيقه، الذي لم يتهاون معه.

«لا أظن أن هناك الكثير مما يمكن عمله. في الليلة الماضية رمى أحدهم طعام كلاب أمام المعسـكر. لم تفح من ذلك الشيء في الحقيقة رائحة. لولا متابعتـي خطـوة خطـوة، كنتم بالتأكيـد تحولتم واحـداً بعـد الآخرإلى جثث منذ زمن بعيد».

«هراء، (بالبوس)، أنا لا أريد سـماع مثل هذا». (سنديكوس) كان يفتل

Twitter: @ketab_n

خاتمه بعصبية. كان بإمكانه أن يتبين، أن الناس هنا ما زالوا يحترمون أميرهم وأن هـذا في حاجة إلى (دوميتسـيان). غيـر أنه لم يكن متأكـداً من وقع ردهِ؛ تشـاؤم (بالبوس) المتزايد زاد من عصبيته. أن يزداد ثمن الهدايا إلى عشـيقته السورية على الدوام كان مجرد إشارة لبقة إلى فقدان الأمان هذا.

«استمع، يـا (بالبوس)»، قال وقد قرر افتضـاح الأمر، وهو متضايق من نفسـه، لأنه وصل إلى هذا الحد ليطلب تأييد هذا الرجل. «عندي هنا مملوك أُمرتُ بشـرائه مـن إدارة بيت (زنوبيـوس)، والذي عُرض فجأة في السـوق، غوطيٌ بشكله وبمزاج عمود دوري*. لسبب ما كان عليه أن يدفع إلى الزاوية الخلفيـة للقصـر. إنـه يتعـذب الآن عند واحـد مـن المملوكيـن التابعين لي والمطلـق صراحهم، جعله يعمل معه في الممالـح. أنا متأكد من أن التحقيق سيعطي نتائج مفيدة لنا ...».

«مـاذا، تحقيـق، نرمـي لها الرجـل في الفـراش ثم ندعو زوجهـا ليرى. هذا سـيختصر القضية». (بالبوس) مد يده إلى رقبته. «بعدئذٍ يمكنها مناقشة (شـارون) حول الضرائب، وإذا ما كان يريد نقوده للسـفر نقـداً أم مقايضة». وضحك على نكتته التي لاقت صدى.

عـاد (أودو) بصف من حرير الزمـرد الأخضر، مزيناً بنحلات ذهبية. لم يعـرف شـيئاً عن مشـاكل زنوبيا الضريبية مـع روما، لذا لم يفهـم التلميحات بخصوصهـا. أما عن أي مملوكين تحدثوا فكان هـذا معلوماً له جيداً: وذلك من طريق مواطنه الذي سحرته خدع الأطفال البسيطة لحد الخجل، ثم ذهب ليـلاً إلـى زنوبيا، ليخرجها من دائرة ضوء مشـعله. (سـنديكوس) جلس مرة ثانية على دماره الذهبي.

«عمـلٌ مصـري من نوعيـة ممتـازة»، تمتـم بشـكل روتيني، بينما نشـر القماش راغباً أمام الزبائن.

«ممتاز، ممتاز، أنا آخذ هذه، إنها سـتعجب حبيبتـي الهندية البرونزية». أيّده في ذلك (سنديكوس).

«كان المفروض أن ندق عنقها قبل سـنوات»، واصل (بالبوس) بإصرار

*) من القبائل الألبانية الموغلة في القدم.

Twitter: @ketab_n

حديثه المفضل من دون أن يلتفت إليه أحد.

«ليس الآن سنتوريوس»، همس (دوميتسيان) وبحث عن كيس نقوده، بينما تنصّت (أودو) باهتمام. تحدثوا ثانية عن زنوبيا. لكن رغم أنه كان يعمل بهدوء وباجتهاد ما وسعه ذلك من دون أن يلحظه أحد، لم يتواصل الحديث بين الرجال في هذا الموضوع، ما دام هو في الغرفة. لكن دخول سيده (كليمنس) حرمه من فرصة الاستمرار في استراق السمع. كان يلف الحرير على خشبة بينما كان (كليمنس) و(سنديكوس) يتساومان حول الحساب المتبقي على عشيقته. فجأة توقف (دوميتسيان)عن الكلام، حين ظهرت من باب الدكان، من تحت الأطواق هيئتا (نيسا) ومرافق له.

«ها هو ذا رئيس الديكابروتيين الموقر»، لاحظ دوميتسيان، «لا يزال عندي مع السيد، حديث.. لحظة». تقدم إلى الباب وحيّا بلطف (نيسا)، الذي مرّ من دون أن يلتفت إليه. نظر (دوميتسيان) خلفه مبهوتاً.

«لا بد أنه كان متعمقاً في الحديث مع صديقه»، أضاف (كليمنس) بتأكيد. خفض رأسه أكثر من مرة ولم يجرؤ النظر في عينيّ دوميتسيان، حين عاد هذا ودفع من دون أي اعتراض المبلغ المطلوب. (أودو) في المقابل نظر وراءهم أثناء ما كانوا يبتعدون بفضول أكبر: أفلا يزالون يتحدثون عن زنوبيا؟ ضغط بقدمه على الأرض ونظر حوله مستجدياً مساعدة، ثم تناول بقرار سريع الكيس الصغير، فقد اعتاد أن يحفظ فيه آلة الكتابة. ونادى: «السيد نسي محفظته»، رفعه بهزّة من فوق رأسه وغادر الدكان. (كليمنس) استدار بسرعة ليبلغ (يوليا) الأخبار الجديدة.

من دون توقف كان (أودو) ينتقل بكل حماسة بين مختلف رفوف وطاولات البيع وعلى طول الطوابير المنتظرة، إلى أن اكتشف الروميين أمامه ثانية كما في المرة السابقة تقريباً، فكّر بشكل عابر، لكنه لم يعد سريع الحركة. أوقات اللعب مع السمك مضى عليها زمن. كان ينتقل بكل ما استطاع من هدوء من دون أن يلفت نظر أحد.

متجاوب مع سرعتهم. (دوميتسيان) ظل واقفاً عند طاولة صياغة الفضة، قلّب بعض التمائم في يده، لكن لم يشتر شيئاً. استدار قرب المعسكر

Twitter: @ketab_n

في شمال المدينة حيث بيت عشيقة (سنديكوس). عندما بلغا حدود المكان الصغير، ظهر لـ(أودو) انه ليس الوحيد الذي تابعهما. أي صدفة حين وقف فجأة جمهرة من الناس أمام الخمارة، التي كانت تقع جنوب المحل. في وسطهم عرف (أودو) الرجل الذي ساوم بكل إلحاح مع (نيسا) عم زنوبيا قبل قليل. صلعته اللامعة سهلت التعرف إليه. (دوميتسيان) و(بالبوس) لم ينتبها إلى التجمهر وراءهما. دلفا إلى البيت، وسحبا الجموع التي ازدادت زحاماً وتلكؤاً وراءهما. «أيها المرابي» صاح الرجل الأصلع بصوت حاد، وفي الحال ردد الآخرون النداء نفسه «أيها المرابي»، «مروّج الحرب» صرخ أحدهم فجأة، وسرعان ما صرخ الآخرون جميعاً، «أيها المتاجر بالبنات، تسلب منّا نساءنا».

أصاب الحجر الأول لافتة على باب خمارة كُتب عليها «كهف كافيم» فتحطمت. استند (أودو) إلى حائط الخمارة: بقي واقفاً حيثما كان. التفت (دوميتسيان). قال شيئاً إلى (بالبوس)، ونظر من دون أن يفهم شيئاً إلى الجموع الصاخبة. رأى (أودو) كيف سحب (دوميتسيان) (بالبوس) من ذراعيه إلى الوراء، حين كان (بالبوس) يموج غضباً واراد الانقضاض على أول المطاردين. نادى على الناس بكلمات لم يعد يفهمها (أودو) بين صراخ الجموع، لف نفسه بمظهر سيادي في قفطانه وأدار ظهره للعامة. قام ببضع خطوات في اتجاه البيت فانهال عليه فجأة وابل من الأحجار. ثم سحب قفطانه الملطخ بالدم فوق رأسه محتمياً به.

«اقتلوا الرومي» تردد صوت. كلٌ أراد أن يرميه بحجر. كذلك رواد الخمارة لم يقاوموا فشاركوا، و(أودو)، الذي أراد الانسحاب انجر مع الجماهير الهائجة. صعد صراخهم إلى رأسه كما يصعد النبيذ. لقد رأى بين الجماهير الصاخبة كيف كان (بالبوس) يضرب بقوة على الأبواب المغلقة. (ستوريوس) علق جثة (سنديكوس) عليه. حين أدرك أن عليه إنقاذ نفسه، أسقط الميت وهرب عابراً جدار الحديقة. من دون حاجة إلى طول تفكير، صرخ (أودو)، «ها هو طريقه! لا تدعوا الكلب يهرب! من أجل زنوبيا!». كان من المشكوك بهم، لو كانت الجموع المتعطشة للقتل قد سمعت النداء.

Twitter: @ketab_n

تلـك الجمـوع التي اقتحمـت الأرض. داس (أودو) على الدم ودُفع بعدد لا يُحصى من الأكتاف، تعثر فوجد نفسـه أخيراً عند مدخل شـارع فرعي ثانية، فركض في الشـارع إلى أن ابتعد عن سماع صوت الجموع. استند إلى حائط ليلتقـط أنفاسـه، كان يلهـث بصوت كأنه شـخير، إنه طعم معدن. الآن شـعر أيضاً بضربات النبض العنيف في أنفه، وبتردد تحسس أنفه. أما حاله ومظهره فقد اسـتطاع أن يقرأه في نظرات الدهشـة للمرأة التي انتقلت فور نظرتها إليه إلى الجهة الأخرى من الشارع. التفتت إليه مرتين. الآن عليه أن يوضح الأمر إلى (كليمنس). «من أجل زنوبيا» ماذا دهاه؟

Twitter: @ketab_n

رسائل

«من زنوبيا، أميرة تدمر إلى (فيرموس)، التاجر.

أيها القرصان الغالي،

إذا مـا تحدث إليكم بعض الناس، هذا ما كنتم تعرفونه مرة في السـابق، وأنـا أصـدق لكم كل كلمة. الحياة كئيبة منذ أن رحلتم. في كل مرة أرى وجه زوجي تسـتولي عليَّ رغبة في شـرب جرعة نبيذ قوية، أنا فرحة بهذا فقط لأن علـيّ أن أراقب وجهه، لكني أقسـمت لكم - بحـق قضيب باكوس - الذي لا يمكن أن يكـون أصغر من قضيب (أودیناتوس)، أن أجنب أصابعي من دنان الخمر، وأتمسك بذلك، مثلما أتبع كل نصائحكم.

وكذلـك المعلـم (لونجينوس) الـذي اخترتموه لي قد أتى مباشـرة من أكاديمية أثينا بالفعل: سـرعان ما سأكون أكثر ذكاءً من (منيرفا). فقط سيكون هـو أذكـى مني بقليـل. (فيرمـوس)، لمـاذا يجب أن يكـونَ هـؤلاء الإغريق مغروريـن إلى هذا الحد؟ وهـو يعرج فوق هذا، رغـم أن مظهره في الحقيقة ليس رديئاً، وكل كلمة منه وإن كانت طيبة تستحق السخرية، وليس هناك شيء أقوم به، إلا ويرى أنني يمكن أن أؤديه بشكل أفضل. والآن يجدر بك ألا تظن أنني لا أفكر مطلقاً بشـيء آخر. لكني عندما تكلمتُ حديثاً في الجغرافية عن إمكانية توسـيع النفوذ التدمـري نحو الجنوب أجاب بملاحظة سـاخرة أنني أصبو إلى توسـيع مساحات الصيد العائدة لي. وكأنني مشغولة بصيد الرجال فقط! شكراً، فهو على الأقل لا يحسبني غبية، أقصد (لونجينوس). صديقتي (كليليـا) تقول إنه يتحدث عني فـي أماكن أخرى بفخر واعتزاز كبيرين. لكن ما الذي ينوبني من هذا؟

فـي أيّ حـال محاضرتـه رائعـة جـداً. الآن بالـذات يشـرح لـي نظـام

Twitter: @ketab_n

الإدارة والضريبة الرومي. وأخيراً بدأت أفهم ما هي الخلافات التي جعلت (أودوناتوس) و(سنديكوس) في جدال مستمر. إذاً فالقضية هي أن (سنديكوس) لا يريد أن يسمح بدفع الضرائب بالعملة الرومانية بدلاً من المقايضةِ، لأن الأولى سرعان ما تفقد قيمتها. المهم أنه يجب على الروم الذين يفرضون عملتهم علينا أن يسحبوها. لماذا يُفرض على تدمر تمويل اقتصاد فاشل لقيصر عاجز. بِيَد زوجي الأوامر العليا وشرف الدولة بلا منازع، ولا أرى أن في استطاعة أحد أن يصدر له أمراً لا يريده. هذا ما قلته له ونصحته ألا يقف خلف (سنديكوس). العم (نيسا) الذي انضم إلينا يؤيد وجهة نظري، ويرى فيَّ طيبة نادرة. لكن (أودوناتوس) كان ينظر إليّ كأنني آكل الحساء بالسكّين، وكان يجاملني بالثناء على تسريحة شعري. لا يجدر بي أن أدوّخ رأسي الجميل. أنتم تعدّوني مدمنة كحول و(لونجينوس) يراني سارقة الرجال، وزوجي يعدني غبية. اكتبوا لي بسرعة».

في هذا الحين نظرت زنوبيا إلى (كليليا)، التي كانت تجلس عند نهاية طاولة من خشب الليمون، وكانت بسيمياء مرهقة جادة، مشغولة بكتابة رسالة. لسانها الوردي حك على نهاية قواطعها، حين ضغطت القصبة على الورقة، بينما رسمت حرفاً بعد حرف.

تأملت زنوبيا ضوء الشمس يداعب شعرها الأشقر، ومرّت بخاطرها أفكار جميلة.

«إلى من تكتبين؟»، سألت من فوقها.

«إلى (أودو). المفروض أن يعلم بأي ترحيب جيد استُقبلت، بعد أن رحل هو بكل بساطة». ثم ابتسمت بوجه زنوبيا، التي ضحكت هي أيضاً. ونهضت ومشت خلف صديقتها.

«لقد كتبتِ كثيراً. دعيني أقرأ ما كتبتِ». قالت وسحبت الرسالة من يد (كليليا) فاعترضت هذه.

«كلا، زنوبيا، كلا، هذا إحراج، أعطني الرسالة». حاولت أن تقتنص الورقة من يدها، غير أن زنوبيا دخلت الغرفة راقصة وبدأت قراءة النص بصوتٍ عالٍ:

Twitter: @ketab_n

«من (كليليا) إلى (أودو)»، بدأت، «صديقي العزيز، مهلاً»، انفجرت لتقول. «إنْ هذا إلا تواضع لا مثيل له اليوم: صديقٌ وماذا كانت تعني تلك الليالي الساخنة؟».

«زنوبيا، رجاءً!»، تعلقت (كليليا) بالرسالة، غير أن زنوبيا رفعتها عالياً، هربت حول المائدة واستمرت دون اكتراث:

«عسى الآلهة تمنحك الرعاية. لك أن تعلم أني استُقبلت بترحاب في بلاد تدمر، نعم، أفضل مما كنت أحلم به. لم أجد سيدة عليَّ، وإنما صديقة، أحبها برقة». امتلأت وجنتا زنوبيا بالدم فرحاً، ولم تستمع إلى ولولة (كليليا). وواصلت القراءة منتصرة:

«والآن يمكنني أن أتصور تماماً، كيف كنتما وأنتما طفلان تتراقصان في الشوارع. فنحن أيضاً نزحف أحياناً ونتسلل بين مخادع النساء، ونعمل وكأن القصر مغامرة كبيرة وحيدة. اسمح لي أن أقول لك، مثل هذا القصر هو مجرد متاهة. مثير. لا سيما الأجنحة الإدارية، التي قد لا يصلها المرء مطلقاً. ومن أسوأ ما كان يمكن أن يصادفنا أن عدداً من شباب الاصطبل أو رفيق المطبخ صارت رؤوسهم حمراء، كلٌ يجري وراء رئيسه. وهذا يأتي مسرعاً بخدمِهِ ليعيد النظام إلى العالم ويسأل، أيتها الأميرة، بمَ يمكن أن أخدمكِ؟، وبكل حذر كأنه يخشى أن يوقظ الحالم الماشي، ثم نديرظهرنا بكل هيبة ذاهبين إلى الملل في غرفنا. رغم ذلك فزنوبيا تُقابل الكثير من الناس، وأظن أن الناس يحبونها بشكل عام، مما يفرح قلبي». ضحكت زنوبيا.

«هل تتذكرين رئيس الطباخين بعينيه المفزعتين كعيون البقرة؟»، فتحت عينيها واسعتين قدر ما استطاعت، وحولت عينيها لفترة حتى انفجرت (كليليا) من الضحك. «كان مفزعاً جداً. أن يحبوني من أجل هذا، كلا يا (كليليا) لا أصدق هذا، أنت تبالغين»، استمرت تهز رأسها من الضحك. غير أن (كليليا) كان لها رأي آخر.

«أنت تكسبينهم بمكركِ، وتفزعينهم بالتأكيد. ولكن أما لاحظتِ كيف كان ممتناً حين استطاع الإجابة عن بعض الأسئلة منك وكيف ملأنا المطبخ صخباً تأييداً له؟». زنوبيا خفضت شعرها واتجهت إلى كرسيها. (كليليا) لم

Twitter: @ketab_n

تخرج عن هدوئها.

«أراهن أنه عاد كبطلٍ إلى قدور مطبخه، لأنه تحدث إلى أميرته، وسيتحدث إلى أحفاده عن تلك اللحظة، حين ابتسمت له. حتى أني سمعت مثل هذه القصص عنك في السوق. أنت محبوبة من الناس، زنوبيا».

(كليليا) كانت محقة، الناس في تدمر كانوا يتحدثون باهتمام عن مغامرات أميرتهم. كانوا يرون فيها ذلك كأنها طفلٌ، ورغم ذلك فهم فخورون بها مثلما كان قبل سنوات أصحاب الدكاكين والأكشاك. نعم كانوا يحتجون، إذا ما شاهدوا طفلاً يلعب مع ذات الجدائل المنكوشة والمقرفة ولو من بعيد. لكنهم سمحوا لها أن تمارس اللعب معهم، وليسوا قليلين أولئك الذين دسوا لها فواكه وأطايب المأكولات، ونظروا إلى الفتاة المتوحشة بعطف بعد ذلك، وكأنها ابنتهم التي ما كانوا سيسمحون لها بمثل هذا طبعاً. كان هو الحب نفسه لشيء غير مكسور. في كل الأحوال لم يحصل أن ربط أحدٌ بين أميرة تدمر وتلك الفتاة منكوشة الشعر غير المؤدبة في تلك الفترة.

«مهلاً، كأننا نعيش في جنة»، تقبّلت زنوبيا هذا المديح وهزت كتفيها باسترخاء التقطت عدداً من حبات الكرز من الطبق، وحاولت بصق النواة من فمها عبر الشباك، فسقطت محدثة طقة على بلاط الموزاييك. التقطتها (كليليا) بلا تعليق من الأرض.

«ولا كلمة عن... إن زوجي سيحتجزنا، لو عرف أي شيء عن هذا»، لامتها زنوبيا وهي تلوك الكرز. «أحب شيء إليّ أن يمسكنا في غرفة النوم، ويدعنا نغزل صوفاً مثل عجائز الرومان أيام الجمهورية. هل ذكرتِ بالمناسبة أنه رجل مقرف وبدين وإنسان قذر؟ لنرَ، آه هنا يبقى شيءٌ: «وحده (أوديناتوس) يخيم علينا كأنه جو رديء. كأنه قول الشعر، هذا النوع من الغيوم يمكن أن يمطر شحماً في أشد الأحوال».

رغم المزاح فقد اغتمّت زنوبيا واختفى مزاجها فجأة، عندما تذكرت زوجها ثانية، وهي غارقة في التفكير، وحملقت في الفراغ. ولم تلاحظ أبداً كيف أخذتها (كليليا) من يدها. هي في الغالب كانت تتجنب (أوديناتوس)! لكن، كما نصحها (فيرموس)، تذهب إليه مرة على الأقل في الشهر، من أجل

Twitter: @ketab_n

استقبال الإبن الـذي تمنته، والذي يضمـن لها مكانة أمينة. فـإذا ما حصلت مرة على سلطة الأميرة الأم، عندها يمكن أن تنسحب وتجهز زوجها بفتيات بحسـب ذوقهِ. لكن زنوبيا لم تصبح حاملاً، رغم محاولتها. وصْفات (أومة) فشـلت في مسـاعدتها، والأشـياء التي اسـتقبلتها فـي غرفها سـراً، والوعود والصبغـات العجيبـة، ازدادت غموضاً يوماً بعد يـوم، وبمرور الأيام امتلأت غرفتها بالمشـروبات و الأعشاب والتمائم، حتى أن (كليليا) في سرها كانت تخشـى على صحتهـا، فتمثال ماريـا الصغير، الـذي كانت تحملـه (كليليا)، تمسـكت به. غير أنها تركت هذه الأفكار ثانية، حين علمت أن القديسـة الأم عذراء.

نظرت (كليليا) إلى صديقتها التي استبدّ بها الحزن مشفقة. كانت تعرف المزاج الحزين الذي هوت إليه زنوبيا بقوة. عندما كانت تأتي من عند زوجها تبقـى أياماً طويلة مجافية نفسـها، ولم يكن احتمال مزاجها السيّئ ممكناً إلا بصبر شديد. كانت تشعر بإساءته إليها جنسياً، حتى تصل إلى نهاية تماسكها. ثم كانت تغضب وتولول لأتفه الأسباب، حتى أن الآخرين استغلوها. رغباتها كانت يجب أن تُقرأ من عينيها وإلا انفجرت في إطلاق الاتهامات. لم تستطع ولـو مرة أن تهدئها (كليليا) في مثل هـذه اللحظات. لكنها إذا ما تطلعت إلى وجه زنوبيا الممتقع حزناً تذكرت تلك الليلة، حيث أمسكها (أودو) بذراعيه، وأسفت زنوبيا لحالها. انحنت ثانية إلى رسالتها.

«(كليليا)؟»، سألت زنوبيا، من دون أن تبعد نظرتها المحملقة عنها.

«(كليليا)، ماذا كتبتِ عنه؟»

«لا شيء، لا شيء مهم»، أجابت (كليليا) بتنهيدة.

«يُفتـرض أن تكتبي عنه، بالتأكيد. اكتبـي: (أوديناتوس) حيوان، اكتبي: ليلـة البدر الأخيـرة وضع في حجر زنوبيا علبة مصوغـات». وظلت تتحدث بانفعـال متزايـد. «اشـرحي له: كانت هـذه قطعة مسـروقة من غنائـم حملته الأخيرة، ضد من أطلق على نفسه قيصر الروم الشرقية في أميزا، وهدية أخرى ليوم العرس الأول، على المرء معرفة هذا، ليسـتطيع تقييمه، اكتبي كذلك أن زنوبيـا فتحتها، فوجدت فيها رأسـاً، رأس إنسـان مقطوع فعـلًا، موضوع في

Twitter: @ketab_n

محلـول ملـح، ومحنط بالصمغ، كمـا كان يفعـل المصريـون. زنوبيا تقيأت أمام هذا المشـهد مباشـرة، هذا ما لا يجوز الصمت عنـه. لكن (أوديناتوس) ضحـك فقط. ادّعـى أنه الاسـتقبال الصحيـح لغاصب مثـل (ماكريانوس). نعـم (ماكريانـوس)، كان لهذا الرأس إسـم»! هـزّت رأسـها وغطت وجهها بيديها الاثنتين.

«أيهـا اللات، أنا آسـفة. أفضـل أن لا تكتبي هـذا». بتعاطف معها ألقت يدها على ذراعها ومسدت برقة. تذكرت المشهد عندما غصّت زنوبيا مجدداً، بـدأ (أوديناتوس) يفقد صبره، فانتزع الجمجمة مـن يدها ورماها إلى كلابه. وأمرت بعدئذٍ بتبديل السجاد، وبردت جبهة زنوبيا بقطع قماش مبللة، إلى أن زال عنها الغثيان. زنوبيا ضغطت على يدها واستعادت بالتدريج وعيها.

«معـذرة، لـم أكـن أريـد أن أسـرد عليـكِ قصص أشـباح. أنـا أزعجكِ بالتأكيد».

«كلا، كلا،» ردت (كليليـا) مدافعـة وانحنـت مرة أخرى علـى الكتابة.

«لكني أقاطعكِ على الدوام»، اشتكت زنوبيا مرة أخرى.

«حصل خيرٌ، يمكننـي أن أواصل الكتابة مرة أخرى». وضعت (كليليا) القصبـة جانبـاً، وراحـت تلملـم أدوات الكتابـة، لكـن زنوبيـا تضايقت. لم تستهوها في تلك اللحظة حتى مطالعتها لكتاب (لوكيان)، وحديثه عن بنات الهوى، رغم أنها كانت تحب نكات هذا المؤلف. رسـالة صديقتها كانت لها السلوى الوحيدة.

«ماذا يوجد بعد فيها؟»، سألت.

«أوه، لا شـيء ذا بال»، وبسـرعة فتحت (كليليا) الورقة «لكنني لم أكن من قبل في كامل وعيي. بصراحة: هل كانت رسـالة غرام؟»، سـحبت زنوبيا حاجبيها إلى أعلى وهي تفكر. لا تزال غير واثقة بأنه يحق لها أن تغضب على ذلك، غير أن تصور ذلك يزعجها أكثر فأكثر كلما أطالت التفكير.

« كلا، كلا»، هزت (كليليا) رأسها بسرعة. «إذاً عليّ أن أنصرف..».

«هاتهـا»! بهـذه الكلمات انتزعت زنوبيا الرسـالة وقرّبتهـا منها مجدداً، وقرأت بسرعة.

Twitter: @ketab_n

«آخ»، قالت بعد ذلك، «كان يمكنك أن تقولي لي هذا، بأنكِ لا تطيقين (نيسا)». فضحكت:

«هذا الرجل لا يصدق شيئاً، ولا يمكن أن يكون مخلصاً لأحد»، اقتبست، «وهكذا يمكن القول،وَصَفْتِهِ جيداً، «زنديقٌ لا رب له، لكني أميل إليه. ليس عليكِ أن تهتمي به كثيراً».

«إنه يخيفني»، دافعت (كليليا) عن نفسها، بينما أمسكت الرسالة بخفة، «أنا لا أفهم، لماذا يحق له دائماً أن يثير المشاعر ضد روما، بينما (أوديناتوس) يؤيدها وهو ينظر إليَّ أثناء ذكرها».

«هراء، لقد أوضحت له حديثاً أنكِ من ليجير، وكذلك لست رومية مثل الغالبية هنا». داعبت زنوبيا الورقة لتؤكد كلماتها. سحبت (كليليا) يدها منكسرة وعضت على شفتيها. هزت زنوبيا رأسها وواصلت القراءة. كانت تتفهم كثيراً وجهات نظر (نيسا). منذ طفولتها لم تكن ترغب في أن ترى بين الروم محتلين، والدرس الذي تستفيد منه حديثاً لا يؤكد وجهة نظرها، فالعالم متعلق برغبة كبار الذئاب. ومعلمها (لونجينوس) كأغريقي ضد تقاليده القديمة، ضد روما. وحين كانت منشغلة بأفكاره طارت فوق السطور، بقيت متعلقة بالإسم (لونجينوس).

«أوه، أنت كتبت أيضاً شيئاً عن فلاسفتنا النبلاء: المعلم الذي فرضته زنوبيا على زوجها كان، حقيقة، وصل إلى هنا قبل قليل. إنه فيلسوف مشهور من أثينا، ترأس الأكاديمية لفترة طويلة، رجل فارع الطول، جميل، أووووه!».

«زنوبيا، توقفي الآن»، انفجرت هذه الكلمات من (كليليا) التي كانت جالسة وغضبها يتفاقم، وقد قفزت أخيراً، «إنها رسالتي وليست رسالتكِ وأريد استعادتها ثانية الآن». كادت الدموع تنفر من عينيها.

لم ترَ زنوبيا (كليليا) من قبل منفعلة بهذا الشكل، واندهشت جداً لها، حتى أنها سلمتها الرسالة من دون أي اعتراض، قبل أن تقول شيئاً. وانشغلت بصوتٍ عالٍ في البلاط.

«أنا ذاهبة لأرى»، قالت (كليليا) ببعض التعثر، وهي تدسّ المكتوب في جيبها، واتجهت نحو الشرفة. تنفست أول الأمر عميقاً لتحافظ على رباطة

Twitter: @ketab_n

جأشـها، ثـم بحثت عن سـبب الصخب. اكتشـفت بعد تفحُـص لعدة مرات فرّاشـتها، (فوبـة)، كانت بيـن أصص الزهـور تثرثر مع عددٍ مـن الخادمات، فنادتهـا. نـادت (فوبـة) بانفعال إلى سـيدتها فـي الأعلى، لتخبرهـا ما عرفته بنفسـها مـن خطيبها، الذي يعمل سـاعياً في القصـر، أن المستشـار القانوني (دوميتسيان) مات. يُقال إنه قُتِلَ، هكذا نقل الناس عن لسان عشيقته السورية، وقيل إنه وجد عارياً في فراشـها ومطعوناً بسـكين في كل مكان، حتى في... هنا امتنعت (كليليا) من الاسـتمرار في سـماع الأوصاف الفاجرة وأرسـلت الفتاة الثرثارة إلى عملها.

لم يعرفوا المستشـار القانوني، غير أنها لم تفكر بالثرثرة واللغو الصادر عن الرومية، الذي وصل إلى كل مكان، وحين رافقت زنوبيا لسـبب رسمي، شـعرت بأنها شـخصياً مهددة بكره الأجانب لها، وهذا لـم يظهر على زنوبيا ولم تقر به. ما شغلها حين لم تكن في حزن شديد، غير أن ما أزعجها جداً هو الخبر الذي جلبته إلى زنوبيا.

«هـذه بذرة (نيسـا)»، أوضحت جادة، «(دوميتسـيان) لـم يكن الرومي الأول الذي يُهاجَم في المدينة هذه الأيام»، هزت زنوبيا كتفها.

«ممكـن جـداً، عليّ أن أعتـرف أن حزنـي على (دوميتسـيان) محدود. والآن على الأقل انتهت مسـألة الضرائب، نعم، تفضلي»، أجابت على طرق البـاب، «تحيـة لك (نيسـا)»، نادت فرحة، «مـا أجمل الصـدف، كنا في هذه اللحظة نتحدث عنك».

« آمـل أن لا يكـون وقع ذلك عليكم ثقيـلاً»، أجاب العم أثناء جلوسـه على بضع وسـادات، وقد رتب رداءه الملطخ بالدم، «عدا هذا، عليَّ أن أنتبه إلى سمعتي. أيوجد هنا شاي؟».

(كليليا) انطلقت مرتاحة لتُعطي التوجيهات اللازمة وتهرب من (نيسـا) لفتـرة، غير أن زنوبيـا كانت مبتهجة. فهناك أمل في أن تقضي وقتاً مسـلياً في هـذه الظهيـرة الضائعـة. لقد سـمع عن الفضيحـة الأخيرة، لكن فـي كل مرة حين كانت تبدأ زنوبيا الحديث عن مقتل دومتسـيان الغامض ينتقل فوراً إلى موضوع آخر فتُحرم من سماع نكاته ولطائفه.

Twitter: @ketab_n

الظاهر أن عمَّ زنوبيا لم يحضر للتسلية. في الوقت الذي انشغلت (كليليا) بتطريز حاشية أثناء جلوسها، أنصتت إلى ما يقولون، وهي مطرقة رأسها، أوضح قصداً آخر مغايراً تماماً: وزنوبيا كان عليها الترحيب بعائلتها أخيراً، حتى أنه اعترف، أنه كان مرسلاً من قبل (أوديناتوس) الذي أمل من خلاله التأثير في زوجته المشاكسة.

غير أن زنوبيا بقيت أمام كل التحفظات عنيدة. حينما عاد أبوها بسبب الحملة الأخيرة، وافقت على انتقال عائلتها إلى القصر. أما الزيارة الترحيبية الرسمية فلم تكن مستعدة لها، وكذلك لم تزر أمها مرة. والآن امتنعت عن ذلك أيضاً.

«أقبحُ من فم الحمار» عنّف (نيسا)، «(أوديناتوس) أرسل الشخص غير المناسب. كان على (لونجينوس) معلمكِ أن يذكر مرة في أي قُبح وجد مشايخ العرب، وكنتِ ربما ستبيتين عند أمكِ بسبب العناد ليس إلا». زنوبيا استعرت غضباً لكنها لم ترد.

«ما الذي لديكِ ضدها؟»، واصل (نيسا) كلامه، «لا شك في أنها أصبحت بدينة وتثرثر كثيراً..». رفع يديه إلى أعلى ليشير إلى أن الآلهة فقط قادرة على فهم أمزجة المرأة.

ما أدهش زنوبيا أن (كليليا) التزمت جانبه، كانت تعلم في الحقيقة أن زنوبيا تمتعض من والديها، وبالذات من أبيها، حتى وإن لم تعرف السبب. غير أنها على درجة من التربية، اذ احترمت أباها وأمها. هنا ألقت تطريزها جانباً.

«أنا لم أتعرف إلى أبيكِ»، بدأت بحذر، «لكن الجميع يتحدثون عن بطولاته في الحرب. والآن هو ليس أكثر من رجل صغير لا يحسب له حساب، يُصَب الحساء يومياً في فمه من قبل العبيد. زنوبيا عليكِ الذهاب إليه».

صمتت زنوبيا، ورفعت كوب الشاي أمام وجهها. تابعت الأبخرة المتصاعدة، وكأن لا عمل لها. (نيسا) رفع بتذمر كبة خيوط حريرية حمراء سقطت من يد (كليليا) ولفها بعصبية بين أصابعه. حين لاحظ أنها فقدتها

Twitter: @ketab_n

أعادها إليها بانحناءة. شكرته خجلة وعادت لتطرز من جديد.

«أنت عليك أيضاً أن تهتمي بمصالحك الخاصة، يا ابنة أخي»، ثم استأنف ثانية. «زوجة أبيك الثانية، ياسمين...»،

«تلك ذات الشعر البرونزي الأحمر؟»، قاطعته (كليليا)، لتعتذر فوراً وقد احمر وجهها خجلاً، «سمعتها تتشاجر بسبب نقوش على حائط مع العامل، لذا أتذكرها». وكأنها تحدثت أكثر من المطلوب، انكبت في الختام على عملها ثانية لتُعد إلى صديقتها عباءةً تمثل الأخوين الأسطوريين (زبيدا) و(زابداس)، كيف يتعبدان لنجمة في السماء. زنوبيا غالباً ما قصت عليها الحكاية الشعبية مساءً.

«طبعاً، هي جميلة وتعلم ذلك أيضاً»، بادر (نيسا) بكلام مختصر، بينما كان يراقب أصابع (كليليا). «منذ وصلت إلى هنا بدأت تغازل حيرانس».

«مشروع طموح»، سخرت زنوبيا.

«بلا شك، لكن ربما كان لديه في حرمه الفارسي ما يكفي! وما دمتِ بلا أطفال فهو وارث العرش، ربما يستفز هذا طموحكم».

«أبي سيقتلها».

«ابوكِ تلقى ضربة على رأسه، ولن يقتل أحداً بعد اليوم. يجب أن تقومي بذلك بنفسكِ، يا طفلتي. فكري مرة أخرى بكل هذا». وبهذا ارتشف شايه الذي بقي لم يُلمس بجرعة واحدة، وأعاد الكوب إلى المائدة. هزت (كليليا) كتفيها لدى سماعها هذه الكلمات وانصرفت ما وسعها ذلك باهتمام شديد إلى إبرتها. بينما ودّع (نيسا). كلا إنها لم تكن مخدوعة بهذا الإنسان، إنه يثير قلقها، ولم ترفع عينيها إلا بعد أن أصبحتا وحدهما.

«الا تريدين الذهاب فعلاً» سألتها بصوت منخفض. زنوبيا لم تعد تجيب. وقفت عند الشباك وظهرها إليها، وتطلعت إلى سماء المساء، وفي تركوازه شرائط متفرقة حمراء سبحت في السماء.

امتد الظل تدريجياً في الغرفة الهادئة. وحين لم تعد ترى شيئاً مطلقاً، نهضت (كليليا) بهدوء، لئلا تزعج المشهد المعتم عند الشباك، فذهبت إلى الغرفة المجاورة وأشعلت مصباحاً زيتياً. هنا ترددت لفترة قصيرة، ثم

Twitter: @ketab_n

ألقت الخيط الذي اصطحبته معها جانباً، وسحبت الرسالة التي تكورت، وقرأتها مرة أخرى:

«... رجلٌ طويل القامة، وسيم. من يجده زاهداً جداً لم يرَ عينيه. لكنني رأيتهما، حين مشى إلى (أوديناتوس) وزنوبيا منتصب القامة في قاعة العرش. مشيتهُ تدع من رآه ينسى أنه كان يعرج. الأمير وحده تفحصه باحتقار من أعلى إلى أسفل».

(كليليا) تتذكر جيداً هذه اللحظة. خفض (لونجينوس) رأسه قليلاً، لكنه لم يعط أي انطباع عن انحناءة أعمق.

«عمودك الفقري يبدو متصلباً مثل ساقيك». لاحظ (أوديناتوس) متشفياً.

«أنتم إذاً الفيلسوف الشهير، الذي سوف يدرّس الملكة، هكذا، هكذا». واستند إلى كرسي العرش شادّاً ظهره إلى الوراء، وتاركاً عينيه مرة أخرى تستعرضانه بلا خجل. «غريب ما يخطر في بالها كل مرة. مرة تريد حصاناً. الآن تريد فيلسوفاً. إذاً لتحصل على فيلسوف: امرأة جميلة لا بد أن تبقى بمزاج رائق، بين وقت وآخر على الأقل». ونظر شزراً. «يجب أن أترككم الآن للأسف. لديّ قيادة مصير المدينة. وقتاً ممتعاً في دراستكم وبحثكم العميق». الطريقة التي ترك فيها القاعة وهو يهزّ رأسه، كشفت بوضوح النتيجة التي كان يتوقعها من كل هذا. (لونجينوس) تابع (أوديناتوس) أثناء موعظته كعالم، اكتشف حالة خاصة مثيرة للدهشة. الآن توجه إلى زنوبيا، وكأنها موضوع بحثه المقبل. جلست طيلة الوقت صامتة، مزينة بأبهى ما تكون الزينة، كأنها، في هدوئها، نصب لآلهة. نظرت بعينين غامضتين، (كليليا) وحدها كانت تعرف أي غضب يفور خلف هذا الوجه القاتم.

«أكاد لا أصدق أن توقعاتكم يمكن أن تتحقق في شرود الذهن واللهو أيتها الأميرة»، لاحظ هذا (لونجينوس) بأسف.

«المفروض بكم أن تبحثوا عن مهرج بلاط».

«أنتم أغفلتم رغباتي، أريد أن أتعلم فقط».

«هذا يحيي الأمل، أي المعارف تعلمتم؟».

Twitter: @ketab_n

«تعلمتُ اللاتينية وحدي». رفع أحد حاجبيه، وبدا على صوته نغمة ساخرة حين قال: «هذا فعلاً جدير بالاهتمام. وماذا بعد؟».

«أرغب، إضافة إلى ذلك، في دراسة الفلسفة، واكتساب معارف في التاريخ والخطابة والرياضيات والفيزياء، إضافة إلى بناء النافورات، ونظريات في فنون الحرب».

«هكذ؟ شهيتكِ مفتوحة أيتها الأميرة، سوف نرى إذا كانت ستصدّ عند هذه الوجبة».

«سوف نرى، أوووه، سوف نرى. أنا في انتظاركم غداً في العاشرة». وابتعدت مستغربة. «ولا تصدقوا أنني لا أعرف أن مسألة وجبة الطعام كانت تلميحاً إلى أفلاطون». وأغلقت الباب بقوة. نظر إليها بارتياب وانصرف بعدها أيضاً.

«(أودو)، لقد سرى فيَّ مثل النبيذ القوي»، واصلت (كليليا) رسالتها. غمست القصبة في الحبر وكتبت بلا تردد: «أشعر كأنني أعرف كل شيء عنه: أعرف الجراحات التي يخفيها خلف تهكمه. أحبه وأشتهيه. كان زوجي على حق فعلاً، فأنا تستولي عليّ لعنة الخطيئة، تماماً كما قال.

حين دخلتُ غرفتنا استقبلتني زنوبيا بحديث طويل عن عجرفة هذا الأثيني، واستمرت في لغة الكتابة بحماسة لم تهدأ. بقيت وحدي وحملقتُ في موزاييك قاع الغرفة حيث أمعنت النظر، عيون آلهات الفن الخالية من الحياة تطل من داخل الرصيعة المحاطة بالزهور. آه يا (أودو). لا أعرف حتى اسمها! حيطان مخدع نومي تزينها مشاهد رواية إغريقية، كما تقول زنوبيا، لا أعرفها. وهو رجل مثقف!

أثناء ساعة الدرس أجلسُ منصرفة إلى عمل يدوي. لا أفهم دائماً نكاتهما ولا تعابير جدالهما، لكني أرى فعلاً ما يحصل بينهما، كل لمسة مألوفة، و كل تراجع سببه انزعاج. أما هما فيكادان لا يعلمان متى يقترب أحدهما من الآخر، ومتى يكونان غريبين، وسوف لن يدعا الدرع يسقط دفعة واحدة. ربما هما لا يعيان أنهما منذ مدة باتا يتقدان حماسة بعضهما نحو البعض الآخر، لكني ألاحظ هذا. أنا أعرف الطبيعة الحقيقية للهيب الذي

Twitter: @ketab_n

تؤججه زنوبيا بشدة فيه، والشوق الذي يراقبها هو به لفترات. إذا كانت لا تلاحظ، ففي هذا عذابي. في الليالي التي تضطجع فيها زنوبيا إلى جانب (أوديناتوس) لا أكون أنا في سريرنا. أسير عبر الممرات، وأحياناً... أحياناً أقف أمام بابه وأعلم أنه كذلك لا يستطيع النوم. يعمل في ضوء المصباح، ربما يحاول بمساعدة الرياضيات أن يبرئ نفسه من الحب. غالباً ما أسمعه يمشي مضطرباً جيئة وذهاباً. سوف أدخل مرة، إذا ما ساعدتني جرأتي، وأطفئ المصباح. سوف لا أذكر اسمي. لعل الله يكون رحيماً بي، ولعل زنوبيا تغفر لي الخيانة المزدوجة. معذرة (أودو)، فلن أكتب بعد الآن، وداعاً. رعاك الله بسلام».

وقّعت وأطفأت النور.

* * *

(أودو) حسب مرة أخرى الكبب الحريرية التي لم تلمس بعد، وتفحص ختمها، ونقل العدد بعدئذٍ إلى لوحة صغيرة من الشمع، ضمها بعناية إلى المستندات الأخرى، التي كانت هنا في انتظار المالك الجديد. ثم ألقى نظرة أخيرة إلى المستودع. رفوف متهاوية أزيلت أو أصلحت، ونظف السفلي بنفسه جيداً. رغم ذلك ما زالت هناك رائحة لسواد الجمال في الهواء. خزين الحرير الاحتياطي الملطخ بالأوساخ كان كله أكداساً مرصوصة أمام الباب، في صورة محزنة، فالألوان الزاهية باتت مغبرة ومتسخة. جرياً وراء فكرة مفاجئة، بحث فوجد في إحدى بالات الفيروز أنه ما زال هناك قماش لم يتسخ بعد. القماش الرقيق تمزق محدثاً ضجيجاً مزعجاً. حفظه (أودو) عنده، وقبل أن يساعد (كليمنس) و(يوليا) في حزم الأمتعة كان عليه أن ينجز شيئاً.

اختار الطريق المؤدية إلى حدود المدينة الشمالية، لتجنب الصخب هناك. وسرعان ما انعطف إلى الغرب، ومشى ببطء في الحي الهادئ. البعض من هذه المساكن كان فارغاً. منذ ازدياد حركات الأوغاد ضد كل من هو رومي في المدينة، جلب الضباط والموظفون عوائلهم إلى الساحل، فتجارتهم لم

Twitter: @ketab_n

تكـن وحدها هي التي خُرّبت. عندمـا اقترب من الخمارة ثقلت خطاه، وكان أحـد حـذره، حثَّ الخطى. غير أنه لم يسـتطع كبت نظرة إلـى البيت الأبيض الهادىء ولافتة «كهف كافيم». لم يعد هناك دم يُرى على الرمل أمامها. وليس هنـاك أحـد في المكان. تذكر (بالبوس)، ولـم يرَه منذ ذلك اليوم. هل كان هو نفسه الذي صرخ: «اقتلوه»!؟ بهذا خيبتُ أمل (كليمنس) و(يوليا) بشدة. غير أن الآلهة، هدّأ نفسـه، تحكم بالشـكل التالي: إن (سنتوريوس) لم يُعثر عليه. من يدري متى وأين سـأراه ثانية؟ شـاهد الرواق الصغير أمامه فحث الخطى. لم تكن هناك مشكلة في الوصول إلى القصر عبر الزحام. قبل وصوله اشترى حفنـة من حبات التين، وجلس متربعاً فـي ظل عمود مقابل المدخل وانتظر. سرعان ما أتى من كان يبحث عنه: جارية شابة من إدارة البيت. بادرها الكلام، وبعد قليل مشـت عبر البوابة تحمل باقة من ألوان الفيروز المضيئة ورسـالة، سلمتها إلى (كليليا) في المساء. وقرأت هذه:

«عزيزتي (كليليا)، أكتب هذه الرسالة على جناح السرعة. أرجوكِ أن لا تحزني. ما يدفعني إلى اليأس والقنوط، أن أعلم أنكِ لسـتِ سـعيدة وأني لا أستطيع مساعدتك. إذ عليّ أن أغادر تدمر.

لكن يجب أن أقول لكِ إنه لعبثٌ أن تفسري مشاعركِ على أنها خطيئة.

أنـا لا أرى فـي ما عملنـاه خطيئة، ربما لـم يكن هذا سـوى عطاء منكِ، عطاء لا يقدّره زوجكِ. بين شعبنا كان هناك، إذا أسعفتني ذاكرتي جيداً، نساء مثلـكِ، كنَّ يخترنَ أزواجهن بحرية، وكنَّ محترمات. حتى الآلهة هنا لا تنظر إلى ذلك بتشدد. إلهكِ كمسيحية هو إله الحب؟

(كليمنس) و(يوليا) يريدان العودة إلى روما بعد ما خُرّب سكنهم. وهم لم يعودوا يثقون بالشرق الجديد. إذاً، في غضون أيام قليلة نصل إلى تيروس، ونبحث هناك عن سـفينة. آخ، حبيبتي، ماذا عليّ أن أقول؟ ربما أستطيع يوماً مـا أن أشـتري خلاص نفسـي وأعـود. وبعدئـذٍ إن انتظرتنـي... لكن عن أي أمـر أتحدث هنا، معذرة.أشـكركِ على كل شـيء تعلمته منكِ، وأشـكركِ أن أعـرف أن إلـى جانب زنوبيا صديقـة لا تخيّب أملها مثلي. سـوف تبقيان في فكري، وداعاً».

Twitter: @ketab_n

دروس في اللاتينية

«... في هذا الموقع يجب أن يكون الفعل في حالة النصب... هنا تَتابع الزمـن خطـأ، يجب أن يكـون في حالة الماضـي الأبعد. اسـتخدام المفعول فـي صيغـة المجهول ليس في محلـه... همْمْمْ. اسـتخدام خاطئ عدة مرات لأدوات الجـر، عدد من تشـبيهات التوريـة غير ملائم. وعلـى العموم فهناك نواقص في التركيب المنطقي». (لونجينوس) رفع رأسه. «لكن بصرف النظر عن كل هذا فالنتيجة ليست رديئة».

كان رد فعل زنوبيا كما توقّعَ: فظاً. «اذاً فقد اكتشفتم على الأقل دزينتين مـن الأخطـاء الكبيرة لكن بصـرف النظر عن هذا، فليس رديئـاً»، قلدت بهذا لهجتـه، «أيمكـن أن تقولـوا لي رجـاءً ما الذي بقـي من هذا جيـداً؟»، طلب (لونجينـوس) منهـا أن تكتب عن تحليل لاتيني وسـائل الاسـتفادة من الماء عند الروم، وجلس مقابلها ليصحح النتيجة.

«أنتـم تكتبون بحيوية بالغة»، أوضـح لها، «ويلاحظ المرء أنكم تعمقتم في دراسة الموضوع. الأخطاء القواعدية يمكن إهمالها، غير أن عليكم تعلم كيفيـة بناء النـص. أنتم في الحقيقـة تتمتعون بالقدرة علـى التفكير الواضح؛ عليكم معرفة كيفية استخدامها فقط، وهذا ما سأعمل على تعليمكم إياه».

«أوه، بالتأكيد ستعملون هذا»، ردت زنوبيا بسخرية، «في مثل قابليتكم»، واصـل الكلام مـن دون أن يهتـم بتلميحاتها السـاخرة، مأخـوذاً بمحاضرته باهتمـام: «فكـروا في كل كلمة في ما لـو كانت ضرورية، وارمـوا الباقي إلى الخـارج. الأسـلوب الكلاسـيكي يتميز ببسـاطة راقية، وليس بـكلام منـمق بالورود».

«نعـم أيها السيد المعلم»، أجابت زنوبيا.

Twitter: @ketab_n

نظـرت إليه وهو يصـول ويجول بقصبتة على ورقتهـا، وتذكرت برعب الـدروس الأولـى التـي كان قد عذبهـا فيها بلا رحمـة، ودائماً بلهجـة هادئة وكلمات مختارة ما زاد من صلابته.

أثقَلها مـن البداية بمشـاكل صعبـة، وطلـب منهـا إعـداد خطابـات سياسـية، ووضع لها أسـئلة معقدة في واجبات درس الهندسـة، أو أنه طلب منهـا تعليقات مسـندة بالحجج لأحاديـث في الفلسـفة. الاعتراضات كانت تُرفض بلا نقاش:

«استخدموا فكركـم». بدا أنه أراد وضعهـا في اختبار، ليـرى إذا كانت جديـرة بمحاضراتـه. كيـف كانـت تنظر إلـى هذا الإنسـان المغـرور أصلاً؟ والذي حسـبها محدودة التفكير ومزاجية وتحب المتعة؟ لم يكن الاسـتنتاج صعبـاً، وكانت الفكرة قد وصلتهـا، لتبدأ النزال بكل غضب وحقد وإصرار - بمرور الوقت كان قد تحسـن رأيه فيها كما ظهر - لم يغيـرّ هذا في أنهما كانا فـي الغالـب على خصـام، رغبة زنوبيا فـي الاعتراض لم تسـمح لها أن تقبل تعليقاته ببسـاطة، من دون أن تجيب عنها. كانت تسـتمتع أحياناً بالنقاشات، غير أنها في غالب الأحوال كانت تشاكسـه كقطة غاضبة، حين كانت تخسـر النقاش. ثم كرهته في تلك اللحظة: كبرياؤه وابتعاده عن الآخرين وتفوقه تثير خفيظتها ضده. لكنها تعترف لنفسها بأن محاضراته باتت لا يمكن الاستغناء عنهـا. كانت مسـحورة بالعلوم التـي تلقتها منـه، والتي عرضهـا عليها كأنها خزائن لا تُقدر بثمن ومن جميع أنحاء العالم. وقد نشّـط وعيها في المسـائل الأساسية للفلسفة الإغريقية، كان يحلل لها الإدارة الرومية، ونظام الاقتصاد، والجيش، أو كان يناقش معها مشاكل المساحة وتوزيع المياه.

(لونجينـوس) تكلم بحريـة وطلاقة ومن دون تكلـف، خزينه المعرفي بـدا كـأنـه لا ينضـب. انتقاداته اللاذعـة أعطت كل محاضـرة نكهة خاصة لا توصف، وفي كل مرة تولّد لديها انطباع أن هذا الرجل الجاد بسيمياه الجادة، لا يمكن أن تكون له مشاعر. كان الرجل بالنسبة إليها لغزاً. لم تصادف مطلقاً رجـلاً في مثل هذا الانغلاق، وفي بعض الأحيـان وجدت لديها رغبة عارمة فـي اختراق هـذه المواجهة الباردة لتـرى ما تخفي خلفها. لكنـه لم يترك أي

Twitter: @ketab_n

مساحة للهجوم. ولم يكن هناك من يغتابه أو يختلق القصص حوله. كان معتاداً رفض كل دعوات الشرب تقريباً. ولم تعرف هي إذا كان عنده حبيبة، ليس لأن هذا قد يهمها، النساء لم يكنَّ ينظرن إليه بأقل من الإعجاب، ولا بد من اعترافهن بأنه وسيمٌ حقاً: وسامته ليست تقليدية. الأنف طويل نسبياً والفم أكبر من اللازم، لكن على العموم له وجه جذاب، له عينان سوداوان لهما تأثير شديد إذا ما وجههما إلى عيني أحد.

تذكرت مرة، عندما حضر إحدى الولائم النادرة. كان في البداية جالساً بكل أدب، كواحد من مجتمع المدعوين. ومع مرور الوقت كان يقلل من إخفاء ملله. محاولات تغزل السيدة الجالسة إلى يساره لم يعرها أي اهتمام. لاحظت زنوبيا كيف انتقلت نظرته بالتدريج، وعرفت الآن أن في رأسه أحلاماً ترنو إلى المعالي. فجأة اعتدل في جلسته وأشار إلى مملوك ليأتي إليه، وأمره أن يجلب له عدة للكتابة. وتحت أنظار الضيوف المندهشين، بدأ كتابة ملاحظات. أداة الكتابة طارت فوق لوحة الشمع، فتركت أثراً وبقعاً. نظر (أوديناتوس) إليه بغضب متزايد، ثم أرسل الساقي إليه:

«الأمير يسأل إذا كنتم متضايقين من مجلسه؟». لم يرفع (لونجينوس) حتى رأسه. «هناك ما هو أكثر سوءاً»، أجاب من دون وعي. كان يعتقد أن قوله ملائم من وجهة نظره. «لا تزعجني».

استذكار هذه الحادثة أسعدها من جديد. وللمرة الأولى لاحظت أن أفكارها الآن مركزة كل مرة عند الفيلسوف نفسه، وليس عند مادة الدرس فقط. هل لهذا معنى؟ هراء، وانتبهت إلى نفسها. إن الأمر متعلقٌ فقط بأسلوبه الذي لا يُحتمل، والذي وجدت نفسها منشغلة به.

كانت تريد منه شيئاً واحداً. علمه؛ في ما عدا ذلك فقد كان بالنسبة إليها سواء!

في هذه الأثناء كان (لونجينوس) قد أتم تصحيحه، ودفع الأوراق جانباً، وتوجه بنظرة ثانية إلى تلميذته التي جلست بوجه مشرق قبالته. كانت تلبس رداءً أبيض بسيطاً من القطن المصري، خصرها مشدود بحزام أزرق ذهبي، أشرطة باللون نفسه ضفرت بها شعرها الذي كان مرفوعاً إلى أعلى ومتداخلاً

Twitter: @ketab_n

بعضه ببعض؛ إلا خصلة واحدة تُركت حرة معلقة نحو الأسفل وقد تدلت متجعدة خلف الرقبة وحول الكتفين. كانت في زينتها بهية، لكنها متحفظة. جدائل عادية وجديلة ذهبية عريضة نزلت على أعلى ذراعها. (لونجينوس) طبع صورتها في ذهنه، كأنه كان مفروضاً عليه أن يحفظ صورتها في رأسه في كل الأوقات. ثم ألزم نفسه العودة إلى الدرس.

«تحدثت لكم في المرة الأخيرة عن سُلا وأزمة جمهورية الروم»، بدأ الحديث باللاتينية، وواصل، ليفصل لها المشاكل التي كانت سبباً في تحطيم النظام السياسي في روما، وفي تهيئة أرضية الحكم الفردي للقيصر.

«بصراحة، يدهشني أن يستطيع مثل هذا الحكم الثقيل الاستمرار أصلاً»، قالت زنوبيا.

(لونجينوس) تطلع إلى وجهها بجدية شديدة. «نظام حكومي ثقيل؟ مع كل الانتقادات ضد روما: الجمهورية كانت نظاماً ذكياً متوازناً، وكانت مستعدة لإنجازات كبيرة. الحقيقة أنه بعد فترة ازدهار طويلة في وقت ما لم يعد في وسعها الاستمرار في البقاء، الأمر متعلق بسلسلة عوامل مختلفة، ولم يكن في أي حال من الأحوال ثمة تناقض في النظام نفسه. حتى الأنظمة الملكية ليست باقية إلى ما لا نهاية، يا ملكتي».

«لكنها ذات تأثير بعيد، سيدي الجمهوري».

«إذا كنتم تريدون المناقشة، فعليكم الاعتماد على حجج موضوعية، وليس على مجرد ادعاءات. برهني لي أن الملكية هي شكل الحكم الأفضل».

«كأنما تريد مني أن أثبت لك حق وجودي»، أجابت زنوبيا بتذمر.

«ربما كان من الأنسب أن تكون الملكية هي الأساس»، قال (لونجينوس) باسترخاء، «ابذلوا جهداً». تمتمت شيئاً حول طرق التعليم الدكتاتورية، وقالت باهتمام: «الملك بإمكانه أن يخطط لما يريد لفترة طويلة وينفذ..». وابتدأت:

«... إذا لم يتم اغتياله قبل ذلك».

قررت أن تتجاهل هذه المداخلة. «المستشارون الروم في المقابل

Twitter: @ketab_n

بقَوا في الحكم سنة واحدة فقط. كيف يستطيع المرء في هذه الفترة القصيرة تحقيق شيء دائم».

«أنتم تنظرون إلى دور المستشارين من زاوية ملكية. لم يكونوا هم في المركز الأعلى للدولة، وإنما هيئة المستشارين هي التي تضمن استمرارية سياسة الروم لفترات أطول».

«لا شك في أن الجدال سيكون صعباً وطويلاً، إذا كان بين مئات المستشارين قبل أن يتوصلوا إلى قرار. في مثل هذا الوقت يستطيع الملك أن يصدر قرارات عدة».

«نتمنى أن تكون ممكنة الاستفادة من البعض منهم على الأقل، في إدارة الدولة، فهناك حاجة إلى معارف أساسية في مختلف القطاعات، وليس هناك إنسان يجمع كل المعارف، ليكون...».

«... ولا حتى أنت؟»، قاطعته زنوبيا باندهاش مصطنع.

قطب جبينه. «في هذه الحال ربما لا أستطيع الجلوس هنا، وأشغل رأسي بالجدال معكم». كانت إجابته جافة. «حتى الملكي يحسن صنعاً إذا أحاط نفسه بمستشارين مشهود لهم بالخبرة. للأسف يفضل الكثير من الحكام مجموعة من العاملين في البلاط، الذين لا يجيدون سوى التملق. يبدو أن هذا أقرب إلى الطبيعة البشرية من الصراحة والمسؤولية الذاتية».

«أي سعادة في أنني تخلصت من هذا الخطر»، أجابت زنوبيا برقة. «بخصوص الصراحة لا أحد من الآخرين يتفوق عليكِ. أما محاضرتكم فتتطلب مسؤولية كبيرة وصبراً».

«شكراً»

«لكن حكاماً آخرين لا يستمتعون بتدريسكم في الحقيقة»، أضافت بسرعة، «لكنهم يتحضّرون منذ الطفولة لواجباتهم».

رفع (لونجينوس) حاجبيه من دون قصد الملامة. «أنتم تنطلقون من تربية أميرية مثالية، ومن قبل وصي على العرش، يتمتع بالامتيازات المطلوبة. للأسف يصح العكس دائماً، لأنه سبب مغرٍ للمغامرة، ورائع لورثة العرش».

Twitter: @ketab_n

«نوعيـات الموظفيـن الجمهورييـن بدت لكـم فوق كل الشـبهات. مع هـذا لا يحركهـا فـي الغالب شـيء سـوى الطمـوح الشـخصي والجشـع»، ردت عليه زنوبيا فوراً.

«قولـي لي، على من لا ينطبق هذا. رغم ذلك فقد أنجزت الغالبية عملاً جيـداً. لديها في الحقيقة مجال واسـع للخبرة العلمية، وتواجَه بمشـاكل من تلك التي لا يتعرف عليها مطلقاً ولي عهد في عزلته في قصره».

«لنختصر إذاً: نحن الملكيين بحسب ما ترون، لسنا سوى رؤوس خاوية بلا أمل. تسمحون لي أن أسألكم لماذا أنتم أصلاً هنا؟».

«كانت فكرة جذابة أن يتعرف المرء مرة على قرينين مستبدين».

«أنا أفهم أن السيد الفيلسوف كاد يمني نفسه بمسرحية مسلية»!

«هكذا يمكن التعبير عن هذا، حتى وإن كنت ربما حدثت نفسي كذلك عن المصالح في حقبات تاريخية».

أجابـت زنوبيـا بتأفـف مغتاظـة. «كيـف يوجـد مثلكـم متعجرفـون مملّون..».

«رجـاءً، بلا إهانات»، قال (لونجينوس) بلطف، «يجب أن تبذلوا جهداً أكبر في تعلّم ضبط النفس». نهض ومشى بخطوات ثقيلة نسبياً حول المائدة وبقي واقفاً إلى جانبها.

«حججكم لم تقنعني».

رفعت حنكها إلى أعلى بسرعة: «ولذلك بدأت ألاعيبكم ترهق أعصابي تدريجاً. أنتم يُدفع لكم أجرٌ لتعلموني شيئاً، إذاً قوموا بهذا»!

«كما تأمرون سيدتي الجليلة»، ماكان للموقف أن يكون أكثر إذلالاً.

«النقاش القصير كان المفروض به في الحقيقة أن يفيدكم في أن تعرضوا وجهات نظركم جيداً، لكن إذا كنتم لا تريدون...».

«ماذا؟»

أخفـض (لونجينـوس) رأسـه ونظـر مباشـرةً إلـى عينيهـا: «تعطشـكم للسلطة».

قفـزت زنوبيـا من مكانهـا. «انتبهـوا إلى مـا تقولون»! أجابـت بغضب

Twitter: @ketab_n

شديد: «وقاحتكم تجاوزت كل الحدود».

(أوما) برأسه وكأنه تحقق للتو من صحة نظرته، «لهذا تحتاجون إلى معلمكم، أليس كذلك؟» أجاب باسترخاء وبلامبالاة.

«لأجل أن تتعلموا ما يمكن أن يعود عليكم بالنفع يوماً. أنتم لستم في حاجة إلى المعرفة لتنفعوا أنفسكم بها. أنتم تريدون السلطة».

بانفعال راحت تجول في الغرفة جيئة وذهاباً، خاطبته باسمه المجرد، ولم تعره أذناً صاغية.

«وما الخطأ في ذلك؟»، انفجرت بالكلام، «الطريق الوحيد لعدم الرضوخ لسلطة أخرى، هو هذا، هو ممارستها. أريد أن أغير أشياء كثيرة، لكني لا أملك الإمكانيات لذلك، أنا أكره أن أخضع لأوامر غيري، لكن عليّ أن أذعن كل مرة وعلى الدوام»، وهي تتكلم شعرت بأنها تجرأت أكثر من اللازم.

(لونجينوس) لاحظ عدم ارتياحها. «لا عليكم، يمكنكم أن تتحدثوا إليّ بصراحة». تأملها بكل اهتمام. «تحسبون أني لا أعرف كل هذا؟ سرعان ما ستدركون أن السلطة لا تعني الحرية الحقيقية أيضاً، لكني أفهمكم جيداً».

وبعد قليل أضاف: «أنتم تمتلكون القدرة على ذلك أكثر من زوجكم».

والآن استطاع بشكل نهائي أن يخرجها من حالتها. نظرت إليه، ثم زال عنها التوتر وصار ضحكاً. «أحياناً أكاد أجدكم محبوباً، (لونجينوس)».

«ما أجمل هذا»، ابتسامته ألقت إطاراً من تجاعيد بسيطة حول عينيه، منحت وجهه سحراً غريباً.

«أفلا أرى الآن فعلاً بسمة تضفي جمالاً على وجهكم؟». ازدادت حماسة زنوبيا، «أيتها الآلهة، (لونجينوس) قد ابتسم! أولديكم ربما قليل من المشاعر الإنسانية؟».

«مشاعر إنسانية؟».

«مثلاً، شيء كالفرح والكره والحب..»، هكذا واصلت مساعدته.

بدت على (لونجينوس) الرغبة في التفكير جدياً. «بلى، سمعت عن هذا في الحقيقة». بدأت تتراقص في عينيه رغبة توهجت. «مفاهيم مثل

Twitter: @ketab_n

هذه وبحسب الخبرة في حاجة ماسة إلى تحديد»، واصل الكلام بأسلوب تعليمي، «أيمكن أن تقولي لي ماذا تفهمين تحت كلمة... حب مثلاً. لكن رجاءً باللاتينية وبكلمات مرتبة جداً».

رمته زنوبيا بنظرة. «أنا أكرهكَ» قالت مزمجرة.

«يمكنكم أيضاً تحديد الكره، إذا كان في ذلك ما يلائم مزاجكم». اتكأ على المائدة وانتظر بشغف. «أنا أعطيكم بضعة أيام بكل سرور، حتى يمكنكم أن تدونوا أفكاركم تحريرياً»، كان هذا اقتراحه. «أوه هذه فكرة رائعة: اكتبوا إنشاء باللاتينية عن هذا الموضوع الواسع للمشاعر البشرية».

نظرت إليه وقتاً وهي صامتة.

«بالطبع شديد العلمية ومنطقي تماماً»، لهجتها كانت ساخرة أيضاً مثل لهجته.

«بالطبع! لكن أيضاً بشيء من الشعرية، فهذا يلائم الموضوع...آخ، أجل وللانسجام أوصيكِ بشعرِ كاتول». استعارت زنوبيا منه واستطاعت بهذا أن تتعمق جدياً في النص.

«بالضبط. ربما تعلمون أن هذه الأبيات في الأصل كُتبت بالإغريقية ومن قبل سابفو. ونقل كاتول الأبيات إلى اللاتينية».

«كيف تسمو اللغة الإغريقية على اللاتينية بالجمال وقوة التعبير عالياً»، أضافت زنوبيا فوق ذلك.

أخفى (لونجينوس) بسمة: «لقد تعلمتم الكثير».

«أوه، نعم، معلمي مخلص لواجبه ولا ينثني عنه»، رأت رجفة على زاوية فمه، فلم تستطع مقاومة أن تستفزه أكثرلتفتنه. «ليس لديه سوى الحكمة في عقله وينظر باستهزاء إلى الدوافع الماجنة لدى الآخرين. النساء اللائي يتهافتنَ عليه بلا جدوى صرن يغنين بسببه أغاني حزينة». وتنهدت بشكل مثير.

«هكذا؟ على سبيل المثال؟».

«مثلاً عزيزاً، المحظية، يقال إنها غارقة بحبكم حتى أذنيها، هذا يعني أنها مستعدة أن تقوم بذلك من أجلكم مجاناً».

Twitter: @ketab_n

وجـه (لونجينـوس) تحـوّل إلـى قنـاع مثيـر للسـخرية. «لدى السيدة ذوق». كان رأيه.

شعور غريب تسلل إليها. عدوانية ورقيقة في وقت معاً. بدا على أطراف أصابعها بعض الارتجاف، فإما أن تضربه أو تمسـد له، لكن في كل الأحوال المهـم أن تلمسـه. بانزعـاج نفضت الفكرة من رأسـها، واتجهـت هادفة إلى الوخزة التالية: «أم أنكم تميلون إلى الصِبْية؟ في النهاية، أنتم إغريق».

«فيمـا يخـص الميل إلى المثل لكـم بالتأكيد خبرة أكثرمنـي»، ردّ عليها (لونجينوس) بسيمياءٍ بريئة.

سـمعت زنوبيـا (كليليـا)، التـي كانت جالسـة بعيـداً نسـبياً منكبة على تطريزها،كيـف تنفسـت عميقـاً، ووجـدت تلميحاتـه متجرئـة جـداً، غيـر أنهـا لا بـدّ أن تسـامح، كانت هـي البادئة فـي الموضوع. في ما عـدا ذلك لم يكـن دون هيبتهـا أن تتظاهـر بعـدم الفهـم أو بالانزعـاج، ثم عـادت الخبيثة للاستفزاز. «صُدمت؟».

«كلا، أتقبـل كل المتغيـرات. بصـرف النظـر عن هذا، لا تقـع مثل هذه الأسـئلة ضمن اختصاصي. إذا كنتم تريدون معرفة شيء عن مفهوم الخطيئة وقتـل الشـوق، فعليكم طرق بـاب الجناح المسـيحي. أخبروهـم عن نتيجة بحوثكم أيضاً. أنا أرغب في الاستزادة من العلم».

«أنتم نموذج حقيقي يُقتدى»، امتدحته زنوبيا، «وماذا عن العشق؟».

«على أفضل ما يكون».

انتظـرت لفترة، لكـن لـم يأتِ جديد «لقد كانـت معلومات مرهقة فعلاً. همْمْـمْ... يبدو أن هذا هـو الوحيد الذي يمكن أن يثيركم. جملة جيدة البناء، فرضيّة فلسفية مقنعة أو حل ذكي لمعضلة رياضية».

«ربما»، أسند رأسه جانباً. «بعد شرح هذا بالتفصيل يمكننا أن نعود إلى تاريخ الروم ثانية».

«هذه أيضاً رغبتي. أنا أصغي».

ركز (لونجينوس) للحظة ثم أكمل إيضاحاته عن نهاية جمهورية الروم، كأن لـم تكـن هنـاك أية فتـرة انقطاع. وبعد مـرور نصف سـاعة أنهى الدرس

Twitter: @ketab_n

بالكلمات: «اقرأوا رجاءً، الكتاب السابع في «سيزار»، انتبهوا وأنتم تقرأون للمعركة الحاسمة في أليسيا. أرغب في مناقشة مسائل استراتيجية معكم».

نهضت زنوبيا. ونظر هو إلى الهيفاء بقامتها المكتملة المتجهة إلى الباب. «ولا تنسوا كتابة البحث الذي تحدثنا عنه»، ناداها من خلفها. رمقته بنظرة قاسية وتركت مع (كليليا) الغرفة.

بقي (لونجينوس) وحده، غارقاً في أفكاره. لمست يده بصدفة، كادت تكون متعمدة، الأوراق الباقية وعليها الموضوعان مختلطان، وارتسمت ثانية بسمة على شفتيه.

Twitter: @ketab_n

الضربة

«يمكنكِ أن تنهضي أيتها الأميرة، أهنئكِ»، تلمست (أومة) برقة بيديها السوداوين القويتين ردفي زنوبيا، وهي تنهض من مضجعها، ورتبت ملابسها.

«أنت بالتأكيد حامل». فرحت زنوبيا.

«ألم أقل لكِ، (كليليا)، أوه أنا عرفت، أنا عرفت».

ملكة تدمر رقصت كفتاة صغيرة مثلما كانت من قبل، في فسحة الغرفة وتبادلت العناق مرة مع خادمة الحمام النوبية البدينة، ومرة مع (كليليا) النحيفة الكتفين اللتين بقيتا منكبتين على التطريز، كأنها لفرط سعادتها سمعت الصِبْية الذين زينوا الجدران، يعزفون فعلاً أغنية حلوة للحرية.

«على أحدهم أن يخبر الملك في الحال! الآن تخلصت منه، على الأقل حتى نهاية فترة الرضاعة. وإن كان صبياً فلا بد. لقد تذكرتُ. (أومة) قولي لي، أيمكنكِ أن تتوقعي ماذا سيكون؟». بهذه الكلمات بسطت راحتي يديها إلى النوبية. أخذتهما (أومة) بيديها وضمتهما إلى بعضهما، وأكدت لها أنها ليست في حاجة إلى نظرة لتعرف، هي كانت أماً لصبي. لم تكن واثقة من ذلك منذ حلم زنوبيا، الذي طُلب تفسيره بناءً على رغبة والديها. زنوبيا ستلد بلا شك ملوكاً، أجل، وكانت ستصبح هي أيضاً ملكة. لكنها لم تخبرها بذلك.

زنوبيا عادت إلى خطواتها الراقصة، ودندنت بأغان لنفسها. ستقدم للملك ما يكفي من العشيقات لئلا تُضطر هي أن تنام في فراشه. هنا كانت مطمئنة إذ لماذا سيصر عليّ، إذا كان ولي العهد هنا. في الأساس كانت هي بالنسبة إلى ذوقه نحيفة أكثر من اللازم. أمسكت بالمرآة البرونزية اللامعة من على طاولة الزينة، وشدت الأتك على خصرها وحاولت إلقاء نظرة على

Twitter: @ketab_n

بطنها من الجانب، غير أنها كانت مسطحة تحت يدها إذ مسدت عليها.

«هل ستحبينني يا (كليليا)، إذا أصبحت بدينة؟»، وعانقت بلا وعي صديقتها من جديد. «سيكون مدهشاً، بلا واجبات زوجية آكل ما يعجبني. أوه، ولديّ متسع من الوقت للدرس. لقد كان (لونجينوس) في الأسابيع الأخيرة لطيفاً جداً معي».

تناولت حبات عنب من الوعاء، وأدخلت أخرى في فم (كليليا) ورقصت. لم تلاحظ كيف جفلت صديقتها بعد هذه الملاحظة. غير أن عليها أن تذهب إلى اللات لتقديم قربان من أجل ولادة ميسرة، وبهذا تقوم بجولة طويلة جميلة حول السوق. برضى تأملت النافورة في الحديقة المجاورة والأضواء المنعكسة على القاع وعلى قدميها البنيتين. حرّكت أصابع قدميها، آخ، ما أكثر ما شاهدت من أشياء جميلة أمامها.

عندما أُعلمت بمجيء (لونجينوس) ليذكرها بساعة الرياضيات اليوم، لم تتأخر عن تبشيره بالخبر الجيد. بصراحة وبلا أي حرج ابتسمت بوجهه معبرة عن سعادتها. وأجاب الفيلسوف بفرح أكثر وداً مما تصورت. كانت مندهشة بعض الشيء، كيف توسعت عيناه، ثم أمسك يديها الاثنتين لدعاء تقليدي.

«إنها فعلاً مفاجأة جديدة مدهشة»، أضاف. وجه زنوبيا أشرق فرحاً، من دون أن تسحب يدها من يديه. «أليس كذلك»، لم يلحظ أحدٌ منهما كيف أغلقت (كليليا) الباب المؤدي إلى غرفة نومها.

«لو تسمحون لي أن أعطل ساعة اليوم، ساعة فقط، بلا دروس. أود أن أذهب إلى زوجي وأقول له ذلك». تلبّد وجه (لونجينوس) «أجل، هذا ما يجب أن يحصل، كما ترغبين أيتها الملكة».

«عندما ذهب اتجهت زنوبيا إلى (أومة) ورفعت كتفيها. «هذه هي الأمور دائماً، مرة بلطف ثم سرعان ما تبرد ثانية. أنا لا أفهم الرجل». لكن حتى هذا نسيته ثانية بينما شرحت (أومة) لها كيف يجب أن تتصرف النساء الحوامل وأعدت لها شاياً ضد الغثيان للفترة المقبلة. وأخذت إضافة إلى ذلك عيناً مصرية من كأس برونزي أزرق، كحجاب يحمي من نظرات البشر،

Twitter: @ketab_n

شـغلته (أومة) بتميمة من دعوات وكلمات لمنح البركة، تعلقها حول رقبتها، وتضفرها لاحقاً بشعر طفلها، ثم سحبت نفساً عميقاً.

«هكـذا والآن أنـا ذاهبـة إلى (أوديناتـوس)، ماذا علـيّ أن ألبس؟ ربما الفسـتان الحريـري الأخضر بزهـرة الديباج البنفسـجية؟ منظره مثيـر جداً».

رمـت (أومة) زنوبيا بنظرة عتب، بينما كانت تبحث بعصبية في خزانة. كانت أم الرجـل التي كانت تريد إخبار ابنها بأنه صار أباً. وإذا لم تكن هذه على قيد الحياة، كما هي الحال عند (أوديناتوس)،فقد أصبح هذا واجب الحماة. غير أن زنوبيـا رفضت الذهاب إلى (زيمة) رغـم كل تحفظات امرأة الحمام. منذ أن سكنت أمها في القصر لم توجه لها سوى كلمات التحية الرسمية. وبعبارة أدق منذ أن خرجت هذه من السـجن وعادت إلى الجبال، لم تعد تكلمها إلّا في أشـد الحالات ضرورة، والمفـروض أن تبقى الأمور هكذا، حتى وإن لم يظهر على (زيمة) أنها عانت تحت وطأة هذه المعاملة أكثر منها.

«يمكنـكِ أن تقولي لـ(زيمة) إذا أصغت إليكِ. إنه لصعب مع ثرثرة أمي أن أسـتطيع الكلام. فلو أرسـلتها فعلاً إلى (أوديناتوس) فسوف تروي له كل قصة مرضها، وتنسى في الحقيقة لماذا قصدته».

هزت (أومة) رأسـها بسـبب هذه اللامبالاة، لكنها لم تستطع تغيير رأي زنوبيا أو مزاجها، وقد اتخذت موقفاً رسـمياً تماماً منها، وعزمت على إخبار زوجها ليس عن أبوته المقبلة وحسب، وإنما سعياً منها لتحويل قضية الديون الضريبية على قبيلتها، بشكل نهائي، إلى مكرمة مقابل ولادة الطفل. كان هذا يومها. بفسـتانها الزاهي كأنه إشـارة نصر، طافت في الممـرات لتلفت أنظار الجميع، و(أومة) نفسها لم تتمالك الابتسام حين رأتها.

ذهبت (أومة) نفسـها للبحث عن أفراد عائلة (سـبتيموس) (زنوبيوس) التـي تقيم في أحـد أجنحة القصر. قابلتهـم في غرفة ذات تهويـة جيدة، ولم يكـن يفصلها عـن حديقة صغيرة سـوى كتائب من خشـب الصنـدل، مناظر طبيعيـة خلابـة على الجدران وسـجادة حريرية خضراء بـأزرار مطرزة تقوي الشـعور بأن المـرء يتواجد في الطبيعـة الحرة. وفي حـوض صغير تراقصت أسـماك الزينة كأنهـا بريق بين ظلال وورود البحر وخلالهـا. الأعداد الكبيرة

Twitter: @ketab_n

للألعاب الملقاة هنا وهناك، حلويات قُضم منها، وغسيل وسخ أثر نسبياً في مجمل المشهد.

آمر المدينة السابق لم يعر أهمية لزيارة نسائه، مثلما فعل في أوقات أخرى، جلس بنظرات خالية من أي تعبير على كرسي جلدي وثير في زاوية من الغرفة وغطاء من الوبر على ركبتيه. إلى جانبه مملوك راقب الأطفال الذين كانوا يزحفون لئلا يتعثروا بخفه أو يعلقوا بحزام بنطاله فيقلبونه. معظم الأطفال لـ(أويات) وهم خمسة. المرأة الإضافية لـ(زنوبيوس) كانت أيضاً مهتمة جداً بالخبر الجديد، وعقدت العزم على القيام بزيارة تهنئة لزنوبيا، وجمعت باهتمام ملابس أطفال قديمة وذكريات ولاداتهم.

«لمن تقولين هذا يا (أويات)»، قطعت (أومة) الحديث المتواصل أخيراً، «لقد كنت عندهم في كل مناسبة»، ثم توجهت بالحديث إلى (زيمة). «مثلما ساعدتُ أنا طبعاً بولادة زنوبيا وكان عملاً ثقيلاً، أليس كذلك سيدتي؟ أيفرحكم أن تكونوا جدة؟»، تناولت (زيمة) بتنهيدة برعم وردة حلوة.

«آخ، إلهي، وقع هذه الكلمة يذكّر بالعمر المتقدم. لكن الآن ستدرك الفتاة أننا كلنا عملنا الصحيح تماماً، الآن حيث النجاح قد ظهر، وقد ضمنت هي مكانها كالزوجة الأولى، إذ سيكون وليدها صبياً بالتأكيد، هذا أقل ما تدين به لنا بعد كل الجهود التي بذلناها لها. كان المفروض بها أن تكون مدينة لي بالشكر». فضلت (أومة) أن تهزّ كتفيها لتؤكد أن زنوبيا أعطت انطباعاً سعيداً. أومأت (زيمة) وهي متأملة.

«نعم ويحق لها ذلك، في مثل هذا الموقع، ملكة تدمر وأم لولي العهد»! وتنهدت مجدداً «ابنتي! كان الأمر مستحقاً. آخ إنها الطيبة». ولم يزعجها ما سمعت، أن زنوبيا حررتها من مهمة إخبار (أوديناتوس). كان الطفل عصرياً وبحسب الموضة، منذ أن خرج جسمها على المألوف لم تعد ترغب في مغادرة مخدعها، ما يوفر عليها التقاط حلوى أيضاً. إلا واحدة بدت غير راضية عن كل شيء، هي ياسمين.

استمعت بامتعاض، وهي تراقب زاوية عينها، كيف أن جسم (زنوبيوس)، بين عدد من الأطفال اللاهين، تحرك من مكانه، وانزلق عن

Twitter: @ketab_n

الكرسي قبل أن يمسك خادمه به. طفلة بعمر سنتين فزعت ورمت بلعبتها الملعلعة إلى الرجل الملقى هناك بلا حراك. نادت ياسمين ابنتها وحملتها إلى الخارج، وسط ضجيج الانفعال، من دون أن يلحظها أحد. هناك دفعت البنت إلى إحدى المملوكات، وسحبت برقعها أمام وجهها، وتركت المكان بعد تردد.

«ياسمين؟ لقد قلتِ أنكِ لا يجدر بكِ أن تأتي إلى هنا أثناء النهار»، بانزعاج نظر (سبتيموس حيرانس) من فوق أوراقه، لم يشبه مطلقاً أباه (أودیناتوس): العينان الباهتتان اللتان ما هدأتا كادتا تكونان كبيرتين، بالنسبة إلى الوجه النحيف والفم العريض بشفتين رقيقتين، وإلى الفك العلوي الناتئ إلى الأمام، ما أضفى عليه شبهاً بالسحلية، وأسلوبه المستفز الذي أثناء العراك يثير الحفيظة والغضب، ما جعل اسم «حيةُ سليمان» ينطبق عليه.

«الوضع خطر جداً هنا. فوق هذا لديَّ عملٌ».

تظاهر كأنه توجه إلى عمله ثانية، غير أن ياسمين رفعت التثقيلة عن رزمة الورق، فالتفت ثانية وسحب الورق المشاكس خلف وعاء كبير من فخار.

«ظننتُ، أنه قد يهمك أن تخلصت من عرشك الآن». أمسكها (حيرانس) بقوة من كتفيها وهزها: «هل أنت مجنونة، يا امرأة؟ ماذا يعني هذا؟»، غير أن ياسمين التصقت به وتلوّت كالثعبان، «أمسك بكل ما لديك من قوة، يا زوجي القوي، لكن إرثك سينتزع منك من دوني». ورمته بنظرات تراوحت بين الغضب والشهوة، وأسرعت لتحدثه عما كان لدى (أومة) من أخبار.

«... وبكل تأكيد، فسيكون صبياً».

«إن هي إلا مبالغة»! لم يشأ (حيرانس) أن تخرجه ثرثرتها عن هدوئه.

«كلا»، ردت عليه ياسمين، «(أومة) تعرف عمَّا تتحدث. العجوز الشمطاء ترى أكثر منك ومني. لقد آن الأوان كي نتصرف. (حيرانس)، يا حبيبي». يداها الاثنتان اختفتا خلف ملابسه. أعجبه الأمر ولم يعترض، بينما كان يفكر بصوت مسموع:

«لن يكون الأمر سهلاً. كان لديها حدسٌ في ما سبق، وغير ممكن أن نخنقها في فراشها من دون أن يعرف أحد، مادامت ترقد تلك الشقراء

Twitter: @ketab_n

اللعوب معها».

«إذاً أتحبني، (حيرانس)؟» أراقت هذه الكلمات في أذنه.

« ماذا يعني هذا؟ ياسمين طبعاً، لكن لديَّ الآن...».

«لأنه إذا كنت تحبنـي...»، فمها الحار اقترب أكثر إلى أذنه، «وتجعلني زوجـة لـك»، وعضـّه، «عندها سـأنجز لك هذه المهمـة». وحملق مذهولاً مرة أخرى، وبنقطة الدم التي مسـحها من شحمة أذنه، وبوجهها المبتسم، ثم نظر إليها شزراً.

«أنتِ مشعوذة».

«وملكة تدمر في المستقبل؟».

«حبيبتي الغالية، ماذا تنوين أن تفعلي؟». وباستفزاز وبطء سحبت ورقة من فتحة صدرها وأعطتها له ليقرأها، بعدما أصلحت فتحة صدرها.

«إنها قصيدة حب»، نظر إليها متسائلاً.

«أجل، والمقصودة زنوبيا. واضح نسبياً، ألا تجده كذلك؟ هنا... مفتون بشـعركِ غارق، ذائب فيكِ، يا محبوبتـي يا ملكتي، إحزر من كتب هذا». رفع يديه المفتوحتين مشيراً إلى أنه لا يعلم، وأهمل الأمر.

«(لونجينـوس)»، قالت غاضبـة، «(لونجينوس)، ذلـك الطيب الزاهد. أوه، لقد كانت وهي صغيرة ترعى الحيوانات الجريحة».

«لكن»، وضرب بحافة يده على رزمة الورق «بسبب هذا لا يمكن للمرء أن يلف حوله حبلاً، بصرف النظر عنها». حاجبا ياسمين ارتفعا وتقوسا كأنهما منجلان حادا النصل: «كلا، حتى وان كان عبد (لونجينوس) للكتابة...».

«هَـي، لحظـة، ومـن أيـن هـذا العبـد فجـأة؟ وهـل هـو ثانيـة واحد من عبيدكِ؟».

زمجـرت بسـخرية: «رغـم ذلك فلـديّ الغوطيـة الإلهية، من السـابق؟ أرسـلها من أجلك مع القافلة الأخيرة. إصغِ إليّ رجاءً. كيف لو أن العبد كان منذ عدة ليالٍ قد رأى امرأة مبرقعة من فوق إلى تحت تختفي في غرفة سيده- أقـول مبرقعـة من فوق إلى تحت من دون أن يُسـمع لها صوت- وتخرج من غرفة زنوبيا؟». فهم بالتدريج.

Twitter: @ketab_n

«حامـلٌ أو غيـر حامـل، (أوديناتوس) سـيأمر برجمها إذا مـا ظفر بها»، ونظر أحدهما إلى الآخر شزراً.

«لا بـد بعـد ذلك من كشـف الأمر له بأسـرع ما يمكـن». ضغطها بلهفة إلى جسـمه وإلى الحائط، فاصطدمت أسـنان كليهما بشدة، بينما كانا يقبلان بعضهما بعضاً.

* * *

رقـد (لونجينوس) صاحياً في سـريره وذراعاه مشـبكتان خلف رأسـه، ورأى كيـف جال القمر فوق ظـل منارة الضريح. صرخ طاووس بصوت أبح فـي واحد من الأفنية الداخلية. عـدا ذلك كان القصر هادئاً. ما زال يتصور أن ما حصل إنما هو حلم قبل أن يكون حقيقة.

ذهبـت إليـه قبـل بضعة أسـابيع. كان قد عمـل حتى سـاعة متأخرة من الليـل، وكان منهمكاً جـداً ليرى ما يحصل حوله، فلم يكن وحده، لم يشـعر بوجودهـا إلـى أن رآهـا واقفة إلـى جانبه، وقـد انحنت إلى المنضـدة لتطفئ المصباح. ظللهما ظلام غير ثقيل، لم يسـمع سـوى خشخشـة ملابسها وشم عطرهـا. بوضوح لا يقبل الشـك، ومأخوذاً بالنشـوة: «زنـ..».. «شـش...». أطـراف أصابعهـا كانت تبحث عن وجهه، واسـتقرت ناعمتين على شـفتيه. قبّل راحة يدها وطوّق خصرها وسحبها إليه...

ثم في اليوم التالي، هي نفسها زنوبيا، التي لم تتغير، بلا حرج، ميالة إلى الخصومـة، كما كانت من قبل، ومن بعد، لم تعطه فرصة، ولم تكن محرجة، ولا نطقـت بكلمة، ولم يبدُ عليها شـيءٌ مما حصل في الليلـة الماضية، رغم الخيبة البسـيطة، إلا أنه وجد ما يشـبه التخفيف؛ ما مكنه من مواصلة الدرس بالشكل المعتاد. إلى حدّ ما شغله التناقض بين تلك الليالي البعيدة التردد، بل المتوهّجة، وبين اللامبالاة أو النفور الذي قابلته به في النهار.

الأخبار عن حملها اليوم غيرت الموقف بالتأكيد بشكل حاسم. أفممكن أن يكون الطفل منه؟

عـدل من هيئته حين قرّت أخيراً مفاصـل الباب الجلدية، ودخلت، كما

Twitter: @ketab_n

هـي علـى الـدوام هيئة مبرقعة مـن أعلى إلى أسـفل، وبقيت واقفـة في الظل المرتجـف للبـاب. بدت ملامح من وجههـا المبرقع في ضـوء الصباح على طبلة صغيرة. تناول المصباح البرونزي المتوهّج بيده. ابتعدت إلى الوراء.

«إذاً لا يزال الظلام يفصل بيننا، سيدتي؟ لايزال الصمت؟ حبيبتي! ليس علـيَّ أن أرى وجهك أو أسـمع صوتك، إلـى الآن؟». كان بهذه الكلمات قد اقترب منها وتوسـل أن يرى وجهها في هذا الضوء الراقص غير المسـتقر من خـلال برقعها. «ألم يشـتعل بدننـا بلهيب من نوع آخر أكثـر حماوة؟ اتريدين أن تنكري أن جسـدكِ غنى لجسـدي أغنية حب حـارة؟ والآن...»، ألقى يده برقة على جسـدها، وشعر كيف كانت ترتجف وتتنهد، غير أنه حين أراد رفع القماش عن وجهها ضربت المصباح في يده مدافعة بهلع عن نفسـها. سـقط المصباح وبقي على الأرض بعد دوران من دون أن ينطفئ. فرك (لونجينوس) أصابعه التي احترقت.

«اللعنـة، زنوبيـا. أنـا أصمت طوال سـاعة الـدرس. أعتـرف أن هذا لا يثقل عليَّ، دور المتوسـل لا يليق بي. أنا إذاً المعلم الجيد، أنا أكتم الأسـرار وأثنـاء الولائـم لا أظهـر عندما يأتـي زوجكِ. ولكـن بحق (زيـوس)، أليس التكتـم هنا أكثر من اللازم». ولاحظ أنه تكلـم بغضب فتوقف. الهيئة الماثلة أمامه لم تهدأ بعد.

«أنا لا أريد أن أعرضكِ لخطر». حاول ثانية. اقترب منها وسحبها إليه.

«لكننـا يجـب أن نتحـدث عمـا حصـل اليـوم. ألا تريـن ذلـك؟». يداه تجولت في ظهرها إلى ردفيها إلى أعلى وانزلقتا إلى تحت فسـتانها فسحبتاه عبـر الكتـف الأيمن. مبرقعة وعاريـة في وقت واحد، مثُلت أمامه وجسـدها العـاري تلألأ في ضـوء أحمر ذهبي منبعـث من لهيب المصبـاح. قبّل تكوّر كتفها من أعلى ولـم تتحرك. هنا توقف.

«زنوبيا..». تردد للحظة ثم واصل: «أنا أحبكِ، أنا...».

خطـوات عنيفة، أقـدام كثيرة في الممر قطعت عليه الاسـتمرار. صوتٌ ضخمٌ نادى «افتحوا!»، عندها انفتح جناحا الباب محدثين صوتاً عنيفاً تحت ضربـات المقتحمين. تقدمهـم (حيرانـس) ملوّحاً بمشـعله وصارخاً بأعلى

Twitter: @ketab_n

صوتـه، «ها، الزوجة الخائنة»! وانتزع البرقـع من رأس الهيئة الصامتة. فخيم صمتٌ.

(لونجينوس) نظر إلى وجه (كليليا) الذي مزقه الألم. بلا تفكير أدار نهاية جديلتها الذهبية المشرقة حول إصبعه. فتحت فمها لكنها لم تنبس حتى الآن ببنت شفة. سحبت شعرها إليها وركضت تاركة المكان. نظر (لونجينوس) خلفها، ثـم نظر بعدها إلى (حيرانس) الذي وقف مذهولاً بين حطام جناحي البـاب. الحرس القادم معه ضـرب الأرض بالأقدام. بعدم ارتياح، نظروا إلى الابتسامة الساخرة التي اضطربت على فم (لونجينوس).

«أيهـا السـادة الكـرام، أعطيكم كلمتـي: أنا أعلـم أن السـيدة متزوجة. أنـا على يقين أن بإمكاننا تسـوية الأمـر، الذي يبدو أنه آلمكم جـداً بالتفاهم. وكذلك بابي...».

«الباب إلى الرماد»! زمجر (حيرانس) وأشار إلى رجاله واختفى، وشيئاً فشيئاً غرق (لونجينوس) في فراشه، وحملق بلا حركة إلى الأمام. الطاووس فـي الحديقـة صـرخ مجـدداً. (كليليـا)! وليسـت زنوبيـا، أوه كلا. الخادمـة وليسـت السـيدة، الخادمة! ما الذي توقعته أيها العاشـق المجنون المسكين. فكر بسـخرية، وهل تعرف زنوبيا بالأمر؟ بلا شـك. لا بد أنها كانت فكرتها- انتقامـاً لفشـلها في الـدرس. لنرَ. بأية بسـاطة اسـتُهزئ بالفيلسـوف الذكي. (لونجينوس) العاشق السـري- مزحة صغيرة لذيذة لكلتيهما. بينما كان فكر كيف ضحكتا لهذه المزحة، أمسـك بيديه الوسادة بتشنج، وضاقت عيناه. لم يعرف ما هو أشد وقعاً عليه: الألم أم الفزع من أنه تصرف كغبي.

بعد وقت انبسطت قبضتاه، وتنفس عميقاً، محاولاً التماسك ثانية. ماذا أفعـل في تدمر، كتابع للأمير. لـمَ لم يكن في أثينا ليقود أكاديميته بدلاً من أن يخـدم هنـا في البلاط؟ وهـل أراد أن يفعل مثل أفلاطـون، الذي امتثل ثلاث مـرات لأوامر طاغية سـيراكوس من أجل أن يدرّسـه؟ ثلاث مرات تعرضت حياتـه للخطر ونجـا بأعجوبة. هو أيضاً لـمَ تكلفه رحلته إلى عوالم السـلطة حياته. ليسـت الحياة بعينين محترقتين خوفاً في الظلام، بعدما كان المصباح قـد انطفأ منذ فترة طويلة وفكر في زنوبيا. اسـتيقظت زنوبيا على صوت بكاء

Twitter: @ketab_n

(كليليا) الخافت إلى جانبها. بدأت السماء تستقبل الضوء والطيور، وبدأت الحركة تدبّ في شجيرات الحدائق. تلمست لتجد مصباحاً، وأشعلت بعد جهد الفتيلة الغارقة بالزيت، قبل أن تبدأ بتهدئة (كليليا)، وتمسح بيدها على ظهرها. حلت لصديقتها شعرها المنكوش وسرحته، ومسحت على جبينها وقفا رقبتها الحار وقبلته برقة، قبل أن تسحب تلك التي لا تزال تبكي من كتفها، وتديرها نحوها، ثم تفك الوسادة التي شدتها إلى وجهها من بين أصابعها المتشنجة. نظرت (كليليا) بعينين مثل عيني كلب.

«أنتظر عقوبة الضرب». شيء من الخوف ألمّ بزنوبيا. رغم ذلك تمتمت لتهدئها وكأنها تتعامل مع طفل، بينما تكورت حمالة صدرها من كثرة التنهد والبكاء وانزلقت من مكانها.

«(حيرانس)»، نطقت أخيراً، وقالتها بمشقة بين شهقتين، «(حيرانس)».

«هل لمسكِ هذا الانسان؟ يا مسكينة. أوه سوف...».

«كلا»! سحبت (كليليا) الهواء كأنها غريقة. أخيراً قالتها: «يريد قتلكِ»، وتنهدت مجدداً، «لكن ليس خوفاً عليكِ»، همست في أذنها، «بل خوفاً منكِ». واستهجنت ما قالته: والآن لا تلعبي دور الضحية قولي لها ما الذي فعلته بها، فتنفست بصوت مسموع ثم واصلت القول: «هذه الليلة وبصحبة حرسٍ اقتحم غرفة (لونجينوس) ظناً منه أنكِ هناكَ». هزّت زنوبيا رأسها غير مصدقة ما سمعت:

«كيف وصل إلى هذه الفكرة؟ كلا لا أصدق هذا، (كليليا). من أين لكِ هذا الكلام؟»، ثم انهارت، «(كليليا)»! صرخت زنوبيا بالاسم وهزت صديقتها. فما زالت غير مستوعبة تماماً ما يُروى لها.

«أنا أعلم هذا، لأنني كنت هناك». فجأة أطلقت مفصل يدها مرتين. «أنتِ تؤلمينني. أرادوا أن يضبطوكِ متلبسة بخيانة زوجية، ظنوني أنتِ، اتفهمين؟».

«من ظنكِ أنا؟».

(كليليا) خفضت عينيها. «(حيرانس)»، همست بعد فترة. وجلست

Twitter: @ketab_n

زنوبيا مندهشة إلى جانبها.

«كنتِ عند (لونجينوس)». بلهجة لا وقع لها. «منذ متى يحدث ذلك؟».

«زنوبيا، يجب أن تكوني حذرة، أتسمعين. إنه يريد قتلكِ ألا تسمعينني؟»، ومن جديد انهارت (كليليا) وهي تبكي. ثم أجابت بصوت منخفض: «منذ بضعة أسابيع». زنوبيا لم تقل شيئاً، منذ بضعة أسابيع وهي مخدوعة من قبل حبيبتها، صديقتها الوحيدة. منذ بضعة أسابيع. في برودة الصباح في الخارج تصاعدت أغاني الطيور الناعسة. ترددت نداءات الخدم في الممرات. سألت نفسها بدهشة، لمَ آلمني هذا بهذا الشكل؟ كان المفروض أن (لونجينوس) لا يعنيها بشيء، بحسب ما ظننت. ومن دون وعي مسدت على ظهر (كليليا) مرة أخرى ثم نهضت.

«ربما من الأفضل أن تأخذي غرفة خاصة بكِ. سأطلب ذلك من المسؤولة عن الغرف». طوّقت (كليليا) رقبتها وهي تتنهد باكية.

«وشكراً... شكراً لتحذيركِ»، وأغلقت الباب خلفها.

* * *

أغلق (لونجينوس) الباب المحطم خلفه، وذهب يعرج عبر القاعة إلى المائدة. علم أنه سيقابل زنوبيا هناك، ساعة الدرس كادت تبدأ. وهذا يعني انتظار المقابلة التي لا مناص منها. في الليلة الماضية فكر في أن يحزم بكل بساطة أمتعته ويختفي من القصر، ربما إلى دمشق او إلى ساموساتا. بالتأكيد سوف لا يلحق به أحد. ولم يكن الكبرياء هو الذي منعه، لكن ما حدث لم يستطع أن يجد له تفسيراً. طوال حياته ما كان يكره شيئاً مثل كرهه أن يخضع لإرادة إنسان غيره، أما حماقته والخدعة التي وقع فيها، فلم تكونا في الحسبان. لقد كانت له في أثينا، في السابق، خبرات كافية. وكان متورطاً في حرب الأكاديمية التي لم تكن لتنتهي، والتي لا علاقة لها بالحقيقة والحكمة وإنما بالغرور والحسد والتشفي.

سمعة زنوبيا كانت قد حفظته سابقاً من أن يقع ضحيتها. إذ الزمن كان

Twitter: @ketab_n

ضده. ما كان يريد الشعب سماعه ليس الفلسفة العقلانية ومناقشاتها، وانما طريق التصوف في عالم الروح.

(لونجينوس) الذي كان متمسكاً بمنطق أرسطو والعلوم الطبيعية لهيراقليطس. لم يستطع ولم يشأ أن يقدم لمن يتعطشون لعطور من بخور الحواريين المقدسة شيئاً. إضافة إلى ذلك، فالتهكم اللاذع والسخرية التي قاتل بها أولئك الذين واجهوا الوصال بالآمال المقدسة، من بعض الافلاطونيين الجدد، جعله غير محبوب لديهم.

في المناسبة، كان يرى نفسه كمشكك. وكان هذا موقفاً، كما وجده، مناسباً للفيلسوف المقعد. الأعرج استطاع طوال حياته أن يتجنب بذكاء منح الحب لأحد، ولو مرة في حياته، حتى هو نفسه لم يتمنَّ أن يحصل له هذا من قبل أحد.

زنوبيا هي أول امرأة استطاعت أن تخترق جدار الحماية. وما الذي دعاها إلى استخدام السلطة. بالتأكيد لتجرحه بشكل مؤثر. حماقة وجشع. رغبة اللعب عند الأطفال الخشنين استهلكته ورمته. لن يغفر هذا الألم لا لزنوبيا ولا لنفسه.

الاندفاع الذي دخلت به الملكة القاعة المؤثثة كغرفة درس توقف فجأة، حين رأت أن (لونجينوس) كان في انتظارها. على اللوحة في الجهة المقابلة كانت خارطة مصر التي شرحها لها في يوم سابق، وإلى جوارها مقطع من حدود منطقة عربية. قناة مؤشر عليها بالأحمر كانت تربط كليسما عند خليج أبطال السياسة مع البحيرات المرة وذراع النيل أقصى الشرق إلى دلتا النيل. عالياً في اتجاه بلوسيوم عند مصب النيل كوّنت هذه المياه حدوداً طبيعية لكل غاصب، ترك الصحراء العربية خلفه. رسائل (فيرموس) كانت تحفزها، في كل مرة، على أن تسرح بخيالها لتنشغل بهذه المشكلة. أين وكيف يمكن إيصال فرسانهم عبر النهر؟

حملقت زنوبيا مشوشة لبضع ثوانٍ في فوضى الخطوط والأسهم. بعد ذلك عرفتها أكثر من جيد. كانت بحسب تخمينها ربما ستعرف طريقها عبر الصحراء، حتى في الليل. وضعت اليد على المنطقة العربية، وسحبت

Twitter: @ketab_n

أصابعها عبر الإشارات، وهي تحطمها، خطاً مرتفعاً إلى الاسكندرية. من دون اهتمام نفضت غبار الطباشير العالق بملابسها وحولها.

تأملت (لونجينوس) من زاوية عينها، بدا لها شاحباً وقد غلب عليه النعاس، منظره الجانبي النحيف امتلكَ حدة كأنها خرق في ظل. فوق ذلك خيم القلق عليه، اختلف عما سببته صرامة الفلسفة. وقف أحدهما أمام الآخر صامتاً أسيراً لحرج الموقف. ثم تنفست زنوبيا شهيقاً. بدا لها (لونجينوس) مضروباً على طبعه. المفروض أن يهاجم العدو حين يكون ضعيفاً، هذا ما تعلمته منه.

«(كليليا) روت لي كل ما حدث»، قالت أخيراً. لم يكن هذا هجوماً مميزاً، انتبهت إلى نفسها، واصلي زنوبيا (لونجينوس) لم يتحرك. حدق إلى الأمام في العينين اللوزيتين لمعذبته، في هاتين العينين الرائعتين، وتوقع الانكسار الذي لا بد منه.

«قالت لي كل شيء»، كررت زنوبيا بلهجة أقوى صدى.

رفع (لونجينوس) حاجبيه.

«بالطبع فعلتُ هذا سيدتي». وتطلع إليها للحظات من دون أن يضيف إلى ما قاله شيئاً، بعدئذٍ رفع بلا تركيز لوحة الشمع الصغيرة إلى المائدة، والتي استخدمتها زنوبيا لتمارين في قواعد اللغة اللاتينية. وقد جمعت بشكل آلي عدداً من التصحيحات المليئة بالأخطاء.

«سوف لا أسمح في كل الأحوال أن تكون (كليليا) حاملة تبعات هذه الحادثة»، واصلت زنوبيا بشجاعة. «إنها في النهاية ليست كأي خادمة، يستطيع المرء الاستمتاع بها كيفما يشاء. ستضعون حداً لكل الشائعات في العالم، وتجعلون منها زوجة لكم. بهذا تؤكدون أنها هي التي كانت قد زارتكم. فأنا لا أستطيع أمام زوجي وأمام الشعب التدمري أن أتحمل أن يكون حول هذه النقطة أدنى شك. وسوف لا يكلفكم هذا كثيراً من الإرادة القوية».

المرارة التي ظهرت في كلماتها الأخيرة، فاجأتها هي نفسها. لكن ألم تكن هي أيضاً كريمة بما كفى حين سمحت لكليهما أن يعترفا رسمياً بهذه

Twitter: @ketab_n

القضية، التي ربما سوف تُخلف انكساراً لشخصها؟ يكاد لا يوجد شخصٌ في البلاط يتجرأ القول إن (كليليا) عشيقتها- كانت عشيقتها، صححت لنفسها بغضب.

دفعت زنوبيا حنكها إلى الأمام وحاولت في المقابل أن تنظر اليه ببرود، لكنها أخطأت التأثير المطلوب. فـ(لونجينوس) تحصن خلف درع سخريته وقابل نظرتها بسخرية لاذعة:

«ليس في هذا سوء: تكافئون عاهرتكم بزواج من إنسان ذي احترام عالٍ، لأنها برغبتها ألقت بنفسها في فراشي». أطلق ضحكة قصيرة. «لكن، لا، شكراً، لن أتزوجها».

أنصتت زنوبيا له بغضب متصاعد. «ماذا يعني هذا؟»، سألت بحدة.

«هذا يعني» أوضحَ، «أني ليس لديّ رغبة أن أستمر في ألاعيبكم الجميلة. كلّي أملٌ أن ملكتي قد استمتعت جيداً على الأقل». لم يكد يكبح غضبه البادي على صوته إلا بجهد حين واصل: «وهل بلغتكم الأخبار كل صباح، نعم؟ وتحدثت لكم عن هذيان المجنون الذي همس لها في أذنها؟ غريب جداً، أليس كذلك؟ على كلٍّ لم يعد الأمر جاداً. احسبوها بكل بساطة تمريناً في الأسلوب الأدبي».

حملقت زنوبيا في وجهه مبهوتة تماماً: «أنا لا أفهم حتى الآن عمَّا تتحدثون أصلاً».

«عن الدور الذي أدته (كليليا): أنتم»، تكلم وهو يعض على أسنانه غضباً. «كانت مزحة موفقة. لكِ خالص التهنئة»!

تنفست زنوبيا الهواء بصعوبة، تذكرت تردد (كليليا) القصير الخياني، قبل أن تجيب، «(حيرانس)». كانت فقط نصف الحقيقة غير المهم. (لونجينوس) ظن كذلك أنها... هذه الفكرة جعلتها ترتجف. وفجأة عاودها الشعور ثانية كيف كان يسري فيها أحياناً، وأثناء الدرس، هذا الشعور الدافئ الحلو والمفعم بالشوق في معدتها، كأنه ضعف أو سقوط في هواء دافئ. بكل انفعال تأملت وجه الرجل الرافض، والذي جعل حياتها ثقيلة طيلة هذه الفترة. رأته يدخل ليلاً إلى غرفتها، فانتفض قلبها وهي في هذه الأفكار.

Twitter: @ketab_n

ولثانيـة تمنّـت: الطفل. إذا صح كل ما سـبق، إذا اسـتطاعت أن تشـاركه فيه، معه. شدة هذه المشاعر المفاجئة سيطرت عليها تقريباً. رفعت يدها لتلمسه، جفلت، سحبت يدها خائبة وقالت بدلاً من هذا:

«لـم أعـرف شـيئاً عـن هـذا»، قالتهـا بليـن، جاهـدة أن تمـلأ كلماتهـا بكل الحب.

«وأنا سوف لا أقوم مطلقاً، أقصد لا أريد أن تظنوا...».

غير أن (لونجينوس) سـمع في هذه الكلمات شفقة. تعاطُفاً مع ضعفه، الـذي لـم يعره هو أي اهتمـام. تملكه غضبٌ عـارم، بأنه دفعهـا، هي التي لا علـم لهـا كمـا بدا بأي شـيء، إلـى هذا الضعـف، وأنه بسـبب ذنبه قـد عرّى نفسـه أمامها. هذا الغضب أيقظ فيه الرغبة في أن يؤذيها. رفع رأسـه ورسـم على فمه ابتسامة.

«أوه، كلا، سـيدتي، لن أفكر مطلقاً في هـذا الاتجاه وإن كان لا بد، فأنا الآن، وبعـد هـذا، أعتـذر لأني سـببت لكـم...». توقف قليلاً ليقبّل بحسـب الأصول أصابعها. «... إنني رأيتُ فيكم الفضيلة قليلة».

«قليلة... ماذا... فضيلة؟». رددت زنوبيا. سحبت أصابعها من يده التي لـم تقـاوم. تنامـى غضبها مع كل كلمـة. «أفيعني هذا، أن هـذا كل المطلوب وسـيان عندكم، أية امرأة شـاركتكم الفراش؟» تلى ذلـك صمت قال الكثير. اختفـت كل الألوان في وجهها. كيف اسـتطاعت ولو لثانيـة واحدة أن تظهر مشاعر ودية تجاه هذا الإنسان القبيح. الذي ربما تصور أنها قد تأسفت، ليس بدلاً من (كليليا).

قبـل أن يثـوب إلى رشـده، كان قـد فـات الأوان. ضربت، وقـد عماها الغضـب، بقوة حتـى آلمتها راحتها. ظنت أنها رأت شـيئاً كالكـره توهج من عينـي (لونجينـوس). أمسـك بكتفيها بقـوة. رأت وجهـه قريباً جـداً أمامها. رأت الآثـار الحمـراء التـي خلفتها يدها على خده الأيسـر. وأحسـت بمتعة شـريرة فـي ذلك. أخيـراً أخرجته من حسـاباتها. عندما سـألت نفسـها، ماذا عسـاها أن تفعل معه، تركها بسـرعة، ذهب من دون أن يقول كلمة إلى الباب واختفى بعد لحظة.

Twitter: @ketab_n

سار في القاعة مسلوب العقل، ماراً بـ(كليليا) التي نظرت خلفه للحظات ثم دخلت حين سمعت شيئاً تحطم. ببعض الحرج أبعدت زنوبيا كسر حطام مزهرية ثمينة اسكندرانية من الخزف بقدميها جانباً.

«أوه، (كليليا)»، ثم استولى عليها الغضب مرة أخرى: «قولي لي كيف استطعتِ أن تبدئي شيئاً مع هذا الإنسان. هذا المتعالي الأعرج الفاسد»، قاطعتها (كليليا) بلين، لقد جرحها الفزع الأول وحاولت التصالح. تنبأت أن غضب زنوبيا كان بدافع الغرور وليس الغيرة، وهذا ما شجعها على الخطوة الأولى.

«أنتِ تظلمينه، وتعلمين هذا، لقد كان ذنبي أنا، كنت أريده بكل بساطة، أتفهمين؟»، ورفعت كتفيها في الوقت نفسه كإشارة اعتذار. «ولن أستطيع الظفر به إلا إذا جعلته يعتقد أني أنتِ... إنه يحبكِ فوق كل شيء. لقد لاحظتُ هذا، أم تفكرين؟».

تجنبت زنوبيا نظرتها ثم هزت رأسها.

«كلا، لم أعلم بهذا، لقد فعل كل شيء ليخفيه عني». جلست كأنها مخدرة بعد كل تقلبات المشاعر هذه. مذهولة تماماً. إذاً فقد كان يحبها فعلاً؟ والآن وإن صح هذا فلن يسمح لها بأن تجد طريقاً إليه أو؟ هذا الشعور الذي ظل يحفر فيها، على أنها فوتت شيئاً، تسلل إلى جسدها بفزع وألم ومنعته عنها. أفكارها مرت، وبعد فترة سألت:

«وهل كانت المسألة تستحق؟».

بدهشة نظرت إليها (كليليا). لكن لم يبد على وجهها ما يشير إلى أنها عذبت نفسها، سوى شعور بالفرح شرير. مرت العاصفة. أجابت بحماسة وضحكت من دهشة زنوبيا.

«لكن، أجل. وهل هذا لا يمكن تصوره؟ إنه خبير ورفيق وصبور ويملك القياس الصحيح في اتخاذ القرار في اللحظة المناسبة، إذا كنتِ تفهمين ما أعني».

«آخ، أجل». رفعت زنوبيا حاجبيها وسألت بسخرية:

«وهمس لكِ أشياء جميلة في أذنكِ حين عانقكِ؟».

Twitter: @ketab_n

هذه المرة كانت (كليليا) هي المندهشة المستغربة.

«من أين تعلمين...؟».

«حدسٌ، تحدثي أكثر عن هذا، هيا»، وبدأت (كليليا) تهمس. في البداية مرغمة، ثم مع مرور الوقتِ راغبة.

«قال، جسمي كان خشب أرز تلوى في هواء الليل. قال، يريد أن يحبسني في شبكة أنفاسه، يريد أن يكون مثل نثر المطر عليّ، يريد أن يلمس كل زاوية في جسمي». هكذا كانت نفحات وهمسات (لونجينوس) في كلماته المسكرة والسكرى. نبضات قلب زنوبيا تصاعدت سرعتها وقوتها. رأت كيف مدببات نهدي (كليليا) ظهرت من تحت قماش فستانها، ومرّت كصدفة من فوقهما، (كليليا) أغمضت عينيها وواصلت الهمس.

يد زنوبيا اندفعت تحت فستانها وضمت فرجها جيداً. وهكذا سحبت صديقتها إليها تلك التي غرقت في حضنها متنهدة.

تحت الحركة الرقيقة لأصابع زنوبيا واصلت الهمس، وبزفيرها الساخن الحارق من الرقبة إلى الكتفين وإلى النهدين. أخيراً انزلقت إلى تحت ردفي زنوبيا، مرت بهما شفتاها المتمتمتان وانتقلت صامتة إلى حضنها. زنوبيا تركت ساقيها تفتحان نازلتين ملقية برأسها إلى الوراء وأنصتت إليها بانفعال متصاعد. نظرتها مرت عبر معدات الكتابة والقصبة على المكتب، وقد أسندت إليه قدمها العارية في صندلها. واستمتعت مع بعض الخوف بوضعية شهوانية، بينما كانت كلمات (لونجينوس) ترتجف فوقها في الغرفة.

Twitter: @ketab_n

خيانة

صحـت زنوبيا مرهقة من أحـلام رمادية. قلبت على جنبها ثم تسـندت لتعدل من جلسـتها، وبقيت جالسـة على حافة السرير. ظهرها آلمها، ولباس النوم المتعرق التصق بجسـدها بشـكل غير مريح. لـم تسـتطع أن تنفض عنها صـور الحلم الغامض لتلـك الليلة. تأملت قدميها المعلقتيـن العاريتين على أرض الغرفـة الحجرية. سـحلية بـلا ألوان لبثت من دون حـراك بنبض ظاهر على رقبتها، هربت بعدئذٍ بصمت داخل الفناء، الذي انبعثت منه نسائم رطبة باردة من هواء المساء إلى داخل الغرفة.

هزت زنوبيا رأسها بعد أن حملقت أمامها لفترة، تمطت ومسدت بشكل عابر على بطنها الصلبة المكورة وتمتمت: «حسناً يا ابني، لننهض». استندت إلـى رأس الجـدي فـي أعلى إحـدى زوايا أعمدة سـريرها. وبجسـم ما زال متشنجاً انتقلت إلى طاولة الغسل، حيث الوعاء البرونزي، فرأت صورتها وقد عكستها المرآة شاحبة ومرتجفة في الماء، حين غمست يديها جرى الماء بلا رغبة، بللت بشـرتها الدافئة من النوم، والوجه الـذي كأنه يتصاعد منه البخار والرقبة والنهدين الكبيرين. بارتياح تبين لها أن البشرة المحيطة بالكرة الهائلة لجسـمها لا شائبة فيها. بالتدريج اسـتعادت وهي تغتسل حركتها الاعتيادية. بيد أنها شـعرت بالنعـاس، وبأن وجهها لا يلمع مثلمـا كان صوّرها الماء من قبل، ولـم يكن الحمل سـبب ذلك. وقد اقتربت الآن من الشـهر التاسـع، ولا يزال يبدو لها كأنه لباس غريب لم يلائمها. كان الخوف هو السـبب الأقوى، وقد استولى عليها بعد اعترافات (كليليا) قبل أسابيع، والتي لا تريد أن تبتعد عنهـا: الخوف مـن (حيرانس) وياسـمين، اللذيـن كانا يهـددان حياتها. هذا الخوف لازمها في كل مكان، أثناء ذلك كان شـيء من الصمم نتج عن ذلك.

Twitter: @ketab_n

نقطة مظلمة في حياتها اليومية، كانت سبباً في ظهور كوابيس ليلية، وتخاذل وشفقة على نفسها أحياناً.

دخلت الوصيفة مستيقظة من صخب الصباح، وأخذت الإسفنجة من يدها وأكملت غسلها. بصمت تركت زنوبيا الوصيفة تُلبسها ملابسها وبقيت معلقة بأفكارها. مرة واحدة فقط انتابها خفقان قلب عندما كانت في مخادع أسرتها لزيارتهم، حين أدت واجب التعزية الرسمية لموت ابيها. وهناك سادت الفوضى نفسها كالعادة، ثلاث نساء في ملابس الحزن جلسن كأنهن طيور بيضاء، لم يلمسهنّ أحد. (زيمة) تبادلت الثرثرة مع (أويات)، والأطفال لعبوا وصرخوا، هنا قدمت لهنَّ ياسمين معجنات باللوز.

«هذه طيبة بشكل خاص، زنوبيا» حملقت في المعجنات التي وضعتها أمامها ياسمين على صينية صغيرة. كانت الوحيدة بالكرز المحلى بالسكر. سمعت لإلحاح ياسمين الودّي وترددت. ابنة ياسمين أرادت أن تمد يدها نحو الشيء الأحمر لذيذ المنظر، فأبعدت من قبل أمها بلا كلام. زنوبيا نظرت إلى المرأة بوجهها الباسم، ورمت إليها نظرة جامدة بلا كلام.

«كلا شكراً»، أجابت بوضوح «الغثيان..». يكاد يخنقها فعلاً. ونهضت ترتجف. مجرد كره ياسمين الثقيل الكامن في عينيها، طردها من الغرفة.

«أتريدين أن أذهب لإيقاظ (كليليا)؟»، سألت الوصيفة.

«كيف؟ كلا، كلا، أريد اليوم الذهاب إلى معبد اللات لأجل الصلاة. لم يكن ثمة حاجة إلى مرافقتي». لم تستطع إلا بصعوبة العودة إلى وعيها. مرة بعد محاولة التسميم كانت (كليليا)، التي وجدتها تهتز خوفاً في مضجعها. سرحت زنوبيا جميع الخادمات من جناحهنَّ عدا وصيفتها، واشترت عبدَين للحماية الشخصية وآخر لتذوق الطعام، وهو مصري صغير أسمر كان قد رشحه لها (فيرموس).

«يمكنكِ الذهاب»، سرحت في البيت وأشارت كذلك إلى كلا الخادمَين عند الباب، ليغادرا، إذ أرادا الذهاب خلفها. كانت نعسانة، فلم تستطع حتى الشعور بالخوف. لم يقابلها أحد في الصباح الباكر وهي في طريقها إلى البوابة: لكن المدينة كانت منذ الصباح الأخضر قد ازدحمت

Twitter: @ketab_n

بـذوي الأعمال. وجـاء الفلاحون بعرباتهم إلى داخل السـوق وتحت الخيم التي فوق المحلات، ونُصبت الأكشـاك، وكنـس التجار محلاتهم. قطار من الإبـل أتى على سـيقانه العالية متقدماً سلسـلة من القوافـل. أحمالها ألقيت بيـن ضـرب المطارق ونداءات في الأزقة. كانت الشـوارع نفسـها التي مرت بهـا وهي في عنفوان شـوقها إلى الحيـاة قبل زواجها. والآن مـرت بها مثقلة بطفلها، وكانت حرة في زيارة من تريد. لكنها لم تكن راغبة في أي شيء.

ملتفـة بـرداء قطني بسـيط فقط، عُرفـت من قبـل الناس فحيوها. نسـاءٌ شـابات توسّـلنَ إليها ليحصلوا على بركة الحمل فلمسنَ مبتسمات وبخجل بطنهـا. أطفـال ركضـوا وراءهـا. لـم تهـدأ من الملاحقـة حتى دخلـت معبد اللات، واشـترت من مسـاعدات الكاهن دجاجة بيضاء، ورأت كيف قُدِّمت قرباناً عند المذبح بحسب الأصول، وبقيت أمام الفحم المتوهج لنار القربان متروكـة لوحدها. جلسـت زنوبيا ببسـاطة هنـا، لم تعرف من أجل أي شـيء صلت. فقد كانت وحيدة ولم تعد لديها تلك الثقة بـ(كليليا)، كما في السابق. و(لونجينوس)؟

فـي الأسـابيع الأولـى للفضيحـة تجنـب أحدهمـا الآخـر، فلـم يكونا قادرَيـن علـى مواجهـة بعضهما بعضـاً، وتبادل بعـض الكلمـات. ثم قررت يومـاً أن تسـتجمع كل ما فيها من عـزم، ودعته إلى الـدرس في غرفة الدرس المعتـادة. حضـرت في الموعـد المضبـوط، بمزاج غامض وغضب سـاخر لاذع. بـكل حقـدٍ عـلـم بحضور ثلاثـة بحـارة محترمين من العـرب، الذين شـكلوا أتبـاع زنوبيـا. نظـر (أودينـاتـوس) إلى الإشـاعات التي انتشـرت في الحقيقة من دون اهتمام رسمي يُذكر، غير أن بعض إجراءات الحذر بحسب رأيه لا ضرر منها.

درْس (لونجينـوس) صـار منذ ذلك الوقت بالنسبة إلى زنوبيـا امتحاناً صعبـاً، مـن دون تفكيـر كان ينتقد أعمالهـا ويضعف ثقتها بنفسـها، كأنه أراد إرغامها على استنتاج أنه كان من الأفضل لو أرسلته إلى البيت.

أثنـاء ذلك توصلت إلى قناعة أنه كان يسـتحق تلك اللطمة على وجهه، لو كانت اسـتعملت الضرب أكثر. لكن شـيئاً واحداً فقط بقي ثابتاً، سوف لن

Twitter: @ketab_n

تستسلم مطلقاً حتى وإن أتعبها أكثر. إذاً فقد أخفت خوفها وشكوكها خلف وجه متعجرف، وصممت على هدفها، أن لا تكون مدينة له بأي جواب أو مواجهة. وأن لا تنسحب ما وسعها ذلك. وفي بعض الأحيان وجدت تحجراً في مهاجمته من دون قيمة، لكنها كانت في الغالب مرهقة من الاستمرار في هذه اللعبة.

مستقبلاً كان عليها أن تهتم بطفلها بحسب ما ظنت. وتلمست بطنها بعدما أحست حركة فيها، مما سيحميها من محاولة (حيرانس) الخبيثة. كان عليها أن تطلب القوة. زنوبيا رفعت رأسها وتنفست عميقاً رائحة الخشب والسمن المحترق، لكن أفكارها ابتعدت عن ذلك وحملقت أمامها.

صوت خطوات أوصلها أخيراً إلى الوعي. أمامها في جو نصف مظلم وقف (نيسا) وراقبها.

«عسى الآلهة تمنحك الفرحة»، تمتمت غائبة بصيغة التحية، لكن عمها لم يكن مستعداً أن يحترم دعاءها.

«لقد بحثت عنكِ يا ابنة أختي، أريد التحدث إليكِ»، أومأت برأسها.

«زوجكِ يقود سياسة خطرة، يا ابنة أختي، خطرة جداً». نظرت زنوبيا إليه فقط: الرجل اللبق (نيسا) نادراً ما استخدمَ أسلوب اللف والدوران. أجابته بحذر:

«لم يتعود هو أن يطلبني للاستشارة». لم يحفل بالاعتراض وجلس إلى جانبها.

«إنها سياسة ضد مصالح بعض الناس المهمين في تدمر. أجل»، استقبل اعتراضها، «على سبيل المثال يرى كل التجار في المدينة، أننا في حاجة إلى سلام من أجل تجارتنا، وليس إلى ضرائب مرهقة من أجل إدامة جيش لا يحتاج إليه أحد، ويورط نفسه في مغامرات لا طائل من ورائها. لا أحد في تدمر يفهم في هذا. ما الذي نعمله في أرمينيا؟ التوسع مجد روما على حساب ما نملك؟ أين أرمينيا؟ أجل، لو كانت أرضاً أخرى غنية وقريبة من خطوطنا التجارية مثل..».

«مصر»، دخلت في الكلام، بينما نظر شزراً.

Twitter: @ketab_n

«أنتِ طفلة ذكية. عرفت هذا عندما سمعتكِ تتحدثين عن الضرائب مع (أودِيناتوس)».

«ماذا تريد يا عم؟»، توجهت إليه بكامل وجهها.

«وكما قيل، زوجكِ قد ضرب الكثيرين على رؤوسهم وسرعان ما سيكلفه هذا رأسه». رفع كتفيه. «هذا هو قانون العرض والطلب. الطلب على رأس (أودِيناتوس) النبيل يزداد في الوقت الحاضر. إذاً..». رفع (نيسا) يديه بما يشير إلى عدم الفائدة، وتركها تسقط في حضنه ونظر إليها بسيمياء بريئة.

ضربات قلب زنوبيا تسارعت. ميت (أودِيناتوس) ميت. لم يكن خوفاً ذلك الذي شعرت به، كان تأثير الانفعال. شيءٌ ما حدث. الجدار الأسود الذي قام أمام مستقبلها بدأ يتحرك بسرعة، كان عليها أن تفكر، وعليها أن تدركَ. قالت بصوتٍ عالٍ:

«إذاً أنت تقدم لي عرضاً». وبعد استراحة قصيرة أضافت: «أنا أعرفكَ كتاجر جيد يا عم، الأمر يهمني».

«حسناً»، واصلت من دون أي مراوغة، «نعرض عليكِ حياتكِ وحياة طفلكِ، إذا كان ولداً فسيأتي تحت وصايتي إلى العرش، وتبقين أنتِ الملكة الأم معه في القصر، الشعب يحبكِ. أما نحن فعلينا أن نفهم بعضنا بشكل غير رديء». وابتسم لها. أجابت زنوبيا بعد تفكير قصير.

«انا أريد أكثر، (نيسا)، أريد أن يموت (حيرانس)، وكذلك ياسمين حبيبته».

رفع حاجبيه إلى أعلى بالموافقة عندما نظرت إليه بصمت. و(أومة).

«لقد فكرنا بـ(حيرانس) من قبل».

«وأنا أريد الحرية. (لونجينوس) يبقى. وكذلك (كليليا). كلا لا تقل شيئاً، أنا أعلم أنك منذ شهور تحرض الناس ضد كل ما هو رومي، لكن (كليليا) يجب أن تتركها لي. وأريد أن أتمكن من الحركة بحرية في المدينة».

ضحك (نيسا) بصوتٍ عالٍ: «أتريدين أن تتسكعي ثانية؟».

Twitter: @ketab_n

«وهل عرفتَ هذا؟». صمت الإثنان. زنوبيا فكرت بأيام الحرية القديمة. أصابها دوار وتسارع نبضها. حاولت من خلال نكتة أن تسيطر على انفعالاتها.

«تتوقع أن أطعنه في الفراش؟». نظر (نيسا) إليها مستمتعاً.

«قد تقومين بهذا فعلاً، أليس كذلك؟ هل هذه نتيجة تربيتك الفلسفية من خلال فيلسوف المنطق هذا. ما الذي يتوقع فيلسوف القناعة منكِ؟ كلا، طفلتي»، ربت على ذراعيها: «ليس في حالتكِ. حرسكِ الشخصي سيقتلونه، بعدما يكون انطلق إلى حربكِ المحببة. من الأفضل أن لا نريق دمه على أرض الميرية».

«الحرس الخاص؟ وحتى (زابداس)».

«المستشار، القبائل، ولمَ لا يكون معهم (زابداس)؟. حتى كلب قديم لا يرغب في الضرب!. يمكننا إقناع (زابداس) أن (أوديناتوس) قد دمر تدمر وكل شيء قاتل من أجله. مثل هذا لا يحبه الزعماء». مسح على لحيته، معجباً بنفسه.

«والقبائل..»، أضافت زنوبيا مجدداً، «...سيقبلون بكَ»، أكملت جملتها.

«من أين تعلم هذا؟». أعطى (نيسا) إشارة قصيرة. من خلف أحد الأعمدة تقدم رجل ثان. لا بد أنه استرق السمع طوال الوقت.

«زنوبيا اتسمحين لي أن اقدم لكِ (نيربول) من بني كامرا. منذ موت أبيه المفاجيء، اعتبر البعض الشاب لا يزال صبياً، قالوا في مجلس القبائل الجديد. (نيربول) هو (أورليا سبتيما)، زنوبيا أميرة تدمر».

طار لبّ زنوبيا وهي تنظر إليه. الأنف الضيق والحواجب كأنهما جناحان، ضحكة جريئة، تتحدى العالم. كذلك ربح قبل أيام طوال سباقاً عند سوق الخيول. لحسن الحظ في الضوء الضعيف للمعبد احمرّ خدّاها ولم يمكن تمييزهما.

بدون قصد مطت ظهرها، حتى خطر لها أن لا شيء يمكن أن يخفي بطنها، وقد خجلت أن لمحها أحدٌ وهي في إشارة زهو، غير أن الانفعال،

Twitter: @ketab_n

الـذي سـببه هـذا الصبـي فيهـا بـاقٍ. حتـى الآن لـم تنبـس ببنت شـفة، وبدا لهـا كأنـه كان لا يـزال عليـه في هـذه اللحظـة أن يسـألها، أترغبين فـي رؤية جوادي؟، «أيتها الأميرة».

كلا، كلا، نبهت نفسها إلى الأصول، كان ممكناً أن يكون هذا اليوم أكبر سناً بكثير، إنه ميت. غير أنها قاومت الذكريات المتناقضة في داخلها، الهلع، الحلاوة، ولـم تستطع أن تمنع ولو لحظة من أن يشع تعبير الشوق على وجهها. بدا أن (نيربول) معتادٌ إثارة مثل رد الفعل هذا عند النسـاء: ابتسـم راضياً، ثم ركع وبكل شـهامة أمامها وبايعها باسم شعبه. زنوبيا عبرت بجهد عن الشكر ببعض الكلمات. بعدها ابتسـم في وجهها بلا خجل، وأطال النظر فيها نسبياً واختفـى، بعد أن خفضـت أهدابها حائرة، خطوات مسـرعة في خلال زاوية الضوء على إطار الباب، تابعته زنوبيا من الخلف وهي خافضة رأسها.

«سبق أن قلت إنهم معجبون بكِ»، سحبها (نيسا) من أحلامها.

«لـو تعذرينـي يا عزيزتـي، بنت أختي، هنـاك الكثير مما يجـب عمله»، وبانحناءة مبالغٌ فيها تركها في نصف ظلام.

خرجـت زنوبيا بعـد فترة إلـى الفضاء. كأنهـا مخدرة، مسـكت بالباب الحجـري، حيـن داهمهـا الـدفء، وسـمعت الضجيـج ورأت الحركـة فـي المدينة. سربٌ من الطيور ارتفع من إحدى حافات القصر فوقها إلى السماء. وضـوء الصبـاح الـوردي تحـت أجنحتها. حتـى الآن لم تدرك مـاذا حصل لهـا، لكنها شـعرت بالفعل أنهـا بدأت تعيش ثانية. سـقط نظرهـا على كومة مـن البطيخ الأصفـر اللامع ففرحت لذلك. كيف كان كل شـيء جميلاً. وما أروع المسـتقبل إذا عرف المرء حدوده. نشرت ذراعيها منطلقة وفرحة مثلما كانـت فتاة صغيـرة، لكن الدوار عـاد إليها، وتمايلت إلى الوراء مسـتندة إلى الجوار. بحثت يدها عن شـيء تمسـك به لتستند إليه، خنقها الغثيان، لمحتها نساءٌ كيف كانت غائبة عن الوعي حين نظرنَ إليها باهتمام. وتمتمنَ بينهنَّ ثم تقدمنَ إليها. هنا خطر لها أنها نسـيت أن توجه السـؤال الأهم. ماذا لو كانت بنتاً؟

Twitter: @ketab_n

بات زاباي

«اذهبي بدوني، إذ لا أحد هنا يمكنني تبادل الحديث معه»، قالت (كليليا) معترضة. وقفت زنوبيا أمام خزانة زينة مفتوحة لترتدي كلتاهما ملابسهما وتتزينان لحفل توديع (أوديناتوس). أراد في اليوم التالي أن ينطلق لقيادة القوات في الحملة الأرمينية. لم تشأ أن تستسلم إلى (كليليا)، إذ ساورها بعض الخوف من فكرة أن عليها أن تظهر أمام زوجها بمفردها. ضميرها القلق دفعها إلى تصرفات متسرعة.

من دون أن تعير أهمية لاعتراض (كليليا)، حولتها، بفستان حريري بلون العسل وبرقع ذهبي، إلى هيئة مشرقة: مشبكان على الكتفين من ذهب أمسكا حبلين غليظين ذهبيين، تقاطعا بين نهديها، أضفت على جسم صديقتها جمالاً مضاعفاً، ميزت جسمها الرشيق ثم قبّلتها. مندهشة تلمّست بقلق أمام المرآة حدود خصرها بيدها، وأثناء مشيها وأصابعها تمسد القماش الرقيق اقشعر جسدها.

«شيء من الجرأة».

«لا تستطيعين أن تتجرئي إظهار مفاتنكِ. غير أنني يجب أن أبحث أولاً في سبب سعة محيطي». وتركت يداً تتحرك بحرية- والأخرى لفّتها حول محيط بطنها- قدر ما استطاعت في خزانتها.

«ألا يبدو الأحمر لوناً حاداً إذا كان مع الذهب؟».

«كيف؟ ماذا قلتِ؟»، ظهرت زنوبيا لفترة قصيرة، «كلا، لا أجده كذلك. ضعي بعض المسحوق عليه إذا كان يعجبكِ. اسمعي، تجدين أن عليّ أن أزين نفسي مثل عين القط؟»، هزت (كليليا) بحيرة كتفيها.

«لا ادري».

Twitter: @ketab_n

«لـو لبسـتُ هذا الفسـتان المصـري هنا! لقد أرسـله لـي (فيرموس)».
وضعتـه عليهـا وهـي تلـوك بشـفتيها مفكـرة. «كلا، لا نقـاش. لا أريـدُ مـا يعلـن عـن بطني»، واسـتمرت تبحـث. ثمة نـوع من النشـوة اسـتولى عليها فرحة بما ملكت.

أخيـراً اختـارت فسـتاناً فارسـياً بلـون أحمـر نـاري بكمَّيـن عريضَين، مضافـاً إليه شـريطاً على الجبهة، بياقوت مربع مصقـول من الجهات الأربع، حبـال اللآلئ الذهبيـة المتدلية صُنعت غاية في الدقـة، تراقصت عند الحركة علـى جبهتهـا وعلـى خدَّيهـا. جلسـت وطلبت مـن (كليليـا) أن تسـرح لها شـعرها. نظـرةٌ إلى صورتهـا في المرآة أيقظـت فيها ذكرى بعيدة في المسـاء الأخيـر عندما سـرحت (أتاي) لها شـعرها. فـي تلك المرة نـوت الهرب مع بـدوي إلى الصحراء، بينمـا تهرب اليوم إلى مؤامرة. وسـائلي أصبحت أكثر توسـعاً، فكرت بمـرارة. رأت الخـوف يتطاير من عينيها، عندمـا تعانقت مع خالها. عندما غادرتا أمسكت زنوبيا، من دون أن يراهما أحد، تحت القماش المغطـي يـد (كليليا)، وبقيت ممسـكة بهـا عبر ممرات القصـر ومحيطة بها. ذواق الطعام تبختر في لباس البلاط المصري، المكون من إزار وياقة مطرّزة بالديباج وعمامة حمراء مقلمة. تقدم أمامهم.. وهكذا دخلوا.

لـم يثيروا اهتمـام أحدٍ في حديقـة الاحتفال. (أودينـاتـوس) أمر بإعداد أكبـر القاعـات الداخلية المزينـة بالنباتـات للاحتفال. مصابيـح زيتية عُلقت كأنها ثمار منورة في الأشجار. وبحبال ملفوفة بالزهور زُينت الموائد. اشتعل لهيبٌ كذلك في زهـورٍ صُففت في المحار والصدف، ارتجفت على البركة. بين الموائد تنقـل الناس مع المصابيح القلقة. تجاذبوا أطراف الحديث وهم في انتظار الأمير، حتى اسـتطاعوا أن يجلسـوا إلى الطعام. في نصف الظلام من الجانب الآخر من الأشجار كان العبيد في حركة لم تنقطع.

أومـأت زنوبيا وحيَّت مع كل خطوة، بينمـا تصاعدت الحركة وتصاعد اللامزاج من حولها. سُمع حفيف البراقع كما لمعت الأقراط. تهامس الناس معبرين عن دهشـتهم، كيف ظهرت وهي فـي حالها هذه أمام العامة. آخرون لـم يسـتطيعوا إلا أن يعترفوا: ما أجمل منظرها. همسٌ حـذرٌ تبعها، «العاهرة

Twitter: @ketab_n

الرومية» وتصفيق مكبوت للملكة إلى جانبها. جاريتان مزينتان بإكليلين مع قارورة عطر في يد كل منهما محفوفة بسحابة من عطر الياسمين. بعد ذلك أتى إليهم (نيسا) وقاد زنوبيا إلى المائدة. (كليليا) بقيت وحدها فجأة، وبحثت لها بسرعة عن كنبة استلقت عليها قبالة الاثنين- وبعد بضع دقائق وجدت ما أفزعها، وجدت نفسها بين (زابداس) و(لونجينوس) ثانية. قُرْبُ حبيبها السابق رفع الدم إلى وجهها فاحمرّ، لفّت قطعة قماش حول يديها وتجنبت خائفة أية ملامسة في المكان العام، من دون أن يلحظها أحد، شمت عطره وابتلعت في اللحظة نفسها دموعها.

ما أشد حبها لي، ظن وهو ينظر بشفقة من جانبه إلى أرنبتي أنفها المرتجفتين. (لونجينوس) كان في مزاج رائق هذا المساء، من دون أن يكون لذلك علاقة بالنبيذ الذي كان عادة ما يشجع على الإكثار منه. أما زنوبيا فلم تستطع إلّا بالأمس وأثناء الدرس اختراق الجليد، الذي حال بينهما منذ شهور.

لم يسمح لأذنيه بالتصديق، عندما قالت أثناء النقاش على نص في التاريخ الطبيعي من دون مقدمات:

«(لونجينوس)، أنا في حاجة إلى صديق»، حاولت الابتسامة، فبادرته وكانت شاحبة جداً. «أنتم في الحقيقة مثال القبح. لكنكم الإنسان الوحيد الذي يمكن أن أثق بهِ». رمى نظرة عابرة إلى نصب الحارسات الثلاث الذي يرمز إلى العرف والاحترام، ورافق المحاضرات دائماً، ولم يلاحظ في سيمياها غير المعبرة أي شيء غير مألوف. مللٌ صعب إخفاؤه. لاحظت زنوبيا نظرته.

«لا عليك! لا يفهمون اللاتينية».

«ما المقصود؟» سأل بهدوء.

«الخيانة، الانقلاب واغتيال ملك». رأى (لونجينوس) في هذا ما يشير الآن إلى وجهة نظر مهمة في العمل لـ(بلينيوس الأكبر).

«ربما لايصح أن نتحدث في هذا الموضوع هنا. اذهبوا اليوم مساءً وتجوّلوا في الحديقة. سأقابلكم بالصدفة عند النافورة».

Twitter: @ketab_n

وحيث هناك خرير الماء كاد يعلو على كلماتهما، حدثته، بعد ذلك، عما كان قد حدث في المعبد. أنصت إليها، وانتبه، وحلل بعد ذلك المشكلة مباشرة، مثلما اعتاد أن يعمل دائماً.

«وإذا كانت بنتاً فما أكثر الذين يريدون الزواج منها. صديقكِ البدوي يبدو لي أنه مرشح جاد بعد كل ما ذكرتم عنه. لكن حتى وإن لم: أكاد لا أصدق أن (نيسا) سيؤدي من جهته دوراً أكثر من دور كركوز، ولا أنتم تستطيعون التراجع». هزت زنوبيا رأسها.

«تأثيري على (أوديناتوس) ليس كبيراً، حتى وإن صدّق عني خيانة (نيسا)، هجمات (حيرانس) ضدي سيهملها على أنها تصرفات موهومة، أو من حركات الغيرة. ولمجرد أن يغادر هو، سوف لا يحتاج (حيرانس) وياسمين إلى وقت طويل حتى يجدا طريقة للتخلص مني نهائياً. وهكذا ستكون عندي فرصة على الأقل، مع صديق إلى جانبي». ونظرت إليه بتوسل. «ينصحني بصدق ويساعدني وقد أتمكن من العيش حياة حرة». بروعة وإباء وقفت بين (نيسا) وزوجته التي انضمت إليها الآن، وشعر اتجاهها بالألفة.

شرب نخبها كأساً من خمر فاليرنو، وكان سعيداً بالابتسامة الصغيرة التي أجابته بها. العبيد الذين جلبوا للمرة الثانية وجبة الأرضي شوكي مع البيض، أبعدوا (لونجينوس) عن أفكاره، لكنه عاد إليها.

وجبات البيض هذه كان (أوديناتوس) يميل إليها كميله إلى كل ما هو روماني، لم تلائم مذاقه، لكنه تناول من الكبد المتبل بالفلفل ومن السمّان ومن قرع الاسكندرية.

بينما كان يمضغ عظم السمّان، تأمل (لونجينوس) (أوديناتوس)، الذي كما عُرف يثير شهية العالم أن يكون جثة، ظاهرة يواجهها للمرة الأولى. لم يرَ في حياته ميتاً حياً. ظهر الرجل بكامله فجأة كشيء مفهوم. هنا بدأ يتبين له أصلاً، من خلال هذا الشخص الغريب الأطوار وبفضل معلومات من زنوبيا في البداية، الخط الوهمي بين الأشخاص في البلاط. هدوء البال الظاهر بوضوح عند (نيسا) لم يعد أحجية. في ما يخفيه (زابداس) من غموض اكتشف الآن أنه ليس مجرد كهل غريب التصرفات. الرجل المسن، الذي

Twitter: @ketab_n

بسبب وعيه للواجب أصبح متآمراً، ولم يشعر بارتياح لهذا الدور. بحسب (لونجينوس) أن ضميره المعذَّب دفعه ليكون مرتداً، فيخدم سيده الأقرب بإخلاص مطلق. زنوبيا كأم للوريث الشرعي قد يمكنها أن تلزمه ليكون خادماً مخلصاً، إذا ما تم تخليصه من تأثير (نيسا) فيه.

ما أسعد (لونجينوس) عندما يلعب لعبة النفوذ في مخيلته. كانت المائدة مفروشة أمامه، كأنها لوحة لعب تجرأ لينقل أحجارها. ليس مستحيلاً عليه أن يكسب من خلال زنوبيا تأثيراً نسبياً في مقدرات المدينة، لو تصرف تكتيكياً وبذكاء.

ردّ على تحية ياسمين المستفزة، وقد جلست إلى جانبه، بإشارة ساخرة. كان يعرف كل شيء عنها. وأثناء تقطيب (أوديناتوس) جبينه مدّت شفتيها بعناد، لأن (زيمة) بقيت بعيدة عن المائدة، كان المفروض بها كزوجة إضافية، أن تبقى في غرفتها، لكن لا توجد أية تعليمات تحرمها من متعة. لم يكن هذا بالذات ممكناً قبل فترة قصيرة من انتصارها على زنوبيا، التي سرعان ما ستفقد حمايتها. وكأنها عاهرٌ تعمدت أن تتمدد على مضجع، وانتزعت واحداً من الأشياش المغطاة باللحم المشوي لتلوكَ به.

الآن عندما وصل (حيرانس) على بعدٍ قليل مطرقاً ليندس في مكان بقي فارغاً إلى جانب أبيه، استطاع (لونجينوس) أن يبتسمَ عارفاً: لم يكن الشاب يمتلك صفات رفيقته المتآمرة.

«ألا يطيب لكم الطعام؟»، قاطعه صوت ياسمين، وقد أضفت عليه نغمة مهمومة، بينما كان هو غارقاً في تأملاته. أسلوب الاستعلاء لهؤلاء الإغريق أثار أعصابها منذ فترة طويلة. وأشارت بحنكها إلى ضرع بقرة محشو بقنفذ البحر أمامه، «أنتم، أيها الفلاسفة، تعوّدون أنفسكم ضبط الغرائز التي تسيطر علينا نحن الناس العاديين. أنتم تفضلون بالتأكيد الخبز اليابس مع البصل». كان اتجاه نظرتها وابتسامتها الشامتة واضحاً، وغرقت (كليليا) في موجات من الخجل. نظرت زنوبيا إليها بغضب، لكن قبل أن تستطيع قول شيء أجاب (لونجينوس) نفسه: «أنتم تخلطون بيني وبين زاهد. نحن الفلاسفة نسيطر على العقل وليس على الجسد. طقوس التوبة عندنا ليست في الصوم وإنما

Twitter: @ketab_n

في تحمل الغباء البشري». ضحكت زنوبيا، أما (حيرانس) فتذمر بهدوء:

«لا بد من أحد يلجم فم هذا الإنسان».

« مـاذا تقـول يا عزيـزي، ابن ضرتي؟»، استفسـرت زنوبيـا من دون أي تعبير يشير إلى مودّة، ونفخت وهي تكمل:

«لكـم كل الحـق، أن تدافعـوا عـن ياسـمين، حيـث أنكـم معهـا يكمل بعضكمـا بعضـاً فـي تفضيله الرائـع للثاني». وضع (نيسـا) يده علـى ذراعها المرتجفة، بتعبير يوحي بالطيبة، وضغط من دون توان، بينما ابتسـم هو حوله بوجـه جامد. عضت زنوبيا شـفتيها سـوية، وكتمـت ألماً فاجأها فـي بطنها.

«عندنا أكل الخبز ليس علامة الزهد وإنما قوة الارتباط. نكسره سوية»، قالت (كليليا) بخجل في الهدوء المخيم، وأعطت بحركة يدها الإشـارة المناسبة. أملت تهدئة الأمواج. (زابداس) كان غارقاً في طبق يأكل منه ولم يرفع رأسه، ثم غرقت (كليليا) في مضجعها.

«عُرفٌ جميلٌ» أومأ (نيسا) مقابل نظرة تحذير من زنوبيا، ونظر في عيني (زابداس) الذي نظر متفاجئاً.

«نعـم، رائـع جـداً»، قالـت ياسـمين متثائبـة. ثم سُـمع بعد فتـرة قرقعة الأواني، بينما حمل العبيد الأيّل المشـوي. الآن صحـا (أوديناتوس)، الذي كان أثناء حوار الإناث، مأخوذاً بالطعام بكل جوارحه.

«كان كبشـاً كبيـراً، ذلـك الأيّل. قلتُ حيـن رأيت هذا الحيـوان الكبير: كان فعـلاً صراعـاً بيـن ملِكَين». ثم جـرى تدفق حديثه عن الحضـور. زنوبيا خاضت في الحسـاء المتبّـل، ورأت كيف انتهت المادة السائلة الثخينة ببطء كخطٍ متخدّش حتى اسـتقر عند قعر الطبق. رسمت شكلاً مفزعاً، سرعان ما اختفـى ثانية. انطلق (أوديناتوس) عبـر الأدغال. زنوبيا كانت تعجن في يدها كرة صغيرة لرغيف خبز.

«ألـم يكـن هـذا كذلك فـي وقـت الغـروب، تماماً أمـام شـلالٍ عندما طرحـتُ، ذات مـرة، هذا الخنزير الوحشـي الهائل أرضاً»، تدخلـتْ بتذمـرّ. جفل (أوديناتوس) لحظة، ثم ضحك بعدها وربت بقوة على كتفها.

«النسـاء الحوامـل أكثر إثـارة من أي شـيء آخر. هكذا تنفـش حمامتي

Twitter: @ketab_n

الصغيرة ريشها».

«دع هذا»، وصدت ربتته بعكسها.

«آخ، ما هذا، كل جواد أصيل يجب أن تحكه المحسة مرة في اليوم»، هدر الكلمات بمزاج رائق. زنوبيا رأته مستحقاً الموت كل يوم. تمنت لو استطاعت طعنه هنا على المائدة بخنجر وقضت عليه، خصوصاً بعدما نظرت إلى وجه ياسمين المستمتع. هذه القذرة و(حيرانس) ضحكا بأعلى صوتٍ للنكتة الجديدة.

«مهلاً، مهلاً، لا تبتئسي. عندما أعود ثانية، أهديكِ رأس غاصب أرمني»، قال (أودیناتوس) منذراً.

«واحدة من الصغائر الجذابة لا يستطيع أحد الإفادة منها». تمتم (نيسا) ماسكاً لحيته. كادت زنوبيا تشرَق.

«أصحيح ما سمعت، (نيسا)؟ إعطاء أرمينيا ثانية ليديّ ملكها الشرعي إنما هو واجب روما. إذاً تعودون لي بحسب قوة النظام في الشرق». رفع (أودیناتوس) ملعقته بسرعة خاطفة حتى انتشر كريم البيض مرتطماً بالمائدة. تحمس بشدة إلى موضوعه المحبب، موضوع العظمة التاريخية. «لكن ما الذي تفهمه واحدة مثلكِ عن هذا وهي التي تهتم فقط بالنظام في دفاتر الحسابات». بعد هذا الاستفزاز اتكأ إلى الخلف وهو يمضغ.

أتى الآن دور (نيسا) ليغضب. بوجه محمر توجّه إلى الأمير، لكنه بعد ذلك بدأ يلتقط بأناقة قطعة من حلويات الخوخ الصغيرة، ونظر شزراً إلى أعلى:

«وأنا أيضاً أعرف كيف أدير لكم جيداً ما دفعته روما لكم من أجل هذه المغامرة، على طريقة أخبث قاطع رقاب أعرفه». بهذا رفع كأسه المليء بالنبيذ. ضحك (أودیناتوس) لكن عينيه اللتين بقيتا ملتصقتين بـ(نيسا) قالتا، أيها الثعلب العجوز أنا أمسكك من ذيلك. بعد عودته سوف يكون لزاماً عليه الانتباه إلى قريب زوجته.

كان (گـاش) حتى هذه اللحظة هو الذي أنجز المهمة من أجله، تذكر هنا، عندما رأى آمر المدينة الشاب مقبلاً عليه.

Twitter: @ketab_n

«يا گـاش النبيل، الحـارس الأمين للوطـن، والآن كيف تبـدو الأمور في شـوارع تدمر الحبيبة؟»، ورفع الكأس نخب الذي أتى متأخراً وأشـار في الوقت نفسـه إلى العبيد، فأعدوا له مكاناً على المائدة، وأداروا له الراح. «في مكان ما لا بد هناك شيءٌ من أصناف السمك الرائع».

«كل شيء هاديء، سيدي، عدا بضعة جنود يقيمون حفل وداع». گـاش الـذي فضـل لو كان جنرالاً فـي أرمينيا على العـودة والبقاء هنا، رمى بنفسـه منزعجاً إلى مضجع، شكر على الخبز المحمر رافعاً قدحه وبدأ بوجه عابس يصـب النبيـذ في جوفه. تأمله (نيسـا) باهتمام، غير أن زنوبيـا ربتت بإصبعها على قفا يده وهزت رأسـها. طوقها (أوديناتوس) بـذراع حول كتفيها، جرها إليه ونادى من فوق المائدة:

«مُلكي الغالي، (گـاش) أأتمنكَ عليه، إحرص عليه جيداً». مر (گـاش) بنظرة عابرة على أخته. ثم شرب نخب (أوديناتوس) مجدداً. واستعدّ ليغرق ما تبقى من المساء في الشرب.

حـررت زنوبيا نفسـها مـن تطويق المخمـور زوجها، وعدّلـت بأصابع مرتجفـة عقـد اللآلئ على جبينهـا. هدأ صراعٌ آخر في بطنها الآن، وتنفسـت بحـذر. وعندمـا انحنـت إلى الأمـام لتلقط بعضاً مـن التين المتبـل المغمس بالعسـل، سمعت طقَّة في جسـمها. بعد ذلك بوقت قصير شعرت بسيل حارٍ على فخذيها، ورشـح من ملابسـها. زنوبيا ألقت بقطع التين وكان لها رائحة كريهة. رقبتها كانت مطوقة.

أيعنـي أن المسـألة قـد ابتـدأت؟ (لونجينوس) ابتدأ يشـرح أساسـيات السياسة والتطور الداخلي في أرمينيا، ويشرح له موقف الروم. صعُبَ عليه أن الجالس إلى جانبه (زابداس) بدا كأنه أفرط في الشراب وردد أغاني عسكرية وانتقـل من فقرة إلـى أخرى وازداد بالتـدرج صوته علواً. أمـر (أوديناتوس) بإحضار النبيذ، وشارك صاحبه في ترداد الفقرات المعروفة لديه.

مـن دون أن يلاحـظ أحد تحسسـت بيدها ملابسـها الداخليـة المبلـلة وحولـت نظرتها بعد ذلـك إلى أصابعها. حمداً للات لم يكـن دماً. زنوبيا لا يمكنهـا تصـور أنها بعـد فترة قصيرة ستمسـك طفلاً بيديها. تسـارعت عليها

Twitter: @ketab_n

آلام المخاض الأولى أكثر فأكثر. تكورت على مضجعها بين الرجلين، إذا استمر الحال هكذا لا مناص من خروجنا من هنا. ضحكت ياسمين بكركرة على نكتة بذيئة من (نيسا). حاولت زنوبيا الظفر باتصال بالنظر مع (كليليا) الجالسة بصمت. نهض أحد النبلاء ليقدم مديحاً إلى (أوديناتوس). الكل نهض وقوارير النبيذ دارت بينهم، هتافات التمني بالعمر المديد ارتفعت. وبعد إشارة، ملأت الراقصات المكان، وابتدأ عزف الناي وقرع الطبول. لم يهتم أحد بزنوبيا التي اختفت بمساعدة (كليليا) بين الأشجار.

* * *

في خطوة مستعجلة أسرعت المرأتان عبر الممرات. في كل مرة ازدادت فيها أطلاق الوضع، توقفت زنوبيا عن المشي، وتمسكت وهي تتنفس بصعوبة بإطار أو نصب.

«تصورتُ الأمر أسهل من ذلك»، قالت وهي تلهث، وضغطت بوجهها على فخذ تمثال ديانا البربري البارد. دلكت (كليليا) لها كتفيها.

«تنفسي، تنفسي عميقاً، وكيف تصورتِ ذلك؟».

«لم أفكر في الأمر كثيراً. ظننت أنه حدث طبيعي. اللعنة». توقفت هناك وارتجفت ركبتاها. «الآن وقد مرّت. لنواصل المشي». وأسندت (كليليا) صديقتها من تحت ذراعها وابتعدتا. خلال ألم الأطلاق التالية، حاولت زنوبيا مواصلة المشي. واستمرت تمشي، خطوة بعد خطوة، وكانت تطلق الزفير مصحوباً بالتنهيد... وأخيراً وصلتا غرفتها. لكن لا مهرب من آلام أطلاق الوضع. كانت تأتي كأمواج متلاحقة، طلقاً بعد طلق، كل طلق أقوى من سابقه. ضمتها إليها.

(كليليا) لم تطرد العبدات الأكبر سناً، وقد تجمعن في غرفة الولادة. جلسنَ سوية في إحدى زوايا الغرفة وتحدثنَ بصوت منخفض عن أحداث اليوم. من حين لآخر كانت إحداهنَّ تنهض وتناول الأميرة المغمضة العينين الطريحة هناك كأساً من الماء، وتجفف قطرات العرق المتصببة من جبينها، ثم تعود لتنضم إلى دائرة صديقاتها ثانية.

Twitter: @ketab_n

«كيف أمكن أن يكونوا بهذه اللامبالاة»، اشتكت زنوبيا أثناء فترة هدوء.

«يا آلهتي، كل شيء يؤلمني. حتى مفاصل اليد».

«وبمَ عليك أن تشعري عدا ذلك، زنوبيا؟». ومسحت (كليليا) جبينها المتصبب عرقاً بكل حنية. «حبيبتي أنتِ سوف تحصلين على طفل».

«لو استطعتنّ رؤية الألم، كأنما كرة عملاقة متوهجة حمراء، ارتفعت عند الأفق لعالم صغير جداً. كلما ازددنا جرياناً وصراخاً تضاءلت تدريجاً». وبعد آخر تدليكة سحبت منها يديها. أغمضت زنوبيا عينيها واضطجعت جانباً. كل طلق ألم جديد تطلق معه صرخة طويلة من حنجرتها. أنصتت إليهنَّ وكأنهنَّ غريبات، ولم تكن واثقة في كل مرة أنها سوف تتمكن من تحمل ألم الطلق. ثم غرقت في سلام فترة هدوء قصيرة. لم تدرِ منذ متى هي راقدة هنا، ولا منذ متى اجتمعت هذه المجموعة القليلة من النساء إلى جانبها، يتسامرنَ في ضوء مصباح الزيت. لكن ساعات مضت، عندما لاحظت حركة حولها.

«يا ابنة (زنوبيوس)، انتِ تولولين كأنكِ قطة عاشقة». وقفت (أومة) عند قدميّ المضجع. وشرعت فوراً برفع ملابس زنوبيا إلى أعلى.

«(أومة)، أخيراً أنتِ هنا، (أومة)، ناوليني شيئاً ضد الألم، رجاءً»، توسلت زنوبيا إلى (أومة). «رجاءً، (أومة)، رجاءً، رجاءً. أنا أعلم أن لديك شيئاً».

«ولِمَ طُفَيْلتي، لمَ، سرعان ما تنتهين من هذا. وسيكون وراءكِ، الآن انهضي أو اركعي إلى الأمام واضغطي».

«انهضي؟». طلق ألم آخر قاطع زنوبيا. «لا أستطيع النهوض، (أومة)، لا أستطيع حتى أن أتحرك، رجاءً، رجاءً». لكن النوبية كانت قد أشارت إلى (كليليا) وامرأة أخرى هي (ليمس) رفع زنوبيا من تحت إبطها. سحبتا سوية الوالدة إلى وضع القرفصاء. وشرعت يد (أومة) تتحرك على بطن زنوبيا لتساعدها في التقلصات.

«اضغطي»، أمرتها، وضغطت زنوبيا، وضغطت إلى الخارج حيث

Twitter: @ketab_n

بلغت أطلاق الألم أشدها حتى أنها قاربت أن تتوقف. لم تفكر هي في الطفل ولا مرة واحدة، المهم أن تتوقف أخيراً.

وبعد ذلك حلّ هدوء في جسمها. في مكان ما بعيد عنها كانت تُسمع أصوات نساءٍ يتحدثنَ. شخصٌ ما غسلها بماء نصف دافئ. صرصرة ناعمة مدهشة في لفة قماش. الخطوط الحمراء على الغطاء الخشبي فوقها. زنوبيا غطّت في النوم.

عندما دخلت (أومة) الحديقة لتخبر (أوديناتوس) عن أبوّته، وجدت وليمة ميتة. عبيد لا يحصى عددهم كانوا يتحركون بسراويلهم وقطع قماشٍ، أزالوا الفوضى، بينما هنا وهناك ما زالت تجمعات من السكارى يغنون سوية. الموسيقيون حزموا آلاتهم، الحراس الشخصيون بحثوا بين النائمين كلٌ عن سيده. أسماكٌ متعَبة حركت ماء البركة، التي صارت حمراء غامقة كالدم، بعدما سُكب فيها الكثير من النبيذ. لهيب المصابيح كان كأنه جمر سائل في سماء الصباح بلون الورد. ومن القاعات الأمامية توغل صراخ القوات المنطلقة وصخبها.

مشت (أومة) على كِسَر وحطام أثاث، وتجنبت أن تدوس في نقع الماء والتقيؤ، وبكل حذر تجنبت أيضاً السكارى والمتأرجحين في مشيتهم، واخيراً وجدت (أوديناتوس) ممدداً في مضجعه، كان يصب بين نهدي إحدى زميلات الطفولة، إلى جانبه، نبيذاً حاول ارتشافه بلا جدوى. بانزعاج دفعت ذراعه جانباً، فسال النبيذ على الأرض ولم يستيقظ. (نيسا) الذي كان جالساً باعتدال أمام كأس نبيذه نصف الفارغ، سحب منها ملاءة المائدة واستعملها كغطاء، وبلّغ (أوديناتوس) رسالة (أومة).

«هَي»! صرخ في أذنه وهزه بعنف، «هَي، أيها السكير الكريه، إنها تقول، صار لكَ ابنٌ».

«أجل»، زمجر (أوديناتوس)، «صبيّ سيكون اسمه (يوليوس أوريليوس أرمينيكوس)، أجل». ثم غلبه النعاس فغفا. توجه (نيسا) إلى (أومة):

«أعتقد أنكم عملتم المستطاع. اذهبوا إلى سيدتكم وبلغوها تحياتي. قولوا لها إني متمسكٌ بكلمتي، هي تعرف ما أعني»، بهذا لوح إلى عدد

Twitter: @ketab_n

من رجال حراسة القصر، فأسرعوا ليأخذوا أميرهم على حمالة إلى القاعة الأمامية. وقريباً سينضم إلى حركة العجلات والقوات، وسنبلّغ عما قد يحصل لهم.

خرج (نيسا) بعدهم. كان يتأمل كيف تصرف الجنود تحت أوامر ضباط (زابداس). الجنرال العجوز نفسه جلس بلا حراك وأعطى كل الجنود الشعور بأنه نظر إلى كل واحدٍ لكنه لم يمنح الحمالة المعلقة نظرةً. وفي الختام كان كل شيء جاهزاً. حوافر الخيل قرقعت ببرود وصدى على الأرض المرمرية، مارة عبر البوابة. فرسان مدفعية المنجنيق الذين شكلوا مؤخرة الموكب التفتوا مرة أخرى، وهم على سروجهم ليؤدوا التحية العسكرية أمام (نيسا) قبل أن اختفوا في الشوارع الخالية صباحاً.

أيقظت الشمس زنوبيا وهي على سريرها. تمطت بحذر، ورغم ذلك كان ثمة ألم بين ساقيها، يكاد يكون مقبولاً. اتكأت إلى الخلف على وسائدها، وبدأت تستمتع، كيف اختفت ذكريات البارحة. سعلة بسيطة جعلتها تفتح عينيها مجدداً. الآن فقط لاحظت (أومة) و(كليليا) وعدداً من الخادمات قرب باب الشرفة. وإلى جانبها جلست امرأة وساقاها ملتفتان بعضهما على بعض في فستان سوري أزرق لامع تهدّئ طفلاً تمطى ولهثَ ومص من صدرها العاري. وهي صامتة بلا حركة، عدا أقراطها اللامعة تراقصت تحت أشعة الشمس، حين مالت إلى الرضيع.

«إنها (تارسيس) من بيترا، مرضعتكِ. صباح الخير سيدتي»، قالت (أومة) حين لاحظت نظرة زنوبيا. رفعت (تارسيس) رأسها وكشفت عن كل أسنانها بابتسامة مشرقة.

«هل هذا طفلي؟»، سألت زنوبيا وأحست بلسعة عندما رأته راقداً في الذراعين البنيتين الممتلئتين. «أعطني إياه»، طلبته بدافع الغيرة. بكل طاعة أخذته (تارسيس) من صدرها، عندما صرخ معترضاً، ومسحت قطرات الحليب من الفم الصغير المفتوح، ووضعته في حضنها.

«صبيٌ رائع» أكدت. بعدم ثقة فتحت زنوبيا القماش الذي كان ملفوفاً فيه. تمسك فوراً بحافة يدها بقوة. زنوبيا بلعت ريقها متأثرة، ثم فزعَت.

Twitter: @ketab_n

بحق الآلهة، (أومة). يبدو مثل أبيه تماماً». ضحكت امرأة الحمام:

«في البداية كلهم يشبهون الرجال المسنين، صدقيني، صدقيني، أميرتي، هذا سيتغير. وهذا هنا أيضاً له بشرتكِ وشعركِ. سيكون بالتأكيد مدهشاً بجماله».

«أنتَ لي» همست زنوبيا في أذن الرضيع الذي نظر من شقَّين عريضين. «لي وحدي. ليس لكَ أب». وقالت بصوتٍ عالٍ: سيكون اسمه (فابالاتوس)، هدية من اللات».

«(أوديناتوس) أعطاه اسماً آخر» تدخلت (أومة)، لكن زنوبيا مدّت رقبتها وقالت بتأكيد: «ما يريده (أوديناتوس) شيءٌ لا طعم ولا قيمة له». ولنفسها قالت بصوت منخفض: «ربما يحصل الآن؟ أوه، أيتها اللات، قفي إلى جانبنا».

«ما هذه الضوضاء؟»، ضربٌ وتكسيرٌ وصراخ جاء من الممرات إليهن في الداخل، وصليل سيوف في مبارزة. ضربات سنابك الخيل ارتفعت من الفناء الداخلي وسمعت المزهريات والأصص تتحطم. صوتٌ آمر نادى من بعيد، والصليل المقترب منهن جداً كان هو الجواب. وأقدام كثيرة مرت ببابهن. نظرن بفزع إلى جناحي الباب المغلقين ولم تفتحا رغم ذلك. نداء حرب أجش في نهاية الممر أفزعهن مجدداً. ومر أحدهم مسرعاً، صراخٌ من بعيد خفت. وحل هدوء. واحدة من الخادمات خرجت لترى ما حدث من قرب، هُرعت بوجه كالح من الفزع إلى الغرفة الثانية.

«كل الأمكنة مليئة بالفرسان وهم يقفون الآن تحت عند السلالم. السيد (نيسا) كان معهم وقال شيئاً للحراس. وعدد من الحراسِ ممددون ميتين على وجوههم ورؤوسهم. وفي الفناء هناك أكثر، وكل التماثيل الجميلة تحطمت. آخ إنهم سحبوا الستائر إلى أسفل». وبلعت ريقها من الخوف.

«اهدأن، لا عليكن»، حاولت زنوبيا تهدئة النساء اللائي تقافزنَ فزعاً. «نحن غير مهددين بأي خطر. إنْ هذا سوى...»، لكنها لم تستطع أن تشرح لهن، إذ تعلق الأمر بانقلاب مدبَّر جيداً، شارك فيه كل من لا يعمل من حرس المدينة تحت أمرة (گاش)، من ضمنهم هي نفسها.

Twitter: @ketab_n

وأضافـت، ربما (أوديناتـوس)- وكذلك (حيرانـس)- ضمن الموتى، لكـن فـي ما عدا ذلك فكل شـيء بحسـب الأصول، لأن (نيسـا) سـرعان ما سـيحضر إلى هنا ليعلن (فابالاتوس) الصغير حاكماً: لأن صراخاً شديداً أتى من الغرفة المجاورة التي أسرعت إليها (كليليا). نهضت زنوبيا فزعة ودفعت الطفـل إلى يد (أومة) وأسـرعت منحنية إلى أمام الباب الذي سـمعت خلفه ضجيـج قتـال ونداء اسـتغاثة صديقتها. فتحـت الباب فرأتـه، أميرها الذهبي الشـاب، الذي كان قد قدّم لها بلا خجل وبفرح قربان الإخلاص. دفع وفوق كل مـا حـدث، (كليليـا) إلـى الجدار بيـد، وانتـزع باليد الأخـرى بلا خجل الملابس إلى الأسـفل، وابتسم فوق ذلك ساحباً يده إلى الخلف، وسدد إلى (كليليا) بقفا كفه ضربة قوية على وجهها دفعت بها إلى زاوية في الغرفة. على الفـور انتصـب واقفاً عليها، ولم يرَ أميرته وكانت ممسـكة بقائم الباب، وهي في قميص النوم، لأنه كان منشـغلاً بفتح بنطلونه. ومنح الغضب زنوبيا حياة. أوه، كانت تعرف هذا النوع من استطارات الوجه، عرفتها من أبيها ومن أخيها ومـن زوجها. بهذه الطريقة كانت تُضرب النسـاء فقط. من دون تفكير طويل أمسـكت المشـعل البرونزي مـن جانب الباب وضربت بـكل قوة على رأس معـذّب (كليليا) من الخلف. قدم المشـعل بقـي عالقاً هناك وسـحبته زنوبيا معها بينما كان الرجل يسـقط إلى الأمام ببطء. بهلع تسـللت (كليليا) مبتعدة عن الجسـم الذي توقـف عن الحركة، وحملقت فـي صديقتها التي ما زالت ممسـكة بلا وعـي بالقضيب المعدني. وحيـن هزتها لتنبههـا، جرى بصمت قليل من الدم الغامق من شـعره على الأرض الموزاييكية. بقعة صغيرة، ليس إلا. العينان المفتوحتان للميت بدتا مذهولتين.

«والآن يبدو أن لدينا مشـكلة». لقد كان (نيسـا) الذي أبعد النسـاء جانباً وسـاندهن. انتـزع مـن يد زنوبيا المشـعل ووزنه فـي يده. ثم نظـر إلى حليفه الميـت. «كان هذا عملاً متسـرعاً نسـبياً عزيزتي بنت أختـي. لكن لا تهتمي، سـأدبر الأمر». اسـتراحة بسيطة، واستطاعوا أن يسـمعوا بعدها كيف اقتربت ضربـات ونداءات الجنـود الثائرين. ثم انحنـى أمام زنوبيا: «ليـس ممكناً أن أتركَ عروسي عرضة لهؤلاء الأوغاد».

Twitter: @ketab_n

«عـروس» تنحنحـت زنوبيـا. كادت تخترقـه بنظراتها، ارتعشـت يداها الفارغتان.

«أنتَ ابن زنى».

«أنـا أعزي سـوء التصـرف هـذا لحمّى النفـاس»، لاحظ بلطـف، وهو ينعطف جانباً كي يفسح الطريق للمحاربين المتزاحمين ليلقوا النظرة الأخيرة علـى جثمان قائدهم. حملقت فيه بغضب. صور ذكريات بعيدة ظهرت كلها فجـأة أمام زنوبيا. هواءٌ ثقيل، نصف ظلام، فـي مخبأ معبدها ومعبد (أودو)، فيه شـباك بدا كأنه جزء من السـماء، وأمامها المقعد العاري لرجل كان يرهز صعـوداً ونزولاً، صعوداً ونزولاً على جسـم امرأة غيـر مرئية. صورة مصغرة غير معقولة كانت في حينها قد أثرت فيها كثيراً. رأت المرأة تنهض والأغطية انزلقت من فوقها والشعر سقط إلى تحت وانكشف وجهها. (إيريس)، كادت زنوبيـا تصـرخ،كلا، بصـوت عالٍ ثم انتبهت إلى نفسـها. وقفت وسـط دائرة رجال صامتين، صامتين بشـكل مخيف، بجلود أحرقتها الشـمس والملابس العريضة للبدو. ثم عاد الغضب لها. كلا، لم تكن مستعدة لأن تسمح للخجل بالتغلب عليها. حاولت وكل عضو في جسـمها ارتجف بسـبب الامتعاض، حاولـت أن تجـد صوتهـا. نظـرت بحـدة إلـى عيـون (نيسـا)، بينمـا ركعت إلى جانب الميت.

«لقـد فعلها»، نادت بوضوح، وأشـارت إلى (نيسـا)، الـذي كان ما زال ممسـكاً المشـعل الملطـخ بالدم بيـده. ثـم رفعت بسـيمياء جامـدة، الرأس المحطـم، ووضعته في حضنها. كل شـيء كان هادئاً مـن حولها. «لقد فعلها بسبب الغيرة». قالت ولم تحرف عينيها عن (نيسا).

«أنـتِ عاهر» صـرخ، «أنتِ عاهـر ملعونة مـن الله، أنـتِ...». صراخه اختنـق تحت قبضة البـدو، الذين دفعوه إلى الخارج في مـكان ما من الممر. آخـر ما رأت منه قدميـه العاريتين المرتجفتين بين برانـص المحاربين. لا بدّ أنه فقد خفّه، ظنت وهي مشـتتة التفكير، عندما بقيت وسط المحاربين جاثية على ركبتها بقميص نومها. قائد المجموعة أدّى التحية العسكرية أمام المرأة الجميلة والميت في حضنها. زنوبيا تمنته للحظة قصيرة. بدا جديراً بالاحترام

Twitter: @ketab_n

كفاية. وفي عينيه مشاعر إعجاب، أيقظت فيها أملاً.

«ما اسمكَ؟» سألت زنوبيا وعاودها النعاس الشديد فجأة.

«بونور، سيدتي».

«حسناً»، تنهدت. تمنت لو طلبت إليه أن يحملها كطفلة إلى فراشها، حيث تستطيع (أومة) أن ترعاها بعدئذٍ كأم. لكن كان عليها أن تتماسك، كان هناك الكثير مما لا بد من إنجازه، إذا لم تكن تريد أن تموت في فراشها في الساعات المقبلة.

«بونور، إذهب إلى رجالكَ، عليهم أن يحرسوا بوابات القصر ولا يسمحوا بدخول أحد، ثم خذ معكَ عدداً من الناس لحراسة بوابات المدينة ومعسكر حرس المدينة. وإذا وجدتم أخي هناك فاجلبوه لي مخفوراً، إلى هنا. قولوا له، أريد التفاوض معه. ربما يمكننا تجنب قتال مع حرس المدينة. من هو الآن قائدكم، بعد أن...». وخطّت علامة موتٍ غير واضحة على الجبين.

«تامارسو، سيدتي، عمّه لم يقف ضدنا لكنه لم يشأ أن ينطلق معنا».

«ربما يكون تامارسو رجلاً ذكياً. ابعث رسولاً إليه وقل له، أميرته تريد رؤيته. والآن انصرف». خفضت رأسها من النعاس. عندما رفعت نظرها ثانية، كانت وحدها. زنوبيا توجهت إلى (كليليا) و(تارسيس) والآخرين الذين تجمعوا حول (أومة) ولم ينبسوا ببنت شفة.

«لاتنظرن إليّ هكذا. ما كان يجبُ أن تتزوجن منه». نهضت بمشقة ومسحت أصابعها بقميص نومها. «احملوه إلى الخارج واجلبي كأس نبيذ، (أومة). أو، لا، اجلبي لي اثنين».

أرادت زنوبيا أن ترمي نفسها في أريكة، لكنها تبينت أنها بعد فترة قصيرة من الولادة لا تستطيع الجلوس ثانية. لذا ذهبت إلى الشباك، لكنه ليس وقتاً للراحة، قالت لنفسها بينما كانت تنظر إلى الفناء، حيث العبيد عملوا على إبعاد عدد من جثث الجنود. أمسكوا الجثة من القدمين وسحبوها وذراعاها ممدودتان والعينان محملقتان إلى السماء في اتجاه البوابة. لكن غمد السيف العالق برجل الميت ضل طريقه واستقر في آخر زهرية سلمت من الكسر،

Twitter: @ketab_n

فانقلبت وانكسرت. نظرت زنوبيا إلى الفوضى أمامها التي سببت الحادث الجديد، وتناولت جرعات قوية من نبيذها.

كانت هي الوحيدة الباقية من المغامرة التي لم يُعرف كيف التصرف بنتيجتها. على الأقل حتى رجوع (زابداس)، ما دامت تستطيع السيطرة على (گاش). وماذا حصل بعد هذا؟ لم يكن (زابداس) غاضباً ولا خطر يهددها من جانبه، لكن (گاش)؟ أخاها الغيور الأبدي، الذي مذ كان طفلاً كان يرفع يده عليها. وكان يتمنى قتلها اليوم قبل الغد. كلا، لم تتمنَّ هي له عرشاً. السلطة اليتيمة الآن في يدها، كان الأمر عائداً لها. إذا كانت تريد الاحتفاظ بها. ترددت زنوبيا أثناء الصمت الذي ساد، في أن تقوم بالخطوة التالية. ملأت الكأس مجدداً.

لقد حصل مثلما توقع (لونجينوس) بالضبط. هذا ما كان يجب أن نتعلمه منه. في أي حال كان هذا الأكثر فائدة من أجل نسيان إذلال (أوديناتوس) لها، من خلال إدارتها شؤون الدولة فعلياً بنفسها. أولم يكن هذا تحقيقاً لأحلامها كفتاة: لتحكم ولتسود مثل كليوباترا؟ في الأسفل كانوا يكنسون الطين الساقط على الأرض. أحلام، قالت لنفسها بمرارة. سبق أن صُدمت مرة في حلم. تنفست عميقاً والتفتت تلقائياً إثر سماعها وقع أقدام.

«أماه! ماذا تريدين هنا؟»، وأخفت تلقائياً كأس النبيذ. هدرت (زيمة) بشدة مقتربة حتى أقراطها. لم تترك غرفتها مطلقاً لكن الأمر كان بالغاً. الضجيج في كل مكان وياسمين ميتة في بركة السمك الذهبي. لقد أمرت خادمات غرفتها بالرحيل. كانت (زيمة) تريد في البداية العودة إلى خيام أهلها، وكانت عاقدة العزم على اصطحاب ابنتها معها.

«حتى يعود (أوديناتوس) ثانية، سنكون هناك في أمان».

«إنه لن يعود ثانية، أمْمْ». بلغ بها الغضب حداً على نفسها، فأظهرت الكأس وشربت منه أمامها.

«كيف أنتِ متأكدة هكذا؟».

«لأنني أمرتُ بقتله». لم يكن هذا مطابقاً للحقيقة تماماً، لكن زنوبيا شعرت برضًا عميق عندما نطقت الجملة. لقد جُنَّ جنونها وصحت واتخذت

Twitter: @ketab_n

قرارها. أمها هوت على ركبتيها ورفعت يديها مولولة.

«أيتها الآلهة، اغفري لي، هذا الطفل. هذا الطفل المنبوذ، كنت أعلم أن الأمر سيكون سيئاً معكِ. أوه، ماذا عسى يحصل. ماذا؟». كانت زنوبيا أثناء ذلك فتحت خزانة ملابسها. «سأعتلي العرش باسم إبني، هذا ما سيحصل». ثم وجدت ما كانت تبحث عنه، رداءً زاهي الألوان في طراز القبائل، لكنه أغلى بكثير بسبب القماش والشغل فيه. بهذا أمكنها أن تظهر أمام شعب تدمر، عندما أعلنت مطلبها.

«(أومة)»، نادت طالبة المساعدة في اللبس. صرخت أمها أثناء ذلك وبقيت جاثية على ركبتيها.

«أنتِ مجنونة». صاحت «أنتِ مجرد امرأة قاتلة زوجها. سوف يرجمونكِ. يرجمونكِ، أتسمعين؟ من تظنين نفسكِ!». لم تجب زنوبيا.

«جنرال (زابداس) قد وصل الآن ويريد رؤيتكِ». قالت (أومة) وهي داخلة. زنوبيا دسّت الفستان في يدها.

«حضّري لي زينة ملائمة وإكليلاً. آخ، واجلبي الطفل، كل شيء سيبدو أفضل حين أحمله على ذراعي. ودعيها تصمت». أضافت بنظرة إلى (زيمة) التي كانت جالسة على الأرض تنتحب باكية بحقد يائس.

عندما توجهت إلى (زابداس) لم يبق شيء يُرى من الشك في النفس. (لونجينوس) رافق العجوز الذي كان قاد بكل حقدٍ جنوده راجعاً، وتوقف عند النقاط الاستراتيجية المهمة للمدينة. جثتا (أوديناتوس) و(حيرانس) تركهما خلفه تحت حراسة عند أبراج القبور، كي لا يكدر الأمزجة من خلال موكب جثامين. لمّح إلى أن زوجها مات وهو نائم. في الحقيقة كان الأمير ما زال يشخر بصوتٍ عالٍ، حين مزق الجنود ستائر هودجه، ودسّوا الخنجر في رقبته. سال الدم على بقع النبيذ والصلصة، على بذلة الحفل التي كان يرتديها، بينما اختنقت أنفاسه ولم يفتح عينيه بعد ذلك. أما (حيرانس) فكان متوقعاً الضربة. عندما اتجه القتلة إليه امتطى جواداً هارباً عابراً الطريق إلى الأمام قبل أن يلحقوا به، فتقلب وتكوّر تحت الطعنات التي لا يمكن حصرها، إلى أن تمدد على الأرض أخيراً وبفم مفتوح.

Twitter: @ketab_n

خفضت زنوبيا عينيها باحتشام عندما تحدث إليها (زابداس) عن العنف.

وحمّلت الرجل العجوز مسؤولية أكبر عن السيدة الرقيقة أمامه. لكن رداً على سؤاله في ما لو كانت ترى (أوديناتوس) مرة أخرى، هزّت زنوبيا رأسها وتشردقت بسرعة. لا بد أنه النبيذ، ظنت، فكرت بانزعاج.

بدا على (أوديناتوس) بعض الارتياح تقريباً من موت (نيسا). لم يخب ظن (لونجينوس) به في المساء المنصرم. بدت له عدالة متوازنة، أنْ عليه ثانية أن يبايع (أوديناتن). ولأن (گاش) قد جاء إلى القصر كما هو معروف في توازن القوى كحاكم للمدينة، وكان قد عبّر لهم عن موافقته، فقد صار من واجبه الآن أن يتقدم أمام سيده الجديد وعمره لم يتعدَ الساعات القليلة، من أجل أن يؤدي القسم أمام أعين الجميع. وضعته (تارسيس) على ذراع زنوبيا.

«(فابالاتوس) ملك تدمر، قائد قوات الشرق».

«أشكركم»، قالت زنوبيا بصوت خجول. «أنا أعلم أن ابني وأنا من دون خبرتكم نكون ضائعين. ستكونون المعلم الجيد له عندما يبلغ ما يكفي من العمر، وأسلمه تحت حمايتكم. كلّي أملٌ، أنتم ستكونون حتى ذلك الحين المستشارين لي، وتوجهون خطوات امرأة بلا تجارب. وهكذا سنحمي تدمر كما تستحق».

تنحنح (زابداس)، وشكر بكل إجلال، وأدار وجهه جانباً، فلم يحدث أن نظرت امرأة هكذا في عينيه.

(لونجينوس) راقب المشهد باعتراف، واقترب ليحني رأسه بكل احترام. مدّت إليه يدها، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة. بعد ذلك جاء (گاش). ضمت زنوبيا تلقائياً ذراعيها حول ابنها عندما اقترب منها أخوها. شفتاه اللتان ضمهما بعضهما إلى بعض شكلتا خطاً بارداً، مثل السيف الذي شهره امامها كتعبير عن الإخلاص. غير أن (گاش) كان قد قرر في البداية على أن يتماشى مع ما لا يمكنه تجنبه. (زابداس) أعلن لهم جميعاً أنه مطلوب منهم مساندة زنوبيا في ولاية العهد حتى بلوغ الصبي سن الرشد. ثم

Twitter: @ketab_n

طلب منها أن تتقدم إلى بوابة القصر، إذ يجب أن يراها الشعب.

ذهبت زنوبيا لتغيير ملابسها. اعترضت (زيمة) صارخة بالشكوى أن عليهم ألا يتركوها تذهب مع كل الرجال الغرباء، فهذا منافٍ للأصول. تمنت لو أنها ماتت، قبل أن تعيش لحظة انتهاك الشرف. صرخت وهددت وتمسكت برداء ابنتها التي ابتعدت عنها غير مكترثة لها: «لا تجعلي منكِ مسخرة، أماه». أمسكت بذراع (لونجينوس)، وذهبت من دون أن تقول شيئاً آخر إلى الخارج. لقد كانت (أومة) هي التي اقترحت على (زيمة) أن تأتي معها. كل فتاة يمكنها أن تخرج برفقة أمها. برقة سحبت المرأة المضطربة معها بعيداً.

اشتدّت وطأة الحرّ عليهم، عندما انطلقوا إلى الخارج، حيث الفضاء، وتركوا مرمر القصر الأبيض اللماع خلفهم. مرّوا وهم يتصببون عرقاً عبر طوق البوابة الذي امتد إلى الرواق الصغير. عندما وقفوا في الأعلى على سلم البوابة كادت تنحبس أنفاسهم حين فاجأتهم الجموع من الشوارع وتسارعت ضربات قلوبهم. وجه (گاش) الكالح نفسه انشرح. مدّ حنكه ووقف إلى جانب أخته. وقفت زنوبيا فاتحة ما بين قدميها عريضاً، وأمرت بأن يُجلب لها (فابالاتوس)، ثم رفعته عالياً أمام الشعب. لكنه كان اسمها وليس اسم ابنها الذي انطلق من حناجر مئات المتجمهرين إليها، اسمها السوري القديم، وقد رنَّ بين الأعمدة واخترق صداه الممرات بين الجدران.

«بات زاباي! بات زاباي»! هتف الناس.

«بات زاباي»! تمتم (لونجينوس) متأثراً، وأومأ (زابداس). وتراجع (گاش) إلى ظل البوابة. أحلام زنوبيا ارتفعت بنشوة. رأت نفسها ترتفع عالياً فوق كل الرؤوس، وكانت يداها مخالب نسر ذهبية تمسكت بالسماء. كل أحلامها تحققت.

نداءٌ حاد انطلق من حنجرتها، وشعرت الريح تلامس ناصيتها، وكأن شيئاً كأزيز مرّ بها. انهارت (زيمة) من خلفها بصمت والسهم في صدرها، فانطلقت صرخة بين الجموع.

فوق سطح البيت المقابل حاول (فورودوس)، وهو يلعن غضبه، أن

Twitter: @ketab_n

يشدّ سهماً ثانياً بالوتر. البارتي الكئيب زعيم الفرسان أراد أن يثأر لسيده، لكن رمحاً من الحراس أصابه وانهار متأوهاً، بعدها أمسكته الجماهير ومزقت جسده.

«بات زاباي» ترددت في انتصار جديد، فنشرت زنوبيا ذراعيها مرة أخرى لتريهم أنها لم تُصب.

«أنا أعيش»، هتفت فوق رؤوس الجموع، وتردد الصدى «أنا أعيش».

من بين أعمدة الممرات. «أنا أعيش من أجل مدينتي». تهليل الناس قاطعها.

«مدينتي التي من أجلها أبذل ما في وسعي. لكن ليس من طريق الحرب». هنا كان عليها أن ترفع صوتها أكثر مرة أخرى. لأن ضجيج الفرح كان هائلاً، حتى أدرك الناس أن حملة الحرب على أرمينيا لن تقع. «طريق القوافل هو طريقنا، سنسلكها ونحميها أيضاً. هكذا نفكر في أنفسنا. ثم بعد ذلك نفكر بروما». هنا ارتفعت أصوات عدوانية، بعض الهتافات انطلقت عالياً ولم تكن مفهومة. لكن زنوبيا واصلت:

«سنعطي روما إلى أهلها، بضرائبها وعملتها». أهل تدمر حيّوا فرحاً وحماسة، وأخذتهم النشوة التي كان يمكن أن تبقى لأيام. سيعيدون مستقبلاً نقود روما التي لا قيمة لها، ويحتفظون ببضائعها القيمة: سوف تقام الاحتفالات هذه الليلة في كل الحانات. رفعت زنوبيا للمرة الأخيرة ذراعيها قبل أن تنسحب إلى الظل البارد. لقد قذفتهم بما يكفي. وأسرع (زابداس) مرتاحاً إلى بقايا (فورودس). تأملها (لونجينوس) بمزيد من فخر ورقة، وكأنه أراد أن يقول «تلميذتي»: ثم ذهب ليأمر بإبعاد جثة (زيمة). واهتمت (أومة) بالطفل. هكذا وقفت للحظة وحدها حتى ظهر (گاش) فجأة:

«لقد دبرتِ هذا بذكاء أيتها المتآمرة الصغيرة»، همس لها بغضب في أذنها، «قتلتِ زوجكِ و(نيسا) وجعلتِ الرجل العجوز خاتماً في إصبعكِ، ومنعتِ الغوغاء. أما أنا فلن تتخلصي مني بهذه السرعة». وانصرف بخطوات غاضبة. نظرت زنوبيا خلفه وفجأة ألمَّ بها ألمٌ في رأسها. ظنت أنه النبيذ، وأسندت جبينها إلى الحجر البارد لأعمدة البوابة. بالتأكيد إنه النبيذ. ابتلعت

Twitter: @ketab_n

بعض دمعات. ثم نفضت رأسها إلى الوراء بتحدٍ. وعلى المرمر المتوهج في الخـارج ما زالـت تتردد أصوات الهتاف «بات زابـاي! بات زاباي»! الأبيض يلائمنـي، (أودو)، وهكـذا فعلـتُ عنـد دفن زوجـي وابن زوجي، شـخصية رائعـة. لـم أفزع حتى قليلاً، حيـن رحلت إلى برج القبر البـارد، وفيه ترددت أغانـي الكهنـة. وقفـت منتصبة بيـن دخان البخـور المتصاعـد ورددتُ على النظـرة الميتة للوجهين المرمريين، وكان الغرض منهمـا تذكير العالم الباقي بـ(أوديناتـوس) و(حيرانـس). أعليّ أن أقول لك إنها لا تشـبه المتوفين؟ من تطلـع مـرة في غروب قبـر (أوديناتـوس) في الوجـه المتحجر لهـذا الحاكم النبيل، له أن يتذكر كلماتي بأنه كان خنزيراً قذراً عبث في القاذورات.

عندمـا حملوا أمي وزوجـة أبي الثانية إلى البرج لم أكـن هناك، ما زلتُ أرى ياسمين راقدة في البركة وقد انعكس وجهها الشاحب في الماء الأخضر، وشـعرها الذي كانت تسبح معه الأسماك، ظهر كأنه مخالب من نحاس. منذ ذلـك الحين صارت لكل بركة عيون، كانـت تراقبني بصمت وانتباه. لـم يكن ذلـك ذنباً. لكننا لا ننسـى (أودو). كان يجب عليـكَ أن تكون هنا، عندي، أنا أعمـل، أنا أعمل ليل نهـار. لكن الأمر كان كأنه نشـوة، أن تُرى المدينة وهي تحيا من خلالي. بعدما ثبّتت تدمر إبني الصغير وريثاً لأبيه، أخذته أمامي على سـرج الحصان، وأريته القوات العسـكرية. كل الأراضي المستوية قبل تدمر بدت مليئة بالفرسان. عندما رفعت (فابالاتوس) عالياً، ضربوا بدروعهم بقوة دوّى صوتها في السـماء، وكانوا يصيحون اسـمي: (بات زاباي)! فيطير كأنه عقـابٌ فوق البيـداء. (بات زاباي)، (أودو)، هذا أنا، زنوبيا، وكنت لسـنوات طويلة في أتم سـعادة. كل ما حدث، بالنسبة إليّ، قد طواه النسيان الآن، لكن هنا، وفي هذه الغابة الصغيرة، فسحة لذكريات آمنة.

أنت لا تسـمع، لكن النحل طنَّ في عطر الخُزامى. إنه الضجيج الوحيد كأنه حفيف الهواء نفسه، دافئ بين الأشجار مليء بمشاعل مشبعة بالعسل.

Twitter: @ketab_n

3

الدولة

الضيعة

اعتدل (لوسيوس كورنيليوس (بويتا) في قامته بحذر عندما اقترب مدير أعماله (ليرتس) وأبلغه وصول النبيلة (إيليا دروسيلا). ربما كانت الشكوى من الألم الذي سمح به العبد لنفسه إرجاعها إلى آلام الظهر، التي غالباً ما أزعجت المستشار في أعمال البستان، والتي لم تفارقه منذ إقامته في الجو القاسي في هلفتين.

لم يبخل (بويتا) في رعاية حبيبته الأجنبية لهذا السبب. البستان الذي عُزل بسياج من أجلها عند الجدار الجنوبي لموقع عصّارة النبيذ، كان مكان إقامته المفضل في الضيعة. نمت هنا وتحت رعايته شجيرات وزهور كثيرة، لم تكن مألوفة في إيطاليا. رغم عدم وجود نباتات نافعة بينها كرّس لها المستشار كثيراً من وقته وبحث تناغمها مع نوع التربة وكمية الماء ودرجة الحرارة ومواسم نموها وازدهارها. ثم أمر سكرتيره لتسجيل هذه المعلومات، وهذا بدوره لخصها وأضاف هذه الدراسات إلى سجل بلينيوس في التاريخ الطبيعي. أعطاه المعزقة ومجرفة يدوية ونفض الطين عن ركبتيه. بنظرة أسف ودّع نبتة الخطمي المزدهرة وكان منشغلاً بها. صديق من الخارج سمع عن حبه للنباتات الأجنبية فأهداه شجيرة جميلة من سوريا، أشرقت بلون بنفسجي من أسفل كأس الزهرة السميك الأصفر.

Twitter: @ketab_n

بجوار الزهرة الهلفيتية ذات البياض النادر، كذكرى لخدمته العسكرية، وقد وطّنها بجهد كبير في حديقة حجرية، كانت نبتة الخطمي مفخرة خاصة. اختلفت عن الخباز المصري، وقاومت شتاء إيطاليا القاسي، ولم تكن في حاجة إلى نقلها إلى أصيص في قاعة مفتوحة.

تعلق (بويتا) بكل هذه النوادر الغريبة وبشغف لم يتوقعه منه أحد، ولم يعرف سوى أنه المستشار اليقظ المتحفظ؛ هذا ما ألهمه ميلاً إلى ما هو خارج على المألوف، وقد كان مفاجئاً تماماً، لو لم يكن له اسم الشهرة (بويتا) الذي اعتمد أعلى مراتب الفضيلة لغير النبلاء... ألهمه ميلاً نحو كتابة الشعر سراً. لكن القصائد الشعرية التي كانت تُتلى ضمن دائرة الأصدقاء، تناولت حياة الريف السعيدة، بتقاليد الروم الجيدة، ممزوجة بجمل تعليمية مقفاة عن زراعة الكروم وتربية الدواجن. لم يكن ثمة ما يكشف عن تميُّز خاص أو ولع غير مألوف، أكثر مما في شكوى الرعاة والحوريات، ممن غيّروا الغابة الصغيرة من خلال وقع أقدامهم وشعر فرجيل.

«أعطه مزيداً من الماء، لكن شيئاً فشيئاً، لا يصح أن يبقى الماء بين الجذور، أتسمع؟»، قال وما زال موجهاً كلامه إلى (ليرتس)، الذي رد عليه بتأكيده أن التعليمات الخاصة براحة ضيفته قد تم تنفيذها.

اتجه (بويتا) إلى البيت وتأوه مرة أخرى، معترفاً بالذنب، مصطحباً آلام الظهر، غير أن (ليرتس) المولود كعبد في هذه الضيعة، لمح وجهه المتضايق ليس بسبب الروماتيزم. إذ كان لوصول (إيليا دروسيلا) هذا التأثير في سيده. حاول أحياناً أن يتذكر بلا جدوى من أدخل هذه الأرملة الثرية في دائرتهم، غير أن حق بقائها بعد هذه الأشهر الكثيرة أصبح غير مطروح للمناقشة. كان يُنظر إليها بين أصدقائه كامرأة مثقفة وذات عقل راجح. لو استطاع فقط أن يخفض من الاشتباه الذي راوده من أنها فكّرت في إنهاء فترة الترمل إلى جانبه. تذكر بشيء من الخوف ذلك الثقب الذي فتحه في خزانته لشراء المستعجل للضيعة المجاورة. لكن عندما ابتدأت (دروسيلا) تتحدث بانبهار عن هواء الريف، وأن الوريث المالك الشرعي لم يشأ استلام هذه «البقعة الجذابة»، بدا كل شيء أفضل من التهديد بالنزول هناك. والآن صار

Twitter: @ketab_n

يربـي فـي الأرض دواجن من نوعيـات متميزة لموائد الحفـلات في المدينة بربـح كبيـر، حتى تحول هذا في صالحـه. لم يجد (بويتا) نفســه محقاً في أن يضمر لـ(دروسيلا) أي سوء، ورغم ذلك فقد تمنى لو لم يذهب إلى هناك.

فوق جبال برنيسـتر القريبة تجمعت غيوم ببياض صافٍ، وكانت السماء تدعو المرء إلى أن يضيع فيها. غمر (بويتا) شعور غير معقول بالسعادة، حين نظر إلى شـجرة سـرو باسـقة رشـيقة خضراء ارتفعت في هذه الزرقة التي لا نهاية لها. ما زالت في الشـمس قوة كافية لـتـنـزلَ دافئة على كتفيه، فرفع إليها وجهه شاكراً.

رفع (بويتا) قبعته القش فوق رأسه أثناء المشي، وناولها الآن إلى حارس البـاب، أثناء دخولـه فكر بنظرة الرجل الحزينة بربتة تنبيه على كتفه. لا شـك كانت هنا.

«كلا، سـوف لا أقيد حارس الباب»، زمجر أثناء دخوله غرفة الضيوف، حيـث كانت (دروسـيلا) في انتظاره. تمتم بصـوت منخفض. لكن لا بد أنها سـمعته. كانـت في تلك اللحظة مشـغولة بإعطاء الأوامر لعبديـن كي يحرّكا بعـض الأثـاث، وبنظـرة اعتـراف بالذنب إلى سـيدهم تـركا الباب وأسـرعا إلـى خـارج الغرفة. رفعـت (إيليـا) رأسـها بحركة حـادة، إلا أنهـا تذكرت، أعـادت مـن دون أن يلحـظ أحد تمثـالاً برونزياً إلـى مكانه، وبحثـت له عن مكان جديد وابتسمت.

«لا أحد يعرفني جيداً مثلكم، أيها المستشـار» قالت له «لم أعرف أنكم رجـلٌ بمبـادئ، وكان علـيّ أن ألومَ رقة قلبكـم. غير أنكم تنظـرون إليّ الآن نظرة اتهام..». وتركت الجملة تنتهي بإشارة مازحة بأصابع مرفوعة: تريد أن تلمح كيف كان يسـتمتع بالخصام الصغير القديـم بين كليهما. حياها (بويتا) بأدب وقدّم لها مكاناً. نظر بشـجاعة في شـمس الأصيل وأيدها في أن وضع الأثاث الآن مناسب أكثر من قبل. حيَّت الخريف الدافئ استثناءً. وناقش هو الآفـاق المبشـرة بنوعية النبيذ الجديد، بينما أنصتت بـكل أدب إلى مضيفها. لكن نظرتها المنخفضة قليلاً مرت وثبتت فجأة عند الجارية الشابة المنتظرة، وهي تعد لها فواكه. من دون مقدمات قاطعها (بويتا):

Twitter: @ketab_n

«حسبما سمعت قد سمحتم بزواج (ليرتس). أنتم تعلمون ما هو رأيي في هذا، كريمة أكثر من اللازم مع الجاريات. إنها مسألة ضعف لا اقتصادية».

«في هذا الخصوص تقول تجاربي غير هذا أيتها العزيزة (دروسيلا)»، أجاب (بويتا) بعدم ارتياح. (ليرتس) ناظر رائع يستحق الزواج. أنا أعرف المرأة التي وضع عينه عليها، وصيفة من إدارة بيت عمي (أوريليوس بلاتوس). المفروض أنها مجتهدة جداً؛ بودي أن أشتريها». لهجته كشفت لـ(دروسيلا) بوضوح، أنه لا يرغب في متابعة هذه الموضوع، بينما وجهت هي الحديث نحو ملاحظة ناقدة عن أنها امرأة يائسه، لا تفهم شيئاً أكثر من معاملتها لعبيدها بحسب المبادئ الشريفة للنبيل (كاتو). ربما كان همها الكبير أن «طبيعتها الصريحة التلقائية» كما وصفتها، أدت في الغالب إلى «سوء فهم» كانت تود تجنبه بين الأصدقاء الطيبين. إذ من يقدر الصداقة الحقيقية أكثر منها؟

ثمّة أصوات كثيرة أكدت لها، أن لا أحد بوسعه لفّ الرباط الروحي أرق منها. (إيليا دروسيلا) وكذلك (بويتا) كان عليهما الاعتراف بأنهما كانا في بعض الأحيان ضعيفين غير أنهما أصبحا أكثر حذراً. حين أومأ برأسه مؤيداً كجواب فقط، لم تكن راضية بهذا الانتصار، وداعبت بلا رغبة حبات العنب.

«والآن ربما تستطيعون أن تحققوا بالأطفال ربحاً جيداً»، واصلت، «لكنها مسألة مختلفة مع العبيد، ليس لديهم مشاركة روحية، كما كانت الحال مع السيد المحترم (أفلوطين) حين حاولت إخباره بذلك. إنهم جسمٌ ليس إلا، و «سوما سيما» كما تعلمون: الجسم هو قبر الروح. هذا ماسبق أن قاله أفلاطون». وتوقفت وهي تفكر. «رغم أن (أفلوطين) تفوّق بالطبع كثيراً على أفلاطون بحسب رأيي، بشكل دقيق وبسمو، وكل هذا بتواضع. أعندكم حبات عنب أكثر؟».

أمر (بويتا) بالمزيد، واستمرت وهي تمضغ: «لقد كان واحداً من المفكرين الكبار في عصرنا. تصيبني قشعريرة حقيقية حين أفكر في أنني

Twitter: @ketab_n

كنت أنا التي سُمح لها بإيوائه في أيامه الأخيرة. إنها معجزة فعلاً. «لم يكن الأمر مثيراً للعجب، لو فكّر في أمر ما أصاب الرجل العجوز بعد السكتة القلبية الثانية، لا أحد في مثل حالته يعترض على عرض (ايليا دروسيلا)».

وهكذا استطاعت منتصرة أمام أعيُن المجتمع الرومي أن تقود غنيمتها إلى بيتها.

«قليلون هم الذين استطاعوا فهم هذا المفكر الكبير مثلي. لقد كنّا في أيامه الأخيرة قريبين جداً إلى بعضنا». قالت بزهو. (بويتا) لم يشكك في أنها لم تتركه دقيقة وحده وطلب مزيجاً من النبيذ والخبز والجبن ليحافظ على تواصل الحديث، الذي لا يمكن تجنبه، في مزاج جيد. أما (دروسيلا) فقد أمرت ببيض ونقانق وزيتون ونبهت الفتاة أن على فستانها بضع بقع، قبل أن ترسلها إلى المطبخ. ثم توجهت ثانية إلى (بويتا) الذي كان غارقاً عميقاً في كرسيه. كانت جالسة مزهوة كالعادة عندما تحدثت في مجتمع عن (أفلوطين)، وغالباً ما كانت تكرر ذلك وبنجاح.

«آخ، الفكر العميق الذي في داخله ويعظ به، لم يجد عند أصدقائنا الروم مكاناً»، تأففت، «أنا أعرف أنكم تعلمون هذا، أنتم الذين تفضلون التحفظ والهدوء المقدس لهذا المكان المبارك على صخب المدينة». لم يجد (بويتا) الرد المناسب. ثم أنصتوا جميعاً في القاعة المفتوحة، فسحب يده منها بهدوء، وكانت وهي الغارقة في فكر المشاركة، قد حاولت تغطيتها برقة.

ثم واصلت: «كم كان شافياً هذا لكل حضارتنا- آه قد أتى الطعام- لو استطاع تحقيق خطته الأخيرة: (سياسة أفلوطين)». هنا توقفت لتبصق نواة زيتونة. «كم تمنيت لو وقفت إلى جانبه في هذا». أومض ضوءٌ في عينيها عندما تحدثت عن بناء هذه المدينة الفلسفية. ضوء لا يمكن لأحد تفسيره بشكل صحيح، إلّا من عرف أن إمكانياتها الهائلة حصلت عليها من تجارة الآجر.

«للأسف كان الفقر قد أخذ من (أفلوطين) مأخذاً». أسف لها (بويتا) من باب الشعور بالإدانة.

Twitter: @ketab_n

«أوه، أجل، مؤسـف حقاً». أكدت (دروسيلا) هذا بلا تردد، ولم يخطر لهـا حتـى في الأحـلام أن تمـوّل هذا المشـروع بنفسـها، «لكني دبـرت لهم ممولين. لو لم يكن قد مات بهذه السـرعة. صلصة السـمك لذيذة». للأسف لم يستفد العقد الخاص بتشييد مدينة كاملة من حسن ضيافة الصداقة شيئاً.

لكن كمعجبة بـ(أفلوطين) حصلت على موطئ قدم في دوائر المجتمع الراقية، وحققت لها ارتباطاتها من بين ما حققت تكليفاً بإكمال سـور المدينة الروميـة، (بويتـا) أنصت كالعـادة إلى خبر (دروسـيلا) المؤثر عـن آخر أيام (أفلوطيـن) وبدأت بالتفكيـر لوضع خطة لقطف الكـروم، المفروض لها أن تبدأ في الأسابيع المقبلة.

صمتـت لبرهـة، حيـن لاحـظ الهـدوء فـي القاعة. لـم يسـتطع مع كل حسـن النيـة أن يتذكـر، ما الـذي قالته أخيـراً وبحث يائسـاً عن أيـة ملاحظة تخلّصه من الحرج.

أثناء ذلك اكتشـف لأول مرة عبداً شـاباً بدا أن (دروسـيلا) جلبته معها. جلـس بوجه حزيـن علـى الأرض واسـتند إلى الحائـط المرمـري الأخضر الملاصق لشـعر رأسـه الذهبي المتجعد بتناغم مع صور الحصاد المنقوشة. لبس رداءً غريباً متعدد الثنايا بلون وردي بطراز إغريقي، لم يبد عليه، أنه كان مرتاحاً فيه، بهذا القدر اسـتطاع أن يقول (بويتا) شـيئاً في صالحه. على ركبته استقرت ليرة مذهبة كأنها منسية.

«ألا يستطيع عازفكم أن يعزف لنا شيئاً؟»، استثمر (بويتا) شاكراً المبادرة التي وفرتها نظرته الحائرة. وأشار إلى الولد بحنكه. وقد بدا له الآن شاباً إلى درجـة لم يعد ممكنـاً له أن يبقى في هيئتـه الطفولية. شـعره الطويل والعينان الزرقاوان الكبيرتان جعلته في تأمله يتوهم أنه في الحقيقة أمام رجل شاب.

«أوه، الآلة ليسـت سـوى أشـكال مصطنعة»، كان جواب (دروسـيلا). «اردتُ أن أسـاعده في تعلم العزف، لكن لا أمـل في ذلك. وهو يبدو كذلك جميـل المنظر جداً لهذا،ألا تجدون ذلك أيضاً؟ كأنه جني صغير. تمنيت لو أن (أفلوطين) قد تعرف إليه، يبدو لي أنه تجسيد للعمق الروحي».

«لكن» اعترض (بويتا)، الذي كان يكره الغموض، «ألم تقولوا قبل ذلك

Twitter: @ketab_n

بأنفسكم، أن العبيد ليس لهم صلة بهذه الروح الأبدية؟».

غير أن (دروسيلا) لم تدع هذا يمر: «الروح التي لا تموت»، صححت.

ثم استمرت: «إنه صورة، أقول، صورة الروح، مثلما يمكن أن يكون التمثال. أرأيتم عينيه الحزينتين بروعة؟ كأنهما بركتان، بكتهما آلهة بدموع مالحة، إذا سمحتم لي بهذه الصورة الميثولوجية. وأكثر من هذا، مثل نظرة الروح التي تضيع في دورات عجلة متكررة أبدية».

خمّن (بويتا) أن الحزن الظاهر على العبد ربما سيتضاءل من خلال ملابس أخرى وعمل محترم. فكر قليلاً في شراء هذا المسكين، لكنها بدت مفتونة به، ما رفع ثمنه بشكل لا يُقاس. وفكر مع نفسه للحظة، في أنني لا أستطيع أن أشغله في حديقتي.

«هل يستطيع فهمنا؟»، سأل بدلاً من ذلك.

«لا أدري». هزت كتفيها ومدت يديها لتتناول قطعة خبز جديدة. «وهل هذا مهم؟ أنا لست بجماليون، لا أشترط أن يتكلم. إنه غوطي، ذلك الذي اشتريته من النخاس الإغريقي، وبحسب قوله إنه ينتمي إلى أحد أسواق قراصنة البحر شرقي البحر المتوسط، وهكذا فهو من المقاطعات الآسيوية».

تخوف مقبول مرّ بخاطرها أثناء هذه التصورات. «آخ، آسيا، عالم كبار المتصوفة! (أفلاطين) العالم المحترم، كان متشوقاً دائماً لينهل من مصادر الحكمة التي لا تنضب في الشرق. لو كان استطاع أن يضع قدميه على تلك الارض!». رفعت عينيها إلى السقف. امتعض داخلياً، شوقه إلى الشرق كان بسبب نباتاته وليس في أية حال بسبب أية أوهام متخبطة أو تصورات لمعتقدات تافهة، والتي استوردت منها روما أكثر مما يكفي. فلسفة (أفلاطين) بدت له دائماً كوسيلة تهدئة شعبية لأرامل هيمن عليهنَّ القلق. وهذه التمائم واللفافات السرية بدت له مقززة. رأى أن يقترح القيام بجولة، من أجل أن يسحبها بأسلوب راقٍ ثانية، لتكون قريباً من هودجها حين أضافت:

Twitter: @ketab_n

«والآن تقبع القطة اللعينة هناك، تلك العاهر السورية وتستلقي بشبق».
تحدثت بغضب. أنصت إليها عدد من الأصوات من مجلس المستشارين، تحدثوا بشكل مقارب عن الملكة التدمرية. وعلى ذلك بدا أن ما فكر فيه المستشارون في أعماقهم هو الحصول على تأييد كبير، والآن ليس بمقدورهم أكثر من التفكير في أعماقهم من أجل تعويض عجزهم لسياسي لم يستطع أن يشتكي، كتب شعراً. ما أثار دهشته، كان فقط السمو بالروح الذي لم يؤدّ إلى أكثر من أوهام تافهة.

حتى صبي (دروسيلا)، معشوقها احمرّ وجهه عندما سمع بالجرائم التي اقترفتها ولية العهد السورية مثل قتل الأم والأب والزوج واتصالات محرّمة لا توصَف مع الحيوانات، سردتها (دروسيلا) بلا حرج، ممارسة طقوس سرية في كافة المعابد على وإلى جوار وتحت حجر المذبح. شعوذة، خيانة وأكل لحوم البشر. استغرب (بويتا) إلى أية سمعة قذرة يمكن أن تصل بنفسها امرأة، عَرِفت ما كانت تريد.

كان معروفاً للجميع أنها وحدها التي خانت (فاليريان) عند الفرس فأخذوه أسيراً. نفثت هذا بغضب: «أنا أحسب لها الآن». أجاب (بويتا) بهدوء: « لم تكن تتجاوز الثانية عشرة من العمر في ذلك الحين».

«أوه، لا بد أنكم تعلمون سرعة نضوج هذه الآسيويات. فوق ذلك فقد كانت بالتأكيد تكذب في الكشف عن عمرها مثل كل النساء»، نظرته المهتمة، التي وجهها جعلتها تنتبه كي لا تتجاوز اللياقة، فأدارت الحديث:

«يقال إنها طلبت من (شابور) جلد (فاليريان). كان لها تعويذات سحرية رسمتها في أحد المعابد، وتُعرض لغاية اليوم. حتى ابنه (جالينوس) جعلته مجنوناً. لا عجب، فهو نسي أباه وأخذ يعلق الطقوس الإغريقية السرية، وصار يتجول بملابس نسائية». امتعاضها ضاعف شهيتها للطعام، وأشّر (بويتا) طالباً طبقاً آخر ببيض وصلصة سمك.

«أما قيصرنا الجديد فبالتأكيد لا تستطيع أن تسحره»، أدار الحديث مشوشاً.

«أنا أشك في أن لديه روحاً في الأصل، ليس سوى عضلات وعقلٍ

Twitter: @ketab_n

رياضي». تأسف لهذا الخروج فوراً. لم يكن ينصح بأن يوثق بأفكار شخصٍ مثل (دروسيلا). وواصل بسرعة: «والأرياف تعرف، أننا في حاجة إلى رجل قوي». وهذا ما اتفق وقناعته الثابتة. (جالين) سقط من المملكة وخسر الشرف، وعصابات الغوطيين عبثوا بشمال إيطاليا. ومن كان يعلم كم سيتوغلون. في هذه الحال كان الضباط الذين وصلوا، الواحد منهم بعد الآخر إلى عرش القيصر، رجال اليوم، مشحونين بالطاقة وبالتصميم. لو استطاعوا فقط البقاء لفترة أطول في التدافع على السلطة؛ غير أنه كان ينقصهم في معظم الأحوال السلطة للحصول على موقع سياسي مهم. لقد هزّ التبديل السريع استقرار الامبراطورية فعلياً. كان (بويتا) محافظاً، لكن ليس متكبراً. لذا كان حذراً من مواجهة القيصر الحالي، ولم يشترك بالدسيسة التي دبرها المستشارون ضده. قانونه الروحي الخاص به لم يكن ذلك الذي تحتاج إليه روما. كان يهمه رعاية ضيعته، وأن لا يقف في طريق عقلانية المستشارية، إذا ما أخطأت مرة هناك، وحرص على ما يستحق الحرص وأكثر، من أجل زمن بعد هذا الزمن. أفكار (دروسيلا) ذهبت في اتجاه آخر.

«أتمنى لو تؤخذ هذه الفتاة المتهتكة في عرض نصرٍ، عبر الشوارع المقدسة. تستحق أن تصلب علناً. أو ماذا كنتم ستصنعون لو كنتم مكانه؟».

«ربما الزواج». نظرت (دروسيلا) إليه كأنها شكّكت في إدراكه.

«وقد تتزوجونها؟»، كررت غير مصدقة.

«ما الذي يقرّب السلام في الشرق؟»، رجع (بويتا) بسؤال، لكنها لم تكترث له.

«زواج، هذه العاهر السيئة الصيت، التي قتلت زوجها؟ كل رجل ذو شرف يفضّل لو هوى على سيفٍ بدلاً من السقوط في مستنقع عارها، حتى لا يصيبه ضرر في روحه. وحده التفكير في هذا العار الذي مارسته تلك الأعضاء البيضاء. الأفضل لها أن تمارس طقوسها مع الكلاب السائبة»! وتسارعت أنفاسها.

(بويتا) توقف عن أي تعليق. بدا هذا كله له كأوهام مبالغ بها، غير أنه لم يخطر في باله، ما الذي دفعه للدفاع عن السورية المجهولة، التي سببت

Twitter: @ketab_n

امتعاضـه من (دروسـيلا). ماذا عرف عنها سـوى أنها كما بـدت، ولـيّة عهدٍ غاية في الحنكة؟ جمالٌ جلَّ عن الوصف، ابتذال شديد. كانت هذه أوصاف، لا بـد منهـا في رؤوس الـروم، عن ملكة من بلاد الشـرق. تذكر بشـكل عابر نبـات الخطمـي؛ أكان ممكنـاً أن تكون مثل هـذه النوعية موجـودة في أروقة القصر في تدمر؟ نظرة شـوق من الشـباك أرته مزارع الكروم فقط التي كانت راقدة في الأبخرة الذهبية بعد الظهر. سيأمر غداً بالشروع في الحصاد.

بعدما انصرفت (دروسـيلا)، كان هو في حاجة إلى جولة تمشّ طويلة. ولـم يعـد منها قبـل الظـلام، حين لامـس الهـواء البـارد سـاقيه، وصدحت الموسـيقى من مهجع العبيد إليه. كان (ليرتس) في انتظاره بين الأثاث الذي أعيـد إلـى مكانه القديـم، ونبيذ متبل، وبعض الحسـابات التي اسـتعرضوها سـوية، ثم عاد إلى غرفة نومه وأمر بإحضار قرطاسـية. (بويتا) غمس الريشـة وبدأ كتابة رسـالة إلى صديقه في سـوريا. شـكره على نبتة الخطمي وأضاف ملاحظات شخصية عن حياته وختم الرسالة:

«كان عنـدي حلـم قبل بضع ليالٍ، وما زال حتى الآن ماثلاً بوضوح أمام عيني. نمت في بسـتاني، الذي زينته هديتكَ بشـكل جميل، وكنت أعمل في الشـمس وعلى رأسـي قبعة القش. هنا جاءت فتاة شـابة ماشـية إلـيَّ. ومعها أسـد إلـى جانبها. هتفت باسـمة وبقيـت واقفة أمامي. لا أسـتطيع أن أنسـى وجهها. كان جميلاً ونادراً محاطاً بدزينات من خصل الشعر المنكوش. سُرة طفـلٍ محاطة بأوعية وشـرايين ملتفة. أيها الصديق أشـعر بوضوح أن صورة الحلـم هـذه ذات معنى لي. منذ ذلك اليوم وأنـا أريد أن أعرف أية واحدة من آلهتنـا يمكـن أن تظهر بهذا الشـكل ولماذا لي؟ إذا كانت دراسـتكَ قد تفسـر لـك شـيئاً عن طفـل مع أسـد فأخبرني عن ذلـك. تحياتي لـك وتمنياتي لك ولمن يخصكَ بالخير».

Twitter: @ketab_n

مصالح حكومية

نصل السيف لمع فضياً عندما هفا في الهواء نازلاً على زنوبيا. تلقفته بسلاحها الخاص، ابتعدت خطوة عن منطقة الخطر. وصدّت الضربة التالية بمهارة. «جيد!» زبيدا، ابن عم من عائلة أمها، وضابط في أركان (زابداس)، كرر الهجوم من جديد، مهتماً على الدوام باستخدام قوته بحسب المطلوب، ويصد عند الضرورة القضيب بسرعة أمام الملكة ويوقفه. ليس من غير المحتمل أنه قد يجرحها فعلاً. كانت ردة فعلها سريعة كالبرق وأبعدت سيفه إلى جانب، وبدأت بقوة ضربة هجومية بعدها. صدّها وتراجع إلى موقع الخروج.

ما فاجأه أنها وجدت في المسألة متعة، في هذه الأثناء لم يصدق أن ما سمعه صحيح، عندما أمره (زابداس) قبل عدة شهور لإعطاء الملكة درساً في المبارزة. كانت هذه رغبتها. كان قد نظر إلى الجنرال العجوز بذهول.

«بحق كل الآلهة، لمَ هذا؟ نحن لها في الدفاع عنها». وجه (زابداس) المكفهر كشف بما كفى، كيف نظر إلى هذا الشاب. «أمر الملكة»، أجاب باختصار «إذاً أعمل ما تريد لأني أريد أن أنصرف أخيراً إلى أشياء أخرى».

منذ ذلك الحين أعطى الضابط زنوبيا بانتظام ساعات في الرمي والمبارزة، وكان في كل مرة مندهشاً كيف أن شخصاً بهذه الرقة أمكنه السيطرة على السيف لوقت أطول. لقد أثبتت أنها تلميذة أحسنت التعلمَ، وسرعان ما فهمت، كيف أحسنت استخدام قوة جسمها الأضعف، من خلال الخفة والمهارة وسرعة الحركة.

وعلى هذا بالضبط استندت التقنية والحيَل التي علمها، مثل استثمار قوة ضربة الخصم لصالحها، لتجعله يهفو في فراغ.

Twitter: @ketab_n

«أضربي بقوة أشد»، شجعها زبيدا. «أنا في النهاية لستُ جسماً من طين»، في الدقائق التالية كان لديها فرص كافية لتندم على كلماتها. فقط عند استخدام كامل التركيز استطاعت مقاومة ضربات القضيب التي انهالت عليها. القرار تحدد. عندما قام زبيدا بخطوة فراغ وحدد موقعاً غير مغطى من جانبها، أدارت زنوبيا نفسها وظفرت بالنصلِ في اللحظة الأخيرة، لكنها وقفت بشكل غير موفق، فلم توقفه بشكل فعال. انزلق سيفها عند الجد، كانت تعرف أن في هذا نهايتها.

«كان عليكم أن تتراجعوا إلى الوراء وتضربوا من اليسار إلى الأسفل»، قال أحدهم خلفها. زنوبيا لمحت زبيدا متسائلة:

«ألم يكن هذا صوت فيلسوفنا النبيل؟».

«يبدو كذلك تماماً»، اكد هو. استدارت بعناية وببطء.

«منذ متى تعرفون شيئاً عن المبارزة، (لونجينوس)؟».

«إنه منطقي، أيتها الأميرة»، أوضح بشكل عابر «ذراعكم توجد بهذا في زاوية أنسب، وبناءً على تأثير الضربة..». وضعت بحركة سريعة ذؤابة السيف على صدره. «الحذر صديقي، أنتم تلعبون بحياتكم».

دفع نصل السيف باسترخاء بلفّة الكتابة التي مسكها بيده، وكأنه طرد ذبابة.

«المستشار الرومي بعث لكم هذا الكتاب». زنوبيا ألقت السيف بتنهد على المنضدة. «شكراً زبيدا، كفاية لهذا اليوم». أخذت قطعة قماش ومسحت وجهها. «اقرأوا لي رجاءً، كلا، انتظروا، لخصوا لي فقط النقاط الجوهرية. يمر وقت طويل حتى يأتي السادة في مثل هذه الكتب الرسمية إلى الموضوع».

أخذوا طريقهم إلى غرف العمل، بينما فتح (لونجينوس) الكتاب وأخبرها عن رغبة المستشار:

«لقد تناهى إلى أسماع الآباء الحكماء، أنكم أمرتم منذ بعض الوقت بإقامة سياج محصن حول تدمر...».

«اسمعوا، اسمعوا»، سيطرت زنوبيا على سرعتها لتلائم سرعته.

Twitter: @ketab_n

(لونجينوس) لم يغير مطلقاً من خطواته المحسوبة، ما منح عرجته نوعاً من الهيبة.

«... أسلوب غير مقبول، ذلك الذي سمعوا عنه بدهشة واستغراب. انتم مطالبون، أن تشرحوا لهم أسباب تصرفكم هذا الكَيفي. إنهم يأمرونكم بإيقاف أعمال البناء فوراً، وبهدم المقاطع المكتملة».

«أتظنون فعلاً أن لهم أن يأمروني بشيء؟».

«ثانياً: مسألة الضرائب. هم يطالبون مرة أخرى أن تدفع تدمر الضرائب بالمقايضة، كما كان الحال معتاداً من قبل».

أطلقت زنوبيا نفخة استخفاف. «يمكنكم أن ..».

«أسلوبكم في التعبير ينقصه الكثير. ثالثاً: أنتم تعترضون على التجاوزات المفروضة على أهل روما من قبل ومن بعد في هذه النقطة أعطيكم الحق».

«آخ، أما انكم مهتمون بحفنة من جنود حراسة الروم».

«يوجد كذلك عدد من المدنيين هنا، وأجد من المعيب أنهم لا يكادون يجرأون على الخروج إلى الشارع». لم يحدثها مطلقاً أنه نفسه- مر على هذا زمنٌ منذ أيام (نيسا)- في إحدى المرات كاد يسقط صريع غضب الشعب. اشتبه فيه الناس بسبب غرابة شكله ولون بشرته ووجهه الحليق الأملس، على أنه من سكان روما. إذ لم يلبس الجلباب الخارجي وإنما كان بملابس الإغريق، لكن الاهتمام بهذه الأشياء الدقيقة نُظِر إليه كمطلب جائر أرهق هؤلاء المظلومين. ولكونه فلت بجلده بسلام، يرجع الفضل في ذلكَ إلى عدد من المفكرين العقلاء الذين عرفوا أنه معلم الملكة.

«في الحقيقة إن هذا واجب حرس المدينة، الذين عليهم الاهتمام بالهدوء والنظام».

«أنتم لا تقصدون(گاش) بالتأكيد؟ سأتطرق إليه لاحقاً، كلا، في هذه المسألة أنتم الذين يجب أن تقولوا كلاماً واضحاً. إذا كان المعترضون التدمريون يستمعون إلى أحد فهم يستمعون إليكم».

«هذا صحيح (لونجينوس)، سأتولى أنا الأمر.أما ما يتعلق بالنقطتين الباقيتين فسنوضح ذلك للمستشارية. أنتم تنجزون هذا أليس كذلك؟- بكل

Twitter: @ketab_n

أدب ولكن بسخرية رقيقة- هذا ما تحسنون استخدامه». أدارت له وجهها، وحاولت دراسة سيمياه التي لا تُخترق. «وماذا لدى مصادرنا غير الرسمية من أخبار عن روما؟». رفع (لونجينوس) أنفه الطويل الرقيق الشكل. «ليست سوى أشياء لا تدل على ذوق. أتريدين سماعها فعلاً؟».

«إليّ بها! لا تكونوا دائماً رقيقين، (لونجينوس)».

«تفضلي، يعتبرونكِ مخلوقاً فظيعاً، متعطشة للدماء ومتآمرة. إذا لم تنشغلي بأمور السياسة تمارسون انحرافات لا توصف وهلم جرا».

«أيّ انحرافات هذه، واصل الكلام».

«أنا لا أعرف فعلاً، ما الذي عليّ أن أفهمه من فضولكَ غير المناسب. المقصود أنكم على سبيل المثال تستمتعون كل ليلة مع رجل جديد، وتأمرون بقتله في اليوم التالي».

زنوبيا كانت متأثرة: «إثارة مهمة، عليّ أن أمعن التفكير فيها».

«حصيلة الكلام أنها صورة لائقة». ختم (لونجينوس) غير مبالٍ.

«أليس كذلك؟ حين يفكر المرء في أني لم يمضِ على حكمي سنة واحدة، وقد وصل الأمر بي إلى مثل هذه السمعة الجميلة». بدت كأنها راضية جداً عن نفسها. في هذه الأثناء وصلا إلى غرفة العمل وأمرت زنوبيا إحدى الخادمات لتساعدها في نزع الدرع الذي طوق جذعها. وتنفست بارتياح، ثم رمت نفسها في الأريكة.

«عندي عطش فظيع، اجلبي لي الشاي، عايشة». فركت ذراعها اليمنى من أعلى والكتفين. «مرهقة»، اعترفت.

«إنه ذنبكِ»، أجاب (لونجينوس) من دون تعاطف. «ما الغرض من عمل هذا أيضاً؟».

«الضربة المميتة الأولى، كانت بلا ذوق، ضربة بمصباح. الضربة الثانية أريد أن أجعلها أنيقة».

«هذا مفهوم» أومأ، لكن للأسف كان من المستحيل إخراج (لونجينوس) عن توازنه.

«كلا، بجد، أريد بكل بساطة أن أتعلم كل شيء مهم. ليس لأني ناوية

Twitter: @ketab_n

أصلاً أن أقحم نفسي في معركة مثل بنتزيليا». غمزت أثناء العرض. «أريد فقط أن أطور شعوري من ناحية السلاح. ومن يعلم. ربما يتبين يوماً ما أنه كان نافعاً». صوتها اكتسب نغمة ساخرة. «وفي الختام لا بد لحاكمة مستبدة من الشرق أن تحتسب دائماً أنها قد تُقتل. ماذا أردتم أن تقولوا عن أخي (گاش)؟».

«لأنكم تمتنعون دائماً عن استقباله- ملاحظة عابرة وتحت ذرائعَ مكشوفة- لقد كان طيباً معي إلى درجة أنه تحدث إليَّ. بالمناسبة يبدو لي أنه يظن بكل جد أني هنا صاحب القول- وهذا ما أجده مضحكاً. الظاهر أنه لا يستطيع أن يستوعب أن امرأة تستطيع أن تحكم بنفسها فعلاً».

«أجل، قابليته على الاستيعاب كانت دائماً تحت مستوى التطور. أليس لديكم مشاكل في حكم امرأة، (لونجينوس)؟».

«ما يهمني هو فقط ما الذي في رأس المرء، ولديكم الكثير منه وتكونون فوق كل ذلك امرأة، هذا لم يثر انتباهي تماماً بعد». هكذا، الآن عرفت. زنوبيا لم تحرك هدباً، رغم أنها كانت تشتاط غضباً من الداخل. إنسان لا يطاق! استطاع ثانية كالعادة دائماً أن يجرحها.

«ماذا يريد (گاش)؟»، سألت بخشونة.

«كثر الناس تحت إمرته. إنه يدّعي أن جماهير تدمر قد زاد عددهم كثيراً في السنوات الأخيرة، حتى أن فرقته لم تعد تكفي؛ يحتاج بإلحاح إلى تقوية». زنوبيا قطبت جبينها. «هذا ما لا يعجبني أبداً. يبدو كأنه يريد إنشاء جيش صغير خاص».

«انتم لا تمنحون أخاكم بالذات ثقة كبيرة». تبين (لونجينوس).

«ملاحظة صحيحة جداً، أيها المعلم المبجّل، ثقتي به كثقتي بأفعى تقريباً».

«إنه شرفٌ لكم أنكم لم تلجأوا إلى حل حتى الآن».

«تقصد قتله؟ أتنصحونني بذلكَ؟»

«بالطبع لا! ما دمتم لم تستطيعوا أن تثبتوا عليه أي فعل خيانة، فستكونون ...». بدا أن (لونجينوس) أراد الشروع بخطاب حماسي عن ظلم الطغاة.

Twitter: @ketab_n

أشـارت زنوبيا لـه بالتوقف. «جيد جداً، أنا أعلم دائمـاً الحفاظ على التعقُّل. من ناحيتي، فليحصل حتى على التقوية التي يريدها؛ أنا لا أريد منحه أي مبرر يشـعره بأنه يُعامَـل بظلم ليدبر خططاً ظلامية. (زابداس) سـينتبه كيف يدخل إليه الرجال الصحيحون. عنده سـوى ذلك ناسه الخاصون بالحراسة، الذين يراقبون كل ما يجري. ثمة شيء آخر؟».

«أجل، هنا مسـودة الإصلاح الضريبـي». وضع (لونجينوس) مزيداً من الأوراق أمامها.

«آه، جميـل جداً». التقطتهـا وبعد دقائق لم يكن التحـدث إليها ممكناً. بينمـا كانت تقـرأ. أدار (لونجينوس) الشـاي في كوبه، وغرق فـي التأمل في ذلك السـائل الذهبـي الغامق ذي العطر الأخّـاذ، وقد أنزلت عليـه كل حِكَم العالم. ما منعه على الأقل من أن يحملق في سـيقانها التي مدتها بكل راحة، ولـم تكترث إلى أتكها القصير الذي اعتادت أن تلبسـه أثناء التمرين، وهو لا يغطّـي في هذه اللحظة شـيئاً، لـم تلاحظ ذلك أصلاً. متوحشـة صغيرة، ذكر بانزعاج، أفلا يتوقف هذا؟

كان منـذ بعـض الوقت قد اتخـذ قـراراً أن يتخلص من جنون الشـغف هـذا، وقـد استسـلم أخيـراً لجنـون الإغـراءات من المحظيـة السـورية التي ذكرتهـا زنوبيـا مرة في الدرس. إغراءات السـيدات كانت في الحقيقة جديرة بالملاحظـة، لكنهـا لم تنفع حتى الآن. لا فرق عنده. سـيواصل التجربة رغم ذلك. على أسـس علمية. غالباً ما سـأل نفسـه، وسأل نفسـه الآن، لماذا كان مفتونـاً بزنوبيـا بهـذا الجنون الذي فـاق كل القياسـات: بهذه الأنثى الغريبة حاميـة الطبع كأنها قطة متوحشـة، لسـانها لاذع، عنيدة ومتعبة بشـكل مفزع. ربما لهذا السـبب بالذات. لم يحدث من قبل أن التقى امرأة لم تثره جسـدياً، ليـس مهمـاً، المهـم أن تثيره فكرياً. ولـم يحدث أن استمتع مـن قبل بمبارزة بالكلمات تقطع الأنفاس.

لكن بـدا أنهما من عالمين مختلفين. بالمقارنـة بها صار عارفاً بوضوح أنـه كان نتـاج قرون عديدة من المدنية، تغذت بدرجة رئيسـية من مكتسـبات عصور سالفة. بينما هي -قوية وصعبة المراس- بدت كأنها تجسد المستقبل.

Twitter: @ketab_n

تأمل يديه النحيفتين الحساستين، التي أمسكت كوب الشاي محيطة به، وكان يفكر في الحقيقة التي لا تُنكر، وهي أن التاريخ العريق لبلاد الإغريق مضى بعيداً، وأن روما أيضاً قد قاربت نهايتها، ماذا سيأتي؟ هذه القبائل العربية هنا، أم غيرها؟ تذكر القبائل الجرمانية، وكاد يضحك.

«رائع، (لونجينوس)»، انتزعته زنوبيا من تأملاته الحضارية الفلسفية. «رغم أنه لا يصح أن أقول لكم ذلك، أنتم حقيقة مغروروون بما يكفي».

«كلا، كلا» أجاب بتواضع، «أنا فقط تناولت أفكاركم».

«لقد كانت حتى الآن غامضة. أنتم من طوروها ووضعتموها في نظام محسوب». أعادت القطع المكتوبة إلى المنضدة وأدارت لنفسها الشاي. «بودّي أن أعبر لكم عن شكري وأبرهن لكم عن ذلك بشكل أوضح. ألديكم أية رغبة؟ اترغبون في بيت للنقاهة؟ أم تساهمون في مشاريع للدولة؟ أم ترغبون في أن أهيل عليكم الذهب؟».

حاول (لونجينوس) تصور كيف كانت ستهيل الذهب عليه، ووجد المسألة منعشة.

«لا أريد إهانتكم، لكن كل هذا لا يهمني في شيء...».

«فيلسوف رائع»! كنت أستطيع أن أقسمَ أن النقود في هذا الوقت بالتأكيد مرحّب بها. ويتحدث الناس أن لديكم ما يشغلكم أوقات الفراغ وبثمن باهظ. أم أنها تعمل معكم في الحقيقة مجاناً؟».

أغلق (لونجينوس) بالمزلاج فوراً. «لا يهمكم هذا مطلقاً».

«وكذلك فالأمر سيّان عندي»، أعادت الإجابة، «اقضوها مع من تريدون، لايهمني - ما دمتم بسبب ذلك لا تقصرون في واجباتكم!»، رفع (لونجينوس) يده مؤكداً: «مطلقاً»، أكد لها بلهجة ذات صبغة ساخرة. ثم نهض واتخذ وقفة خطيب على منبر رومي. «خدمة الدولة هي رغبتي الوحيدة»، هتف متخيلاً نفسه يتكلم أمام اجتماع شعبي بإشارات مهيبة، وجلس ثانية.

صفقت له زنوبيا ضاحكة، «هذا رائع».

«ما زال لديَّ شيءٌ لكم»، واصل الكلام بلهجة اعتيادية.

Twitter: @ketab_n

«همْمْمْ، سأكون اليوم مدللة».

«فتح لفة ورق كبيرة، بيّن أنها خارطة لمدينة تدمر. «سور المدينة جاهز في مقطع آخر. يمتد في هذه الأثناء من هنا»، وضع إصبعه على نقطة شمال شرق المدينة، «حتى هنا»، وسحب خطاً، امتدَّ في قوس واسع إلى الجنوب. حنى كلاهما، هو وهي، رأسيهما فوق الأوراق وتبيّنت أن تدمر صارت حياً محاطاً بمواقع حصينة.

«لا بد أن أطّلع على هذا. نذهب إلى هناك، أجل؟».

(لونجينوس) فرك حنكه وهو يفكر. «ربما عليكم قبل هذا تبديل ملابسكم»، نظرت زنوبيا مستأنسة إلى نفسها. «أكانت هذه تهمة؟ في سبارطة القديمة كانت النساء يشاركنَ في التمرينات العسكرية في تنانير قصيرة جداً».

«أهالي اسبارطة كانت لهم من وجهة نظر البعض أعراف غريبة».

«... تحدث الأثيني وهز رأسه الحكيم مندهشاً. بينما في أثينا اعتاد الرجال حجز زوجاتهم في البيت، من أجل أن يحتفلوا هم بطقوس بنات الهوى»، تكلمت بسرعة لئلا تعطيه فرصة ليسأل منتقداً عن خلفية الطقوس. «بمناسبة الاحتفال: لا تنسوا وليمة توديع (فيرموس) مساء اليوم»، بانزعاج لاحظت تعبير عدم ارتياح ارتسم على وجه (لونجينوس).

«أخشى أني للأسف لا أستطيع».

«أخشى ألا تكونوا كذلك، يا صديقي. سوف تأتون وتكونون لطيفين مع (فيرموس). أمرٌ ملكي»!

«سوف يعاود الحديث أنكِ يجب أن تستولي على مصر. لم أعد أستطع سماع ذلك».

«كثيرون يؤيدون هذا».

«ممكنٌ. لكن اقتراحات (فيرموس) تُستخدم لمنافع ذاتية. في أي حال، يجب أن ندقق هذا بعمق قبل أن نسمح لأنفسنا بالتورط».

«لهذا السبب أنتم إلى جانبي. إذا أمكن أن تعذرني، إذ يجب عليَّ أن أرتدي شيئاً لائقاً». كان وقع ضحكتها الساخرة قد رنَّ في أذنه إلى أن غادرت القاعة.

Twitter: @ketab_n

مطرٌ في روما

فـوق عاصمة أمبراطوريـة الروم تجمعت غيوم ماطرة سـوداء، مخيمة، مدفوعـة برياح سـريعة، انسـحبت فوق المنتـدى. الريح نفسـها بعثت هبّات باردة أخلت الناس من الشـوارع. بدلاً من حياة المطر الحثيثة، يشـاهد المرء فقط مستشـارين متأخرين أسـرعوا إلـى مدخل المركـز البابوي. وقـد لفـوّا الطيات المرفرفة لملابسـهم البيضاء اللماعة حول أجسـامهم، أما سـيقانهم فتركوها عارية عرضة للجو البارد.

توقـُّع هطـول مطر شـديد بعد قليل ألهب حماسـتهم في الإسـراع إلى الجلسـة الجارية. لكـن حتى في الداخل كاد الجو لا يكـون أكثر قبولاً. وفي الأمزجة الملتهبة، ارتفعت كذلك عاصفة.

تطلـع ديسـيميوس بومبونيـوس (بالبوس) بوجـه كئيب إلـى الضجيج الـذي اكتسـح المستشـارية. استند إلـى قاعـدة تمثـال برونـزي مَثَّـل الذئبة الروميـة، كيـف أرضعت (روميلوس) و(ريموس)، ومسـح بأصابعه خنجراً فـوق مقعد أحد الصبيين مقابله، مع بعض الميلان نحو منصة الخطيب، بذل المستشـار الشـاب (فيربيريوس) جهداً في تلك اللحظة بـلا جدوى، ليلفتَ أنظار سـامعيه من ذوي المناصب العليا، من أجل كسبهم في أحداث الشرق الأدنـى. من بيـن الهتافات المؤيدة والمسـتهجنة من صفوف الجالسـين إلى اليسـار، اسـتنتج (بالبـوس) أن (فيربيريـوس) كان متورطـاً فـي فضيحة بناء داخل المدينة، ما جعل ظهوره السياسـي فـي عيون عدد من زملائه غير لائق كثيـراً، وأبعـد الانتباه بشـدة بشـكل عـام عن تدمر. فـي أي حال فـإن صورة (فيربيريـوس) يبدو أنها اهتزت في عيون عدد من المستشـارين، بينما انطلق الآخـرون في صراخ بأعلى أصواتهم مسـاندين لشـعارات أيّدت المستشـار

Twitter: @ketab_n

الشـاب ذا الوجه الصقيل. كانت الحماسـة شاملة. لم يشك (بالبوس) في أنه سـيخرج من فضيحة البناء بربح جيد، غير أن سياسـة الشرق كانت مهددة في هذه الفوضى بالانهيار. عدد من المستشـارين الثانويين سحب بعضهم بعضاً حتى من ملابسـهم، وهددوا بالهجوم علـى الآخرين، لكنهم نُصحوا من قبل أعضاء قياديين لحل خلافاتهم في الخارج. تركوا القاعة غاضبين، وتنعم من أنذرهم، وقد انضم إليهم حسـبما ظهـر، ليلعب دور القاضي. فقد (بالبوس) الرغبـة، وأدار وجهه ثانية إلـى (فيربيريوس). الديـكان المتحاربان لم يكونا الوحيدَين اللذين ذهبا. ثم سـاد بشكل عام تحول مدهش في الهيئة الموقرة، ليس مدهشـاً جداً إذا ما فكر المرء، في أن الاجتماع اسـتمر خمس سـاعات بـلا توقـف. المتحدث قبل (فيربيريـوس) وحده عبّر عن وجهـة نظره بكلمة استغرقت ساعتين ونصف الساعة.

إذا فهمه (بالبوس) بشكل صحيح، وجد حقيقة أن الولايات في الشرق مـن رومـا ربما اسـتطاعت أن تكون مسـتقلة تحت قيادة تدمـر أو تهديداتها، فهذا بكل بسـاطة مثير للامتعاض وأنهـا إهانة لعظمة روما. غير أن (بالبوس) وجّه إلـى (رومولوس) - أم إلى (ريموس)؟- ضربة خفيفة ختامية وتثاءب. زوج مـن النقانق شـيء ليس رديئـاً الآن، قبله كان (فيربيريـوس) فتح وأغلق فمه من دون أن يسـتطيع أحد سـماع كلمة واحدة مما قاله، بسـبب الضجيج الـذي مـلأ القاعـة، عـدا مقاطـع مـن جُمـل قالهـا وصلـت إلـى (بالبوس) «...حركـة وطنية... مؤثـرات معادية لرومـا ... إرهاب ... أمـن مواطنينا». اسـتطاع فهمهـا. «انتهـازي»! انطلـق صـراخ مـن اليسـار. كان هـذا كافيـاً لـ(بالبوس): لقد كان مبعوثاً عسـكرياً خاصاً للقيصر إلى الشـرق، لم يكن يا للعنة قد سرق في زمانه.

بتعمد شـهر سيفه وضرب بهمة عالية تمثال الذئبة البرونزي الفارغ، رن صوتٌ مدهشٌ حسن الإيقاع «دنغو»، بصوتٍ عالٍ طال لفترة. لقد رأى كيف ارتفعـت حناجر الجالسـين قريباً، حيـن حاولوا تخفيف الضغـط عن آذانهم ببلع ريقهم. توقف الضجيج. «... المملكة لا شـك في خطر، إذ تفقد أجزاء مهمـة مـن الولايات الشـرقية»، هدد فجأة صـوت (فيربيريـوس) بهدوء غير

Twitter: @ketab_n

متوقع. «سادتي»، استغل فترة الصمت هذه بمهارة من أجل مخرج مشرف. «أشكركم على انتباهكم». بابتسامة خبيثة أدّى انحناءة قصيرة ومشى خلف (بالبوس) إلى الخارج. فارتفعت فوضى الأصوات من جديد.

بقي (بالبوس) واقفاً في الخارج بين الأعمدة؛ هطل المطر غزيراً ورمادياً في تلك الأثناء، وتحولت الشوارع المبلطة إلى جداول يعلوها الزبد. داخل طوق (سبتيموس)، في الجهة المقابلة، تزاحمت مجموعة متفرقة من المارّة ارتجفوا من البرد. لم تبعث واجهة المرمر الأبيض الرائع اليوم أي شعاع ضوءٍ، وقد صارت رطبة مليئة بالبقع تحت سماء الخريف. البرد القارس أوحى لـ(بالبوس) بشيء من الخوف. تذكّر فجأة وبجزع جو سوريا، وبيداء الحجر المتربة للسهول حول تدمر الراقدة بخجل تحت سماء زرقاء بلا رحمة، وريح الصحراء هبّت كأنها نَفَس لاهب. لكن ذلك لم يجدِ نفعاً، اهتز مرتجفاً مرة أخرى، رفع المعطف إلى رأسه وانطلق، بحيث تناثر ماء البركِ تحته. ابتلعه جدار المطر، وعندما وصل بعد بضع مئات من الأمتار إلى المراحيض، كان منقوعاً في الماء حتى جلده. عصر (بالبوس) مرتجفاً معطفه الصوفي، وتقدم إلى النافورة وسط قاعة صغيرة، لقضاء حاجته، وغسل ساقيه من الأطيان التي علقت بها، قبل أن يفتش له عن مكان جلوس. بينما كان ينظر لمح في زاوية عينه أن واحدة من كابينات المراحيض مشغولة. هناك تربع الآن الرجل الذي كان قبل ذلك قد فض النزاع بين الديكين اللذين كانا متلاحمَين في المجلس. كان فارع الطول، رشيقاً، شعره الأسود تسللت إليه أولى الخيوط الفضية. العينان الغامقتان الكبيرتان في عالم جاد صارم بدتا حزينتَين، لكن هذا ربما كان سببه عُسر هضم. كل واحدة من يديه استقرت على واحدة من الدلفينات المذهبة التي زينت الجدران الصغيرة بين أركان الجلوس، تربعت في ارتفاع الصدر. الآن أشاح برأسه. كلا، تبيَّن (بالبوس) أنه لم يعرف الرجل.

أومأ برأسه قليلاً إلى الجانب الآخر محيياً، وبحث في الركن الأيسر إلى جانب الرجل. انسحبت اليد التي كانت فوق الدلفين الذي فصل بينهما بهدوء. لفترة لم يُسمع هناك غير نفس (بالبوس) المضغوط. «آه»، افتتح هو

Twitter: @ketab_n

أخيراً المحادثة. «هذا ما أسـميه حياة»، اشـار بحنكه إلى الرسـوم المبالغ بها تحت السـقف التي عرضت(نيمفن) و(سـاترن) في نزهة. ذهبٌ تحت الطيز والآلهـة تـراكَ وأنـت تخرى. هـذه روما! وتنهـد بتلـذذ. لم يأتِ مـن الركن المجاور أيُّ صوت.

«إنه مغاير لما في سـوريا»، ثم واصل: «ليـس أكثر من ثقب في الأرض والصحراء الخالية تحيط بالمرء. تفسد عليه كل شيء، يمكن أن أقول لكم».

بعد فترة أمكن رغم ذلك تحريك الجار للكلام:

«لا بـد أن هـذا»، تردد قصيـر، «كان ملائماً جداً. ووحيـداً هكذا». أخذ الكلمـة الرئيسـة فوراً وحرك مقعده اسـتعداداً لمسـامرة لطيفة. «هـاه، مريحٌ عندما تدور العقارب حول أصابع قدمي أحد، سـامّةٌ جداً تلك المخلوقات. وعلـى المرء أن يكـون دائماً على أهبة الاسـتعداد لئلا يظهـر أحد من خلف الكثبان الرملية، من هؤلاء البدو الرُحّل القذرين، ويغرز سكينة في الحنجرة. هل كنتم في سوريا؟»

نفّ جاره.

«منطقـة مهـددة بالاحتـراق»، واصـل (بالبـوس)، «أنـا مطلع هنـا، لقد عرفـتُ الملكـة الحاليـة منذ كانـت طفلـة، خبيثة لئيمـة، تلعب مـع الصبيان فـي الشـارع، كان أفضـل لي لو كنت قد دققـت عنقها، عندمـا كانت الفرصة مواتيـة. الآن تسـبب لنـا القلاقل، فكّـروا في كلماتـي! هنا ينفـع فقط تدخل حاسم وقلب قاسٍ.

مرتزقـة إلى الأمـام تحركوا، ثم بعدئذٍ فـي الأكوام والرمـاد قد تعرفون الملكة زنوبيا؟». مسامره نفّ ثانية بصمت، هازاً رأسه.

«هـي تبـدو»، وبعينيـن مقطبتيـن تطلـع (بالبـوس) إلـى حوريـة فوقه: «تقريبـاً مثل هذه هنا، انظروا، الرقيقة قرب جذع الشـجرة المبتورة، هي أكثر سـماراً، ليسـت جميلة في الحقيقة.. أتفهمون؟ بشـرتها غامضـة والحاجبان كأنهمـا نميـا سـوية... لكـن أيها الرجـل أية عينين! قـوام جيد عنـد الذين لا يحبـون البدينـة، وشـعر يمكن أن يضفـر منه المرء حبـلاً متيناً كـذراع». كوَّر قبضة يده ورفع إبطه. «وبهذا سـوف أسـحلها في شوارع روما، هنا يمكن أن

Twitter: @ketab_n

تراهنوا بطيزكم على هذا».

أومأ الرجل في الجوار برأسه فقط، أو أخذته إغفاءة فتدلى رأسه على صدره؟ لم يعد (بالبوس) يكترث بهذا. وبهمة جديدة قفز من الحوض، ورتب ملابسه بينما ردَّد أنشودة عسكرية أرفقها بصفير. بقي جاره جالساً بوجه يعاني من البواسير. تقدم (بالبوس) مجدداً إلى النافورة وغسل يديه.

«هذه روما»، كرر مرة أخرى قبل الوداع، مختصراً الأجواء المحيطة، تاركاً محدثه في القاعة وصدى خطاه وحده تتردد فيها. (لوسيوس)، (كورنيليوس)، تأوه. أحشاؤه كانت متحجرة. مثل هؤلاء الرجال يحكمون اليوم حبيبتنا روما، فكّر فزعاً: ألم يقل أبوه دوماً هذه الجملة؟ وكيف كان يكره هذا القول الأبدي، ومثل هؤلاء الرجال يحكمون روما، هذه ولولة. «لا تعش دائماً في الماضي فقط»! كان يرددها أبوه دائماً، الآن ها هو نفسه يرددها. وهل بلغ من العمر هذا الحد؟

يائساً نظر إلى ساقيه العاريتين تحت الفانيلا المكفوفة إلى أعلى. بدتا له أنهما ما زالتا صلبتين، من دون شرايين زرقاء، الجلد على العضلات الصلبة لم يترهل. مسح عليهما مدققاً، وعاد بالذكرى إلى سيقان أبيه النحيفة الصفراء الكهلة. كلا، ما زال أمامه وقت طويل للوصول إلى هذا الحد. غير أن آلام الروماتزم لامست في مثل هذا اليوم كل عظامه.

بحزن نظر (بويتا) إلى الخارج في المطر الذي تطافر من عتبة الباب، وتطاير إلى ارتفاع الركبتَين. هذه كانت روما. قرر تلقائياً أن يرحل في هذا المساء إلى ضيعته على أمل أن يستطيع أن يرتاح في جبال برنيستر هو وأحشاؤه المتحجرة.

نظرته الأخيرة وجّهها إلى الحورية الرقيقة بجانب الجذع المقطوع، بدت فخورة ورغم ذلك محرجة أنْ وقفت إلى جانب زميلاتها وحولها أمواج من الشعر، أحاطت بها كاللوامس. تشبه قليلاً وجهه الحالم بالفتاة والأسد. ظن (بويتا)، أن تلك المسكينة حين تذكر تهديدات الضابط الغريب، لم تتنبأ مطلقاً بما كان في انتظارها.

Twitter: @ketab_n

احتفال من أجل الاسكندرية

استوحى (فيرموس) قاعة الاحتفال التي كان يجب أن تكون فيها الوليمة. بكلمة أدق تبين مندهشاً أنها كانت عبارة عن إيوان على السطح. لم يعجب زنوبيا الطراز الأمبراطوري الرومي، الذي أعطاه (أوديناتوس) الأفضلية عند بناء القصر، وتجنبت القاعات المتعددة، والبالغة التزويق قدر المستطاع. كانت للإيوان كذلك مساحات شاسعة، لكنها قُسِّمت بواسطة أحواض المياه والمزروعات الكثيفة إلى أركان سهُل الاطلاع عليها، وامتازت بالألفة والعاطفة.

كانت هناك كالعادة مظلات هائلة منصوبة في عرض النهار للحماية من الحرارة المحرقة، كما حجبت الآن زوايا الجلوس، وفيها السجاد ووسائد منجدة وأخرى عادية وموائد برونزية منقوشة ومنخفضة المستوى.

كل شيء ذكّره بخيام البدو، وكذلك الضيوف الذين حضروا، وكان معظمهم في ملابس عربية. من بين هرج الأصوات المحيطة به استطاع (فيرموس) أن يميز أصواتاً أرمنية وإغريقية وفارسية، ولم تكن بينهم لاتينية. تدمر قد تغيرت بوضوح، صارت أقرب إلى الشرقية، وهكذا أمكن القول إنها أكثر جاذبية، وتلوناً وحيوية. عجت المدينة هنا بالحيوية وعقلية المبادرة بالمشاريع، كأنها تشجعت أكثر من قبل الملكة الشابة المليئة بالنشاط والحركة والمبادرات.

كان لزنوبيا أسلوب خاص، كما تبين (فيرموس) بارتياح، فهي أمرت بمرافقته إلى مكان الشرف، فبرهنت على مهارة في التعامل مع السلطة، والظاهر أنها عرفت كيف تكسب أناساً إلى جانبها بلا عناء. استعاد ذكريات سباق الفروسية الذي نظمته قبل أيام: رهانات، سباق، مناورات عسكرية

Twitter: @ketab_n

فروسـية عشـقتها بحرارة، وجوانب من ألعـاب أكروباتيكيـة، ربما كان على المرء أن يمر فيها مع الجواد من بين ساقين. طار الكل فرحاً وحماسة وتأثُراً، كأنهم كان عليهم جميعاً أن يُظهروا أفضل ما عندهم أمام الملكة. حتى أقرب المتعاونين معها جعلته كخاتم في إصبعها، هذا ما تأكد له. والجنرال العجوز الشـرس صـار مسـتعداً للتضحية مـن أجلهـا، وفيلسـوفها، ذلـك الإغريقي المتعجـرف ذو الوجـه الكئيـب، سـلّم لهـا كمـا بدا فـروض الطاعـة. وجد (فيرمـوس) (لونجينـوس) هذا غير مريح نسـبياً، رغـم أن مبادرته كانت هي التي جلبته إلى بلاط زنوبيا. لا بد من الاعتراف بأنه كان عقلاً لامعاً. لقد تمتع في أثينا بسمعة محترمة، لكنه بسبب ملاحظاته الجارحة كان يخشاه زملاؤه. قدّر زنوبيا كثيراً، وقد كان هذا اعترافاً بقدرتها الفكرية.

أكثـر مـا كان يعجب (فيرموس) فـي الملكة، أنها كانت سـتقبل تجارته بتفهُّـم. في تلك الأثناء اسـتطاع إقناعها إلى حدٍ مـا بأن حملة على مصر ربما كانت في مصلحتها. لـم تكن الفكرة بالنسبة إليها جديدة تماماً. تدمر ستسيطر على مخازن الحبوب، لهذا السبب، وتخزّن موادّ أكثر من أي وقت مضى. أما هو فقد تخلّص أخيراً من حماية الروم. واسـتطاع من الآن فصاعداً أن يصول ويجول في الاسـكندرية مثلمـا كان يحب. عدا احتكار تجـارة الحرير، التي لا شـك في أن زنوبيا كانت سـتوافقه عليه... بابتسامة رضى راقب المشاهد. الظاهر أنه راهن ثانية على الحصان الصحيح.

فـي مـزاج رائق تجوّل حـول حديقة السـطح، وتبادل بضـع كلمات مع معارفـه، وتطلـع حولـهُ بفضول. أضواءٌ سـبحت في حوض المـاء، وحفيف مشـاعل أضاءت المشاهد بأسلوب ساحر، وسـماء النجوم الصافية المهيمنة عليها، أضفت أجواء أسـطورية. أنواع من موسـيقى عربية أتت من مكان ما، بإيقـاع قـوي لأصـوات طبل ولحـن رقيق صافٍ مـن نغمة نـاي: كان اللحن حزيناً غير أنه مهدّئ في الوقت نفسه. تماثيل قليلة كانت هنا، لكن كل واحد منهـا أدى عمـلاً فنياً متميـزاً. مرّ (فيرموس) بخطـاه بالآلهة الباسـمة بارتياح وشعر كأنه واحدٌ منها.

وجد نفسـه في مزاج رائق «عال العال»، حتى كاد يصطدم بتمثال أبيض

Twitter: @ketab_n

لم يعبر عن حركة، وجد نفسه فجأة أمامه.

«أوه، أنتم أصلاء»، لاحظ ببعض الاضطراب. عرض (لونجينوس) إشارة بسمة وحيّاه بكامل الأدب. في هذه اللحظة رنَّ صوت شديد «هاه»، فالتفت الاثنان: وصلت الملكة.

جاءت منتعشة كسفينة تحت أشرعة كاملة. حريرٌ أخضر بلون البحر، والعطور الفواحة من خلفها، وحبائل من لؤلؤ تضافرت مع شعرها الاسود اللماع المائل إلى الزرقة، مشدودة فوق رأسها. نزلت من شعرها جدائل سُمح لها أن تتدلى. قلائد طويلة من لؤلؤ طوقت رقبتها وخصرها. تحركت بخطى واسعة على حديقة السطح محيّية الناس من الجانبين، شعرها وثنيات ردائها قاومت ريح الليل الخفيفة، كأنها علم انتصارٍ مرتفع.

تأوه (فيرموس)، مخلوقٌ رائع! أي فرق عن الجرادة النحيفة التي كان قد تعرف إليها قبل ثلاث سنوات- أو أربع؟- الآن حيث تمكنت أخيراً من التفتح بحرية كاد تأثيرها يكون مخيفاً، إنها قوية ومشرقة. تقدم أمامها وانحنى عميقاً.

«جلالتكم أنتِم مثل الأفروديت، التي انطلقت من أمواج البحرِ. أنا مستسلم تماماً». ضحكت زنوبيا مزهوة: «إذا لم أكن مخطئة فقد كان ما لبسته أقل بكثير أو؟». قادها إلى المكان حيث كانت (كليليا) في مكانها. نظرة (لونجينوس) توقفت قليلاً عند الظهر العريض المغطى بالأرجوان الاسكندراني، ثم انضم إليهم. زنوبيا تحدثت من دون تكلف مع ضيفها.

«هل أعجبكم احتفالنا؟»، دار (فيرموس) وكأس النبيذ بين أصابعه، وهو غارق في أفكاره: «إنه ساحرٌ جداً، ربما بسيط... بعض الشيء. عندما تأتون إلى الاسكندرية، سوف أريكم كيف يقام مثل هذا الحفل بأسلوب جديد تماماً».

رغم أنها لم تنظر إليه، عرفت زنوبيا أن (لونجينوس) أرسل نظرة معبرة إلى سماء النجوم.

«بالمناسبة لقد جلبت لكم معي هدية وداع صغيرة»، واصل (فيرموس) وأعطى إشارة إلى أحد الخدم، بعد ذلك بفترة قصيرة ظهر عبدان حملا خزانة

Twitter: @ketab_n

من خشب الأرز مرصعة بالبرونز ومزينة بنقوش كثيرة. كانت مملوءة إلى فوق بلفافات ورقية مكتوبة. مقابضها كانت من العاج المائل إلى الأصفر، وقد اكتسب الشمع لوناً غامضاً لقدمه. حروف الكتابة الإغريقية، التي غطتها، كانت بلا شك مكتوبة قبل مئات السنين.

«ولأني أعرف عشقكم لملفات الكتابة القديمة، فكرت في أن هذه بالتأكيد ستعجبكم. الأمر متعلقٌ بـ«السبعونية»، النسخة الإغريقية للكتاب المقدس عند العبرانيين. وهذه واحدة من أقدم المخطوطات. أسفار موسى الخمسة، تؤكد أنها الأصلية. فهي إذاً تنتمي إلى واحد من اثنين وسبعين عالماً ترجموا النصوص تحت إشراف بطليموس الثاني».

تقدمت زنوبيا لترى محتويات الخزانة. كانت تعرف القصة: الملك المصري كان عنده اثنان وسبعون مترجماً أمرهم بترجمة أسفار موسى الخمسة من العبرية إلى الإغريقية. هكذا حُجِزوا على جزيرة فرعون عند الاسكندرية من دون أي اتصال فيما بينهم. وبعد أن قارن المرء بعد ذلك الترجمات الاثنتين والسبعين بعضها مع البعض الآخر تبين أنها متطابقة حرفياً تماماً.

دسّ (لونجينوس) أنفه أيضاً في الملفات.

«مدهشة» تمتمَ. نظر (فيرموس) إلى الاثنين بتأثُّر. بأي شيء يمكن للمرء حقاً أن يفرح الناس.

وجّهت زنوبيا وجهها المشرق إليه. «هذا مدهش جداً. أشكركم (فيرموس)». نظر إليها بخبث. «دائماً في خدمتكم، سرني أنها أعجبتكم».

«أريد كذلك أن أهديك شيئاً للوداع». لوّحت إلى عبدٍ. اختفى فوراً وعاد ومعه مشهد جميل. نظر (فيرموس) متعجباً في وجه غريب ومتميز بعينين -لم يرَ مثلهما قط- سوداوين بميلان نادر ومستحيل سبر غورهما. كان للمشهد تأثير رقيق، كأنه لعبة من العاج مكتملة النقش. ومع هذا ظهرت فيها صلابة الحديد.

«ما هذا؟» همس بكل إجلال.

«فتاة من بلاد سيرر، جُلبت من قبل تجار الرقيق عبر آسيا إلى هنا، من

Twitter: @ketab_n

قافلة إلى أخرى، اسمها (ينليان)، وهذا يعني بلغة البلد وردة الذهب».

«أتت من حيث يُنتج الحرير»، فكّر، «ملائمة للغاية، هل تتكلم الإغريقية؟».

غمز (فيرموس) بعينيه. «أنا دائماً طيب مع النساء يا حمامتي الصغيرة. أتريدون معرفة المزيد؟»، رمشت زنوبيا بعينيها ثانية: «ليس ضرورياً. أنا أصدق أيضاً هذا».

«جلالتكم»، شكرها بامتنان بالغ، ثم أمر بإشارة من إصبعه خادمه: «ضع لي هذه الهدية الثمينة في غرفتي واقرأ كل رغباتها من عينيها الرائعتين».

منذ تلك اللحظة صار المساء تدريجاً أكثر ودية ورطوبة. قبل كل شيء طلب (فيرموس) النبيذ. شرب باستمتاع، لكن ليس كثيراً، فقد اعتاد أن يخفي. من رآه حسب أنه أمام رجل سكير، فهم الحياة واستمتع بشكل رائع. وقد فعل (فيرموس) هذا على الاقل.

بلا خجل تغازل مع زنوبيا. ضحكوا، هزلوا وبالغوا في اللهو. الطيّتان بين حاجبي (لونجينوس) تعمقتا أثناء ذلك. انحنى نحو زنوبيا وهمس لها في أذنها:

«جلالتكم، يظهر أنكم تستمتعون اليوم متعة ملوكية. تحبون بالتأكيد أن يتمرغ فمكم بالعسل؟».

«إن هذا مقبول كتغيير»، ردت عليه بصوت منخفض، «أنتم لا تقدمون إلا الخل ملطخاً على الوجه».

«لماذا ينظر إليكم فيلسوفكم بصرامة هكذا؟»، أراد (فيرموس) أن يعرف. «يجعل المرء خائفاً»، رمت زنوبيا (لونجينوس) بنظرة ساخرة. «لا تقلق فهو بشكل عام ليس خطراً»، همست في أذن ضيفها بألفة. «فقط لو سُمح للمرء أن يقترف غلطة قواعدية، فسيكون عندها قاذفاً للبرق مثل زيوس».

انتبه (فيرموس) جيداً إلى الممر القريب، وهو يفكر، هناك شيء يُحمل: فطيرة محشوة بلحم حمام طري.

«الفلاسفة الإغريق كلهم مجانين»، صرح بتعمق، «أفلاطون، على سبيل

Twitter: @ketab_n

المثـال، لـم يضحك طوال حياته مـرة واحدة. ديوجينوس قتل نفسـه بحبس الهـواء في داخله. أمبيذوكلس اعتقد أنه إلٰـه فقفز في أيتنا*. وفيثاغورس كان بالطبع قد أصابه الجنون. جنونه الأقل ضرر كان مع الفاصوليا. في المناسـبة أنا أيضاً لا أحب الفاصوليا». واهتز جسـمه. «إنها تسـبب غازات مكروهة»، ثـم انكب بشـهية مباركة على طبقه. «ليـس رديئاً»، وهو يمضـغ، وأتبع ذلك بجرعـة كبيرة من كأسـه. نهـض من مقعده فلمـح (كليليـا)، وكانت في تلك اللحظـة أرادت الابتعاد عنـه. «فأرتي الذهبية، أنتِ أيضاً هنا»، وألصق قبلتَين علـى خدَّيهـا مـن دون أن يكترث لاعتراضهـا. «أنتِ أيضـاً تعجبينني. كلكم تعجبوننـي»، نادى في الموجودين ورفع كأس النبيذ. (كليليا) هربت بسـرعة ديونيـس** من جواره: (فيرمـوس) كان منهمكاً جداً بنوبات ديونيسـية. فلم يلاحـظ غيابهـا. «لكني أحبـكِ أكثر مـن الجميع»، ملتفتـاً إلى زنوبيـا. «أنتِ واحـدة من الآلهة التي تسـكن السـماء؟- هل كان هذا هوميـر» فكّر. «الأمر سيّان... كل النساء أصلاً مؤلّهات»! نادى بحماسة. «وهذا النبيذ أيضاً»! أفرغ الـكأس بجرعة واحدة ووضعه أمام السـاقي: «مزيداً مـن النبيذ!»، ثم جلس على مضجع اسـتراحة زنوبيا، وبدأ يقبـل أصابعها، الواحدة بعد الأخرى. يد (لونجينـوس) قبضـت بثبات على السـكين. ألم تلاحظ، لماذا هذا الإنسـان لجوج ولصيق بها بهذا الشـكل؟ لاحظ بفزع كيف بدأ هدوؤه يفارقه بشـكل خطـر. ابتعـد من هنـا قبل أن يحـدث ما لا يُحمـد عقباه. نهض فجـأة ورمى الاثنين بنظرة ثلجية واختفى.

نظـرت زنوبيا إليه مندهشـة. كانـت ردة فعل (فيرموس) مجرد ابتسـامة رضى. «غيرة» استنتج باستمتاع.

تثاءبـت «أتقصد النكتة؟»، هز رأسـه: «إنه حاد كسـكين حلاقة»، لمس بألفة ذراعها. «صدقي العجوز (فيرموس). إنه لا يجرؤ على ذلك».

«آخ، مـاذا. هو بالذات ليس خجـولاً أبداً». زنوبيا لاحظـت تأثير النبيذ عليها تدريجاً. ما عادت تستطيع أن تميز الحروف وتربطها. «أتدري ماذا قال

*) أيتنا: حسب الاسطورة، بركان في شمال صقليا ارتفعت حممه عالياً آلاف الأمتار.

**) راهبٌ عاش حوالى 579 ق.م.

Twitter: @ketab_n

لي اليوم؟ لم يلاحظ أنني امرأة». وتثاءبت.

«مـاذا؟ أيقـول لـكِ مثل هـذه الأشـياء القبيحـة؟»، أجـاب (فيرموس) بامتعـاض، «الظاهـر أن عليّ أن أقـول له كلمة جادّة. لا يصـح أن يكون أحد لئيمـاً علـى ملكتي الحبيبة». مسـح علـى خدَّيها مواسـياً، ونظر إليهـا بتفكير وإمعان «ينبغي أن يكون لكِ عاشق، يا فتاة. لكن ليس (لونجينوس). إنه ينظّر كثيراً. الفلاسـفة...». زمجر باستهانة: «... يستطيعون أن يتناقشوا فقط حول إيـروس - آلهـة الحب عند الإغريـق - هاه! حول هذا لا يتحـدث المرء دائماً بحب». جمعت زنوبيا الوسائد حولها. «ليس لديّ وقت أصلاً لهذه الأشياء»، تمتمت، وتثاءبت ثانية. «فوق ذلك إنني نعسى..».

تأملهـا (فيرمـوس) بدهشـة. «لا يُعقـل أنكِ سـوف تنامـين، صغيرتي؟ الآن نبدأ بشـكل صحيح. انظري، ذلـك الأزرق الذي هناك. ألا يلائمكِ؟ أو هـذا، هنا، إلى جانبِ تمثـال هيرمس، إنه طراز محبب، أنِـفٌ متميز، أتميلين إلى مثل هذا؟».

التفت إليها ثانية ليجدها فعلاً قد نامت. لقد عملتِ فعلاً أكثر من اللازم، أيتها الطفلة المسكينة. لتأتِ أولاً إلى مصر، فكّر، عندئذٍ سيُريها أفراح الحياة، وأثنـاء ذلك سـيكون قد عوَّدهـا أن تأكل من يده*. التفكيـر بالإمكانيات التي ربما عُرضت عليه لمعت ضوءاً حالماً ظهر في عينيه.

---

*) تأكل من يده: تمتثل لأمره.

Twitter: @ketab_n

بَدو رُحّل

على أراضي تدمر المستوية خيمت غيوم ترابية هائلة في الهواء. استعدت القبائل لرحلتها السنوية إلى مروج الصيف في الجبال الشمالية الغربية. ضج الماعز بالمشاكسة وسيقت الأغنام هنا وهناك بالعصيّ من قبل الرعاة. فتيان حفاة مشوا على رمل الصحراء المتوهج ومشوا حفاة كذلك في البراري، حتى اصطبغت بطون أقدامهم بالأحمر.

قطعان الجمال مشت متوازنة، غامزة بعينيها بشراريب من صوف حمراء تتأرجح على الجنبين، بعض الحيوانات حُمّلت بأواني بيتية مقرقعة. قوارير شاي معدنية اهتزت بإيقاع مع الخطوات، إلى جانبها سيوف وسكاكين. فوقها ارتفعت قضبان الخيم والسجّاد واللبّاد الأسود لنصب الخيم. كل هذا غُطّي بالتراب الأحمر نفسه، وكذلك المالكون. نساءٌ مزينات بكل الزينة التي تكون في أفضل أعياد الدولة مشَينَ هنا، متاعهنَّ على ظهورهنَّ، والأطفال الرضّع أمام صدورهم، ينظرون إلى الليرات الفضية المعلقة المرتجفة التي تزينت بها أمهاتهم السمراوات.

دار المحاربون وهم على ظهور الخيل حول أملاكهم المتحركة. بأغطية حتى الركب، وبكامل أسلحتهم. قطع من القماش لحمايتهم من الشمس رفرفت أمام وجوههم، هتفوا آمرين القطعان وأخذ بعضهم لفترة أحد الأطفال ليجلس على السرج معه. كانوا حراساً وصيادين مع القافلة الراحلة. انطلقوا في مقدمتها إلى مواقع المياه في الطريق، لتأمينها من الحيوانات الضارية. النساء ملأن القرب الجلدية، والأطفال وجّهوا القطعان للشرب.

مع صراخ الرعاة الحاد سُمعت أغنية. في بعض الأحيان، إذا مات

Twitter: @ketab_n

حيوان تُرك خلفهم، أو سقط خروف على ركبتيه منهكاً من العطش، دفع إليهم صبي الحراسة حمله، ورفعه إلى امرأة على سُنام لترضعه. إذا شبع الحيوان أعادته إلى الطفل خلفها ليمسكه. الصقور رافقت الموكب، ونقاط سوداء في الزرقة العالية.

تابعت عيون زنوبيا طيرانها وهي مشتتة الأفكار، عندما نظرت إليهم من حديقة السطح. لم يعد هناك شيء يذكرها بليلة الحفل العاصفة التي نظمها هنا (فيرموس) قبل عدد من الشهور. عدا ابنها (فابالاتوس) و(كليليا) و(تارسيس) الذين لعبوا سوية بهدوء خلفها، عند بركة ماء، واستمتعوا بنفحات ريح دافئة هبت من تحت أشعة الشمس الملونة.

لم تميز زنوبيا سوى سحابة حمراء، تعرقت كبخار في الأفق. لم ترَ كيف غطت القماش وشعور الناس السائرين في الموكب وجلودهم كأنها صدأ النحاس، وبأيّ هدوء ذهب هؤلاء الناس وحيواناتهم، خطوة خطوة، كأنهم راحلون بإيقاع ساروا عليه منذ القدم. لم تستطع رؤية الأسنان البيضاء لامعة، عندما ضحك البدو أو غنّوا، لم يصلها أي صوت منهم إلى حديقة السطح، ولا بوخة الحيوانات. كل شيء كان بعيداً.

لكنها استنشقت الهواء كأنها استطاعت اصطياد عطر. ثم كأنما أحست زنوبيا بحركة. رعشة الأرض التي انطلقت من أقدام الراحلين وحوافر حيواناتهم، هزة قوية انتصبت إثرها بجسمها وقد اشتاقت إلى الخروج لمتابعة أثر الريح. أدارت سوارها الفضي الثقيل، الذي ورثته عن أمها، ببطء عند مفصل رسغها.

منذ كانت طفلة كانت هذه لعبتها المفضلة، إذ عرضت صفاً متتابعاً من أشكال قديمة جداً لا وجه لها، على يديها. مسحت فوق الآثار التي تركتها، ثم تطلعت ثانية إلى الموكب البعيد عند حدود البيداء، حيث مرّ الناس بعضهم ببعض وبحركة دائبة ورحيل مستمر منذ مئات السنين.

لم تستطع أن تدخل في صفوفهم، غير أنها سرعان ما رَغِبَت في الانطلاق لتنضم إلى موكبها الخاص. تسارعت ضربات قلبها، عندما خطر هذا ببالها. لم تكن سترى (فيرموس) قريباً، كلا، وإنما كانت ستنضم إلى

Twitter: @ketab_n

القافلة وهي في طريقها.

اقتربت (كليليا) ونظرت إلى صديقتها من فوق كتفها. ألقت زنوبيا خدها على خدها ووقفتا متساندتين، وتطلعتا عبر الأرض المستوية إلى البدو. لقد سلكوا الطريق الغامض نفسه الذي سلكه أجدادهم من قبل. من عين ماء إلى أخرى، ثم إلى بئر سرية، كان أجدادهم قد اعتنوا بها وسلموها لهم كإرث عزيز، ساقهم الصيف إلى الجبال وفي الشتاء لم يوقفهم شيء حتى يصلوا الصحراء، لا تبعدهم عن طريقهم لا فلاحة ولا حدود. تجذب الرحلة الكبيرة عبر أسوار المدينة أقاربهم من العشيرة.

تجار كبار ومستشارون عاشوا في بيوت فارهة لها حمامات خاصة، وشاركوا في زيارات منتظمة إلى المسرح، أحضروا عند حلول هذا الموعد خيولهم من الإسطبل وذهبوا بها إلى شيخ قبيلتهم، لتكون، على الأقل، تحت تصرفه، في حال منعتهم بشرتهم الرقيقة من القيام بالرحلة على الخيل بأنفسهم. وقد فعل هذا عدد غير قليل منهم. وبعض رجال القبائل الذين لم يتحملوا فترات الاستراحة البينية والاستقرار، انطلقوا إلى الطرق المؤدية إلى الشرق، طرق الهند وآسيا، وبقوا سنين لم يرجعوا بعدها. لم تعرف المرأتان الشابتان الواقفتان إلى الشباك عن تلك الطرق شيئاً سوى الأمتار الأولى خلف بوابات تدمر.

«هل أنتِ مسرورة برحلتنا إلى مصر؟»، سألت زنوبيا حالمة. عرفت (كليليا) بما فكرت فيه صديقتها، ولم تشاركها اشتياقها إلى البعد.

«إنها ليست رحلة وإنما حملة حربية، زنوبيا. لا يمكن أصلاً أن يكون هذا سبباً لسروركِ؟».

«آخ، لقد هيأ (فيرموس) كل شيء، أستطيع القول إن الاسكندرية في انتظارنا، وإذا ما حصلتُ على الاسكندرية فقد حصلت على البلد. كل السلطة مركزة هناك. نكاد لا نُضطر إلى قتال. هنا رسالته الأخيرة»، هزت زنوبيا إبطها. (فيرموس) رعى منذ سنوات جماعتهم هناك واهتم بهم. أكد أن المقدم العسكري الروماني ما عاد له أحد خلفه سوى حمايته، في مقر وحيد، وسوف لا يكون خصماً حقيقياً أمام ثلاثين ألف محارب أعدهم (زابداس).

Twitter: @ketab_n

كيف قال (فيرموس)؟ سوف تكون جولة تسوُّق كبيرة ووحيدة.

«زنوبيا أنا أذهب من دون رغبتي معكِ. لو لم تكن الأمور أكثر فظاعة لو بقيتُ هنا من دونكِ، لكنت قلت: اتركيني هنا»، أسندت (كليليا) رأسها إلى حجر حار في أعمدة الرواق. سقطت الشمس على مفرق شعرها، واستقرت كأنها يد على رأسها. استمتعت بالدفء وعيناها مغمضتان. قبلة بصوتٍ عالٍ من زنوبيا على خدها أفزعتها ثانية.

«آخ، ماذا، عليكِ بكل بساطة مصاحبتي»، هتفت زنوبيا بلا أثر للتأسُّف. التمعت عيناها من الانفعال. منذ فترة طويلة وهي تقضي حياتها قابعة داخل حدود المدينة، الآن توافرت لها الفرصة أخيراً لتخرج، لتعيش أحداثاً جديدة، لتتجول في العالم. ما كانت لتترك هذه الفرصة تفلت من يدها مهما كان الثمن. «تصوري أننا سنشاهد النيل. وبأي شكل يمكن أن يجعلنا (فيرموس) ننزل في قصر كليوباترا. هل أخبرتكِ فيما سبق كيف كان على مربية الأطفال العجوز أن تسرد لي القصة نفسها عنها؟»، (أتاي)، ضحكت زنوبيا بحسرة، (أتاي) التي كانت دائماً تحميني، إذا ما تجولت في الشارع. نظرت إليها (كليليا) كأنها تطلب سماع المزيد عن عجائب مصر لتثير حماستها. لكن صديقتها ابتعدت عن طريق طفولتها أكثر فأكثر. وهكذا وقفتا جنباً إلى جنب ونظرتا إلى ضوء العصر الذي نضج ومال إلى الاصفرار.

«ستحصلين على عربتكِ الخاصة مثل (لونجينوس)..»، واصلت من دون انقطاع: «سيكون (لونجينوس) أيضاً هنا؟»، قاطعتها (كليليا) متأثرة بانزعاج. «أنا في حاجة إلى تغيير شخوص الإدارة، التي أخطط لها في الاسكندرية. لا يصح أن يترك المرء كل شيء تحت تصرف (فيرموس)، قاطع الطريق هذا. سوف يضمن لنفسه، في كل الأحوال، احتكار الحرير. المطلوب من (لونجينوس) مساعدتي في توزيع الالتزامات. لكن لا تهتمي»، قالت زنوبيا مهدئة (كليليا) وهي تمسح على ذراعها، «سوف لا تريه إلا نادراً، إذا كنت لا تريدين رؤيته. مثل هذا الجيش بعجلاته وتمويله كأنه مدينة متجولة، أنا نفسي سأمتطي جواداً، لئلا يفقد (زابداس) ثقته بي».

ابتسمت زنوبيا مجدداً، عندما تذكرت الرجل العجوز يوم الافتتاح،

Twitter: @ketab_n

الذي فزع من أن امرأة ربما قادت المعركة. هو وعدد من المستشارين أنصتوا جميعاً إلى كل ممارساتها باهتمام. الكل أومأ برأسه مؤيداً حين أعلنت أن روما الآن محاطة من كل الجهات بجيوش الهمج المتوحشين، وبقيت بلاد المشرق ومصر الغنية مفتوحة. تغامزتا كرجل عندما انتشر الهلع المحيّر، الذي سيطر على روما، عندما أُعلنَ أن مصر مخزن حبوب الأمبراطورية قد تضيع، وطرحت فكرة تسليم الحبوب إلى الرومان بأسعار عالية، وهذا، في كل الأحوال أمر مشجع لها بالطبع، ومتفق عليه، وقد استطاعت أن تستمع إلى الشفاه ذات الأشكال المدببة، وهي تحسب بصوت منخفض كم ستدر المعركة من أرباح. كل الرؤوس اتجهت نحو الجنوب. حين أشارت إلى هناك وهتفت: هناك تنتظرنا ثروات مصر. لكنها حين بدأت تشرح استراتيجيتها عمَّ القلق المستشارين المحترمين، فبدأت تمتمات ونظرات غير مطمئنة إلى (زابداس)، الذي نهض أخيراً ولمّح أن لا حاجة إلى التفكير في هذا الموضوع.

«لكن هذا بالضبط ما كنت أنوي فعله»، أجابت، «سأكون في مقدمة قواتي للزحف على مصر». في اللحظة الأولى أسرعت كل الرؤوس في الإلتفات نحوها منبهتة، وقد شمل الفزع الجميع.

ضحكت بخبث عندما تذكرت المشهد في المستشارية، غير أن (كليليا) بقيت متضايقة. ومن أجل إشغالها وضعت يداً تحت نهديها راسمة الجدية على سيمائها.

«ماذا تقولين في أن أضع طاستين برونزيتَين كدرعين؟»، نفخت (كليليا) غير موافقة، حتى ترد عليها باللهجة نفسها: «إذا أردتِ أن تبعثي روح الاندفاع في رجالكِ...». تضاحكتا وكركرتا بلا انقطاع، وحاولتا تصميم زي عسكري نسائي بحسب الموضة، استعداداً للحملة العسكرية المقبلة.

«... الأفضل عاريات بجلد نمر مرقط»، هتفت (كليليا) أخيراً منطلقة.

«وأشرطة من جلد للجزمة تصل إلى الركبة». أكملت زنوبيا، قل أن ضمت إحداهما الأخرى إليها.

هنا أتى (فابالاتوس) على يد حاضنته تارسيس، التي انضمت إليهما

Twitter: @ketab_n

بالضحك، شجعتهما على الضحك أكثر مع مشية الصغير بخطوات متأرجحة. رفعته زنوبيا عالياً ودفعت به في الهواء قبل أن تضمه إلى صدرها ضاحكة فرحة. استقر ضاحكاً بين ذراعَيّ أمه باحثاً عن لعبة، ثم امسك أخيراً بأنفها.

«أوّاه، أي مسكة هذه». ولولت بلا صوت، ثم فرح عندما أوقفته على ساقيه الصغيرتين القويتين مستنداً على الحواجز، وحاولت لفت انتباهه إلى قافلة البدو البعيدة.

«أتريدين اصطحابه أيضاً؟»، سألت (كليليا) بصوت منخفض. سكتت زنوبيا، إذ لم تتخذ بعد قراراً في هذا الشأن. «بالطبع، من غير المعقول أخذ طفل بهذا العمر إلى حملة حربية». لكنها لم تستطع كذلك تركه في القصر بلا حماية خلفها، فلديها أعداء كثيرون بهذا الخصوص. في الحقيقة استطاعت إجبار أخيها (گاش) بعد مفاوضات طويلة على أن يأتي معها إلى مصر، وهكذا صار بإمكانها مراقبته جيداً. لكن لا تدري من قد يترك هنا في تدمر خلفه؟ كان اهتمامها بالمدينة قليلاً، مصيرها كان بيد الديكابروتيين والمستشارين في أحسن أمان، كانت تثق بمعظمهم، ما بقيت منتصرة في مصر. لكن (فابالاتوس)؟

«أنظر ماما»، لوّح (فابالاتوس) بيديه الصغيرتين بانفعال، لقد لاحظ أخيراً السحابة الترابية على الأرض. الكل انشغلوا بذلك، أشروا إلى هنا وإلى هناك، وشرحوا لها وامتدحوه. خطرت فكرة لزنوبيا.

«(تارسيس)، اذهبي وقولي لمسؤول البلاط، المطلوب أن يبعث رسولاً ليتبين، إذا كان البدو الرحّل هم فعلاً بنو ماتابول. في حال نعم، ينبغي إرسال خبز وخضروات وعنزة صغيرة للشيخ. قولوا له (بات زاباي) ابنة (زيمة) من بني ماتابول، كانت ابنة الشيخ عزيزو، أميرة تدمر ترغب في زيارته مساء اليوم، وتهتم بعشاء القبيلة».

عندما حل الظلام رفعت زنوبيا البطاقات إلى المائدة، وودعت (زابداس) والقادة معه. وكانت هي في البلاط على صهوة جوادها في انتظار (تارسيس). كانت في ملابس السفر، حملت الطفل النائم في لفته وربطته

Twitter: @ketab_n

على ظهرها، كأن الامر لا بد منه. ركب معهم حارسان شخصيان. وعلى قضيب بينهما حُملت خزانة بأمتعة (فابالاتوس) و(تارسيس). شدت زنوبيا لجام جوادها المضطرب، الذي شم هواء الليل من خلال منخاريه، وبدت إشارات المغامرة تقترب. وبجهد استطاعت قيادته ليبقى خلف الآخرين، وفي ضوء النجوم الضعيف تأملت وجه ابنها كبقعة فاتحة اللون بين طيات الملابس الغامقة، واهتز رأسه صعوداً ونزولاً على وقع خبب الحصان. نام عميقاً كأنه تأرجح في مهده على إيقاع مستقبل حياته.

أول ما استقبلهم كلاب حيوانات البدو ذوات القوائم العالية والنحيفة، أحاطت بهم، وهي تنبح، وحاولت أن تعض قيود الخيول، ثم ركض إليهم الأطفال صارخين نصف عريانين وقذرين، ضحكات ساحرة، داعبوا الخيول المضطربة، حاولوا تمسيد جوانبها المرتجفة. بانفعال، ثرثروا بلهجتهم العربية المحلية. سرعان ما أحيطت زنوبيا ومن رافقها بالناس، بناس ضحكوا وثرثروا وتطلعوا إليهم باهتمام مستمر. وعند مرورها رماها رجل شاب متكئ على رمحه باسترخاء بنظرة مليئة بالاحترام. حثه أصدقاؤه الأقل شجاعة على هذا من بعيد. جلست النساء أمام النار متربعات. أيديهنّ مغطاة بالطحين بعد عجن أرغفة الخبز، وقد أشرن فيما بينهن إلى الغرباء. الجريئات منهن لوّحن إليهم بعصيهن الصغيرة التي استخدمنها لإبعاد الجمر، قبل أن يضعنَ قرص العجين في الرمل الحار.

جلب أحدهم حطباً من نار الموقد، ضوء أحمر أضاء لهم الطريق بين بيوت الشعر السوداء، الزينة الفضية على صدغها تلامعت في ضوء المشعل، بدا أن لا أحد أراد النوم، وبالذات الأطفال العراة إلى حد الإزار، والذين يعلقون عدداً وفيراً من التمائم والطلاسم في الرقبات والآذان، تراكضوا بين الخيام حتى آخر الطريق، وخلال الضجيج كان شيخ القبيلة جالساً في انتظارهم أمام خيمته. فكر لفترة طويلة كيف عليه استقبالها، لقد كانت ملكة، لكن كامرأة لم يكن في حاجة حتى إلى الترحيب بها، فهي التي دعت نفسها: هو وكبار القبيلة كانوا بعد تفكير وتقليب للأمور من كل جانب قد اتخذوا قراراً تجاوز خرق العادات الجيدة هذه المرة. أهل المدينة كانوا كلهم

Twitter: @ketab_n

مجانيـن. وهـذا كان معروفاً على الـدوام. والمجانين عوملـوا دائماً بلطف، لا سـيما إذا كانوا ذوي نفوذ. وهكذا اسـتطاع اسـتقبال هذه المرأة برزانة. لم يذهـب فـي اتجاهها، لكنه كذلك لـم يبق في الخيمـة، إذ وجد في ذلك تعبيراً عن حل وسط. لم يحدث مطلقاً أن ظهر عليه الفضول.

كان جالساً عندما جاءت، غير أن نظرة زنوبيا وهي على صهوة الحصان جعلته يقف على قدميه.

«أي حصـان هذا»! فكـر متفاجئاً، بينمـا طبطب هو على رقبـة الحيوان الرائع. ارتجلت زنوبيا.

«إنـه يعود إلى ولـدي الصغير»، أوضحت له بشـكل عابر. «لكم الحق. إنه عدّاء مهم وسـينجب أمهاراً ممتازة». أُخذ الشـيخ مـن مفاجأة عجيبة إلى أخـرى. لقد اصطحبت ابنها معها، سـيد تدمر، هنـا أخذته الحاضنة من قطعة القمـاش المحمول بها. والآن ربما راى المـرء ما كان معنى هذا. وربما رأى المرء بأي أسف انفصل الشيخ عن الحيوان ورافقها إلى الداخل.

انتشـرت بشـدة في داخل الخيمة رائحة جمل وحليب وأعشاب عطرة. كانـت تحترق فـي مقلاة برونزية. غرفة الضيف كانـت فارغة إلا من عدد من السـجادات الملونـة ألقيـت فوق بعضهـا علـى الأرض مباشـرة. على طبقة برونزيـة، فـوق منضـدة من خشـب الأرز المنقـوش وضع الطعام. سـمعت زنوبيا أصواتاً عبر جدار من قطاع آخر مجاور مفصول بسـجاد ملون كجدار، اسـتطاعت أن ترمي نظرة سـطحية على جمع من نسـاء في مختلف الأعمار جلسـن سوية هناك. وجه مقطب الجلد مسطّح تحت أساور فضية ثقيلة على ناصيتهـا، كانـت تنظر إليها وتوقعـت زنوبيا أن أمامها سـيدة الخيمة. مصباح فني معلق أضاء المشـاهد. رتب الشيخ خناجره وسيوفه بمسكة على حزامه، وجلـس قبالتها، تحـدث عن هذا وذاك، بينما غسـل صبيـان أيديهم، وحمل محاربون شـبان للداخل اللحم الذي كان قد شُـوي على شيش دوّر على نار الخشب. أخذت زنوبيا من العنزة الصغيرة، وحملقت في أصابع رجل متقرنة كان جالسـاً قبالتها، أومأت باهتمام لقصة مواشيه وأبنائه. وأثناء قصة أجداده غمسـت فـي الصلصة المتبلة رغيفـاً من الخبز، وقد فهمـت أن الرجل إذا لم

Twitter: @ketab_n

يستطع قيادة قافلة لا يعد رجلاً كاملاً. أخيراً جاء الشاي: أسود وقوي بعود من النعناع الطازج، وقعر سميك من عسل.

«اشربي أيتها الأميرة، إنه كما يجب أن يكون: حارٌ كالموت وحلو كالحب»، ابتسمت زنوبيا مجاملة. بعد ذلك أتت إلى الحديث عن نيتها: كانت تبحث عن ملجأ لابنها. رغبتها في أن ترى (فابالاتوس) يتربى على طريقة أجداده، ما كانت تهمها بقدر خوفها على حياته. قدرت أن استهجان الشيخ لتقاليد المدينة والرومان، الذي شاركته فيه أيضاً، من دون أن تستطيع التخلي عن التقاليد، ربما جعلت رغبتها تلاقي قبولاً.

تعجّب الشيخ من دون أن يلاحظ أحد عليه هذا، فلم يسمح مطلقاً أن تكون امرأة لاحظت مشاعر انفعال عليه.

كان الطفل من بني ماتابول من عشيرة عزيزو الذي كان عماً لأبيها بلا شك. وأين سيكون محمياً أكثر من كونه عند أهله؟ ظهر قليل من الاعتراض على هذا بحسب ما قالت المرأة، ولكن...

أثناء ما رفع رأسه ارتفع خلف السجاد صوت شخير. بدا كأن الشيخ لم يكترث بذلك، لكن زنوبيا تنفست الصعداء. علمت أن (فابالاتوس) في أيدٍ أمينة تماماً.

«سأكون ممتنة جداً لكم، إذا رعيتم كذلك جواده جيداً من أجله»، أضافت ذلك عندما أعادت كوب شايها بإشارة اكتفاء إلى الصينية. في هذه المرة استطاع المرء أن يقرأ على وجهه، أنه كان قد حسب في فكره حساب الفرس التي ستكون قريباً جاهزة للتعشير. وللمرأة الحق في أي مهر قد ينجب هذا الحصان!

امتطت زنوبيا حصان (تارسيس) للعودة، ظلان صامتان كانا في رفقتهما، لم تر الحاضنة والطفل مرة أخرى قبل مغادرتها. هكذا أفضل. وفكرت بعد ذلك طويلاً كيف كان سهلاً وقع الوداع عليها، كان كلسعة اجتاحت جسدها. ما زالت تشم عطر حليبه الحلو على بشرته. خنقتها عبرة في حنجرتها وأمسكت اللجام بقوة أكثر وساقت الجواد في الطريق بعيداً. تنفست عميقاً؛ فكانت رائحة طيبة انبعثت من الفواكه ودخان الخشب،

Twitter: @ketab_n

الـذي علـق في هـواء الليل الدافـئ. أخذها الشـوق إلى الطفل، غيـر أنه كان مثـل الخيط الذي انسـحب طويـلاً، ومع كل خطوة صار أرفـع وأرفع. الأيام التاليـة قبـل الانطـلاق كانـت مليئة بالعمـل. اللحظـة التي فلت فيهـا الخيط منها ما عادت تلاحظها.

Twitter: @ketab_n

الحملة العسكرية

«گـاش!»، هُرعت زنوبيا، حتى رفرف معطفها الأحمر وطار الرمل إلى أعلـى، حين قادت جوادها عبـر الكثبان الرملية، ووقفت إلـى جانب أخيها. رفعت الخوذة وأمسكت وجهها أمام الريح، التي رغم حرارتها التي لا تُطاق حملت معها عطر البحر. حين فتحت يديها ظللت عينيها، اسـتطاعت رسـم شـريط لامع ممتد عند الأفق. كان البحر نفسه، فكرت بابتسامة هادئة، البحر الـذي طـارد فيه فـي هذه اللحظـة المقدم الرومانـي بقواته في مصـر قراصنة البحـر. بينما ابتدأت هـي وضع قدميها على أرض مصريـة، كان البحر الذي غسل منه ذراع النيل القتلى.

إنـه نهـر ضعيف، بنـي اللـون، النيل هذا، خطـوط ضيقة مـن الأراضي الخصبة امتدت على جانبيه بسـاطاً ملوناً لبضع عشـرات مـن الأمتار عرضاً، يمـرّ خلال الصحـراء الصفراء. غير أنه فـي هذا الموقع كان جيشـها، وحفنة جنود أشـداء من المدافعين الرومان على الضفة الأخرى، يدوسون البساتين الخضراء فيحولونها إلى أطيان. النخلات القليلات التي كانت هنا أسقطوها واسـتخدموها مع الخشب الذي جلبوه معهم لبناء جسر عائم. قطف الجنود الثمار، وما لم ينفعهم تركوه مداساً لحوافر خيولهم. حبوب القمح الخضراء دمرتهـا عجلات التمويـن الثقيلة. طيور البط والمالـك الحزين هربت هلعاً. تصاعد الدخان من أحزمة الصوف، الأجسام المقاتلة خاضت في الماء حيث اشـتد القتال حول الجسور. صراخٌ وأوامر ترددت. حتى التماسيح انسحبت بعيـداً. نزولاً في اتجاه النهر بعيداً، انتظروا الجثث في عاصفة هادئة، سـيقت فـي اتجاه الأفق الفضي. تطلعـت زنوبيا لاهثة إلى أتون المعركة عند قدميها. حـاول جنودها الآن إنزال عدد من الطوافات، بعـد ربطها ببعضها إلى النهر،

Twitter: @ketab_n

وكانـت طوافات أولى منها قـد تمزقت واحترقت وطفـت. بكل حمية عمل التقنيون على الاحتماء من الأسـهم النارية الرومية من خلال جدران خشـبية سـريعة الحركـة، وجلود معلقة بقلـق أخفت عن العدو قلة عـدد المهاجمين أمامـه. القـوة المقاتلة الرئيسـة تحت قيادة (زابداس) اسـتطاعـت أن تتسـلل خلف فرقة الدفاع الرومية الصغيرة، وتعبر النيل ضد التيار ليوم واحد، لتشـن الهجـوم مـن الخلـف. فضلت زنوبيـا عدم المغامـرة. الآن نظـرت بغضب، كيف سُـحب الجسـر الثاني بإمرة أخيها إلى الشـاطئ، وسـهام الـروم ثقبت دروع تدمريـين مرفوعـة بيأس. أوامـر تلتها أوامر وصلت إلـى هذا الجانب، متبوعة بطلقات لتغطية الجنود الواقفين في الماء حتى الركب، سـحب أولاء الطوافـات على ألواح سـميكة، غير أنهم ترنحـوا الواحد بعد الأخر في الماء الذي احمرّ لونه.

«أنـت تضحـي كثيراً جـداً»، لفتت نظر أخيهـا إلى المشـهد، «إنه مجرد هجوم خارجي. هل نسيت؟».

كاد (گـاش) لا يكتم غضبه: «وماذا تفهمين أنتِ عن هذا»، أجاب اخته بحدة.

«إذا كنت لا تسـتطيعين رؤية الـدم، فاذهبي إلى خيمتكِ، وتخفّي خلف بضع وسـائد حريرية». بغضب ضرب فرسـه الراقص المضطرب، ولم ينظر إليهـا بعـد ذلـك، غير أنهـا أجابت بهـدوء: «ملكتك تسـأل، لمـاذا تأمر بهذا الهجـوم الـذي لا طائل منه؟ أعطِ جواباً، أيها الضابط»، لم تتجنب نظرته إلى أن زمجر أخيراً:

«حين نمد جسـراً قبل أن يأتي (زابداس) ونسـتطيع اسـتدراجهم، نوفر عليـه جهـداً كبيراً». عض على أسـنانه كلها. مـا كان ينبغـي أن تذهب بعيداً. الرقعـة القذرة. تمنى لو كان ضربها، كما في السـابق في البيت، حين لم يكن هنـاك من يراقب. لكنه ليس عنده غير قليل مـن الأصدقاء في إدارتها، وليس سـوى قليـل من الرجال هنا وهنـاك، بلا نفوذ مؤثر، ممـن لا يعلنون تمردهم على ملكتهم. لم يفهم لماذا أسلموا لها الضباط القدامى القياد، ولماذا ألّهها الجنـود تماماً. زنوبيا الفـارس، باه، بصق في الرمل، لكن كان عليه الاعتراف

Twitter: @ketab_n

بأنها أمرته كما لو كان صبياً:

«وإذا مددتها قبل الموعد يكتسحوننا»، أجابت بتأمل ونظرت إلى ما حصل ثم قررت:

«نحن هنا فقط من أجل صرفهم عنّا. أوقف الهجوم فوراً»!

«أنا لا أريد أن أجلس هنا بلا عمل..». أجاب مزمجراً وبغضب.

«أوقف!»، قالت مقاطعة. وهيأت تلك اللحظة استعداداً للإسراع في النزول، حين دعتها كلمات (گاش) لتعيد النظر.

«لا تكوني شجاعة أكثر من اللازم، يا أخت، الأفضل أن تتجنبي دخول الجبهة. اذهبي إلى المعسكر حيث مكانكِ الصحيح، ولا تتدخلي في شؤوني».

«أنت تهددني يا أخ»، سألت بود تقريباً، رغم أنها لمست بفزع كيف كانا هنا وحيدين على حافة الأحداث.

«أنا أحذركِ فقط، إذ بكل سهولة قد تصاب امرأة في أتون المعركة». تركته بلا تعليق واعتدلت تماماً على صهوة جوادها، إلى أن اختفت تماماً. ما كان عليه أن يلاحظ أن محاولات إخافتها كانت ناجحة. فليس أسهل على (گاش) من طعنها والادعاء إلى (زابداس) العائد أنه سهم رومي. فالكثير منها ملقى، وهوذا هنا يُزرع في الأرض مجدداً.

بقيت واقفة وأدركت فجأة أن الموت قد يكون في انتظارها في الموقع التالي المتجهة إليه. سهمٌ آخر خطف قربها؛ لا أمان في أي مكان، نظرت حولها بيأس ولم تستطع اتخاذ قرار للقيام بالخطوة التالية. غير أنها تماسكت بعد ذلك، كثرة السهام المتساقطة لم تزعجني طوال اليوم. فقط من يخيفني هو (گاش) فقط، شجعت نفسها. على تجاهُل الأمر.

بحثت مسرعة عن زبيدا لتعطيه الأوامر التي رفض (گاش) تنفيذها. لم تشعر بالارتياح إلا مع الآخرين ثانية، كأن الكلمات المتبادلة ستحول السهام المعادية لتطير إلى مكان آخر.

بعدئذٍ جمعت فرقة من رماة السهام، للركوب في اتجاه النهر، والقيام بهجوم وهمي، أرادت بها أن تعرض نفسها للعدو في تجهيزاتها

Twitter: @ketab_n

الملكيـة. وكان عليـه أن يرى الريش الأرجوانـي المرفرف من خوذتها، حتى يعتقـد أنه هنا فـي مواجهة القوة القتالية الرئيسـة. غير أنه مـع انطلاقها ارتفع صوت صراخ بالنصر:

سـحابة رمليـة أعلنت عـن عربات (زابـداس) التي هبّـت كأنها عاصفة رمليـة على الروم المتخبطين. رأت التشـكيلات تتفرق تحت ضربة الصوت العربـي المتقـدم، لتتحـول إلـى عقد منفـرط. بلا مقاومـة تُذكر جلبـوا الآن جسـورهم إلى الشاطئ المقابل. طقطق الخشب بهدوء تحت حوافر الخيل، عندما توغل محاربوهم إلى الجانب الآخر. لم يبقَ أي رومي على قيد الحياة، قبل أن حل المساء.

* * *

حتى أن معسـكرهم كان عواء بنات آوى مسـموعاً منه، داعياً إلى ميدان الجثـث. المحاربون البدو على مقربة من المعسـكر أنصتوا بعدم ارتياح إلى الأصـوات الشـاكية في جـوف الظلام. حتـى المجتمعـون من حـول زنوبيا أنصتوا . جلسـوا صامتين في ضوء المصباح على كراسـيهم الجلدية السفرية فـي مخيـم الملكـة. حتـى (تيماغينـس) المصـري الذي أقـام لهم اسـتقبالاً كمندوب عن مدينة الاسـكندرية، صمت الآن. عيناه المتزلفتان جـالتا خلال القـاعة المؤثثـة ببسـاطة عسـكرية، تأمل منضدة الخرائط وقد امتلأت بها، متوجـة بخوذة زنوبيا، ومنضدة أخرى مـع أوراق وقوارير حبر وقصب. على كل كرسـي فارغ ألقيت لفـات مخطوطة، وحتى الخزانة كانت فيها أشـياء لا تختلف عن هذه. عند مساند الخيمة عُلق سيف وقوس وجعبة. مجمل القول إن هـذا ليس لائقاً بمقام ملكة. أما هي فقد جلسـت إلـى جانب معلمها على لعبة الشطرنج، غير أنها لم يبد عليها التركيز باهتمام. أقمشة الخيمة انفتحت خلفها بفعل رياح الليل، وسمحت هنا وهناك برؤية النجوم.

(لونجينوس) ذو المواقف الأساسية ذات الصلة، الذي ما اهتزَّ، أخذ آلة لعب وانسحب. ونظر بارتياح إلى لوحة اللعب.

«لكم الدور»، أيقظ بهذا زنوبيا من عميق أفكارها. «انتبهوا وإلا تخسرون

Twitter: @ketab_n

هـذه المعركة هنا». نظرت إليه مشـددة عندما عاد العويـل مجدداً. واحد من الحيوانـات الغريبـة ذات الآذان الكبيرة مر بالقرب مـن الخيمة، وصار يروح ويجيء متردداً عند حافة الظلام. ارتجاف ضوء المشـعل أظهر لمعان عينيه. قذف الحجارة عليه لم يساعد في طرده.

«(أنويس)»، همس المراسل المصري بخوف «(أنويس). إله الموتى»، وتمتم بدعاء بلغته ليهدئ سيد العالم الأسفل.

«أجـل، لا يسـتطيع الرومـان أن يشـتكوا، فعندهـم الكثيـر مـن الآلهـة المصاحبة»، سـخر (زابـداس) بعدم ارتيـاح من النباح المتعـدد والأصوات الآتية من النهر، ومد يده سراً إلى حجاب، وكان يعتقد بالخرافات، شأنه شأن الجنـود. خافـت (كليليا) ومدت يدها باحثـة عن يد زنوبيا. نظـرت هذه إلى الحيوان باهتمام، وتحولت بنظرها إلى (تيماغينس).

«(لونجينـوس) تحدث إليَّ عن إلهكـم ذي رأس ابن آوى. بودي زيارة عتبته المقدسة في نكروبول عندما نكون في الاسكندرية».

انحنـى (تيماغينـس) مؤيداً أمـام الملكـة الأجنبية. رغبتها فـي التعرف علـى التقاليـد الدينيـة لبلـده، بـدت لـه إشـارة طيبـة، وإن كان هو قـد افتقد الاحترام الجدي لها.

«الهيئـة الدينيـة تنتظركـم. كما تفعـل كل الاسـكندرية. أيتها السـيدة»، أجـاب دبلوماسـياً، وبـدا أنـه اسـتعاد لباقتـه السـابقة، تحدث عـن خرافات بلـده، وعـن قصص من أجنـاس الملوك، إلـى أن رغبت زنوبيا فـي الذهاب إلـى الفـراش وافرجـت عنـه. ناولهـا للـوداع حجابـاً ذهبيـاً بعقـاب وثعبان آلهـات مصر العليا والسـفلى، والتـي زينت تـاج البلاد أيضاً. فهمـت زنوبيا الإشارة جيداً وشكرته.

«التصـوف، وليس غيـر التصوف»، هزّ (لونجينوس) رأسـه أثناء ذهابه، «لا عجـب أن (أفلوطيـن) كان مرتاحـاً هنـا، ولا عجب أيضاً أنهـا منذ مئات السـنين لا تزال تُحتل من قبل الأجانب. هكذا لا يمكن أن يدير المرء دولة»، كان حكمه المهين.

Twitter: @ketab_n

«أتصدّق أنه كان يلبس شعراً مستعاراً؟»، سألت (كليليا) بفضول وبذوق بالتأكيد.

«بالتأكيد»، تثاءبت زنوبيا، «يقال إن هذا ما يفعله النبلاء كلهم، كما يقولون. سوف ترين كثيراً منهم في الحي المصري (راكوتس)، قرب الاسكندرية. ربما كذلك في (بروخيوم)، حيث تحصنت (تيماغيتس) بحزب معادٍ للروم في السنوات الأخيرة. في حال ترك الروم حجراً على حجر. ربما يجب عليّ إقامة مؤسسة..». تمطّت. «لكن في البداية ستزور طبعاً برج الإضاءة الفرعوني، أول عجائب الدنيا».

«أيتها السيدة لن أسمح أن تدخلي الميناء قبل أن أعرف بالتأكيد أين يرسو أسطول المقدم (بروبوس)»، تدخل (زابداس). رفع (لونجينوس) حاجبيه ساخراً:

«ملكتنا المبجلة متعطشة إلى التعليم، أفتريدون منعها من ذلك؟».

«آخ، (لونجينوس)»، خففت زنوبيا لهجتها على غير عادتها، «لا تسخر منّا، لكم الحق طبعاً، أيها الجنرال»، توجهت بالكلام إلى (زابداس): «الأمان أولاً»، ولكي تؤكد أضافت: «لكني أريد رؤيته رغم ذلك».

* * *

«مرحباً، ملكة الصحراء، مرحباً»، (فيرموس) المشتاق، وبعد مرور أيام، ضم زنوبيا السعيدة ومرافقيها إليه. غير أن (كليليا) قلصت وجهها بأدب فقط. (لونجينوس) من ناحيته تجاهل العناق.

عمل وكأنه راقب بجد نصب قبور المصريين التي أحاطت بالطريق المؤدي إلى الاسكندرية. تماثيل أبي الهول برأس كبش، ترافقت مع أبواب وهمية من الأحجار الرملية، اُلقيت أمامها قرابين من أجل أرواح الموتى الصاعدة. أوانٍ من الطين، مع رمان وتين وزهرة اللوتس وجرّة جعة أو نبيذ. هنا وهناك ارتفع كذلك قبر إغريقي نزل منه نصب منقوش للمتوفى، ينظر بجد إلى المسافرين المارين. أزهرت بين التماثيل أوراق الغار بأعلى من قامة رجل، وشجيرات الخباز بأزهار ممتلئة ومضيئة. بعيداً إلى الخلف

Twitter: @ketab_n

ظهرت هنا وهناك قمم الأشجار والأعمدة ومسلات صغيرة مرتفعة إلى نيكروبول الكبير. مدينة الموتى امتدت إلى يسار الشارع ويمينه، غير أنها رغم اسمها المعتم كانت ملتقى ليلياً للعشاق، وفي النهار كانت هدفاً محبباً تقصدها العوائل للنزهة، هي قريبة من الصحراء وأرض الدلتا الخصبة المحبوبة التي لا بد من التوقف عندها. أشار (فيرموس) إلى جمالها، كأنه في حديقته الخاصة، هو تماماً يلعب دور سيد البيت الفخور، وليس، في أي من الأحوال، كممول مدينة محتلة من أمير معادٍ.

لقد أحاط جسمه بحرير بلون الإجاص، وبعباءة فخمة بلون الزمرد الغامض. زيّن رأسه الكبير بإكليل من ذهب، بهيئة إكليل الغار. كان واحداً من الرجال القليلين، فكرت زنوبيا، تجرؤوا الظهور في مثل هذه الملابس، ولم يكن مثاراً للسخرية. حتى طبعه المرتاح جعل كل من رآه يظنّ أنه أمام رجل حاسم. توقعت زنوبيا منه ببساطة كل شيء، لذا أحبته.

تراجع (فيرموس) أثناء ذلك بضع خطوات، وتأملهم جميعاً بوجه مائل وبجدية مفتعلة.

«دعوني أراكم. فكرت في هذا: التراب يعلوكم، ملابسكم رثة أنتم بلون الفأر. لاحظوا: إن كنتم تريدون أن تذهبوا عبر بوابات المدينة هذه، هنا خلفي، وأردتم أن تشاهدوا»، وأشار إلى بوابات الاسكندرية خلفه، «إذاً عليكم أن تفكروا بشيء أفضل من كونكم همجاً مدججين بالسلاح، وعلى خوذكم مجموعة ريش جميلة. هذه المدينة»، تحدث بانبهار، «اعتادت العجائب، الأجنبي هو في حياتهم اليومية، لقد تعودت الأفضل. إنها ليست مثل جزيرة في البحر تكتفي بالقليل مثل مدينتكم تدمر. إذاً، لحسن الحظ، جهزتُ»، صفق بيديه، بدا أنها إشارة إلى عبيده، الذين انطلقوا قافزين وأشروا بدورهم فحضرت تجهيزات كاملة، من بشر وحيوانات وعجلات. راقصات عاريات غطت أجسادهُنَّ البراقع والمصوغات فقط. رجال بعضلات من مختلف ألوان البشرة، ولاعبو أكروبات، وباصقو لهب، ومروضو حيوانات مع الحيوانات النافخة والمزمجرة، أخذوا مواقعهم بين الجنود المتربين. زنوبيا ودولة البلاط معها أدهشهم ما شاهدوا.

Twitter: @ketab_n

منذ موت (أودناتوس) جعلت زنوبيا الحياة في القصر في الغالب، وبقصد، بسيطة، إجراء ساند (لونجينوس) باهتمام في اتخاذه. ولم تعلم، أي متعة وجدتها في تلوي الراقصات النوبيات. صرفت نقودها في شراء كتب ثمينة. إصلاح القضاء التدمري لزنوبيا كان مطمحاً راقياً. اجتماعاتها المسائية في المقابل كانت طبيعية بلا تكلف، بعد أن كانت فخمة. لقد اهتمت ببناء سياج المدينة الجديد أكثر من اهتمامها بمستوى موضة الملابس، وقد كانت راضية. غير أنها نظراً إلى التطورات والفخامة والسحر التي قدمها (فيرموس)، شعرت فجأة وكأنها واحدة من سكان المقاطعات المتخلفة. لقد سحرها العرض الضخم أمامها، ونفّرها في وقت واحد. شاهدت الأجسام المتكاملة للجاريات الشابات والعبيد الشباب فسحرها المنظر. الأمان الذي جمع ذهباً وأحجاراً كريمة نادرة اجتمعت معاً في قطع زينة غاية في الكمال، الهيبة الغالبة في حركات الفنانات، الجمال الخفي وراء أقنعة مزوقة ومزينة، ومساحيق وضعت على كل الوجوه، أزهار وناس وأعمال فنية غاية في الفخامة، كل هذا انتشر! كأنه فرحة حياة مكتملة، مبشرة بالأمان. كأن من مشى على هذا السجاد لن يصيبه أذى مطلقاً.

كان لديها شعور بالاسترخاء والاعتماد على الغير، وترك الأمور على عواهنها، أقوى بكثير مما كان في القاعات القليلة للبدو المتفتحين في تدمر. ابتسمت إلى (فيرموس) سعيدة وشاكرة.

لم تلتفت إلى وجوه (زابداس) و(گاش) المنزعجَين، وسيماء (لونجينوس) غير المبالي. الزحام المضحك وتدافع الفرق واحتجاجات الغاضبين منهم، توقفت بعد أن أسكتهم الضباط.

مجموعة من الآلهة المصرية المصبوغة بعدة ألوان أعلى من قامة رجل، وبوجوه جادة، ارتفعت في مواقعها على منصات. نطقت زنوبيا أسماءها، وحصلت لذلك على مديح، كأنما قامت بواجباتها البيتية بشكل جيد. عربة مشحونة بتجهيزات مذهبة تقدمت بطقطقة. مدت يدها مبهورة إليها، لكن (فيرموس) ضربها مازحاً على أصابعها: كانت هذه لضباطها فقط. صبيان على رؤوسهم أكاليل حملوا لوحة كبيرة لصورة، عُرض عليها انتصار زنوبيا

Twitter: @ketab_n

علـى روما. أمـر (فيرمـوس) بإعدادها احتياطـاً، فضحكت بتسـامح عليها. مجموعة من العبيد مقيدة بسلاسل أظهرت بفضل أجزاء من الزي العسكري الرومي أسـرى الحـرب. وقُدّم لـ(كليليا) و(لونجينـوس) هودج حمله أربعة وعشرون عبداً من بلاد النوبة كان ارتفاعه أعلى من الفرسان بكثير.

نظـر (لونجينوس) بريبة إلـى جهاز مذهب ومغطى بحريـر مطعم بلون أرجواني مشع. أربعة أعمدة مصرية ملونة متوجة بوجه متقرن للآلهة (هاتور) حملت سقفاً امتد فوقه طاووس مغطى بالمينا كأنه حيّ.

«ماذا أيها الفيلسـوف»، قـال (فيرموس)، «رجلٌ فـي رجاحة عقلكم لا بـد أن هذا الارتفاع يجذبه»، من دون أن يجيب صعد (لونجينوس). (كليليا) صعدت السلم مستندة إلى يدي وصيفتَين إلى الأعلى.

«والآن إليـكِ»، توجـه (فيرمـوس) إلـى زنوبيا. وأخذ مـن خلف ظهره بسـحر مـادة، ووضعها أمامها بتشـوق. بدت كأنها كرة موضوعة في كرسـي مرحاض.

«ماذا..»، استغربت زنوبيا.

«إنهـا التاج المـزدوج لمصر. أصلـي ومضمون، حصلـت عليه من قبر ملك من وادٍ بعيد في الجنوب. اغلقي فمكِ. ثم فوق ذلك هذا..». نشر عباءة من حرير أرجواني، مشـغول بتطريز ثقيل. أظهرت التطريزات بمحيط دائري منظـراً متكامـلاً كأنه طبيعي لمدينة الاسـكندرية. كان غاليـاً، كان رائعاً، كان مخيفاً. انقبضت أنفاس زنوبيا لرؤية مثل هذه الأشياء المبتذلة بلا ذوق.

«(فيرموس). هذا، هذا، إنه فوق الطبيعي». أشرق وجهه رضى.

«إذاً البسيه حتى يستطيع الناس رؤيتكِ هنا فوق».

«أين فوق؟»، سألت بهمّ متزايد.

«هنـا فوق»، نـادى (فيرموس) مؤشـراً. لننـزل الآن إلى الأسـفل، ظهر كأنـه أبو الهول على ارتفاع خمسـة عشـر متـراً بالذهب والـلازورد. العينان الزجاجيتـان المركبتـان حملقتا بكل سـمو إلى بعيد. بسـاط أحمـر امتد بين أقـدام الحيوانـات. عليهـا وتحـت حنكها انتصـب عرشٌ ارتفع على سـقف يحمـي من الشـمس اتخذ شـكل زهـرة اللوتس. عـدد لا يحصى مـن العبيد

Twitter: @ketab_n

بعصبة رأس بيضاء مخططة بالأزرق يلبسون إزارات. محسوبة بالضبط مثل التي في طريق كانو بيس، الشارع الرئيس الذي كان المفروض أن يمر به موكب النصر، إلى أن انعطف عند سيرابيون لتقديم الأضحية هناك في العتبة المقدسة للآلهة العليا التي ابتدعها لهم بطليموس.

ترددت زنوبيا في دخول هذا الشيء، حين رأت نفسها تتحرك إلى أقدام العرش.

«أُسود»، قالت مسحورة. صعدت السلالم بسرعة إلى أعلى. أراد (فيرموس) تهدئتها فنادى: بلاخوف، إنها مروَّضة، لكنها نزلت على ركبَتَيْها بين الحيوانات، وداعبت فروها الذهبي.

«أُسود»، تمتمت في أذنها. «عليكم أن تعلموا أنني حلمت بكم قبل سنوات». جلست ويداها فوق رأس الحيوانات. أعطت بسمو إشارة الانطلاق، فانطلق الموكب متعدد الألوان متحركاً في اتجاه المدينة.

من جنرالات الإسكندر الكبير، الذين ورثوه، كان بطليموس بلا شك هو الأذكى، فكرت زنوبيا، لأنه اختار مصر التي كانت سهلة في التعامل بفضل موقعها الطبيعي. إلا من ناحية البحر أو من سيناء، أمكن أن يأتي أعداء. آلية إدارية مرت عليها مئات السنين من التحسينات والارتباط بالعاصمة، جعلت منها بلداً سهلاً حكمه. وكان غنياً. كانت الأرضُ كلها تقريباً، عدا أرض المعبد التي كانت عائدة إلى الفرعون، تُستأجر من قبل الفلاحين، وكذلك بذور القمح، بل وحتى ثيران الحراثة. وهكذا جرت الحبوب تحت إشراف مراقبين من دون عناء إلى المخازن الملكية، حتى القمح ومطاحن الزيت وإنتاج الغزل ومعامل نسيج القطن ومعامل الزجاج والمعادن التي اشتهرت بها الاسكندرية، كلها تشتغل بموافقة إدارة الدولة أو بإيجار منها.

كان بطليموس في حاجة فقط أن يعمل ما عمل الروم من بعده أيضاً، وفكرت زنوبيا في الحفاظ عليها: أشغال الإدارات العليا بناسها المقربين، وعدم إرهاق المصريين في ما عدا ذلك. لقد تُرك لهم نظام القضاء وعملتهم وآلهتهم التي اصطف تحتها هو والأجيال من بعده. وأعطى للبيطريين قطع أراضٍ صغيرة ومدارس للتعليم. وهكذا عاش كلٌّ لنفسه ولم تختلف

Twitter: @ketab_n

الحـال تحت سـيطرة روما. إلا في الاسـكندرية العاصمة، فقد نشـأ فيها كل المصريـيـن والمقدونيين والإغريـق واليهـود والـروم ومسـافرون اجتمعوا مـن كل انحـاء العالم، فشـكلوا خليطاً حيوياً غير مسـتقر من مليوني إنسـان. الشـوارع المسـتطيلة التي مر بها موكب التدمريين، عكسـت أخلاق المدينة بشـكل خاطئ، توجيهات تشـبه المتاهة ربما كانت أقرب إلى مزيجهم المثير والمتعـدد النزعـات؛ وحتـى في انسـجامها كانت ذات قوة جـذب لا تُقاوم. ذكّـرت بالعاهر التقليدية الجميلة السـاحرة، التي كانـت فاهمة للحياة، غالية جداً ولئيمة. وتقدمت زنوبيا لتسـتولي عليها. جلسـت الملكة الشـابة سعيدة غارقة في عرشـها العالي. كان للشـعب أغراضه ولها أسودها. كان كل شيء علـى ما يرام. وحتـى فكرة أن كل هذا الاحتفال في الشـوارع والتمويل، كان مدفـوع الثمـن من قبـل (فيرموس)، لـم يزعجها كثيـراً. السياسـة كانت لعبة مقنعـة ليس إلا. ومع (لونجينوس) كانت ستسـتطيع العمل بشـكل ثابت من أجل أن تضع لحكمها أساسـاً متيناً. لكن هذا لن يتم إلا على منضدة الكتابة، وليس أمام العامة. والآن ستتولى الرئاسة. وستستمتع بها. نظرت إلى الإيقاع الموحـد لحركـة العبيـد المتقدمين إليها: كان إيقاعاً يشـبه الرقص. مسّـدت بيدهـا على المطرزات الغالية لمسـاند عرشـها. الجمال كان فـي كل مكان. حتـى المدينة قـد تزينت من أجل اسـتقبالها. كل بيت في طريـق (كانوبيس) زيّـنتـه أكاليل الزهـور، على امتداد نظرها في الشـوارع الجانبية المسـتطيلة، ومض المرمر الأبيض لها، وعليه تزاحمت الجموع بملابسها الاحتفالية.

قـررت الاسـكندرية أن تصنع من الإحتلال احتفالاً شـعبياً. جنود تدمر الزاحفة ضايقتهم الراقصات والفتيات فعلياً. اندفع الموسيقيون براحتهم بين صفوف السائرين، وجعلوا صنوجهم وناياتهم تصدح عالياً بين البيوت.

عندمـا دخلت زنوبيا معبد سـيرافيس، اقتادت معها أسـدَيها مربوطين، كأنهـا لـم تفعـل مـن قبـل غيـر هـذا. حاشـيتها بقيـت فـي الفنـاء الداخلي. (لونجينـوس) وحـده ذهب معها برفقة الكهان إلى داخـل المعبد الخالي من الشـبابيك. ضـوء النهار المتسـلل أرسـل خطوطاً مـن الغبـار المتراقص بين الأعمدة الضخمة للقاعة المظلمة. هيروغليفيون تقدموا بأجسامهم المحدبة

Twitter: @ketab_n

الحجرية، وجوه تطلعت من أعلى العمود. وجاء من السقف صراخ خفافيش بلا جسم، غير مرئية في الظلام الدامس، رائحتها النتنة شديدة لا تُحتمل ملأت كل القاعات وضاقت أنفاس الزوار. في المزار المقدس لم يدخل ضوء النهار مطلقاً، في ضوء المشاعل صار إلههم مرئياً، رجلٌ ملتحٍ بوجه رقيق، سلة فاكهة فوق رأسه وكلب جهنم عند أقدامه. زمجر الأسدان بصحبة زنوبيا. «لمحات تستحق التقدير، أليس كذلك؟»، همست لـ(لونجينوس) مسرورة. «ماذا كان اسمه؟».

«إنه (برياكسيس)»، رد عليها هامساً.

«أها». صمتا لفترة.

«فاكهة وكلب جهنم، حصاد وعالم سفلي، هل يتلاءمان معاً». وجهت الكلام بتأكيد حذر إلى كاهن مصري، انحنى احتراماً قبل أن يجيب:

«حياة وموت، شفاء وتدمير، كل هذا مرتبط بعضه ببعض، واحد ينشأ من الآخر. (سيرافيس) يحفظهما في كلتا يديه. ويقوم بذلك باسماً لأنه يعلم أن الواحد يجب أن يُرحب به من قبل الآخر، إذ أمامه الكل واحد».

هزت زنوبيا رأسها: «أفلا يوجد فرق بين أن أعيش أو أن أموت؟ أو أن ينشأ شيء أو يتعطل؟ كأنني لم أكن لأُميّز؟».

«ربما يقصد الكاهن الكبير، أنه الجسد فقط الذي ينتهي». تدخّل (لونجينوس).

«بينما روحنا الخالدة تستمر في البقاء»، أيّده الكاهن مطرقاً رأسه بتواضع، ولم يكن تعبير وجهه مفهوماً:

«شيء يموت ويعيش شيء. إنها عودة الحياة المتكرّرة إلى الأبد». كلماته رنّت في الظلام. نظرت زنوبيا بتشكك إلى الوجه الفرح الضاحك لـ(سيرابس)، وإلى كلب العالم السفلي بجانبه. كلا. لم تكن مستعدة لابتسامة، والموت عند قدميها. هكذا، ثم قدمت القربان وبحسب ما متبع مبخرة محترقة، وانحنت ثم ذهبت إلى الخارج. فتقافز أسداها في الضوء.

«بأي شيء تؤمن بالحقيقة، (لونجينوس)؟»، سألت مرافقها ثانية عندما وقفا في ضوء الشمس اللاهب.

Twitter: @ketab_n

«بجملة فيثاغورس»، كان الرد سريعاً. «وأنتم؟».

ضحكت زنوبيا بهدوء. «أنا أؤمن بأن نظام الضرائب الفاسد هنا لا بد من إصلاحه». هذا القدر من المادية، قال (لونجينوس) في نفسه معاتباً بصمت.

«عندما تحدثتم قبل لحظات عن الروح الخالدة»، علقت زنوبيا، «تصورت للحظة وكأنكم قد درستم عند أفلوطين».

تردد (لونجينوس) للحظة: «أنا درستُ عند أفلوطين»، قال باختصار.

تأملته بدهشة مستأنسة. «قولوا لي فقط. أأنتم من أتباع الأفلوطينيين الجدد؟ ولِمَ لم ألاحظ هذا عليكم حتى الآن؟».

«ربما كنت كذلك لكن هذا منذ زمن بعيد».

«حدثني عن هذا».

ترك نظرة تمر بالفناء الداخلي للمعبد، على التحدب الهائل والأعمدة المتعددة الألوان والحروف المنتمية إلى نظام دولة مصر القديمة. ثم نظر ثانية إلى ملكته التي ارتدت رداء الفراعنة بأجمل شكل وأبهى صورة.

«التاج المزدوج يليق بكم جيداً»، لاحظ.

«لهجة التهرب في المقابل لا تنفعكم، كيف وصلتم إلى أفلوطين؟».

«بكل بساطة: كنت مسافراً على سفينة إلى روما»، أوضح لها.

«آخ، (لونجينوس)، الآن أجبني أخيراً لماذا درستم عنده بالذات؟».

«لأنه كان أكبر فلاسفة عصرنا. من مستوى ذهني رفيع، على العكس من كثيرين ممن أعلنوا شفاء الغير والوعاظ المنقذين، والذين عملوا الآن على الإساءة إلى اسمه». توقف (لونجينوس) ثم واصل: «غير أن عليّ أن أتبين قريباً أن عوالم كانت تفصل بيننا»، هز كتفيه، «أنا ببساطة لا أصدق ادعاءات المتصوفين».

«لا تسخر منها»، أكملت هي، «المسكين، ألم تقسُ عليه كثيراً؟».

«ليس كثيراً. كان يوحي بالهيبة والحكمة، حتى أن أي تلميحة حادة ضده صارت ممنوعة من ذاتها. كان المرء يخشى أن يتحول بكامله إلى غاز أو شيء آخر». ابتسم (لونجينوس).

Twitter: @ketab_n

«هـذه هـي المرة الأولى التي تتحدثون لي فيها عن أنفسكم». لاحظت زنوبيا باستغراب.

«كانت هذه المرة الأخيرة، كونوا على ثقة بذلك».

هنا انقسمت حاشية زنوبيا كانقسام موج البحر، ودخل (فيرموس) كأنه شراعٌ.

«ماذا يحدث هنا؟»، كان غاضباً. «المدينة تصرخ منادية لكِ في الخارج، وأنتِ تقفين هنا وتتفلسفين. الإجازة الحضارية لها وُقِّتت حتى الغد. يريد الناس الاحتفال بالحدث الكبير. فامنحيهم ذلك».

«كلٌّ يعود إلى مكانه وإلى العمل»، قلّد (لونجينوس) لهجته تماماً. زنوبيا مسدت على شعر رأسي الأسدين الخشن.

«أتستمعان إلى هذَين المشاكسين، إذا كنتما جائعَين فلكما أن تفترساهما. أعدكما بذلك».

وأحاط الفضوليون الشوارع ثانية، عندما تقدمت العربة الهائلة إليها. نُثرت الأزهار تحت حوافر الخيل، جموع الجماهير المحتفية الفرحة اندفعت من جديد. لكن فجأة ظهر من بين الجموع شخصٌ رث الثياب ركض إلى أبي الهول حيث زنوبيا. كاد الرجل يصعد منتصف السلم، لولا أن أمسك بتلابيبه أخيراً وبشدة جنديان، حاول التملص منهما ما استطاع، فأطلق بصوتٍ رن عالياً شتائم:

«عاهر بابل»! صرخ، «عاهر بابل! لكنه مكتوب أن الحيوان ذا اللون الأحمر القرمزي قادم. ستمتلئ جشعاً، وبها سيحل الدمار». تعثَّر صوته. نظرت زنوبيا بامتعاض إلى هذا الوجه الشاحب غير الحليق. له عينان غامقتان نظرتا إليها بكل انفعال. ثم جاء (گاش) ورفع السكين ورمى بنظرة على هذا السفيه، وأمر الحرس بإبعاده. كان عليهم أن ينتزعوه انتزاعاً من كل درجة سلم، بينما استمرّ في الصراخ.

«عاهر»، رنت في أذني زنوبيا التي أذاها الصراخ، «عاهر بابل! سأقتلكِ وسيرضى الرب. سأقتلكِ». ثم اختفى. واصل الموكب المسيرة. عدا القريبين منه، لم يفهم أحد ما قال. لكن (گاش) قاد حصانه إلى جانب حصان صديقه

Twitter: @ketab_n

(أرتسو)، ضابط شاب في الخيالة.

«لاتقتلوا الرجل الآن». أمر، «دعوه يأتِ إلى مقر إقامتي. يجب أن أعلم، إذا كان معه رجال آخرون. (أرتسو)»، نادى صديقه ليعود وقد أومأ موافقاً وقاد حصانه. «خذ رجالاً يُعتمد عليهم لهذا الغرض، ولا تحدّث في الأمر أحداً»، أومأ (أرتسو) ببطء، ثم ابتعدوا جانباً عن أبي الهول الآتي على عربة، وبينما كانوا واقفين إلى جانب الشارع مرت بهم زنوبيا على عرشها بإكبار.

Twitter: @ketab_n

وأين يختفي...؟

«أين يختبئ الوغد الآن ثانية»، نادت (تارسيس) كالعادة وكفتت قماش الخيمة جانباً. «لا يستطيع المرء تركه لحظة بلا مراقبة».

ابن زنوبيا الصغير (فابالاتوس) استمتع في إقامته في خيمة أقربائه استمتاعاً كاملاً. تعلّم المشي متأخراً جداً نسبة إلى أقرانه. لكنه تقدم خطوات سريعة منذ أن عاش في الصحراء، حيث هناك أشياء مثيرة. أسرع فرحاً على قدميه اللتين ما زالتا سمينتين، خلف الماعز، حين ساقوها إلى مصدر الماء، وضرب الحيوانات على جوانبها برقة غير مقصودة. صبيان الرعاة كانوا أنفسهم ما زالوا أطفالاً، تطلعوا إليه فرحين مستمتعين بأخذهم الصغير معهم، وأركبوه أحياناً فوق ظهر عنزة لوهلة قصيرة.
إذا ما اقتربوا من الماء طارت الطيور ورفرفت بأجنحتها وانطلقت غزالة مسرعة أحياناً متأخرة في فزع مفاجئ.
«عنزة كبيرة»، صاح (فابالاتوس) خلفها وصفق بيديه ليسوقها. كان كل شيء بالنسبة إليه ساحراً في القدر نفسه. أحبّ شيء إليه كانت كلاب البدو الصفراء النحيفة المرتفعة القوائم، كان يلاحقها بميل تلقائي. الحيوانات شبه الضارية الحرة هذه كانت تقابل محاولات احتضانه لها، في غالب الأحيان، بزمجرة . اندفعت (تارسيس) فسحبته لئلا يكون على مقربة من هذه الوحوش التي لا مأمن من خطرها. بنو ماتابول استجابوا بهزة كتف غير مبالية لتوجيهاتها، بربط الكلاب برباط. حتى وإن كان ابن الأميرة، فلا يمكن ربط الكلاب بالحبال، أية فكرة غبية كانت هذه. هذه الأفكار تخطر فقط في بال أهل المدينة.

Twitter: @ketab_n

لم تُجِد (تارسيس) الاتصال الصحيح بالبدو، كان النفور بينهما متبادلاً بالتأكيد. لم تخفِ (تارسيس) شيئاً حول وجهة نظرها عن الطعام وعن جودة الفراش، وقبل كل شيء عن صحية الحياة في الخيام. طباعها التبذيرية في استحمام (فابالاتوس) مساء كل يوم في حوض سباحة برونزي صغير مُلئ بالماء الصافي، قد تسبب بنظرات غاضبة من سكنة الصحراء الذين من ناحيتهم تجاوزوا الأمر بالاكتفاء بهز أكتافهم.

رفعت (تارسيس) رأسها عالياً بوعيها التام بتفوقها الحضاري. تصرّفت بكبرياء وكأنها ما زالت تسير يومياً في القصر الراقي في تدمر، ومشت على الرمل الحار وكأنه مرمر بارد.

نفضت بأطراف أصابعها كل صباح ملابسها وملابس (فابالاتوس)، مثلما تعلمت كي لا تختبئ فيها عقرب.

وفعلاً في أحد الأيام عندما سقط واحد من هذه الحيوانات الصغيرة، ولوى إبرته أفزعت صرختها العالية المخيّم كله. غير أن يداً صغيرة تحركت لمساعدتها. نساء البدو اعتدن خوف نساء المدينة. كان على الشيخ نفسه الحضور إلى هناك، فداس العقرب تحت نعاله الجلدي وقتلها. وبانزعاج فرّق النساء المتجمعات وانصرف.

لم يكترث (فابالاتوس) بالتوتر، فقد كان الجميع ودودين له. الرمل الموجود في كل مكان، الذي اشتكت منه (تارسيس) دائماً، كان له وسيلة لعب مدهشة، والموقع بخيامه المفتوحة نهاراً، ونار الطبخ المهفهفة مساءً، كل هذا كان مدعاة دهشة فريدة له.

«أين يختبئ هذا الوغد ثانية؟ (فابالاتوس)»! نادت، «(فابالاتوس)، تعال إلى نانا، يا عزيزي. اللعنة»، ثم تمتمت بصوت منخفض، عندما أحرق الرمل الحار قدمَيها الحساستين: «لو لم يجر الصبي ثانية إلى موقع الماء الخطر هذا، حيث تترصد الحيوانات الضارية أوغاد البدو ناقصي التربية، الذين كانوا يلعبون هناك، لما توقع المرء أنها اهتمت بالطفل بالشكل المطلوب. في النهاية تركوه فوق هذا يغرق في حفرة الماء! آخ، ما هذا، يغرق. والشرب من هذه البركة الطينية البنية، لعلّه سيكون سبباً في مرض

Twitter: @ketab_n

الجميع عاجلاً أم آجلاً.

«(فابالاتوس)»، مجبرة خرجت إلى الشمس المحرقة ومشت بين الخيام السوداء. أي حر هذا، سحبت البرقع عميقاً إلى جبينها. وكأن قبضة هائلة ضغطت المرء إلى الارض، رأت كيف عبرت بسرعة إلى بيت سعيدة. كانت العجوز تأخذ الصغير بود إليها لتهدهده وتروي له حكاية وتطعمه تمراً: ربما وجدته اليوم أيضاً هناك.

فعلاً أتى إليها (فابالاتوس) قادماً من مقدمة الخيمة، فاتحاً لها يديه المصبوغتين بالأبيض منتصراً. عدد من النساء تربعن جالسات على شكل دائرة، نشرن على حجارة مستوية أرغفة عجين. ضحكن عندما بدأت (تارسيس) تنظيف أصابعه بجد وعناية، من دون أن تكترث بنكات مساعداتها حول صغيرها، خفضن رؤوسهن ثانية لمواصلة العمل، وهيأن العجين من الطحين والماء. أنشدت إحداهن أغنية عمل قديمة، تحركت الأيدي على إيقاعها في العجين. (تارسيس) و(فابالاتوس) كانا خارج المجموعة، وقد قادت الصبي خلفها.

عادت إلى الخيمة وأجلسته مع عدد من الأشكال الخشبية الصغيرة على بساط، ونبهته أن يبقى هادئاً هنا حتى عودتها. اختفت البسمة من على شفتيها لمجرد مغادرتها الخيمة. بصعوبة وصلت إلى حوض غسيل برونزي، أمسكت به واضطُرت للتخلص من غصة في بلعومها أن تستجيب لها فتقيأت. ارتمت في فراشها وهي غارقة في عرقها. كانت هذه المرة الثالثة التي حدث لها فيها هذا. لم يكن عندها مرض جدي، أو...؟

لفت انتباهها هدوء في الخيمة. عندما ذهبت وغسلت بسرعة ما علق من القيء والعرق على رقبتها ووجهها، ثم عادت إلى الغرفة الرئيسة فوجدتها خالية، (فابالاتوس) اختفى مجدداً.

رفعت (تارسيس) يديها يائسة، وعضت على شفتيها. لو لم تكن دائماً تشعر بالنعاس في الأيام الأخيرة، لكان أسهل عليها متابعة الطفل الحَرِك. لا بد أنه الحرّ الذي جعلها تدوخ بين الحين والآخر. كانت تلهث. وكان هو، حبيبها الصغير، كأنه كيس مليء بالبراغيث. بعد ذلك مسحت بنشاط وجهها

Twitter: @ketab_n

ورفعت رأسها عالياً وبشموخ. هذا الصبي البدوي لم يرق لها أن تراه باكياً.
«(فابالاتوس)»!، وصارت مجدداً تحت الشمس.

* * *

«اللعنة، أين بحق (هادس) هم الآن؟» وجّه (بروبوس)، مقدم في جيش القيصر في مصر لنفسه هذا السؤال للمرة المئة، بينما تابع بعينيه الأفق، ماراً ببحر هادئ كله سلام تقريباً.

انطلق الأسطول قبل أسبوع ممتلئاً بالحماسة، عندما أبلغه أحد مخبريه أن عصابة القراصنة الغوطيين، التي تسببت لهما بالقلق منذ شهور، قد تجمعت في خليج صغير قرب بيلوسيون. بدا أن هذا كان مفتاح نصر. وأخيراً سنحت الفرصة لهزيمة هؤلاء الأوغاد المتجمعين، وقد كانوا قبل ذلك بقوة جيش تقريباً، للتخلص منهم نهائياً. ربما كانت هجمة متكاملة، لعبة سهلة. هذا ما اعتقده قبل أسبوع.

غير أنه عند (بيلوسيون) انساب عدد من زوارق الصيادين بسلام في أمواج البحر، وعند الشاطئ تراكض الأطفال سوية معجبين بالأسطول الأمبراطوري الفخم، بأشرعته المتعددة الألوان، المجهزة مقدمتها بمصدات برونزية ظهرت فجأة من لا شيء في زاويتهم المتواضعة من العالم.

صرخت طيور البحر بصوت مبحوح، وانطلقت أوامر الفرقة من أسفل إلى أعلى. وبضربات هادئة أعطى الطبل إلى العبيد إيقاع المجاذيف. شقت المجاذيف الخشبية عباب الماء بانسجام، ولمعت الشمس فوق قطرات الماء التي تناثرت بعد كل ضربة مجذاف. انضم عدد من الدلافين إلى قافلة السفن الحربية، وسبحت إلى جانب سفينة القيادة.

تأملها (بروبوس). كانت الحيوانات تغوص وتقفز وتلعب تحت بطن السفينة. أسرعت ثم عادت وبدت بقفزاتها العالية، كأنها أرادت لفت انتباهه إليها. سُمع صوت كأنه ضحكة.

لكم الحق، فكر (بروبوس). نحن نرابط هنا منذ أيام بلا جدوى، فهذا مضحك بالطبع بحق نبتون. كانت الحيوانات قريبة الآن. حتى أنه استطاع

Twitter: @ketab_n

رؤية وجوهها. بدا له كأنها تنظر اليه مازحة.

«هَـي، أنـتِ»، ناداهـا (بروبـوس)، «تقدمـي إلى هنـا. أما رأيـتِ بضعة قرصان غوطيين؟ لم تريهم، صحيح، آخ، اللعنة». وبصق في البحر.

«المقدم»، قبطان السـفينة وقف أمامه. رجل صار شـعره رمادياً، ضخم وقويٌ تغلغل صوته إلى أبعد زاوية من سفينته.

«آخ، لا شيء، (تكلينوس). تحدثت فقط مع الدلافين». استند إلى سياج السـفينة مكدر المزاج. كانت السماء العريضة فوقهم صامتة زرقاء بلا نجوم. رفـع (بروبوس) الخوذة الثقيلة عن رأسـه وترك نسـمات الهواء تبرد تجاعيد شـعره التي امتلأت عرقاً. «أنا أكره حالة اللاعمل هذه. بالتدريج بدأت أسأل نفسي، ربما كانت هذه نكتة بغيضة لعبها أحدهم علينا».

«تقصـد أنهـا نكتة أيهـا المقدم؟»، فكـر (تكلينـوس) مليـاً: «تقصدون (تيماغينس)؟ لقد كان لحد الآن غير موثوق به كثيراً».

«اوه، لا أسـتطيع أن أفتـرض أوهامـاً حـول (تيماغينـس). إنـه مؤتمـن كالثمـن الغالـي الذي دُفع من أجلـه. ولقد دفعتُ له كثيـراً». نظر (بروبوس) إلـى القبطـان مباشـرة. عينا المقـدم كانتـا زرقاوين كالـلازورد، مثـل البحر المحيط بهم، تناسُق نادر مع الشعر الأسود الكثيف. وقد أعطت نظرته شدة، لم يسـتطع أحد الإفـلات منها، ولا حتى دب البحر إلـى جانبه، المعتاد على الهيمنة. انتظر (تكلينوس) متوتراً كلمات (بروبوس) التالية.

«لقد دفعت له جيداً»، كرر (بروبوس) فقط. ولم يكن ذلك دائماً سـهلاً عليه، منذ أن توقفت البنوك في الاسكندرية عن قبول العملة الفضية الرومية. كانـت الفضة فيها أقل،حسـبما قالوا، الفضة أقل، أجـل، لقد كان لهم الحق، وبعبارة أدق، كانت العملة النحاسية مغطاة بطبقة خفيفة من الفضة، تلك التي بعثها له قيصره عندما كانت الميزانية غير كافية للسيطرة على الحرب الأهلية المتعاظمة في البلاد. فكر بتأمُل.

«غيـر أن السـؤال هو: من يسـتطيع أن يدفـع أكثر؟ ولمـاذا؟». ولم يكد ينطـق السـؤال الذي كان عذَّبه منذ أيام، حتى عـرف الجواب، ونظر في وجه (تكلينوس) نظرة عرف منها الجواب أيضاً. ضرب بقبضته على السياج.

Twitter: @ketab_n

«اللعنة! علينا الرجوع، (تكلينوس)، فوراً في اتجاه الاسكندرية»!

«سيروا في اتجاه الاسكندرية»! استوعب (تكلينوس) النداء، ثم رنت أوامره فوق السفينة. فدبت الحياة في البحارة الدائخين. تسارعت ضربات الطبل تحت السطح وسفينة القيادة التابعة لأسطول (بروبوس)، ابتدأت بالتدريج بتوجيه استحكاماتها الدفاعية في اتجاه الغرب، إلى الاسكندرية. تصاعدت الأمواج عند مقدمة السفينة.

بعد قليل وصلوا إلى خارج الخليج الصغير، وتوجهوا إلى الجنوب الغربي، عندما جاء نداء من أعلى مرقب الصارية.

«في الأفق شراع!».

«ماذا؟»، استند بربوس إلى سياج السفينة: أصابعه أحاطت بالخشب بقوة، حتى برزت عضلات تحت بشرته السمراء. «اللعنة عليهم، وحق هادس، أترون هذا يا (تكلينوس)؟».

«نعم، سيد».

تبين القبطان الذي تقدم إليه ثانية بهدوء، «إنهم يقطعون الطريق علينا إلى الاسكندرية».

«يريدون المعركة»، قال (بروبوس) غاضباً، «هذه الحيوانات الغوطية تتجرأ مهاجمتنا. حسناً فليحصلوا على قتالهم. إعلان المعركة!»، انتقل الأمر إلى الآخرين. انضمت إلى يسار السفينة من الخلف «نيرايدة»، برأس حورية الماء عند مقدمة السفينة، ومن اليمين اقتربت «كليوباترا» بلون أبيض بهي، سفينة مطلية بالأزرق والذهبي من أيام أسطول بطليموس، على مقدمتها ما يشبه ربطات الحِلْفاء وأزهار اللوتس، ولم تكن محمية بالإبر الشوكية. غير أن على سطح السفينة الخلفي ارتفعت قاعدة مربعة قوية ببرج قتالي رومي شيّد حديثاً، وفيها استعدت الحماية المؤلفة من حملة السهام لتغطية قوات الاقتحام المنتشرة، جسور العبور فوق أسيجة السفينة المذهبة نصبت وهي جاهزة للضرب إلى أسفل بمساعدة النهايات المدببة البرونزية لتثقب السطح الخشبي للعدو.

اصطفت السفن بشكل إسفيني، ضربات المجاذيف صعّدت السرعة

Twitter: @ketab_n

مجـدداً. بصريـر الأحزمـة أخذت السـفن طريقهـا وازدادت سـرعتها شـيئاً فشـيئاً. اقتربت سـفن القراصنة، وسـرعان ما رأوا خوذ المحاربين الغوطيين وبلطاتهـم، لمعت خلف جنبات السـفينة وارتفعت فوقهـا أذرعة المنجنيق. أُطلقت القذيفة الأولى، ودارت سلسلة القذائف التالية في الهواء، ثم اقتربت من سفينة (بروبوس) لكنها وقعت في البحر.

«القذائف الخشبية النارية حاضرة؟»، نادى (بروبوس).

«أحضروا القذائف النارية»! أتى الجواب من مؤخرة السفينة.

«ما هو اتجاه الريح؟».

«الريح على العدو»!

«إذاً أطلقوا الآن».

رمـي اللهب المشـتعل إلـى جانب السـفينة، بينما كانت محشـوة بفتيل وزيت وأعشـاب معدَّة أشـعلت بسهم مشـتعل. دُفعت هذه في التيار بقضبان طويلة، من على بعد سـيقت إلى العدو. عصابة سـفينة الغوطيين اختفت في غضون دقائق قليلة خلف سـحابة من دخان أسـود، غطت السماء التي كانت قبلها زرقاء بلا غيوم.

«لنـرَ كيف سـيتذوقون هذا»، تمتـم (بروبوس) راضياً. ثـم أعطى الأمر التالـي: «انتشـار بحركـة تطويـق وملاحقتهـم بالتدريـج. سـوف لا نضغـط عليهـم». هـذه الجملة الأخيـرة وجههـا إلى (تيكلنـوس). «تجنبـوا! خلف اليسـار الصلب»! صـار العدو وسـط الدخان والسـخام، وللحظـات طويلة لم يمكن اسـتيضاح مكانه. هنا اخترق السـحابة ذنب متوهـج فبقي عالقاً في الشـراع المشـطب بالألوان لسـفينة (بروبـوس)، وارتفع لهيبه. سـهم خارق أصاب الشـراع الرئيس، وانتقلت النار بسـرعة في القماش المشـطب، فصار النسر الرومي رماداً.

«اللعنـة، أيـن...»، لم يسـتطع (بروبوس) إكمال جملتـه. كانت طقطقة احتراق الخشـب تُسمع. والتصدع الفظيع الذي سببه حفر المسامير الدفاعية المحيطة بالسـفينة في جناح السفينة المعادية. شظايا تطايرت، ناس صرخوا. وبأسـواطٍ رن صداهـا حاول المراقبـون إعـادة العبيد إلى تحريك السـفينة،

Twitter: @ketab_n

أولئك الذين أصابهم الهلع والخوف من الغرق فحاولوا فك القيود. هل أصيبوا؟ أم أن المسامير أصابت الخصم؟

«رجوعاً، رجوعاً! حركوا الجذافين! رجوعاً، يجب أن نخلص نفسنا. كيف هي الأضرار (تكلينوس)؟»، غير أن القبطان سقط منهاراً بعد أن دخل سهم بلعومه. وابل جديد من السهام تساقطَ. (بروبوس) اختبأ وسحب سيفه: تصاعدت روائح لحم محترق.

«رجوعاً»، أمر مجدداً ونُقل أمره إلى الآخرين، ببطء وتأوه كأنه حيوان ضارٍ مجروح، تحررت السفينة الرومية من خصمها. الأخشاب أنت تحت ضربات مسامير العدو للمعابر داخل السفينة، وحفرت في الأبراج السميكة. وبضربة بقضيب طرح (بوربوس) أول رجل توغل عبر الممر الضيق أرضاً، آخرون هجموا بعده وانتشروا في كل مكان تمسكوا بسياج السفينة وتسلقوا عالياً، سُمع صليل السيوف وبلطات برونزية رفت بدوائر مميتة، فلقت رؤوساً وخوذاً. صراخ القتال المروع للغوطيين ارتفع فوق السطح.

ثم حدثت رجة في السفينة، وانبعثت بين السفن نافورة ماءٍ توسعت بسرعة، فانهارت المعابر بطقطقة، وسقطت في البحر. وبعد اشتباك بالأيدي بلا رحمة، دُفع القراصنة إلى جنب السفينة. وسقطوا واحداً بعد الآخر تحت ضربات سيوف الروم الهائلة. وسرعان ما قُتل آخر واحد من الخصم، ورُمي به إلى خارج السفينة، واستطاع (بروبوس) أن يتوقف. بإحدى أطراف عباءته ذات الحافة الأرجوانية مسح العرق عن عينيه، وسعى لإلقاء نظرة شاملة حول المعركة.

تبين له وهو غاضب جداً وبارتياح، أن إصابات العدو أكثر بكثير من إصاباتهم أنفسهم. سفينة القراصنة التي هاجموها بشكل مفاجئ وهي في جدار الدخان، تحطمت وصارت مجرد ألواح. توغل الماء هناك حيث أصابتها المسامير المحيطة. مع الأشرعة المحترقة سقط بسرعة وسط الدوامة ماءٌ برغوة بيضاء.

(بروبوس) واصل النظر من حوله. إلى جواره أصيبت السفينة المجاورة «نرايدة» داخلة في سفينة الخصم. صفوف الجذافين محطمة.

Twitter: @ketab_n

من بين سحابة الدخان يرى المرء على السطح أشكالاً من مرتزقة وقراصنة تساقطوا من صاري السفينة وأعمدة شراعها. التهم اللهيب سطح السفينة. لم تكن أية مساعدة ممكنة. هنا أتت سفينة جديدة في اتجاههم. بعينين مفتوحتين بشراسة جالت في مقدمة زرقة البحر، تعلن تهديداً لهم. شعروا برغبة عارمة في القتال.

«حدِّدوا الاتجاه»!، صرخ (بروبوس) «تهيأوا للسرعة! انحرفوا نحو اليسار بحسب أمري. سنحلق ذقونهم!» للمرة الثانية نزلت المجاذيف. انحرفت السفينة استجابة لندائه إلى اليسار، قبل أن اقترب القراصنة بقليل، وتقدمت بسرعة خاطفة تقريباً.

«التجذيف إلى اليمين»! هنا ارتطمت الأجسام الخشبية الواحد بالآخر. وبطقطقة تحطمت صفوف الجذافين الأولى للقراصنة، وتساقطت الألواح في الأمواج، وارتفع الصراخ.

«انعطافة واقتحام»!، صرخ (بروبوس). وأمر بمناورات التفاف.

«إنهم جاهزون للمناورة».

ضحك، البقية كانت سهلة. التفوا وضربوا السفينة الضعيفة بكاملها في جانبها. فرق الإسناد أرسلت إليهم سهاماً حارقة تلتها سهام حارقة أخرى، إلى أن تخلصت المسامير بالاهتزاز ثانية من جسم سفينة الخصم. وانسحبوا من الفوضى ومن النار إلى الخلف. صراخ وصوارٍ ساقطة انزلقت في البحر الذي أصبح هادئاً.

«إنهم ينسحبون إلى الخلف»! جاء النداء من المرصد. مسح (بروبوس) لاهثاً السخام والدم من جبينه، والتمعت عيناه الزرقاوان. رمى نظرة حيث رقدت الاسكندرية خلف الأفق، ثم نظرة أخرى إلى السفينة التي كانت مثار فخره.

الـ«نيرادة» غرقت إلى جواره، حطامٌ مغطى بمن بقي على قيد الحياة وبالنمل، طفت على الأمواج. «كليوباترا» التي سلمت إلى حد بعيد عدا ثقبٍ في جنبها. رست من دون أذى على خط الماء. ما زال الدخان متصاعداً، أحرق عيونهم الدامعة. قراصنة، ليسوا

Twitter: @ketab_n

سوى عصابة من قراصنة، ظن بمرارة. أعطى (بروبوس) أمره لـ (بيكاسوس) بجمع السابحين.

مع (تيماغينس) والذين كلفوه بالمهمة، أياً كانوا سينقطع الاتصال لاحقاً. إذا كانوا قد اعتقدوا أن بإمكانهم الارتباط بالقراصنة واستدراجهم إلى خديعة، فقد أخطأوا. لم تكن روما سهلة للهزيمة بهذه البساطة. كلا، ما دام بإمكانه توجيه الأوامر. لم يخسر سوى سفينة واحدة. ما زال في فمه طعم الدم: بصق في البحر.

«طاردوهم!»، وكان قراره ثابتاً. «سنجلبهم إلينا! وستندهش الاسكندرية حين ترى رؤوسهم نابتة على جنبات سفينتنا».

Twitter: @ketab_n

عاهر بابل

لا (لونجينوس) ولا (كليليا) عرفا وهما في هودجهما شيئاً من أحداث ما بعد الظهر. وهكذا استلمت زنوبيا الأخبار وحدها بعد ذلك بقليل وبكل هدوء من (گاش)، بأنه أمر بإعدام القاتل، وطمره في واحدة من مقابر الفقراء في الاسكندرية، ربما كان عضواً في طائفة موحّدة، أوضح (گاش) غير أنه لم يطالب أحد من إخوانه في العقيدة بجثته. ربما لأنه وحسبما أظهرت التحقيقات كان مجنوناً معروفاً في المدينة، وكان من رواد الحانات، وأطلق مواعظ مليئة بالحقد وتنبؤات مفزعة، بينما شرب على حساب الناس الآخرين، وازداد فساداً يوماً بعد يوم. اتهمه البعض بأنه كان سبباً في موت عدد من العاهرات الشقراوات واللائي قُضي عليهن في الشهور الأخيرة دائماً بالطريقة نفسها، غير أن آخرين حسبوه كذاباً غير مؤذٍ، اعتقد أن نهاية العالم قريبة، ولم يقدم في النهاية شيئاً مؤكداً.

أبدت زنوبيا رضاها عن الأمر. حتى هي اعتبرت الرجل في النهاية مجنوناً. لم يكن في الحقيقة قد أفسد عليها مرة مزاجاً. لذا ما أرادت كذلك إزعاج أحد بلا سبب، ولا حتى إفساد احتفال أراد (فيرموس) إقامته مساء اليوم من أجلها.

كان مزاجها ما زال في تصاعد عندما اقتيدت إلى القاعات الفخمة، التي خُصصت لتكون بيتها ما دامت مقيمة في الاسكندرية. ومن أجلها كان (فيرموس) قد استأجر عدداً من الغرف الهائلة في قصر كليوباترا سابقاً، وأمر بتجهيزها بالغالي والنفيس من الأشياء التي انبهرت بها البلاد الغنية. في الوقت الذي لم تستطع زنوبيا الافتراق عن المكتبة المجهزة جيداً، كانت (كليليا) قد ابتعدت بسرعة.

Twitter: @ketab_n

«انظـري إلـى الحمام»، سُـمع صوتٌ من مـكان ما، متبـوعٌ بخرير. هذا الحمام تبين أنه كان قاعة في وسـطها مدرجـات إلى أعلى تؤدي إلى حوض استحمام دائري هائل. صديقتها استلقت مستمتعة بالماء المنثورة في وسطه أوراق الورد.

ركن مريح بمضاجع تدعو إلى الاسـتراحة. الأجهزة وطاسـة مسـطحة علـى منضـدة الزينة تنبئ عـن أسـرار الجمال المصريـة الموغلة فـي القدم. وهنـاك أحواض سـباحة أكثر وأعمـدة علتها زخارف كورنتيـة. قاعات بخار ... كل هذا كان من المرمر الباهت الاصفرار ومزين بإسـراف. عدد كبير من الجراول. زُرع فيها نخيل وأشـجار اللوز ما يعطي المرء شعوراً وكأنه يتجول فـي حديقـة. أسـرعت زنوبيـا فرحة إلى حـوض السـباحة الكبيـر، وخلعت ملابسـها فـي الطريق، وانزلقت إلـى جانب (كليليا) في المـاء الدافئ العطر. طبّشـوا في الماء لبعض الوقـت، وبعد ذلك واصلتا جولتهما الاستكشـافية، وهمـا ملفوفتـان بملاءتين وحافيتان. كانت القمة بلا شـك هـي غرفة النوم، رغـم أنهـا كانـت بالمقارنة مـع الغرف الأخـرى توفر أبعـاد أجواء إنسـانية. جدرانهـا مغطـاة بكاملها بالحريـر، كان حريـراً حقيقياً بالفعـل! نصف ثروة حاكم شـرقي لا بـد قد صُرفت لمثل هـذا الترف المثيـر للضحك. الخطوط كانت مثبتة في نقطة وسـط السـقف نازلة بشكل يشـبه الخيمة. ربما كان هذا تعبيـراً عـن إجلال لأصلهـا البـدوي؟ أم أن (فيرموس) قصد السـخرية منها بعض الشيء؟ ربما كان كلاهما مقصوداً. القماش المعطر لمع في لون باهت رقيق، مذكراً باحمرار الصباح، من خلاله انبعث شـعاع الشمس نقياً ومصفى بدقة. وكذلك السرير، كان محاطاً بالبراقعِ، حتى الوسادة كسيت بها.

وقفت زنوبيا فاغرة فاها من الدهشـة. اسـتدارت إلـى (كليليا) وتقابلت نظراتهمـا، ثـم انفجرت الاثنتـان بالضحك بصوتٍ عالٍ وكأنهمـا نفذتا أمراً. تدحرجتا على الفراش الذي لا يُقدر بثمن، وتركتا سيقانهما تتخبط في الهواء وطفقتا تصرخان فرحاً.

«أوه، آلهة الفجر بأصابعها الوردية»، نفخت زنوبيا، «بشـرتكِ اكتسـبت فـي هذا الضوء لوناً أجمل من ذي قبل»، التهمت بقبلةٍ بشـفتيها، فُتات كعكة

Twitter: @ketab_n

ورد ذهبية على بطن (كليليا)، مدت لسانها فداعبت بشرتها، ثم انزلقت تدريجاً عالياً في اتجاه نهدَيها، وضغطتهما بأنفها، قبل أن لامستهما بقبلة على كلا البرعمَين. تمددت (كليليا) مستمتعة في وسائدها وبدت راغبة، في قضاء العصر على هذه الطريقة،

لكن زنوبيا نهضت.

«خسارة كبيرة، إذ ليس لديَّ وقتٌ، فعليَّ أن أنجزَ بعض المناقشات، وأستعدّ لتبديل ملابسي من أجل الاحتفال»، ابتسمت معتذرة. «لا تحزني، حبيبتي في الأيام المقبلة سنعوِّض ما فات».

بذل (فيرموس) كل ما في وسعه ليجعل من الاحتفال حدث الموسم. وتولى التنظيم بنفسه. ليس من دون ثمن. كان قبل عشر سنوات قد بدأ مستقبله بمشروع حفل ماجن- لرجل- واحد.

تجهيز قاعات الاحتفال كان بطراز مصري تماماً. نقوشات متعددة الألوان عرضتها سيدات بملابس شفافة ذات طياتٍ، بشعور مستعارة ومخروطات عطر على الرأس، كأنهم انصتوا إلى الموسيقى، أزهار اللوتس في أيادٍ سمراء رشيقة يميل بعضها إلى بعض في مشاهد جانبية. صيادون رموا شباكهم على أسراب من طيور الماء في حَلفاء مزهرة. الأقدام في حالة حركة نحو زورق الحلفاء، داست عليه، تحتهم بين الأمواج البيضاء والزرقاء التمعت الأسماك. هذه أيضاً عرضت وجوهها عبر نصف الجسم العلوي المعروض من الأمام، في مشهد جانبي صارم من العيون الكحيلة من حولها ثانية، نظرت إلى المشاهد مباشرة آلهة السماء نوت، انحنت بجسمها على الغطاء الأزرق المزين من جبهته ونزلت إلى الجانبين بذراعين وساقين إلى الارض، فاغرة فاها، لتبتلع الشمس حتى تلدها من جديد في الصباح التالي. كافة الأعمدة كانت محاطة بنخيل أصلي، تأرجحت في تيجانها الطازجة ببغاوات كما تقافزت مجموعة من القردة الصغار. حيوانات جذابة بأطواق رقبة ملونة: رمت البلح للأسف على العبيد المسرعين هنا وهناك. عمل (فيرموس) أيضاً في هذه المسألة. كان لديه بنات مصريات اختارهن للخدمة فقط. وألبسهنَّ ملابس تقليدية، شعور مستعارة عالية وياقات

Twitter: @ketab_n

عريضـة مزينـة لصدريـات ملائمة حبالها مـن جواهر. كان الرجـال من دون استثناء من أفريقيا بسـوادٍ غامق، الأجسام المزينة جميلة وعليها تدلت قلائد مـن ذهب. عبيد المطبـخ تدربوا على إدخال الوجبة الرئيسـة التي كان يجب أن تُحمل على عربة تُسـحب من قبل نمـور إلى الداخل، بينما تجولت زنوبيا وتطلعت إلى ما حولها.

رآها (فيرموس) تقول شيئاً. حرَّك ذراعه يمنة ويسرة:

«كيف؟»، نادى مجيباً. بانزعاج أشـر إلى الموسـيقيين ليوقفوا التمرين. «أتريدين الاحتفاظ بهذا عليكِ؟»، ثم حيّاها. ارتدت زنوبيا رداءً فضفاضاً من أنعم أنواع القطن المصري ببياض غير منكسر. ضحكت:

«في هذه البيئة هنـا الإمكانية الوحيدة بالتأكيد للفت الأنظار. كلا، كلا، لا تهتم لديَّ رداءٌ فرعوني عجيب لمسـاء اليوم، أنا قادمة الآن من مناقشـة مع نائب المقدم».

«ومـاذا يقـول؟»، أراد (فيرمـوس) أن يعرف، كانت لهجتـه عابرة، لكن انتباهـه كان مشـدوداً. فـي الوقـت نفسـه كانت عيناه فـي كل مـكان، وراقبتا الفوضى من حولها.

«التماثيـل الحيـة أمـام النوافيـر»، قاطع زنوبيـا التي اسـتعدت في تلك اللحظـة للإجابة، وأمـرت مجموعة من الأجسـام المغطاة بمسـحوق ذهبي المجيء إلـى مكانهـا. كان المفـروض بهـم تقديـم مشـهد من حيـاة الآلهة المصرية أثناء الطعام.

«والآن»، ابتـدأت زنوبيـا ثانيـة، «لقـد اتفق معـي أخيـراً، أن نترك الأمر للقيصر ليقرر، في ما لو كنتُ مخولة كمصلح لشـؤون الشرق، استجابة لنداء اسـتغاثة من مصر، إذا لم يكن المقدم هنا مسـتعداً للقيام بعمله. ويدع لي أمر سؤال القيصر. إنه رجل ذكي».

«واضـح. توقفـي، هنـا كثير مـن أوراق الـورد علـى المرء أن يسـتطيع رؤيـة يـده أمـام عينيـه». (فيرمـوس) لـوّح مؤيـداً فـي اتجـاه الشـرفة حيث توقف نثر الزهور.

«هل قمتِ بشيء ما؟»، سأل ثم أكد مشيراً إلى أعلى.

Twitter: @ketab_n

«أنت تعني، عدا فصل الموظفين الروم ووضعهم تحت إقامة جبرية؟»، استمتعت في تركه يتعذب. في استراحتها الفنية، ارتفعت في مكان ما خلفهم أصوات ارتطام وطفطفة عمود من صحون برونزية هوت إلى الأرض. تبعها صراخ عالٍ وصوت أكثر هدوءاً، نادى في الاتجاه نفسه:

«(لوريـس) يا حلوة، أعتقد أن «البيتـون» التي تفتقدينها هنا». لم يلتفت أحد من الاثنين إلى الحدث، ونظرا بعضهما إلى عيون البعض الآخر بتوتر.

«نعم»، قالت زنوبيا أخيراً وهي مرتاحة، «على سبيل المثال لقد خفضت الضرائب». هنا فتح (فيرموس) فمه وضاقت عيناه.

«ماذا عملتِ رجـاءً؟ الضرائب، وهل أنتِ إذاً... آخ، اللعنة مرة أخرى. أنزلوا هذه القردة فوراً، وإلّا أنسـى نفسـي»، انطلق الصـراخ، بينما ضحكت زنوبيا بصوت رنان.

«كلا، بجد، (فيرموس)»، وألقت يدها مهدئة على كتفه. «أريد سلاماً في الولايـات. ثورة جياع الفلاحين في الجنوب، هـي آخر ما يمكن أن أتحمله. سنطلب من مصر قمحاً أقل مما تطلبه روما. وهكذا نسيطر على التجارة».

«هذا ما نفخه فيكِ هذا الفيلسوف، أليس كذلك؟ دولة العدل..».

هـزّ (فيرموس) رأسـه ممتعضـاً. «هذا سـوف لا يلائـم أصدقائي هنا»، وهدر بغضب، وعرفت زنوبيا ما عناه.

(تيماغينـس) هلـل للخبـر أولاً، لكنـه ورفاقـه في الحزب كانـوا مجرد ثوريـيـن لا أهمية لهم، حلموا بعظمة مصر وقاموا بأعمال صبيانية. الداعمون لهم هم الميسورون هنا في مجال البيع والشراء في الاسكندرية، في المقابل، والذين موّلوا كل هذه المغامرة، لا بد أن هذا الإجراء بدا مزعجاً لهم. سوف نقف مسـاء اليوم أمام معظمهم. نظر (فيرموس) إلى كل هذه الفخامة، وكأنه أسـف على النفقات. «في الخطوة نفسـها، أنتم أولاد الـكلاب، هذا بالنتيجة ليـس كيـس طحين ما تحملونه، إنـه مفاجأة عجة البيـض (أومليت)»، ارتفع صـوتٌ من خلفهم فجـأة، «والآن انزلوا. نعم، هكـذا العرض جيد. إليَّ الآن باللهبـة. بُـف»! أطفأها راضيـاً عن تأثير عرضـه، رجع رئيـس الطباخين إلى الوراء. إشعال اللهيب فوق الطعام لا بد أن ينجح مساء اليوم. لم يبقَ لابتسامة

Twitter: @ketab_n

(فيرموس) الباحثة عن المديح إلا إيماءة بالرأس أشارت إلى نفاد صبره. رفع الرجل حاجبيه إلى أعلى وأبعد العاملين تحت إمرته إلى الخارج: «لا أحد يرفع زينته عن رأسه!»، زنوبيا التفتت ثانية إلى (فيرموس):

«لو لم تكن مشغولاً، بودّي لو شرحتُ لك، كيف تصورت أنا تجديد إدارة هذه الدولة»، بإشارة ساخرة نبهته إلى الفوضى من حولها. لكن (فيرموس) عمل وكأنه غير مبالٍ.

وأفهمها بإشارة يد واضحة أنها يمكن أن تبدأ محاضرتها. زنوبيا قطّبت جبينها أول الأمر، ثم ابتسمت وخطفت لها عنقوداً من الكرز من صينية مرت بها، وبدأت:

«سأتناول النقابات الحالية، لكني سأعيّن لها رؤساء جدد من ذوي الاختصاص، أستطيع أن أكون معهم على اتصال مباشر».

«سيد، سيد»، قاطع طباخ الخضروات المنفعل والذي انطلق إلى (فيرموس) بلا توقف، «مقطِّع الخضروات مريض، لديه إسهال..».

«إلى الجحيم مع مقطع الخضروات»، تمتم (فيرموس) ودفع الرجل جانباً، «هذا يبشر بأن المسألة ستكون ممتعة. واصلي الحديث».

«والآن»، أوضحت زنوبيا، «سيكونون مسؤولين أمامي بأن تدفع لي نقاباتهم مجموع الضرائب المطلوبة. كيف ستُحصَّل هذه، هذا ما يقررونه هم. إضافة إلى ذلك ينبغي أن يكون القرار تحت رئاستهم، من وماذا وكم وبأي سعر يكون الانتاج. باختصار»، رفعت اليَدين، «هذا هو النظام الفرعوني القديم».

«النظام الفرعوني القديم»! قال (فيرموس) طَرِباً، «وفي يد خاصة»، نظر شزراً، «هذا يشبه الوضع الاحتكاري»، نظراته اتسعت من ثانية إلى أخرى.

«إذهب إلى (ينليان)»، توجه فجأة إلى الطباخ، «إنها رائعة في الخرط، قُل لها إني أرجوها. وقل لها إن لها عليّ تحقيق رغبة لها. أي طفل ذكي»! قبّل زنوبيا من كل قلبه على خدَّيها، «وبضائع الاستيراد، لو توضحين هذا بسرعة أيضاً..».

«...تسلَّم إلى مستوردٍ رئيس لتُباع بعد ذلك. مثل الحرير على سبيل

Twitter: @ketab_n

المثال». وتوقفت. رفع (فيرموس) أحد حاجبيه متسائلاً. أومأت زنوبيا له:

«أهنئك أيها الصديق القديم، لقد أصبحتَ الآن الوكيل الوحيد للحرير في منطقة البحر المتوسط».

ضحكت ومشت بخطى مرحة، سعيدة كطفلٍ بمفاجأتها الناجحة. نظر إليها (فيرموس) وهز رأسه متفهماً «هذه الملكة كانت ذكية ونشطة: لقد حققت أهدافها السياسية أحياناً وكأنها تلعب لعبة». هذا الموقف لم يكن لديه مفهوماً، لقد كان تاجراً والنقود مسألة جادة كالموت.

لكن لمَ لا، فكر أخيراً، دعها تلعب ما دمت تكسب، وأنا أيضاً عليّ فقط مراقبة اللعب.

هز كتفيه وتنفس عميقاً بارتياح، وتطلع مرة أخرى إلى فوضى قاعات الحفل.

«الأعضاء الذكرية لصبايا البحر؟ هنا، إلى هنا أيها الصديق الشاب، اقترب دائماً». ساق العبد الشاب بشخصه إلى حوض السباحة حيث السابحات العاريات، بينما صفر مردداً أغنية.

* * *

في هذه الليلة عمل (فيرموس) على أن تكون الجلسة مع أصدقائه بمناسبة أخبار زنوبيا الجديدة. كامل طابور التجار الذين موّلوا الأحداث الأخيرة كان حاضراً، وهكذا حضر القسم الأكبر من رئاسات النقابات المستقبلية والمستوردين الوحيدين. لقد احتفلوا بملكة تدمر بتصفيق عاصف. لقد كان في الحقيقة احتفالاً خالداً. سبحت زنوبيا على موجة استحسان عام واستمتعت بكل دقيقة. هؤلاء الناس ليس لديهم صعوبة في أن تكون امرأة ملكة، مثل جماعتهم العرب المحافظين في وطنهم أحياناً. كلمات المديح أثناء الشرب وصفتها: كليوباترا الجديدة أو (حتشبسوت) جديدة.

ضحكت زنوبيا وروت نكاتاً، بينما مرّت وسائل التسلية بألوانها المتعددة بها. دُهشت لأي لعبة سحرية، وتابعت ما لذ وطاب من طعام

Twitter: @ketab_n

وشـراب. حسـاءٌ بفطر سـاحر من بلد (ينليان)، أُعد في صحن ذهبي واسع، مثـل مسـتوى عالياً لبدايات تتابـع الطعام، أُعدت الوجبة من أجل أن تشـعر زنوبيـا بأنهـا سـبحت فـوق الموائـد، تسـببت الموسـيقى فجأة فـي إحداث دوامـة رائعة مختلفـة الألوان، في أجـواءٍ مالت خلفها الوجـوه، مع الأمواج الموسـيقية، مثـل القطـع الحريرية البيضـاء، في الميـاه المتراقصـة الألوان، فـي أحـواض متعددة الألوان، فـي وطنها تدمر، والتي غالباً مـا انحنت فوقها حيـن كانـت طفلـة، فألقـت رأسـها إلى الخلـف، ومـدت ذراعيهـا وأدارت نفسـها سـعيدة. «أنظـر فقط إلـى الألوان يـا (أودو)»، همسـت فـي داخلها، كم جميل، كم جميل!.

كانت تشعر بخفة وكأنها تعيش أيام كانت صبية، حين رقصت في زقاق الصباغين في الشارع. وجهُ (فيرموس) ظهر لها غامضاً، تحرك فمه الجنسي، وهوت عليه بقبلة طويلة ندية. بعدها ضحكت على نفسها بصوتٍ عالٍ، كان بكل بسـاطة مضحكاً، ما فعلته اليوم. كان اليوم كل شـيء مسـلياً. لم تلاحظ زنوبيـا، كيـف ودعت (كليليـا) المائـدة. مجموعة مـن الصبايـا تمايلن نحو الداخل، وصدحت موسيقى احتفالية تقليدية.

«ضعي الراتنج على رأسك،
البسي القماش القطني الجميل،
تزيّني بعجائب الله الأصيلة،
زوّقي نفسكِ كأجمل ما استطعتِ،
احتفلي بيوم الأفراح ولا تنشدي الارتياح،
فلا أحد أخذ معه ما ملك،
أجل ولا أحد من الراحلـين عاد».

هكـذا غنينَ بصـوت رقيق، بينما وزعـن أكاليل علـى رؤوس الضيوف ونثـروا عليهم مـاء معطراً. واحـد من رجال البنـوك قفز فرحاً وكله حماسـة وبدأ بهتاف: «احتفلوا بيوم الفرح»، لتبتعد الصبايا من حول المائدة. غناؤهم تحوّل إلى كركرة وفرح وإلى مشاهد للبالغين فقط.

لكن الجميع انتبه حين تردد فجأة إيقاع باص ضخم من طبل جاء كتنويم

Twitter: @ketab_n

مغناطيسي، وتقدمت راقصة إلى الوسط. بصرف النظر عن البرقع الشفاف تقريباً والجواهر، لم يغطِ جسمها شيء سوى الكبرياء وحركاتها الجريئة. ثم عاد الطبل بإيقاعه المحفز. قدمت الراقصة قدماً إلى الأمام ورفعت الذراعين. أصابعها بنهاياتها الملونة رسمت صوراً غامضة في الهواء. اهتز جسمها بحركة انسيابية اخترقت جسمها، كأنها خائفة، وكأنها بلا عظام. ازداد إيقاع الطبل سرعة، وقدماها تبعت الإيقاع، بينما ذراعاها تلوّتا كالأفعى، دارت في حركات كلها إغراء. حملق المشاهدون في الراقصة محبوسي الأنفاس مسحورين تماماً من جرأة حركاتها، التي تصاعدت أكثر فأكثر إلى أن رمت البرقع الرقيق عن جسدها، فانتفضت إلى أعلى كشجرة، بحركة مثيرة أخيرة، ثم هوت إلى الأرض. وكان عرضها الجنسي هذا طرد كل الخجل جانباً، وصارت فاتحة لفجور احتفالي.

جلست زوجة تاجر مقابل زنوبيا، رفعت كأسها بلهفة مفرطة عالياً نخباً للآخرين حتى سقطت باروكتها العالية مع زهور الزينة فوقها ومخروط العطر. نظرت إلى هذا الشيء بانبهار، وكأنها لم ترَ شيئاً أعجب منه، ثم رمته بعيداً عنها، وسحبت بدلاً منه واحداً من الصبية التي معها أكاليل الزهور. كثيرون فعلوا مثلما فعلت، وكأنهم أرادوا تكريم أفروديت بخضوع خاص، آخرون في المقابل قاموا بذلك مع آلهة الخمر، وازدادت نشوة سكرهم. راقب (لونجينوس) سير الحفل باكتئاب وبلامبالاة. حتى نظرته إلى زنوبيا حين داعبت (فيرموس) بمجون لم تخرجه من هدوئه. هذا ما هدأ به نفسه على الأقل. غارقاً في التفكير اقتبس أغنية لكلاسيكي مصري بلغته:

«يقول الحكيم إني: لا تسيء التصرف عندما تشرب جرة جعة كبيرة. عندما تتكلم، ستأتي جملة أخرى غير التي تريدها من فمكَ. أنت تسقط، تتكسر أعضاؤك، ولا أحد يمد يده إليك. رفاقك في الشرب ينهضون ويقولون، لنبتعد عنه حين يشرب!، إذا جاءك أحد بعدئذٍ، يبحث عنك. طالباً المشورة، فسيجدك ملقى على الأرضِ، وأنت كالطفل».

تجنبت الخادمة هذه النبوءة الفظيعة فزعة شاحبة، وذهبت لتدير الراح في مكان آخر. بدا جار (لونجينوس) على المائدة كأنه غير معتادِ القوانين

Twitter: @ketab_n

الفلسـفية لبلده. أنصت إلى إيقاع الكلمات هذه لفترة طويلة، وبعدها مدّ يده إلى الكأس، وربما فهم أن الجعة لا تُقدم اليوم.

«مثل هذا الذي يقطع الحوار لم أتخلص منه بعد»، تمتم (فيرموس) إلى (ينليان) بغضب.

أُعلـن عن ضجيج آخر: أسـطورة إيزيـس و أوزيريس، عُرضـت إيمائياً مـن قبل مجموعة مـن ممثلين مطليين باللون الذهبي. إشـاراتهم كانت راقية المسـتوى، وبتعبيـر شـعري نـادر، اسـتطاع العرض تجسـيد سـعادة الحب عنـد إيزيـس وأوزيريس بأسـلوب مقنع، وعرضت الجسـد الشـرير والعالم الجـاف عند إله الصحراء سـيت، عندما أنجبت إيزيس مـن القتيل أوزيريس ابـن هـوروس. ربما تضمـن العرض مفـردات تفصيلية فيها متعـة لا ضرورة لهـا. أمـا (لونجينـوس) فتابـع العـرض فـي البدايـة ببعد سـاخر، لكنـه فقد الرغبة بعد ذلك.

تأفـف، كان الأفضـل له لـو قضى الليلة في مكتبة الموسـيون* وأشـغل نفسـه في حوارات إيراتوسـتينس** متعمقاً في دراسـة محيط الأرض، أو مع نظريات أريستاركوس من ساموسِ، ليناقشها حيث ادعى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس. أية فكرة رائعة!

حـاول (لونجينـوس) اسـترجاع حجـج اريسـتاركوس فـي ذاكرتـه، وأخيراً نهض وتوجه من دون صبرٍ إلى الشـيء الذي اشـتاق إليه. ونسـي أن يـودع، إذ كان غارقـاً تماماً في ملكـوت الكون. رأته زنوبيـا من الخلف حين اختفـى عبـر البـاب، بينمـا تركت هـي رقبتهـا إلى (فيرمـوس) ليطبـع عليها قبلة ماجنة طويلة.

«مزيداً من النبيذ، مزيداً من النبيذ»، صرخ، «بعض الجاريات المخلصات حاولن سـحب جـرار النبيذ من تحت أجسـام الرجال الثقيلـة، لكن من دون جدوى. نسـي (فيرموس) عطشـه، ومال بفـم مفتوح ثانية إلـى زنوبيا، لكنها كانت قد تركت مكانها.

---

*) مكتبة موسيون: مؤسسة بحثية لمختلف العلوم أسسها بطليموس في القرن الثالث ق.م

**) إيراتوستينس: عالم إغريقي موسوعي كبير كان مدير مكتبة الاسكندرية منذ 246 ق.م.

Twitter: @ketab_n

دخل القاعة ثلاثة رجال، لاعبو أكروباتك أقوياء، قدموا عرضهم، وتقدمت الملكة الشابة أمام الموائد كأنها مسحورة. كانوا عبيداً من الجرمان، عرضوا هناك طواعيتهم. شعرهم الحر الذهبي تقريباً سقط كأمواج على ظهورهم، أجسامهم الرياضية كانت سمراء برونزية بفعل الشمس المصرية. لمعت عيونهم مفتوحة كبحر ضحل. بعد كل نمرة ضحكوا عن أسنان لامعة وكأنها ابتسامة حيوانات ضارية.

«هكذا أتصور ضحكة الآلهة»، همست وهي منتبهة حين اقترب منها (فيرموس).

«ماذا؟»، سأل من بين ضجيج الحفل.

«هؤلاء الثلاثة»، أشارت زنوبيا بذراع ممتدة إليهم كأنها طفلة تُري أمها شيئاً، «ضحكتهم كأنها صادرة عن إله».

نظر (فيرموس) إليها شزراً: «يعجبكِ أن تصعدي معهم قمة شمس الأوليمب؟ أتودين أن تضطجعي لهم في الرياح. همْمْمْ»، قام بإشارة واضحة، «أنا أهديهم إليكِ، نعم»! كان معجباً جداً بفكرته.

(ينليان)، التي تابعت الحدث بانتباه، صفقت بيديها وأعطت واحدة من توجيهاتها الخفية، قبل أن تستطيع زنوبيا الإجابة بشيء. تقدم الرجال ورفعوها عالياً على أكتافهم، أضجعوها، وحملوها خارجاً، كأنها على حمالة الموتى. وبكل رضى طوقت (ينليان) بذراعها (فيرموس) الذي بدوره ضمها إليه.

رأت زنوبيا الأغطية الملونة مرّت على وجهها. جزءٌ منها تمكن من إبداء العجب، غير أن هذه الكركرات الضاحكة كانت تريد التحرر. بعد ذلك غرقت في دوامة بين العرق والبشرة العطرة.

* * *

فتح رجل باباً في سرداب القصر. الحماية التدمرية أمام حجرته انصرفت بحسب تعهد الضابط الذي استجوبه طيلة فترة ما بعد الظهر. نظر على امتداد ممر حجري رطب مضاء بمشاعل مثبتة بحلقات حديدية على

Twitter: @ketab_n

الحائط، وحاول استذكار التعليمات الموجهة إليه: عبر السلم الخشبي، ثم الممر الصاعد والسلم إلى أعلى، بارتفاع طبقتين، هناك في الطبقة الأرضية ربما وجد غرفة كملاذ استخدمه الروم كمعبد مقدس لـجوبيتر، وقيل له، أن لا أحد هناك، وكان كذلك.

بغضب بصق على الصنم الوحداني في الظلام، سرعان ما حلت الليلة الأبدية، التي انتهت بهاوية جهنمية سحيقة مظلمة، لو انفتحت الأرض لتبتلع كل شيء، حيث النحيب وصك الأسنان المرتجفة، والدم الذي جرى أنهاراً، وأصحاب الحق فقط صعدوا إلى السماء. إذ لا إله إلا الله.

توجه إلى الخارج إلى الفناء الداخلي الكبير. موسيقى الحفل والغرف المضاءة كانت إلى يساره كما قيل له.

مرتع ماء صغير قريب لبئر اختلط بأنغام بعيدة، ونخيل داعبتها ريح الليل. كان عليه البقاء يميناً، متابعاً لأعمدة البرد إلى المدخل وسط جناح البناية، الذي كان المفروض أن يجده مفتوحاً. نصبان لأبي الهول برأس كبش أضاءا له: قرونهما المذهبة التمعت باهتة في ضوء القمر.

أومأ لنفسه، كانت هذه رؤوس الشيطان، الرفقة الصحيحة لأنثى جهنم التي سكنت هنا، كان الباب هنا مربعاً أسود في ظلام الليل الرقيق. كان عليه الذهاب إلى الطبقة الثانية، في نهاية الممر الأيسر. أراد التقدم إلى ما بين الأعمدة. فأوقفه ضجيج. اختبأ. جاءت امرأة وحدها من الحفل إلى هنا، فوقفت عند النافورة لتتبرد، ومرت قرب المختبئ. لكنها دخلت باباً آخر، خطوات رنت وهي مبتعدة إلى فناء أبعد. ظهر الرجل ثانية في ضوء القمر. ما زالت فتحة الباب واسعة أمامه. تناول سكينه ودخل.

لم تستطع (كليليا) النوم، رغم أن جناح القصر الذي تقع فيه غرفة النوم المبرقعة بالحرير كان هادئاً هدوء الموت. وموسيقى الحفل الصاخبة وصل صداها خافتاً. رقدت بعينين مفتوحتين في الفراش ذي الألوان الوردية الرقيقة، على وسائد من ريش، ونظرت إلى لهيب المصباح. إلى كم قد يستمر ضياؤه، إلى أن تظهر صديقتها؟ فيما لو كانت ستأتي من عند (فيرموس) الكريه هذا؟ لم تستطع فهم ميلها إلى هذا الرجل الذي كان واضحاً عليه أن

Twitter: @ketab_n

كل شـيء لديه بحساب، وسـلوكه المنافي للذوق زاد من نفورها منه. نفخت (كليليـا) في اللهبة الصغيرة متأملة رعشـتها. هي نفسـها ربمـا... صوت عند الباب صرفها عنها.

«زنوبيـا أهذه أنتِ؟»، غـاب بصرها للحظة، ونظـرت بجهد في الظلام خلف المصباح. خطوات اقتربت.

«زنوبيا؟»، سألت مرة أخرى خائفة. صوتها بدا لها أعلى من المعتاد.

«(كليليا)»، تناهى إليها همس. زال بعض من توترها، كان أحدٌ لا بد أنه يعرفها. لكن الصوت كان غير مألوف، كان خشناً وبلا نغمة.

«من..؟». تحركت عندما صارت الخطوات مسموعة ثانية. اعتدلت في جلسـتها، لم تسـتطع التمييز حتى الآن. تقدمت هيئة غريب في الضوء، رجل شـاحب غير حليق في ملابس رثـة. عيناه الحارقتان السـوداوان حفرتا فيها، عندما سألها بصوت مبحوح:

«ماذا تفعلين في فراش العاهر يا (كليليا)؟».

«(توماس)»! صرخت في فزع غير مفهوم. زوجها، زوجها الذي اختفى واعتقـدت أنه مات، وقف أمامهـا. نظرته كانت نظرة المتعصب القديم، لكنه الآن شـرير ناقـم، نظر كأنه شـخص مـن جحيم العالم الأسـفل. لا شـعورياً سـحبت الغطـاء عنها، لاحـظ الحركة وانتـزع الغطاء ورماه فـي وجهها. في البدايـة متـردداً وكأنه أراد اختبـار ردة الفعل، ثم تصاعـد انفعاله. انهال ضرباً على جسـدها العاري، هذه التي تنهنهت وتكورت أمامه ضربها على وجهها وعلى جسدها وعلى نهدَيها، على أنه يعاقبها بوحشية باسم الواحد.

«عاهر»، أرغى وأزبدَ، «كلبة سـائبة بين العاهرات! أيجب أن أجدكِ هنا أيتها الأنثى الشنيعة اللعينة! وعاء القذارات، عبدة الشهوات، مثل الأخريات! إلى أي شيء تحولتِ، أنتِ قذارة؟ زوجتي عاهر شقراء مثل جميع الأُخريات. ألم أُعلمكِ أشياء أفضل؟ كيس قيء، دودة مقرفة! اللعنة عليكِ، لعنة أبدية»! توقف رافعاً يديه إلى أعلى، كأنه قرف فجأة من ملامسـة بشـرتها. بدا له كأن يديه احترقتا في نار مطهرة بعد ملامسـة غير طاهـرة. كان عليه معاقبتها، هذه الجيفـة التي كانت زوجته، ليطهر نفسـه والعالم من رجسـها، لم يسـمح بعد

Twitter: @ketab_n

ذلك بأن يدنس نفسه.

شدّ الغطاء بسرعة، وانتزع شريطاً عريضاً منه. الصوت الشرير الذي صدر من تمزيق الحرير دفع (كليليا) فرفعت رأسها. رأت كيف أمسك الشريط بين قبضتَيه فصرخت. صرختها ملأت ممرات القصر الفارغة، التي حملقت فيها صور الآلهة الغريبة في الظلام.

الإنسان الوحيد الذي سمعه جلس القرفصاء قلقاً في نهاية الممر وانتظر هناك. نظر قلقاً إلى الممر صعوداً ونزولاً: كان مهماً أن لا يراه أحد هنا. صرخة ثانية أفزعته. بانزعاج نفض التوتر عنه. لمَ هذا الإحساس، أخته نالت ما استحقت ليس إلّا. باحتقار بصق على الأرض هنا، انفتح الباب.

سحب (گاش) سيفه الصغير بحذر ومن دون أن يحدث صوتاً. تقدم الرجل في الظلام إليه. الآن! وبحركة أسقط القادم إليه، فهوى على الأرض، من دون أن يصدر عنه صوت. انحنى عليه ليتأكد أنه كان المجنون، ثم رفعه على كتفه، كان أخف وزناً مما قدّر. أخذه إلى قناة النيل، كان سهلاً كلعبة أطفال، القناة التي شقت المنطقة القريبة من القصر. فكّر في أن، بل ربما كان بسبب أن الجميع ذهبوا إلى المأدبة وناموا سكارى تماماً. لا بد أن ضوء الصباح قد اقترب. غطى (گاش) نفسه والثقل الذي حمله في الظلام بعباءة سوداء. وسلك طريقه.

* * *

مشت زنوبيا بهدوء حافية القدمَين في الفناءات الداخلية التي سقط فيها ضوء الصباح الأول. كان المرمر الأبيض ما زال بارداً تحت خطواتها، وهبت رياح باردة من البحر. لبست فستاناً قطنياً بسيطاً. هيّأته لها إحدى الخادمات. التجربة الهائلة للمساء الفائت. فستان كأنه جسم سمكة بوريقات ذهبية وفضية حملته على ذراعَيها. لمعت في الشمس المشرقة كأنها صيدٌ جديد.

رددت زنوبيا أغنية وهي ماشية بمحاذاة الواجهة المتعددة الألوان. أي يوم كان هذا! أي ليلة تلك التي مرت! لم تشأ أن تستعيد في ذاكرتها التفاصيل. واستمتعت فقط بالشعور، بأنها كانت وهي غارقة في عرقها منهكة راضية

Twitter: @ketab_n

متذكرة سكرة بلا حدود، وبقايا طعم عطر حاد على لسانها. كانت الشمس مواجهة لوجهها.

العبد الذي أرسله (فيرموس) إليها، شق عليه تبليغها الرسالة السيئة. كانت لا تزال مبتسمة، حين كفت عن وجهها خصلة من الشعر الأسود داعبتها ريح الصباح. رجته إعطاءها الرسالة. لم تكن خطواتها ثقيلة.

بعدئذٍ وأمام فراش (كليليا) سقطت على ركبتيها كأنها ضُربت. بانزعاج رفعت يديّ (فيرموس) عنها، حين أرادت إدارة وجهها بلطف. صديقتها كانت ممددة على الملاءة الممزقة، بقع زرقاء على كل جسمها وحول رقبتها. آثار الضرب التي تركها عليها (توماس). العينان المفتوحتان المحملقتان انتقلتا إلى جبينها، وكأنها أرادت أن تتطلع ما الذي تركه القاتل هناك: صليب محفور بدم على جلدها. كانت النظرة ذات تأثير أفظع في تلك الأجواء الساحرة وفي ضوء الصباح الجميل، الذي تخلل خطوط الحرير.

«بحق دموع ايزيس»، همس صوت من خلفهم، «تماماً كما عند العاهرات»، التفت إليه (فيرموس) ولطم العبد الذي تكلم بمسطرة رنانة على وجهه.

«عذراً، أيها السيد»، تمتم الرجل الذي عرف حمية سيده، وعلم أنه كان يستمع دائماً إذا ما أتاه أحد بخبر غريب. لذا واصل:

«ليس أكثر من أنه كان لدينا عدد من جرائم القتل في الميناء في الشهور الأخيرة، كلها إيه... عاهرات. كان هناك قلق كبير إذ لم يُقبض على أحد. مثل الصديقة المحترمة لملكتنا. هذا ما قصدته». قطب (فيرموس) جبينه. هذه الإشارة الساخرة في وجه (كليليا) قالت له، لا بد أنه ثمة علاقة، لكن أين يمكن البحث عنها؟ وكذلك في رأس زنوبيا ظهرت أفكار شاردة.

«إذاً على الأقل فالشيطان المسكين لا ذنب له في الأمر». تمتمت.

«ماذا تقولين؟»، استفسر (فيرموس) بود وساعدها في الجلوس على كرسي. «واصلي الحديث، فالحديث مفيد ضد الصدمة أتفضلين شيئاً؟ ربما جرعة نبيذ؟».

«كلا، شكراً، (فيرموس)»، قالت وواصلت الكلام مستسلمة:

Twitter: @ketab_n

«تذكرتُ فقط في هذه اللحظة ما رواه لي (گـاش) البارحة. الرجل الذي هاجمنـي أتتذكر؟ كان متهماً من قبل البعض أنه من الذين اقترفوا جريمة قتل النسـاء. لا شيء مؤكد، مجرد إشـاعات. والآن لدينا الدليل أن هناك شخصاً آخر بالتأكيد، لأنه ملقى منذ الأمس في المقبرة، و(كليليا) ..»، انقلب صوتها وبلعت ريقها بجهد، «و(كليليا) ترقد هنا، ألا يسـتطيع أحد أن يغطيها، اللعنة مرة أخرى، لا يصح أن يراها أحد عارية»، وأجهشت بالبُكاء.

دخـل (لونجينـوس) ورأى الميتـة. هـو وزنوبيـا لـم يجـرؤ أحدهمـا النظـر إلـى الآخـر. بتأنيـب ضمير مسـح للمـرة الأخيرة علـى الخـد البارد، ثم سحب الملاءة فوقها.

كان بالإمـكان أن تكونـي عندهـا، شـكت زنوبيـا بنظـرة صامتـة خلف ظهره، كان عليَّ أن أكون عندها، قالت وهي غاضبة على نفسـها في داخلها. خجلت إلى حد التعرق.

«(لونجينوس)..».

«هـل سـيحضر القس إلـى هنـا؟»، سـأل (لونجينوس) بصـوت ثابت، لكنها كرهته لهدوئه. (فيرموس) أومأ فقط بدلاً من الإجابة. خطوات جعلت الـرؤوس تلتفـت بترقب إلى الباب. غير أنه بدلاً مـن القس حضر ضابط إلى الغرفة، أدى التحية العسـكرية حائراً، ومحاولاً إخماد صوت السيف المعلق فـي حزامه الثقيل في هـذه الغرفة الصغيرة. لقد جـاء للإبلاغ عن جريمة قتل ثانية ضمن جدران القصر. بدأ المشـيعون فوراً يتهامسـون. رجل قتيل واحد في قناة النيل عالق بين الأحراش التي حالت دون انسـياقه إلى البحر. استناداً إلى ملابسـه المتهرئة فهو ليس من الخدم، لا بد أنه ألقي من مكان قريب هنا فـي المـاء، ولـم يمضِ وقت طويل على هذا؛ فجسـمه لمّا يزل دافئاً. في ما لو كان قد حمل صليباً على جبينه، لم يعرف الضابط إجابة.

«أنا سـأنظر إليه»، قرر (فيرموس) ونهض. ربما عاد الرجل إلى شـرذمة عجلات التمويل، أو إلى الماجنين، الذين طردهم.

« انتظـر أنا قادمة معك»، قالت زنوبيا، وأمسـكت بيد (فيرموس)، كأنها طفل. وألقى هو ذراعه حولها مشفقاً عليها.

Twitter: @ketab_n

«ألم تجدي اليوم ما يكفي من الجثث؟»، سألها.

«لا أريد البقاء هنا وحدي».

«المفروض بكم انتظار القس»، نبهها (لونجينوس) بصوتٍ هادئ، «من الأفضل أن تكونوا هنا حين يحضر».

«آخ، صحيح»، قالت زنوبيا وهي تنفخ. «الآن أُسلمكم هذه المهمة الجميلة. تحملوا وكتعويض عن أنكم بالأمس اختبأتم وراء كتبكم»، عندها خانها صوتها. أغلقت عينيها.

(فيرموس) وحده الذي رأى الاحمرار عند هذا الرد على وجه (لونجينوس). كان مرتاحاً جداً لذلك، لكنه تأفف، وكأنه استجاب لاستجداء ثقيل، وقاد ملكته إلى الخارج. ليس هناك ضرر في أنْ يسحبها بالتدريج من حقل تأثير معلمها. ربما كان الرجل في حقل العلوم بارعاً، لكن في الأعمال الحكومية، الأفضل له أن يبتعد. كأنّ المرء يستطيع أن يدير دولة بالفعل بالتصورات الفلسفية. وفوق ذلك، لم يكن (لونجينوس) ببساطة مريحاً له. رجل لا يعرف كيف يعيش.

«حسناً فعلتِ إذ أعطيته الإجابة الصحيحة، صغيرتي. مثل هذه النماذج لا بد للمرء من حين لآخر أن يعطيها التوجيه الصحيح».

«لم أكن على حق»، تمتمت زنوبيا بجفاف، «وهو على حق، كما في معظم الأحوال». هذه الجملة جعلت (فيرموس) يفكر، ومشت بصمت غير ودّي.

«كلا، لم أرها مطلقاً»، قال بعد لحظات، بينما كان منحنياً على الجثة المبللة للشخص المجهول، والتي كانت مسجّاة على مسطبة من مرمر، عند جرف القناة. ورياح الصباح المنشطة داعبت الحَلفاء وجلبت أصوات الإوزّ إليهم. وقفزت سمكة مصفقة في الماء، فاحت منها رائحة الياسمين المسكرة.

«لكنني أعرفه»، صدرت عن زنوبيا، ولم يحفل بها أحد. (فيرموس) والضابط والحرس التفتوا مندهشين إلى الملكة، ربما يعود هذا الإنسان المتهرئ لحاشيتها؟ بدلاً من الإجابة ضربت يديها أمام وجهها. من دون

Twitter: @ketab_n

صبرٍ مسح (فيرموس) على شعرها.

«آخ، (فيرموس)، كان المفروض أن أبقى في البيت هذه الليلة».

«مهلاً، مهلاً، مهلاً،» هدأها، فقد كانت تبكي بينما نظر الجنود محرجين جانباً. ملامة النفس كانت بالنسبة إلى (فيرموس) شيئاً غريباً وغير مقبول: مثل هذه الأشياء لم تجدِ نفعاً! لكنه قبل أن يقول لها شيئاً أفصحت عما في داخلها:

«(فيرموس)، هذا الرجل الميت منذ ظهر أمس والملقى في مقبرة أمام المدينة هو الذي أراد قتلي بالأمس، أتفهم؟»، فهم (فيرموس).

«يبدو أن أحداً أراد له محاولة ثانية»، قال مشغول الفكر، ونظر إلى (توماس) تقريباً نظرة إشفاق.

«قبل أن يكون قد أعدمه فعلاً». في هذا الصدد لم يكن الأمر مستغرباً لـ(فيرموس)، فتاريخ مصر كان مليئاً بالأخوة الذين قُتلوا في معارك من أجل العرش.

«عجباً» فزِعَ. «مثل هذه المحاولة الدقيقة ما كنت أتوقعها من أخيكِ المتسكع، ذي الأسنان المصطكة دائماً. رغم ذلك، وفي أي حال، هو عمل غير متقن».

هز (فيرموس) رأسه.

«يسرني أنكَ تنظر إلى الأمر بشكل بناء»، أجابت زنوبيا ببرود، ولم يكترث (فيرموس) لذلك:

«أي واحدٍ، ولو نصف عاقل، كان سيحاول التخلص من الجثة في بركة التماسيح المقدسة، بدلاً من جلبها إلى هنا. ولكان الطريق من غرفتكِ أقصر. إنه قصور في التدبير ليس إلا»!

التماسيح المقدسة: بقيت هذه الكلمات عالقة في ذهن زنوبيا، تذكرت صورة البحيرة البنية الخامدة المحاطة بالحلفاء، وبورد ذي أوراق كبيرة صفراء أضاءت بنور واضح، ولم تكشف أية قوة باردة ينطوي عليها هذا الماء أحياناً. أجسام طويلة ضخمة قريبة من البنية، وبريئة كجذوع الأشجار رقدت بعيداً على منحنى رملي لجزيرة، ولم تزعج حتى الطيور ذات السيقان

Twitter: @ketab_n

الطويلة التي تجولت بينها.

«لـم يعـرف البركة (فيرمـوس)»، قالـت زنوبيا بمـرارة. لم يكـن معنا، عندمـا قُدتنـا فـي أرجـاء المعبـد، لقد كان مشـغولاً باسـتجواب سـجنائه».

التفتـت إلـى (فيرموس) بكل جسـمها: «لقد فاته شـيء رائـع، ألا ترى ذلك أيضـاً؟»، واقتربـت منـه كثيـراً: «أعمـل علـى أن يتعـرف (فيرمـوس) علـى البركـة!»، وضعـت أصابعهـا على فمهـا، لكن (فيرمـوس) لم يعـرف ما إذا قصـدت السـكوت، أو كان خلـف هذا نوع مـن المعتقـدات الخرافية. كأنها كان بإمكانهـا إبعاد المصيبة التي كانت مقبلة على الدنيا، أو إبعاد الذنب فيها على الأقل من خلال هذه الإشارة.

أومـأ بصمت. ابتعـدت زنوبيا عـن الشـمس التي تصاعـدت حرارتها. سـمعت حفيف الريح في الياسـمين مـن خلفها هادئاً. هناك بقي جسـمٌ باردٌ وصديـقٌ بدأ يصبـح غريباً عنها، وكانـت تعلم هي، لو أعطـت ظهرها لمصر فسيكون هذا إلى الأبد.

«قاعـدة رقـم واحد، يـا ملكتـي»، قـال (فيرمـوس) لنفسـه، وتأمل في (تومـاس) الميـت، «إذا أردتِ عمـل شـيء يسـتحق الذكـر فقومـي بذلـك بنفسكِ»، وضحكَ.

Twitter: @ketab_n

العودة إلى الوطن

جواسيس (فيرموس) بحثوا عن (گـاش) بعد فترة قصيرة في الحي المسيحي من الاسكندرية، حيث اختفى في الغرفة الحقيرة، التي كان قد استأجرها ضحيته (توماس) عند أرملة تاجر خمور. كان المكان الذي أمر (فيرموس) أيضاً بتفتيشه وجدوه وحيداً في المدينة الغريبة عنه. منهاراً ومسكوناً بالغضب على هزيمته، أخذ الحصان ومحفظة النقود التي عرضها عليه (فيرموس). المخطِّط الاستراتيجي العجوز كانت لديه، وقبل فترة طويلة قناعة، بأن المرء لا يجوز أن يستخدم سماً، ما لم يكن له سمٌّ مضادٌ في يده. ولقد بدا له، في الأيام الأخيرة أحياناً، كأن زنوبيا استطاعت أن تؤكد أنها مستثمرة خطرة: ومن المحتمل جداً أنه في يوم من الأيام سوف يضطر إلى الاختيار من أجل تدمر. لذا أعطى (گـاش) كتاب توصية إلى بلاط ملك صديق، ورافقه سراً ليلاً، عبر بوابات تدمر المحروسة خارجاً إلى الحرية. لم يكن لدى زنوبيا علم بكل هذا؛ دفنت نفسها في القصر الغريب، حيث تجنبت الغرفة التي قُتلت فيها (كليليا).

بدلاً من ذلك أخذت بكل بساطة السرير القلاب لأحد الجنود وأمرت بوضعه في غرفة العمل. وخدّرت آلامها وضميرها الذي عذبها من خلال أفعالٍ لم تُقلع عنها. مكرهة وقعت أوامر تعيينات وإعلانات ضريبية. ما تبقى من الوقت كرسته باهتمام متزايد للدروس ولاستكمال قدرتها على رمي السهام من على ظهر الجواد، إلى أن أبلغها (زابداس) أن الجيش مستعد للمسير.

* * *

Twitter: @ketab_n

استيقظت زنوبيا سابحة في عرقها. آلمتها رقبتها، وكأنها صرخت عالياً. هل حدث هذا؟ ما زالت مرتجفة من الكابوس الذي بدأ يتضاءل، وكفت شعرها المنكوش عن الجبين. لم ينم أحدٌ، إلى جانبها في السرير، كان يمكن أن تسأله كما اعتادت أن تسأل (كليليا).

«أتكلمت أثناء النوم؟ ماذا قُلتُ؟»، لكن ما حول خيمتها كان هادئاً. الحرس كانوا يمرون بخطى منتظمة، ولم ينظروا إلى الداخل. هدوء الليل طن في أذنيها. وعادت فاضطجعت زنوبيا ثانية. تمتمت مع نفسها بهدوء وأنصتت إلى أصوات الناس، باحثة عن سلوى. بعدئذٍ سحبت ساقيها إلى جسمها، وضغطت على وجهها حيث نبضها الذي تسارعت ضرباته.

قضت معظم وقت السفر هذه المرة على الجواد في مقدمة جنودها. كانت في الهودج ستشعر بوحدتها الحزينة. ما كان يجب أن تترك (كليليا) تلك الليلة وحدها، لمجرد متعة زائفة. ما زالت خجلة من نفسها لتقترب من (لونجينوس). وما احتاجت إليه لا تظن أنها ستجده عنده: السلوى. زنوبيا اشتاقت إلى أن تجد السلوى كالطفل، وأن تكون كطفلة ربما لا يُسمح لها بذلك.

الدوائر الغامقة تحت عينيه، التي رسمها الحزن على (كليليا)، سببت لها وخزة حتى وان سخرت من غيرة تافهة على مَيْتَةٍ قد أحبتها بنفسها. لا سيما وأنها لم تكترث أبداً باهتمام (لونجينوس) بها.

انهمكت زنوبيا بالعمل. كانت هي التي أعطت الأمر بالرحيل المبكر صباحاً. راقبت بشخصها تشكيلة المعسكر فجراً. وشاركت الجنود متاعبهم وأكلهم ومزاحهم السمج مساءً عند نيران مخيمات الضباط. بدا لها كأنها في حاجة إلى الصخب والمرح مع قواتها المنتصرة، لتتخلص من يأسها. بالتدرج ظهر عليها التأثير المقدس للأجواء البسيطة الخشنة لموكب الجيش. والرجال ألهوها تماماً. هيئة زنوبيا في درعها الجلدي الخفيف بالريش الأرجواني على الخوذة، زادت احترامهم لها مثل احترامهم لآلهة اللات الحربية نفسها. مساءً، وعند النار، جلست هادئة بينما كان المحاربون القدامى يتبادلون القصص القديمة لقبائلهم والأحاديث المسلية

Twitter: @ketab_n

مع مجاميع الضباط.

وسمعت هناك ثانية قصة (تايموعماد) والفتاة التي من خلالها كانت (آتاي) في السابق تسليها. تحدثت مرة إلى الرجال المنصتين لها باحترام ،كيف أتى العيد الأول لمحاربي القبائل، عندما كان (آرزو) و(أزيزو) يتجولان لفترة على الأرض. وامتدت فوقهم نجوم السماء العالية في الصحراء، ولم تكن إشراقاتها في أي مكان بهذا الوضوح، وهنا في الخارج في هذه الوحدة بين الكثبان. سرت صرخة عارمة بين القوافل، حينما عُرف أن (بروبوس) المقدم الرومي قرر العودة أخيراً إلى الاسكندرية وطنه. القراصنة المتعاونون لم يستطيعوا أن يستدرجوه إلى الاستمرار في قتال ظاهري، وقد انسحبوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة، وتوجهوا أخيراً إلى قبرص.

(بروبوس) تحرّق غضباً وتقدم بإصرار، وتمكن من هزيمة الحماية التدمرية التي تُركَت في مصر. سقطت الاسكندرية ثانية بسرعة في الهجمة المضادة الأولى، وسُحق المحتلون في قتال الشوارع.

الذين بقوا على قيد الحياة من القوات التدمرية هربوا مجموعات صغيرة في اتجاه شبه الجزيرة العربية. (فيرموس) اختفى. ومبلّغ الأخبار السيئة إلى معسكر زنوبيا لم يعرف عنه شيئاً. الفرق الهاربة الأولى وصلت وأججت الرغبة في القتال. كان الجنود منزعجين. إلا زنوبيا، فقد حافظت على هدوئها وسط الاضطراب العام. بعد مشاورات قصيرة مع الجنرالات، حددت عدد الفرق المستعدة للعودة طلباً لمقاتلة الخصم تحت قيادة (زابداس). (لونجينوس) وهي أعدا طوال يوم وليلة خطة هجوم جديدة. بلا راحة ولا نوم أطالا الدراسة منكبين على الخرائط وتحاورا مراراً وتكراراً مع (زابداس)، الذي كان متحرقاً لإزالة العار الذي لحق بملكته.

«(بروبوس) سريع الانفعال وعلينا أن نحرص على برودة دمنا»، نبهت زنوبيا العجوز وأيدها (لونجينوس).

«علينا أن نستفزه للهجوم، ونوجه المعركة حيث نرغب». أشار بإصبعه إلى نقطة في الدلتا القريبة. (زابداس) هز رأسه مفكراً. الحراسة عند المدخل تبدلت ثلاث مرات، من دون أن يترك أحد الخيمة، الطعام

Twitter: @ketab_n

الذي أُحضر باهتمام برد على الصينية، شرب العاملون فقط من النبيذ الحار المتبل، من أجل أن يبقوا يقظين فاتحين أعينهم في البرد، قبل بزوغ الفجر، وقد داهمهم النعاس. عندما ذهب الرجال أخيراً، ودخلت الوصيفات الخيمة مسرعات إلى ملكتهنّ، وجدنها نائمة على منضدة الخرائط. كانت مبتسمة وهي نائمة.

وبعد مرور أسابيع قليلة تمكن (زابداس) من إعلان النصر الجديد. وجلب معه رسالة (فيرموس) الذي عُرف أنه مفقود.

«اميرة الصحراء الأغلى،

تابعكِ المصري المطيع يتمنى لكِ السلامة. للأسف كانت إقامتي في الأسابيع الأخيرة غير مريحة. كان يمكن على وجه التقريب تسمية الترف بدوياً، لذا معذرة إذا لم أستطع قبل الآن أن أرسل اليكِ هذه السطور القليلة. هذه العواقب الثقيلة للسياسة، التي ربما أرادت أن تقول لي: أيها الإسكافي إبقَ مع أحذيتك.

وهذا ما فعلته يا أميرة الأراضي الواسعة، أنا عدتُ إلى واحدة من مهني القديمة؛ أنتِ تعلمين أن حياتي السابقة كانت... لنقل مفعمة بالعواطف. حتى مال بعض الناس إلى المبالغة الشديدة في ما يخصني. بأنني أنا بالذات قد خنتُ القيصر في ذلك الوقت عند شابور، وهذا معظمه في كل الأحوال من وحي دولة الخرافات. رجل متعدد الإمكانيات له بالتأكيد أعداء كثر، لكن عودة إلى الموضوع.

واحدٌ من أعدائي في كل الأحوال، المقدم المحترم (بروبوس). حقيقة، إننا قد تجاهلناه في الأسابيع الأخيرة. هذا بالتأكيد ما أغضبه. وفوق هذا يبدو أن رحلة البحر الطويلة على حسابنا لم ترق له. على كلٍ، لم يكن لطيفاً جداً كل ما روجه ضدي من حكايات في الاسكندرية. بينما راح مرتزقته أيضاً يمشطون حتى بيوت الإيجار الصغيرة بحثاً عني، وحتى بيوت الدعارة حيث اختبأتُ هناك لبعض الوقت -كنت هناك شريكاً، كنت رجلاً مرموقاً وذا مركز اجتماعي راقٍ- أرسل إليها منْ يبحث عني. كانت مناسبة سعيدة أن (تيماغينس) وأنا وقفنا سوية في الجانب نفسه. وهكذا استطعتُ أن أختفي

Twitter: @ketab_n

في راكوتيس. ومن ثم تنكرتُ كفلاح مصري، واستطعتُ بمساعدته الهروب إلى الجنوب، مما آملُ أن يسعدكِ».

عند هذه النقطة ضحكت زنوبيا لأول مرة. (فيرموس) كان بالتأكيد أسمن فلاح تجول في شوارع مصر السفلى المتربّة. أطلعت (لونجينوس) على الورقة، فقرأها بحاجبَين مسحوبَين إلى الأعلى.

«للأسف يجب على المرء أن يقول للمقدم (بروبوس)، ألم يكن الكاتب المصري الفلاح الذي بحثتَ عنه بغباء بعد أيام قليلة وخُصصت مكافأة على رأسه، ألم يكن هو أيضاً أراد أن يبدو مثله. وأن (بروبوس) كان مهتماً أن يلتقي شخصياً برجل يمكن أن يقوده إلى مكان إقامته. يمكنني القول ببساطة إنها حماقة». (لونجينوس) نفخ مغتاظاً.

«هنا رجل اضطُر أن يدوس حافياً في براز البعير، وهو ينتقده بغير تحفظ. ما الذي كانت ستجلب له كل تقلباته من دون انتصاراتنا العسكرية في النهاية. لو لم يقابل دائماً رجلاً طيباً غبياً..».

«مثلي، تقصدون بالتأكيد»، أكملت زنوبيا .

«... من يخلصه من المحنة فهو دائماً لا يزال ذلك القوّاد المخادع، مثلما كان هو مرة في البداية»، أكمل (لونجينوس) الجملة.

«أنتم قاسيون في حكمكم (لونجينوس)».

«صدّقوني، لست قاسياً جداً مثل صديقكم المريب، قد لا تكونون صديق العمل الأول، الذي هو..».

«أنا أعلم، أنا أعلم»، قاطعته زنوبيا بتضجر، وقلدت لهجة كلامه، عندما واصلت: «أنا لا أثق به، ولم أثق به مطلقاً. والآن في حال بيعه مصر في المرحلة المقبلة إلى الروم ثانية، فستستطيعون القول إنكم كنتم على علم بهذا دائماً. واصلوا القراءة، أو الأفضل لا، أعطوني إياها». أخذت المكتوب ثانية.

«لأن (بوربوس) أصرّ على تحدي القدر، جاءت ضربة أخرى أيضاً، وكسبت التماسيح المقدسة مرة أخرى غذاءً مهماً. قد يوضح ذلك (لونجينوس)، أي درس كان على المقدم استنتاجه، إذا ما استطاع المسكين

Twitter: @ketab_n

فعل ذلك بعد. إذا ما لم أكن على خطأ، ففيلسوفكِ كذلك رجلٌ لا يستطيع، أو لا يعتقد أنه يستطيع. هل يلبس هو الآن بالذات قناع وجهه الذي لا يُخترق ثانية بينما هو يقرأ؟».

ضحكت زنوبيا ثانية باستمتاع ونظرت في اتجاه (لونجينوس)، الذي أنصت إلى كلماتها فعلاً بسيماءٍ لم تبدُ عليها حركة.

«(لونجينوس) يعرفكم، ينبغي أن تعترف بهذا».

«ليس جيداً، كما أعرفه أنا، أيتها الأميرة. لكن شخصاً بمثل معرفتِكم القليلة للناس، يمكن أن تؤثر فيه تنبؤاته الصغيرة. ومن أجل معرفة كلماتكم التي سبق ذكرها: واصلوا القراءة».

«أوه، لم يعد هناك الكثير، أضيف فقط: أنا يا أجمل امرأة في الصحراء، أؤكد لكِ في المقابل، أفعل كل ما يمكن لاحقاً لأجعل مجدكِ على مصر مستقبلاً. أنا أقيم ثانية في القصر، الحمد للآلهة، لتلك الحمّامات هناك، وكل رغباتكِ ستكون لي أمراً... وهلم جراً وإلى آخره». وقفزت على الباقي «خادمكم (فيرموس). كان هذا كل شيء». ألقت الورقة جانباً، وطلبت مواد كتابة وأصدرت أمراً بتعيين (فيرموس) كمقدم. نظر (لونجينوس) من وراء كتفَيها أثناء الكتابة، وناولها الختم الشمعي، «ماذا كان يعني بأن التماسيح، كسبوا ثانية، طعاماً مهماً؟»، سأل من دون اهتمام. قطرات الشمع السائلة سقطت على يديها فلعنت غاضبة.

«لا أعلم، آخ، اللعنة، إنها حارة. ربما كان عرفاً مصرياً، إطعام التماسيح».

«أنتم تطعمون في (فيرموس) بلا شك واحداً أيضاً». نظرت إليه بحاجبين مسحوبين بعضهما إلى بعض، كرد حاسم على الشفتين، بينما ارتسم على فمه ما يشبه الابتسامة. وانتقلت بارتياح إلى موضوع آخر. ولم تذكر (گاش) بأية كلمة. وبعد أسابيع وتحت تهاليل عندما عبرت ظهور الخيل بوابات تدمر، اعتُبر شقيق الملكة مفقوداً.

احتفلت المدينة بعودتها ليالي طويلة، أقيمت الولائم في كل المعابد والساحات، إضافة إلى ذلك عرضت زنوبيا مثل أوغستا الهائلة، لقباً اعتمدته

Twitter: @ketab_n

الأمبراطورية الرومية عند استلامها السلطة. وفد فارسي بلّغ تمنيات ملكهم شابور، آملاً أن يكون بين الدولتين مستقبلاً تفاهم طيب. والمدن المفروضة عليها الجزية من الشمال أرسلت هدايا وتمنيات بالبركة. سلطة زنوبيا امتدت الآن من مصر إلى طوروس. سلطتها الإقليمية أرادت توسيعها إلى حدود البحر الأسود. كانت هذه خطوتها المنطقية. وقد ناقشت مع (لونجينوس) هذا الموضوع بحوارات مفصلة. أما الآن فالحاضر المباشر فرض تقديم احتفالات النصر.

القطع الفخمة من الغنائم المصرية نُقلت في موكب فخم إلى معبد (بل)، وعرضت هناك في المداخل. جمال محملة توغلت لساعات طويلة عبر الرواق المليء بالناس. هتافات تحياتها ارتفعت مع ارتفاع الأبخرة المتصاعدة من مطابخ الطعام الجاهز. كانت زنوبيا في قمة شعبيتها.

غير أنها في القصر انتظرتها أخبار سيئة. (تارسيس)، الحاضنة قُيّدت وسيقت أمامها وركعت على رُكبَتيها مرتجفة ومطرقة رأسها، أمام عرشها. لم تجرؤ الكلام. نظرت زنوبيا باهتة من على كرسي الأسد إليها، إلى تحت، قررت (تارسيس) لأنها على الدوام كانت في شعور سيئ، أن لا تبقى أكثر في خيام البدو، وأن تلجأ إلى طبيب في المدينة. لم ترغب في أن تترك الصبي خلفها وحده، وفي النتيجة كانت هي المسؤولة عنه. كانت ثقتها ببني ماتابول قليلة، لهذا رفعت الطفل الباكي والدائم الرفض أمامها على ظهر حصان، راحلة إلى حيث المدَنيّة. لكن (فابالاتوس) افتقد حرياته التي تمتع بها في القبيلة، حيث فُتحت كل الخيام أمامه، وسُمح له أن يذهب بعيداً في السهول مع رعاة الماعز والقطعان، كان شجاعاً نسبة إلى عمره، فقد قام بجولات بعد الغياب الطويل عن القصر الذي صار غريباً عنه، حيث لم تستطع (تارسيس) إيجاده إلا بعد ساعات. لذا لم يعرف أحد من أين جاءته الحمّى الشديدة التي رقد بسببها فجأة.

كان الأطباء خائفين على حياته لأيام. والآن بدا أنه أنقذ، فقد انخفضت درجة الحرارة وزالت التشنجات. ولم يعد الطفل يعرق، نام بهدوء، حتى لقد استعاد شهيته للطعام ثانية. وقد استعاد كذلك وعيه، لكنه لم يستعد عقله

Twitter: @ketab_n

بعد. كانت هذه، على كلٍ، الكلمات التي استخدمها الطبيب الملكي.

«هل هناك علامات ل..». أرادت أن تسأل، لكن صوت الرجل العجوز قاطعها:

«لا سمّ، كلا» قال، زنوبيا أومأت، لا سمّ. إذاً ليس سوى سوء حظ، سوء حظ صارخ إلى السماء، غير عادل، مميت ومؤلم. حملقت بكل حقد بوجه (تارسيس) التي لم ترفع وجهها حتى الآن. تنفست عميقاً وأطلقت الزفير مرتجفة إلى الخارج. لكن لم تكن هناك حاجة إلى يد (لونجينوس) المهدئة على ذراعها، حين ثبتت قرارها.

«اتركوها»، أمرت الحرس، «يجب أن تبتعد عن تدمر وعن كل المدن التي يحكمها قانوننا، الآن وفوراً، من دون أن تأخذ معها شيئاً عدا ما تلبسه على جسمها. هكذا نأمر». كان حكماً خفيفاً.

أُخذت زنوبيا بعد ذلك إلى غرفة هادئة، رقد فيها ابنها. سريره عند الشباك، لكنه لم ينظر إلى الخارج. رقد (فابالاتوس) على ظهره، يداه لعبتا بريشة تأملها بلا وعي مبتسماً. لم ينظر إلى أعلى، عندما جاؤوا، لم يعرف أحداً عدا الجارية التي حرسته، ولم يتكلم معها. إلا أن جسمه تحرك بهدوء في المضجع.

هذا ما فعله طوال اليوم، أخبرت حاضنة الطفل الجديدة. كان يتأرجح وردّد أصواتاً أو تأمل بهدوء. إنه طفل جيد. جلست زنوبيا بهدوء عند فراش ابنها. نظرت إلى عينيه كأنهما أطالتا النظر إلى موقع واحد، لم تستطع أن تتابعه، واليأس رقد عليها كأنه معطف من رصاص.

«(فابالاتوس)»، همست، «عد إليّ ثانية رجاءً». مسحت برقة على شعره، وقاومت الدموع المتساقطة، التي صعدت إلى عينيها. ثم قررت الاعتدال في جلستها. لا بد أن ثمة مساعدة، لا بد من هذا.

«احضروا (أومة) إلى هنا»، أمرت. «بسرعة»!

عندما ظهرت مسؤولة الحمام القديمة، نظرت إليها على أنها الإنسان الذي يمكن أن تنتظر منه الإنقاذ. تقدمت (أومة) إلى جانبها، تأملت الابن أولاً ثم الأم، وهزت رأسها متعاطفة.

Twitter: @ketab_n

«لم أسمع عن مرض ابنكم، أيتها الملكة»، قالت بحذر، «وصدقوني، لو كان له علاج لحاولت. ماذا تتوقعون من مسؤولة حمام بسيطة؟ أتنتظرون العجب؟».

بعد نظرة أخرى إلى وجه زنوبيا، جلست إلى جانبها بلا حرج، وأخذت رأسها المتكبر إلى كتفها وعادت إلى اللهجة المألوفة أيام زمان.

«كلا، لا أستطيع مساعدته، لكن ربما أستطيع مساعدتكِ». شعرت بجسم المرأة الشابة مرتجفاً بين ذراعَيها، عندما داهمها البكاء.

«(كليليا) قُتلت بدلاً مني»، همست زنوبيا بعد فترة، وصوتها صار مبحوحاً من البكاء.

«وابني لم يعد أكثر من وعاء فارغ. ماذا تنفعني كل سلطتي، إذا لم أستطع أن احمي الناس الذين أحبهم أكثر من كل شيء؟».

هدهدت (أومة) الملكة بذراعَيها، كأنها تلك الفتاة الصغيرة لأيام خلت، «من قال إن الحياة بسيطة؟ وإنكِ تبقَين بعيدة عن المعاناة، لمجرد أنكِ المرأة الأقوى في هذه البلاد الواسعة؟ لقد فقدتُ منذ زمن بعيد زوجي ودفنت ثلاثة من أطفالي الخمسة. رغم ذلك تعلمتُ ثانية أن أضحك، وأكون مسرورة. لا تحمّلي نفسكِ ذنباً بسبب ما حدث، أنتِ لا تستطيعين دائماً أن تنتبهي إلى الآخرين. انظري إلى ابنكِ، ابتسامته والتعبير في عينيه وصدقيني، إنه سعيد. ربما أكثر سعادة من كثير من الآخرين الذين يتعبون في هذه الحياة».

أنصتت زنوبيا لها بصمت، ثم حررت نفسها منها، ونهض تقبّل القدر هذا، الذي لم يكن من شأنها الآن، ولا حتى في ما مضى، عندما فسرت لها (أومة) حلمها بالطفل، لكن (أومة) وجدت الكلمات الوحيدة التي يمكن أن تخفف من عذابها.

منذ ذلك الحين تقضي زنوبيا يومياً وقتاً قصيراً عند (فابالاتوس)، وتجلس في كرسي بمسند عالٍ، وتنصت لأصواته، وترى أصابعه كيف تقبض على شيء، قطعة خيط أو ورقة بكل رقة ومداراة. كأنها استطاعت أن تتعلم أشياء لا تُحصى منه، ثم إن الوجه الذي صار فارغاً وأنصت بابتسامة هادئة، أطلقت في البداية عليه أسماء الأشياء التي أمسكها: حجر، زهرة،

Twitter: @ketab_n

شعر. لكنها لم تكتشف مطلقاً من سيميائه ظلاً من الإدراك أو تمييزاً للأشياء ثانية، وسرعان ما تركت الأمر، واكتفت بتفريق أصابعه بعضها عن بعض، كلما أمسكت بين الحين والآخر شيئاً وأمسكته بشدة.

الغريب في الأمر أن الساعات التي قضتها مع ابنها لم تبعث اليأس فيها، بل على العكس بعثت الهدوء. نظرتها اليوم لم تعد تحرك فيها الألم الشديد، بل العكس. بدا لها في حالتها، كأنما استطاعت حتى في حياتها الجريحة أن تكون راضية. ورغم كل مشاغلها في هذه الشهور، لم يكن هناك شيء أكثر أهمية من التطلع إلى ابنها.

* * *

وصلت الرسالة من روما، بينما تفقدت زنوبيا سور المدينة الذي شُيّد حديثاً، وتناقشت مع المشرف على البناء حول بعض التحسينات التي رغبت فيها بخصوص البوابات، التي شُيدت هي الأخرى حديثاً أيضاً. نظرتها كانت موجّهة بتفحص إلى البناء الهائل الذي بدا لها أنه لا يُقهر، ثم التفتت ونظرت بعيداً إلى الصحراء. من على بُعدٍ أمكن تمييز الممالح التي أدارها شخص أطلقت سراحه منذ سنوات. كان موقعها في الحرارة المتوهجة للسهول الحمراء جنوب تدمر، بالقرب من شارع التجارة المؤدي إلى دمشق:

صفائح ملح لبحيرة كبيرة كانت في السابق ممرات متراكمة بعضها فوق بعض، بألوان وسخة رمادية وسمراء، لمعت حافاتها هنا وهناك. هناك أشرقت الشمس على الهواء، فأسالت المعدن المتوهج وأدمع الضوء الساطع العيون.

ثمة شيء آخر لفت انتباهها: فارسٌ أسرع إليها خبباً. عندما اقترب، عرفت مندهشة أنه (لونجينوس). لفّ معطفه على كتفَيه مثل الجنود، وشد عند إبطه الأيمن مشبكاً، رفرف في الريح. ترجّل عن الحصان وحياها بإيماءة رأس مختصرة، ووضع تحت أنفها مكتوباً.

«المستشار الرومي»، أوضح مجيباً عن نظرتها المتسائلة، «إنه يدين الهجوم على مصر، ويسحب منكم قيادة الشرق».

Twitter: @ketab_n

ظلت زنوبيا هادئة. «كان هذا محسوباً». بيّنت له: «كنا نعرف أن الحملة المصرية فُهمت اعتداءً مباشراً على الدولة الرومية». توجهت إلى المشرف على البناء وكلفته تنفيذ التغييرات التي جرت مناقشتها، وفتشت بعد ذلك مع (لونجينوس) عن مكان ظليلٍ بين الأشجار: أشجار نخيل عالية بعذوق تمر ثقيلة.

(لونجينوس) طلب من أحد الفلاحين المندهشين الذين عملوا قريباً ونظروا بفضول، شيئاً من الماء والثمار. لقد خُدِمَ باهتمام. سرعان ما حضرت أرغفة خبز وجبن متبل أمامهم.

في مثل هذه الرعاية تشاوروا حول الموقف، هل كان المفروض أن يؤخذ التهديد من إيطاليا البعيدة على محمل الجد؟ كلاهما شكَّ في ذلك. بينهم وبين روما امتدت مناطق شاسعة على بعد آلاف الأميال. كانت منذ عقودٍ مسرحاً للبرابرة، ولم تتعدَّ سلطة روما في الغالب الذكريات. لم يكن قرار القيصر الحالي (كلاوديوس كوتيكوس) بلا سبب، وكان الغوطيون بلا شك قد توغلوا مراراً وتكراراً، عبر الحدود، وختموا بهذا قدر روما. كان هذا رأي زنوبيا. حتى (لونجينوس) كان هذا رأيه.

« قد لا يستطيع الوصول حتى إلى هيلسبونت».

«على كلٍ، ليس ممكناً، من دون أن يظهر في روما فوراً قيصر مضاد، ليس سهلاً أن تكون جيوشه قد وضعت أقدامها على الحدود». أضافت زنوبيا.

«العرش الرومي لم يعد أكثر من كرة لعبٍ بين جنرالات طموحين، جنرالات من دون انتصارات».

لا أحد منهم صدق أن الامبراطورية الرومية قد كان لها فرصة أن تنهض مرة أخرى من الهزيمة السابقة.

«لقد اكتسحوا من قبل قبائل البربر من الشمال». أكمل (لونجينوس) وعض في الجبنة المتفتتة. ضحكت زنوبيا، عندما سقطت قطعة في يده فتاتاً.

«السادة المستشارون، روما في طريقها إلى التفتت مثل هذه الجبنة

Twitter: @ketab_n

فـي يدي»، قلدت لهجته المتفاخرة. «لا تضحـك (لونجينوس)، كلماتي في التشبيه بالجبن سـتدخل التاريخ». اسـتندت إلى الوراء ونظـرت إلى امتداد النخلة المرتفعة في السماء.

«المستشـارون المحترمون،، هذه هي الأشـياء التي اسـتلمتها الأجيال اللاحقة، وليس على سبيل المثال التطلع إلى هذه القبيلة الشاخصة إلى زُرقة السماء كأنها رجل يطير. أو كم كانت قريبة وحيوية أصوات الضجيج القليلة التي تسللت عبر الشبابيك، عندما جلست ظهراً في غرفة طفلها. طنين ذبابة، خطوط رملية على قاع المرمر، مضاف إلى هذا إمارات (فابالاتوس) الهادئة، كأنه تنفس هذه اللحظة.

مضـت فتـرة لم تقل شـيئاً. نظر (لونجينـوس) من فـوق طعامه. رقدت وحلمت بلا توتر. كما لم تكن أبداً كذلك في ساعات دروسها. بدت اللحظة له حميمية بشكل نادر. حميمية بشكل مشجع تماماً. قلبه بدأ ينبض بضراوة. جلـس ببطء إلـى جانبهـا على الأرض، واسـند رأسـه على منكبيـه. تقابلت نظراتهمـا للحظـة لعبٍ بأفكار جنونيـة، أن ينحني فوقهـا و... مجرد التصور هبط به إلى هاويةٍ دوخته.

«أبنـاء رومـا نهبـوا إيطاليـا في مـا مضى حتـى رافينـا»، قالـت بصوت منخفض.

تنحنـح (لونجينوس) بشـدة، وعـاد إلى الواقـع ثانية. «القيصر السـابق (جالينـوس) كان عليـه أن يعطيـكِ أرضـاً ويتـزوج واحدة من بنات رؤسـاء قبائلـكِ». أكمـل ما فكرت فيـه. «والآن تتبعهـم قبيلة اليوتونكـن في الطريق نفسـه. وسيتسـبب ذلك بالحرب والنهـب على الأرض الإيطاليـة. قد يكون هذا أولاً».

شـقّ خطاً في الرمـل وآخر إلى جانبه: «عصابـات الغوطيين في بانونين دفعوا المستوطنين الروم والقبائل المتحالفة معهم إلى الخلف عبر الدانوب. هناك ستحصل مذبحة. وأنا متأكد من انهم سيفقدون الولاية».

زنوبيا أومأت مؤيدة.

فكـر فـي الأمـر قليـلاً وواصـل: «كالين مـا زالـت حتـى الآن مفقودة،

Twitter: @ketab_n

وانتفاضات في جرمانين تهدد الوضع. خط ثالث ورابع». نظرة زنوبيا انزلقت من الزيوح إلى مجموعة دائبة الحركة من النمل سحبت فتات الجبن. لم تكن سوداء، وإنما فضية لامعة. تشبه المحاربين في التجهيزات. فكرت.

«خامساً»، أكملت هي، «لدينا مصر. إذا أردنا أن نكون مستقرين سوف لا يجدون الراحة بعد ذلك. الولايات الأخرى في الشرق لها خيار بيننا وبين شابور. إذاً لم يعد هناك أحد يهاجمنا من الخلف». كان كلاهما متفِق أن لا أحد يمكنه منازعة تدمر على موقعها في الشرق.

«أليس هذا غريباً؟»، تابعت زنوبيا، «أمام أعيننا يتهاوى أقوى تشكيل دولة في كل الأزمان. وبكل صمت». سحب (لونجينوس) حاجبيه عالياً متسائلاً. «أنا أقصد»، أوضحت، «لا يتوقع المرء أن يسمع قرقعة ودوياً مثل الذي يُسمع بين درع وآخر، صراخ شعوب بكاملها؟ لكن ذلك يُسمع».

وبعد فترة صَمَتَ الإثنان. حفيف الرمال على أسيجة الحلفاء كان الصخب الوحيد. ثم عاد (لونجينوس) إلى الحديث:

«السؤال فقط هو أن نعطيهم جواباً ملتوياً أم جواباً واضحاً؟»، نظر إليها طالباً جواباً. هزت زنوبيا كتفَيها:

«الأشياء مثلما هي. تقولها بوضوح». لم يكن لدى (لونجينوس) اعتراض. سيحرر الرسالة الملائمة.

بحذر نهض وانتقل مجدداً إلى البئر. رأت زنوبيا كيف تحدث إليه فلاح هناك وعادا سوية.

«أيتها الأميرة. هذا الرجل الطيب لديه طلب»، أشار (لونجينوس) إلى مرافقه.

زنوبيا رفعت رأسها.

«يريد»، أوضح (لونجينوس) بنظرة شزر خفيفة، «أن تباركي ثيرانه».

خبر وفاة الأمبراطور الرومي (كلاوديوس كوتيكوس) كأنه علامة إثبات أخيرة، والرسالة إلى المستشار أخذت طريقها. ثم انتشر بسرعة النار في الهشيم على طول شوارع القوافل، أن قائد الميدان الإليري (أورليان) رُفِّع إلى قيصر جديد. دخل (لونجينوس) غرفة (فابالاتوس) ليشرح إلى زنوبيا أنه

Twitter: @ketab_n

كان رجلاً لا يسمح باختيار خصومه عبثاً. لكن كليهما لم يكن مهتماً جدياً بالأمر. الرسالة كانت قد بُعثت إلى المستشار، والضرائب المستحقة على روما بقيت، والقرار قد صدر.

رغم ذلك أشارت إلى (فيرموس) أن يرسل أسطول القمح من مصر بتأخير تكتيكي إلى روما. كان المفروض بالقيصر الجديد أن يثمّن أهمية العلاقة الجيدة بتدمر. إذا ما صرخ الناس في الشوارع طالبين القمح ثم أمّنه لهم. وطبعت كذلك على العملة صورة الأمبراطور (أورليان). إذا لم يطلب الحرب هو بنفسه -ولم تكن زنوبيا قد تصورت أن هذا حاصل- وأمكن أن يهدئ والمستشار المتحفز نفسيهما بإشارة الولاء هذه، سوف يكون صيفاً سلمياً. زنوبيا كانت كل سنة تستفسر بشكل فعلي عن التنبؤات حول مصير المدينة. في هذه المرة قدمت الأضحية ولم تتأخر في الذهب. المؤشرات كانت مبشرة جداً مثلما أكد لها الكُهّان. الحاصل في البساتين كان جيداً، وسوق الخيول كان في ذروته على الإطلاق. والقوافل جلبت حريراً وعبيداً من آسيا أكثر من كل السنين المنصرمة، وأرسلت إلى الأمبراطورية المفتتة. وحُملت ثروات كانت في طريقها إلى المدينة ثم جاء الخبر: زحف (أورليان). «لم تكن صدمة حين سمعتُ الخبر أن روما ما زالت موجودة. وإذا أرادت أن تبقى عالقة لا بد تهتف في ذاكرتي. انقضت أكثر من سنة، تناهت إلينا أخبار مقتضبة فقط عن توغُّل الروم الذين وصلوا إلى الشرق. مضى عليهم وقت طويل، طويل حتى أنهم ربما تعبوا وأُنهكوا من الزحف بدولتهم المحطمة، إنهم محاطون من كل الجهات بالأعداء، فلا يستطيعون التوغل إلينا أبداً. اليوم، (أودو)، حيث أصبحت روما واقعاً بالنسبة إليّ، أسأل نفسي، كيف أمكن لي في ما مضى أن أكون في هذه السذاجة، ورغم ذلك كنا قد فكرنا جيداً في ما فعلنا. (لونجينوس) وأنا كنّا مطمئنين».

«بالطبع أتحدث عن إجراءات: وفد سياسي بتوصية من (لونجينوس) انطلق إلى فارس: كتبتُ بنفسي إلى مصر. أعمال البناء في سياج المدينة استُعجلت والتحصينات في أتعس الأحوال ستكون جاهزة قبل وصول الرومان بفترة طويلة».

Twitter: @ketab_n

«جيوش دُرِّبت بشكل أفضل من ذي قبل، وصار من عادتي أن أجعلهم يتدربون بحضوري في انتظام على فنون الخيالة وبجدائل مرفرفة. لم يستلم الفائزون مكافآتهم من أحد سوى من يدي. لا تقُل إن النساء كنَّ رومنسيات، (أودو)، إنهن لسن على عكس الجنود. كيف احترموني، كل ذلك الوقت، وحين حاربت صرت أسطورة».

Twitter: @ketab_n

4

الحب

المرأة في الهودج

فوق روما في أحد تلك الأيام الباهتة قبل الربيع، حيث اجتذبت الشمس الكل خارج بيوتهم، رغم أنها لم ترسل إلا قليلاً من الدفء الخَجِل، والرياح هبت منعشة، ومع هذا رحب الضوء من الآن باقتراب الصيف، ازدادت الحركة في الشوارع حيوية أكثر من ذي قبل. اندفع الناس فرحين إلى الشوارع، وحقق التجار وملوك العقارات مكاسب جيدة.

كلا العبدَين الشابين اللذين رافقا (إيليا دروسيلا) إلى ينابيع أنتونينيان، حيث التقت كل يوم أربعاء قبل الظهر مجموعة صديقات من أجل عناية خاصة بالتجميل. تقدمنَ مرتعدات من البرد أمام أعمدة البناية الهائلة. كنَّ مهتمات بملابس سيدتهنَّ، وتخلّينَ للإدارة عن عدد من النقود النحاسية، ولبسنَ المعاطف القصيرة بإحكام على فساتين بطيات بلون ورديّ بلا أكمام. الشاب ذو الشعر الدهني المجعّد أخفى ليرة اللعبة الذهبية، وطوق بذراعه الفتاة ذات الشعر الذهبي أيضاً، والتي من ناحيتها هي ثبتت الناي الفضي تحت حزامها. نظرا سوية إلى الشمس البيضاء، ومن أحد الأكشاك بين أعمدة الينابيع اشتريا نقانق حارة وقليلاً من النبيذ المتبّل، ومشيا في جولة على امتداد طريق تحت طوق أردياتينا، في اتجاه سور المدينة. وجلسا أخيراً في مكان مشمس صغير تحت طوق، تاركين مجرى القنطرة إلى يسارهما.

Twitter: @ketab_n

نظـرت الفتاة متـرددة إلـى النقانق التي تصاعـد منها البخـار، بينما أكل رفيقها! بأصابع مفتوحة سال من بينها الدهن قطرات.

«هنا، (أودو)، يمكنك أن تأخذ ما عندي»، وناولته أخيراً حصتها.

«لست جائعاً»، (أودو) ما زال يمضغ. «شكراً (باولا)»، استخدم بالطبع اسـمها الصحيح مثلمـا فعلته هي أيضـاً، منذ كانـا حَبيبَين. (إيليا دروسـيلا) سمتهما (فايدن) و(سايكو).

«مرتاحة أنتِ الآن؟»، استفسـر بعد أن هـدأ الجوع الأول. لكن (باولا) هزت رأسها فحسب. مرّرت نظرها على بقعة العشب التي علاها الغبار حيث جلسـا. عدد من كِسـر الفخار ملقى بين القصب البني. أبعدُ بقليل أمام كومة من أنقاض البناء تكوّمت هناك الجزيرة التي انتمى إليها بدت مدمرة قبل فترة قصيـرة. إذ إن الأنقـاض لـم تُرفع تماماً مـن قبل فرق البناء. الجـدار الخلفي مـا زال قائماً وما زالت ملتصقة به بقايا أرض البنـاء. والجدران الفاصلة. بدا وكأن أحـداً قطـّع الغرف، رسوم عن شـرب النبيذ ما زالت هـي أيضاً، بقايا نقوش بسـيطة، كشـف لونها فتات من طـلاء الجدران إلى جانبهـا بقع كاملة غامقـة. لا بـد أن أحدهـم حك رأسـه بانتظام على الجـدار. ربمـا كان هناك سـريرٌ. هل مات السـكان في هذه الأنقاض؟ رائحة البول ما زالت موجودة. من دون قصدٍ سـحبت (باولا) عباءتها بعناية حول فستانها الوردي المشرق، لئلا يتسـخ ويكشـف عن رحلتهمـا. بدت في هذه البيئة في غيـر مكانها. مثل فراشة بحثت عن مجرى لمراحيض عامة.

«أنا لا أفهم لماذا أنتِ هكذا مكتئبة»، بدأ (أودو) مجدداً. بسرعة قاطعته (باولا):

«ألا تفهـم هـذا؟ هـل فقدت أي شـعور بذلـك، كيف نبـدو مضحكين فـي ملابـس اللعب هذه؟ أتجد هذا معقولاً، أن نكـون لعبة لنصف المجانين العجـزة هؤلاء؟ أنظر إلينا ونحن بنعالنا المذهبة الصغيرة والجدائل المجعدة الصغيـرة، كحلـم لوطي بحوض سـباحة. ألا تجـد في هذا ضرراً أن نمشـي كأشـباه الأحياء، فقـط لأن النقانق تتوافـر كل أربعاء، ويمـارَس الجنس عند تنظيف الحمامات كل إثنين؟»، وأجهشت بالبكاء.

Twitter: @ketab_n

مضغ (أودو) ما تبقى محرَجاً. كانت (باولا) في كل مرة سريعة الانفعال بهذه الحدة. مظهرها الرقيق خدعه. هو الذي كان يجب أن يكون عارفاً بشكلٍ أوضح كيف يتجاوز طبعها الدائم الانفعال. لم يتأثر ميله إليها بهذا السبب، طبعها الثائر ذكّره ولو قليلاً بمعبودته صديقة الطفولة زنوبيا، تلك الفتاة الشابة المتكبرة، التي تجوّل معها سابقاً في شوارع تدمر. كم مضى على ذلك!!.

«بلى، بلى،» أخجلته كلمات (باولا). كان قد ابتدأ فعلاً رؤية حياته في أجواء وردية، منذ أن استولى على السفينة التي كان المفروض أن تجلبه مع (كليمنس) و(يوليا) من أنطاكية إلى إيطاليا، القراصنة شحنوه وكأنه قطعة من الماشية، وجرجروه عبر أسواق النخاسة. وأخيراً، في رودس، اشتراه تاجر خمور كبير. وهذا أخذه كسكرتير لأعماله التجارية في رحلاته.

كان الرجل سريع الغضب، قاسياً وللأسف كان أفضل من اشتغل معهم. عندما أفرط الرجل بالشرب ولفترة قصيرة حتى الموت، بِيع (أودو) ضمن بقايا مزاد الإفلاس. نزل كمساعد عند دباغ في بنيفنت، لكن هذا وبسبب الميل الشديد لزوجته، اضطُرّ إلى التخلي عنه ثانية، وسلم (أودو) كشروة مناسبة إلى أحد أصدقاء العمل. في مكتب تاجر لمصنع الآجر، اكتشفته أخيراً (إيليا دروسيلا)، التي اشترت المعمل وأخذت معه (أودو).

مخاوفه الأولى في احتمال كون سيدته وقعت في حبه، لم تتحقق في الحقيقة، لكنه لم يكن سعيداً في الإدارة الجديدة. لم تكن (إيليا) في حاجة إلى قدراته التجارية الكثيرة. كانت ومن أجل أغراضها في حاجة إلى وجه جميل. تضايق (أودو) من دوره كقطعة فنية حية، جعلته صامتاً وبلا إحساس. (دروسيلا) التي لم تعرف غير رغباتها الخاصة سمّته مفتونة به «ميلانكوليه». رفاقها في العمل صاروا يثيرون المشاكل ضد «كلب الأحضان» الجديد، لم يتمكنوا من التآلف معه، لقد عانى الوحدة وصار شاحباً وشفافاً كما قدرت سيدته.

لقد تغير الأمر في البداية عندما جاءت (باولا) إلى إدارة البيت وأخذته كنفس بشرية إلى جانبها. أُغرم (أودو) بالفتاة الجميلة الرقيقة كأمر طبيعي. ازدهرت ذاته ورتب أموره، وخطط ليوفر كي يشتري لكليهما

Twitter: @ketab_n

الحريـة. كانت (باولا) فـي الحقيقة جافة مثلما توقـع، لكنها لم تعترض، بل علـى العكـس، احتفظـت وأدارت نقودهمـا المشـتركة، وكانت لـه ربة بيت صارمـة، والآن جلسـت هنا ووبخته وهـي باكية. لم يجبها حتـى الآن عندما تنفست وأضافت:

«أنا حامل، اللعنة، ثم اللعنة».

لم يعرف (أودو) ماذا يقول. مسـح أصابعـه بعناية بعباءته، وأخذ الباكية غيـر واثـق بذراعه. لاحظ أنه هو أيضـاً كان حزيناً وأنه لم يُسـمح له أن يفرح بهذا الخبر، وتبين له أن هذه المسألة هي الأكثر حزناً.

«ستقطع رأسي»، قالت وهي تنفخ من أنفها، بينما هدأت قليلاً، «سوف تبيعنـي إلى المدبغة لأنني أفسـدت عليهـا مخططاتها، (فايدن) و(سـايكو)، الصورة الحية لا يحق لها أن تحبل».

«مهلاً، مهلا»، هدأها (أودو) وواساها قليلاً.

«لن يكون الأمر سيئاً إلى هذا الحد».

«ربما تظن أنها تريد أن تراني وبطني كروية أتمشـى متثاقلة برداء وردي أمـام هودجها، وتعـزف لي على الناي ألحان تنويم؟ كانـت أكثر فخراً بنا من ذلك الخبير بشجرة الخباز». بدأت (باولا) تشهق باكية من جديد.

«سـوف لـن تغفر لي ذلـك»، فكـر (أودو) بسـرعة في الأمـر، كان رأيه مخالفاً. بالتأكيد ستكون (إيليا دروسيلا) غاضبة حين ترى عربة تجرها البشر تتهـاوى أمامهـا، لكنها لن تبيع (باولا) أبداً، كان متأكداً من هذا، لا سـيما إذا أقرّ الأبوة. طفلٌ من اثنين شـقراوَين بشـعرٍ متموج وعينين زرقاوَين جميلتَين مثلهما، سيكون بالنسبة إليها زيادة ثمينة لملكها. أول صفة لـ(إيليا دروسيلا) لم تكن المثالية، وإنما حب المال. (باولا) أنصتت وهدأت ثم فكرت.

«ربمـا أنت محقٌ، أوه، أيتها الآلهة»، تمتمت أكثر مع نفسـها، «سـتفتح ملجأ وتبعثكِ في كل مرة عندما يكون القمر بدراً إليّ».

«(باولا)»! هزها بحذر. «لا يدل هذا على تعقّل، توقفي عن هذا»!

«حسـناً، (أودو)، أحـاول فقـط أن أكـون واقعيـة»، دفعـت يـده جانباً، وغرقت ثانية في أفكارها. تحدث (أودو) ليشغلها.

Twitter: @ketab_n

«سوف لن يحصل أكثر من أن ترسلكِ إلى ضَيعتها الجديدة، كي لا يرى أحدٌ تلك النفس المشوهة. وسوف أوفر أسرع حتى نكون نحن الثلاثة قدر الإمكان سوية عن قريب».

هزت (باولا) رأسها. أي حالم يقظة هذا الشاب. «سوف توفرين ليس أسرع فحسب وإنما قبل كل شيء أكثر بكثير. النقطة الحاسمة هي بالتأكيد أن ثلاثة يكلفون أكثر من اثنين، وإذا ما وجدتِ ارتياحاً مع الجيل الأشقر القادم، كما تقولين، فربما لن يتوقف الأمر عند طفلٍ واحد».

(أودو) أومأ، طبعاً كان الحق معها. وفي الوقت نفسه بدأ يخطط لمستقبلهما المشترك، رأى نفسه و(باولا) والطفل... بدأت هي في هذه الأثناء تحسب:

«لنرَ ماذا نملك»، ورفعت كسرة فخار ملقاة على الأرض. «هنا خدمتنا في إدارة البيت». حفرت خطاً في الأرض أولاً. «المكافآت القليلة من (إيليا دروسيلا) لا تكفي في أي حال من الأحوال. وتلاعبك في الحسابات» – سحبت خطاً ثانياً– «لا يوفر كفاية».

فزع (أودو). لقد ساعد عدداً من صغار التجار في ألاعيب قانونية في حساباتهم. كان هذا كل شيء. واحد منهم كان على كلٍّ (بلاوتوس)، كان تاجر قماش، كان يستلم في الغالب بضاعة القراصنة، ولجأ بين المرة والأخرى إلى (أودو) يستشيره حول نوعية الحرير المعروض. دفع له بسخاءٍ على ذلك. لكنه نادراً ما احتاج إلى خدمته.

«ربما استطعتُ أن أسأل (بلاوتوس) فيما لو كان عنده شيءٌ لي».

«(بلاوتوس)، صحيح»، وأضيف خطٌ ثالث. يا للخسارة المحزنة، إنك لا تفهم إلا في الحرير». (أودو) أخفض رأسه شاعراً بالذنب. «وعليك أن تفعل مثل(بوليبيوس)، البواب الجديد. عنده تجارة صغيرة مع عبد صديق له، يعمل في مستودع توابل. بعد الفراغ من العمل عند ترك المستودع يُجرى تفتيش دقيق، لكنهما يقومان بشيء آخر، قال: صديقه يفصل كمية صغيرة من الفلفل، ويدفعها عبر شباك صغير ينتظر أمامه (بوليبيوس). يجلب الغنيمة بعدئذٍ إلى تاجر في معمل الآجر نصف الدائري عند منتدى هادريان. يُفترض

Twitter: @ketab_n

أنه يدفع مبلغاً خيالياً لأجل ذلك». تهلل وجهها لهذه الأفكار.

«وهل حدثكِ بهذا؟ لم أعلم أنكِ على صداقة جيدة مع بوليبيوس».

«لا تبتعد عن الموضوع الآن (أودو)، أظن أن التاجر اسمه (سيلر). كان علينا أن نزوره بسرعة». بهذه الكلمات قفزت، ورمت كسرة الفخار بعيداً ونفضت يديها. ثم أعطت (أودو) قبلة عابرة وأخذته معها.

سرعان ما وقفا أمام البناء الرائع، وقد امتد خلفه السوق إلى تل كويفيرنال وإلى سابورا. أطلت واجهته على ممرات أعمدة منتدى هادريان ونصب الفارس البرونزي للقيصر في عمق الساحة. لم يكن لدى (أودو) و(باولا) أيّ اهتمام بالمعماريات. في طريقهما خلال الزحام عند المدخل، بين الأعمدة، هناك حلاقون مارسوا أعمالهم بحسب أحدث مستجدات الموضة، قصوا شعور زبائنهم وحلقوا اللحى. سلال مليئة بالفواكه، وأخرى بالزهور رُتّبت بذوق فني حول القواعد المرمرية للأعمدة المقدسة، وجبال بارزة من دِنان النبيذ.

في الطابق الأرضي للبناء احتلّ بائعو الفواكه والخضروات أماكنهم. البوابات الخشبية ذات الجناحين المفتوحين على مصراعَيهما، أطلت على دكاكين متجاورة في الشارع المفتوح على الخارج، فاحت في الهواء رائحة الخوخ الرقيقة. عندما صعدت السلم الحجري بين مستودَعين إلى أعلى. من داخل البيت المظلم نفذ إلى أنفها عطر أشد حدة. أبخرة النبيذ كشفت لهم أنه في الطبقة الأولى أقام تجار النبيذ والزيت. قبل أن يصعدوا السلالم، رموا نظرة عابرة إلى الدنان الغامقة وصعدوا إلى الأعلى.

الطبقتان التاليتان تعودان إلى كبار تجار التوابل، وبضاعتهم ذات الروائح المسكرة عرضت في سلال مسطحة كبيرة وقف حولها رجال فركوا بمعرفة مسحوقاً بين الأصابع، شموا وتذوقوا وحسبوا على لوحة الشمع الصغيرة.

سألوا أكثر من مرة عن (سيلر) لكنه لم يكن موجوداً، ولم يجدوه لا في الطبقة الثالثة ولا في الرابعة. ربما كان في الميناء بعد الظهر، ربما، هكذا قيل لهم. (باولا) أُصيبت بخيبة أمل.

«ما هذا التزاحم على السلم؟»، سأل (أودو) عن الناس المتجمهرين

Twitter: @ketab_n

الذيـن اندهشـوا، الداخلين والخارجيـن، علم أن فوقهم قاعـات أقامت فيها الدوائر القيصرية، لمساعدة مواطني روما ممن رفع منهم طلباً للحصول على قمح، ومساعدات نقدية: يمكن أن نسجل هناك. كان الزحام شديداً، حتى أن (باولا) أصابها الغثيان في بيت الدرج الضيق.

حاول (أودو) عبثاً شق طريق لهما إلى الأسفل، فترك نفسه و(باولا) يداً بيد يسوقهما الزحام.

في الطبقة الخامسة كان الوضع أهدأ. هنا كانت أحواض سوق السمك. نظر (أودو) مسـحوراً إلى هذا العالم السـاحر، حيث حمل إلى هذا الارتفاع عن الأرض أجسام أسماكٍ غامقة تلاطمت في الماء.

«انظري (باولا)، الأسـود الكبير هناك، الذي يخترق ظهره سطح الماء. إنه بط. أترين المجسّـات حول فمه؟ وهنا انظري فقط! سـحبها إلى حوضٍ سقطت عليه حزمٌ من ضوء الشمس عبر شباك مفتوح، التمعت القشور فضية عند كل حركة. الزعانف الشفافة عكست ألواناً وردية وصفراء وزرقاء جعلت الماء يرفرف كأنه برقع نسائي. كانت أسماك نهرية بلون قوس قزح.

«أليست هذه مدهشة بجمالها؟»، لكن (باولا) لم تتحمل هواء القاعات الرطـب، المحمـل بروائح الطحالـب الكريهة، لذا أخذهـا (أودو) إلى أعلى نحو السطح. تنفسا عميقاً وتقدما نحو الريح الباردة، حتى وصلا حافة السور المسـنن، حيث اسـتطاع من سـاحة الأعمـدة المتوّجـة بأكاليـل أن ينظر إلى الأسفل. إلى اليمين منهما ارتفعت الواجهة الشاهقة بارتفاع مئة وستين متراً، البازيليـكا أولبيـا، وخلفها أعمدة هارديـان مع نصب واقـف للقيصر فوقها، قامت مقابله وبالارتفاع نفسه تقريباً.

أرسلت شمس الربيع لمعاناً فضياً بارداً على هذا البهاء.

«نذهب ثانية إلى الأسفل إذا أقفلت دوائر التموين». وعدها (أودو).

«لا بد أن الوقت اقترب. مضى وقت الظهيرة، انظري إلى الخلف محطة فيركو للماء الصافي، من هنا بالتأكيد تُجهز أحواض السـمك بالماء». شـرح لها لإشغالها. «أليس هذا مدهشاً؟ أعتقد أنني لم ارَ سمكاً نهرياً حياً منذ كنت طفلاً وكنت أصطاد السـمك في الدانوب. والآن ها هي تسبح تحت أقدامنا،

Twitter: @ketab_n

عالياً فوق روما كأنها استطاعت أن تنتقل من هناك إلى السماء الزرقاء».

أخذت (باولا) يده. «عاهدني أنكَ ستأتي غداً ثانية إلى هنا، (أودو)».

«لا أدري، (باولا)، إنها ليست سوى سرقة»، اعترض.

«أتخاف؟»، عضت (باولا) باستهانة على شفتَيها، وبعد قليل قالت: «سأقول لها اليوم مساءً. سأرحل قريباً». انتظرت، فأخذها (أودو) بين ذراعيه.

«لكِ الحق، سأفعل كل ما تريدين (باولا)، أعدكِ بهذا». عندما أدارت رأسها عنه مرر على خدها قبلة.

«أشتاق إليك من الآن»، قال.

عادا في الوقت الصحيح إلى عملهما. (إيليا دروسيلا) غادرت للتو الحمام مع صديقة، صعدت هي إلى هودجها، لم ترغب في الرجوع إلى البيت قبل المساء، فحررتهما للذهاب إلى البيت. أرسل (أودو) (باولا) المرتجفة إلى البيت، وقرر على وجه السرعة أن يحاول مرة أخرى مع (سيلر) تاجر التوابل.

مشى ببطء على طول الكليفوس أوربيوس، ونظر داخل شوارع سوبورا الضيقة، حيث الغسيل نُشر على الشرفات ليجف، فأشرقت عليه شمس العصر. أمام كل شباك تقريباً كان هناك حصى وورد الخُزامى، رائحته غلبت تقريباً رائحة البول، الذي تجمع على الأرض الطينية، وتعفن في الحفر. أقفاص طيور لا تعد ولا تُحصى. صفير وهديل في مختلف الألحان خلف (أودو)، كأنه يمشي في غابة. سيدات مسنات جلسن ملتفات بعباءاتهن المتهالكة في الشرفات تحت الشمس، يتأملنَ، كذلك مع عيون الطيور، الجيران. دكاكين الخشب تظهر من الشبابيك مفتوحة واسعاً، تراها منها ربات البيوت وهن أمام نار الطبخ. كلب قذر أصفر، مربوط بذيله حبل معلق بكسرة فخار، جاء راكضاً من زقاق جانبي بوَقوَقة أمام قدمَي (أودو). خلفه تراكضت مجموعة من الأطفال القذرين أيضاً كادت تسقط (أودو).

«اوريليا» انطلقت صرخة من أحد الشبابيك، «تعال فوراً إلى هنا».

غير أن الأطفال استمروا في مطاردة بعضهم واختفوا خلف أعمدة منتدى

Twitter: @ketab_n

أوبستي. نظر إليهم (أودو) متألماً ولعن همومه.

لم يكن مرتاحاً لفكرة المشاركة في أعمال تجارية مريبة، كما اقترحت عليه (باولا).

فضَّل البقاء بعيداً عن الأخطار. في كثير من المرات دُفع من حياة مسالمة إلى المجهول التالي، لذا فلن يدفعه طيشه إلى مغامرة قد تُفقده ما ملك. الناحية الأخرى، ما كان معنى حياته من دون (باولا) وكيف توصلت إلى معرفة مثل هذه الأشياء الخفية بواسطة (بوليبيوس)؟ ولم تمر عليه سوى أسابيع قليلة في الدار، حتى انعطف (أودو) إلى منتدى ترايان، كان غارقاً في التفكير حتى أنه مر ببناية السوق ووقف تقريباً أمام درجات سلم بازيليكا أولبيا، ولم يرَ أول الأمر التلويحات المتحفظة من بين ستائر هودج مغلق. المرأة التي جلست فيه كانت واقفة هناك عند زاوية البناية بين الأعمدة. انحنت بنفاد صبرٍ أخيراً إلى الخارج وصفّرت له بقوة بكلتا الإصبعَين. وعندما نظر أخيراً إلى أعلى، لم يرَ هناك ثانية سوى يد استدارت كحلقة وثنت الأصابع لتجذبه.

أول ردة فعل له كانت أن يواصل المشي. لقد تعرض في ما سبق كثيراً لمثل هذه العروض. نظراً إلى وسامته، ولم يقتصر الأمر على أيام الاحتفالات الكبيرة للمعابد، حين سُمح للعبيد ليوم كامل، ثم قاموا بدور السادة عندما سقطت الحواجز الاجتماعية. هو فضّل حتى في هذا اليوم البقاء في البيت، على أن يرقص في الشوارع. كثيرون جداً من نساء طبقة النبلاء الجريئات تهافتن بابتذال ليقفن في طريقه، ولم يتعودن أن يُنسَينَ إذا عزِف عنهنَّ أحدٌ بسبب جارية شابة جميلة، من دون اهتمام بقدسية الاحتفال. أراد (أودو) لهذا السبب مواصلة المشي. في تلك اللحظة عندما تذكر مشكلته النقدية، اضطرّ للتوقف. إنما هو، من أجل (باولا)، فكر بلا تركيز واقترب. في كل الأحوال ربما أفضل من السرقة. وببسمة ليست خالصة انحنى إلى الأمام، من أجل أن يستطلع من بين الستائر. لكن الوجه في داخل الهودج ملأه بأسوأ المخاوف: قناع سحلاة مليء بالتجاعيد لعينين صغيرتَين تطاير منهما الشرر. ارتدّ فزِعاً.

Twitter: @ketab_n

«لا تحملق هكذا أيها الجلف! إذا كنت تريد أن تعجب سيدتي من النظرة الثانية، فعليك أن تتحلى بسلوك أفضل، وتطلعت إليه العجوز بتهديد وهو فزع.

رغم الخطاب الفظ، تنفس (أودو) الصعداء. «أنتم في الطريق إلى سيدتكم؟».

«هاه، كيف يتنفس»، كركرت العجوز وقرصته متفحصة من خده. ثم دفعته إلى الوراء. «وجه للضرب. يبقى الأمر هكذا» زمجرت أخيراً:

«نعم، من أجل سيدتي. أم أنك تنتظر أن تأتي شخصياً لتأخذكَ من المنتدى؟ هيا اصعد».

«لم أقل إني اذهب معكِ» اعترض (أودو). كانت هذه المرأة قد أوحت له بتوقعات ظلامية.

«ستأتي، أيها الصبي. ستأتي». أعطت (أودو) كيس نقود، وقهقهت بسوء، حين رأت وجهه الخالي من أي تعبير. حسب (أودو) وحسب:

«أهي عجوز إلى هذا الحد»، سأل هامساً من الخوف. صرخت رفيقته الجديدة مستمتعة بصوتٍ عالٍ حتى فزعَ.

«عجوز؟ كلا، ليست مسنة إلى هذا الحد. وليست بدينة. الأمر أسوأ أيها الصبي، أسوأ بكثير». فكر (أودو) وهي تنزلق النقود بين أصابعه. ثم ربط حبل الكيس ثانية، وأعطى لنفسه دفعة فصعد: ما زالت تضحك، حين انعطف الهودج مع كليهما إلى كليفوس أركنتاريوس.

Twitter: @ketab_n

الحرب تقترب

الحـراب المتقاطعة جسـراً انفصلت عن بعضها. جناحـا الباب انفتحا، ودخل (كايوس لوفيوس إيمليانوس)، مبعوث القيصر مع حاشيته قاعة عرش تدمـر. بخطوات ثابتة اختـرق القاعة الكبيرة جداً، مـن دون أن يتأثر بأبعادها أو بالتجهيـزات الباهظـة الأثمـان، وتجـاوز أيضـاً، بالمناسـبة، البروتوكول العسكري المتشدد للبلاط، عندما سار عبر صفوف الجنود.

إلـى جانـب التجهيزات البراقـة ذات الطـراز الشـرقي، رأى أن اللباس التقليدي العربي هو السـائد. الكل محزّمون بالسيوف والخناجر، البناطيل- قطعـة ملابـس لـم يسـتطع الرومـي أن يعدهـا أكثـر مـن بربريـة- داخلة في الجزمـات بإهمـال. وقصيـرة إلـى الركبـة، ورداء خارجي بشـق مـن جانبيه (صايـة)، الـرؤوس ملفوفـة بقمـاش طولي طويل. وجوه عابسـة بنيـة غامقة أحرقتها شـمس الصحراء، وعيون سـوداء متوهجة، نظرت إليه باحتقار، أيادٍ قوية صلبة يمكنها أن تسحب السيف بسرعة في جزء من الثانية. بدوا له كأنهم قطيع من أسود جاهزين، عند ظهور أي إشارة ضعف، لمهاجمته.

صـورة ملائمة وجدهـا عندما اقتـرب من العرش، ورأى نصب الأسـد الهائل يشـكل مسـانده. رفع رأسـه ولمـح مباشـرة وجه ملكـة تدمر. لاحظ بدهشـة كم هي شـابة. حاول بلا جدوى أن يكتشـف في السـمات المتناسقة ذلك الشبح الأنثوي الشرير الذي وصفوها به.

ولا حتى المنظر تلاءم مع تصوراته. فوق ردائها القطني ببياض الأزهار لـم تلبس سـوى معطف أرجواني اللـون مطرز بالذهـب، كان مثبتاً على كلا الكتفيـن، ومـا تدلى منه غطـى درجات العرش، بشـرتها ذات تأثير أعمق من أن تتحملـه رومية راقية، لكن كان على (إيميليان) أن يعترف بأن هذه البشـرة

Twitter: @ketab_n

الذهبية الباهتة لها سحرها. الشعر الأسود الأزرق كان في جدائل متموجة مرفوعاً إلى أعلى، إكليل عريض ثقيل من ذهب يذكّر بنقوش الخوذ، لمع فوق جبينها. ما الذي كان ينتظره في الحقيقة؟ هل ربما توقع أن تستقبله في حوض سباحة مليء بحليب الحمير، كما جرى الحديث عن كليوباترا قبل ثلاثة قرون؟

«مرحباً بك أيها المبعوث في تدمر»، حيته باسترخاء. «ماذا تقدمون؟»، تبين له أنها تكلمت لاتينية لا غبار عليها، وبنطق مضبوط، وصوت مليء بالإيقاع الواضح، وبأسلوب خطابي مدروس.

«القيصر أورليانوس حاكم دولة الروم استطاع في عام واحد فقط أن يلحق الهزيمة باليوتنكن والفانداليين والماركومانيين والألمان والغوطيين. في هذه اللحظة هو الآن مع مرتزقته في بلاد الإغريق: سرعان ما سيكون هنا ليعاقب الولاية السورية المنفصلة. الحرب والدمار في انتظاركم. غير أنه ما زال مستعداً أن يمنحكم السلام- تحت شروط محددة».

استمعت زنوبيا إلى التفاصيل بحاجبين مرفوعَين إلى الأعلى.

انحنت الآن إلى الأمام، ويداها على رأسي أسدي عرشها.

«تحت أي شروط؟»، سألت بإلحاح.

«ستتركون كل المناطق التي سيطرت عليها تدمر في السنوات الأخيرة. منطقة حكمكم تتحدد فقط بالمدينة، وحتى هنا ستخضعون للسلطة العليا للـ«سنديكوس» (المندوب) الجديد الذي يُعَين من قبل روما». تجاهل الغمغمة الغاضبة التي ارتفعت تدريجاً في القاعة، الواضح أن الكثير منهم فَهِم اللاتينية. «وبسبب قضية اغتيال المبعوث السابق، التي لم تُحسم، نطالبكم بمبلغ الدية ومعاقبة المذنب. وسوف نحدد الضريبة التي على تدمر دفعها في المستقبل..».

«صمتاً»! قاطعته بحركة سيادية. «ليس هذا عرضاً للسلام. وإنما إهانة. مثل هذه الشروط تُعرض على عدو مهزوم».

«تماماً هذا ما ستكونون»، قالها وكأنها مسألة مفروغ منها ببساطة.

«أنتم في التفاخرِ لا يُعلى عليكم»، ردت عليه بلهجة حادة قاطعة.

Twitter: @ketab_n

«سنرى إذا كان هذا سيتحقق بعد قيام الحرب. أشكُّ في هذا. تدمر خصمٌ مختلف عن الهمج البرابرة غير المنظمين، الذين تعاملتم معهم حتى الآن». نهضت عن العرش ونظرت بسمو إليه، إلى تحت. «قولوا لقيصركم، إن تهديداته المضحكة قد أخطأت الهدف. قولوا له، سيكون الأفضل له أن ينسحب إلى الغابات الأليرية التي جاء منها. وقولوا له إنه سيندم، إذا ما تجرأ فعلاً أن يضع قدماً على أرض بالميرية». ازداد صوتها ارتفاعاً من جملة إلى أخرى وتهدج من الغضب الذي سيطر عليها. لكن كل كلمة ما زالت ترن بوضوح ودقة.

قاوم (إيميليان) لفترة عينيها المكفهرة المهددة، ثم مرر نظره على أتباعها الذين أحاطوا بالعرض. أحدهم تكلم وسط الهيبة العسكرية غير المعتادة للضباط بلهجة غير مألوفة، كان له منظر عالِم، غير أن البعثة الرومية نظرت إليه بالعجرفة نفسها التي نظرت بها إلى الآخرين.

«انتهى اللقاء معكم»، قالت زنوبيا وتوجهت للانصراف.

ردّ المبعوث بانحناءة ساخرة. «سعدتُ بالتعرف إلى ملكة تدمر الشهيرة. لم يبالغ المرء فعلاً في ما يخص جمالكم. ستقدمون إلى موكب نصر (أورليان) عرضاً مدهشاً..». هنا شعر بذؤابة السيف على رقبته. واحد من هذه المخلوقات الضارية قفز بسرعة البرق، وبلا صوت تماماً، ظهر عليه أنه صمم على قتله وهو في مكانه. التفتت زنوبيا مرة أخرى وهتفت آمرة بلغة لم يفهمها. سُحب النصل فوراً إلى الخلف. «اتركوه» كررت باللاتينية. مَنْ مثله لا يُتوقع أن يكون له سلوكٌ مقبول». تحدثت كأم علمت أطفالها بحب، لكن النقطة المحرِقة لا يمكن تجاوزها. «فهو في النهاية رومي»، قذفت هذه الكلمات إلى المجتمعين من فوق الأكتاف، قبل مغادرته القاعة نهائياً، وسحبت أثناء ذلك طرف المعطف خلفها. ولم يعلم (ايميليان) أن أحداً أمكن له أن ينطق هذه الكلمات بأسلوب مهين بهذا العمق. إنها فعلاً تدربت على الخطابة بامتياز. سوف يكون لديه الكثير مما يخبر به قيصره.

* * *

الخيمة البنية رفرفت بضعف في الريح الخفيفة، شملت بنظرتها

Twitter: @ketab_n

الممالح وطارماتها المائلة إلى الاحمرار، ارتجف الهواء فوقها. رأى زبيدا هيئات صغيرة من العبيد على بعدٍ، رفعوا بصمت آلاتهم الخشبية، وأبعدوا كتل التراب عن الملح والغبار عند حافات السلالم الحمراء، وحملوها في سلال النقل، وعلى أكتافهم نقلوها في قافلة طويلة نحيفة انتهت أمام قاعدة السلالم. حمل العبيد بصخب وتمايلوا على أقدامهم الملفوفة بالخرق إلى الخارج ثانية، إلى فرن الجمر. طنَّ الذباب. حرك زبيدا بمروحة من سعف النخيل بضعف بعض الهواء نحوه وتأفف. دقق كاتب إلى جواره نوعية الكتل وعدّ، وأمرهم بإعداد حمل البعير وحزمه. بلّغ نتيجة الحسابات إلى ديونيسيوس، الرجل الذي وقف أمام زبيدا. ربما قارب عمره الستين، بوجه علاه أنف مقوس وقليل الشعر. فمه المضغوط بمرارة دلّ على معاناة في المعدة، سببه مطبخ الريف. وهو غير بشوش. بدا وجهه جافاً ملأته التجاعيد، كأنه تذوق من بضاعته كثيراً.

«أنت ترى»، توجه زبيدا إلى الإغريقي العجوز، «الكمية المنظمة حاضرة. وكذلك قافلة النقل التي طلبتها، تصل في أية لحظة. عليك إذاً الدفع الآن، إن كنت تريد أن يبقى لنا وقتٌ لجرعة جيدة». تأفف (ديونيسيوس)، واخرج محفظته متثاقلاً:

«بضاعة ونقلٌ وحماية مرافِقة، كل هذا من يدٍ واحدة أغلى من عاهرٍ اسكندرانية. أنتم الاحتكاريون تجعلون مني رجلاً فقيراً». ثم بدأ عدّ النقود على المنضدة بصوتٍ عالٍ. نظر زبيدا شزراً وأشار إلى الكاتب في الخارج، والتفت حتى يُعلق قربة النبيذ السامي، التي أعطاه إياها (ديونيسيوس) ليودعها في مكان بارد، ثم ذهب ليتفحص الأملاح. كان هذا جزءاً من حصته في التجارة، مقابل أن يختار أفضل الجمال والحرّاس عند القبائل. لكن الجزء الصغير، والدقيق في التجارة، الذي جلب له مبلغاً نقدياً جيداً أودعه له (ديونيسيوس) خارج سوريا كضمان بسيط.

منذ فترة عملا في التجارة سوية، التاجر الإغريقي وهو، حتى وإن لم يكونا أصدقاء، لكنهما اقتربا قدر الإمكان من الشعور بالسعادة، تغمرهما عند نظرة أحدهما المستبشرة إلى المكاسب. شيءٌ ما رنَّ وتدحرجت نقود

Twitter: @ketab_n

على المنضدة. التفت زبيدا.

«تبيـن أخيراً أن الصحراء لم تعد تلائمكَ، أيها العجوز..». بدأ الحديث ليقـول... لكنـه تجمد: كان (ديونيسـيوس) سـقط إلى الأمام علـى المنضدة بينهمـا. رقد الوجه على ميـزان الذهب الصغير، وحملق في عينين مفتوحتَين تقريبـاً. في ظهـره طعنة خنجر، وخلفه وقف الرجـل صاحب الخنجر، ونظر إلـى زبيدا شـزراً. بـدويٌ ضخمٌ لـه ندبة علـى زاوية فمه اليُسـرى فـي اتجاه الناصية عالياً.

«ماهذا، ماهذا»، لم يسـمع زبيدا إجابة. شق الآخر بحركة حادة محفظة (ديونيسـيوس) الممتلئـة مـن حزامه، بإشـارة وصفيـر إلى مرافِقَيـه، حُملت السـلال المليئـة بالملح على الجمال، وسـيقت مـن قبلهم، ودفـع إلى زبيدا بقدمه النقود، التي سقطت في التراب، «هذا نصيبك».

«ماذا يعني هذا، يا (ماكليه)». نشط زبيدا بعدما رُد إليه صوته ورفع يده. «كان الرجـل قـد وفر لكم العمل، كان عليكم إيصال الملح له إلى السـاحل. أنا..». لم يعرف ماذا يقول، وبسرعة أدار لنفسه جرعة نبيذ وشربها.

«هـذا بالضبـط ماسـنعمله»، أجـاب (ماكليـه)، «سـنوصل الملـح إلى الساحل». ونبيعه هناك لحسابنا».

«أجل، لكن..».

بصـق (ماكليـه) قائـلاً. «لايوجد ما نكسـبه هـذه الأوقات. منذ أسـابيع كانـت هـي القافلـة الوحيـدة التي مـرت فـي تدمر، أنـت تعلم هـذا. رجالي معلـقـون. لا حريـر، لا عبيد، لا توابـل». انتزع القربة من يد (ديونيسـيوس) وتـرك النبيـذ الدافـئ يمر إلى بلعومه. ثم تجشـأ ومسـح فمه بقفا يـده، ونظر إلـى (ديونيسـيوس) شـزراً. «أطفالـي يريـدون مني طعامـاً، زبيدا، لـذا آخذ الآن هذا الملح».

«أجل لكنه عائد إلى ملكتنا»، اعترض زبيدا وازداد غضباً.

«لقد أتت إلينا على الجصان، إذاً فعليها أيضاً أن تدفع». أجاب (ماكليه)، «كيف أفهم هذا؟»، تجشـأ ثانية بتعمق واضح، وأنصت إلى الصدى من بعد. «عليها أن تعمل على تسيير الجِمال في شوارعنا»، أكمل. «محملات بالذهب

Twitter: @ketab_n

والعطور. أو أن تنسحب إلى الخيمة القذرة التي أتى منها أجدادها المزعجين من ماتابلول زحفاً، هذا ما يقوله بنو مايتاي». بصق مرة أخرى وترك بعدها الخيمة. تطاير في الخارج من خلف الجمال المضطربة غبار أمام الأنظار رقد في شوارع الملح، أما الصغار هناك فما زالوا يعملون بالوتيرة نفسها، كأن شيئاً لم يحصل.

صراخ الجمال والطقطقات ونداءات «هات، هات، هات» للرعاة، اختفت تدريجاً مبتعدة.

ارتمى زبيدا في كرسيه متثاقلاً إلى الخلف، لكنه فزع فقام فجأة، تلمس قربة النبيذ، كانت فارغة، فلعن مايتاي. جثة (ديونيسيوس) حملقت بنظرة اشتد لونها الحليبي، وتطلعتْ عيناه إلى لاشيء. طنين الذباب ازداد حول البقع الدموية في الرمل، صار واضحاً لزبيدا أنه، من أجل مُلكه صار في حاجة إلى صاحب بنك آخر. علق نظره في السماء، وما زال باقياً لضوء الشمس أربع ساعات، كل هذا بلا نفع: يجب عليه أن يبلغ ربة عمله بما حدث.

«ماذا؟»، قفزت زنوبيا من أريكتها. بخطوات عصبية أسرعت في الغرفة جيئة وذهاباً. تقدمت إلى الشباك وتطلعت إلى السهل الشمالي نحو الخارج. هدأ غضبها بالتدريج، وبدأت تفكر. من هناك من مكان ما قد يأتون يوماً ما. هناك ستنتصب أعلام الروم، وأبواق الحرب سوف تُنفخ. حتى الآن لم يكن هناك شيءٌ يُرى سوى سفوح الجبال الخضراء البنية المألوفة، التي انتهت عندها حقول الحصى وامتدت حتى المدينة. بين أبراج القبور انحرف الشارع إلى اليسار في اتجاه بوابة الشمال للسور الجديد.

أسوارها التي شيدتها مجدداً هي الآن في حاجة ماسة إليها. كادت تضحك مهمومة. من منحدرات الجبال نزولاً أتت كخيط رفيع أسود من بعيد قطعان ماشية القبائل. أتت إلى السوق السنوي، وقد أتى، بحسب ما لاحظت زنوبيا، كثير من الحشود مستبشرة كما هي الحال كل عام. وكذلك بنو مايتاي لا بد كانوا من ضمنهم.

«أنت تعلم شدة حاجتنا إلى الخيول»! زمجرت. «سوق الخيل كان كل

Twitter: @ketab_n

ما تبقى من اتحاد القبائل السياسي»، ثم توجهت إلى زبيدا ثانية.

«أين يكون (زابداس) الآن مع فرسانا.. ماذا تقول؟»، نظر زبيدا إليها مستغرباً، فتبديل الموضوع شتته.

«أيتها السيدة لا أعلم، كيف يهيئ لنا (زابداس) الملح ثانية..». نظرت إليه.

«عند الفرات إلى الشمال من نيسفوريوم»، أجاب بسرعة عن سؤالها، وعندما لم تقل شيئاً، بدأ مجدداً.

«ولكن أيتها السيدة، ألا تريدون أن تتخذوا أي إجراء ضد هذا المجرم؟ المايتاي كانوا قد استحقوا العقوبة سابقاً، عندما قام أجدادهم بإهانة كبيرنا، البطل تايموعماد..».

«أبعد عني الحكايات القديمة، زبيدا»! نفخت بعصبية، «عندي هموم أخرى». إذاً فقد هاجموا ممالحنا. ماذا عليَّ أن أفعل: «أطلب حضور (زابداس)، كي يطاردهم في الصحراء؟»، هزت زنوبيا رأسها وواصلت محدثة نفسها أكثر من زبيدا:

«أنت تلمس أن سلطتي تختفي، زبيدا، يشعرون بهذا مثلما يحس الجمل بالماء. أليس لديهم حق؟ أنت ترى أن الشوارع خالية، سوق القوافل أقفرت، مواكب التجارة تجنبتنا إلى آباماي في الشمال، ولم يبقَ لدينا شيء، لا حرير ولا بخور ولا أحجار كريمة ولا عبيد. سلطة ظل روما، هي التي خيمت علينا». التفتت ثانية إلى الشباك وضربت الإطار بيدها.

«لكننا لن نهزم بهذه البساطة. سوف يتعلم (أورليان) هذا عندما يأتي إلى السهول السورية. خيالتنا ستريُهم، ماذا حصل، حين سيطرنا على الشرق. لهذا فنحن في حاجة إلى خيول أكثر، زبيدا، أتفهم هذا، خيول، علينا أن نحصل على أكبر عدد ممكن من الخيول». أومأ زبيدا متردداً. ما سمعه كان يعني له أنه ربما لم يودع ما كفى من ثروته في بلاد الإغريق.

زنوبيا أخطأت قراءة وجهه.

«فرض القانون من جانبي مع المايتاي، سيؤدي إلى صراع قبلي، لكن: بعد سوق الخيل». ابتسمت له مشجعة. «سنكون غداً على العكس،

Twitter: @ketab_n

سنكون كريمين ومصالحين، سندفع جيداً وندع النبيذ يجري أنهاراً، وأريد أن أرى انصاري في كل بيت دعارة وكل حانة. يمكنك أن ترضي رغبتك في الانتقام، بالخمر والكلام مع أبناء مايتاي لينضموا إلى جيشنا، كل من يوقع يُرسل فوراً من المدينة إلى الشمال مع الخيول سوية. (زابداس) سيدرب الجدد هناك في مخيمه».

عندما صارت وحدها تبخرت نشوة المزاج ثانية، تلك التي نقلت نفسها إليها في خطابها. هؤلاء الملاعين أولاد الزنى، كانوا صقوراً شبقة، هم الذين هجموا عليها.

«أتبحثون عن شيء ترمونه؟» نظرت إلى أعلى وحملقت في وجه (لونجينوس) الساخر. وضع أمامها جرة نبيذ. «مثلما تجولتم جيئة وذهاباً، فكرتُ، ربما يجدر بكم أن تجدوا شيئاً ملموساً لترتاحوا». بتردد تناولت الجرة من يده. كيف استطاع دائماً أن يجعلها تجد نفسها مضحكة، حال دخوله الغرفة. أوه لقد ملّت من أن تُجبر دائماً وقبل كل شيء على لعب دور القوي: تغطية عالية وواسعة للدفاع! غير أنها في حضوره لم يُسمح لها كشف ضعفها في أبسط الأحوال. تمنت لو قصّت لسانها على أن تعترف أنها اشتاقت إلى كلمة شخصية منه، أو إشارة توجيه أو إشارة تلميح لشعور...

نصف جادة، رفعت يدها؛ في الحقيقة كان المفروض أن تلطم الوعاء في وجهه الهادئ، هي... وأصلاً، لماذا لم تفعل، فقط لأنه... بحركة مفاجئة رمت الجرة من الشباك وتقدمت، لتتابع طريقة طيرانها. سقطت محدثة سُحابة غبار بجوار الكاهن في مقدمة موكب دفنٍ، فتدحرجت بين شواخص القبور. عشرات الرؤوس اتجهت إلى السماء. أختبأت زنوبيا واستندت بقلب تسارعت ضرباته إلى الحائط تحت إطار الشباك. ذكرها المشهد بآخر مشابه له في طفولتها، كبتت كركرة.

ثم نظرت إلى (لونجينوس) عالياً، وقد تقدم إلى الشباك بسيمياء متشككة ليُقدر البعد.

«ليس في الهدف، أخشى أن الرجل يعيش» قيَّم رميتها.

اضطُرت للضحك تقريباً. ثم قالت: «أنتم لم تأتوا إلى هنا للعب».

Twitter: @ketab_n

«عندي رسالة لكم»، أكد (لونجينوس)، «من الاسكندرية».

«رسالةٌ»، كادت زنوبيا تنتزع اللفّة من يده. «لماذا الرسالة الآن؟ أراد القدوم غداً لافتتاح السوق بنفسه». بسرعة فتحت لفة الورق وقرأت بانفعال متزايد.

«دعيني أنصحكِ»، علق (لونجينوس) على الرسالة، «إنه للأسف، في عشاء عمل مع المقدم الرومي الجديد». لم تُجب زنوبيا. «والآن تعالوا»، واصل (لونجينوس)، «كلانا يعلم بالطبع أن (فيرموس) رجل مطبوع بالأنانية». وسألها بلطف تقريباً:

«أصدقتم فعلاً أنه قد يأتي شخصياً ليشرح لكم لماذا سحب كل تجارته من تدمر؟».

«لقد كان صديقي»، أجابت زنوبيا باختصار.

«في الأوقات الطيبة بلا شك»، كان صوت (لونجينوس) مليئاً بالاحتقار، «وماذا تعنون لي؟ وماذا أعني أنا لكم؟». نظرت زنوبيا إليه بكامل عينيها. «(فيرموس) سيقول عند إعدامي: لسوء الحظ، يا فتاة، ويذهب للاحتفال، بينما حُكمكم في المقابل ربما سيكون: المفروض أن تُظهري هيبة أكبر، وبهزة رأس، على سلوكي غير الملائم. مثل أيام الحياة. وصدقوني، هذا سيفزعني أكثر من الموت»، نظرت إليه بتشكك.

تماسك (لونجينوس).

«لم تتعلموا الكثير»، أجاب هازاً كتفه، «إذاً كنتم تفضلون الخيانة وحفلاً لطيفاً على الإخلاص».

«أنا أعرف كيف أقدّر إخلاصكم»، ردت غاضبة. «توفرت الفرصة دائماً للحساب، لتقدير الأمور، أمام الضرائب، العمولات، المجندين. لذا فأنتم من أُعطيه الأمر الآن، ليذهب ويجمع القوات المجندة كلها. إذاً هيّا. أغرب عن وجهي، إبدأ. هذا ما سيجلب لكم ارتياحاً»، وصدت عنه فجأة، وحملقت مجدداً من الشباك. إلى أن ذهب، فمزقت الرسالة إلى قطع صغيرة كثيرة وتركتها للريح.

Twitter: @ketab_n

محاصَرون

غمزت زنوبيا بعينيها ورفعت يدها أمام العينين لتخفف الضوء. أمامها خرجت جموع تاركة المسرح فارغاً وقد ابيضّ في شمس الظهيرة. كانت وحدها مع الهدوء تحت سماء عميقة الزرقة، وتأملت أن ترى حركة عند الحافة، أو مروراً صامتاً لملابس عابري سبيل، وكأن شخصاً ترك المقصورات العليا.

«(فيرموس)»، هتفت، «انتظرني». وأسرعت محمومة خلفه، صاعدة درجات السلم المرمري الحارة، لكنها عندما وصلت إلى أعلى وهدأ لهاثها، لم يكن هناك أي ضجيج. لم تكن على السلم خطى أسرعت للوداع. وقفت بذراعين مسبلتين ونظرت حولها. لكن الآن إلى خشبة المسرح، ألم يكن في هذه اللحظة أحد عند الباب الجانبي قد اختفى.

أسرعت زنوبيا ثانية إلى الأسفل، السلالم تأرجحت أمامها في الحر. لكن لم يكن أحد على خشبة المسرح، تذكرت أن الباب قد كان وهمياً، بالطبع، فلم يكن سوى نقوش بارزة، إيهام معماري، لا يؤدّي إلى أي مكان.

كيف استطاعت نسيان هذا؟ تركت أصابعها تمر مضطربة فوق الأخاديد التي في الحجر، إذ أدّت إلى شق الباب، واستغربت من نفسها.

بدأت ترداد لحنٍ، عندما شعرت فجأة كأن احداً وقف خلفها. فالتفتت. المقاعد المتروكة كانت في مواجهتها. وللتأكد رمت نظرة سريعة إلى اليمين وإلى اليسار، بشكل غير ملحوظ، وكأن أحداً استطاع أن يسخر من بحثها. لم يكن أحد هنا سوى المرمر النظيف. غير أن درجات سلم المرمر حملقت فيها، شعرت بهذا بوضوح. الهدوء حملق فيها بسلطة مُحبطة، حتى الشمس كانت عيناً قذرة، وضحكت

Twitter: @ketab_n

مرعِدة إياها إلى الأسفل.

« إنه ليس سوى مسرح خالٍ»، صرخت يائسة، «إنه ليس سوى مسرح خالٍ».

لكنها عندما أرادت الانصراف، أوقفها لحن ناي رقيق. أنصتت، وبوضوح متزايد سمعت لحناً خجِلاً، جذبها إليه. تبعته مخترقة كامل قاعة خشبة المسرح إلى خلف الكواليس الجانبية. هناك وجدت (أودو) جالساً متربعاً على الأرض، وعلى شفتيه ناي الرعاة. اقتربت زنوبيا ولم تكن مستغربة أن وجدته ثانية.

«ماذا تفعل هنا؟»، بادأته الكلام «أنت أصلاً لا تعرف العزف». عزف اللحن حتى نهايته قبل أن يرفع نظره.

«لكنكِ مخطئة»، قال لها فقط، ورفع الآلة ثانية إلى شفتَيه.

فجأة صار عزفه يزداد ارتفاعاً، وغلب عليه الضجيج. لم تستطع زنوبيا اكتشاف مصدره. تركت (أودو)، من أجل أن تبحث عن الضجيج، لكنه ازداد حدة، حيثما توجهت، أخيراً دوّى في أذنيها. هنا أدركت أنه ظهر من خلف الباب الوهمي. ارتج الحجر المضروب فعلاً. مخالب الدب التي زينت إطار الباب تكسرت وهوت على الأرض؛ وسرعان ما سيسقط الباب وينفتح الطريق إلى ما كان قد اقترب منها. امطرت حجراً حول زنوبيا، بينما مشت إلى الوراء وحملقت في الباب، كررت باستمرار جملة مرة بعد أخرى. «اذاً تعال»، تمتمت، «إذاً تعال أخيراً. تعال»، وصرخت.

«زنوبيا»، وضع (لونجينوس) يديه على كَتِفَيها، ونظر إليها مهموماً.

«ماذا، ماذا حصل؟»، ردت عليه ونظرت مبهوتة حولها. رأت نفسها في غرفة الدرس، نعم طبعاً. هنا كانت لوحة رُسمت عليها ماكنة الحصار، وهناك وجبة الغداء لم يمسسها أحد. أرسلت الشمس آخر أشعتها من الشباك المقابل. ما زالت جالسة على المنضدة وخطط أسوار المدينة التدمرية منشورة أمامها. آلمتها رقبتها، كأنها صرخت عالياً. «أنا، أنا، لا بد قد أخذتني إغفاءة. هل حدث أي شيء؟».

«لقد تأوهتِ وتمتمتِ بشيء غير مفهوم، عندها أيقظتكم». أدار

Twitter: @ketab_n

(لونجينوس) وجهها نحوه، وتطلع إليها متفحصاً. أطراف أصابعه رقدت على خدها برقة، هناك حيث لوحة الكتابة التي غفت عليها، خط حُفر على بشرتها.

تجمدت زنوبيا، مجرد هذه الملامسة السطحية كانت كافية أن توقظ فيها مشاعر كانت قد طردتها من وعيها قبل سنوات عديدة، ولم تسمح لها بالعودة ثانية على الإطلاق. سيطرت عليها رغبة أن ترتمي بين ذراعَيه وفي نشوة مشاعرٍ لا حدود لها تكسر كل شيء عداه. هزت رأسها، كأنها استطاعت بهذا إبعاد مثل هذه التصورات من رأسها.

«كان حلماً فحسب»، تمتمت من دون أن تعلم بالضبط ما عنت كلماتها. الحديث عن الأحلام لم يعد يعني شيئاً.

صدت عنه، الطعام كان بارداً، لكن الماء في الكأس ما زال يمكن شربه. جرعة رطبت فمها الجاف، ثم أخذت طريقها في جولتها اليومية إلى سور المدينة.

رافقها (لونجينوس) كالعادة. أوضح لها كيف تصورا إفشال حملات الحصار المدرعة للرومان على السور الغربي. تذكرت أنها نفسها المحاضرة التي ألقاها هذا الصباح على اللوحة. مشتتة أومأت برأسها فقط، عندما أشار أثناء المشي إلى السخام والسهام النارية. أرادت مواصلة المشي إلى البرج الذي استطاع المرء منه أن يرى المعسكر الميداني للروم في السهول خارج الحدود. من على بعد كانت تظهر كأنها لعبٌ صغيرة، والحركة لا ضرر منها. بمرارة حملقت في النظام الهندسي للخيام، بحفر واستحكامات الرماح والبوابات التي برزت من الأرض. سنة ونصف السنة مضت منذ أن جلست مع (لونجينوس) في الخارج في واحة النخيل، واعتقدت أن روما مدينة بعيدة، مدينة كمدن كثيرة غيرها. الآن أتت روما إليها.

في غضون سنة حقق القيصر (أورليان) ما لم يتوقعه منه أحد: صمد في آسيا وقد وصل إلى هناك منتصراً.

رئيس قبيلة الغوطيين (كانا باودس) الذي توغل بقبائله عبر الدانوب، هُزِمَ، أعيدت حدود الروم عند الدانوب وأمنت. كان ظهْر (أورليان) بلا

Twitter: @ketab_n

حمايـة، وسـلطة روما كانت محكمـة بيديه، إلى أن اصطـدم بجيوش زنوبيا. عضت على شفتَيها عندما تذكرت هذا. قبل امايا كان ممكناً أن يعود الميدان إلى جيشـها، هنا خُدِعت في هروب موهوم لخيالة الروم فسُحِق خيالتها بعد مطـاردة بـلا معنى. هـذه الذكريات أججـت غضبها مجدداً، كيـف أمكن أن تكون بهذا الغباء، متسرعة وواثقة من النصر!

قبـل أمايـا، حيث أسـرعت راجعـة إلى هناك. عـادت خيّالتهـا من دون أن تُصـاب. فنمـا أمل جديد، لكـن هنا هاجم مشـاة (أورليان) مـن الخلف، وضغط على الخيالة تدمريون حتى لم يستطيعوا بعد ذلك مواصلة هجمتهم، فاضطُروا للهرب من المدينة التي ظنوا أنها ضُمنت إلى تدمر.

ملاحقتهـم عبـر الصحـراء إلـى هنـا كلفـت (أورليـان) خسـارة كبيرة؛ الجفـاف وهجمات البدو البارعة أرته أموراً قاسـية. لـم تعرف زنوبيا بالضبط كم عدد الجنود الروم الذين ما زالوا واقفين أمامهم. كثيرون. أكثر من اللازم بدوا لها، فكيف استطاعوا الوصول إلى هنا.

«أنظـر إليهـم، (لونجينـوس)، لقد شـيدوا سـوراً لهـم، وهنـاك حفروا الخنـادق. بوابتـان متقابلتـان تمامـاً، والطرق فـي الزاوية اليمنـى. هنا نصبوا مطاحـن القمـح. وهنـا مكاتب دفـع الأجـور، ولا ننسَ، هناك فـي الخلف المراحيض، كل شـيء في مكانه، كل شـيء بحسـب التخطيـط. آخ، يقرفني أن أرى هـذا يوميـاً». (لونجينوس) رفع بصمت حاجبَيـه وتخلى عن التعليق علـى تعابيرهـا. حتى في داخله زحـف اليأس عالياً، إذا ما نظر لسـاعات إلى المُحاصِريـن فـي السـهول التي تمـوج حراً. لكـن الانضباط الذي اسـتلموا بموجبـه مواقعهم لـم يقلقه بقدر ما أقلقـه العدد الهائل للجنود الذين تجمعوا أمام أسـوار تدمـر، وتراكضوا ضد المدينة. اسـتطاع أن يميز ثلاثـة فيالق من خلال علامات المعسكرات وشارات الشرف، الثالث كاليكا والرابع سيتيكا والسـادس عشـر فلونيكا. وإذا ما تخلصوا منا، فكـرّ، سـيتمكنون من إضافة اسم الشرف بالميريكا.

ضجيـج عنـد الجزء الجنوبـي من السـور جعلها تنظر من فـوق، تحت تهليـل تدمرييـن مـن. على التجمعـات انهار هناك تشـكيل السـلحفاة تحت

Twitter: @ketab_n

وابـل حجارة المحاصَريـن. حيث في تلك اللحظة قامـت تحصينات أخرى قوية متماسـكة كدرع. أصابتهم فوضى بسـبب الأجسـام الجريحة والمعادن المتضـررة. كبش الصدام الذي دافعوا عنه تهشـم وانكـب في الرمل. غير أنه الآن انطلقـت طلقات رصاص من المنجنيق الرومـي، فدفعت المهللين إلى الخلـف. تلقائيـاً تقـدم (لونجينوس) أمـام زنوبيا، رغم أن الجـزء الذي وقفا فيه، كان كل شـيء فيه هادئاً. زنوبيا دفعته جانباً، واسـتلمت بلاغاً من ضابط: لقد أكد لها ما رأته أمام عينيها: العربات كانت حتى الآن فاشـلة، السـلاحف تحطمت، الغرف الخشبية المدفوعة على عجلات تحولت بالتتابع إلى دخان قبل أن تتمكن المكائن المخبأة تحتها من البدء بأعمالها المدمرة.

«دفعـوا برصيـف خشـبي إلـى البوابـات الغربيـة، واسـتعدوا للهجوم، لكننا حمينا الأبواب بأشـجار مشـدودة إلى بعضها ضد الضربات، واستطعنا صدهـم أخيراً إلـى الخلف». شـرح الضابط فخـوراً. لما كانت هـذه أوامره التـي أبقـت علـى البوابـة، فقـد أرسـلته زنوبيـا ثانيـة بمديـح إلـى موقعـه. اتجهت إلى (لونجينوس).

«نحن نصمد جيداً كما يبدو».

«أجل»، كان (لونجينوس) مشـغولاً بالتفكير. عيناه جالتا عبر المعاطف الحمـراء لضبـاط الروم، التي رفرفـت في رياح الليل. ما أكثـر البقع الحمراء هنـاك في الخارج. لكننا لا نسـتطيع القيام بشـيء ضد جنـود الأخاديد. إنهم يخربون تحتنا، ولا نستطيع الوصول إليهم. «دعهم يحفرون»، أجابت زنوبيا «الرمـال الرخوة سـتنزلق عليهم. لا أسـتطيع أن أصدق أنهم سـينجحون في شـق ممر يصـل إلى ما تحـت أسـوارنا. دعهم يحفـرون، وليلتهمـوا رملاً». وبصقت على الأرض.

(لونجينوس) الذي أراد أن يرد بشيءٍ، أغلق فمه بسرعة، وبحدة صدت عن الكلام، كأنها غاضبة في الوقت نفسـه من نفسـها. لقد فقدت السـيطرة. أنـتِ تخافيـن، زنوبيا، انتبهت إلى نفسـها، أنتِ تشـتمين مثل عاهـر الميناء، تنفخيـن وتتوعديـن، وصـار أي واحد لديه شـجاعة يمكن أن يبـدل موقفه. أنتِ تتصرفين كصبي صغير حرك لعبة تشبه السيف، ليُري الكبار أنه محارب

Twitter: @ketab_n

نحيف. في البداية ضحك الجميع بسخاءٍ وشجعوه في لعبته، لكنه سرعان ما أصبح مملاً. في تلك اللحظة سيكون محطّ الأنظار حين يُسحب فجأة من قبل يد كبيرة إلى خارج الغرفة، بينما يذهب الآخرون إلى عملهم اليومي.

وهكذا أقف هنا، إذا ما انتهى كل شيء. كيف سيكون الأمر، إذا امتدت اليد إليّ؟ هل سأفعلها على نفسي من الخوف، كما فعلتُ سابقاً عندما كنت طفلة، حين هزني القائد المركزي. أم أنني لا تزال لديَّ الإرادة الكاملة لأمسك الأفعى في سلة الفواكه، كما فعلت كليوباترا؟ نفخت بمرارة لتبتلع فوراً بعد ذلك دموع الشفقة. في تفكيرها بحثت عن سلوى لكن لم يظهر لها اسم. «ساعدني»، فكرت، «ساعدني فلا أريد أن أموت على يد شخص لا يحبني».

نظر (لونجينوس) إلى الغائبة محتاراً. كان طوال الوقت يتكلم، لكن بدا واضحاً أن زنوبيا لم تعره أذناً صاغية. نظرت إليه فجأة، بدا أنها لم تفكر في ما قاله لها. نظرت إليه خائفة كأنها تنتظر شيئاً ما. أم أنها نظرت إليه وحوله، فتنحنح (لونجينوس) وكرر جملته الأخيرة:

«أملنا أنهم لا بد سينقسمون ليرتبوا أمور التموين»، قال ببطء وتأكيد.

«قريباً سوف لن يبقى لديهم قمح للمطاحن».

«أجل»، أجابت زنوبيا، وهي ما زالت في ذهولٍ، ثم تنفست عميقاً.

«بنو ماتابول، يستلمون منذ شهر كامل تموينهم. ربما سيستنزفهم هذا».

كانت جملة قيلت بشكل ميكانيكي. إنه دورٌ. دوري وفكرتْ برضى ومعاناة ذاتية، وكبحت الهلع. نظرة (لونجينوس) جالت باستهانة حول قرية التجار وأصحاب السوق الذي تشكل أمام بوابات المعسكر الرومي. خيَّم هدوء هناك. ليست هناك حيوية معركة السوق الحافل بالبضائع. وفكر بانزعاج في الشحم اللامع، وبقايا بلح نخره الدود، بينما نظر إلى هناك، إلى الجرذان في المراعي، التي دُفع ثمنها أغلى الأسعار، والمرتزقة الجياع الذين نظروا بعيون حاقدة على تدمر، خلف أسوارهم الآبار الوحيدة التي تدفقت منها المياه. فغمرته فرحة غير معقولة.

Twitter: @ketab_n

سأكون طفولياً، فكر مثل الذي أهلكه العطش فرأى سراباً، همس صوت آخر في رأسه. أسكته . استسلمت لنظرته.

«الذين هناك»، زمجرت حاقدة، «يكسبون من معاناتنا، لكني تكلمت مع عزيزو وسيرسل قبيلته بني مايتاي ضد هذه الحثالة. إذا ما رأيتم في إحدى الليالي المقبلة هناك ناراً، فهم قد أشعلوا القرية بالنار».

«إنه غامر بالكثير»، رأى (لونجينوس)

«لديه الكثير ليخسره»، ردت عليه. «عائلته عندي هنا في مدينتنا، وفوق ذلك يستطيع بعد الهجوم المفاجئ أن ينسحب راجعاً إلى الصحراء. لا أظن أنهم سيطاردونه إلى هناك. ينظر إليهم الروم كعصابات مشردة: إنهم لا يعرفون إلى أي القبائل ينتمون». صوت زنوبيا ظهر عليه العناد عندما قالت هذه الكلمات. وإذا كان (لونجينوس) يشارك الروم في الرأي حول القبائل المتحالفة معهم، فقد سكت الآن.

«هذا هناك، أتصدقون أنه هو؟»، هتفت زنوبيا فجأة منفعلة وأشارت إلى شيء. قلص (لونجينوس) عينيه معاً، ونظر حيث تمد ذراعيها. هناك وقف رجل بخوذة عليها ريش أرجواني إلى جوار حامل نسر المرتزقة. درعه الذهبي على صدره توهج في شعاع الشمس الأخير في نهاية اليوم.

«(أورليان)»، فكر (لونجينوس) مشككاً. «وقد يكون ممكناً، لَم تسألون؟»، لم تسحب زنوبيا عينيها من المشهد هذا.

«أريد أن أرى أخيراً وجهه»، تمتمت.

«ماذا تستفيدون من هذا؟»، سأل (لونجينوس)، لكنها لم ترد عليه. وقفا صامِتَين هناك، بينما خبا صخب القتال حولهما مع تقدم الظلام. تهيأ لزنوبيا كأن ظلام القبر هو الذي امتد إليها. والخوف ضيّق من جديد على حنجرتها. احتقرت نفسها، لأنها لم تعد تستطيع أن تكبت خوفها، وكرهت في الوقت ذاته ذلك الرجل الذي إلى جوارها. الواضح عليه أن طمأنينته لم يهزها شيء. وسوف لن تتغير الحال عما هي عليه، ولا حتى على اعتدال هيئته أو رفرفة طيات ردائه الإغريقي المَهيب.

ماذا، فكرت زنوبيا بضعف، أتنتظرين شفقة من نصب من مرمر. يحق له

Twitter: @ketab_n

أن يكون غير مبالٍ. ماذا عنت له تدمر؟ ماذا تعني له الآن؟ شعرت في اللحظة نفسها، أن يداً أُلقيت على كتفها.

«أنا أيضاً خائف»، قال (لونجينوس) بهدوء، بجهد طبقت أسنانها لتسيطر على يأسها من أن يصرخ منفلتاً. «لكني لن أُريه لأحد، ولا حتى لكم»، وواصل ببساطة، «أنتم تستطيعون هذا أيضاً يا ملكتي الرائعة الجمال، الحبيبة التي لا تُقاوم. أنتم أقوى بكثير مما تعتقدون، مهما حصل. هزيمة أو خضوع أو موت، لديكم القوة أن تتقدموا أمامه مرفوعي الرأس».

إن هذا فعلاً لسلوى، فكرت ساخرة، لكن الغريب أن كلماته كان لها أثر مهدئ فيها. «أيمكن أن أكشف لكم عن حكمة فلسفية؟»، كما في كل مرة سرعان ما بدا معها ومع نفسه كأنما يمزح «أحبسوا الخوف والمعاناة عميقاً في داخلكم. افرحوا مع الحياة وابتسموا حتى تأتي النهاية».

تكلمت زنوبيا بإصرار «هراء»! أجابته بخشونة وبرغبة متجددة في الهجوم عليه. «أريد أن أراك مبتسماً إذا ما دُك سيفٌ في جسمكَ- لكن ربما تكونون أيضاً كذلك- فقط لأكون على حق».

أنصت (لونجينوس) لها مسحوراً. «آه جيدٌ هكذا»، ظهر مرتاحاً، «أخيراً عرفتكم مجدداً».

تبين لها أنه قادها ثانية بالضبط إلى هناك، حيث أرادها أن تكون.

«...توقف عن معاملتي وكأني واجب رياضي لعين، يمكنكم أن تحسبوه من الأمام ومن الخلف». فجأة توقفت. «ماذا قلتم قبل هذا؟».

«أيتها الملكة»، في هذه اللحظة رن خلفهما صوتٌ، «مبعوث من ملك فارس قد وصل ويريد الكلام معكم». انحنى الخادم صاحب المشعل، انحنى أمامها كثيراً، حين قال تلك الكلمات. عندها التفتت زنوبيا بفرح متصاعد.

«وأخيراً (لونجينوس)، تسمعون جواب شابور. أين الرجل، إليّ به..». اختفى صوتها عندما تقدمت هيئة الرجل من ظل المساء إلى ضوء اللهيب، انتابتها رجفة.

«السلام عليكِ أيتها الملكة»، قال الغريب بصوت منخفض، «وتحيات من سيدي. للأسف يقول سيدي، ملك الملوك، حبيب الآلهة، إنه لا يتمكن

Twitter: @ketab_n

مـن مسـاعدتكِ. حزينٌ لكنهـا الحقيقة. أجل أنـا حسـبتُ أن قريبكم كان قد أبلغكم». بقيت زنوبيا تحملق فيه، لاحظت شريط نعاله الأيسر قد انحل...

«ألن تفرحي قليلاً، أنكِ رأيتني بعد كل هذا الزمن؟».

(لونجينـوس) نفسـه جمد من الدهشـة، وجد صوته قبلهـا ثانية. «لكننا ... ظننـا أنكـم ميتون». لاحظ الابتسـامة الناعمة السـريعة على وجـهٍ بعيني السحلية، التي ظهرت عندما تطلع حول فم القادم الجديد، كما لاحظ خوف زنوبيا، ولم يعرف تفسير هذا ولا ذاك، لكنه اندفع بينهما تلقائياً.

«ومـاذا تريد هنا، (گـاش)؟»، سـألت، وملأ الامتعاض صوتها بشـدة، حتى أن (لونجينوس) نظر إليها مستغرباً.

«ماذا أريد هنا؟»، رفع (گـاش) حاجبَيه. «أليس هذا السؤال هو الخطأ؟ أليـس الأجدر بك أن تسـأليني قبل هـذا بكثير: من أين أتيـت (گـاش)؟ ماذا فعلـت كل تلـك الفتـرة، (گــاش)؟ أو أكثر من هـذا أأنت في حـالٍ جيدة؟» هـز رأسـه وأطلق زفـرة مسـرحية. «وأنا الـذي فرحتُ كثيـراً بأنـي أعود إلى الوطن. تحت ذراع أختٍ، تحبني»!

نظر (لونجينوس) إليه غير راضٍ، بينما صمتت زنوبيا خلفه. ولم تتحرك، وكان يعـرف أنهـا لا تحـب أخاها، لكن هذا الذي صدر منها وما اسـتطاع أن يشمه كان أكبر من كره، حتى وأكبر من خوف، كان هلعاً ليس إلا.

ولما لم تستجب، فعل هو، «دعي هذه المسرحية»! قال بفظاظة. «أجيبوا، ايتها الملكة»! لمّح (گـاش) إلى أنه مستعد للاستسلام إلى اللاعقل.

«إنـه الوطـن»، أوضـح، «الوطـن أتفهمين؟ أنـا في بابـل وأختي تطلب المساعدة. الملك الكبير لا يأتي، لكني أتيتُ، (گـاش) أليس هذا طبيعياً؟».

نتصـرف وكأننا أغبيـاء، فكر (لونجينـوس) منزعجاً، وزنوبيـا المتذمرة والثائرة. ألا يستحق كل هذا العرض أية ملاحظة مستهترة؟

ظل (گــاش) محملقاً في أخته، بينما واصل: «سـأتولى موقعي القديم كقائـد لحـرس المدينـة ثانية، وأرى ما يمكـن إنقاذه هنا. لكن هـذه المرة لن تحدثينـي وأنـا في المعركة. هنا ليسـت حفلـة أوبرا. الموضـوع الآن يخص حياتـكِ أيتها الأخت وحياة فيلسـوفكِ وحياتي. جنـد أخيكِ الغالي (گـاش)

Twitter: @ketab_n

سيهتم بنا جميعاً». بهذا حمل على كتفه عدة السفر واختفى في الظلام. زيه العسكري الأجنبي أحدث خشخشة في كل خطوة غير مرئية.

نظر (لونجينوس) خلفه. هو بالتأكيد عسكري وله خبرة ووطني. فكّر ساخراً للحظة. ما الذي حدث سابقاً في الاسكندرية؟

لم يعد لديه وقتٌ ليسأل زنوبيا، إذ صدّت عنه بصمت، ونزلت درجات السلم بسرعة، وانعطفت إلى الرواق. هيئتها الرشيقة بالقماشة البيضاء اختفت بسرعة بين الناس الكثيرين، الذين توغلوا في ضوء المشاعل إلى نار الطبخ.

(لونجينوس) لعن، حين حاول اللحاق بها. في كل خطوة تعثر باللاجئين من القرى المحيطة، بمجاميع قبلية بكاملها بحثت عن ملاذ في شوارع تدمر من القوات الرومية. قطعان الماعز توغلت ومأمأت بين نصب المنتدى، وتركت برازها. عوائل نزلت في القاعات الأمامية للعتبات المقدسة وفي المسرح. تحت أروقة الشوارع الرئيسة، حيث عُرضت في السابق أكشاك وحجز التجار بضائع راقية ترفيّة، استقرت بقايا أثاث فقيرة وعُلقت قدور طبخ على لهيب مكشوف سوّد المرمر. نساء وأطفال بأسمال ملونة اجتمعت حولها، بينما الرجال استندوا إلى الأعمدة وتطلعوا إلى المارة بنظرات تهديد.

كادت تختفي عنه نهائياً، شقت طريقها من دون سابق إنذار في شارع فرعي لم يزد عرضه على ذراعي رجل ممدودَتين. ساقاه بدأتا تؤلمانه، بينما كان يحاول أن يتبع سرعتها. وقد فقد منذ فترة الاستدلال عليها في زحام الأزقة والزوايا. زنوبيا في المقابل بدت عارفة هدفها بملاحقة نموذج لم يوجد إلا في رأسها.

بسرعة مفاجئة كانوا في الجانب الآخر من دائرة سور المدينة.

أبراج الحراسة في جنوب غرب تدمر شغلها عدد قليل، لأن المرء لا يتوقع أن الروم بالذات سيهاجمون شوارع القوافل المحمية جيداً. بانحناءة بسيطة عبرت زنوبيا الموقع عند قدم البرج وبدأت الصعود من دون أن تلتفت إلى (لونجينوس). بجهد استطاع هذا وضع ساقه القصيرة ليصعد الدرج الخشبي العمودي تقريباً. استقبله ضوء نجوم لامع رقيق، عندما وصل قاعدة

Twitter: @ketab_n

الوقوف مهدئاً أنفاسه الثقيلة. أرسل حرس البرج، الذي تفاجأ، إشارة يدٍ إلى الخارج واقترب ببطء من الملكة. كانت زنوبيا قد لفت نفسها من أعلى إلى أسفل بملفح بدوي، لم يكشف سوى وجهها الذي تعرض لريح الصحراء.

«أيتها السيدة».

«ماذا تريدون؟».

«التحدث إليكم».

«ساعة الدرس سقطت. لا يوجد شيء يمكن أن تعلمونيه اليوم. يمكن أن تكونوا أذكى مني، لا أعتراض على هذا وتبقون كذلك دائماً. لكن في النهاية هذا لم ينفعني. كما ترون». صوتها أوحى بالنعاس.

لم يردّ (لونجينوس) عليها. استند إلى الجدار المحيط وحاول تجاهل الألم الذي أصاب ساقه.

«عند عودة أخيكم قبل قليل، بدا عليكم كأنكم رأيتم شبحاً. أيمكن أن تتصوروا أين اختفى طوال الفترة الأخيرة؟».

«لا أعرف».

«لكنكم قلتم إنه ميت. من أين لكم هذا الخبر؟». صوت زنوبيا انخفض إلى درجة الهمس. «أتاني من مصدر ما. لقد أمرت في الحقيقة نفسي بقتله... هذا ما ظننته على الأقل. (فيرموس) قد..».

نفخ (لونجينوس) من أنفه مزدرياً: «(فيرموس) يفكر دائماً في منافعه الخاصة. هذا كان المفروض بكم أن تعرفوه بمرور الوقت». غيرة كبحها طويلاً بدأت تشتعل داخله. الهزيمة، التي هددت المدينة التي صارت وطنه، حطمت الحواجز التي اعتاد كبحها. «إذا كنتم لا بد أن تقتلوا واحداً من أفراد العائلة، للوصول إلى أهدافكم، فينبغي أن تكون لديكم الشجاعة على الأقل لتتولوا الأمر بأنفسكم». استدار رأسها إليه.

«أحتقر نصائحكم في الموضوع، كيف أقتل بلا خطأ، إذا أردتم التخلص من الهزيمة فاكتبوا موضوعاً علمياً حولها، أيها الذكي القذر»!

لبس (لونجينوس) وجه المعلم الكبير: ببرود وشموخ وعتاب «أنتم مخطِئون في اللحن»، لفت نظرها، «تصرفوا مثلما يتوقع المرء من ملكة».

Twitter: @ketab_n

كان هذا كافياً بشكل نهائي لزنوبيا حتى تنفجر.

«أصمت! لا أستطيع تحملكم أكثر، لا أحتاج إلى أحد يقول لي دائماً، ما يحق لحاكمة أن تفعل وما لا يحق. هل حرضتموني يوماً وهل حميتم ظهري مرة؟ كلا! أسمع منكم فقط، أنا عليّ تحمل مسؤولية قراراتي وسوف لا أكسب هذه الحرب في كل الأحوال، ونحن نقاتل من أجل شيء خاسر! جبان تافه»! توقفت وهي تتنفس بصعوبة.

استمع (لونجينوس) لانفجارها وهو منتصب القامة ولم يتحرك. لم تُحرّك كل اتهاماتها عضلة في وجهه. وعندما تكلم الآن كانت لهجة كلامه أكثر جموداً من أي وقتٍ.

«إذا كنتِ ترغبين في التعامل مع منافقين يحدثونكِ فقط بما تريدين سماعه، فمن الواضح أنني هنا في المكان الخطأ. هناك في الخارج»، أشار إلى السهول التي أظلمت الآن ورقدت هادئة، «يموت جنودكِ بالآلاف وسيصل الدور إلينا. لكنكِ لا تزالين ترغبين في أن تحاطي بنسيج من الأكاذيب. لأنكم لا تملكون الشجاعة لقول الحقيقة أن..».

«توقف عن الكلام»! زمجرت وهزها الغضب بشدة، حتى تمنت لو أنها قتلته. «أنا أمنعكم.. أتسمعون؟». نظر إليها (لونجينوس) وشعر بأن الغضب جننها.

«أنتم تمنعونني، آخ، صحيح؟»، مستهجناً، «وتأمرون بإعدامي لمخالفة القانون، أم ماذا؟ لي أن أضحك: أخيراً ترون الحقيقة وجهاً لوجه- وتعودون عن فكرة أن الهزيمة ليست بعيدة. قامرتِ بمبلغ كبير وخسرتِ. والآن تحمّلي الأمر برباطة جأش».

ضربته... الألم أولاً. الذي انتشر ببطء حتى انعكس، وجعلها تشعر بعنف ضربتها. أدركت وملؤها الخجل أنها الآن أعطت خصمها الحق: ما عادت تخشى شيئاً قدر خشيتها الاعتراف بهزيمتها. (لونجينوس) قد لا يتخلى عن أن يضع لها هذا تحت أنفها. (لونجينوس)، الذي لم يترك لها فرصة بعقله البارد واحتقاره...

ترنحت تحت ضربة يده التي أصابتها تماماً. كادت تفقد توازنها، لقد رد

Twitter: @ketab_n

على ضربتها! لقد تجرأ...! حتى قبل أن تستطيع مسك نفسها، كان حاضراً وضغط جسمها إلى الحائط. الفزع المفاجئ شلَّ تفكيرها، ولم يخلف لها سوى دهشة صعب تصورها. تذكرت مشهداً مشابهاً لأوقات سابقة: هو وهي في غرفة الدرس. الضربة على وجهه. هنا أدركت: كان بإمكانه أن يفعل هذا في ذلك اليوم. في أي وقت. كانت قد أخطأت حين فهمت الاحترام ضعفاً.

يدان قويتان أمسكتا بكتفها في قبضة حديدية، بينما اقترب وجه (لونجينوس) الغاضب ببطء من وجهها، ومر بفمها بحركة لا إرادية ودفن وجهه في انحناءة رقبتها. عندما أرادت إكراه جسمها على مقاومته، ظهرت لها القوة الكامنة في هيئة خصمها، الذي كان على الدوام هادئاً ومتحفظاً.

«اتركني! أنت تؤلمني..». صدته بسبب عدم رغبتها في امتلاك جسدها من قبله، وليس نفوراً منه، لكن ما حصل هو أنه ضمها أكثر إليه، تحوَّل وجهه نزولاً واندفع إلى فتحة فستانها، ومن هناك جانباً حتى لامس فمه نَهدها. تنهدت وحررت أحد ذراعَيها فأمسكت به خلف رقبته. حفرت أظافرها خطوطاً في ظهره.

محاولة فاشلة أن تصده عنها، جسمها تحوَّل إلى خائن، فقد انتقل ببيرق طائر إلى العدو، متشوِّقة إلى عطره، نعومة شعره. لم تعد ثمة مقاومة ضد يدَيه، اللتَين حاولتا بلا جدوى سحب مشبك الفستان، وأخيراً بعد نفاد صبره مدّ يده في فتحة الصدر ليمزق النسيج الرقيق بجرة واحدة. شفتاه كانتا على نهدَيها وعلى بطنها. انزلقتا أكثر إلى الأسفل، حيث نزل أكثر فأكثر فوصل إلى الركبتَين، واتخذ هيئة تعبُّد وتمسّك بها.

رمت رأسها إلى الوراء ودفنت أصابعها في شعره، قلبها ضرب بعنف، وتركت نفسها لليدين. فتحت الفخذين الناعمَتين، ليس بلا مقاومة، عن بعضهما...

اعتدل وضحك بصوت منخفض، عندما رأى تعابير وجهها، ثم سحب منها السربال بحركة سريعة، وحررها من بقايا فستانها الممزق، وبدأ من جديد. لوهلة قصيرة فقط أدركت زنوبيا هول ما حدث، أن ملكة تدمر عارية إلا من أساويرها. وفي برج حراسة وقفت وتركت نفسها تؤخذ، كأنها بنت

Twitter: @ketab_n

من زقاق، وفتحت فمها لآخر اعتراض.

«كفى الآن! أنتم ..». «صمتاً»، أغلق شفتَيها بقبلة أشعرتها بالخضوع، وفي الوقت نفسه تصبب عرق محموم من جسمها، بينما بدا كأن يديه سحبتا خطوطاً سحرية على بشرتها. مستسلمة، طالبة، مثيرة متبدلة، مرة رقيقة وأخرى عنيفة. لم تكد تلاحظ أن الحائط الخشن جرح ظهرها من الحك، وحين شعرت بذلك صعّد الألم شهوتها أكثر وأثارها حتى الجنون، وعندما طالبت كل شعرة في جسمها بالمزيد، أدخله فيها ببطء وانسحب مرة أخرى إلى الخلف، ثم أعاده ثانية، تحرك أول الأمر بحذر ثم بعدها أقل حذراً، ثم بدون حذر، أكثر فأكثر... والصرخة التي أرادت أن تنطلق من حنجرتها، اختفت واختنقت بكتفه التي أنبتت فيها أسنانها.

الحائط كان الوحيد الذي قدم لها سنداً. ارتجفت ساقاها بشدة ووقف هو إلى جوارها على الحائط، وعاد بالتدريج إلى أحاسيسه. ثبتت نظرها فيه بعينين نصف مغلقتَين، محاولة فهم أن العاشق النزق، كان ذلك الفيلسوف البارد المُهاب.

«(لونجينوس)»! في صوتها بحة. أدار لها وجهه، كف الشعر عن جبينه.

«أيتها الأميرة»، حتى هو لم يقدم أكثر من همسة خشنة.

«أنتم مفصولون»!

«كما ترغبون»، نظرتها جالت حول جسمه العضلي الرشيق، «... على الأقل كمعلم بيتيّ. وما يتعلق بما تبقى: تعال إلى هنا متى استطعت»!

لم تعلم زنوبيا كم من الوقت مضى عندما رقدا أخيراً على الأرض ملفوفَين بمعطف (لونجينوس). لم تتذكر إلا الذراعين الملتفتَين والساقَين اللتين طوقتا ظهره، وريح الصحراء الدافئة على شعرها. سرى فيها الدفء من توهج النهار، تحوّلت بالتدريج رياح سطح الأرض الحجري إلى الليل.. وغفيا.

Twitter: @ketab_n

حدثوني بشيء جميل

مع هواء الغرفة مر عطر برتقال وقرفة نشـطة، وبين الحين والآخر وجد تيار هواء طريقه من النهر عبر ستائر غرفة الراحة. انتشرت مصابيح زيتية قليلة وأعطت ضوءاً باهتاً على الحيطان الملونة.

قـد يحتـاج المراقب إلى جهد ليميز من النظـرة الأولى ما هو معروض، رغـم أن الأمـر قد يسـتحق الجهـد بالتأكيد. اسـتثمر الفنان برغبـة، في ذلك الوقـت، الإمكانيـة التي وفرها لـه صاحب العمل، وكل ما اعتـاد الأثرياء من الأهالي الاهتمام به في مقتنياتهم السرية الخاصة، من رسوم صغيرة أو عبارات وشـعارات دعارة أُلقيت بشـكل عابـر، هنا في قاعة (فيرمـوس) للتدليك في الاسكندرية، في الحجم الطبيعي، وكذلك فإن بعض التفصيلات نُفذت بأكبر من الحجم الطبيعي. النتيجة أنها كانت ممتلئة تتوافق وذوق (فيرموس).

هذا، وإن كان مستلقياً عند أقدام مجموعة من البنات، مشغولات في ما بينهـنَّ، فهو لم يكن لديه وجهة نظر في أحـداث متنوعة أمامه. وجهه مدفون في وسـادة حريرية، تأوه تحت الضغط الشـديد الذي سـببته أصابع (ينليان) التي دلكت كتفه وظهره. هي ليست المرة الأولى التي يُدهش فيها للقوة التي كَمِنت في هاتين اليدين الصغيرتين. طولها نصف طوله تقريباً، لكن جسمها، احتـوى على قدر مـن الصلابة والتحمل لم يسـحره في هذه المناسـبة فقط، فهي جاريته المفضلة.

مـدت (ينليـان) يدهـا خلفها وسـحبت قطعة قمـاش قطنية من السـلة، وحجـراً دافئاً، ولفت جسـم (فيرموس) الضخم في القماش الناعم. بسـرعة البـرق امتدت يد (فيرموس) الممتلئة على خصرها ومسـكتها بقوة. كركرت

Twitter: @ketab_n

الفتاة، وصارت بدلال في قبضته.

«ستتأخرون، أيها السيد».

«لندعهم ينتظروا».

«إنه حفلكم الأخير، أيها السيد، أتريدون أن تخيبوا أمل الضيوف؟».

«إنهـا كذلك فرصتنـا الأخيرة، (ينليان). سـوف لا أسـتطيع أن أضمكِ بيـن ذراعيَّ، تذكري هذا. لا أحد يُعوضنـا الانتظار في هذه الحياة بعد اليوم. علـى الآخرين التصبّـر. تعالي إليَّ، هيَّا تعالَي». همُّ (ينليـان) تبين أن لا مبرر له. ربما آخر الضيوف لـم يصل، دخل اثنان، وتسـامر الضيوف كثيراً من دون مضيفهـم. دعوات (فيرموس)، وإن بدت مزاجيـة، لكنها تُطلق دائماً بهدف، كانـت وما زالت مرغوبة جداً في الاسـكندرية، رغم أن الحظ السياسـي كما بدا، قد تحوَّل عنه. تدمر، كما كان يُقال بشكل عام أصبحت قرطاج الثانية من كل ناحية، وكل الذين إلى جانبه وتجرأوا أكثر من اللازم ما عاد لهم قيمة أكثر من تدمر: غبار في الصحراء.

لكـن هذا كان في الصباح، و(فيرموس) كان كما هو (فيرموس). البذخ غير المعتاد الذي أظهره في اختيار ضيوفه، والذوق الرفيع والمضمون بتتابع أطباق الطعام وأنواع النبيذ التي اختارها، جعلت هذا النقص في حسن الطالع سهل الزوال. ولماذا يتراجع المرء عن هذه المتع، إذا لم يكن حتى المبعوث الرومي الجديد في الاسـكندرية (بوبيليوس كوينتوس آفر) عامل (فيرموس) بحقٍ كعدو دولة، هل يستطاع مقاومة سحر مطبخه! كالعادة تابع وليمته اليوم بسرور.

في كل الأحوال سـتكون نهاية لهذا قريباً: مع الاسـتيلاء الوشـيك على تدمر. جلس (فيرموس) ورأسـه قلقٌ جداً فوق كتِفيه. الإثنان عرفا. نظراتهما إلى بعضهما بعضاً أكدتا هذا ، وابتسـامة متعبة عندما تقاطعت نظراتهما مارة برؤوس الحاضرين لثوان.

في الفيلا عند الميناء، كان الخليط الملون المعتاد قد اجتمع، ليتشـرف بالحضـور عند واحد من أغنى تجـار الأمبراطورية. تجـار كانوا في طريقهم إلـى الشـمال بسـبب الوضـع العسـكري غيـر الآمن، فضلـوا قضـاء ليلة في

Twitter: @ketab_n

المدينة، وقباطنة أسطولٍ تجاري رغِبوا في قضاء أمسية عند (فيرموس). من أجل عقد صفقات جديدة توجهوا إلى البر، وأعيان المصريين رغبوا في الحضور بشكل «غير رسمي»، ومن الممكن كذلك رؤية هذه العشيقة المعروفة أو تلك، إضافة إلى عدد آخر من أعضاء الإدارة العسكرية الرومية، أرادوا «التأثير في توجيه الأجواء في المدينة»، وقد حاول الناس تقبلها نظراً إلى تقطيبة جبين (آفر).

«في كل الأحوال، فإن (فيرموس) محتَقَرٌ رسمياً»، نبه (آفر) من كان تحت إمرته.

«طبعاً»، تمتم واحد من المُلامين في أذن رفيقه، «وستُحكم روما من قبل المستشار والشعب الرومي. من يصدق هذا؟».

بدا أن رئيس الطباخين أراد أن يميّز أكلة اليوم. وجبة الدجاج أحرقت ألسنة الضيوف، بنكهة أجنبية نادرة، لم يذقها منهم أحدٌ من قبل. لون برتقالي هادئ، متبل وحار في وقتٍ معاً، جعل النبيذ يتسلل بمتعة عبر الحناجر. اسم واحدة من التوابل كُركُم، كما همست (ينليان) ببساطة في أُذن من سأل، لم يكن معروفاً لأحدٍ منهم.

«كُركُم؟ اسمٌ نادر، ياصديقي، وله رنة، اسم امرأة، عرفها مرة. لم تكن خالية من الحماوة... على كلٍّ نزل الحريق إلى مكان أخر». شعر (آفر) بارتياح كما هي الحال دائماً في دعوات (فيرموس). كان يعرف أنه هنا ليس في حاجة إلى أن يفرض قيوداً على نفسه.

إذا كان (فيرموس) قد دعا بشكل غير رسمي، فهو غير رسمي، لكن ليس بلا أهداف خفية، وإن لم يكن أبداً فخاً سخيفاً. «أين تم إعداد كُركمكم هذا؟ إيليرين، بلاد فارس؟».

بارتياح وابتسامة أدار (فيرموس) كأس النبيذ بين يديه.

«أخطأت التخمين، عزيزي، هذا المسحوق يستورده شابور بنفسه من بلاد بعيدة في الشرق، ويزنه بالذهب. بعيدة، أكثر بعداً بكثير، في الشرق. في الهند لا بد أنكم سمعتم من قبل عنها».

«هكذا مثل كل من درس حملات الإسكندر، لكنني لم أقابل حتى

Twitter: @ketab_n

الآن أحداً سبق أن كان هناك»، ابتسم باكتئاب، «هناك يركبون الفيلة مثلما في قرطاجة، ويعبدون البقرة. لكن النساء حسبما سمعتُ جمالهنَّ أسطوري، كالذهبِ، وناعمات مثل العاج والعنبر. عليكم أن تجلبوا لي واحدة معكم». وغمز باحتيال. لكن (فيرموس) لم يُجب. فقد استلم إشارة من (ينليان) أن المبعوث واقفٌ، فنهض، ليشرب نخبه.

«أيها الأصدقاء الأعزاء..». لم يستطع الاستمرار، لأن الذين حدثهم استغلوا المناسبة وأكدوا لضيفهم بصوتٍ عالٍ، أنهم ينظرون إلى (فيرموس) كصديق عزيز جداً عليهم.

في الوقت نفسه ضاعف العبيد المدرَّبين ما في الكؤوس المرفوعة دائماً من أجل إبقائها ملأى.

«أيها الأصدقاء الأعزاء»، بدأ (فيرموس) مجدداً، عندما هدأ، «كلكم أصدقائي وكلكم سعداء. لماذا أنتم سُعداء؟»، توقف ولم يُجب أحد. الكل نظر إليه موقعين ابتسامة على وجوههم، كأنهم يقولون أسعِدنا يا (فيرموس). (فيرموس) مرر نظرة بطيئة على جميع الوجوه التي احمرت مستبشرة. «لأنكم تعلمون كم يعنيني أنكم اليوم مساءً عندي»، واصل، «من لديه أصدقاء فهو سعيد، لذا فأنا رجل سعيد جداً جداً». مرة أخرى أعطى نفسه استراحة، حتى يجد جميع الحاضرين فرصة ليشربوا بوفرة نخب صحته، ثم رفع ثانية.

«ويعنيني أكثر وجودكم هنا اليوم بالذات. لأنكم يا أصدقائي، طوال الفترة الماضية كنتم في أيامي السعيدة، ولتكونوا الآن عندي في ساعاتي الأخيرة». من زوايا عينيه، عبر تمتمة عامة عبّرت عن إعجاب راقب كيف أن الرسول في زي الحرس السوري، الذي كلف (فيرموس) كثيراً، بإشارة منه، ناول الرسالة إلى (آفر).

من دون أن يلحظ أحد تقريباً أومأ الرجل له ولـ(ينليان). خفض (فيرموس) أهدابه موافِقاً. أعطى (آفر) بضع ثوان من الوقت ليفض ختم الرسالة ويتصفحها، وواصل:

«لا أريد أن أمتحن صبركم، وأُقدم لكم محاضرة مدرسية حول آلهة الحظ فورتيونا، والطريقة التي تعاملت بها عادة مع ذوي الحظوة عندكم

Twitter: @ketab_n

سابقاً أو لاحقاً. كما تعلمون جميعاً، أنا أعبدُ إلهاً واحداً فقط، يُدعى هرمس، التاجر، دعونا نرفع كؤوسنا ونشرب نخب هرمس التاجر». برضى نظر (فيرموس) في وجه الرومي، الذي سُمح له أن يقرأ سابقاً باسم قيصره الخاص،الذي كان في حاجة إلى رسول رومي، أن تدمر هي المقر الرئيس للثائرين على ملكتهم زنوبيا، وأن الملكة أُخذت أسيرة، وأن صديقها التاجر (فيرموس) يجب القبض عليه فوراً. متشككاً نَظَر (آفر) إلى الباب، حيث تركه حارسه مع الشراب والأكل والرعاية من قبل عبيد الدار. (فيرموس) لاحظ باستمتاع كيف لف الرسالة غاضباً، وتجنب أن يكون تحت نظره.

«كم مرة لعبنا الزهر سوية، كم مرة راهنا على فوزِ حصان أو مقاتل. لقد سميتموني (فيرموس) المحظوظ، الذي ربح في البورصة في الغالب بخسارتكم، والذي لعب دائماً على الحصان الفائز الذي لم يتوقع أحد فوزه».

انتظر مبتسماً إلى أن هدأت أصوات المعجبين ثانية، ودار النبيذ.

«من يلعب على غير المُتوقع يحصل على ربح عالٍ، لكن لمَ الربح عالياً هكذا؟»، سؤال بليغ، أعطى له (فيرموس) وقتاً كافياً، وأمام كل الأعيُن أشار إلى (ينليان) أن تأمر له بقارورة سائل ذي لمعان أزرق. «إنه عالٍ جداً»، رج (فيرموس) القارورة، ورفع الفلينة عنها، وصب ما فيها في قارورة نبيذ، «لأن خطر الخسارة كذلك عالٍ»، قسّم (فيرموس) محتوى القارورة في كأسين، وناول واحداً إلى (ينليان). شَرِبَت وغطت رأسها ببرقع شفاف. لم يجرؤ أحدٌ الضحك على هذا المشهد المسرحي النادر، خيّم الهدوء تماماً على القاعة، عندما أفرغ (فيرموس) كأسه، ورقد كلاهما على فراش راحة حريري عالٍ للمضيف. ورفع (فيرموس) كأسه للمرة الأخيرة.

«راهنتُ عالياً وخسرتُ عالياً، أيها الأصدقاء، والثمن الذي يدور حوله الأمر الآن لا يُسدد بالذهب. لكن كل من يعرفني يعلم: (فيرموس) يدفع دائماً».بهذه الكلمات أدار (فيرموس) مرة ثانية، وكلاهما، السيد وخادمته، رفعا كأسيهما إلى شفاههما وشربا ما فيهما من دون أن يتوقفا.

لم يتجرأ أحد قطع هدوء احتبست له الأنفاس، حين أرجع الإثنان

Twitter: @ketab_n

كأسيهما، وابتسما بصمت أمام الجميع. بعد ذلك انطلقت الفوضى، بعض الحاضرين، الذين ما زالوا واعين نسبياً لما حدث، وبقيت رؤوسهم صافية، نادوا طبيباً، آخرون حاولوا الوصول إلى (فيرموس) على خشبة المسرح، قاصدين إدخال ريشة طاووس أو إصبعهم في بلعومه، غير أنهم دُفِعوا إلى الخلف من قبل حُراس ضخام. البعض ألقى رأسه بين ذراعَيه وانفجر دموعاً.

سبب الفوضى كان أن الجميع أرادوا متابعته بالاهتمام نفسه. أما هو فعندما رأى أن (بوليبوس آفر) حاول التوغل نحوه، أشّر إليه ليقترب أكثر.

«لكنكم لا تريدون ربما إبقائي، يا صديقي! أتفضلون القبض عليَّ، لن يكون ذلك في مصلحتكُم، صدّقوني».

«أنا، في كل حال، أعرف ما قد يكون في مصلحة روما أيها الكبش العنيد العجوز..». توقف (آفر). تنهيدة من (فيرموس) جعلته يدركُ أنه يتكلمُ مع من يُحتَضَر. نزلت دموعه. «لا أعلم»، واصل برقة، «إذا كنت أقدر أن أضمن لكم تشييعاً محترماً. أنتم لستم مواطنين روم، أنتم تعلمون، وفي هذه اللحظة لستُم محبوبين». (فيرموس)، الذي طلب إنزاله إلى مصطبة الراحة، نظر شزراً إلى صديقه رافعاً نظره: «شكراً لاهتمامكم، أيها الرومي. لكنه ليس ضرورياً، سنُساق على مصطبة واحدة إلى النيل، لأننا مخلوقات بلا وطن ولا دين. نحن نحصل على ما نستحق. وداعاً، إبقَ سعيداً أيها الصديق». بخشونة أبعد (بوبليوس) عن فراش الموت، الذي تجمع الكل حوله ليقولوا أيضاً وداعاً. في خضَم الضجيج دفع (فيرموس) جسمه، وقد صارت حركاته واضحة الارتخاء، مرة أخيرة. كأنه نبيٌّ نشر ذراعَيه، وانتظر إلى أن عاد بعض الهدوء، وتكلم بعدئذٍ تلك الكلمات عن «مأدبة تريمالكيو»، التي كان مؤلفها بترونيوس الذي اختار كذلك الموت طوعاً في دائرة أصدقائه، ما جعله شهيراً. ثم ترك نفسه ينزل إلى الوراء نهائياً ويرقد، بينما تكوّرت (ينليان) على نفسها، وبدت مثل قطة نائمة. لم يعد هناك ما يهتم به (فيرموس): العبيد كانت لديهم تعليمات واضحة، كيف يغلقون البيت نهائياً. في ساعات الصباح الباكرة حمل عدد من الرجال الأقوياء جسمَين ملفوفَين بقماش قطني،

Twitter: @ketab_n

نازِليـن بهما إلـى النهرِ. لم يرافقهم أحد سـوى طبيب ومبعـوث رومي، كان عليـه إبلاغ قيصره عن خاتمة من أُدين غيابياً. بعـد التدقيق بعناية، أودعوهما زورق حِلفـاء، ودفعوهمـا إلـى النهـرِ بـلا دُعاء، عـدا تحية صامتـة رافقتهما في رحلتهما الأخيرة.

عندمـا اقتربا إلى أول انعطافة في النيل ارتفعت حافة الشـمس المصرية حمـراء كالـدّم فـوق الأفق. (بوبليـوس كونتـوس آفر) الـذي لم يهتـم كثيراً بالعواطـف مسـح خفية دمعة مـن زاوية عينـه. الآن، من الشـعب ثانية، صار العالم أفقر بفقد إنسـان غير اعتيادي. صدّ وجهه، وسلك طريقه إلى المدينة، من دون أن ينظر خلفه.

خلـف انعطاف النهرِ، انتظرت سـفينة حربية ما طفا على النهر. بسـرعة وهدوء اختفى الزورق، وأُخذ ما فيه إلى سـطح السفينة، حيث طبيبٌ يهودي ضليـع بدأ فـوراً العمـل على إعـادة الحيـاة إلـى المُخدَّرين، وعندمـا مدّت (ينليان) يدها للمرة الأولى، واسـتقبلت اليـوم الجديد، كأنها قطة، وتثاءبت، كانت سـواحل أفريقيا قد ابتعدت. سرعان ما سـيصلون إلى النصف الجديد من الأرض، حيث فكر (فيرموس) في إنعاش تجارة الكركم قليلاً: مع الهند. كان نفسه يحمل همَّ إدخال التوابل بطريقة لا تُنسى إلى دولة الروم.

Twitter: @ketab_n

أسيرة

في اليوم التالي علم البلاط. آخ، ما هذا؟ كل المدينة تحدثت عنه: الأميرة والفيلسوف! في الليلة نفسها نقل حارس البرج الخبر إلى كل مكان، الحارس الذي لم يجرؤ الرجوع إلى موقعه. ما الذي كان قد رآه، كل شيء، حتى أنه وقف حائراً، وهو نازل على سلم البرج، هذا ما يكاد الناس لا يصدقونه لكنه سمع تكراراً في حانات تدمر. على الدوام كان ثمة شخصٌ، يؤشر إلى صاحبة الحانة كي تملأ جرة الجندي كل مرة من جديد. تصوّر الناس: الأميرة والفيلسوف! باكراً في الصباح، بعدئذٍ تحدثت الجاريات عن أمر جديد. زنوبيا و(لونجينوس)، وبعد عودتهما إلى البيت قد استحما. خدوش، جروح، عضات، بقع زرقاء. بكل بساطة لا تُصدّق. هكذا كانت ثرثرة في البلاط. مثل الحيوانات، على هذا اتفق الجميع، عملوها كالحيوانات. المدينة المحاصرة التي ليس فيها جديد من الأخبار إلا القليل، مما لا علاقة له بالموت، امتصت الفضيحة المذهلة بلهفة كامتصاص الإسفنج للماء.

الجنرالات، في مقدمتهم العجوز (زابداس)، أبعدوا مثل هذا التجرؤ عنهم. ليست سيدتهم المؤدبة التي امتطت الجواد كفارس، وبارزت كجندي، وكانت تعرف التعفُّف. ليست الأم الشابة المضحية، التي خدمها بسعادة.

بعد ذلك، تقدمت زنوبيا لمناقشة إدارية كالعادة، غير مبالية أمامهم، ببقعة لامعة حمراء في الرقبة، ربما كان أصلها قبلة عنيفة.

لا أحد من الجنود القدماء أبعد عينيه عن الإشارة الفاحشة، التي جعلت صوراً خيالية مستحيلة التصديق تتراقص أمام أعين الجميع. بدأوا يتعرقون بينما تصرفت زنوبيا كأنهم لم يروا أقل شيء، وبدأت الخوض في التفاصيل العسكرية المعتادة والموقف اليومي.

Twitter: @ketab_n

عندما دخل (لونجينوس) أيضاً بسيميائه المغلقة المعتادة واحتل مكانه، خيّم هدوء مطلق. من دون أية نحنحة، بدأت زنوبيا تتحدث عن سير العمليات العسكرية. بشفاه جافة أنصت إليها الجنرالات. أجابوا عن أسئلتها ورسموا الخطط واستلموا الأوامر اليومية. عندما ذهبوا لم يعرفوا بعد ذلك ما الذي ينبغي أن يُصدقوه. غير أنهم لم يصدقوا أن ما حدث ممكن. بعدما صرفتهم زنوبيا وأبقت على (لونجينوس) فقط، تقدم إليها وقال بسطوة:

«اخلعي»!

لا أحد من الاثنين سأل كيف فكر العالم المحيط في العلاقة المكشوفة للملكة بمعلمها الخصوصي. كان الأمر سيان عندهما، عندما عثر عليها البستاني خلف النافورة ولم تكترث، عندما تسابقت في صباح اليوم التالي مع الطواويس، يسقط أحدهما على الآخر كلما سنحت لهما فرصة. ساعات الدروس اليومية تحوّلت إلى طقوس ماجنة، قدّمت فيها زنوبيا نفسها إلى معلمها السابق، في نشوة الخضوع الدائم، وبطرق مبتكرة، دفعته عنها لتُثير غضبه وتستسلم تماماً إلى عنفه. الجروح التي سببها أحدهما للآخر بتبادل الضرب، لم تجد الفرصة لتلتئم، حتى هذا كان بالنسبة إليهما بلا أهمية تماماً. استمتعا بكل حركة مؤلمة كأنها ذكرى عذبة، أيقظت فيهما الهيجان، إلى أن صارا يستسلمان لها تماماً.

عاشا في حالة غياب عن الهموم. اليوم قد يكشف لهما عن توقعات الغد أكثر من تصرفاتهما المعروفة. لأنهما واصلا مناقشاتهما الإدارية وجولاتهما، وضربا الروم يومياً من الأسوار كأنهما كانا دائماً محاصَرين، وكان من غير المتوقع أبداً حصول قرار يغيّر هذه الحال.

بدا أن الحرب وقفت الوقت في صالحهما. كانت حالة من الإنفعال الدائم، أدت بهما، بسبب الحمى المتجددة دائماً، إلى أن يمزق أحدهما لحم الآخر. بعد ذلك، أتى الرسول بخبر طال انتظاره، لم يُتوقع أن يكون محتَملاً، خبر شنيع لا يمكن تجنبه، أن الروم اقتحموا البوابة الغربية وتوغلوا في المدينة.

كانت زنوبيا جالسة في تلك اللحظة مع زبيدا، الذي شرح لها، أين

Twitter: @ketab_n

وصلـت الطلائـع الخاصـة، التي كانـت تحفر تحـت جنود الخصـم. كانت غارقـة فـي الخارطة المعقدة، التي رسـمها لها زبيدا، حتى أنها لم تسـتوعب الرسالة إلا ببطء.

أول تفكيرها غير الواضح توجه إلى (لونجينوس).

ثم أتى (گـاش) مسرعاً. التقط أنفاسه بصعوبة وسيفه مخضب بالدم.

«بسـرعة»، نـادى الضابـط، «إنهم يتقدمـون»، خـذ الملكة إلـى البوابة الشرقية. هناك ينتظر الحرس الخفر. وجرّها بنفسه إلى الباب.

«هـل أنـت مجنـون»، صرخـت وحاولـت التحـرر منـه. «يجـب... القـوات..». تحركت تحت قبضته. دفعها (گـاش) إلى زبيدا، وأفهمه بنظرة جادة، أية مسؤولية كبيرة ملقاة عليه هنا.

«(زابداس)، اهتم أنت بالكل»، وجّه القول له أكثر مما إلى أخته.

«المهـم الآن قبـل كل شـيء، أن لا تقع فـي الأسـر. والآن هنا لا يوجد وقـتٌ أكثر لنضيعـه». زبيدا جرب المعاندة بلا توقف معـه. وبوجه يدل على الإجلال تحمّل رفساتها وعضاتها.

«(فابالاتـوس)، طفلـي، أنتـم يـا كلاب يـا خنازيـر». زمجـرت. وجـد (گـاش) نفسـه يفتـش ليكتشـف جاريـة ماسـكة مروحـة ريـش تحركهـا بشكل ميكانيكي أمامها.

«هَـيْ»! فاجأها، حتى أنها من خوفها أسـقطت مروحتها، «أنتِ! اجلبي قربـة الجلد واركضي وراءها حتى تصمت». أسـرعت الجارية إلى الخارج. مـا زال صـراخ زنوبيا يُسـمع، كان عالياً ومجلجلاً. اعتقد (گـاش) أنه سـمع «(لونجينوس)» تمتم بارتياح:

«سأهتم به».

ما كان عليه البحث طويلاً. جلس (لونجينوس) في غرفة الدرس، غارقاً في قائمة المؤونة، غير مبالٍ بالهلع من حوله. صخب الحرب هذه كان بمثابة قاعة حامية، أحاطت بزنوبيا وبه. كان بيتهما. عندما أوصل (گـاش) إليه خبراً عـن اقتحام الـروم، ألقى القوائم بهـدوء جانباً، ولم ينطق بكلمـة. الكوابيس المفزعة والمألوفة لهما سوية ويومياً انهارت.

Twitter: @ketab_n

«يجب وضعها في مكان آمن»، سمع (گـاش) يقول:

«إذا وصلـوا إلى الفـرات سيسـتقبلها الفرس. الملك الفارسـي لا يريد القتال معنا، لكنه لن يسـلمها لهم». (لونجينوس) بدا كأنه أيد، غير أنه جلس بـلا حراك، وبعدها نهض، اعترضه (گـاش) عند الباب، «الجنرال (زابداس) يريـد التحدث إليكم. إنه يحاول سـحب القوات بنظام، من البوابة الشـرقية، وعنـد الحـدود القديمة، ليتحد مـع الخيالة البدو». بتشـكك راقب (گـاش) الفيلسـوف. يبدو أنه لم يستجب. وهل استمع له اصلاً؟ فأضاف بتأكيد: «إنه في حاجة إلى مساعدتكم (لونجينوس)».

فكر (لونجينوس) في ما قال الرجل، وكان منطقياً. ما عليه إلا الإسراع، لا منـاص من الإسـراع. وبعـد ذلك يبحث عـن زنوبيا. عندما تذكر اسـمها، تمسك به بقوة، وكأنه تمسك بشجرة في مهب الريح. عاد له الوعي.

استفسـر عن المكان الذي قد يجد فيه الجنـرال، بينما بدأ يحزم أمتعته. فتـش محمومـاً بيـن لفات الـورق. أيّاً منهـا ينقذ وأيّـاً منها يتـرك؟ كل القطع الثمينة لا تُعوض. لـم يلاحظ شـيئاً من الابتسـامة المتعاطفة معه تقريباً، بينما كان (گـاش) يراقـب ظهـره. ركب (زابـداس) متراسـاً دفاعياً أمـام القصر، وأوقف الروم في الجهة الأخرى من المسرح. شرح له هذا. «خذ الطريق إلى السلالـم الرئيسة من الرواق الصغير، عندها سوف لا تخطئ الطريق».

«ألا تأتون معي؟».

«عليّ أن أكون في موقعي»، وقبل أن يسـتطيع (لونجينوس) رفع نظره، كان(گـاش) قد انصرف.

بحسـرة مـن القلب ألقى (لونجينـوس) المخطوطات لحـوار أفلاطون الأخيـر وراءهُ ثانية على الرف. الربطة التي كانت مملوءة. في خاطرة مفاجئة كبَّ مصوغات زنوبيا فوقها، وهزها لتدخل في الفراغات البينية.

بقيمتهـا ربما أمكن الحصول على مدينة. صوت خشخشـة كانت كأنها لكـوم مـن الأفاعي، عندما اختفت بين لفات الـورق. ظهر الصخب له عالياً، وكان هذا الشيء الوحيد الذي لفت انتباهه، وكان ما زال مسموعاً.

ركض علـى امتداد ممرات فارغة، ماراً ببـاب الخروج، وبغرف منهوبة

Twitter: @ketab_n

ومبعثرة فرشها وخزاناتها، مشرعة أبوابها، رافقه رنين خُطاه.

في البهو الأمامي للقصر أغشى بصره ضوء الشمس الشديد لما بعد الظهر. ظلل (لونجينوس) عينيه بيده من الشمس، ونظر حوله، تأمل جناح المطبخ على طول السور الشمالي، في اتجاه البوابة الشرقية، وكيف يصل إلى زنوبيا. إليها. كانت الفكرة للحظة مسيطرة عليه. ثم بعد ذلك نبه نفسه، وبقي متجهاً إلى المخرج الرئيس. ربما كان (زابداس) في انتظاره. بدأ العرق يتصبب منه. بتوتر حاول أن يفسر سبب الهدوء عبر البوابة. أكان هذا يعني أن الروم تجمعوا من أجل الهجوم الأخير في شوارع حي السوق؟.

كان أول الأمر في منتصف الطريق، في الساحة المفتوحة إلى بوابة القصر، عندما أتت مجموعة من الناس أمامه. كانت الشمس في ظهرهم، فلم يستطع تمييزهم فوراً. رفع يده ثانية فوق عينيه، ونظر بعينين نصف مغمضتين. بقيت المجموعة واقفة. أول ما رآه (لونجينوس) كان وجه (زابداس) المندهش عالياً فوقه. كان مغروساً على رمح والدم جرى ملتصقاً بفمه المفتوح ولحيته الرمادية. جندي رومي أمسك الرمح. مجموعة ضباط تجمعوا حوله. تمكن (لونجينوس) الآن من رؤية أرجوان معطفها القصير بوضوح تام. كانت تهفّ في الشمس ولمعانها أحمر دموي. وساقاها لمعتا.

لم تكد زنوبيا تعي كيف جُرّت عبر المدينة التي غلت كأنها قدر سعلاة، وأُلقي بها في عربة. شخص ما دس لها ابنها في ذراعها فضمته إليها. مقابلها في زاوية من العربة المتأرجحة دُفعت خادمة بكت بصوتٍ عالٍ. لم تسمع زنوبيا شيئاً. بينما تأرجحوا في الغبار الحار، حملقت من دون أن تحول نظرها. فوق رأس (فابالاتوس)، إلى الخلف، إلى المدينة، إلى هناك، من حيث كان المفروض أن يأتي (لونجينوس).

أفكار (لونجينوس) حاولت الوصول إليها مثل كلب وفيٍّ رأى سيده يرحل، لكنها ارتدّت عن أسوار البهو الأمامي. لم تستطع أن تتحرر من كومة الحجارة. لكنها هدأت تماماً عندما أمسك به الرومي.

«أين هي؟»، زمجر صوتٌ. «أين الأنثى التي تجرأت كتابة مثل هذه الرسائل إلى قيصرنا؟»، نظر (لونجينوس) إلى مخطوطة رفرفت على رمح

Twitter: @ketab_n

فـي الهواء. مدمـاة وممزقة. بدت كأنها علامة ميـدان بعد حرب طويلة. لكنه عـرف، الرسـالة إلى المستشـار التي أعلنوا بهـا انفصالهم عـن روما. للحظة وقفت تلك الصورة أمام عينيه، النزهة الهادئة في واحة النخيل، عندما كتباها زنوبيا وهو. كانت تنظر مسـحورة إلى ذوائـب النخيل، بينما قضمت الجبن. وكان ينظر إليها سعيداً أن استطاع أن يكون هكذا قريباً منها.

«وإن كنتم تبحثون عن الكاتب»، قال شبه مبتسم «فهو أنا (لونجينوس)، أنا مستشارها».

«لقد فكرت في أن مثل هذا لا يصدر عن امرأة. مستشـار جميل. علّقوا هـذا الرجل»، كلم الضابط جنوده. سـقط حبلٌ على القضيب الأفقي، وتدلى من دون أذى، غريباً بين زينة الزهور.

«أو»، التفـت مـرة أخرى إلـى (لونجينوس)، «ربما أنـت مواطن رومي مثل كثيرين من الأوغاد في هذه الأيام؟».

هز (لونجينوس) رأسه بهدوء: «لم أنزل إلى هذا الدرك».

«ليس مسـتوانا، صحيـح. طبعاً، سـنعمل إذاً على أن تطيـر فوقنا نهائياً. ارفعوه عالياً». فعلوا هذا.

في ظله المتدلي اقتسموا مصوغات زنوبيا بينهم، وداسوا على الملفات المكتوبة. عندما اسـتيقظت زنوبيا رأت نفسها وحدها. إبنها رقد إلى جوارها علـى أرض العربـة المجـرد، عدا ذلك لم يكن أحدٌ يُرى لا حرس ولا سـائق عربة، حتى الخادمة اختفت، اعتدلت في جلستها ولعنت.

«آووو»! تـرك (فابالاتوس) فزعاً جديلة الشـعر السـوداء الطويلة، التي كان يلعب بها، وبدأ يبكي.

«حسـناً، حبيبـي». قبلـت بعناية الخطـوط فوق أنفـه. «أنت لـم تفعلها قصـداً». مسـحت زنوبيا برقة على جبينـه، إلى أن هدأ، وبـدأت تتعرف على شـقوق الأرضيـة الخشـبية للعربة. ثم نزلـت من العربة. لاحظـت أن ظهرها كان متصلبـاً. تبينت أن الحرس لا بدّ، في الليلة الأخيرة، هربوا على خيولهم غير عابئين بشـيء، فأمامها رقد نهر الفرات، عريضاً، أسـمر وبجريان سـريع مفاجـئ. الشـاطئ الـذي وقفت عليـه، كان منحـدِراً جـداً وأجرد، شـيءٌ ما

Twitter: @ketab_n

محـدد إلى الأمام يشـبه جبهة فيـل عارية تدلـى فوق المجرى. لـم يكن هذا بالتأكيـد معبراً. أين الآخرون؟، رجعت زنوبيا إلى مؤخرة العربة، فعثرت في الأعلـى على شـيء تبين أنه كان يداً. سـحبت فكانت يد زبيـدا: أحدهم دفع مضطـراً جثتـه تحت العربة. عندها تحرك شـيءٌ ضد التيـار، مجموعة رجال سـاقت خيولهـا بلجامهـا خارجة مـن الأدغال عند الشـاطيء، ومشـوا ببطء وبثقة، كأنهم أناس عرفوا ماذا فعلوا. كانوا مرتزقة الروم.

«خيانة، لقد خانونا، اللعنة مرة أخرى عليهم». نهضت بسرعة. (گـاش) كان أول مـن فكرت فيه. هؤلاء الروم قد انتظروها هنا، وقد اسـتدرجهم إلى هنـا. كل الحرس تكـوّن من خونة إلا زبيـدا، ومن أجل أن يتمكن من ترتيب هذا، كان على (گـاش) بيع تدمر إلى الروم.

رمـت زنوبيا نظـرة مليئة بالقلق إلـى المقتربين منها، ونظـرة أخرى إلى النهـر الطينـي، تذكرت فجـأة (أودو) وعصرياتهما سـوية عنـد النهر، صورة بعيـدة دقيقـة. (أودو) الصغير سـبح مثل التمسـاح، بينما جلسـت هي تحت رائحة الخباز الثقيلة، وامتنعت عن مجرد تعليق قدمها في الماء. لكن توقفت عند التفكير بهذا. أخذت بأقرب حصان إليها وشـدت لجامه، انتزعت رأسـه المعلـق المتعب عالياً، وبدأت تنزل به المنحـدر، غير أن الحيوانات صهلت وأظهـرت العنـاد وقدمـت حوافرها إلى الأمـام، عندمـا انزلقـت العربة إلى الخلف، قاموا بوقفة مفزعة، كادت تنتزع زنوبيا من الأقدام. كلهم بمجموعهم تعثروا إلى الفرات، كان بارداً بشكل عجيب.

«آيا»! صرخت، «آيا». سحبت الاثنين خطوة بعد خطوة إلى عباب الماء الـذي وصل إلى فخذَيها. ضغطت زنوبيا نفسـها على جسـم الحيوان الدافئ وربطـت أصابعها بقـوة بلجام رأس الحصان، حتى تسـتطيع أن تنقل نفسـها إذا فقـدت القاعدة. هنا رأت (فابالاتوس)، الـذي نظر حول حافة العربة عن العنصر المجهول. مستمتعاً داعب الأمواج بكلتا يديه، سمعته يضحك.

«(فابالاتوس) إزحف إلى الوراء، أتسـمعني، حبيبي إرجع إلى الوراء»، بخوف شديد حاولت الشد إلى الخلف كي لا تفقد مسكة الحماية بالحيوان. غـاروا أكثر في المياه العميقة، فرمت الخيول برؤوسـها إلى الأعلى، وبدأت

Twitter: @ketab_n

تسبح بعيون مقلوبة من الخوف. انزلقت العربة ونزلت إلى عمق أكبر. تدحرج (فابالاتوس) إلى الخارج. سمعت زنوبيا نفسها تصرخ. بلا تفكير قفزت من مكانها، حيث اختفى رأس ابنها. ابتلعت ماءً وسعلت وانقلبت. ظهَر الوجه الصغير لابنها مرة أخرى، بقعة بيضاء في الأمواج الطينية البنية. لم يبدُ المتقدم المجهول مخيفاً حتى الآن. ابتسم. وبعد ذلك اختفى.

رأت زنوبيا هذه الابتسامة وهدأت بها، مثل مرات كثيرة سابقة عندما رأته مبتسماً. توقفت عن التخبط. ولمَ لا. فكرت في أنه لا يخاف. لا يمكن أن يكون ثقيلاً وأحست أنها تنزل، ثم توقف النزول.

يدٌ كبيرة امتدت إليها وسحبتها من الماء. بتأمل نظر الرجل إلى المرأة الغائبة عن الوعي بشعر ملطخ بالطين.

«لا بد أن هذه زنوبيا الكبيرة، عروسة الشرق، كليوباترا الجديدة؟» سأل أحد الضباط متشككاً، وكان واقفاً إلى جانب الرجل. لم يكن هذا الشيء المتوقد رغبة في الكره أو في الحب. لم يُعرف بالضبط، هي التي عدّها ملكة الآخرين ذات الجمال الجنوني، الملكة المحاربة وكان قد اتجه بحصانه إليها. حرك الآخر إصبعه الرطب في الشعر الأحمر الملطخ بالأتربة والعرق، ومدّ نفسه أكثر.

«آه. مثل هذا الحمام البارد كان ضرورياً منذ زمن». أمر بربط زنوبيا عرضياً على حصان، ثم امتطى هو نفسه الحصان وقاده راجعاً إلى المدينة. لم يكن على عجلة من أمره. لقد انتصر الآن. بارتياح تطلع إلى صحراء الحصى المقفِرة، التي امتدت خلف النهر.

«أتعلم، (فيجيليوس)»، قال أخيراً، «ومن ناحية معينة، هذه واحدة من أكبر حملاتي نجاحاً. بالفعل شُفيت من حمّى الدريس منذ أن عسكرنا هنا، في هذه الصحراء اللعينة قبل سنة». نظر إليه (فيجيليوس)، الهيئة الرياضية المبرومة باللحية البرونزية الكثيفة، والنظرة المفتوحة البسيطة. فكر في المدينة المحتلة، في المجد والغنيمة الكبيرة، وبقي مديناً للقيصر المدلل بكثرة الانتصارات بإجابة.

Twitter: @ketab_n

(ليفيا)

تـأوه (أودو). نظـرة مـن فتحة في الشـباك العالي إلى السـماء، أنبأته أن سـرعان ما سـيخيم الظلام. كان عليـه أن يذهب حتى لا يـراه أحدٌ، في وقت يكون الزوار فيه نادرين للغاية لهذا الجزء من جناح المعبد، وقد عرّض نفسه لخطـر أن يوقـف ويُسـأل. إذاً رفـع ذراع المـرأة الراقدة جنبه برقـة عن كتفه، وتدحرج بهدوء عن الفراش وأمسـك ملابسـه أو بكلمة أدق بالملابس، التي هيأتهـا لـه كالعادة (بوبايـا) الخادمة العجوز، ملابس داخلية بسـيطة لشـيخة روميـة. سـمع (بوبايا) تكركـر بخبث عندما لبـس، لكنه لم يكتشـفها في أي مكان وتأفف مجدداً. منذ أن تحدثت إليه في ذلك اليوم البارد أمام «بازيليكا أولبيـا»، وقادتـه إلى سـيدتها، حرصـت على مراقبتـه باهتمـام. كان واثقاً أن (ليفيا) سـتطلب معرفة كل خطواته في روما. (بوبايا) كانت عين (ليفيا) التي لم تترك المعبد إلا قليلاً. هي التي جلبت (أودو) دائماً لهذا اللقاء السري مع سـيدتها. بعد قليل سـترافقه مثـل كل مرة إلى الخارج. لبـس (أودو) بعصبية شـعراً مسـتعاراً لامرأة. التفكير في التأخير وتقدم الوقـت أقلقه. إذا تحركت (ليفيـا) فـي النوم جفل. بهدوء انحنى عليها من أجل قبلة وداع. (ليفيا) كانت امرأة جذابة. شـعرها بني كالعسل، تدلى بكثرة على الملاءة. تقاطيع جسمها الناضج كانت ذات نعومة فاتنة، بشـرتها كانت لامعة كبشـرة فتاة، لكنها دافئة وملسـاء. وعيناهـا الغامقتـان فـي وجههـا الأرسـتقراطي خوّلتاهـا أن تبعث الخشـوع في المؤمنين عند القـدّاس. مرر (أودو) برقـة إصبعه على الخطين النشطين اللذين يبتدئان من زاوية الفم نزولاً إلى تحت. لم تكونا بالنسبة إليه تجاعيـد، وإنما أقرب إلـى علامة لطبعها العنيد المثير للإعجاب. بملامسـته لها استيقظت وضمته إليها، لكن (أودو) حرر نفسه.

Twitter: @ketab_n

«(ليفيا) يجب أن أنصرف. سيدتي تقيم مساء اليوم حفلاً، عليَّ المشاركة في السـمر». تمطت (ليفيا) وتأملته مستأنسـة. حتى ذلك الوقت ما زال عندنا سـاعتان. أتريد أن أحزر من أين تأتي حماسـتكَ للواجب؟ الخوف يسـتولي عليـك ثانيـة، صغيري المسـكين». انزلقت على جبهتها مـن الفراش ومدت يدها إلى علبة صغيرة من العاج، أخذت منها بضع أوراق ذابلة. برمتها بمهارة إلـى لُفافات صغيرة نحيفة، بينما عادت هـي إلى مكانها وأعطت منها واحدة إلـى (أودو)، وكان ما زال واقفاً. وعندما تـردد، ضربت بقوة بيدها المفتوحة على الفراش.

«إجلـس هنا وامضغ: هذه من بلاد العرب، ولهـا تأثير مهدّئ عجيب».

جلس (أودو) مجبراً، كل شيء فيه يريد مغادرة الغرفة.

«(ليفيا) إذا ما أوقفوني عند البوابة..».

«ألم تعد تحبني مطلقاً؟»، سألت بصوتٍ مرتجفٍ تمثيلي.

«(ليفيا)» نادى (أودو) متبرماً. ضحكت ودسّـت لفافة صغيرة في فمها.

«لا عليك، كان مجرد مزاح، (أودو) المسـكين. بالتأكيد ليس سهلاً أن تكون حبيب فيستالن*»، وقبلته كأم تقريباً على خده.

«أنا آسـف (ليفيا)، لم أكن أقصد الإهانـة، لكن التفكير: ماذا يحصل لو انكشف أمرنا، لا يفارقني».

«(أودو)، لاتهتـم»، أجابـت بجفـاف، «أنا واقعية كفاية، أنـا لا أنتظر أن تتحرق شـوقاً لتذهب من أجـل الحب إلى الموت». رمت إليـه بنظرة جانبية غيـر ملحوظة، لـم ينتبه إليها (أودو). «ولا مطلقاً في مثل هذا الأسـلوب غير المقبول»، فلم يستطع كبت ما أضافت. شعر (أودو) ببعض القلق.

«سنُدفَن أحياء»، همس لها.

«فـي ميـدان أمام بوابـات المدينـة»، أكملـت (ليفيا). «لكن رأسـينا في كل الأحـوال سـوف يبقيـان ينظران إلى الخـارج، حتى يكون لنـا وقتٌ كافٍ لتبادُل اللعنات على كل الرقاب التي ضمتها الأرض، قبل أن نهلك. يسـرني

---

*) فيستالن: فيستا: آلهة موقد نار لدولة الروم. فيستالن: قدّيسة وظيفتها حماية نار الآلهة، تؤخذ طفلة لتكون ثلاثين سنة في خدمة الآلهة فيستا، وإن اقترفت خطأ دُفِنت حية.

Twitter: @ketab_n

الاعتراف بأن هذا شيء مسرحي جداً لبضع سسترنزات* أسبوعياً». أخذ (أودو) يدها، وطلب منها أن لا تتحدث هكذا. أخذ نقودها من يد (بوبايا) من أجل (باولا) والطفل المشترك، لكنه في الوقت نفسه كان راغباً أيضاً في أن يكون عندها. بهذا كان جاداً للغاية، وقد قال لها ذلك أيضاً. كانت قوية عالية الشأن وجميلة، كما كانت تعني شيئاً لمستقبل حياته. لو لم يكن الخوف. قاطعته (ليفيا) وأشارت إليه بالانصراف. الكلمة الحاسمة التي ودّت سماعها كلمة «حب»، ما لم تكن ضمن ما قال، وتمنت لو دُفِنَت على أن تعترف لـ(أودو) بأنها انتظرت سماعها منه. ضحكت بجفاف.

«أنتِ قاسية». تبين (أودو) مندهشاً.

«(أودو)، هذا ما يفعله التعامل مع الجبناء، (أودو)، وداعاً. كما أن السابقين لم يكونوا أشجع بكثير. أحدهم فزع جدّاً إلى درجة، حينما كنّا راقدين سوية وفُتح الباب، انكمشت كل قوته الرجولية إلى حبة عنب في الشمس. وأنا أقسم لك أنه لم يستطع أن يعملها مرة أخرى، أن يقذف العصير في... حتى نهاية حياته، بينما لم تكن سوى (بوبايا) عجوزتي الطيبة، التي كانت قد دخلت، ولم تطرق الباب. لكنه لا يمكن تخليصه من الاعتقاد أن فيستا شخصياً قد سحرت الزبيبة كعقاب على خطاياه». ثم عادت تضحك.

«لستُ الأول؟»، كان (أودو) مذهولاً.

«أتوقعتَ هذا؟»، وسحبت حاجبَيها عالياً، «كلا، أنت لست الأول، هذا ليس عندي يا حبيبي، وليس في هذا المعبد من تعتقد بأن هذه العجوز المستهترة التي جلبت إلى آماتا كل يوم جمعة طب أعشاب...». لم يكد يجرؤ (أودو) التخمين:

«رجل؟».

«مستشار. إذا صحّ، ما نُقِل لي، كان يأتي منذ خمسة عشر عاماً، والفتاة التي جلبها معه كجارية، إنما هي ابنتهما المشتركة. مثير للمشاعر أليس كذلك؟ الاثنان أحب بعضهما بعضاً فعلاً».

لم يستطع استيعاب هذا.

*) سسترنزات: عملة نقدية رومية.

Twitter: @ketab_n

«أجـل، لكـن العقوبة»، اعتـرض قائلاً، «ألـم يكونا خائفين أبـداً؟ أولم يخشون الآلهة؟».

«يا إلهي منذ (دوميتسـيان) لم يُعدم أحد. هذا منذ مئتي عام ولم يحصل حقيقة. والآلهة؟»، سـحبت (ليفيا) لفافة أخرى من العلبة الصغيرة. عرضت علـى (أودو) نصفها. «أنا أذهب يومياً مع العذارى والأخريات إلى العين في وادي كامينا، وأجلب من دون أن أسأل لماذا، إلى الحاويات المدببة النهاية، والتـي لا يمكن إيقافهـا وأجلب الماء لتطهير المعبد، تماماً كما تأمُر التقاليد. أنــت تعرف الإجراءات. فقد خُلِّدت بعشـرات النقوش الفنيــة. أنا أركب مع الآخرين في يوم الاحتفال بفيسـتا على حمـار مكلل بالغار في المدينة، حتى وإن كان عليـه قـرادٌ ورائحتـه كريهة، وأخبـز في وقتٍ محـدد خبز الأضحية للمعابد الأخرى، وأحرس مرة في الأسـبوع ليلاً اللهبة الأبدية، التي غالباً ما أوقدتها كل مرة، حتى لم أعد أعرف عدد المرات».

«لكنهـا فعلاً إجـراءات ضخمـة ضرورية، للقـداس وطقـوس التطهير والمرآة المقدسة، من أجل إيقاد اللهبة المستمرة دائماً من جديد».

هـزت (ليفيا) إبطها ومضغت: «فقـط عندما تقول هذا لأحد، أنا أخذتُ بكل بسـاطة المصبـاح الزيتي التالي. ماذا؟ لا تنظر إليّ هكـذا، (أودو) . إنها كلهـا مجـرد طقوس قديمة جوفـاء، أتفهم؟ ليس هناك آلهة، مجرد مسـرحية مفتعلة، أثرت في الناس عند إقامة القداس، وأنا أفضل المشـاركين، يمكنك أن تصدقني. عندما أحرق عند فوردسـيديا العجل الصغير في المذبح، بعدئذٍ يتعلقـون بـأي من إشـاراتي». بـدت فعـلاً مرتاحة جـداً. لم يسـتطع (أودو) استيعاب ذلك. لماذا مارست هذه الوظيفة وما السبب؟

«مهـلاً، إنـه أفضـل مـن أن أكـون متزوجـة مـن أي شـخص». (أودو) أومـأ ببـطء، لقـد فكر فـي زنوبيـا، الفتاة الشـابة، زنوبيـا، التي تعـرّف إليها. وهـل كانـت فضلت في ذلـك الوقت لو كانت قديسـة علـى أن تكون زوجة (أودينياتـوس)، لـو كانت لها حريـة الاختيار. يمكن أن يتصـور أنها كانت قد اختارت هذا الطريق.

«لم أكن أعلم قبل هذا أن الرغبة في ركوب هذا الحمار أو ذاك من ذوي

Twitter: @ketab_n

الساقين كبيرة إلى هذا الحد. إنها مغامرة مهينة». أضافت بلا اكتراث. حين رأت وجهه الجريح كانت ستعض على شفتيها. تفحصت يده تلقائياً وتركتها فوراً ثانية، فضلت أن تبعد تفكيره.

«لماذا يدهشكَ هذا كله هكذا؟ لا تقولي لي إنكِ تعتقدين بفيستا وإنكِ تخافين شيئاً أكثر من الجلاد على الأرض».

هز (أودو) رأسه. كلا لم يصدق بالفعل أنها قد اقترفت ما دنّس المحرمات. إذا كانت القديسة الرومية نفسها أيضاً لا تعتقد هذا، فهذا ينسحب على كلِ موضوع آخر. لقد كان هو مجرد بربري وآمن، أجل بما آمن في الحقيقة؟ سؤال (ليفيا) جعله يفكر ملياً.

مسيحية (كليمنس) و(يوليا) لم تكن باقية بثبات في شعوره وفي آلهة شعبه، لم يعد يتذكر. كان صبياً عندما طرده المرتزقة الروم من هناك. ملكة الأرانب فقط بقيت في ذاكرته، وهذا كان منذ الأيام الغابرة في تدمر: زنوبيا. تذكّر أيام طفولتهما المشتركة، وأنه عرف أنها عاشت في تلك المدينة الصحراوية البعيدة، وتجولت، وربما كانت سعيدة، كان هذا، في شكل معين، دينه. بتردد حاول أن يشرح هذا إلى (ليفيا). لكن الغريب أنه لم تُهمّه، أنها ربما لم تستطع فهمه. الفيستالية فتحت عينيها. «زنوبيا؟»، انفجرت، «زنوبيا هذه لبوة سوريا، الأنثى المسحورة، أو هكذا أطلقوا عليها، أتعرفها؟ لا تحدثني بما لا يُعقل، (أودو). إنها سيدة شرق الروم. (بوبايا) حدثتني، منذ أن سار (أورليان) بحملته هذه، لم يعد يلعب الأطفال «أمسكوا نيرون»، وإنما، (أورليان) وزنوبيا، إذا ما طارد أحدهم الآخر.

ابتسم (أودو)، «كنا نلعب لعبة السمك، زنوبيا وأنا. لهذا يجب عليكِ أن تخترقي الجموع مثل السمكة، إنه يشبه الرقص، وكانت زنوبيا أسرع مني دائماً عند معبد (بل)». نظرت (ليفيا) إليه باستغراب، فأوضح لها، وتحدث لها عن طفولته في تدمر في الصحراء والقوافل والرحالة المهيوبين. غالباً ما قابلها في زقاق صياغ الذهب.

«كانت رثة وقذرة قليلاً، لكنها كانت ملكة من رأسها إلى أخمص القدم. منذ ذلك الوقت، لذا لم يتجرأ أي تاجر أن يخدعها، إذا ما تقدمت إلى محله

Twitter: @ketab_n

وبدأت المعاملة. وقد ساومت بلا خجل كأنها بائعة سمك. تأملتها طويلاً، وعندما مر حرّاس المدينة واختفت هي خلف كُدس من السلال، لأنها كانت تخشى أن يكون أبوها معهم ويراها، زحفت أيضاً إلى هناك وابتسمتُ لها. عندها صرنا أصدقاء. كنتُ ابن عشر سنوات في ذلك الوقت، وكانت هي أكبر بقليل. أُعجِبت بها كأنها آلهة، وهي ربما وجدتني ثقيلاً».

«وهل أحببتها؟».

«نعم ولا». فكر قليلاً. «كنتُ طفلاً، وكانت هي جميلة وجريئة. استطاعت أن تروي حكايات رائعة، وامتلكت الجرأة فاخترقت مسرح أمفي لتلقي هناك قصائد. كنت أخاف ولم أرغب، لكنها كان لها رأسٌ عنيد. مع هذا كانت دائماً تخشى أن يعاقبها والدها عقاباً شديداً». نظر إلى (ليفيا) ولاحظ فجأة: «كانت تشبهكِ قليلاً، نعم بالفعل». تأملها وكأنه رآها لأول مرة، تسارع نبض قلب (ليفيا). دخلت فترة توقف. لم يتحرك أحدٌ منهما:

«هكذا»، سمعت نفسها تقول بجفاف. «مهلاً، ربما كانت هذه مجاملة». هنا قاطعتها (بوبايا) التي دخلت بمصباح زيتي ومحفظة نقود بأجور اليوم، التي رمتها إلى (أودو)، ثم ذكّرت سيدتها أن عليها اليوم تأدية حراسة الليل عند اللهبة المقدسة، ثم وضعت المصباح على طاولة الزينة الصغيرة. كان حماراً برونزياً، الحيوان المقدس لفيستا، حمل اللهبة بصبر على ظهره.

ذهبت (ليفيا) إلى هناك ورتبت شعرها، بينما غرق (أودو) في ما بدأ، في ذكريات وبقي في الفراش. (بوبايا) ضفرت شعرها الكثيف في ست ضفائر، تسريحة الشعر التقليدية للفستالن، والعرائس. فكرت (ليفيا) أي هوان في الحقيقة هذا. نظرتها في المرآة مرت بوجهها إلى (أودو). رأته يلقي شيئاً على الفراش. ثم نهض وتقدم إليها وقبلها برقة على رقبتها.

«شكراً أنك سمعتَ»، أومأت بابتسامة حزينة.

«(بوبايا) ترافقك إلى الخارج». عندما ذهب، ذهبت هي إلى الفراش وتفحصت ماذا ألقى (أودو) هناك. كانت محفظة النقود. جلست (ليفيا).

«أعتقد»، قالت بصوتٍ عالٍ «سَأُهَسْتِر». ثم رمت بنفسها على الفراش وضحكت وبكت في وقتٍ واحد.

Twitter: @ketab_n

خطواتها رنت في القاعة المفتوحة الفارغة، بينما رافقت (بوبايا) (أودو) إلى باب بيت الفيستالينية، لكنهما لم يصادفا أحداً. في المراحيض العامة في الجهة المقابلة بدّل ملابسه وأعطى صرة الملابس إلى (بوبايا) التي انتظرت في الخارج، ذهبت بها للمرة المقبلة. عندما خرج، ظن أنه رأى من البناء المدور لمعبد فيستا لمعان ضوء خفيف. قريباً ستذهب (ليفيا) إلى هناك لتجلس إلى جوار لهيبها، ابتسم.

ثم تذكر (إيليا) ودعوتها المسائية ثانية. أسرع في خطاه. سرعان ما وصل إلى شارع أشجار الكُمثرى على تل كويرينال، حيث كان لـ(إيليا دروسيلا) واحدٌ من بيوت الإيجار التابعة لها. أقامت مهابة في الطبقة الأرضية، الطبقة الوحيدة التي توافر فيها ماء، إسالة وتصريف للمياه المبتذلة. الأثرياء فقط استطاعوا أن يسكنوا مثل بيوت المدينة هذه.

وقف (بوليبيوس) عند الباب. قلائد ذهبية مثبتة على إطار الباب. الجسم المحاط بالزهور مزين بلمعان أضاء الألوان البرونزية. حياه بنظرة شزرٍ عرفها.

«مهلا، لقد تحدثتُ إلى (سيلر). وقد قلتُ لـ(باولا)، أنا لا أعتقد أنه يعمل مع سجق صغير مثلكَ». كان على (أودو) أن يفكر للحظة عن أي شيء تحدث الآخر. ثم أشّر بصمتٍ ودخل.

«هَي»، نادى (بوليبيوس) خلفه، «ربما عندي نقودٌ لـ(باولا) و(أماك) سوية».

سيدة البيت لم تنتبه إلى الغياب الطويل غير اللائق لحامل الهارفة. تحدثت باهتمام إلى ضيوفها ومن ضمنهم المستشار (بويتا)، الذي منحته كل انتباهها، إضافة إلى توافُر مستجدات مدهشة يمكن إعلانها. لم تتردد أن تأمر بنصب تمثال نصفي للقيصر (أورليان) في القاعة المفتوحة، واستطاعت أن تزينه أمام أعيُن الحضور بأكاليل غارٍ من ذهب. صفق الحضور وارتفعت هتافاتٌ بحياة الأمبراطور.

ضيوف، وتجهيزات اختفت تقريباً في إطار الإسراف في تنسيق زينة ورود القاعات، التي بعثت هواءً مسكراً فاق حتى العطر المبالغ به للسيدات

Twitter: @ketab_n

الأنيقات. روائح مائدة الاحتفال انتشرت إلى جانبها بشكل محرِك للشهية لا يُقارن. أمرٌ اتفق عليه الجميع هو أن (إيليا دروسيلا) وحدها عرفت كيف تحتفل.

«اكتمل كل شيء»، قالت في حينها، واتجهت ببسمة مشرقة إلى (بويتا).

«أليس هذا مدهشاً؟».

«عملٌ بطولي حقيقي»، قال (كوينتوس فيفيوس كاكس) معجباً، هو مقاول من سكسونيا- استيراد وتصدير. وتقدم بخطوة سريعة بينها وبين المستشار، لكن يد (إيليا) أمسكت بقارورة النبيذ، ودفعتها من دون تكلف جانباً، ولم تلتفت إلى البقع التي تركتها على الملابس الداخلية.

«هذا كثيرٌ من أجل روحٍ مرهفة الحس»، واصلت هجومها على المستشار.

«إنه في الحقيقة أكثر مما يُسمح لنا أن نتجرأ تمنّيه». أكد (بويتا) بحذر.

«أوه، نعم، أكثر من هذا، أكثر بكثير». قالت هادرة سيدة ممتلئة في الخمسين بشعر ملون بالأشقر، أرملة نائب القنصل (نوميديَن)، احتلت مكانها في هذه الدائرة المختارة.

«ومع هذا لم يضرب (أورليان) الغوطييّن وحدهم، مرضياً بهذا مقاطعات الدانوب..».

استعد (كاكس) للإيضاح من أجل لفت انتباه (إيليا) مجدداً إليه.

«أوه، هذه المدينة التي أسّسها هنا (سرديكا)، قد تطورت إلى عاصمة رائعة»، تدخلت الشقراء. تأملها (كاكس) بنظرة جانبية منزعجاً.

«... وإنما أعاد كذلك المدينة غير الوفية تدمر إلى أحضان الدولة». أنهى جملته.

«نعم، إنه مقاتل كبير، (أورليان) هذا»، أومأ جنرال عجوز مؤيداً. «شجاع وواثق تماماً، مثلي سابقاً، عندما..». لم ينتبه إليه أحد.

«يقال إنه قتل رئيس قبيلة الغوطيين (كانابادوس)، في مبارزة بين اثنين؛ رجل لرجل، فلم يكن سوى طبقة زيت غطت جسمه».

Twitter: @ketab_n

اختفى صوت المتكلمة، كذلك (إيليا دروسيلا) ارتعشت.

«والعاهر السورية، سحبها من شعرها فوق الرمل»، وأضافت بهمس تقريباً:

«أوه، هذا الرجل الرائع، وهكذا أركع الفتنة بكسر رقبتها. آخ تمنيتُ لو أضمه إلى نهديَ». رفعت صوتها، «كإبنٍ». تنحنح (بوبتا) وتناول جرعة من طاسة نبيذه.

لاحظت (دروسيلا) تحفظه.

«نادراً ما كسب قيصرٌ موكب نصرٍ هكذا بقوة مثل (أورليان)»، أعلنت هذا بسرعة وبلهجة جادة، «لا بد لمجلس المستشارين أن يعزز له النصر. أليس كذلك، عزيزي (بوبتا)؟»، ربتت على يده، «ستهتمون بذلك؟». نظرتها إلى المجموعة لاقت اهتماماً عاماً بصديقها ذي النفوذ المؤثر. أجاب (بوبتا) بشيء ودّت تفسيره كإيماءة موافقة. بكل تأكيد يريد المستشار نصراً لـ(أورليان)، لم يرفض المستشار حتى الآن أي طلب لـ(أورليان). وكيف أمكنه ذلك ولم يكن هناك شيءٌ أكيد، يمكن أن يعمله لصالحه أو ضده. أخذ الحديث مؤقتاً اتجاهاً مغايراً، ومال المستشار إلى الجانب في أريكة مقابل حوض ورود البحر ممتدة في القاعة المفتوحة. ماءٌ تدفق من كهفٍ حجري طبيعي، خلفها غزال برونزي اشرأب بحذر للمراقبة، وآخر أدخل فمه في الحوض ليشرب.

كانت أعمالاً رائعة، كلا الحيوانين ظهر عليه توتر ضاغط وكأنه يرتجف. كأنهما متيقظان ومستعدان للهروب. ساخران من الوجود الدائم لهذه المواد التي صُنعا منها، بدوا فعلاً كأنهما حاضران لهذه اللحظة. ولهما الحق أن يكونا متيقظين في أجوائنا، قال لنفسه وسأل في ذاته: لماذا بحق هادس لم يكن لديه شيءٌ أفضل للقيام به من أن يأتي دائماً إلى هنا.

«أصحيحٌ، أنه حوّل تدمر إلى أكوام ورماد؟»، سأل ضيف بصوتٍ عالٍ ضعيف ضمن المجموعة المنشغلة بالكلام من خلفه، «لقد سمعت بالأمس في القصر، أن المدينة سُوّيت بالأرض»، في هذه اللحظة أتى (أودو) مع التين المتبل المغمس بالعسل. شنف فوراً أُذنيه منفعلاً، والجواب الذي

Twitter: @ketab_n

استلمه السائل من قبل (كاكس) أصابه كمسطرة على الوجه غير متوقعة.

«لم يبقِ هناك حجر على حجر».

تدمر أُفنيَت، كيف كان هذا ممكناً؟ مضطرباً قدم للضيوف صينيتهُ وحاول، في خضم الأصوات الحصول على إجابة. فعلمَ أن غاصباً اسمه (گاش)- أوه، إنه يعرف هذا الاسم أكثرمن الجيد- بعد هزيمة الملكة انتزع العرش لنفسه. في البداية عقد سلاماً مع (أورليان)، من أجلِ أن يُعلن نفسه أمبراطور الشرق بعد انسحابه بقليل. بعد هذا عاد (أورليان) بجميع قواته ثانية، وأمر بتدمير المدينة التي كانت إلى ذلك الحين مصانة، تدميراً تاماً.

«هناك الآن ترعى الماعز في المنتدى»، أنهى (كاكس) بارتياح محاضرته. حاول (أودو) أن يتصور أقواس النصر. معبد (بل) وأسواره العظيمة أمكن تحطيمها. لم يستوعب ذلك. والأطواق المتعددة الألوان، في ظلها تعوّد أن ينتظر زنوبيا، السوق المليء بالناس والحياة، كل هذا لم يعد اليوم سوى صحراء؟ وبساتين النخيل وعين ماء أفتا؟

الذكريات سيطرت عليه فجأة، ورأى المدينة بوضوح أمامه مثلما لم تكن قبل سنوات. تذكر بعد الظهر في المسرح. الهدوء ثقيل كالسماء نفسها، حيث سمع في داخلها فجأة صوت زنوبيا عالياً تُنشِد: «نجوماً كنا والقمر يضيء ليالينا..». زنوبيا! ماذا حدث لزنوبيا؟

كاد يسأل بصوتٍ عالٍ، كأنها أرادت إجابته، قالت (ايليا دروسيلا)، التي لم ترد أن تحيد عن موضوعها المحبّب، كيف أخذها القيصر نفسه أسيرة، وغلّها بالقيود. انتهت باحتفال:

«ستذهب كغنيمة في موكب نصره، زينة لعظمة روما وإنذاراً لأعدائه. هكذا تكون حياتها المأفونة بالتأكيد في خدمة أغراض نبيلة، قبل أن يضعها في سجن الماموث. قد ينقّي هذا روحها الخالدة». أضافت بخشوع. «سوف تفرحونني، بجلوسكم إلى جانبي عند المنصة، عندما يحل الموعد؟»، توجهت إلى (بويتا). باستغراب تبين لها أنه لم يبقَ إلى جانبها، كان عليها أن ترفع صوتها، لتُلفت اهتمامه بها، ونادت مخترقة القاعة: «لقد طلبتُ منصّة خاصة مباشرة عند المنتدى، أمام معبد فيستا، لي ولأحباب طيبين جداً

Twitter: @ketab_n

فقط». موافقته هدأتها متجاوزة أن خادمها المفضل وسط هذا المشهد المثير ترك الصينية تسقط مجلجلة. سطرته على وجهه برقة، وطردته إلى المطبخ.

بعد دقائق قليلة كان (أودو) ثانية في الشارع في عباءة، من أجلها سلّم إلى جارية المطبخ مبلغاً ليس قليلاً من توفيره. كذبة أُطلقت بصوتٍ عالٍ عند بوابة فيستا، سهلت له الدخول إلى (بوبايا)، التي أثارته فلعن تهوّره. غير أنه لم يكترث بهمومها وألحَّ عليها حتى قادته إلى العتبة المقدسة للمعبد بعد لعن وشتم. كانت قاعة فارغة مزينة بالمرمر، مدورة شبيهة بالبناء نفسه، بلا صور زينة: إذ لم يُسمح من قبل الآلهة بعمل صور. فقط رؤوس الأعمدة كانت مذهبة. لمعت لمعاناً ذهبياً الطاسة التي تكورت أمام (ليفيا) على الأرض، وفيها اشتعلت اللهبة الأبدية، وجعلت وجهها مضيئاً في الظلام. رأت (أودو)، وكأنها كانت في انتظاره. بدا كأنها لم تُفاجأ مطلقاً، وأنه أتى إلى مكان غير مسموح لأي رجل بدخوله. بإشارة أمرت (بوبايا) بصمت وأرسلتها بعيداً. اللهبة اسودت وكان لهباً خفيفاً هادئاً.

«(ليفيا)، أنا في حاجة إلى مساعدتكِ»، همس (أودو). نظرت إلى وجهه الشاحب. ثم أومأت بالموافقة.

«أنت تعلم أني دائماً أساعدك»، لم يكن هذا في الحقيقة سؤالاً، «وأنت تعلم لماذا، أليس كذلك؟»، أخذ بدلاً من الإجابة يدها وضمها إليه. جعلت النار بشرتها تتوهج. عندما سحب فانيلتها الداخلية. كم كان شعوراً جميلاً وبيتياً ومهدئاً أن تَلمّس جسمها الناعم. ثم انخفضا إلى قاعدة المنصة أمام حجر المذبح.

Twitter: @ketab_n

موكب النصر

بعدما سُحبت زنوبيا من الماء ضمن قطع الغنائم للمرتزقة العائدين إلى أوطانهم، والتي رُتبت صفوفاً، رقدت مريضة لفترة طويلة. بدا كأنها حاولت أن تمـوت، رغم الإنقاذ غير المرجو. أسـابيع وأسـابيع تمرّغـت في الحمّى. لم تدرك بشـكل صحيح شـيئاً عـن عربة الثيران التي تأرجحـت بها في اتجاه رومـا، إلا ثقبٌ في الجلد المشـدود إلى السـقف، لفـتَ فـي مراحل الصحو القليلـة انتباهها، إذ ثمة مسـاحة سـماء مكشـوفة تأرجحت الشـمس فيها مع تأرجُـح العربة واهتزازهـا وجعجعتها. بقع ضوء غير مسـتقرة تراقصت فوق جبينها مثل أفكار سـطحية. وكانت كأن ثقوباً اشتعلت في أحلامها، رأت من خلالها شـيئاً مغايراً لهذه- قاعة ضيقة وإشعاع مصباح على شفاهها- قبل أن استغرقت ثانية في النوم.

حلمت بتدمر، التي سُحِقت منذ زمن، وصارت ثانية جزءاً من الصحراء، لكنها لم تحلم بـ(فابالاتوس) أو (لونجينوس) ولا حتى (أوديناتوس). كانت زنوبيا طفلة حينذاك، ومرت في أزقة سـوق المدينة. أشـرطة حرير الصباغين المنشورة كتُحفٍ رفرفت ثانية في الريح، مشى أحدٌ في جهتها، بلا وجه بينما التفتت هي متراقصة ورأسها ملقى على ظهرها فرحة.

لكن الذي مشـى إلى جهتها، أفلت منها. بشـوقٍ مدت يدها ولم تتوقف البيوت عن الدوران، رمت يدها لتمسـكه. لكن أصابعها لم تنغلق، رغم أنها حاولـت مـرة ومرة. ولم تكـن لديها قوة فيهـا. صرخت، الظلام أسـرع على امتداد الأسوار، واقترب وانزلق تحت إصبعها بالتدريج قماش ردائها بعيداً.

كانـت تفقـد كل ليلة شـيئاً بهـذه الطريقة، بعدهـا توقفـت الأحلام: ثم استيقظت زنوبيا.

Twitter: @ketab_n

مرتزقة (أورليان) العائدون إلى وطنهم اخترقوا الليرين، التي نالت السلام مؤخراً، بلدٌ ملأته غابات وأدغال كثيفة لا حدود لها، غطت كل الطرقات؛ بعض الجنود تذكروا المعركة هنا بفزع، عندما غاصوا صفوفاً طويلة في الأدغال، دخل الماء جزماتهم العسكرية، وكانوا دائماً مُعرّضين لهجوم ينطلق من الأدغال الكثيفة الخضراء، وحيث لم يكن يُرى قبل ذلك شيء، ولم يُسمع شيء غير أصوات طير متسائل. ما زال هدير المعركة في الآذان، وأسماء أرباب البرابرة ونداءهم: «اقتلوا»، تتوغل عبر خطوطهم النحيفة، غير أن الشحارير فقط هي التي غنت اليوم، وبعض السناجب المنزعجة رددت أصوات الروم الزاحِفين، وأغصاناً تكسرت تحت عجلاتِ دائبة الدوران لعربات جرتها الثيران.

عسكروا في مروج الغابة. عندما نظرت زنوبيا لأول مرة إلى الخارج كانت صدمة لها. رغم ضباب الصباح الكثيف الذي ألقى برقعاً ندياً على الأشجار المقبلة، وعلى الأرض، فقد كانت كل الألوان غامقة، ومشبعة وممتلئة. بلا ظلال وقفت هنا سوداء، صفراء وخضراء وحملقت بعناد، أكثر حقيقية وواقعية من ألوان الباستيل في وطنها. كل شيء هنا ظهر ندياً. الأرض الرخوة ذات الوسادة النباتية السميكة، الأوراق الرطبة يقطر منها الماء، الجذور اللامعة، والهواء نفسه. كل شيء امتص الماء مثل إسفنجٍ وأضاء.

عندما ظهرت الشمس من بين الغيوم الثقيلة، وترك الضوء تحت الأشجار ألواناً خضراء ذهبية، عليها بدأت بقع الظل تتراقص مع أوراق الأشجار وستائر من شعاع سقطت مائلة من بين جذوع الأشجار الغامقة، كانت زنوبيا مسحورة. ترى إلى الأوراق الجديدة تفتحت، وقامات الأشجار المدورة تراقصت، كأن قوة داخلية حركتها.

تذكرت أحاديث (أودو) فجأة، قصصاً سرّها بها في مخبئها عند النهر، أو في مخزن الأثاث القديم لمعبد (بل). تناولت أحداث طفولته في الغابات عند الدانوب، حيث كان في مطاردة مع أصدقائه. جلسا هنا مساءً في مأوى سري عند النار، وتبادلا سرد القصص. نظرت زنوبيا حولها وتأملت الأرض

Twitter: @ketab_n

الزراعية الكثيفة الثقيلة. ربما كانت تشبه الأجواء هنا. توقعت تقريباً أن ترى بين الأبخرة الكثيفة كوخاً من الطحالب والأوراق الخضراء مزيناً بقرون الأيّل، عُلِّقت عليه طلاسم. أجنحة طيور صغيرة مصفقة، أزهاراً وحوافر أرنب. تحركت تلقائياً إلى هناك. ألم تكن هناك إشارة أو حركة؟ بدا كأن هناك شخصاً وقف، نعم، أم أنها مجرد شُجَيرة؟ امرأة بسترة جلد وشعر قذر. خرقة بيضاء مرّت طافية كشراع ومسحت الصورة.

«ملكة الأرانب»، تمتمت زنوبيا. ماذا قال عنها (أودو)؟ كانت نذير شؤم. بدت للقليل جوالة، وحيدة في الغابات. رؤيتها كانت تعني حظاً كبيراً، ولكن:

«الموت»، همست بلا صوت. ارتفع الضباب ولم ترها سوى أدغال أشجار البندق تقطرّ الندى من أوراقها الممتلئة. عادت زنوبيا إلى العربة، ولم تفارقها ثانية. ريحٌ سوداء في الخارج جلبت منظراً جديداً.

كانت روما قبالتها بحياة صاخبة. جيش (أورليان) المنتصر كان عليه بحسب رغبة المستشار أن يُعسكِر أمام البوابات وعلى ميدان مفتوح حتى اختتام الاستعدادات لموكب نصر القيصر. ثم بعد ذلك يزحفون إلى داخل المدينة. انضم (أورليان) ضمن المفردات إلى المستشار ليبقيه في مزاج رائق. هو نفسه أسرع فوراً إلى القصر وتولى القيادة السياسية بنفسه ثانية. لكن خيمته الأرجوانية كانت تُرى جيداً، إذ نُصبت في الجانب الآخر من السور حتى يُصدق الشعب أنه في انتظار اليوم الكبير هناك، ويكافئه بامتثاله أمام مستشارية الشعب الرومي. جنوده مُنِعوا من دخول المدينة.

إذاً فعوائلهم أسرعت إلى البوابات، وكذلك التجار وأطباء الأعشاب وبائعو النقانق والعاهرات والعرافات أرادوا جني حصتهم من الكسب الجديد للعائدين إلى الوطن. وبلمحة بصر شُيّدت خيامٌ هائلة، نواتها المخيم العسكري، أمكن تمييزه من شكله المربع، حوله من كل مكان تجمعت قطع قماش متنوعة الألوان. التجار لا حصر لهم. كأنها سوق سنوية فريدة لم تتوقف فيها الموسيقى، ولم ينقطع الصراخ.

بعد ليلة أُخرى بلا نوم، مثل ليالٍ كثيرة مرّت بها منذ أن وصلت هدف

Twitter: @ketab_n

رحلتها، فتحت زنوبيا لأول مرة باب خيمتها. كان الصباح لا يزال أكثر صخباً من المعتاد، وأرادت هي معرفة السبب لترى تأكيد مخاوفها. رمحان تقاطعا فوراً أمام صدرها، ولأن لا أحد يلمسها أو يكلّمها، إذا لم تتقدم خطوة أخرى، بقيت واقفة، حيث كانت، ونظرت إلى الصباح الرومي المغبر. كان كما توقعت من مخاوف. الأعمال التنظيمية للانتقال كانت على قدم وساق. مراقبون بأسواط طويلة ساقوا أسرى الحرب إلى أثنين مصفوفين كمجموعاتٍ، وحمّلوهم لافتات كبيرة باسم مجموعاتهم الشعبية ليمسكوا بها. «يوتنكن»، استطاعت أن تقرأ زنوبيا، «سارماتين»، «ماركومانن»، وعلى لافتة، ما زالت ملقاة: «كفالن». «إسمهاالصحيح «كفادن»، أيها الأحمق»، صحح المراقب الشرس (أوبتسيو) للرسام. «أم أنك تظن أننا من البحرية؟».

بعيداً إلى الخلف أنزلت جمالٌ ثقيلة لوحات فنية كثيرة، من المفروض أن تُحمل بعدئذٍ من قبل الجموع. أعلنت بألوان ما زالت رطبة معارك نصر القيصر. صورته طُبعت بلحية قرمزية من بين كل تلك المجازر التي عُرضت بتفاصيل دقيقة. كأنها من الحياة. المحاربون القدامى تجمعوا في مجاميع صغيرة أمام اللوحات الملونة. انتقدوا بأصابع السبابة أخطاء تاريخية، بينما تعرَّف آخرون على أنفسهم فيها.

الفرات لم يكن يُرى من تدمر، لكن ألم يكن هذا (بترونيوس)، الذي مات هناك تحت حوافر الخيول المدرعة؟ والقيصر في قتاله الثنائي مع (كانابادوس) قطع أذنه اليسرى وليس اليمنى بكل تأكيد. غير أن الرسامين هزوا الأكتاف. لقد بدأوا العمل قبل أيام من وصول الجيش، وبأمر من المستشار، اعتماداً على معلومات مختصرة عن أخبار نصر القيصر، وقد سمحوا لخيالهم قبل كل شيء أن يسرح.

رأت زنوبيا على قطعة قماش قطني في مواجهتها فارسة مقاتِلة ضخمة على عربة قتالٍ في غاية السرعة، ظهر أنها هي نفسها المقصودة من العرض. لم تحمل سوى خوذة وجلد نمر مرقط. ردّت بذراعٍ مرفوعة محارباً بلحية حمراء كان يطاردها وقلبت عينَيها، كادت تضحكُ على هذا المنظر، أو نصف عارية بجلد نمرٍ مرقط، كركر صوت امرأة مستأنسة في ذاكرتها، صوت

Twitter: @ketab_n

(كليليـا). فجأة مثلت أمام عينيها تلـك العصرية في تدمر ثانية. (كليليا) وهي استندتا إلى أعمدة الرواق، ونظرتا إلى البدو وسخرتا من دون همّ من ملابس معركة الاسـكندرية الوشـيكة الوقوع، بينما الريح الدافئة أبعدت الشـعر عن الجبيـن. كما كان (فابالاتوس) معهمـا. أغلقت عينيها متألمة. صخبٌ خلف الخيمة.

على الدروع ثُبتت هناك صور حياة بطابع خاص، من أسـلحة مسـتولى عليهـا، قُصِـدَ منهـا عرضها علـى الروم أيضـاً. سـيوفٌ ومدافع للقائـد لُفّت ورُبطت على عرباتٍ، ربطات كاملة من رماح وسـهام وبلطات رمي وخناجر رُتِّبت حولها. خشخشتها وصليلها أيقظت زنوبيا في هذا الصباح.

لكـن لا بد أن الأصوات قـد ارتفعت. حيوانات مـن مختلف الأجناس صرخت في حرارة النهار البالغة طالبة الماء. زئير الأسـود هدر في المعسكر فجفلت الخيول. على مقربة من ذلك حاول عدد من سائقي العربات يائسين ربـط مجموعـة من الأيـل بقرون مضروبـة بالفضة وشـدّها أمام عربـة قتال. جفلـت حيوانات الغابة، ونفرت ضاربة في هلـع لا يمكن وصفه نحو جميع الجهـات، باحثة عن الخلاص من المقـود المزين بالأحجار الكريمة التي لم تعرفهـا. لم تدخل الحيوانات في سـرج ولجام من قبـل. لكن لأن العالم كله في روما عرفَ أن رئيس قبيلة كاناباودس كانت عربته القتالية سُحبت من قبل مجموعة الأيّل هذه، بذل الرجال كلّهم جهداً.

بعيداً في المقدمة ارتفع صخبٌ آخر. صرخ آمرٌ إلى أن انبحت حنجرته عند محاولته فرض النظام على الفرق التي انفرط عقدها.

«الآن إلى السـرية الخامسـة. ألا يوجد ممثل للسـرية الخامسة هنا؟ إذاً هيـا، أيها الأحمق، تعال إلى هنا. هذه هـي التوجيهات لكم. كونوا في الثانية عشـرة عند البوابة، انتظموا إلى اليسار، واصطفوا خلف العربة ذات السبائك الذهبية، واضح؟ قفوا كلكم هنا. ولا تأتوني بعد الآن بسؤال وما إلى ذلك». نظر ثانية إلى لوحات الكتابة نحو الأسفل. «السرية السادسة؟».

«هنا»!

«هكذا، أوه، أطلقوا المدافع، هذه هي الورقة. أنتم محظوظون، وصلتم

Twitter: @ketab_n

مباشـرة بعد الشـابات الأسـيرات، منظرٌ غريب. لكن تذكروا، الشيء الوحيد الـذي ينبغـي أن تعرضـوه بقـوة للشـعب هو رماحكـم، مـاذا، أيهـا الخنزير العجـوز؟ هَـيْ هَيْ هَيْ هَيْ». تنحنح: «السـرية التاسـعة؟»، بـدا الرجل ربما معروفاً إلى زنوبيا. قلقٌ منسـيٌ منذ زمن بعيد، نشـط عندها مجدداً عندما جاء مراقبٌ، مرّ قريباً جداً منها: حتى أنها اسـتطاعت شـم رائحة الثوم منه، عندما شـزرها، التفتت إليه. الحرس عند مدخل خيمتها أمسـكوا رماحهم متقاطعة في وجهه لكنه صرخ بهم:

«سـنتريو ديسـيميوس بوميونيـوس (بالبـوس)، المسـاعد الخـاص للقيصـر والمكلـف المباشـر بتنفيذ احتفـال النصر». أجابوه بتحية عسـكرية لكنه أشار بالنفي:

«أريد فقط أن أرى، لا عليكم، أنا أعرف الصغيرة»، توجه إلى زنوبيا:

«ربمـا كان علـيَّ في مـا مضى قطع رقبتـكِ الرقيقة أنـتِ وأخيكِ». كوّر قبضته، عندما تذكر أنه ما زال يحمل ندبة على رقبته من القتال ضد(گـاش). وسـوف لا ينسـى العار «كان بالإمكان توفير عمل كبير علـى القيصر. لكنكِ رغـم ذلـك قُبض عليكِ. لا عليكِ، لـن أُوذيكِ، عليّ الانتبـاه إلى الطلبات». فتـح حافره ثانيـة وطبطب على خدِّها. بصقت زنوبيـا تلقائياً بقوة وبامتعاض شـديد من دون أن تفكر. سـقطت البصقة على كتفه فقط، لكن هذا كان كافياً ليجعل منه مخيفاً وغاضباً. بدا واضحاً للحرس، أن هناك خصاماً لم يُحسم. (بالبـوس) وعكس ما كان متوقعاً لم يظهر عليه أي ردة فعل ليضربها. مسـح البصقـة مـن على درعـه بقطعة مـن معطفه ونظـر والشـرر متطاير مـن عينيه مـرة أخـرى إلـى زنوبيا وابتعد مـن دون كلام. سـحبت زنوبيا السـتارة بقوة. وقفـت مرتجفـة وسـمعت خطواته تبتعد. وسـرعان ما توغـل صخب أفراح الاسـتعدادات إليها. تصاعد الهلع فيها بعد إدراكهـا أنها كانت فعلاً هي التي عليها أن تكون بعد ساعات قليلة هناك.

لحظة من ذكريات رفرفت في مخها، صوت خبا أثناء ذلك.

«مهما يحدث أيضاً، خسـارة أو خضوع أو موت. لديكم القوة للوقوف أمامـه برأس مرفوع». (لونجينوس)، الألـم قطع فيها كسـكّين حادة، فأجبرها

Twitter: @ketab_n

على النزول على رُكبَتَيها وخفضت رأسها.

«كلا، لا أستطيع»، همست، «في هذه الحال أخطأت، حبيبي، أيمكن استيعاب هذا؟»، ضحكة هستيرية امتزجت بشهقة بكاء. (لونجينوس) في الشهور الفائتة منعت أي تفكير فيه، لئلا تحنّ. الآن رأته فجأة بكل وضوح أمامها: وجهه اليقظ المتفتح الذهنية، الرغبة في السخرية في عينيه، وهدوؤه المسيطَر عليه، الذي طالما أثارها. (لونجينوس)، ماذا كان قد قال؟ «إذا ما وجد المرء نفسه أمام موقف لا خلاص منه، ويعلم أن عليه الاعتماد على نفسه فقط، عندئذٍ يكتشف قدرات نفسه، التي لم يكن يتخيل أنها ممكنة. هذا هو الاحتياطي لحالات الحرج».

اعتدلت زنوبيا. «لنرَ بعد ذلك، إذا كنت هذه المرة أيضاً على حق، يا فيلسوفي»، تمتمت بين أسنانها. «أتمنى هذا لكلينا». بعد ذلك بقليل رمى إليها أحدٌ بصرة ملابس إلى الداخل وأمرها أن تلبس بسرعة. زنوبيا ذهبت إلى هناك وفتحتها. كان رداءً حريرياً أحمر كاللهب، مطرزاً بكثافة بزينة من ذهب، كان هدية لها مرة من شابور. كان يحمل في ذلك الوقت شريطاً من أحجار كريمة على جبينها. بيأس ضمت هذه القطعة التي وجدتها ثانية كجزء من الماضي إليها. حتى العطر، الذي ارتفع من ثناياها، كان كأنه القديم نفسه.

كان الوقت ظهراً تقريباً، وكانت قد انتظرت وقتاً طويلاً لا يُحتمل عندما دخل (بالبوس) مع بضع جاريات خيمتها. أقامها باستهانة وقرر شامتاً، إننا لم نقدم بعد للشعب الرومي العرض المناسب.

«لا بد من إضافة شيء فوق هذا»، أمر وأشار بإحضار حوض برونزي مليء حتى الحافات بالمصوغات اللامعة. بعض منها ظنت زنوبيا أنها عرفته ثانية. حرك يده فيها فالتقط بسرعة أغلظ القطع. تحملت زنوبيا بلا حركة مرور القبضة الخشنة بها. النهايات الحادة للقلائد جرحت رقبتها، عضت على أسنانها بتجلُّد، لا ينبغي أن يخرجها مرة أخرى عن طورها.

«هذه هنا، وهذا، وشيءٌ على الرأس، لآلئ في الشعر وهكذا. مهلاً»، لوَّح بقبضته لينبّه إلى ما قصد، «هيا، اسرعوا، سرعان ما يصلها الدور». مما

Twitter: @ketab_n

أراح زنوبيا، أنه توجه للانصراف. لكنه التفت مرة أخرى.

«ولا تتبولي ثانية إذا ما أمسككِ أحدٌ بحدة، مثلما حدث في لقائنا الأول، هذا ليس تصرفاً لائقاً، أمام الناس». واختفت ضحكتها المرتاحة.

اشتغل النساء بصمتٍ وبهمة. مشابك ارتبطت باردة وثقيلة حول ذراعِها. مفاصل أقدامها نفسها زُيّنت. قلائد من ذهب غطت صدرها بكثافة كدرعٍ، والتفت عدة مرات حول خصرها. شعرها الأسود غطته عصبة رأسٍ، حبالٌ من لؤلؤ وتمائم مزينة بالجواهر ثقُلت إلى حد الألم فاعترضت:

«لا أستطيع أن أتحرك. كيف لي أن أمشي بهذا الحمل؟»، لكنها لم تتلقَّ جواباً.

بعد أن تمت الإجراءات في النهاية وفرغ الحوض تقريباً، وقع نظرها على سوار مخفي، عمل بسيط وبدائي، غريب بين الجواهر الأخرى، عرفته فوراً ثانية: قزمٌ بلا وجه ولا جنس، ورغم ذلك شديد التأثير ونادرٌ بين المرصوفات على اليد. سوار أُمها! مدّت يدها إليه ولم يمنعها أحد أن تلمسه. أروي لي قصة، (آتاي)، فكرت، النومة الأخيرة آتية قريباً، لكن الوقت إلى هناك سيكون طويلاً عليّ.

عندما جاء الحرس تعثرت وهي مثقلة بالذهب، كأنها نصب آلهة متجهة إلى الخارج في الضوء. الأحجار الكريمة التهبت في الشمس كأنها اشتعلت. المطلوب أن تشبه ظاهرة وهاجة ولمّاعة، فقد ساد الصمت حولها. نظرت زنوبيا في الوجوه، وجوه غير مبالية، وأخرى فضولية، وأخرى معجبة وأخرى مقطبة. لم ينتبه أحدٌ أنها تصببت عرقاً بشكل لم يُحتَمل، وأن القلائد أدمت جسمها من الآن. لا أحد همه الأمر. المرأة، الانسان زنوبيا كانت قد ماتت منذ شهور. كانت الحيوان الضحية المتكبر الذي يجب أن يُساق إلى المذبح. قفز فجأة إلى وعيها بألم أنه سوف لا يكون موتاً شخصياً جداً.

القلائد الذهبية رُبطت إلى عربة قتال، زُيّنت بالزهور. بدأت تترنح بعد أمتار، عندما لاحظت أن رجلاً أُثقل بالطريقة نفسها مشى إلى جانبها. نظرت إليه، انحنى لها قليلاً:

«نسمحون تيتريكوس، غاصب الغرب».

Twitter: @ketab_n

«زنوبيا» تمتمت منهكة، «غاصبة الشرق».

«يبدو لي»، لاحظ (تيتريكوس) بفروسية متعَبة، «الدينا كثير من المشتركات مع بعضنا. أنا آسف جداً أن تعارفنا، لا يمكن أن يستمر أكثر من اليوم بعد الظهر».

لم تجب زنوبيا: ومرّا في بورتا سلاريا.

توقعت زنوبيا أن ترى روما، لكنها رأت الروم بدلاً من ذلك. هنا وقبل البساتين الموسَّعة وسالوست وقف الناس متزاحمين بشدّة، جلسوا على الأشجار والجدران والهياكل وتعلقوا من شبابيك البيوت الصغيرة مثل الخدم. روائح كريهة من عرق وبول ودهون رخيصة. احتفل الروم بعيد شعبي. تدافعوا وتضاحكوا وصرخوا وكافحوا من أجل مكان أفضل وأشروا من دون جدوى إلى بائعي النبيذ الحامض والسجق، وفتحوا طعامهم الذي جلبوه معهم، وتحدثوا إلى جيرانهم وأمسكوا بأطفال صغار تبولوا، كانت الفوضى في الشوارع فظيعة، لكن المواطنين صبروا في الأزقة على المنصات: أرادوا رؤيتها، زنوبيا التي أُلفت حولها الحكايات، الملكة المحاربة، الساحرة، الشريرة من الشرق.

حملقت زنوبيا إلى الوراء في روما ذات آلاف الوجوه القبيحة، من غير الممكن تجنب نظرتها. في كل مرة قفز من بين السجاد الملون للوجوه واحدٌ إلى الخارج، وصار باختصار واضحاً مستمتعاً، منفعلاً وغير مبالٍ وغبياً. أكلوا وشربوا وضحكوا وغنوا وحملقوا فيها.

هذه الحفلة الماجنة المقرفة، فكرت زنوبيا في هلع متصاعد، ربما تكون حفلة تشييع جنازتها! كلا لم تشأ أن تموت تحت أنظارهم، لم تُرِد الموت، من دون أن تتمكن من مسك أفكار واضحة غير هذه. تعثرت بالجدار من شدة الصخب، الشيء الوحيد الذي ركزت عليه هو أنها ما زالت على قيد الحياة ولم تُرد أن تموت!

«كيف أبدو؟»، بانفعال نفشت (ليفيا) رداء القديسات الأبيض اللامع، ومدّت في الوقت نفسه رقبتها إلى موكب النصر. وقفوا عند طريق ساكرا بجوار معبد فيستا، قرب قوس نصر أوكوستوس، حيث الموكب صار

Twitter: @ketab_n

أبطأ. (بوبايا) أخذت موقع استطلاع متقدم إلى الأمام. (أودو) غطى قدر الإمكان (ليفيا) التي دُفنت بين الأعمدة الخشبية للمنصة. مختبئة جيداً عن عيون الوجهاء الجالسين خلفها، لكن بدا لاحقاً وكأنها أتت للتو من القاعة المفتوحة لفيستا، كأنها رأت الأسيرة صدفة، فجرت أمام قدميها.

«ليس المهم كيف يبدو المرء وإنما إلى أين يرمي». رد عليها (أودو)، ليس أقل انفعالاً. ضمها إليه وأحس بها ترتجف». لا تسحب البرقع إلى الأمام بعيداً هكذا، لقد عملتَ هذا مرة في ما سبق، أو؟»، لم يكد يستطيع الوقوف هادئاً.

«هل أنت مجنون، لماذا توجد محاكم؟ من أجل أن أُفشلَ حكمها؟ إشارة الرحمة الإلهية خرجت على الموضة يا عزيزي. يجب أن أكون مجنونة حتى أشاركهم هنا. من خلال نظرة الفيستالية يُنقذ المرء من الإعدام، ها! (أورليان) سيأمر بإعدامي، لأنني اعترضتُ طريقه وبعد ذلك هي. كان بإمكانكَ إيجاد وسائل أخرى لتتخلص مني». أخذ (أودو) يدها بيديه ونظر إليها:

«أشكركِ أنكِ تفعلين هذا»، قال، «سأشكركِ طوال حياتي وأنا مسرور. حبيبتي. ويؤسفني أنني أضطرّ إلى طلب هذا منكِ». نظر إليها عميقاً في عينيها. لكنها حررت نفسها منه، ورتبت بتغنُّج واضح برقعها.

«(أودو)، أنت تعلم كيف نحن النساء نحب أن نُستعمل...».

«أتريدين أن تتزوجينني؟»، همس في أذنها. حملقت فيه.

«هل أنت مجنون؟» قالت لاهثة، «يجب أن أبقى عشر سنوات كمدربة في المعبد». بعض الناس نظروا إليهم، نظرا بسرعة إلى الأمام، كأنهما ليسا معاً.

«أجل، ثم ماذا؟»، نفخ (أودو) من زاوية فمه، «في هذه الفترة عليَّ أن أوفر حتى أحرر نفسي».

«لكن حتى ذلك الحين سأكون امرأة مسنة..».

لم تستطع إكمال الجملة، لأن (بوبايا) تسللت عبر الجموع وصرخت «إنها قادمة! إنها قادمة»! وكذلك فوقهم على المنصة ارتفعت الأصوات.

Twitter: @ketab_n

أقدام ضربت على الخشب، عندما قفز الجالسون، و(ايليا دروسيلا) صرخت بصوتٍ عالٍ امتدّ عبر الساحات وفوق كل الرؤوس.

«السحلاة قادمة، إنها قادمة»! حتى (بويتا) الذي أسِف على موافقته، تقدم إلى الأمام، بينما حاول (أودو) يائساً التخلص بالأيدي من الجموع المتدافعة.

«مكان»! صرخ، «مكان لقديسة الفيستا»!

الناس القريبون منها صمتوا، عندما حررت نفسها من كافة الجموع المتجمهرة، وتقدمت في طريق المرأة الغريبة. توجهت إلى الناس الذين احتبست أنفاسهم، كأنها عرضت طاسة مقدّسة، وأدارت وجهها ببطء إلى زنوبيا، مروراً بـ(تيتريكوس) المتأفف، الذي ركع رافعاً يديه، لكن من دون جدوى، فقد تجاهلته (ليفيا). إليها: إلى السورية، ثبتت نظرتها الغامضة المتوهجة، بلهجة آمرة أمام أنظار الجميع. الجموع تأففت، الجموع تهامست، (أودو) ضحكَ بهستيرية، وكادت الدموع تنهمرُ من عينيه، بينما عانق (بوبايا)، وطبع قبلة على خدّها المتجعد.

«أليس هذا مدهشاً؟»، صرخ بجنون «أليست هي رائعة؟». وقامت فعلاً بشيء رائع. (ليفيا) كانت حقاً ماهرة. لا أحد يستطيع أن ينكر إشارة الرحمة للآلهة فيستا.

بينما أسرع ناقلو الأخبار إلى القيصر بالخبر المثير، وبلغ الضجيج العام ذروته. عاش المستشار (بويتا) لحظة غيبوبة غير متوقعة تماماً. في وسط الجموع الصاخبة، مغطـّى، طائر مع أحلامه وبزينة مبالغ بها ومصوغات همجية، اكتشف وجهها، عرفه، لا شبيه له. كأنه هنا وجده ثانية، كأنه وحيٌ أو رؤية روحانية. هذه زنوبيا، هذه الحاكمة الغريبة التي وقفت هناك أمامه بكل هيبة كأنها صنمٌ معبود. كانت هي الفتاة التي رآها، لاشك في هذا. تقدم تلقائياً إلى الأمام ليتأملها من قرب. لم يعد يسمع الضجيج من حوله، ولم يكترث بالتدافع. لم يكن هناك شيءٌ سواها. تهيأ له أنه استطاع إجبارها لتنظر إليه، لتعرفه كذلك.

لم يُلاحظ (بويتا) كيف كلمته (إيليا دروسيلا)، كيف تابعت نظرته

Twitter: @ketab_n

مندهشـة. تطلعت إلى وجهه ثانية. وعرفت بإحساسها الداخلي تفسير التغيُّر الـذي أصابه بشـكل صحيح. إضافة إلـى الامتعاض الـذي انتابها دخل حقد حـارق، عندمـا رأت التعبير علـى عينيه الذي حطـمّ كل آمالهـا إلى الأبد. لم تفكـر طويلاً. صرختها اليائسـة ارتفعـت فوق كل الـرؤوس. بصوت صارخ طويل صاحت «كلا»!

لا ينبغـي للعدو أن ينتصر في لحظة الموت. السـاحرة لا يصح أن تبقى بلا عقوبة وتسرق الأبرار، تسرق زوجها. لا يجوز أن يكون هذا، لا يجوز أن يحصل هذا. وقبل أن اسـتطاع (بويتا) إيقافها كانت قد قفزت عبر السـاحات وهجمت على الفيستالية.

«لا تنظـر إليهـا»! صرخـت كأنهـا جُنّـت، «لا تنظـر إلـى هـذه القطعـة القذرة»!

دخلـت المرأتان في عـراك بالأيدي وتلاحمتا، قبل أن اسـتطاع (أودو) الدخـول بينهمـا. بـلا جـدوى تعلق بملابـس سـيدته ليجرها، وقـد ضربت مـن حولها لكنها لحسـن الحـظ لم تميزه فـي هيجانها. تقدم مسـاعدون من أجـل فصلهما عـن بعضهما. حـرّك المراقبون الموكب بسـرعة، قبل ما هدد بالانفـراط. واحدٌ من الأيائل التابعة لكانا باودس لم يتحمل الصخب فتحرر وهرب فزعاً. شـهودٌ رأوه يختفي في أزقة سـوبورا واسـتقر فـي مطبخ، ربما ذكرته زقزقة أقفاص الطيور بالغابة موطنه.

عـرق زنوبيا وزواق وجههـا وعينها وطبقات الزينة ورأسـها النازل إلى صدرها تقريباً جعلتها لا تدرك أي شـيء ممـا حدث حولها. كانت تريد فقط الوصول بسلام إلى نهاية هذه المسيرة. وعندما طقطقت السياط جرّت نفسها مواصلة كأنها في غيبوبة. أحداثٌ مثيرة أخرى.

(بويتا) وحده نظر خلفها. نسي تماماً أن يسرع لمساعدة (ايليا دروسيلا)، ولـم يبعد نظرته عن ظهرها، إلى أن اختفت في ظل أطواق النصر، كما نسـي أن يسـأل نفسه، ماذا كان يريدُ هنا في الحقيقة، كيف قضى كل ما بعد الظهيرة ناظـراً إلـى ما قد حصل أمام عينيه من مسـرحية همجية. كأن الأمر، هكذا بدا له بلا شـك، فهو، في إطـار الترتيبات، جلس هنا بالضبـط وإلى جانب (ايليا

Twitter: @ketab_n

دروسيلا)، حيث تأخر موكب النصر كل هذه الفترة. فقط لهذا السبب كان قد استطاع التطلع بدقة إلى الملكة السورية، مثلما أرادت الآلهة، الفتاة ذات الجدائل المنكوشة خرجت من حلمه فوجدها.

وقف بقلق هنا، كأنه نسي ما الذي أراد فعله أولاً. نبه نفسه للالتزام بالنظام: إنه وجه رآه في حلم ليس إلا. أو العكس؟ بعد عدة دقائق صعد إلى المنصة وأخذ طريقه إلى القصر. لا يجوز أن ينساها ثانية. كان لا بد أن يعلم، ماذا جرى لها.

Twitter: @ketab_n

مثل كليوباترا سابقاً

جلست زنوبيا في إحدى قاعات القصر «الأورلياني» على البلاط الملكي وحملقت في مرآة برونزية. الأثاث الثمين للقاعات لم يستحق منها نظرة. لا المرمر الأخضر على الجدران، ولا الموزاييك الجميل لأرضية القاعات، التي عرضت عرائس راقصة وساتيرنات- مخلوقات شهوانية متوحشة- وفينوس السابحة في مياه الغابة، أو الحرس الخاص للقيصر الذي راقبها، كل هذا لم يؤثر فيها، لم تفكر لحظة واحدة كم كان نادراً أن تُقيم واحدة محكوم عليها بالإعدام في مثل هذا الترف. ولم تعلم، أنها في مجرى الأمور الاعتيادية كانت ستُزج في زنزانة لسجن من المرمر، حيث تُخنَق هناك، كما هي حال (تيتريكوس) في هذه اللحظة. بدلاً من ذلك أتى عدد من الجاريات، أخذن منها تحت أنظار الحرس الخاص المصوغات، طبقة بعد طبقة، كأنهنَّ نظفنَ مائدة احتفال غطتها الفضلات.

حبل مبروم غليظ من اللؤلؤ، سحبوه بخشونة من شعرها، انخلع وتناثرت اللآلئ متراقصة على الأرض. شعرت زنوبيا بأن بعضاً منها انزلق إلى فتحة صدرها، فشدّت فتحة الفستان من دون أن يلاحظ أحد بإحكام حولها، بينما ركضت البنات على ركبهن لالتقاط آخر اللآلئ المفقودة ثانيةً. الحرس الخاص حثهن متبرماً ليسرعنَ. وسرعان ما جُرِّدت رقبة زنوبيا وذراعها. وعندما نزعن منها السوار الذي كان من خزانة أمها، أمسكت به صامتة بقوة. جرته الجارية الأكبر سناً برفق تقريباً. تأفف الحارس الشخصي متذمراً عندما توجهت إليه طلباً للمساعدة، فتركوا لها السوار البرونزي الذي لا قيمة له. وكذلك الفستان سُمح لها بالاحتفاظ به، وكان عند المحزم لا أمل منه، مليئاً بالأوساخ وممزقاً. حوض الغسيل الذي طلبته أُحضر لها بعد

Twitter: @ketab_n

قليل. بعد ذلك بقيت وحدها. بسرعة خلعت بقايا الفستان النَّتنة وجمعت كل اللآلئ التي استطاعت إيجادها من بين الطيات. وكذلك وجدت في شعرها المتعرق والمنكوش بعضاً منها معشعشة، التقطتها وهي ترتجف منفعلة. تأملت خزنتها، مقابل قيمة ما تجمع عند بعض الجاريات اللبقات من رشى صغيرة. بقلبٍ تسارعت ضرباته أخفتها بين وسائد النوم ثم غسلت بعدئذٍ نفسها جيداً. حرصت ألّا يبقى أي وسخ أو رائحة كريهة.

فركت وجهها فصار وردياً وبشعرٍ رطب جلست ثانية أمام المرآة، ونظرت إلى وجهها، الذي بدا عليه الانفعال. كانت خطتها بسيطة: أن تزور (أورليان)، وتعرض نفسها عليه كبديل لحياتها. المفروض أن هذا لم يكن صعباً. حصلت كليوباترا من القيصر على كل مصر في المقابل. ماذا أرادت في المقابل. هذه الفكرة خطرت لها، وهي في طريق العذاب إلى روما، واستولت عليها تماماً أثناء يأسها، حتى لم يتسرب اليها الشك ولو ثانية، ثم ماذا، ماذا بقي أمامها من خيارات؟

كانت مشكلتها الوحيدة في تلك اللحظة كما بدا لها: ليس لديها ما تلبس، يائسة رفعت رداءها الحريري الوسخ إلى أعلى، ثم تركته يسقط على الأرض. لم يكن هناك أمل، أن تعمل منه رداء مثيراً. راحت تدور بنظرها. وقفت وتفحصت ملاءات الفراش، ثم رأت خزانة إلى جوار الباب. ما لم تعلمه زنوبيا هو أنه، على بعد عدد من الممرات، كان القيصر الصامد أمام أعنف الهزات، منزعجاً، في رواحٍ ومجيء، منتظراً، أمام أنوف العاملين معه، اقتراحات لمعرفة ما الذي يمكن عمله مع هذه المرأة الخطرة، التي بحسب المشورة الإلهية لا يُسمح بقتلها. آمر الحرس كان هناك، وكذلك رئيسة القدّيسين، كانت صامتة بإجلال لئلا تتخذ موقفاً مؤيداً أو معارضاً للقديسة (ليفيا) حتى انجلاء الأمر، لمعرفة إلى أين تميل رغبة القيصر. اثنان من أمناء السر الخاصين بـ(أورليان) تصفّحا الملفات القديمة لقضايا رئاسية، لئلا يُتخذ قرار مغاير لقرار إلهي لم تبطله من قبل يد بشرية مطلقاً.

«لو كان البرق صعقها؟»، تأفف (أورليان)، «أو أي شيء آخر لا إنساني».

Twitter: @ketab_n

«دعوها تنتهي في أي سجن»، تدخّل أحد الضباط»، يمكننا بناء جدار حولها، بالضبط حيث هي. لم تمسسها أي يد بشرية»، امتقع وجه القيصر رافضاً هذه النظرة الشريرة، وكذلك هز أمناء سره الخاصون رؤوسهم مفكرين.

سمع (بويتا) الكلمات المليئة بالسخرية اللاذعة التي قيلت، عندما دخل، ولم ينظر في المقابل إلى ضيوف (أورليان). واجه المتحدث بعينيه: ألم يعرف هذا الضابطَ في جلسة المستشارين، الذي شرح لهم عن تدمر؟ محارب قديم، إنه (بالبوس)، إذا كان ما زال يتذكر الإسم بدقة. نشيطٌ لكنه ليس متحدثاً لبقاً.

«لا تهزأوا بالآلهة أيها الضابط، لأن المزاح معها بالنسبة إلينا نحن البشر ليس في صالحنا». وهكذا اقترب ونظر إلى القيصر مبتسماً وبارتياح.

«عزيزي (بويتا)»، نادى (أورليان) الذي ازداد حيوية حين رآه، «صوت التقاليد. تعال انضم إلينا في هذه الاستشارة الصعبة». انحنى (بويتا) واعتذر عن كونه ممثل المستشارية، التي أرسلته ليعرف ماذا يجب أن يحصل مع ملكة تدمر.

كانت هذه نصف كذبة. كان (كايوس سبتيموس سيفيروس)، مبعوث مجلس المستشارية قابله عند سلّم مدخل القصر، وقد اقترح عليه بحذر ترك هذه المهمة المُعقدة له، لـ(بويتا). (سيفيروس) في المقابل يمثله في الاحتفال الذي أقامته (إيليا دروسيلا) بمناسبة النصر مساء اليوم. (سيفيروس) كان رجلاً من الذين قدّروا مطبخها المعروف في المدينة بجودته، لذا لم يتأخر ثانية فقبل المبادلة.

«لا أريد أن أحرمكم المتعة»، قام بذلك مجاملة، غير أن الفرحة كانت ظاهرة عليه.

«ليس هناك في العالم أيها الأعز (بويتا) ما يحرمني من الذهاب. سيكون الحفل بالتأكيد رائعاً ومليئاً بالفضائح، ولقد سمعت عن حالات حب صاخبة في المنتدى. هل ضربت فعلاً سيدة فيستالية على وجهها؟»، لم يجب (بويتا)، لكن سيل كلام المستشار لم ينقطع. «ربما كانت مستعدة في الحقيقة لقتل

Twitter: @ketab_n

السـورية شـخصياً، الآلهة تعرف لماذا، إنها في الحقيقة وبالفعل امرأة بطبائع غريبة. زودونا بالأخبـار حال معرفتكم أكثر: ليس ثمة مبعوث يُرجى انتظاره أسـرع منكم. أخباركـم طازجة جداً، وكان دم زنوبيا على شـفاهكـم، معذرة». ضحك على نكتته الصغيرة. «لأنه سينقلها بكل تأكيد لكن كيف؟»، هنا غرق (سيفيروس) في أفكاره. ودّعه (بويتا) بأدب.

«حتـى القيصر وزبانيته مدعوون، وقد أكّد قدومه إذا ما انتهت الجلسـة في الوقت المناسب، فسأرافقه إلى (دروسيلا) وسترون كلينا اليوم هناك».

«آخ، هَـيْ، هَيْ» نـادى الآخر خلفـه، «أصحيحٌ أن (دروسـيلا) تريد أن تعلن مساء اليوم خطبتكم؟»، لكن (بويتا) لم يعد يسمعه مطلقاً.

«ربما المفروض بكم أن تتزوجوها». كان (كلاوكوس) أحد أُمناء السر الـذي قدم هـذا المقترح. قطـبّ (أورليان) وجهـه. كان هذا في نظره مقترحاً نمطياً لا يصدر إلا من واحد من المتآمرين. صار يمشي جيئة وذهاباً مثل نمر في قفص، المسـألة بكاملها أزعجته. لقد هزم هذه المرأة في ميدان المعركة. نصرٌ جاء بعد قتال شـديد، نصرٌ شـريف. ليس لديها حق أن تسبب له إزعاجاً بعـد اليوم. نظـر إلى (بويتا) باحثاً عن مسـاعدة، لكن هذا أوضـح له فقط أنه هو أيضاً ناقش هذا الزواج في الجلسـات الخاصة على أنه مرغوبٌ فيه. «إذاً فاجعلوها عشـيقتكم». تمسـك (كلاوديـوس) بفكرته، لكـن (بالبوس) تهيأ لمخطط خطر أمامه:

«السـيدة ليست من طرازه. ألا تفهم هذا؟»، ثم التفت ثانية إلى القيصر. «أرسلوها إلى جزيرة بلا ماء- بقليل من الماء»، صحح لنفسه عندما رأى نظرة (أورليان) الصارمة، لكنه لم يخفض عينيه: أراد أن يرى الصغيرة تموت.

«(بالبـوس)، لقـد أنهَينـا هـذا الموضـوع». رد عليـه (أورليـان) بعـدم ارتيـاح. ثـم رجـع ثانية إلى مشـية النمـر. «سياسـة ملعونـة»، تقـدّم بغضب إلـى قاعـدة المصباح، دلفيـن محملق. أُمناء السـر قطبوا الجبيـن مهمومين. سيكون مساءً طويلاً.

زنوبيا في غرفتها التفتت مجدداً إلى المرآة. وجدت أخيراً شـالاً شـفافاً ورديـاً بلون أحمر نـاري فاحت منه رائحة رخيصة، وكشـف عـن أن الملجأ

Twitter: @ketab_n

الـذي هـي فيه ربمـا كان مخصصاً كغرفة ضيـوف لأغراض المتعـة. لم يغطِّ الملفح شـيئاً علـى الإطلاق، ومنح لحمها لمعاناً متوهجـاً أرجوانياً. ولمَ لا، فكرت. هذا هو المطلوب بالضبط، ومبتذَل نسبياً، ربما كان هذا ذوقه تماماً. تطلعـت عميقاً في عينيها، زمّت شـفتَيها لابتسـامة مغريـة، وكركرت بانفعال عندما انزلقت.

بأصابع مرتجفة فرّشـت شـعرها، إلى أن أحدث خشخشـة مثلما فعلت (آتـاي) من قبل. بدا لهـا تقريباً كأن على الحاضنة العجـوز الحضور إلى هنا فجـأة، لتتنـاول نـهَدَيها مـن يدها، وتستفسـر باهتمام وتملق، مـاذا جرى في رأس حبيبتهـا. نظـرت ثانية إلى نفسـها، إلـى عينيها، واندهشـت أنها لم تقرأ شـيئاً فيهما. لا شـيء مما قد عانته ولا شـيء من القلق الـذي عبث بها الآن، ولم تستطع أن تقرأ في وجهها شيئاً عن المستقبل.

«كلا، (آتـاي)»، تمتمـت، «أنـتِ غيـر موافقـة ثانية على ما أنـوي فعله. سأذهب ثانية إلى رجل. فقط هذه المرة بلا أوهام، صدقيني، أيتها الحاضنة، أنـا أعلم ما ينتظرني هنـاك. لكني أريد أن أعيش، أتفهميـن؟ وفراش القيصر ربما هو فرصتي الوحيدة لهذا. هل أنتِ غاضبة مني، (آتاي)؟».

برغبة شديدة تمنت لو ألقت هذه المرة رأسها في حضن العجوز وبكت كطفلـة. لكن الغرفة خلفها كانـت فارغة. أبعدت زنوبيا تلك الأفكار الكئيبة، وركزت ثانية على ما نوت عليه تماماً.

«سـأفتـنه»، قالت في نفسها، «سـوف ألفه مثلما لفت كليوباترا القيصر. سـوف لا يجد طريقـاً ليتنفس». وفجـأة جاءها الوحي: خلفهـا على الأرض امتدت سـجادة كبيـرة كفاية. ربما سـتعملُ مثل كليوباتـرا، وتطلُب أن تـلَف بالسجادة وتُحمل إلى القيصر، مباشرة إلى مخدع نومه، قبل أن يستطيع أحد منع هذا. الحرس أمام بابها يمكن رشوتهم، يجب أن يكونوا كذلك ببساطة. غطّت نفسـها جيداً بشـعرها قـدر المسـتطاع وفتحت جناح الباب الخشـبي الثقيل، لكنّ ما فاجأها أن لا أحد هناك لحراسة المحسوبة على الموت. فقط بعيداً أمامها رأت في الممر عبدَين. أسـرعت عائدة إلى الغرفة، علقت كيس اللآلئ حول رقبتها، رفعت حافة السـجادة إلى أعلى فأحيطت بسـحابة غبار.

Twitter: @ketab_n

جرّتها بمشقة إلى الباب وعلى امتداد الممر.

«هالـو»، نـادت «هَـيْ، أنتـم»! عندمـا رأت وجـوه الرجـال الفضوليين السمجة، لفّت شعرها الطويل إلى الخصر بسرعة، بحيث غطـّت ما لا بد من تغطيته. الاثنان لم يرتاحا بعد من دهشـتهما من هذا، أن يلاقيا في ممر القصر امرأة شـبه عاريـة، جرت خلفها سـجادة، هنا لاقتهـا الصدمـة التالية. طلبت منهما أن يدخلوها ملفوفة بالسجاد إلى غرفة نوم القيصر.

«أجل. ولكن لماذا؟»، سأل الذي أذهله الأمر.

«مهلاً، لماذا إذاً»! سأل الآخر باستخفاف، وترك نظره يمر بها مستعرضاً من أعلى إلى أسفل.

«هكـذا»، قصد الآخر وضحك بقـذارة، «واضحٌ أنا أفهـم لماذا طبعاً». وكركرَ كأنه قال نكتة نادرة. لكنه بعد ذلك انفجر فجأة:

«لماذا نحتاج لهذا سجادة؟»، وقبل أن يستطيع زميله أن يخبره بتخميناته المتعلقـة بهذا الأمر. اسـتلـّت زنوبيا لؤلؤة ورفعتها بيـن أصابعها إلى أعلى، مـدورة ذات وميـض. قبل أن يمد الرجل الأول يده تلقائياً ليمسـكها، سـبقته وأخفت الثمن الغالي في يدها.

«مهلاً، إن لها أسـبابها المعقولة»، ونظر الأول شـزراً وضرب زميله في أضلاعه. «أغلق فمكَ»! بعدها جرى الحوار بسلاسة.

«اثنتان لكل واحد».

«عشرون»! قال الأول، بعدها بدأ رفيقه بالعد على الأصابع.

«خمـس لآلـئ»، ردّت عليهما زنوبيا فـي المقابل. وأخيـراً اتفقوا على ثمانـي لآلـئ لـكلٍ منهمـا، وسـلمتهما زنوبيـا الكيـس وتمددت علـى حافة السجادة.

«ولماذا لا تمشـي أصلاً؟»، سـمعت الرجل الثاني ما زال يسأل، بعد أن أخمد النسـيج السـميك كل صوتٍ، شعرت بنفسـها مرفوعة وأحسّت بإيقاع خطـى الرجـال، لكن مـا زال حفيف الدم وحده يُسـمع فـي أُذنيهـا. وبعدئذٍ توقفا. سمعت زنوبيا ضربة ثم لا شيء بعد ذلك.

«لأي شـيء بعثتكمـا أيهـا الغبيـان إلـى المطبـخ»، صـاح المراقب في

Twitter: @ketab_n

وجههما، «كي تجرا هنا سجادة؟ في هذه اللحظة تحضران أمام (كلاوديوس) أو أدبغ جلديكما. لكن بسرعة هيا». أسرع الاثنان خائفَين تحت تهديد ذراعه المرفوعة في اتجاه جناح المطبخ.

«لكننا لانستطيع تركها ملقاة هنا»، همس أحدهما متأثراً.

«ولـمَ لا، لا بد أنها ستصل، كما يبدو عليها»، زمجر صديقه، «والآن أصمت، اللآلئ معنا».

«لكن إذا لاحظت أننا رميناها في غرفة ضيوف فارغة، أفلا تطالب باسترجاعها، هَيْ؟». كل ما حصل هو لطمة على الوجه.

«أوه، لماذا؟».

«لا تسألني ثانية أبداً، لماذا، أتسمع؟»، زمجر زميله وركض في اتجاه المطبخ.

«هَيْ، (كنايوس)، انتظرني. لماذا تهرب من الأمر؟ (كنايوس)»!

غرفة الضيوف التي رمَيا فيها حملهم بكل سرعة، لم تكن فارغة. بعد مشاورات طويلة وبلا نتيجة، قبل (بويتا) العرض، أن يبيت في القصر، ودخل منهكاً. شتم عندما تعثر بعائق، وأوقد المصباح البرونزي في الغرفة، وتطلع إلى اللفة بدقة أكثر. (بويتا) لم يكن مفاجَأً، مثلما كان المفروض أن يكون، عندما تدحرجت أمامه الملكة التدمرية عارية وفاقدة الوعي. رفع اللهب أقرب: الآن حيث وجهها بلا مساحيق، وفي النوم صار طفولياً من جديد، رأى بكل وضوح وبلا أدنى شك: لقد كانت الفتاة الشابة الخارجة من حلمه، حتى شعرها كان منكوشاً مثل السابق. بحذر سحب الشعر من وجهها ثم حملها إلى الفراش وغطّاها. لم يفكر كيف وصلت إلى هنا. لقد كانت هنا واستمتع بالحظ غير المتوقَّع، أن سُمِحَ له برؤيتها.

أما عن مشاعره، فليس لأحد الحق في محاسبته. كان متأثراً طبعاً، لكن أليس هذا، هكذا طمأن نفسه، طبيعياً عند النظر إلى امرأة جميلة عارية؟ ما زاد في تشويشه أكثر أن وجودها كان بالنسبة إليه مألوفاً للغاية. وأنه في الحقيقة قد قرر أن لا يتخلى عنها ثانية، كان هذا أمراً لم يستطع الاعتراف بهِ إلى نفسه أول الأمر.

Twitter: @ketab_n

«وبهـذا لـم أتكلم معها بعد، ولـو مرة، ولا حتى كلمـة»، تمتمَ، ثم أطفأ المصباح ونام إلى جانبها وغفا.

استيقظت زنوبيا في الظلام. لم يطـُل الوقت، حتى استطاعت أن تميز معالم الأشـياء. تنفس رجلٌ إلى جانبها. لم تتحرك زنوبيا وفكّرت. لا بد أنها فقدت الوعي عندما كانت في لفة السـجادة، ربما بسـبب شـح الأوكسجين. وهـؤلاء الخائفـون الحمقـى قـد ألقيـا بها إلـى جانب القيصـر النائـم. لفترة أنصتـت غير واثقة إلى أنفاسـه وتشـممت بحذر عطره: لم يكـن غير مقبول. انحنـت فوقه واسـتطاعت أن تميز منظره الجانبي الحـاد، إذ قد تعودت على الظلام. ذكّرها بألـم ولذة في الوقت نفسه بـ(لونجينوس).

عندما لامسـت شفتاها شـفتاه فزِعَ واستيقظ بصراخٍ هادئ. لكن بسرعة غريبـة ذاب فمـه تحت فمها بقبلة اسـتمرت أطـول فأطوَل. شـعرت بذراعه حولها واستسـلمت راغبة لشـعورها بالدوار. من كان يظـن هذا. أكان أقرب ما يكون إلى التفكير الذي دار في رأسها.

Twitter: @ketab_n

عندما يستيقظ النُوّم

كانـت ليلة غير هادئة لروما، ليس بسـبب عربـات الحمل، التي جهزت كافـة الدكاكين والأسـواق فـي داخل المدينـة، والتي كالعـادة جعجعت من السـاعة الثالثة صباحاً في الشـوارع، بينما مُنِعت هذه أثناء النهار، ربما بسبب العدد الكثير وغير المُعتاد لعُشـاق سـهر الليالي، ممن ملأوا الطرقات اليوم. صارت السـماء شفافة. وما زال ضجيج عرض بقايا الأثاث القديمة المنقولة مـن البيوت، التي، بحسـب الأعراف القديمة الهزلية، سُـحِبت خلف موكب نصـر القيصـر. جزارٌ من سـوبرا، كأنه قطعة لحم ضخمـة، بلحية صناعية من صوف ماعـزٍ أحمر ناري، وبإكليل غارٍ هائل على الجمجمة، سـكب بحركة عنيفـة نبيـذاً على رفاقـه الذين علِقـت عليهم فضـلات الدباغـة، بينما أحاط الغوطيون المتوحشـون بعربة النصر. كانت عربة مراحيض متنقلة، مسـحوبة بواسـطة حمار على رأسـه قرون أيّل. بأفواه فاغرة اشـرأبّ «الغوطيون» نحو قربـة النبيـذ، التـي جعلها القيصـر الفظيع تتمايـل فوقهم بحركات سـكران. حاولـوا لعق المطر الأحمر. رمى قربة الجلـد الفارغة في وجوههم وتأرجح راجعاً إلى عرشـه، الذي تكسّر من تحته. نهق الحمارُ ومرَّ: ولحقت اللعنات بالحيوان المُعذَّب.

(مينيسـتر)، ممثلٌ قديم بسـاقين حَليقتَيـن ونهد عُمِل مـن مثانة خنزير، تدفـق منه النبيذ على الجموع، مثـّل زنوبيا. تراقص مكركراً وأنبت الكعب التمثيلي في البطن المترجرجة لجلالتها المتهاوية. وبضرطة أخيرة مدّ الجزار ذراعه وسـاقه. رفعوا مهللين قيصرهـم عالياً على الأكتاف. حملق من فوقهم فـي السـماء الباهتة، أخرج لسـانه المضيء بشـدّة من وجه مـزوق بالأحمر. سـرعان ما وجدت المجموعة خمارة، محلات كثيـرة ما زالت فاتحة أبوابها

Twitter: @ketab_n

اليوم. عزف الموسيقيون وصرخ الضيوف عالياً، ولم يكترثوا لاعتراضات المستأجرين الذين لم يناموا في الجهة المقابلة. بين الحين والآخر رُمي مرحاض مملوء من يد مواطن منزعج مخترقاً سقف عريشة، ما أكد الرغبة الصريحة في الحصول على هدوء. القطعة الجميلة تكسّرت على منضدة، ولوثت عدداً من الشاربين، صرخوا مادحين صاحب الخمّارة، أن جلب لهم أخيراً رغم كل شيء قطرات مشروب فاخر إلى المنضدة.

العاهرات تحت أقواس المسرح الرومي المدرّج اشتقنَ إلى ضوء النهار، حتى يُرِحْنَ ظهورهنَّ المجرحة من الحك، فينمنَ. موظفو المدينة تحركوا متعبين مع الرقع الشمعية في قوائم الحسابات الطويلة، التي أدرجوا فيها الكنوز التي جلبها (أورليان) إلى الوطن. طوال الليل حمل جنودٌ سلالاً وسلالاً مارّين بها إلى سرداب معبد سيرس. النقود والمصوغات والأسلحة، طوال الليل في ضوء المشاعل مرّت الصفوف الطويلة محدثة جلبة، والآن استقرت الجبالُ في الشكل المطلوب، واستطاع الموظفون إيقاظ عبيدهم الذين انتظروهم بصبر على المدرجات ليذهبوا إلى البيت. ما عادوا في حاجة إلى مشاعل، لكن من دون مرافقة لم يكن مستحسناً وقت الفجر لأي رجل من الطبقة الراقية أن يتجرأ الدخول وحيداً في متاهة الشارع، إذا كان يريد الاحتفاظ بخواتمه وأصابعه التي تحملها.

في شارع أشجار الكمثرى كان مثل هذا الخطر هذه الليلة مستبعداً، (إيليا دروسيلا) أمرت بإنارة الطريق حتى بيتها لضيوفها. الآن لامس اللهب المرتجف باللون البرتقالي أُفقاً وردياً.

ضوء النهار الأول أضاء الحفر التي امتلأت نبيذاً أمام الباب لتُرى. صمتت الموسيقى في الداخل. وأصوات خطوات عددٍ من المتثاقِلين في طريقهم إلى بيوتهم اختفت. ثم تدحرجت العربات فقط.

صار الوقت نهاراً وغطّى ضوء الشمس الأرض الحجرية، عندما استيقظت زنوبيا. تمطت بين الوسائد، نظرت إلى الغبار الذي تصاعد متراقصاً فوق سجادٍ متكور، وتضاحكت في داخلها مستمتعة. لقد كانت، كما ظهر لها، متعة الحياة. تمتمت بأغنية ماجنة، انزلقت عميقاً في برودة

Twitter: @ketab_n

الفراش، وعادت إلى حلاوة النوم. امتصت برغبة عارمة جسم الرجل الراقد جنبها. خليط بالعرق، لكنها أحبته رغم ذلك.

بعيونٍ مغلقة رفعت أنفها على طول ذراعه صعوداً وشمشمت في منخفض رقبته. الذراع طوقتها، وهمهمت زنوبيا بأصوات عبرت عن رضى واقتربت منه. كان شيئاً لا يُصدّق، لكن ذراع قيصر روما كانت كأنها وضِعت لأجلها. تركت أصابعها تداعب شعر صدره الأسود. شيءٌ ما أربكها، وأخيراً فتحت عينيها: أسود، كان الشعر أسود! اعتدلت زنوبيا في جلستها على الفراش، وتطلعت في عينين بُنيتَين، نظرتا إليها بحب، في وجهٍ غريبٍ تماماً.

«أنت، ليس عندكَ عينان زرقاوان»، تعثرت بالكلمات فزعة. الرجل الذي أمامها لم يكن القيصر مطلقاً.

«كلا». أجاب (بويتا) باسماً، «أعليَّ أن أكون هذا؟»، وانحنى إلى الأمام ليسحبها إليه ثانية. غير أن زنوبيا كانت خارج السرير. أوه، اللات، الرجل الخطأ. هلعَة بحثت عن ملابسها وأمسكت أخيراً روباً ممسداً بعناية، لفَّتْه حولها بسرعة. بينما كانت تحاول لبس القماش، توجهت راجعة إلى الرجل الغريب، وقالت له بغضب «إحذروا أن تقولوا لأي أحد كلمة عما حصل». تعثرت وارتطمت ساقها بشدة بمصباح برونزي، وكانت خارج الباب قبل أن يستطيع (بويتا) أن يرد بكلمة. أسرعت قدر ما استطاعت ومشت تعرج عبر الممرات، تمنت لو تمكّنت من العويل غضباً وخوفاً: الرجل الخطأ، وليس القيصر. كيف ستنقذ حياتها؟ لم تفكر زنوبيا ولا دقيقة في هذا الأمر وكيف تورطت في هذا الفراش الغريب، ولماذا ومع من قضت الليلة الأخيرة. لا بد من أن الذين حملوها قد أخطأوا. كرهت العبيد الذين حملوها إلى هناك. كرهتهم بحقدٍ ومن دون عقل، بينما واصلت السير مسرعة. أين كانت غرفة النوم القيصرية، يجب أن تكون في مكان ما، يا لكل الأرواح الشريرة؟ يجب أن تذهب ببساطة إلى (أورليان). سألت أحد العبيد آمرة، ومشت في الطريق الذي دلـّها عليه، أخيراً دخلت بعنف تقريباً بين حارسَي الباب المستغرِبَين ووقفت أمام سريره.

Twitter: @ketab_n

وهـو في نومه، رفع (أورليان) رأسـه. المرأة على ذراعه الأيسـر صدّت مقطبـة عنه. نظـرت زنوبيا إليهـا وإلى الاثنتيـن الأخريين ولحمهما الاسـود التصـق بالقيصـر الذي كان مذهـولاً. شـعرها المفتّل تعلق بوجـه (أورليان) النعسان، عطس.

رجعت زنوبيا وركضت في أحد الممرات، هبطت مقابل الجدار وبكت غيـر مكترثة بشـيء، محمرة من الخجـل، وملفوفة برداء كانـت عارية تحته. اثنان من الحرس عثروا عليها وأعادوها إلى غرفتها.

يقظة (بويتا) كانت أقل إثارة. منذ ليلة أمس، الحدود بين الواقع والحلم اختفت عنده في كل الأحوال. لم يسـتطع تفسـير انفجار زنوبيا المفاجئ، إلا أنـه عـزا ذلك إلى قلة خبرته في النسـاء. بإصرار طرد الشـك في أنه قد رُفِض وفضـل أن يعيـش ذكريـات استسـلامها لـه تلـك الليلـة. ولم يشـأ أن يعرف أسـباب الاستسلام. ألم يكن الليل برهاناً لارتباطهما. ألم تكن قد وفت بكل التعهـدات لذلـك الحلم الغريـب؟ الذي لم يسـتطع في حينها تفسـيره، عاد (بويتا) مستنداً إلى الوسائد، وحاول أن يتذكر.

هذه الفتاة في حلمه زنوبيا الشـابة، هي كذلك نادت باسم، لكنه لم يكن اسـمه. كان رأى ثانية وبوضوح الدهشـة فـي عَينَيها، عندما رفع رأسـه. لكنه لم يعد يتذكر رنين ذلك الاسـم الآخر. وربمـا لم يكن ذا معنى: لقد أتت إليه في الحلم كما في الواقع. وكان سيمسـكها. وشـعر كيف أن ما حصل أنعش مشاعره. ربما لم يكن هو الذي فتشت عنه، لكنه هو الذي كان عليها أن تجده بحسـب رغبـة الآلهة التي بعثتها إليـه. لقد أعطاه حلمه الحق فـي هذا. الليلة الأخيرة أعطته الحق، ليفكر هكذا. كيف يمكن أن تكون الأمور أوضح، على ارتباطهم ببعض؟ ألم يكن أمراً غير مهم ما بحثت عنه؟ عينان زرقاوان...

غارقاً في تفكيره مسـح بيده على الوسـادة، التي ما زالت تحتفظ بدفء زنوبيـا. الذكريات عبثت بـه ودفعته إلى نقطة، توقف عندهـا كل تفكير. كان عليـه أن يشـعر بهذه المـرأة ثانية بين ذراعيه، أن يسـكر مرة أخرى بنشـوتها، ليعيـش... صورٌ غير اعتيادية، لا سـيطرة عليها، ولا يمكـن وصفها، أغرقت وعيه. نهـض (بويتـا) من الفـراش باحثـاً عن القيصـر. فقد وجد حـلًا لأزمة

Twitter: @ketab_n

الدولة الأخيرة، وجد حلاً ليعرضه عليه.

استيقظ (بالبوس) في هذا الصباح برأس دائخ ولسان جفّ في فمه. لكن يده التي امتدت إلى قربة النبيذ، ردّت خائبة. جرعة الصباح المعتادة لم تكن في مكانها المألوف. شخيرٌ عالٍ جعله يتلمس حوله. رجل رقد إلى جانبه، رقد بفم مفتوح على ظهره، وجهه ملطخ بالأصباغ، ذراعان وساقان ممدودة كأنها عيدان لجسم نحيف، تحت هذا الجسم المترهل خصلٌ جافة لشعرة الذكر، صارت رمادية وقفت في الهواء، ترك (بالبوس) جسمه يهبط إلى الفراش ثانية. كان ذلك واحداً من الصباحات التي يخشاها أكثر من معركة. لماذا كان عليه أن يشرب بهذا الإسراف؟

تذكر بغموض أُمسية الأمس. لا القيصر ولا المستشار أعربا في نهاية المحادثات عن أية رغبة في الذهاب إلى حفل النصر الذي غلفته الإشاعات التي سببتها تلك الشيخة الرومية، ماذا كانت تُدعى أصلاً؟ (دروسيلا)؟ (إيليا دروسيلا)! بلحظة خاطفة عاد إلى التذكُّر؛ كان عليه أن يُنجز شيئاً مهماً. شخير نوم قطع سلسلة أفكاره. كتم (بالبوس) أنفاسه قلقاً، إلى أن تأكد أن أنفاس الرجل عادت منتظمة. ثم نهض بحذر وتأمل ملابسه. كيف استطاع أن يرى في هذا الحطام صبياً؟ ارتدى ملابسه وهزّ رأسه. حليبٌ مراق، ما هذا، أي مساء كان هذا!

هو أيضاً جذبه احتفال (إيليا دروسيلا) مساء أمس: بعد كل المنغصات، قدّمت هي على الأقل الشراب مجاناً. كانوا حمقى كلهم، فلم ينصتوا إليه، وتركوا المرأة السحلاة تعيش. هذا المستشار لوكوس كورنيليوس (بويتا)، ذكر (بالبوس) منظره المهيب والمتصنع بـ(دوميتسيان) رئيسه التدمري، كما أنه كان سيداً رقيق الطباع. ألم يبذل جهداً كذلك إلى جانب الضفدعة السورية الصغيرة؟ لم يعرفوا ما فعلوا. والآن (دوميتسيان) مات وهو، (بالبوس)، عاش ما أكد صحة آرائه. وهذه المتهتكة زنوبيا لا داعي أن تصدق أن المرء هنا في روما سيلمسها بقفاز. لذا أراد أن يقول، لم تبصق عليه بلا سبب. لم يكن ضابطاً صغيراً بلا نفوذ. أوه، سوف ترى العجب.

في مثل هذه الأفكار المشوشة توجه (بالبوس) بعد وصوله إلى احتفال

Twitter: @ketab_n

(إيليـا دروسـيلا)، وجلس أول الأمـر إلى المنضدة. تنـاول كميات كبيرة من أحسـن أنـواع نبيذ فاليرنا. لم يكـن النبيذ رديئاً، لكنه لم يرتفـع به إلى المزاج المطلـوب. لم يكن الحضـور ملائماً له، كان راقياً أكثر مـن اللزوم، ومتكلفاً بالنسبة إلى ذوق (بالبوس)، وهناك كثير من الإناث المتكبرات.

حقـق (بالبـوس) في حمـلات (أورليـان) العسـكرية ثـروة صغيرة من الغنائم، ولبس الآن معطفاً بالحاشـية الأرجوانية. معطف الفروسية، لكنه لم يبحـث بعد عن مدخـل إلى المجتمـع الرومي، أو لم يجـد: كان مثل قيصره نـادراً مـا حضر مناسـبات في رومـا، والمناسـبات الاجتماعيـة القليلة مرّت كمثيلاتهـا، ولـم تكـن مرضية مثل اليـوم، لأنه اليـوم رقد وحـده على أريكة الطعـام وكان مبعداً عن المحادثات. فليبقـوا بعيدين عنه، إذا ما نظر حوله لا يجد جندياً يمكن أن يبادله بعض الخبرات الاعتيادية، ولـم يكد يرى شاباً هنا: الطيـز الضراطـة الوحيدة في القاعة كانت لعبد أشـقر جلس على مقعد فضي ممسـكاً بليرة. كان مسـتحيلاً التحدث إليه من دون لفـت أنظار الآخرين. مر عبدٌ مع طبق بفطيرة محشـوة بلحم طاووس وقدم له شـيئاً. (بالبوس) مد يده إلـى الطعام وانكب بلا خجل على قطعة مـن اللحم المزينة بريش الطاووس الأصلي. انهار الشـكل الفني للطبق تحت أصابعه، ما دفع واحدة من جيرانه على المائدة إلى أن تنظر اليه باستهجان.

ثم تواصل جريان جدول الإشاعات بنشاط كالسابق. في البداية اصطاد بعـض كلمـات. ماذا سـمع هنا، سـيدة البيـت قيل إنها مسـاءً ستُخطب إلى المستشـار لوسـيوس كورنيليوس (بويتا)؟ لقد كان بالتأكيـد هو الذي وقف إلى جانب زنوبيا. هاها، والرجل لم يحضر. لقد كان يعلم بالتأكيد أنها بيضة فاسدة. أرملة غنية تُرفض! ازداد فضوله وشنف آذانه أكثر.

«... لكـن أجل، يـا عزيزتي، عندمـا أقول لكِ لقد أحدثـت ضجة. ماذا تظنيـن، لماذا لم تحضر إلى المائدة حتى الآن، بينما هي فيما عدا ذلك، نريد أن نكـون صريحيـن، لـم تترك فرصة من دون أن تظهـر لامعة أمام الآخرين».

المتحدثة توقفت عن الكلام لتتناول فطيرة.

«مـاذا تعنيـن؟ صارمـة جـداً؟ كلا، أنـا لسـت صارمـة مع (دروسـيلا)

Twitter: @ketab_n

الطيبة، بل على العكس، كان لا بد من أن يتكلم معها أحد بحزم، وهذا ما عملته قبل الآن. تصوري، حتى رائحة الشرب فاحت منها! لا تحدثي أحداً بهذا أبداً، رجاءً. أنت تعلمين بأية سرعة تتضرر سمعة امرأة تعيش وحيدة. لقد أرسلتها على كلٍّ إلى القاعة المفتوحة لتصحو من سكرها».

رفيقتها هزت رأسها وقالت:

«كنت أقول لها دائماً ما كان ينبغي لها التعمق في موضوع السورية. المبالغة بالتحمس للسياسة لا تعجب الرجال، وبالذات إذا كان مستشاراً، كتب قصائد شعر. أرجوكِ. لنرَ إذا كان سيتجاوز هذه الثلمة، فعليه أن يقدم لها رأس السورية على طبق لينعم برضاها».

«أشك في أنه سيقوم بهذا». أجابت صديقتها بصوتٍ، قال الكثير، «تذكري كلماتي».

«أتعلمون في الحقيقة، لماذا تكره هذه التدمرية هكذا؟»، تدخلت امرأة سمراء من المائدة المجاورة. «لقد سمعتُ أنها رمتها اليوم شخصياً في موكب النصر بالبيض»، على الفور تحول انتباه الجميع إليها. وكذلك (بالبوس) تعلق بشفاه السيدات. بكل شوق نهض من مكانه وتقدم ملاصقاً المجموعة المتهامسة، بحيث استطاع فهم كل ما قيل. لقد كان هذا بالفعل موضوع حوار مهم له. في الساعات الأخيرة لم يسمع إلا القليل من الأشياء المشجعة. بدا تقريباً كأن له واحدة قريبة روحياً منه. لم يلاحظ أبداً كيف حاولت السمراء أن تنسحب بهدوء من تقرُّبه المفاجئ.

«سيدي»، كلّمه مستشار أكبرُ سنّاً، «أكون شاكراً لك إذا لم تقترب إلى هذه الدرجة من زوجتي».

كبّ (بالبوس) ما تبقى من نبيذه إلى الأرض ونهض. في المجموعة الصغيرة المجاورة دبّت حركة قلقة. المستشار نهض أيضاً ووتر كتِفَيه. أمسك (بالبوس) بتلابيبه ورفع قدمَيه عن الأرض.

«نهدا عجوزكَ مهداة إليك، يا وجه الطيز. إنها نتنة مثل حبات الزيتون المنقوعة. جئتُ باحثاً عن سيدة البيت، إنها امرأة تلائم ذوقي وليست أرستقراطية..». الصخب المرعب من حولهم جعله يتوقف. أعاد خصمه

Twitter: @ketab_n

بحذر على قدميه. بارتياح توقف هدير الكلام العام ثانية.

«سيدة البيت»، توجه (بالبوس) بالكلام إلى مسؤول البلاط الذي أسرع مغتماً، «أين هي؟ أريد أن أسلم عليها». أشار العبد إلى باب. دفعه (بالبوس) جانباً وسلك الطريق إلى قاعة البيت المفتوحة.

هناك جلست (إيليا دروسيلا) عند حوض الماء، وحملقت في الغزالين. لقد تناولت إضافة إلى إسرافها في الشراب أشكالاً متعددة من المواد المنبهة، وقد كانت آلام رأسها لا تُحتمل. لكن الأسوأ في الموضوع كان أنها، تحت وطأة الآلام، قد تحول كل غضبها إلى شفقة على نفسها لم تفارقها. تأملت الغزال البرونزي والدموع سالت من عينيها.

«كان يجلس هنا»، قالتها لنفسها بلوعة. «في هذا المكان المفتوح الهادئ، والآن استلمته الخطيئة الأرجوانية في شباكها. آخ، لو كان هناك بطل كأبي فينقذه لي». صخبٌ قطع عليها تأملاتها، التي لم تفق منها بعد تماماً. رفعت نظرها غير راغبة.

ما رأته خلف الحوض واقفاً، كان رغم المنديل حوله أقرب إلى بطل اقترب منها كثيراً، بصدره المتلألئ بالدرع، ووجه ذي الندبِ التي دبغها الجو. (إيليا دروسيلا) حلمت في قلبها كيف كان مظهر الأبطال، ليس بحسب أوصاف معلمها أفلوطين، بل على الأكثر بحسب أمها. هذه المرأة التي أنكِرت من قبلها طيلة حياتها. كان لها في حياتها المهنية الطويلة في الجيش كثير من الأبطال أمثال هؤلاء ناموا معها في فراش واحد، وقد أحبتهم جميعاً، الآباء الكثيرون لابنتها: من الغريب كيف انتعشت هذه الذكريات عن ذلك الزمن المُهمَل فيها. ورغم ذلك، ألم تلمس كذلك في (بوبيتا) دائماً المحارب القديم الرشيد؟ مشتتة الفكر رفعت لـ(بالبوس) المنديل الملطخ بالمرق.

«ديسيميوس بومبونيوس (بالبوس)»، قدّم نفسه، «المبعوث العسكري الخاص للقيصر إلى الشرق وتدمر»، أضاف إلى ذلك من أجل تأكيد موقعه لغير المهنيين.

«أتجلبون لي أخباراً عن مناقشات القيصر؟ وهل ستكون له نظرة ثاقبة

Twitter: @ketab_n

أخيراً؟»، أرأيتم (بويتا)، كادت تضيف، لكنها استدركت. (بالبوس).

«إنها المأساة، أن القيصر في هذا الموضوع متحير تماماً»، أجاب (بالبوس)، «أنا أعرف هذه المرأة، صدقوني، لا أحد يعرفها أحسن مني، إنها عُرِضت على أنها غير مؤذية»، وجع رأس (إيليا دروسيلا) طار كله فجأة. اقتربا بعضهما من بعض بسرعة. (بالبوس) روى لها عن فترة تدمر، عندما سار وحده على امتداد حدود الأمبراطورية، فارسٌ شجاع صبر تحت الحر والرياح. مضيفته أثبتت أنها مستمعة متفهمة. إذاً فقد أخبر بالتفصيل كيف بحث مع المحاربين الروم، في القلاع، في موضوع نهاية العالم. كيف قاتل من أجل هؤلاء الرجال في مستنقع الخيانة الشرقية. كيف أنه في مصلحة الدولة حاول كشف فساد زنوبيا الجنسي. كيف أنه، وهو البصير، سعى ضد عمى مسؤولي الروم المتساهلين بلا جدوى، مثل النبيل رئيسه غير العارف بالنتائج، لهذا السبب مات بين يديه.

تعلقت (إيليا دروسيلا) بشفتيه، إذاً، ذكر هو أيضاً فوق ذلك (گاش) الذي كان أخاً قوياً وشريراً للساحرة السورية، انتصر عليه في القتال وجهاً لوجه، وكيف عاش كرئيس قبيلة عند البدو، وتخلص من دسائس تدمريين إلى أن احتاجت إليه روما. وكيف ضرب بعدئذٍ إلى جانب (أورليان) أسوار تدمر، وألقى الملكة التي توسلت لإبقائها على قيد الحياة في السلاسل. كيف عرضت نفسها عليه، وأوقعته في شباكها، وكيف ردّها باسم ميتراس*، إذ كان العدل والظلم في هذه الأرض، وأطفال العدل تجولوا في الضوء، وأطفال الظلم كانوا من مادة الظلام وأشباح الفوضى، وانتفض، الطيب والشرير. ثم تناول جرعة من النبيذ الذي جُلب أثناء ذلك. هنا تقريباً تعلقت (دروسيلا) بثقلها على ذراعه.

«أطفال الظلام، تأففت، معلمي أفلوطين حدثني كثيراً عن ذلك، عن حقيقة أن ضوء الفكر لا يصل إلى الجميع.

نظرت إليه بإعجاب. «لكن تبين لكم أن رجل البدلة العسكرية، مع

---

*) ميتراس: تعني بالفارسية الوفاء والالتزام بالعهود والضوء: إله نبلاء الحرب، ظهر في ايران قبل الزرادشتية التي حاربته فاختفى بعدها، ثم ظهر مجدداً كجزء من فكرها.

Twitter: @ketab_n

ذلك، تميز بهذه الحكمة..». مسحت على يديه وهي غارقة في أفكارها. «الخير والشر، أجل. لم تستطع هذه الأفعى أن تقهركم».

استند (بالبوس) إلى الخلف برضى، وترك ساقيه مسترخيتين.

«أسد الميتراس لا يُخدع بفنون شرير. آه، كان بإمكاني الحصول عليها، لكني كشفتها». (بالبوس) بدأ يشعر بارتياح. «أنا لستُ وغداً مثل هذا الرجل الذي هو الآن عند القيصر يتوسل للإبقاء على حياتها. ربما هو مفتون بها. كلا، لن تغلبني بعيون السحلاة، مثل (بويتا)».

«لوسيوس فيكيليوس (بويتا)؟»، كوّرت (إيليا دروسيلا) قبضتها، «(بويتا)، هل انتم متأكدون؟».

طقطق (بالبوس) لسانه وهز رأسه. «لقد أوقعته تماماً في شباكها، ذلك المسكين الحزين، أن يكون المرء مجبراً على رؤية مثل هذا لا سيما مع ضابط قديم». لقد راقب تأثير كلماته في عيني المرأة إلى جواره. لا يمكن أن تكون أكثر تأثراً.

في وجه (إيليا دروسيلا) لم تبقَ قطرة دم، عيناها صارتا غامقتَين من الغضب، ويداها أمسكتا بمساند أريكتها. والآن أُضيفُ شيئاً آخر، فكر (بالبوس):

«كان القيصر في البداية ما زال غير واثق، إلى أن أوهمه المستشار (بويتا) بحديثه عن حكم الآلهة، الذي لا يمكن رفعه. أما هي»، التف بحماسة بعد ذلك، «فقد تلوّت وتمددت أمام الاثنين واستطاعت بلسانها...».

لم يستطع أن يواصل بعد ذلك. صراخ (إيليا دروسيلا) الجنوني ورجة الارتطام التي سببها رميها الأريكة في الحوض جعله يتوقف.

«الإنسان الوسخ، القذر، الخنزير»! تنفست عميقاً. نظر (بالبوس) إلى قاعدة الكرسي، مرتفعة بين ورود البحر. موجات صغيرة ارتطمت بالغزال.

«لم يكن تصرفاً طيباً تجاهكم، أليس كذلك؟» سأل في لحظة الهدوء.

«هذه الأنثى يجب أن تموت»! (إيليا دروسيلا) لم تستطع سوى الهمس، ثم عاد الغضب بكل قوة، «يجب أن تموت، أتسمعون؟»، صرخت وأمسكت بمعطف (بالبوس).

Twitter: @ketab_n

«بشفاهها ستمتص لسانه وستفتح فخذيها الشهوانيتين وتضغط نهديها الرطبين بالعرق على يديه». بدأت تلهث. «سوف تنبت أظافرها في ظهره عند كل دفعة، أوه، أنا أسمع ضحكات الجحيم». نزعت الباقي من ردائه وضغطت بجسمها إليه. «بإمكانكم منع هذا، أليس كذلك؟ بإمكانكم فعل شيء في المقابل، قولوها»!

أبعدها (بالبوس) بقوة عن جسمه. أية طاقة تستطيع الإناث أن تنتج. لكن هذه العجوز المثارة هنا يمكن أن تكون فعلاً حلاً لجميع مشاكله. فهي مستعدة تماماً لأن تنفذ تهديداتها، ما دام المرء محافظاً على نارها مستعرة. تمنى (بالبوس) لنفسه حسن الطالع كمستكشف جيد.

«الآن الزموا الهدوء»، هزها، «لديكم بضعة شبان أقوياء بين عبيدكم؟ من هؤلاء الذين لا أسف على خسارتهم؟».

حملقت(إيليا) في وجهه بقلق مريح. حدقتاها توسعتا. «أجل»، همست، ثم كررت قولها مرّات «أجل، أجل، أجل»،

«حسناً»، أجاب (بالبوس)، «سأوجّههم». نظر شزراً في سره. كان الأمر بكل بساطة مضبوطاً. لا القيصر ولا هو سيلطخان أيديهم. بإمكانه البقاء خلف الكواليس، وإذا ما حدث خطأ، فقد كان كل شيء من تدبير هذه الشيخة المجنونة، التي عرفت عنها روما كلها، إلى أي مدى كرهت هي زنوبيا. ربط (بالبوس) الأمور شكلياً. في كل الأحوال قد يأخذ معه هذه الطيز المهتزة مع القيثارة، التي لفتت نظره في قاعة الطعام. مثل هذه التسلية المشتركة ربطت الرجال بقوة. ذبابتان بضربة واحدة، قالوا في هذا طبعاً. (إيليا) في قبضته كررت متنهدة: «أجل، أجل، أجل»، يدها وجدت الطريق لإثارة شهوته، لكن كل تفكيره انشغل بالتخطيط لمشروعه، فدفعها عنه.

«أنا قادم غداً إليكم للغرض نفسه». قال متذمراً، «اعملوا على أن تكونوا وحدكم، منصرفين عن كل شيء»، تمتم بنفسه وترك احتفال (إيليا دروسيلا). مضيفته هبطت أمام حائط الحوض، بينما انصرف، وهمست بلا توقف بعينين مفتوحتين وسعهما: «اقتلوها، اقتلوها، اقتلوها..».

Twitter: @ketab_n

المبارزة الاخيرة

اعتدل فجأة مزاج (بالبوس) بعودة الذكرى. أي مساء كان مساء أمس! يجب أن يذهب فوراً إلى القيصر بهذه الفكرة العظيمة الجديدة. مشى وهو يصفر في الأزقة، التي أنعشها الصباح. كانت هناك رغبة في العيش في هذه السُرّة المليئة نشاطاً لهذا العالم، للمدينة ذات الألف إمكانية. لو كان هو الرجل الذي يمسك بها. أخذ وهو يمشي تفاحة من كشك فلاح، ورمى إلى الرجل قطعة برونزية، وعض بصوت مسموع في الفاكهة، وكانت حلوة وطرية. لكنه علم في القصر أن (أورليان) كان في المستشارية ليخبر الهيئة رسمياً عن نجاح حملاته العسكرية. (بالبوس) شتم غاضباً، وامتطى حصانه، كان يجب أن يتكلم مع (أورليان)، قبل أن يكون هذا نفسه قد اتخذ قراراً حول زنوبيا. الحركة قبل الظهر كانت نشطة وأشد زحاماً داخل المدينة في هذه الأثناء. ومزاج (بالبوس) هدأ كثيراً. تجنب الحلاقين الذين حلقوا لزبائنهم على قارعة الطريق، ودفع نساءً مثرثرات جانباً، وأسقط بمعطفه المهفهف بعناية أهراماً من الفاكهة ارتفعت على مناضد تجار الفواكه، ولم يكترث للشتائم التي تبعته.

من بعد كان بإمكانه أن يرى مجلس المستشارية يُزار كثيراً في هذه المناسبة. الستمئة مستشار، الذين أتوا، إلى هذه المناسبة، منهم من أراد التخلص من الزحام، فراح يتسكع أمام المبنى جيئة وذهاباً، واستمر على هذه الحال على السلالم، كأنه نورس على رأس سمكة تزاحم الرجال في معاطفهم المشرقة البيضاء قلقين أمام المدخل. وبحوارات متعددة اصطدمت بهم أجنحة ولا مستهم مناقير. البعض منهم ابتعد عن النقاش، وتجول آخرون كمجموعات صغيرة، أكلوا وعادوا وبأيديهم مرطبات، ليدخلوا مجدداً في

Twitter: @ketab_n

الزحـام. وقفت طوابير أمام المدخل. اقتحم (بالبوس) السـلالم صعوداً إلى الباب، ودفع نفسـه من دون اعتبار عبر الصفـوف الكثيفة الواقفة في الزحام. وصل تقريباً إلى حدود أرضية القصر أمام مدرج الجلوس، بقي عالقاً.

في قاعة شُيدت لتتسع لثلاثمئة فرد، توغل الآن منذ سـاعات ما قارب ضعفـي العـدد. كان الهواء ثقيـلاً، تصاعدت رائحة كريهـة من صوف رطب وثوم. في مكان ما تحت السـقف الخشـبي ربما كانت هناك بقايا أوكسجين، فـي الأسـفل. هنا تنفـس المرء نفسـاً كريهاً من جـاره. أحاديث لـم تخل من حماسـة بين الواقفيـن جعلت من المسـتحيل اصطياد ولو كلمـة واحدة مما أعلن (أورليان) في المقدمة. رأى (بالبوس) بين الرؤوس القيصر ماشياً جيئة وذهابـاً كعادتـه في خطاباته. تحدث ويداه مشـبوكتان خلـف ظهره. ثم تقدم (بويتـا) هذا. مـاذا كان يريد؟ دبّـت حركة في صفوف الجالسـين، وارتفعت هتافـات مفاجئـة. صفّـر أحدهـم بصـوت صـكَّ الآذان: الصفـوف الأمامية للمستشـارين بدا أنها صفقت. الآن يتحـدث (أورليان) ثانية: اللعنة، لا يفهم المـرء أية كلمة. ضرب (بالبوس) الرجل الواقف بجواره على أذنه، وأمره أن يخلصه من ثرثرته عن قبعات حصاد الشمندر، لكن بلا جدوى، لم تصل إليه كلمـة واحـدة مما قيل فـي المقدمة. الظاهـر أن لا أحد منزعـجٌ. خلفه بدأت تتصاعـد رائحة سـجق سـاخن. الآن وضع القيصر يـده على كتِفَـي (بويتا)، انطلـق تصفيق حـاد، ثم ابتدأ تزاحم نحو أبواب الخروج. مواضيع المناقشـة التالية كانت بلا شك أقل جاذبية.

شُـحب (بالبـوس) مع الجمـوع إلى الخارج، واسـتطاع أن يجـد مكاناً صغيـراً للجلوس في الـرواق للانتظار، وكان خلف عمـود. تقدم إلى الأمام عندما خرج (أورليان)، محاطاً بالمتملقين والمتوسلين. بسرعة أخذه جانباً:

«قـل ماعنـدك، يا عزيزي (بالبـوس)»، حياه القيصر مرتاحـاً للمقاطعة. اسـتعراضات سياسـية من هذا النوع لم تكن ضمن الأشياء المحببة إليه. كره الأشـياء غير الملزمة. كانت نظرته إلى البزة العسكرية وسط الجموع البيضاء مريحـة له أيضـاً. «لقد افتقدتكم صباح اليوم. أين كنتـم؟»، انحنى (بالبوس) عسكرياً بشكل سريع:

Twitter: @ketab_n

«كنت أبحث عن حلٍ لمشاكلنا، يا قيصري وسيدي، وقد وجدته». قطب (أورليان) جبينه. كثير من الرسميات لا يبشر بخير. لكن (بالبوس) اقترب خطوة أكثر وواصل بصوتٍ منخفض لجوج: «لقد وجدتُ امرأة تكره السورية، تفهمون، أحب ما إليها أن تراها ميتة، وتريد استخدام قَتَلَة». نظر مرة أخرى حوله، فيما لو كان فضوليون أحاطوا بهما وشنفوا الآذان. بعد ذلك عرض نقاطه: «الآن يحتاج المرء فقط إلى أن نهيئ له الزمان والمكان، أليس كذلك؟، على المرء أن لا يعلم، لماذا؟ ثم إن زنوبيا ستُقتل من قبل شخصٍ آخر، ويبقى بعيداً، ولم يكن هو الفاعل. تفهمون: لا دم على أيديكم. ولا ضرورة أن تعرفوها حتى. كل ما عليكم أن تسمحوا لي..».

«(بالبوس)، (بالبوس)»، قاطعه القيصر، «لقد أعلنت للمستشارية، أن المستشار لوسيوس كورنيليوس سيتزوج الملكة. سينسحب من مناصبه ويذهب إلى ضياعه في صقليا. سوف لا نراها ثانية».

وقف (بالبوس) وكأن الرعد مسّه. الإنسان القذر كان فعلاً مفتوناً بالسورية. كان يعرف إذاً. وقد كان أذكى مما تصورت. لكن بحق ميتراس، كلاهما سوف لا يفلت منه.

«وهو الأفضل»، دخل في الكلام فوراً، «ثم سوف لا يسقط أدنى أثر للشبهة عليكم، لأن..». قاطعه (أورليان) بتكرار. وقد رأى من زاوية عينه شخصاً مقترباً.

«أنا أقدر إخلاصكم»، قالها بتأكيد وبصوتٍ مسموع وواضح، «لكننا من خلال نكران الذات وإخلاص لوسيوس كورنيليوس، قد تحررنا من هذا الهم. أليس كذلك؟»، قال الكلمات الأخيرة مع إيماءة رأسٍ، تأييداً لـ(بويتا)، الذي تقدم في تلك اللحظة، ونظر أثناء ذلك إلى عيني (بالبوس)، الذي أومأ بتردد. ثم توجه بانحناءة ثانية إلى (بويتا).

«صباحاً رائعاً أيها المستشار، سمعتُ للتو أنه صباح عرسكم؟»، وهل سيقيم حفل عرسه في هادس. ابتسم (بويتا)، لم يستطع غير هذا. كانت التهنئة الأكذب. لقد سمع هذا الصباح كثيراً من نوعية هذه التهاني القذرة. ذكّره بسعادته القريبة. وجه الخروف، شتم نفسه، بنظرة الشزر الأبدية هذه،

Twitter: @ketab_n

لكن أي خروف سعيد بين هذه الذئاب.

«أنا أهنئ» واصل (بالبوس)، «أتريدون مغادرة روما من اليوم؟».

«أنا مسافرٌ الآن إلى ضيعتي في جبال برنستر». أجاب (بويتا)، «من أجل إكمال الاستعدادات الضرورية. عروسي». ثم توقف قليلاً وكرر بكل كبرياء بعدئذٍ: «لعروسي ستكون في الحراسة إلى هناك». بدأ (أورليان) يتضايق، رفع قدماً وأنزل أخرى. وتنحنح (بالبوس).

«سيكون شرفاً لي، أن أتولى هذه المهمة»، لكن القيصر تدخل:

«كلا، كلا. أنتم لا، (بالبوس)، أنتم أحتاج إليكم مساء اليوم». بهذا عرض على (بويتا) أعرض ابتسامة.

«كما ترغبون، أيها الأمبراطور، أيها المستشار». انحنى (بالبوس) مجدداً أمام (بويتا)، وانصرف بسرعة مرتبكاً. ماذا بحق ميتراس توقع القيصر منه الآن؟

انتظر (بالبوس) طوال اليوم في مقرّه. ثم بقي هناك متأخراً حتى ما بعد الظهر، رمى سكيناً عالياً وتلقفها من قبضتها ثانية من دون جرح، لكن لم يأتِ حتى الآن أمرٌ من القيصر في طلبه. نظر (بالبوس) مجدداً من الشباك، لكن لا أحد كان يشبه رسول القيصر، تسلل في الطريق إليه عبر الزحام. إلا أن سحباً أنبأت بجوٍ سيئ، تجمعت فوق المدينة، وهددت أن تزداد كثافة في وقت مبكر. ها، قد سقطت أولى القطرات. باردة ومتتالية.

سحب (بالبوس) رأسه مغتماً إلى الوراء. بدا أن (أورليان) لم تكن لديه مهمة له في ذلك المساء. في كل الأحوال، لم يأتِ أحد. فكر (بالبوس)، وتناول جرعة كبيرة من قربة النبيذ المعلقة على عمود الفراش، الذي أراد مخاطبته بكلمات: ما المقصود من هذا؟ أخذ جرعة ثانية، ثم قرر فتح الخزانة الجلدية بجوار السرير التي ضمت مخزن الأسلحة الخاص به. ذكرى لحملاته العسكرية الكثيرة وغنائم حربية، وبلطات من سكيت*، وعظم فخذ مطعم بالبرونز بأشواك طويلة، وخنجراً بنصل متموج، وقوساً

*) قبائل عاشت في الماضي عند البحر الاسود والدانوب.

Twitter: @ketab_n

نارياً ومفرقعات لفارس بارتي*. وكذلك مواداً مستعملة في الحياة اليومية الرومية: سيفٌ بثلاث مدبّبات استُخدِم في عروض المبارزة الرومية القديمة، وقفاز مزود بالحديد استُخدِم في الملاكمة، وسكاكين مختلفة أمكن دسّها في حذاء إضافة إلى تجهيزاتٍ عسكرية.

استخرج سيفاً قصيراً وخنجراً، لفهما بعناية في معطف قديم. لا يجوز أن يصادفه الحرس داخل سور المدينة حاملاً سلاحاً. لكن علبة محكمة الشد بحبلٍ قد لا تثير انتباه أحد في هذا المطر. ثم سلك بها طريقه في شارع أشجار الكمثرى. والآن على (إيليا دروسيلا) أن تفي بما تعهدت. أيها الطيز المهتزة، أنا قادمٌ، فكر، زنوبيا، أنا قادم. انتظروا، (بالبوس) قادم. خطواته كانت خفيفة كالريش، عندما مشى في الشوارع التي غسلها سيل المطر. وبدأ يصفر مردِّداً أغنية.

تطلعت زنوبيا من خلال صفائح شفافة رقيقة من مادة لامعة، أغلقت بها شبابيك الهودج، كأنما عاصفة هوجاء من ماء مرت في عالم سُفلي. قطرات منفردة من المطر المسائي، سقطت قبل قليل، انحدرت مسرعة إلى الأسفل. خطوات حاملي الهودج على ارتباك الشارع المنقوع، أحدثت صوتاً عالياً وقريباً. بقعة خضراء، ربما شجرة، بضت الصفيحة، امتدّت وتحدّبت بين حُبيبات البلور وعبرت. بعثت السماء ضوءاً شديد الاصفرار إلى الداخل، كتلٌ من الغيوم الكثيفة عجّلت قدوم العصرية.

أرخت زنوبيا جسمها إلى الخلف، نازلاً في الوسائد. ثم اعتدلت فجأة في جلستها ثانية.

ماذا لو...؟ دعكت بشدّة عينيها لتهدئ الثورة في رأسها. اهدئي، قالت لنفسها. ركّزي جيداً، وإلا ستدورين دائماً في حلقة مفرغة. لكن أفكارها سرعان ما تشتتت ثانية. لم تستطع أفكارها حتى أن تلامس بغموض ما عسى أن ينتظرها في هذه الضيعة. أسئلة فقط تراقصت في راسها المسكين. كيف سيكون هو؟ الاسم الذي سُمّي لها لم يعنِ لها شيئاً. فرسٌ مهداة، حذرت نفسها، فرسٌ مهداة، زنوبيا، بالأمس كانت حياتكِ مستهدفة. ما هذا الآن،

*) شعبٌ ايراني قديم تميز بالفروسية في القرن الثالث قبل الميلاد. سكن عند بحر الخزر.

Twitter: @ketab_n

أهـو كرشٌ ثخيـن، أم أنه مخلـوق غير محبوب، أم أخلاقٌ فاسـدة. اسـتولى عليها الخوف، ثم نفضت التخيلات عنها ثانية.

تذكرت رجل مسـاء أمس، من كان؟ ومـاذا جرى لحياتها، وأنها وقعت فـي وهـم، فكأنها مذنبٌ أفلت من مسـاره؟ في مـكان ما في المدينـة الغريبة خلفها سـلّمت نفسها لإنسـان، من دون أي اعتبار، ولم تكن تعرفه حتى! إما شبحٌ أو مشهد في حلم، لا شيء آخر، كانت هذه كل ذكرياتها عن آخر لحظة عاشتها في دفء ورِقّة في حياتها. ما الذي كان قد احتفظ به؟

كسـبٌ أم خسـارة. الرجل التالي في حياتها كان يُدعى بحسب العرض القيصري... اللعنة، كانت قد نسـيت الاسـم! ماذا سـتقول لـه؟ كيف تبتدئ العلاقـة؟ مـن دون رغبة، تحدثت هكذا منذ سـاعات مـع المجهول الذي لا إسم له. أفكارها المتجولة رَسمت، بمجرد أنها ابتعدت عن المراقبة، حياتَها بكلماتٍ وافرة من أجل هذا الشريك الذي لا وجه له، مرة كمغامرة رومانسية ومرة ثانية كمأساة وثالثة كحادثة نادرة أو نكتة متأخرة على السلالم. شكلت وشـكلت بسـيلٍ من الحديث صورتهـا كل مرة من جديد. مـن كانت هي في الحقيقـة؟ ماذا أَمكن أن تكون مسـتقبلاً؟ ثم رأت نفسـها ثانية من بعد كحرم المستشـار، مشـت في قاعة راقية كما في الحلم. بـكل هيبة حملت المفاتيح في حزامها. وأصدرت الأوامر بحزم إلى الخدم. كانت مشـاهد بلا كلمات. يمكن أن تتخلى عن نفسـها، تنسـى نفسـها مثل مشّـاءة في منام تنفذ إشاراتِ أيامها الجديدة، عصية عن الذكريات وعلى الآلام. لم يعد بإمكانها التحدث بصوتٍ عالٍ، ولا المشي سريعاً.

مثـل تمثـال، خطر لها، كالتمثـال الذي أردتُ أن أكونـه عندما كنتُ فتاة صغيـرة. التماثيـل المرمريـة لمدينـة الموتـى تدمـر، اختفت تقريبـاً في رمل الصحـراء الحار. ابتسـامة صغيرة ارتسـمت علـى فمها. ما زلـتُ أعلم كيف جلسـتُ هنا ولامست الريح الدافئة عندما انتظرتُ (أودو). كنت جالسة أمام الإبل على حافة المكان الخالي الكبير. لفّ الحارس نفسـه بالجلابية، ونظر إليّ. ولم يأتِ (أودو)، وكان لديَّ مشمش له.

غريبٌ في الحقيقة، أنه لم يظهر في ما مضى، وغريبٌ أن مرت في رأسي

Twitter: @ketab_n

الآن مثل هذه التفاهات. ماذا كان سيقول (لونجينوس) إذا ما رآني مرتبكة هكذا. إيقاعُ الخطى المنتظمة لحاملي الهودج جعلها تغفو.

جلس (أودو) متكوراً عند شجيرات الغار ذات الأوراق الصفراء والبيضاء، التي ما زالت رطبة من المطر، وانتظر. من خلال الفجوات بين الغيوم، ظهر ضوء النهار أصفر مرة أخرى. ارتفع من الأرض من تحت قدَمَيه دفء رطب جعل التنفس ثقيلاً، وانبعث قوياً عطر الخُزامى.

ليس بعيداً أمامهم، خلف حجر على مقربة من الشارع، مشوا باستهتار، الخمسة المسلّحون الذين هيأتهم (إيليا دروسيلا). أربعة منهم امتلأت وجوههم بالندب، من أشكال القتلة الذين لم يعرفهم (أودو)، والخامس كان معروفاً لديه: (بوليبوس)، البواب. كان يمضغ قصب حلفاء وبدا مرتاحاً. لعل المكافأة كانت مناسِبة تلك التي أمّلتهم بها سيدتهم.

ثمة احتمالٌ ضعيف خطر لـ(أودو) أنْ ستكون لدينا فرصة أن نلتقيها. لم تُظهر (باولا) في الحقيقة رضى، فقد أخطأت في اختيار هؤلاء الحمقى المتوحشين. هزّ رأسه: من غير المعقول أنه بالذات كان عليه الآن أن يوافق مع (باولا)، كأن وجوده هنا أصلاً ليس مشكلته الكبرى.

ارتجف (أودو) خوفاً وانفعالاً. بصعوبة بالغة كتم كركرة انفعاله، أنه كان جزءاً من مأمورية اغتيال زنوبيا! كانت نكتة، نكتة مرة شريرة بقذارة كلب. نكتة القدر واحدة.

لعل كليهما لن يسلم منها. بحقد ضرب يد (بالبوس) جانباً، حين امتدت إلى خصره وبدأت تجول.

«دع هذا»! تجاهل الضحكة الخبيثة للجندي العجوز، وحملق باهتمام في الاتجاه المفترض أن يأتي منه الهودج. لقد ارتجف رغم الحر. كيف أمكن لـ(إيليا دروسيلا) أن تسوق الأمور إلى هذا الحد. لا بد أن المرأة قد جُنّت.

أسنانه اصطكّت بلا انقطاع بعضها على بعض. لاحظ هذا وحاول إراحة الفك الأسفل، لكنه ابتدأ يرتجف من جديد ثم دعك عينيه سوية. اللعنة، قبل فترة طويلة حيث كان قد جلس آخر مرة في غابة. لكن هنا، هنا أمامنا كان

Twitter: @ketab_n

شيء آخر. (ليفيا)، فكر..

(أودو)، لقد تقدمت بشجاعة، عندما وصلك الدور. سوف لن أكون جباناً. وأطلق زفرة أخيرة. يا أيتها الآلهة، كوني رحيمة واحمي (ليفيا).

«ها هم»! (بالبوس) بصق قصبة الحلفاء، التي مضغها وسحب سيفه. لوح به مرة فوق الرؤوس، كإشارة لمساعديه الذين نهضوا فوراً وركضوا إلى الشارع. توقف الهودج. وسُمع حالاً صليل أسلحة.

ما فاجأ القتلة أنهم اصطدموا بحرس قاوموا بإصرار. كان الحرس بحسب علمه قليلين: عبيد الدار التابعين لـ(لوسيوس كورنيليوس)، من دون تدريب عسكري ولم يبلغوا خبرة المهاجمين الحرفية. غير أنهم بدلاً من أن يهربوا عند الإشارة الأولى لبدء المعركة، تناولوا أسلحتهم وقاتلوا بشجاعة. وحتى الاثنان اللذان حملا الهودج سحبا سيوفهما ودافعا عن أنفسهما وعن الجالسة بالهودج بصلابة غير متوقّعة.

«هَيْ، إلى أين تريد؟»، نادى (بالبوس) مندهشاً حين نهض العبد الشاب بجواره بشكلٍ غير متوقَّع وركض إلى المقاتلين. «سينجزون المهمة من دوننا. إبقَ هنا»! ماذا أراد هذا ذو الطيز المهتزة، هنا تحت؟ متردداً، وبعدم ثقة متصاعدة غامضة، امتطى حصانه وطارده. تقدّم (أودو) مسافة أمامه إلى الأول من الاثنين اللذين قاتلا بصلابة في جوار الهودج وطعن الرجل، الذي كاد يغلب حامل الهودج، في ظهره، ولم يستطع إنقاذ الآخر.

«زنوبيا» صرخ. (بوليبيوس) مزق أثناءها باب الهودج، وجرّ امرأة عُضت وجُرحت وضُربت، وعندما هاجمه (أودو) قام بدورة، وصدّ عنه الرجل غير المدرَّب بسهولة.

«أنظر هنا، كلب الأحصان الأشقر»، نظر في استغراب، «ألم تفهم من المطلوب قتله؟»، ضربته التالية فصلت سيف الشاب الغوطي من يده، ثم واصل فأجهز عليه. أخذ وقته في هذه المتعة.

لم يدرك أول الأمر أنه اقترف غلطة مميتة إلا عندما زجّت زنوبيا، التي قذفها إلى الأرض ولم يلتفت إليها، نفسها مع سلاح (أودو) بينهما. استطاعت إعاقة هجومه بجهد، وقامت بهجمة وهمية على رقبته، وعندما

Twitter: @ketab_n

رفـع السـيف عاليـاً تلقائياً دفعـت النصل بسـرعة خاطفة في بطنـه. بان على وجهه وهو يسقط تعبيرٌ، لم يُصدق أنه أُسقِط من قبل امرأة.

«(أودو)» عرفته فوراً ثانية. لقد اتى (أودو)...

القاتـل المأجور الآخر حرر نفسـه من المصاب بجـروح بليغة وركض إليها. زنوبيا خطفت سيف (بوليبيوس)، لأن السيوف الأخرى كانت مغروسة حتى المقبض في أجسام الضحايا. وقفت في مواجهة خصمها الجديد.

«(أودو) ، كلا! آه، اللات»، من زاوية عينها لمحت كيف جاء (بالبوس) إليهـا راكضـاً، وجـرى (أودو) فـي مواجهتـه. لم يكـن بإمكانه ايقافـه بيدين محررتين. الرومي دفع الشـاب جانباً، واقترب بسـيف مسـتل. تعلّق (أودو) بسـاقه فأصابته رفسـة على أُذنه، لكنه لم يتركه. سحب (بالبوس) نفسه، وهو يلعن مع الثقل المتعلق به خطوة بعد خطوة قاصداً زنوبيا، التي ما زالت تقاتل من أجل حياتها. سـمع إيقاع حوافر الخيل أولاً. مجموعة فرسان أعلنت عن نفسها. التفَتَ بعصبية.

«بحق ميتراس، أيها الضفدع، أترك»! سحب خنجره.

«(أودو) ووو»! كانـت زنوبيـا، التـي أطلقـت هـذه الصرخـة. خصمها وآخـر من القتلـة الباقين على قيد الحياة، لاذا بالهرب، عندما تقدم الفرسـان مسـرعين. البعض منهم طاردوهما، بينما اختفى (بالبوس) بلا أثر. جلسـت زنوبيا على الأرض بجوار (أودو).

«(أودو)، (أودو)»! وضعـت رأسـه فـي حضنها ومسـحت بشـكل آلي بتكـرار علـى جبينـه. يدهـا الأخـرى ضغطـت على الجرح، علـى الجانب الأيسـر من القفص الصدري، لكن الدم جرى متدفقاً بلون أحمر قان من بين أصابعها.

أمسك (أودو) مفصل رسغها بشدة، مثلما أمسك قبلها بقدم (بالبوس). كل جسمه ارتعدَ كأنه استند إلى وزنٍ ثقيل. وارتجفت شفتاه.

«ماذا، (أودو)، ماذا، لا أفهم». انحنت عليه مهدئة وأمسـكت يده الثانية أيضاً، التي أمسكت رداءه، بقوة.

«ليفيا» همسَ.

Twitter: @ketab_n

«ليفيا»، أيدت زنوبيا. «لقد فهمتُ هذا. ماذا بخصوص ليفيا؟».

«ليفيا»، كرر (أودو) فقط. لا شيء آخر. ثم ارتخت قبضته. زنوبيا احتفظت بيده الخالية من الحياة بقوة في يدها، بكت بلا تحفظ، ولم تلاحظ شيئاً من الرجال الذين وقفوا حولها، إلى أن تكلم واحدٌ منهم.

«لقد عرفته! إنه عبد (إيليا دروسيلا) المحبب. أكان ضمن المهاجمين؟»، سأل الصوت الغريب.

«أجل»، سمعت زنوبيا حامل الهودج الجريح يُجيب. «لكنه أتى لمساعدتنا. أنا لا أفهم أيضاً لماذا». رفعت زنوبيا رأسها ورأت مجموعة من الناس، وفي مقدمتهم الرجل الذي استيقظت في ذراعَيه هذا الصباح. استولى عليها الإرهاق عند رؤيته. لم تبقَ لديها القوة مطلقاً لتشعر بأي شيء. بامتعاض تأملت مجزرة القتلى والجرحى من الرجال.

«كان صديقاً لي». همست فقط بهذه الكلمات. «صديقٌ من أيام قديمة». وستنتقم له بأية طريقة. ثم تنحنحت، «قائد القتلة كان اسمه (بالبوس)، ضابط. أنا رأيته في موكب النصر».

«(بالبوس)»، فكر (بويتا). نظر إلى زوجته المستقبلية، التي كان في حضنها ميت، لون دمه برقعها بالأحمر، كما تطلب الموقف في الحقيقة. برقع عرسٍ دموي، خطر له. إرث العالم الذي أتت منه. لكن كلا، صحح لنفسه. أنا ظالم. لا قدرة لها على شيء. بحزم توجه إلى مرافقه.

«امتطِ حصانكَ واذهب فوراً إلى المدينة. أخبر القيصر، (إيليا دروسيلا) و(بالبوس) تآمرا لاغتيال عروسي. سأرفع دعوى». أعطاه اسم المحامي والموظفين الذين عليه أن يزورهم، وأكد له أن يجلب خبراً بأسرع ما يمكن.

«وأنتِ، حبيبتي، في حاجة الآن قبل كل شيء إلى حمام دافئ وفراش». بهذا رفع زنوبيا من دون عناء إلى أعلى، وحملها إلى حصانه. كان مندهشاً بأية سهولة حصل هذا. بكل رقة ضمها إليه. عطرها الذي ألِفه ارتفع إلى أنفه. توجه (بويتا) إلى البيت. ولم يشعر بروما بعد ذلك.

Twitter: @ketab_n

مستقبل

المطر الذي انهمر من جديد بلّل الاثنين حتى الجلد، بينما كانا راكبين ببطء إلى الضيعة. ظهرت الشمس في الوقت نفسه آتية من الأفق مرة أخرى، وطوقت الغيوم الداكنة بإطار من ذهب سائل. السماء أشرقت بلونٍ أخضر باهت.

جلست زنوبيا بلا حراك، نعسانة أمام (بويتا) على السرج، ممتنة، أن سمح لها أن تستند إليه. لم تكد ترى «الفيلا»، التي ظهرت أخيراً بسقوفها الحمر، خلف شارع مشجر من الجانبَين بأشجار السرو والزيتون. البوابة في الجدار الأبيض العالي كانت مفتوحة. بصوتٍ عالٍ طقطقت حوافر الجواد على الموزاييك كأنين. أطفالٌ وكلاب في الداخل تراكضوا من غرف الخدمات إليهما، إلى أن وصلا البيت.

مرتجفة ومتشنجة من تحمُّلها للحدث المتعب. ترجّلت زنوبيا أخيراً، أي أن (بويتا) حملها بعناية كأنها لفة في حرير خام، إلى ذراع (بالا)، ثم قفزت في ذراعَي العبد العجوز إلى البيت. جاءت امرأة إلى المكان، وأمرت (بالا) منزعجة وبهمّة ليأخذ زنوبيا إلى غرفة نوم محددة، وبصوتٍ عالٍ طردت جمهور الأطفال الفضولي من الشبابيك، وأغلقت أجنحة الشبابيك أمام الليل الزاحف، و أوقدت مصابيح. منقل فحم متوهج مشتعل في الزاوية نشر ببطء دفئاً مريحاً. من دون كلام ساعدتها العجوز على خلع ملابسها: خشخشة يدي العجوز الجافة على يديها جعل زنوبيا تشعر بالخوف. ثم لُفّت في طبقات متعددة من القماش القطني، وأُجلِست على مضجع، حيث انتظرت ماء الحمام.

جرار برونزية تصاعد منها البخار نُقِلت إلى الداخل، فملأت حوض

Twitter: @ketab_n

الاستحمام البسيط أمام أقدام زنوبيا. عندما امتلأ حوض الاستحمام تركت الخادمات زنوبيا بناءً على رغبتها وحدها. وهكذا شعرت أيضاً بأنها وحيدة. على حين غرة يُسرق إنسان لم يخطر في بالها لأكثر من عشر سنوات إلّا نادراً. شعرت بالوحدة، كما لم تشعر بها مرة حتى في الساعات قبل موكب النصر. حزنت في حوض استحمامها على شابٍ، اختفت معه طفولتها ووطنها نهائياً. أثناء ذلك اختفى البرد بالتدريج من جسمها. استنشقت عميقاً العطر الدافئ لزيت الخُزامى، الذي أُضيف إلى الماء. في هذه الوحدة الجديدة لم يكن هناك إذلال ولا يأس، كما في الأسابيع المنصرمة. كان شعورٌ يشبه الشعور بالحرية، مثل الأمل في بداية جديدة. هذا كان بفضل الرجل الذي جلبها إلى هنا. خجلت زنوبيا أن تعترف بهذا إلى نفسها. مات (أودو) من أجلها، وقد ودّعته بكل الحزن الخالص، ألأجل أن تكرس نفسها لحب جديد؟ وهل أبعدته بهذه السرعة عن قلبها؟ (كليليا) و(لونجينوس)؟ كلا، قررت بخجل هادئ، أنا لستُ عاشقة في كل الأحوال. في الأكثر أنا شاكرة. طبعاً أنا شاكرة في النهاية، لقد انقذ حياتي، لكن بطريقة مختلفة، شاكرة للموقع الاجتماعي، الذي قدمه لي، للشعور بالاطمئنان الذي صار لديَّ في كنفه، للثقة الغالية التي منحها لي. آخ، وهذا التموج في البطن، عندما أفكر في تلك الليلة معه. تكورت باحثة عن حماية، فنزلت أعمق في الحوض، لكن الماء بدأ يبرد. أول رجفة برد بسيطة دفعتها إلى الخارج. كلا، خطر لها مرة أخرى، أثناء ما كانت تجفف نفسها بنشاط. أنا لستُ أكثر من شاكرة في كافة الأحوال. ملابس داخلية قطنية كانت مُعَدّة لها، وأتكٌ مقصّب من صوف ملون مفتوح عميقاً، كانت دافئة وبعطر الدخان. لا بد أن أحداً جلبها خفية، عندما كانت تستحم. لم يكن لون الزعفران، والبرقع الأحمر لم يكن هنا. لا بد أن العرس مؤجل.

بارتياح انزلقت في الألبسة الجديدة. كانت مناسبة لقياسها تماماً. مسحت بعرفان بالجميل على الديباج الأحمر الذهبي على الأكمام. كان لوناً أحبته وصار يشع دفئاً على بشرتها. فكرت، هل كان طبيعياً أن يكون لائقاً ورقيقاً. ثم نبهت نفسها لمراعاة الأصول. كيف وصلت إلى مثل هذا

Twitter: @ketab_n

الابتكار! لم تعرف هي الرجل مطلقاً. لا تعرفه تقريباً، أضافت محمرة. الليلة التي قضيناها سوية ما كان ممكناً احتسابها. ما الذي عرفته عن دوافعه؟

عندما دخلت بعد ذلك بقليل إلى غرفته، كانت بسيطة تماماً مثلما توقعت. لقد عرفت جوهره أفضل مما أرادت أن تعترف لنفسها به. جلس (بويتا) وكتب برأس منخفض. للحظة ذكرها مفرق الشعر الأسود على الجبين النبيل مجدداً بـ(لونجينوس). عدا أن الزلْفَين المشطّبَيْن قليلاً بالفضة سببا لها وخزة مؤلمة. سرعان ما وجّهت نظرها إلى أشياء لا تأثير لها. مصباح زيتٍ صغير أضاء مكتبه وعليه ظهر عدد من الملفات الورقية، تمثال نصفي لفرجيل. على أحد الحيطان كان، في نصف ظلام من الجهة الأخرى لدائرة الضوء، مشهد غير واضح لإله رعاة شاب، ملقى وسط غابة صغيرة، غارقاً في التفكير، عازفاً على الناي. بياض عينيه كعين الطاووس، مشرقاً بدا كأنه نظر في اللهب المتراقص.

تنحنحت زنوبيا. وقف (بويتا) فجأة ومشى بضع خطوات حول المكتب نحوها. أعطى إشارة ذكية متحيرة، ووجد بعدئذٍ بوضوح أن لا فائدة بعد هذا تُرتجى من يديه.

«جميلٌ جداً. أقصد الفستان». أشار في اتجاهها، وأحاط بيديه مفرق فرجيل مشتتاً. لم تُمسّد طيات القماش، كي تُلمّح إلى موافقتها.

«شكراً لـ...»، باشرت الكلام. وفي الوقت ذاته ابتدأ (بويتا) ثانية.

«لقد أجّلتُ مراسيم الاحتفال، لأن... عفواً»، وصمت.

«أجل»، ونظرت إليه وكلها أمل بذلك.

«لقد قاطعتُكِ»، وتنحنح.

«كلا، كلا. رجاءً»، رفعت يدها مطالبة.

«ظننت ببساطة أنه ليس الوقت المناسب بعد هذه.. الأحداث». توقف (بويتا) مثلما سكتت زنوبيا.

«اجلسي رجاءً. (أوتو) هذا كان صديقاً لكِ؟ كما قلتِ؟». أخذت زنوبيا مكانها بحذر على حافة السرير القريب.

«(أوتو)؟»، كانت مضطربة ثم أدركت. «أنت تقصد (أودو). كان يدعى

Twitter: @ketab_n

(أودو)». وتوقفت ثانية عن الكلام. انتظر (بويتا). «(أودو)، استأنفت الكلام أخيراً، «كان عبداً في إدارة شخصٍ اسمه (كليمنس)، تاجر حرير في تدمر في ما مضى. كنت طفلة، غالباً ما تركتُ البيت، وتجولتُ في أسواق المدينة، من دون علم أهلي، بلا هدف، حرية لم يسمح بها الناس للبنات بشكل عام عندنا. وهكذا عثر أحدنا على الآخر صدفة». ابتسمت معتذرة. (بويتا) أومأ لها مؤيداً، من أجل تشجيعها على الاستمرار في الحديث، سعيداً بالفرصة لتجاوز الرسميات بينهما. بدت زنوبيا لوهلة غارقة في ذكرياتها، ثم استأنفت، مما أراحه:

«عندما تعرفنا بعضنا إلى بعض كنت في الحادية عشرة؟ على كلٍ كنت ناضجة جداً. وكان هو في العاشرة. هكذا تقريباً. بالطبع كنت أنا من تولى القيادة. أوه، أحياناً وجدت هذا ثقيلاً، أن كان لي طفلٌ متعلق بأحضاني، وأخيراً كنتُ في السر بطلة مأسوية. لكن لو كنتُ من دونه، لكنتُ وحيدة. كان ودوداً ومخلصاً مثل جرو. أجل حقيقة. كانت له أغرب عينين زرقاوين رأيتهما أصلاً. لعله كان الصديق الحقيقي الوحيد الذي رأيته». رفعت نظرها كأنها تذكرت فجأة ثانية حضور غريبٍ. «لكنني أسبب لك الملل».

«كلا، كلا، حقيقة»، ردّ على بسمتها الصغيرة المدهشة. بل إني أتعرف إليكِ بعض الشيء. رجاءً واصلي الحديث». وعملت هكذا. أمام عينيه تشكلت بالتدريج صورة بعيدة، طفولة من الخارج. تعرف إلى (آتاي) و(زيمه) و(گاش). سار مع زنوبيا خلال شوارع مغبرة رائعة، توهجت ألوانها في الشمس. رأى الكلاب نائمة في الظل، حين كانت المدينة خالية من الناس في حر الظهيرة. وتابعها في الحُجر الكئيبة لمعبد (بل)، وفي بساتين النخيل، حيث الرمل الحار أحرق كعب القدم، إلى أن وصل المرء البساتين ذات التربة الغامقة، خلف سياج الحلفاء الضعيف، حيث نما البطيخ والأرضي شوكي والرمّان واللوز والمشمش. تسلل معهما ببطء في ذلك اليوم إلى النهر، عندما كانت غارقة في أحلام النهار ونهرت الصبي الثقيل: «غبي العبيد»!

كانت عينا (أودو) بركة زرقاء مذهلة، بدت وكأنها تكبر وتكبر وفاضت.

Twitter: @ketab_n

ولم يقل أكثر.

«هذا حقيقة بالتأكيد»، أضافت زنوبيا حين التفتت لتذهب، لكن ضميرها المثقَل نما بكل خطوة.

«توقفتُ، أتعلم»، توجهت زنوبيا إلى (بويتا)، «وعدتُ أنظر إليه، كان ما زال واقفاً هنا، اهتزّ بشهقة، بينما الدموع تساقطت من حنكه وأنفه. رفع منكبيه أمام وجهه، عندما رجعت إليه، لكني عندما أخذتُ ذراعه انقاد اليّ بكل استعداد. لم أره فعلاً قبل ذلك يبكي»، حتى بدأت الدموع تجري على وجهها. «آخ، اللعنة، صرتُ عاطفية. ولا أدري أيضاً لماذا أتذكر هذا الآن بالذات»، تنشقت هواء، لكن الدموع لم تتوقف.

«هذا يكفي»، تمتم (بويتا)، «كل شيء جيد. واصلي الحديث». فتح ذراعَيه فالتصقت به. «أتعلمين، لديَّ شعورٌ كأنني أعرف هذه البنت التي تتحدثين عنها. بالتأكيد حَمَلَت كميات كبيرة من الجدائل الطينية والأشرطة الحمراء داخلها».

«أجل»، نظرت إليه زنوبيا مندهشة، «من أين تعلمُ هذا؟»، بدلاً من الإجابة ضمها إليه بشكلٍ أكثر راحة إلى كتفَيه، واصلت الحديث. «وقدتُهُ إلى مكاننا المحبب، بين الأدغال عند حفرة السقي. فستاني تبلل عند الكتفَين. وتصورتُ نفسي كأُم»، شهقت مجدداً، وبحث (بويتا) عن منديل، بينما استمرت في الكلام.

كانت بقعة مريحة، تلك التي اختارها الأطفال مستقرّاً لهم، توسّعت حفرة الماء إلى نهرٍ صغير. أدغال زاهية وأشجار ليمون عصفت بها الريح فاخفتهم عن الفلاحين، الذين أصلحوا الأرض من بعدهم. شقوق في الأحجار تشعبت كثيراً، قادت الماء من النهر إلى هناك، وحوّلوا المخبأ المُهمَل إلى ما يشبه الجزيرة.

تحدث (أودو) أحياناً عن النهر الأعرض بكثير، والشاطئ المرتفع بالعشب الطويل في وطنه، عن الماشية التي كان يقودها مساءً إلى خور الماء لتشرب، وعن أكواخ الطحالب في الغابة، حيث جلس مع أصدقائه ليترصدوا ملكة الأرانب. الآخرون بحثوا عن رؤوس سهام، أما (أودو) فكان

Twitter: @ketab_n

يكافح ضد الزمن، تمنى هو أيضاً لو أن عمره ساعده على الصيد معهم، غير أنه بعدئذٍ أتى الروم وقتلوا كل أصدقائه. كل قصص (أودو) انتهت هكذا»، واصلت زنوبيا، «تلمستُ يده لأمسّدها، وحاولتُ أن أبعث فيه الفرحة ثانية، ووعدته بالسماء الزرقاء وبفرس قزم، عندما أكون ملكة، وإننا سنزحف سوية ضد الروم..»، ضحكت حزينة، عندما رأته، «شيءٌ لا يكاد يُصدّق، أليس كذلك؟ لكننا الإثنين استطعنا في ذلك الوقت أن نهزم دولة الروم ونحن حُفاة». لم تستطع أن تواصل الكلام.

انتظر (بويتا) إلى أن انتهى تشنُّج النبيذ بتنهيدة عميقة ليدير وجهها إليه. أصابعه داعبت برقة كل مفردة، أنفها المرتفع بشموخ وخط الفم الطويل وحاجبيها الكثيفين وأهدابها السوداء المقوسة.

هنا ظهرت أمام عينيه، وفي داخله ثانية، صورة الميت وعيناه الطفوليّتان الكبيرتان المفتوحتان ألماً ودهشة. سَمِع صوت زنوبيا ثانية. «كانت عنده أشدّ زرقة عيون رأيتها أصلاً». وكان هذا صحيحاً. مساء اليوم هذا وكأن عينيه الميتتين عكستا السماء.

تسارع نبض قلبه، وتنحنحَ وفتح فمه، غير أنه أغلقه ثانية، ثم تنفس عميقاً؛ كان لا بد أن يسأل ببساطة:

«(أودو) كان الرجل ذا العينين الزرقاوين، الذي توقعتِ أنتِ صباح اليوم رؤيته عند الاستيقاظ؟»، وجه زنوبيا صار أحمر كالجُمان، عند تذكيرها المفاجئ بهذا الصباح. إذ بالنسبة إليها صار بعيداً، وقد نُسي تماماً.

«كلا»، هزت بقوة رأسها الذي كان منخفضاً. في الثواني التالية لم يبدُ لها شيءٌ أكثر أهمية من الفراش. «كلا»، كررت أخيراً. «لم أفكر في (أودو)». وبعد توقُّف أطول نظرت في عينيه وأضافت «لم أُفكر في أي أحدٍ كان يعني لي شيئاً».

فكر (بويتا). ما قالته بدا صحيحاً وقد صدّقها. الظاهر أنه ما عاد له الحق في أسئلة أخرى. رغم ذلك.....

وتنفس عميقاً مرة أخرى، فلاحظ أنها ثَقُلت في ذراعه. كانت زنوبيا غافية، تنهد. ثم ذهب معها بهدوء إلى الفراش. ومدّ يده الخالية إلى الغطاء،

Twitter: @ketab_n

الذي سحبه عليهما، ودفن أنفه في شعرها المغسول من وقت قصير.

لقد كان، كما تبين هو، راضياً ونعسان جداً، حتى أنه غفا تقريباً، عندما قبّل حاجبيها وهمس:

«وكدتم تحققون ما أردتم، (أودو) وأنتِ».

استيقظ (بويتا) متأخراً في الصباح، إثر طرق على الباب. كان (بالاس).

«أيها السيد، الرسول عاد من روما»، همس بصوت مسموع. (بويتا) أومأ وأفهم الخادم العجوز بإشارات، أنه سينهض ويأتي وراءه. ثم مسح على شعر زنوبيا الأسود المنكوش. وهكذا بينما كان يبتعد عنها، كان يرى فيها ثانية، أكثر من أي مرة سبقت، الطفل الذي في حلمه. لم تتحرك، عندما نهض، غارقة في الوسائد المنفوشة. وكأن لا شيء في الدنيا يوقظها. ترك الفراش وتناول الروب النظيف.

غادر غرفة النوم بهدوء، واستقبل الرسول المنهك في غرفة الطعام. أمر الرجل بعد الرحلة المتعبة أن يتناول الطعام، وأدار له شخصيا نبيذاً أحمر حاراً بالعسل، في الكأس الذي أمسك به (بالاس)... بعدها شبك يديه وأنصت.

(أورليان)، هكذا فهم، رفض رفع دعوى ضد ضابط له إنجازات، بسبب حادثة، لم يحدث فيها شيء سوى أن بضع عبيدٍ فقدوا حياتهم. ولقد بعث (بالبوس) في الليلة نفسها على سفينة أقلعت إلى شمال أفريقيا. هناك في الكيرَنايكا سيستلم واجبه كنائب آمر للفيلق العاشر. تذمر (بويتا) بهدوء، الرجل نالَ ترقية. ثم أتى الطعام، وبقية الأحداث سمعها أثناء المضغ والبلع.

(إيليا دروسيلا) اختفت، حسبما روى الجيران. كانت قد غادرت على السفينه نفسها، بحسب تصريحات لها أرادت أن تنتشر وراءها، من أجل أن تتبع الرجل الذي ادّعت أنه خطيبها. محاموها بدأوا تصفية أملاكها وتحويلها إلى نقود.

«يرسل إليكم القيصر هذا، كهدية عرس، وكعربون تقدير لكم»، مسح

Twitter: @ketab_n

الرسول يده بعناية بالمنديل القطني الكبير ومدّ يده إلى داخل معطفه، فأخرج صندوق مصوغات صغير من عاج مغلف بالديباج. فتحه (بويتا). قلادة ثقيلة بعرض اليد من لآلئ وأحجار كريمة مطعمة بالبلور موضوعة فيه، صنع مصر.

«الحجر في العين الحامية للآلهة هو زفير أصلي»، أوضح وفي صوته احترام ظاهر. (بويتا) جعل عين آديات في مركز القلادة، وأنزلها في طبقٍ صغير، وخمن وزنها.

«الزفير» تمتم.

«من أجل الحب الأبدي»، كان رأي الجالس أمامه. «هدية عرس مناسبة».

«ولصداقة أبدية»، قال (بويتا) محدثا نفسه أكثر. الهدية المناسبة لشخص قد خانه أحدهم. رهنٌ للمستقبل. وضع المصوغة المخشخِشة في الصندوق وأخذها.

«حسناً، شكراً، أظن أننا لا نحتاج إلى أن نتخذ في الموضوع أي إجراء. أنا أذهب غداً إلى المحامي لأخبره بنفسي بالتعليمات المناسبة»، أومأ الرجل، ودفع كرسيه إلى الوراء وغسل بجرعة أخيرة من النبيذ الأحمر ما علِق بعد وجبته، بلع، نهض وانصرف. نادى (بويتا) (بالاس) ورجاه أن يحرص على الصندوق الصغير. أين؟ في أي مكان؟ ثم قفل راجعاً إلى غُرَفه، ليغيّر ملابسه.

لقد اشتاق إلى حديقته، التيار الدافئ الذي هبَّ من الشباك أنبأه بأن الشمس حتى حلول الظهر قادرة يوم الخريف المنعش أن تبعث فيه الدفء مرة أخرى. عدا الظلال بين الشجيرات في الحديقة الحجرية، فربما بقيت باردة. جفّت الأرض ثانية، ونشرت بضع نحلات متأخرة طنيناً في الأحواض عند البيت. من غرف الخدمات جاء صوت غناء وخشخشة عصارة الزيتون. غير أنه نادراً ما جلبت هبة ريح خفيفة العطر إلى هنا. سمع حركة في الفراش فاقترب. استيقظت زنوبيا ونظرت إليه.

«صباح الخير»، قالها مبتسماً وانحنى فوقها.

Twitter: @ketab_n

«صباح الخير»، تمتمت رادة عليه باختصار، والنعاس يداعب عينيها. ثم بدا لها كأنها رأت وجهه للحظة مزدوجاً، وكأن كلا الصورتين اقتربت ثانية بعضهما إلى بعض وتوحدتا.

«لقد حلمت بك»، قالت بصوت نمَّ عن دهشة.

«حقيقة؟»، ردَّ عليها بودّ.

«أجل، كنت قادمة من كهف، وكان في انتظاري أسدٌ مشى إلى جانبي. لكن أناساً كثيرين وقفوا عند الطرف الآخر من الصحراء، ورفعوا قبضاتهم وصرخوا، لم أفهم شيئاً، لكنني عرفتُ أنهم كانوا يهددونني. وبعد ذلك فجأة مشيتُ في اتجاه بستان، عمل فيه رجل. ناديت اسمه. لكنني لم استطع سماع ما ناديت. عندما وقفت أمامه، رفع رأسه. فكنتَ أنت».

«أحقيقه؟»، سأل (بويتا) مرة أخرى. وبحذر جلس عند حافة الفراش وأخفى يديه المرتجفتين تحت الغطاء. ماحدّثته به، قد كان حلمه هو. كيف كان مثل هذا ممكنا؟

«خسارة»، كشف أخيراً، «أنكِ عرفتِ بستاني المحبب إليّ جداً الآن. كنت أريد اليوم في الحقيقة أن أفاجئكِ به. هناك بضع نبتات من وطنكِ فيه». شيء يشبه الأمل استقر في صوته. «كيف يمكن أن يكون هذا. أن تحلمي هذه الليلة بشيء لايمكن أن تعرفيه بعد؟».

«كلا»، هزت زنوبيا رأسها، «أنت لا تفهم هذا: أنا لم أحلم بهذا لأول مرة. عندما كنت طفلة، أعطتني خادمة الحمام شراباً، من أجل أن أرى في المنام مستقبلي؛ لقد كانت عرّافة ومفسرة أحلام، وامرأة تفهم في الطب، وحكيمة جداً». توقفت زنوبيا قليلاً.

مرّت (أومة) أمام عينيها، بجسمها الهائل وضحكتها المدوية. (أومة) في الغرفه المليئة بالأسرار لبيت الحمّام الحاوي على ألف صندوق صغير وجارور، أعدّت فيها خلطاتها. (أومة) التي شرحت لها الحب وولدتها طفلها. أين كانت (أومة)؟

«أعطتني شاياً مرّاً لأشربه، نومني، قلب ببساطة كل كياني». اضطرت أن تضحك عند هذه الذكرى في ذلك المساء. «وما حلمته، كان بالضبط نفسه ما

Twitter: @ketab_n

حلمته الليلة. رأيتك تقف في البستان. إلا أنني لم أكن قد عرفتك آنئذ بعد».
هزت كتفيها.

«لماذا تضحكين؟»، سأل (بويتا). في داخله أيضاً نما شعور كبير بالسعادة.

«أنا لا أدري»، قالت وضحكت مرة أخرى، سعيدة ومتحررة. (بويتا) ضمّها في ذراعيه، وأعادت هي الإشارة بكل إخلاص. وبكل فرح دافئ قال:

«كان هذا فعلاً حلماً نادراً ومدهشاً. أوه، ما هذا؟»، فرك رقبته.

«أوه، معذرة. كان هذا سواري. إنه غليظ نوعاً ما، أنظر». أمسكت له التشكيلة الراقصة البرونزية حول معصمها.

«قطعة غريبة»، تمتم (بويتا) وقلّب السوار باهتمام. «بربري لكن لا يخلو من جرأة، ألهذه الأشكال معنى؟».

«لها قصة طويلة»، أجابت زنوبيا، «قديمة قدم البشر. تتناول الرجال والنساء. إذا كان يعجبك، أرويها لك مرة». وطوقته بذراعيها ثانية. رأى (بويتا) من فوق كتفيها، أن الشمس قد أشرقت بكل ما فيها من قوة.

يوم خريفٍ جميل كان في انتظارهما. تحية، (أودو)، أنا هنا قادمة مرة أخرى. كل شيء جاهز من أجل رحلتنا إلى صقلية. العربات في الانتظار، وسوف لا نعود، إلّا بأفكارنا. زوجي، هذا هو منذ اليوم، وأنا أسميه بفرح هكذا، لقد تخلّى من أجلي عن وطنه. وسنبذل جهدنا، أن نجد لبعضنا وطناً جديداً، من دون أن ننسى بذلك ماضينا. سأتمسك دائماً بذكراك، (أودو)، بقلبي وبريشتي، إذ إن (لوسيوس)، زوجي، اقترح عليَّ أن أكتب تاريخ تدمر. في البداية ترددت؛ كيف عليّ أن أروي للناس عن أيامنا بعد الظهر في الغرفة المغبرة الصغيرة للمعبد، عن دفء (كليليا) وفكِر (لونجينوس) الذي لم يمكن تطويعه. وعن اليوم في واحة النخيل في شدة حرارته، قررت أن روما من الماضي! (لوسيوش) يعتقد أني عرفت الأسباب والعواقب، بالنسبه إليه، السبب هو شيء مهم، ثابت ومضلع مثل مفتاح يلائم قرار التدوير، ليفتح بالضغط تلك الغرف، التي تمنى المرء رؤيتها. غير أن الأمر ليس

Twitter: @ketab_n

بهذه البساطة. حساب الاحتمالات، ثقة أسيء استخدامها، غريزة، مزاج، جنون العظمة، نحن جميعاً رمينا شباكنا هادفين، غير أننا عثرنا بالصدفة على طرق تمتد أمامنا إلى طرق أعرض، تصدم التاريخ بالزمن، شارع شيد لقضاء حاجات الأحياء.

لو أستطيع أن أجعل منكم أحياء ثانية. أنتم الذين فكرتم وعملتم، (لونجينوس) و(فيرموس)، أنت... لكان بالإمكان أن يتحقق جلاء أكثر للأمور. ربما لهذا أشعر بذنب تجاهكم جميعاً.

ابنتك تحمل الاسم أورليا. أمها ... آخ لنصمت على هذا، إنها ليست ما توقعته. ولم يكن اسمها الذي ناديته أنت في لحظاتك الأخيرة، أليس كذلك، وإنما آخر: (ليفيا). لقد استفسرت، لكن في كل إدارة بيت (إيليا دروسيلا) لم تكن توجد هناك فتاة، سميت هكذا و... غير أنهم ينادونني إلى العربة، يجب أن أذهب . وداعاً يا صديقي، وداعاً.

Twitter: @ketab_n

الفهرس

مدخل 8

1. المدينة

نزهة سرية 10
فـرّق تسد 19
أحلام 31
(بالبوس) ينشط 39
ساعة (أودو) 47
مسيحيون فيما بينهم 56
خطط لزنوبيا 63
(بالبوس) ينطلق على حصانه 74
المهمة الفارسية 84
خبرات جديدة 96
أبراج القبور 110
ما يأتي به المستقبل 118
احتفال الآلهة والخيول 126
الأمير الذهبي 141

2. الأمير

استراتيجية 162
عطر العريسَين 170
زيارة إلى أميرة 186
كليليا 197
موت (سنديكوس) 207
رسائل 214
دروس في اللاتينية 228
الضربة 238
خيانة 255
«بات زاباي» 262

3. الدولة

الضيعة 284
مصالح حكومية 294
مطر في روما 302
احتفال من أجل الاسكندرية . 307
بدو رُحّـل 314
الحملة العسكرية 324
وأين يختفي...؟ 339
عاهر بابل 349
العودة إلى الوطن 368

4. الحب

المرأة في الهودج 383
الحرب تقترب 393
محاصَرون 402
حدثوني بشيء جميل 416
أسيرة 423
ليفيا 431
موكب النصر.................. 442
مثل كليوباترا سابقاً 455
عندما يستيقظ النوَّم 463
المبارزة الأخيرة 474
مستقبل 484

Twitter: @ketab_n

آداب

رواية

تيسا كورْبَر

ملكة القوافل

رواية تاريخية غنية بالخيال، موضوعها حياة ملكة تدمر التاريخية "زنوبيا" التي حكمت في مدينة تدمر الصحراوية من عام 267 إلى 273 م وفتحت سوريا ومصر في محاولة للاستقلال عن الروم إلى أن دمر الرومان مدينتها.

تُصوِّر هذه الرواية لكاتبة ألمانية شابة (تيسا كوربر) حياة الملكة الشهيرة بناءً على معرفة عميقة لم يسبق أن تداول كتاب أو فيلم حياة زنوبيا بهذا القدر من الحيوية والخيال الذكي، آخذاً بعين الاعتبار الكثير من الشخصيات التاريخية التي عاشت حقاً آنذاك. ان ترجمة الكتاب ستثير اهتمام جمهور القراء بتاريخ سوريا وفترة حكم الرومان للمنطقة، كما ستقدم للجمهور العربي أمتع الروايات التاريخية التي ألفت باللغة الألمانية عن أحد أهم المواقع الأثرية في الشرق الأوسط.

ISBN 978-9948-15-210-1

9 789948 152101

EAST WEST PUBLISHING

شرق غرب للنشر